من صِحاح

الأَحادِيْثِ القُدْسِيَّةِ

مئة حَدِيْثٍ قُدُسِيٍّ مَعَ شَرحِهَا

بقلم
محمّد عوّامة

دارُ اليُسرِ
دارُ المِنهاجِ

من صحاح

الأحاديث القدسية

مئة حديث قدسي مع شرحها

حقوق الطَّبع محفوظة
www.awwama.com
ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو نسخه، أو حفظه في برنامج حاسوبي، أو أي نظام آخر يستفيد منه إرجاع الكتاب، أو أي جزء منه، إلا بإذن خطي مسبق من المحقق لا غير.

الطَّبعة السَّابعة
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

دار المنهاج للنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
هاتف: 806906 05 - فاكس: 813906 05

الموزعون المعتمدون

○ المملكة العربية السعودية
جدة مكتبة دار كنوز المعرفة هاتف 6570628 - 6510421
مكة المكرمة مكتبة الأسدي هاتف 5570506 - 5273037
المدينة المنورة دار البدوي هاتف 0503000240
الرياض دار التدمرية هاتف 4924706 - فاكس 4937130
○ الجمهورية اليمنية
مكتبة تريم الحديثة - حضرموت هاتف 417130 - فاكس 418130
○ الإمارات العربية المتحدة
حروف للنشر والتوزيع - أبو ظبي هاتف 5593007 - فاكس 5593027
○ دولة الكويت
مكتبة دار البيان - حَوَلي تلفاكس 22616490 - جوال 9952001
○ جمهورية مصر العربية
دار السلام - القاهرة هاتف 22741578 - فاكس 22741750
مكتبة نزار الباز - القاهرة هاتف 25060822 - جوال 0122107253
○ الجمهورية اللبنانية
مكتبة التمام - بيروت هاتف 707039 - جوال 03662783
○ المملكة المغربية
دار الأمان - الرباط هاتف 0537723276 - فاكس 0537200055
○ مملكة البحرين
مكتبة الفاروق - المنامة هاتف 17272204 - فاكس 17256936
○ جمهورية داغستان
مكتبة دار الرسالة - محج قلعة هاتف 0079285708188
○ الجمهورية العربية السورية
دار السنابل - دمشق هاتف 0988156620 - فاكس 2237960
○ المملكة الأردنية الهاشمية
دار محمد دنديس - عمّان هاتف 4653390 - فاكس 4653380
○ جمهورية أندونيسيا
دار العلوم الإسلامية - سوروبايا هاتف 0062313522971
○ جمهورية فرنسا
مكتبة سنا - باريس هاتف 0148052928 - فاكس 0148052997
○ إنكلترا
دار مكة العالمية - برمنجهام هاتف 01217739309
○ الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إستانبول هاتف 02126381633
○ الولايات المتحدة الأمريكية
مكتبة الإمام الشافعي - جورجيا هاتف 0017036723653

E-mail: info@alminhaj.com   www.alminhaj.com

دار اليسر للنشر
المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية
الموقع الإلكتروني: www.dar-alyusr.com   للمراسلة على البريد الإلكتروني: info@dar-alyusr.com
ISBN: 978 - 9933 - 503 - 12 - 3

مِنْ صِحَاحِ

الأَحَادِيثِ القُدْسِيَّةِ

مِئَةُ حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ مَعَ شَرْحِهَا

بقلم

محمّد عوّامة

دارُ اليُسْرِ

دارُ المِنْهاجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة الطّبعة السّابعة

الحمد لله وكفىٰ ، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد المصطفىٰ ، وعلىٰ آله وأصحابه ومن بهديهم اقتفىٰ .

وبعد : فهٰذه هي الطبعة السابعة من هٰذا الكتاب : « من صحاح الأحاديث القدسية » ، أرجو الله عز وجل أن يتكرم عليَّ بقبوله ، وتعميم النفع به .

ومن عادتي في إعادة طبع الكتاب : أن أستدرك ما نَدَّ من فَرَطات مطبعية ، وأن أزيده فوائد وتصحيحات علمية ، وتنبيهات عامة أو خاصة ، لٰكني في هٰذا الكتاب لم أفعل من هٰذه الزيادات والفوائد شيئاً ؛ حرصاً مني علىٰ أن يبقى الكتاب علىٰ حجمه الذي هو عليه ، ولا يزيد ، فتضعف الهمة عن الاستفادة منه كما ينبغي .

فليس في هٰذه الطبعة من الزيادة عن سابقتها إلا استدراك تصحيح أحرف مطبعية كان مني ومن الإخوة العاملين في مكتب دار المنهاج جزاهم الله خيراً .

وأسأل الله تعالى السداد والتوفيق لما فيه خير الدنيا والآخرة .

وكتبه
محمّد عوّامة

إصطنبول ١٠/١٠/ ١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعة الرّابعة والخامسة

الحمد لله رب العالمين على مزيد نعمه وآلائه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم رسل الله وأنبيائه ، وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين ، وآله وأصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فهٰذه الطبعة الرابعة والخامسة لكتاب « من صحاح الأحاديث القدسية » الذي جمعت فيه مئة حديث قدسي صحيح ، مع شرحها ، وقد سبق هٰذه الطبعة طبعتان كانتا تصويراً للطبعة الأولى مع التصحيح المطبعي لبعض الكلمات .

وتمتاز هٰذه الطبعة بعناوين إجمالية لكل مجموعة منها ، مع زيادات مهمة في شرح بعضها ، وزيادات تكميلية لبعض آخر منها .

والله تعالى هو المسؤول أن يمنَّ علينا بالعفو والمغفرة ، والقَبول ، وخدمة ما ينفع عامة المسلمين وخاصتهم ، إنه سميع قريب مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قاله وكتبه
محمّد عوّامة

المدينة المنوّرة ٢٠ / ١٠ / ١٤٢٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، الرحمـٰن الرحيم ، العفوِ الغفور ، المنعِم المتفضِّل ، ذي الجلال والإكرام ، والطَّوْل والإنعام ، له الأسماءُ الحسنىٰ ، والصفاتُ العُلا ، تعالىٰ فاتصف بكل كمال يليق بجلاله ، وتقدَّس فتنزَّه عن كل نقصان لا يليق بكماله ، فسبحانه من إلـٰه عظيم عَنَتْ لعظمته الوجوه ، وخَضَعت له الرقاب ، وسَجَدت له الجِباه .

والصلاةُ والسلامُ الأتمان الأكملان علىٰ سيدنا محمد النبيّ الأميّ ، العربي الهاشمي ، الطاهر الزَّكيّ ، الذي أوحىٰ إليه الله عز وجل بصنوف الوحي ، فبلَّغ عنه بجميع وجوه التبليغ ، فأدَّىٰ بذٰلك الأمانة ، وبلَّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأرشد الناس إلىٰ خير الدنيا والآخرة ، فصلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه ومحبِّيه صلاةً وسلاماً زاكيَيْنِ دائمين بدوام ملك الله العظيم ، وعلينا معهم يا أكرم الأكرمين .

أما بعد : فإن الأحاديث القدسية تكلَّلَتْ بالنُّورَين : نورِ الكلام الإلـٰهي ، ونورِ البلاغ المحمدي ، وإن المكثر من قراءتها ، والمُمْعِنَ في فهمها ـ ولو قَدْرَ مجلسٍ واحد من مجالس سَمَره ـ يَشعُر بروحانية خاصة تتخلَّل قلبَه ، وبقدسية وجلال يَعْلُوان روحَه ، لا يُحسُّ بمثلها في مواقفَ أخرىٰ مرَّت به ، ولو أن القارئ الكريم قام بذٰلك ، فقرأ الأحاديث

من هٰذه المجموعة ، متصلةً غير متفرقة ، في مجلس واحد ، لشعر بما أَصِفه له .

ذٰلك أن جُلَّ الأحاديث القدسية تتحدَّث عن صفات الله العليَّة : من تفضُّله علىٰ عباده بالعطاء والرحمة والمغفرة ، ومن غِناه عنهم وافتقارهم إليه ، ومن إقباله علىٰ من أقبل إليه ، ولُطفه بمن أعرض عنه .

ومن حديثٍ عن بعض مخلوقاته الكريمة ، كالملائكة ، وصِلَتهم بعباده ، ومن إبرازه لهم بعضَ أعمالِ عباده بالفضل العظيم ، والثواب الجسيم .

وفيها الكثيرُ من الحديث والشرح لمواقف عوالم الآخرة المغيَّبة .

فيتنقَّل القارئُ المتوجِّه بقلبه من عالَمٍ أرضي دنيوي ، إلىٰ عالَمٍ رفيع عُلوي ، يحسُّ بأن الله يناديه ، فهو يناجيه ؛ يناديه : يا عبادي ، يا عبادي ، فيناجيه : يا رب ، يا رب ! .

يسمع العبدُ أن الله أعدَّ لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بَشَر ، فيدعوه ويَضْرَع إليه : يا ربِّ اجعلني من عبادك الصالحين .

يسمع العبد قولَ الله تعالىٰ : « أين المتحابُّون بجلالي ؟ » فيسرع ويقول : أنا يا رب مع فلان وفلان .

يتعطَّف الله تعالىٰ علىٰ عباده فيناديهم سَحَرَ كل ليلة : « هل من مُستغفِر فأَغفِرَ له ؟ هل من تائب فأتوبَ عليه ؟ هل من مسترزِق فأَرزُقه ؟ هل من مبتلىً فأُعافيَه ؟ هل من كذا ؟ هل من كذا ؟ » فيأخذُه الخَجَل والوَجَل : كيف يتعرَّض المولى العظيم الجليل لعباده بالمغفرة والتوبة ،

والـرِّزق والمعافاة . . . وأنا غافل نائم !! كيف يناديني الله وأنا عنه معرض !! كيف أشُحُّ على المحتاجين وأخشى الفقر ، واللهُ تعالىٰ يقول لي : « يا عبدي أَنفِقْ أُنفِقْ عليك ؟ » فهو يضمن ليَ العطاءَ والخَلَف ـ وهو ملك الملوك ـ وأنا أخشى الفقر من بعد البذل ؟! .

وهٰكذا تكون المناداة والمناجاة ، والتوجُّه والمبادرة ، والسموُّ بالروح والقلب . . .

ثم إن التحدُّث عن ذات الله وصفاته أمرٌ تضيق عنه الألَسُن البشرية ، خشيةَ أن تَزِلَّ في الحديث عن الله فتصفَه بما لا يُرضيه ، فتأتي الأحاديث القدسية تُعبِّر عن الله بكلام منه سبحانه ، ولا أَصدقَ ولا أَكملَ من التعبير عن الذات المقدَّسة بمثل كلام الله .

❁ ❁ ❁

وهٰذه مئةُ حديثٍ قدسي ، أكرمَ الله تعالىٰ وتفضَّلَ بالتوفيق إلىٰ جمعها ، وتخريجها ، وشرحها ، وسأعرِض للمنهج في ذٰلك بعد الحديث عن ثلاث مسائل :

١ ـ تعريفِ الحديث القدسي .

٢ ـ وشرحِ بعضِ مسائلَ علمية تتعلَّق به .

٣ ـ ثم الحديث عن أشهر المؤلَّفات فيه المتداولة .

١ ـ تعريف الحديث القدسي

الحديث القدسي : هو كلُّ قولٍ صريحٍ يرويه النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل .

وأصل هٰذا التعريف لشيخنا العلَّامة العمدة الحافظ الشيخ عبد الله سراج الدين ، المتوفىٰ سنة ١٤٢٢ رحمه الله تعالىٰ [١] ، قال : « هو الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالىٰ » ، وقولي : « كلُّ قول صريح » : هو توضيح لقوله رحمه الله : « هو الذي » .

وفي هٰذا التعريف أربعة قيود يُحتَرَز بها عن غيرها :

الأول : القول ، خرج به الفعل ، فحديث البخاري في كتاب الأدب [٢] : « جَعَل الله الرحمة في مئة جزء ، فأمسكَ عنده تسعةً وتسعين جزءاً . . . » : هٰذا حكايةُ فعلٍ لله عزَّ وجل ، لا يدخُل في مسمَّى الأحاديث القدسية ، ونحوُ هٰذا كثير .

الثاني : الصريح ، خرج به القولُ غيرُ الصريح ، كقوله صلى الله عليه وسلم ـ في حديث البخاري [٣] ـ : « . . . أُوحيَ إليَّ أنكم تُفْتَنونَ في قبوركم مثلَ ـ أو قريبَ ـ من فتنة المسيح الدجال . . . » ، وقوله في حديث مسلم [٤] : « إن الله أَوحىٰ إليَّ أنْ تَوَاضَعوا ، حتىٰ لا يَفْخَرَ أحد علىٰ أحد ، ولا يَبْغيَ أحد علىٰ أحد » ، أما إذا ورد : أوحى الله إليَّ ، أو : إلىٰ إبراهيم ، أو : إلىٰ موسى : افعل ، كذا ، ونحوه : فهو قدسي .

ونحو هٰذا في عدمِ الصراحة : بعضُ الأحاديث الوارد فيها : فَيُنادي

---

(١) في « شرحه على المنظومة البيقونية » ص ٢١ .

(٢) ١٠ : ٤٣١ (٦٠٠٠) .

(٣) ١ : ١٨٢ (٨٦) .

(٤) ٤ : ٢١٩٨ (٦٤) .

منادٍ ، أو : فيقال ، كحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم [١] : « إنكم محشورون حفاةً عُراةً غُرْلاً . . . ، وإنه سَيُجاء برجال من أمتي ، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشمال ، فأقول : يا رب أُصَيْحابي ! فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » ، وسيأتي الكلام علىٰ هٰذا المثال آخر هٰذه المقدمة [٢] .

الثالث : يرويه النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج به ما كان من رواية غيره صلى الله عليه وسلم ، كالذي يُنْقَل في الإسرائيليات ونحوها ، ولو صحَّ سنده ، وكالحديث الذي ذكره الشيخ محمد المدني في آخر كتابه « الإتحافات السنية » [٣] : « عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : حُدِّثتُ أن موسىٰ ـ أو عيسىٰ ـ قال : يا ربِّ ما علامةُ رضاك عن خلقك ؟ فقال الله عز وجل : أَنْ أُنزِلَ عليهم الغيث إبَّانَ زرعهم . . . » ، فهٰذا لا يعدُّ قدسيّاً بحالٍ ما .

وكذٰلك لا يعدُّ قدسيّاً إذا كان من رواية صحابي عن كتابٍ من كتب الله السماوية ، كحديث البخاري [٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص في صفة النبي صلى الله عليه وسلم : « أجَلْ ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرْزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي . . . » .

---

(١) البخاري ٦ : ٣٨٦ (٣٣٤٩) ، ومسلم ٤ : ٢١٩٤ (٥٨) .

(٢) ص ٣٠ .

(٣) برقم ٨٦١ .

(٤) ٤ : ٣٤٣ (٢١٢٥) .

الرابع : أن يكون عن الله عز وجل ، أما ما كان من روايته صلى الله عليه وسلم عن ملَك من الملائكة ، أو عن جبريل عليه السلام ، فلا يعدُّ قدسيّاً أيضاً ، كحديث بدء الوحي مثلاً[١] .

٢ ـ شرح بعض مسائل علمية تتعلق به

أ ـ هل يشترط ليكون الحديث قدسيّاً أن يُصَدَّر بـ : قال الله تعالىٰ ، أو : إن الله تعالىٰ قال ، أو : يقول الله تعالىٰ ؟ أو لا يشترط ، كما هو الحال في أحاديثَ كثيرةٍ مفتَتَحة بكلام للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويَرِدُ في أثنائها أو في آخرها جملةٌ منسوبةٌ لله عز وجلَّ ؟ .

مثلُ حديثِ مسلم[٢] : « ما من يومٍ أكثرَ من أن يُعتقَ الله فيه عبداً من النار : من يومِ عرفةَ ، وإنَّه لَيدنو ثم يُباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هـٰؤلاء ؟ » .

والجواب : أن الكلَّ يُسمَّىٰ قدسيّاً ، وقد تتبَّعتُ كثيراً فلم أرَ نصّاً علىٰ ذٰلك ، وسألتُ عدداً من شيوخي الكبار فاختلف عليَّ جوابهم ، ثم رأيتُ الحافظ ابن حجر رحمه الله قال في « الفتح » جملةً صريحةً في أن الكلَّ قدسيٌّ .

قال البخاري رحمه الله في « صحيحه »[٣] : « باب قول الله تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح : ١٥ » ، وأورد تحته سبعةَ عَشَرَ حديثاً ، الخمسةُ الأولىٰ منها قدسيةٌ ؛ وهي :

(١) انظر ما يأتي عن كتاب « اللجنة الأزهرية » ص ٢٦ ، و« المقاصد السنية » ص ٢٨ .

(٢) ٢ : ٩٨٣ (٤٣٦) ، وسيأتي شرحه برقم (٤٣) .

(٣) ١٣ : ٤٦٤ الباب الثالث من كتاب التوحيد .

١ ـ « قال الله تعالىٰ : يُؤْذيني ابنُ آدم ، يسبُّ الدهر . . . » .

و٢ ـ « يقول الله عز وجل : الصومُ لي ، وأنا أَجزي به . . . » .

و٣ ـ « بينما أيوبُ يغتسل عُرياناً خَرَّ عليه رِجْلُ جَرَاد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه ، فناداه ربُّه : يا أيوب . . . » .

و٤ ـ « يتنزَّل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخِر ، فيقول : مَن يدعوني . . . » .

و٥ ـ « نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة . . . قال الله : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك » .

قال الحافظ رحمه الله بعد أن تكلَّم بإيجاز عن الحديث الأول(١) : « وهو من الأحاديث القدسية ، وكذا ما بعده إلىٰ آخر الخامس » ، وأنت ترىٰ أن بعضَها ـ وهو الحديث الأول والثاني والخامس ـ مصدَّر بنسبته إلى الله عز وجل ، وبعضَها ـ وهو الحديث الثالث والرابع ـ ليس كذٰلك .

ب ـ وهل الحديثُ القدسيُّ لفظُه ومعناه من الله عز وجلَّ ؟ أو لفظه من النبي صلى الله عليه وسلم ومعناه من الله تعالىٰ ؟ .

ذهب بعض أهل العلم إلى القول الأول ، وذهب الجمهور إلى الثاني ، وإليك البيان :

أَقدمُ مَن وقفتُ علىٰ نقلٍ عنه ـ من الجمهور ـ : هو العلامةُ الطِّيبيُّ المتوفَّىٰ سنة ٧٣٤ رحمه الله تعالىٰ ، قال في شرحه علىٰ « مشكاة المصابيح » المسمَّى « الكاشف عن حقائق السنن » ، آخر شرحه

---

(١) ١٣ : ٤٦٧ .

للحديث الثامن عشر(١) : « القرآنُ : هو اللفظُ المنزَّلُ به جبريلُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعجاز عن الإتيان بسورة من مثله ، والحديث القدسيُّ : إخبارُ الله تعالىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام معناه بإلهامٍ أو بالمنام ، فأخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمتَه عن ذٰلك بعبارةِ نفسه ، وسائرُ الأحاديثِ لم يُضِفْه إلى الله تعالىٰ ، ولم يروه عنه تعالىٰ ، كما أضافَ وروى القدسيَّ » .

وقال العلَّامة الكِرماني شارح البخاري المتوفَّىٰ سنة ٧٨٦ رحمه الله تعالىٰ ، في « شرحه » المذكور أوائل كتاب الصوم(٢) : « فإن قلتَ : فهٰذا قولُ الله وكلامُه ، فما الفرقُ بينه وبين القرآن ؟ قلتُ : القرآن لفظُه معجزٌ ومنزَّلٌ بواسطة جبريل ، وهٰذا غير معجز وبدون الواسطة ، ومثلُه يسمَّىٰ بالحديث القدسي ، والإلٰهي ، والرباني .

فإن قلتَ : الأحاديثُ كلُّها كذٰلك ، وكيف لا وهو ما يَنطِق عن الهوىٰ ؟ قلتُ : الفرق بأن القدسيَّ مضافٌ إلى الله ومروي عنه ، بخلاف غيره ـ يريد : النبوي ـ ، وقد يفرَّق بأن القدسي ما يتعلَّق بتنزيه الله تعالىٰ وبصفاته الجلالية والجمالية ، منسوباً إلى الحضرة المقدسة ، تعالىٰ وتقدَّس » ، ثم نَقَل عن الطِّيبي كلامه السابق .

وإلىٰ هٰذا القول نحا العلامةُ السيد الشريف الجُرْجاني المتوفَّىٰ سنة ٨١٦ رحمه الله ، في « تعريفاته »(٣) .

(١) ١ : ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٢) ٩ : ٧٩ .
(٣) ص ٨٣ .

وكذٰلك الإمامُ العينيُّ المتوفَّىٰ سنة ٨٥٥ رحمه الله ، في « عمدة القاري »(١) ، نَقَل عن الكِرمانيِّ والطِّيبيِّ قولهما ، وسكت عنه .

وقال عليٌّ القاري المتوفَّىٰ سنة ١٠١٤ رحمه الله ، في « مِرقاة المفاتيح »(٢) : « **الفرق بين الحديث القدسي والقرآن** : أن الأول يكون بإلهام ، أو منام ، أو بواسطة ملَك ، بالمعنىٰ ، فيُعبِّره بلفظه ، وينسُبه إلىٰ ربه ، والثاني لا يكون إلا بإنزال جبريل باللفظ المعيَّن » .

ونحو هٰذا قال المُناوي المتوفىٰ سنة ١٠٣١ رحمه الله ، في « فيض القدير »(٣) في آخر شرحه للأحاديثِ التي ذكرها السيوطي رحمه الله تعالىٰ في « الجامع الصغير » المصدَّرة بـ : قال الله تعالىٰ .

وذهب غيرُ الجمهور إلىٰ أن الحديث القدسي أُوحي بلفظه ومعناه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقدمُ من عرفتُه قال بهٰذا القول : العلامةُ ابن حجر الهَيْتَميُّ المكيُّ المتوفَّىٰ سنة ٩٧٤ رحمه الله ، في « الفتح المبين »(٤) ، وسيأتي نقل كلامه بطوله .

وأشار إليه القاريْ نفسُه في موضع آخر من « المرقاة »(٥) فقال عند شرح حديث أبي ذر : « قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي : أي : بواسطة ، أو بغيرها ، يقظةً ، أو مناماً ، باللفظ ، أو بالمعنىٰ » فجوَّز الوجهين .

---

(١) ٩ : ١٠ .

(٢) ١ : ٩٥ .

(٣) ٤ : ٤٩٤ .

(٤) ص ٢٠١ .

(٥) ٥ : ١٢٤ .

وأشار إليه أبو البقاء الكَفَوي المتوفىٰ سنة ١٠٩٤ رحمه الله ، في « كلياته »(١) فقال : « وقال بعضهم : القرآن : لفظ معجز ومنزل بواسطة جبريل ، والحديث القدسي : غير معجز وبدون الواسطة » ، قال هـٰذا بعد أن ذكر مذهب الجمهور ، فأفاد أن هـٰذا (البعض) يقولُ بقولِ ابن حجر الهيتمي ، وقد يكون هو ـ أو غيره ـ مرادَ الكَفَويِّ بقوله : « وقال بعضهم » .

ونقل القاضي محمد شريف الدين الفاروقي الفالمي رحمه الله ، مصححُ الطبعةِ الهنديةِ لكتاب « الإتحافات السنية » للشيخ محمد المدني ، نَقَل آخر الكتاب فوائد في معرفة الفوارق بين القرآن الكريم والحديث القدسي ، والحديث النبوي ، جاء في آخرها ما لفظُه : « وفي « فوائد الأمير حميد الدين » : الفرق بين القرآن والحديث القدسي : علىٰ ستة أوجه . . . ، والخامس : أن القرآن يجب أن يكون لفظه من الله تعالىٰ ، وفي الحديث القدسي يجوز لفظاً من النبي صلى الله عليه وسلم »(٢) ، فكأن الأصل عنده أن يكون لفظه موحىً به من الله تعالىٰ ، ويجوز أن يكون من النبي صلى الله عليه وسلم .

وحميد الدين : هو الإمام الفنَّن علي بن محمد الرامُشي البخاري الحنفي ، المتوفىٰ سنة ٦٦٦ ، أول شرَّاح « الهداية » للمرغيناني ، ترجمه القرشيُّ في « الجواهر المضيئة » ٢ : ٥٩٨ ، وغيره .

والآن أنقل كلام الإمام ابن حجر الهيتمي ، قال رحمه الله في آخر

---

(١) ٤ : ٣٨ .

(٢) ص ٣٣٨ من طبعة الشيخ محمود أمين النواوي بمصر سنة ١٣٩٨ .

شرحِ حديثِ أبي ذر ـ وهو الحديث الرابع والعشرون من « الأربعين النووية »(١) ـ : « فائدة يعمُّ نفعها ، ويعظُم وَقْعها ، في الفرق بين الوحي المتلوِّ ـ وهو القرآن ـ والوحي المروي عنه صلى الله عليه وسلم عن ربِّه عز وجل ، وهو ما ورد من الأحاديث الإلـٰهية ، وتسمى القدسية ، وهي أكثر من مئة(٢) ، وقد جَمَعَها بعضهم في جزء كبير(٣) ، وحديثُ أبي ذر هـٰذا من أجلِّها .

اعلم أن الكلامَ المضافَ إليه تعالىٰ أقسام ثلاثة :

أولها ـ وهو أشرفُها ـ : القرآن ، لتميُّزه عن البقية بإعجازِه من أوجه قدَّمناها أولَ الكتاب(٤) ، وكونِه معجزةً باقية علىٰ ممرِّ الدهر ، محفوظةً من التغيير والتبديل ، وبحرمةِ مسِّه للمحدِث ، وتلاوته لنحو الجنب ، وروايته بالمعنىٰ ، وتعيُّنه في الصلاة ، وبتسميتِه قرآناً ، وبأن كلَّ حرف منه بعشر حسنات ، وبامتناعِ بيعه في روايةٍ عند أحمد ، وكراهةٍ عندنا

---

(١) ص ٢٠١ ، وهو الحديث الأول في كتابنا هـٰذا .

(٢) كأنه رحمه الله يريد الصحيح منها ، ومع ذٰلك فالصحيح منها يزيد على المئة ، أما الصحيح وغيره : فأكثر بكثير جداً جداً .

(٣) لعله يريد : ابن بَلَبان المقدسي ؟ وسيأتي الحديث عن كتابه « المقاصد السنية في الأحاديث الإلـٰهية » .

(٤) خلاصة ما قاله في شرح المقدمة ص ٢٢ ـ ٢٣ : « وجوهُ إعجاز القرآن لا تنحصر ، فمنها : إيجازُه وبلاغتُه . . . ، ومنها : خروجُه عن جنس كلام العرب نظماً ونثراً ، وخطباً وشعراً ، ورَجَزاً وسَجْعاً . . . ، ومنها : أن قارئه لا يَمَلُّه ، وسامعَه لا يَمَجُّه . . . ، ومنها : ما فيه من الإخبار بما كان مما علموه ومما لم يعلموه . . . ، ومنها : اشتمالُه علىٰ علوم الأولين والآخرين ، مع كونِ الآتي به أقام بينهم أربعين سنة قبل تكلُّمه به أمياً لا يُحسن نظم كتاب ، ولا عقد حساب . . . » .

ـ أي : السادة الشافعية ـ ، وبتسميةِ الجملةِ منه آيةً وسورةً .

وغيرُه من بقية الكتب والأحاديث القدسية لا يثبتُ لها شيء من ذٰلك ، فيجوز مسُّه (١) وتلاوتُه لمن ذُكر ، وروايته بالمعنىٰ ، ولا يجزئ في الصلاة ، بل يبطلها ، ولا يسمىٰ قرآناً ، ولا يعطَىٰ قارئه بكل حرف عشراً ، ولا يُمنَع بيعه ولا يكره اتفاقاً ، ولا يسمَّىٰ بعضُه آيةً ولا سورةً اتفاقاً أيضاً .

ثانيها : كتبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل تغييرها وتبديلها .

ثالثها : بقية الأحاديث القدسية ، وهي ما نُقل إلينا آحاداً عنه صلى الله عليه وسلم ، مع إسناده لها عن ربه ، فهي من كلامه تعالىٰ ، فتضاف إليه ـ وهو الأغلب ـ ونسبتُها إليه حينئذ نسبةُ إنشاء ، لأنه المتكلِّم بها أولاً ، وقد تُضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه المخبِر بها عن الله تعالىٰ ، بخلاف القرآن ، فإنه لا يُضاف إلا إليه تعالىٰ ، فيقال فيه : قال الله تعالىٰ ، وفيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه .

ولا تَنحصِر تلك الأحاديثُ القدسيةُ في كيفية من كيفيات الوحي ، بل يجوز أن تتنزَّل بأي كيفية من كيفياته ، كرؤيا المنام ، والإلقاء في الرُّوع ، وعلىٰ لسان الملَك .

ولراويها صيغتان :

إحداهما : أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي

(١) نصَّ ابن عابدين من السادة الحنفية في « حاشيته » ١ : ١١٦ ، ١١٧ علىٰ حرمة مس المحدِث حدثاً أكبر أو أصغر للكتب السماوية ما عُلم أنه غير مبدَّل منها .

عن ربه ، وهي عبارةُ السلف ، ومن ثَمَّ آثَرَها المصنف فيما مَرَّ[١] .

ثانيتهما : أن يقول : قال الله تعالىٰ فيما رواه عنه صلى الله عليه وسلم ، والمعنىٰ واحد » .

وعلَّق شيخنا العلامة الحافظ فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ في « شرحه على المنظومة البيقونية »[٢] علىٰ قول ابن حجر الهَيْتَمي : « ونسبتُها إلى الله حينئذ نسبةُ إنشاء » فقال : « هٰذا صريح في أن الأحاديث القدسية هي كلام الله تعالىٰ ، ولٰكنْ لم يبلغ حدَّ الإعجاز والخصائص التي اختُص بها القرآن الكريم ، كما أن بقية الكتبِ الإلٰهية النازلةِ على الرسل السابقين صلوات الله تعالىٰ عليهم أجمعين لم تبلغ حدَّ الإعجاز ، ولم تنلْ خصائصَ القرآن الكريم » .

وقد قرَّر الدكتور محمد عبد الله درَاز المتوفَّىٰ سنة ١٣٧٧ رحمه الله مذهب الجمهور باستيفاء ، في مقدمة كتابه « النبأ العظيم »[٣] ، وأنا أنقله بطوله ، قال : « هٰذا هو أظهر القولين عندنا ، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني ، إذْ لا وجهَ للتفرِقة بين لفظين منزَّلين من عند الله ، فكان من لوازم ذٰلك :

---

(١) يريد : الإمامَ النوويَّ رحمه الله تعالىٰ ، والذي مرَّ : هو قولُه أولَ الحديثِ المشروح هناك ـ حديثِ أبي ذر ـ : « عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل » . قلت : لفظ روايته في « صحيح » مسلم يتفق مع محل الشاهد منه .

(٢) ص ٢٤ .

(٣) ص ١٥ .

وجوبُ المحافظة علىٰ نصوصه ، وعدمُ جوازِ روايته بالمعنىٰ إجماعاً ، وحرمةُ مسِّ المحدِث لصحيفته ، ولا قائلَ بذٰلك كلِّه[١] .

وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه ـ مع العمل بمضمونه ـ شيءٌ آخرُ ، وهو التحدِّي بأسلوبه ، والتعبُّد بتلاوته : احتيج لإنزال لفظه ، والحديثَ القدسي لم ينزل للتحدِّي ولا للتعبُّد ، بل لمجرد العمل بما فيه ، وهٰذه الفائدة تحصل بإنزال معناه .

فالقولُ بإنزال لفظه قولٌ بشيء لا داعي في النظر إليه ، ولا دليل في الشرع عليه ، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله تعالىٰ بصيغة : يقول الله تبارك وتعالىٰ كذا ، لٰكن القرائن التي ذكرناها آنفاً كافيةٌ في إفساح المجال لتأويله ، بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه .

وهٰذا تأويل شائع في العربية ، فإنك تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر : يقول الشاعر كذا ، وتقول حينما تفسر آيةً من كتاب الله بكلام من عندك : يقول الله تعالىٰ كذا ، وعلىٰ هٰذه القاعدة حكى الله تعالىٰ عن موسىٰ وفرعون مضمونَ كلامهم بألفاظٍ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذٰلك إليهم .

فإن زعمتَ أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخرُ مقدَّس وراء المعنىٰ ، لصح لنا أن نُسَمي بعض الحديث النبوي قدسيّاً أيضاً ، لوجود هٰذا المعنىٰ فيه ! .

---

(١) انظر مذهب الحنفية في مسِّ المحدث صحيفةً فيها ما لم يبدَّل من كتاب سماوي ، فيما تقدم تعليقاً ص ١٧ رقم ١ .

فجوابه : أننا لما قطعنا في الحديث القدسي بنزول معناه ، لورود النص الشرعي علىٰ نسبته إلى الله تعالىٰ بقوله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالىٰ كذا : سميناه قدسيّاً لذٰلك ، بخلاف الأحاديث النبوية ، فإنه لما لم يَرِدْ فيها مثلُ هٰذا النصِّ جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلَماً بالوحي ، وأن يكون مستنبَطاً بالاجتهاد والرأي ، فسُمي الكلُّ نبويّاً ، وقوفاً بالتسمية عند الحدِّ المقطوع به ، ولو كانت لدينا علامةٌ تُميّز لنا قسم الوحي لسميناه قدسيّاً كذٰلك » . انتهىٰ .

وأقول : إن هٰذا البيان ـ والله أعلم ـ معبِّر تمامَ التعبير عن وجهة نظر الجمهور ، وهو مؤلَّف من شِقَّين :

ـ نفي المشابهة بين القرآن الكريم والحديث القدسي ، ويلزم من نفي المشابهة أن نُلحق الحديث القدسي بالنبوي حينئذ .

ـ تأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم أولَ الحديث القدسي : قال الله تعالىٰ كذا .

١ ـ **أما الشق الأول** ـ وهو ذِكْر الفوارق الكثيرة بين القرآن والحديث القدسي ـ فهٰذا أمر مسلَّم به ، وبأن القدسي لا يتصف بخصيصةٍ من خصائص القرآن الكريم التي تقدم ذكرها في كلام ابن حجر الهَيْتَمي ، ولٰكن : هل يلزمُ من نفي المشابهة بينهما أن نُلحق القدسي بالنبوي ؟ .

الجواب : لا ، ذٰلك أن الكلام الذي أوحى الله تعالىٰ به إلىٰ أنبيائه أربعة أقسام ، لا ثلاثة ، هي الثلاثة التي تقدمت في كلام ابن حجر الهيتمي ، يضاف إليها : الحديث النبوي :

١ ـ القرآن الكريم ، ذو الخصائص .

٢ ـ الكتب السماوية الأخرىٰ سواه ، وليس لها خصائص القرآن .

٣ ـ الحديث القدسي .

٤ ـ الحديث النبوي .

فقول الدكتور دراز : « لو كان ـ الحديث القدسي ـ منزَّلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني ، إذْ لا وجه للتفرقة بين لفظينِ منزَّلينِ من عند الله » : في محل المنع ، فأين هو عن الكتب السماوية الأخرىٰ ؟! إذْ إنها منزَّلة من عند الله تعالىٰ بلفظها ومعناها اتفاقاً ، وليس لها من الخصائص ما للقرآن العظيم اتفاقاً .

وبالتالي : لا يلزم من نفي المشابهة بين القرآن والقدسي : أن نلحق القدسي بالنبوي ، لأننا إذ لم نلحقه بالنبوي ، أُلحق بالقرآن !! ، لا ، إننا حينما نقول : لفظه ومعناه من عند الله ، نقول : هو ليس كالقرآن الكريم .

فإن قيل : إذاً هل له نظير في الكلام المضاف المنسوب إلى الله عز وجل ؟

قلنا : نعم ، هو كالكتب السماوية الأخرىٰ سوى القرآن ، لفظها ومعناها من عند الله ، وهـٰذا أمر متفق عليه ، فليكن الحديث القدسي كذٰلك .

٢ ـ أما الشق الثاني في كلام الدكتور دراز ـ وهو تأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم في صدر الحديث القدسي : قال الله تعالىٰ كذا

ـ فهو علىٰ ما بين المشبَّه والمشبَّه به من فارق ـ **أقول فيه** : إنما يصار إلى التأويل عند اللزوم ، ولا لزوم هنا ، ما دمنا قد أَزَلْنا الإشكال الذي عبَّر عنه بقوله : « لو كان منزَّلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني » ، أَزَلْناه بأن هٰذا التلازم غير صحيح ، إنما هو ناشئ من قِبَل حصر الكلام المنسوب إلى الله في القرآن الكريم والحديث النبوي :

فالقرآن الكريم : لفظه ومعناه من عند الله ، وهو معجز ومختصٌّ بخصائص .

والحديث النبوي : لفظه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه من عند الله تعالىٰ ، إلا ما دلَّ الدليل الواضح علىٰ كونه من اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم .

ونقضُ هٰذا الحصر يكون بالتنبُّه إلى الكتب السماوية الأخرىٰ ، وأنها باتفاقٍ كلامُ الله لفظاً ومعنىً ـ قبل أن يطرأ عليها الدخيل والتحريف ـ ، فنلحق الأحاديث القدسية بها ، إعمالاً لظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالىٰ كذا ، وإن الله تعالىٰ قال كذا . . . حتىٰ لو لم يكن هناك كلام منسوب إلى الله عز وجل لفظه ومعناه من الله ، وهو غير معجز ـ كالكتب السماوية ـ لما كان بنا ضرورةٌ إلىٰ تأويل هٰذا التعبير منه صلى الله عليه وسلم ، ونقول نحن من عند أنفسنا : القرآن كلامُ الله المعجِزُ المتحدَّىٰ به ، والحديث القدسي كلامُ الله غيرُ المعجز وغير المتحدَّىٰ به .

وثمة فائدة كبرىٰ نستفيدها من القول بأن القرآن لفظه ومعناه من الله

تعالىٰ وهو معجز ، والأحاديث القدسية لفظها ومعناها من الله تعالىٰ ، وهي غير معجزة ، تلك هي أن الحجةَ تقوم على الكافرين حينئذٍ بوجهٍ أقوىٰ ، وذلك حينما يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم : إنه يأتيني كلامٌ لا تستطيعون الإتيان بمثل بعضه ، وكلامٌ تستطيعون الإتيان بمثل بعضه ، والكلُّ من عند الله تعالىٰ ، فهٰذا إمعانٌ في التحدي للكافرين ، والله تعالىٰ أعلم .

ويتصل بهٰذا البحث : القول في جواز رواية الحديث القدسي بالمعنىٰ ، أو عدم جوازها ، والجواب : أن جواز روايته بالمعنىٰ هو مقتضى القولين السابقين ، أما على القول بأن معناه من الله تعالىٰ ، ولفظه من النبي صلى الله عليه وسلم : فواضح منه الجواز ، لأنه حينئذ كالحديث النبوي ، وأما على القول بأن لفظه ومعناه من الله تعالىٰ ، وأنه بهٰذا الاعتبار كالكتب السماوية غير القرآن الكريم : فيجوز أيضاً أداؤه بالمعنىٰ ، لأنه غير معجز ، وتقدم في كلام ابن حجر الهيتمي نصُّه على الجواز ، وأكَّد ذلك في « فتاواه الحديثية »[1] ، ثم البَنَّاني في « حاشيته علىٰ شرح جمع الجوامع »[2] .

٣ ـ أشهر المصنفات في الأحاديث القدسية

لم يكن معروفاً شائعاً ـ منذ سنين خَلَتْ ـ من كتب الأحاديث القدسية إلا كتاب « الإتحافات السنية » للعلَّامة المُنَاوي رحمه الله ،

---

(١) ص ٢١١ .

(٢) ٢ : ١٧١ .

جمع فيه ٢٧٢ حديثاً قدسيّاً مع عزوها إلىٰ مُخْرِجيها من أئمة الحديث ، وطُبع شرحٌ عليه اسمه « النفحات السلفية » باسم الشيخ محمد منير الدمشقي صاحب المطبعة المنيرية ، وجُدِّد طبعه بمصر أيضاً من سنوات قليلة ، نَشَرته مكتبة التراث الإسلامي ، وكانت كتابة هٰذا الشرح سنة ١٣٦١هـ أيام الحرب العالمية الثانية ، كما جاء ذٰلك أثناء شرحه للحديث ١٩٨ .

وطُبع بالهند كتابٌ آخر يحمل الاسم نفسه : « الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية » للشيخ محمد بن محمود المدني الحنفي المتوفَّىٰ سنة ١٢٠٠هـ ، ثم طُبع مرات بالبلاد العربية ، وفيه ٨٦٤ حديثاً[١] .

ومنذ أكثر من خمسين سنة طبع الأستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ المتوفَّىٰ سنة ١٣٧٠هـ رحمه الله ، بمطبعته المطبعة العلمية بحلب رسالتين في الأحاديث القدسية ، جمعهما معاً ، إحداهما « مشكاة الأنوار » للشيخ محيي الدين ابن عربي الطائي ، جمع فيها ١٠١ حديثاً قدسيّاً ، وثانيتهما للشيخ عليِّ القاري ، جَمَع فيها أربعين حديثاً قدسيّاً ، وليس لهما تداول الآن .

ثم عَهِد المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بمصر إلىٰ لجنة من شيوخ الأزهر ، لاختيار مجموعة من الأحاديث القدسية ، فقاموا بذٰلك ، جزاهم الله خيراً ، وطُبع باسم « الأحاديث القدسية » ، فيه ٤٠٠ حديث ، وكُرِّر تصويره ببيروت .

---

(١) لا (٨٦٣) حديثاً كما جاء في مقدمة ناشره ص ١٣ .

ثم قام الأخوان الفاضلان الأستاذ الشيخ محيي الدين مستو ، والدكتور محمد العيد الخَطْراوي ـ الأديب السعودي ـ قاما بتحقيق ونشر « المقاصد السَّنية في الأحاديث الإلـٰهية » لابن بَلَبَان المقدسي (٦١٢ ـ ٦٨٤ هـ) رحمه الله تعالىٰ ، وجزاهما الله خيراً علىٰ ما بَذَلا من جهد في إخراجه ، وكانت طبعته الأولىٰ سنة ١٤٠٣هـ ، ثم أعادا طبعه .

فالكتب المتداوَلة الآن في الأحاديث القدسية هي هـٰذه الأربعة :

الأول ـ كتاب العلَّامة المُناوي ـ : يضاف إلىٰ ما تقدم عنه أمران : التزم إخراج الأحاديث القدسية التي لم يتخلَّلْها كلام نبوي أبداً ـ إلا نادراً ـ ولم يلتزم الصحة أو الحُسن فيما يذكره ، فهو جامع لما صحَّ ولما لم يصح .

الثاني ـ كتاب الشيخ محمد المدني ـ : كتابُه أوسعُ بكثير من كتاب المناوي ، ويتفق معه في التخريج وعدم التزام الصحة ، لـٰكنه قَسَم كتابه إلىٰ ثلاثة أبواب : « الباب الأول : فيما صُدِّر بلفظ : قال . والباب الثاني : فيما صُدِّر بلفظ : يقول . والباب الثالث : فيما لم يُصدَّر بهما ، بل يُذكَر في أثناء الحديث كلامُ الله تعالىٰ ممزوجاً بالحديث » ، وعمدتُه فيه « الجامع الكبير » للسيوطي رحمه الله .

وعدد أحاديث القسم الأول : ١٦٨ حديثاً ، وعدد أحاديث القسم الثاني : ٩١ حديثاً ، فمجموعهما ٢٥٩ حديثاً ، وهو في هـٰذين القسمين يشترك مع عُظْم كتاب المناوي ، وعدد أحاديث القسم الثالث : ٦٠٥ ست مئة وخمسة أحاديث .

الثالث ـ كتاب « الأحاديث القدسية » اختيار اللجنة الأزهرية ـ :

اعتمدَتْ في جمعها على الكتب الستة و« الموطأ » ، والأحاديث التي في « صحيح » البخاري نقلتْ شرحَها من « إرشاد الساري » للقَسطلّاني رحمه الله ، وما كان في « صحيح » مسلم نقلَتْ شرحه من « شرح النووي » رحمه الله ، وما كان في غيرهما تخيَّرتْ شرحه من عدة مصادر .

وفي اختيار الأحاديث وجمعها ، وفي شرحها : جهد مشكور طيب ، أجزل الله لهم المثوبة ، ولشهرته وتداوله أحببتُ أن أُبديَ ما وقفتُ عليه من ملاحظات ، ابتغاءَ النفعِ ، ثم لاستدراكِها .

١ ـ بلغ عدد أحاديث الكتاب ـ حسب ترقيمه ـ ٤٠٠ حديث ، لٰكنْ فيه تكرار كثير ، سببُه نقلُ ألفاظِ الحديث الواحد من كتاب واحد ، أو من عدة كتب .

مثال ذٰلك : حديث : « تحاجَّت الجنة والنار . . . » ، ذكروا لفظه بتمامه من « صحيح » البخاري ، ثم ذكروا لفظه من « صحيح » مسلم ، ثم ذكروا مغايرات روايات مسلم ، ثم ذكروا لفظه من « سنن » الترمذي ، وقد أَخَذَ هٰذا الحديث الواحد منهم عشرة أرقام من ٣٦٨ إلىٰ ٣٧٧ ! والكل حديث واحد ، وكون هٰذه المغايراتِ يُستفاد منها أحياناً في شرح الحديث : لا يستلزم ترقيمها بأرقام مستقلة .

٢ ـ إن الكتاب وُضع لجمع الأحاديث القدسية من هٰذه الكتب : الستة و« الموطأ » ، مع أنه قد جاء فيه جملةٌ غيرُ قليلة لا ينطبِق عليها اسم الحديث القدسي ! .

من ذٰلك ـ وليس علىٰ سبيل الاستقصاء ـ الأحاديث ذوات الأرقام (٦ ، ١٠٠ ـ ١١٠ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٥٠ ـ ٢٥٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١١ ـ ٣١٤ ، ٣٣٣) .

فليس كلُّ حديثٍ فيه ذكر جبريل (٢٨٧ ، ٢٨٨) أو مَلَكٍ ما (١٠٠ - ١١٠) ، أو ذكر النداء أو القول يوم القيامة في أرض المحشر (١٩٠ ، ٢٩١ ، ٣١١ ، ٣١٤) يعتبر حديثاً قدسيّاً .

وقد يُروى الحديثُ الواحد علىٰ وجهين ، فيكون قدسيّاً صراحةً في وجه ، وليس قدسيّاً أبداً في وجهه الآخر ، فلا ينبغي ذكر الوجه الثاني ، مع أنهم يوردونه .

مثال ذٰلك : حديث (٣٠١) ولفظه : « قال الله عز وجل : إذا أحبَّ عبدي لقائي . . . » فهٰذا قدسي صريح ، وقد ذكروه ، ثم ذكروا بعده (٣٠٢ ، ٣٠٣) اللفظ الآخر : « من أحبَّ لقاءَ الله أحب الله لقاءَه » وهو غير قدسي - وقد نبَّهوا إلىٰ هٰذا ، فأحسنوا - ومع ذٰلك فلا داعي إلىٰ ذكره .

في حين أنهم لما ساقوا روايات حديث : « تحاجَّت الجنة والنار » لم ينبّهوا إلىٰ أن بعضَها غير قدسي .

فلو حُذفت الأحاديث المكررة ، وما ليس قدسيّاً : لما جاوز عددُ أحاديثه المئة .

٣ - من مزايا الكتاب الجيدة : أن الصحة غالبة علىٰ أحاديثه ، ولو استَغْنَوْا عن عدد يسير من أحاديثه الضعيفة لكان أولىٰ ، ولاتَّصف الكتاب بمزية عالية ، ومن أحاديثه الضعيفة : الأحاديث ذوات الأرقام (٩ ، ٢٠٤ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧) .

٤ - سقط من بعض أحاديث الكتاب جُمَل من الإسناد أو المتن - وهٰذا قد يُعتبر من الأخطاء المطبعية - لٰكنْ أثَّر هٰذا السقَط في

اعتبار بعض الأحاديث قدسيّاً ، إذِ الساقطُ منه الجملةُ الدالةُ علىٰ أنه قدسي .

مثال ذٰلك : حديث (٢٨٦) : « فقال : يا محمد إن ربك يقول : أَمَا يُرضيك . . . » ، سقط منه جملة : « إن ربك يقول » فلم تُوجَد فيه علامة كونه قدسيّاً .

٥ ـ حَصَل ـ علىٰ سبيل الندرة ـ تحريفٌ في اللفظة الدالة علىٰ كون الحديث قدسيّاً .

مثال ذٰلك : الحديث (٢٠٢) ، نَقَلوه عن « سنن » النسائي ، وفي آخره : « فيقول : ادخلوا أنتم وآباؤكم » ، أي : فيقول الله . . . ، وعلىٰ هٰذا فهو قدسي ، لٰكن لفظ النسائي في النسخ المتداولة بين أيدينا[١] : « فيقال : ادخُلوا الجنةَ أنتم وآباؤكم » ، ولا يلزم منه أن يكون قدسيّاً ، فقد يكون القائل ملَكاً ، واللجنة تعتمد طبعة « سنن » النسائي القديمة الواقعة في مجلدين .

٦ ـ حَصَل تقصير في تخريج بعض الأحاديث ، وهو نادر أيضاً .

مثال ذٰلك : الحديث (٢٨٥) ، نَقَلوه عن « سنن » النسائي ، وهو في « صحيح » مسلم[٢] ، ولا ريب أن نقله منه هو المتعيِّن .

الرابع ـ كتاب « المقاصد السَّنية » لابن بَلَبَان المقدسي ـ : جمع فيه مؤلفه مئة حديث ، وختم كل عشرة منها بحكاياتٍ وعظية ، وأشعار زُهدية ، ذٰلك أن علماءنا رحمهم الله تعالىٰ ، كان يَهمُّهم من أمر العامة

---

(١) ٤ : ٢٥ (١٨٧٦) .

(٢) ٤ : ١١٢ بشرح النووي .

ما يهمُّهم من أمر الخاصة ، فكأن المؤلف ابن بلَبان كان يُملي كتابه إملاءً ، ومن عادة المُمْلين ـ كما نراه عند ابن رجب في رسائله ـ أن يختموا مجالسهم الإملائية بأشعار مناسبة ، وابنُ بَلَبَان يختمها بالوعظ والزهد والرقائق ، مراعاةً لحال العامة .

إنما يؤخذ عليه : إيراده فيها ما لا زِمام له ولا خِطام ! .

أما منهجه في المئة حديث : فهي قدسية في الغالب ، وفيها ما ليس بقدسي ، ذٰلك أنه يَعتبر الأحاديث التي فيها ذكر جبريل عليه السلام قدسيةً ، كحديث بدء الوحي ، وحديث : « سَبَقك بها عُكَّاشة » ، إذْ فيه قوله : « يا جبريل هٰؤلاء أمتي . . . » ، وحديث إمامة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم الأوقاتِ الخمسة ، عقب ليلة الإسراء ، ونحو ذٰلك ، وهٰذه أرقام ما وقفت عليه : (١ ، ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٧٧) .

فهو يشترك ـ مع الكتاب السابق ـ في هٰذه الملاحظة عليه .

كما يشترك معه ـ ومع الكتابين السابقين أيضاً ـ في أنه لم يَخْلُ من أحاديثَ تالفةٍ كالحديث ١١ ، ٧٧ ، سوىٰ ما في خواتيم كل عشرة ، والله أعلم .

٤ ـ منهجي في اختياري

حَرَصتُ فيما جمعتُ أن أحترز من الملاحظات التي أَبديتُها علىٰ هٰذه الكتب الأربعة .

١ ـ فالتزمْتُ الصحةَ أو الحُسْن فيها ، فغالبها من الصحيحين ، وإذا لم يكن الحديث منهما ذكرتُ مَن صحَّحه أو حسَّنه ، إما من كلام

مخرجه كالترمذي رحمه الله ، وإما من كلام العلماء الآخرين ، كالعراقي ، وابن حجر ، والشهاب البُوصِيري في زوائد ابن ماجه ، وغيرهم ، ولا أدفع الاختلاف عن واحد منها أو اثنين .

٢ ـ كما التزمتُ أن تكون كلُّها قدسيةً ، إما مصدَّرة بـ : قال الله تعالىٰ كذا ، ونحوِه ، وإما أن الجملة القدسية متخلِّلة أثناء الحديث .

وشدَّدتُ علىٰ نفسي في هٰذا الالتزام ، فإذا تضافرت الرواياتُ علىٰ كونه نبويّاً ، وانفردت منها روايةٌ بلفظةٍ تجعلُه قدسيّاً : عدلتُ عن ذكره .

مثال ذٰلك : حديث ابن عباس عند البخاري في كتاب الرِّقاق ـ باب الحشر[١] : « إنكم مَحْشُورون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً . . . وإنه سَيُجَاءُ برجال من أمتي ، فيؤخَذ بهم ذاتَ الشمال ، فأقول : يا رب أُصَيحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وظاهرٌ من هٰذا أن فاعل (فيقول) هو الله عز وجل ، بقرينة قوله قبله : يا رب أُصيحابي .

لٰكنْ رواه البخاري قبلَ هٰذا الموضع في أربعة مواضع أخرىٰ ، موضعين في أحاديث الأنبياء[٢] ، وآخِر سورة المائدة[٣] ، وأول سورة الأنبياء[٤] ، وفيها كلِّها : « فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » ، وكذٰلك جاءت رواية مسلم[٥] .

---

(١) ١١ : ٣٧٧ (٦٥٢٦) .
(٢) ٦ : ٣٨٦ ، ٤٧٨ (٣٣٤٩ ، ٣٤٤٧) .
(٣) ٨ : ٢٨٦ (٤٦٢٥) .
(٤) ٨ : ٤٣٧ (٤٧٤٠) .
(٥) ٤ : ٢١٩٤ (٥٨) .

وزادني توقُّفاً أن مسلماً روىٰ في أحاديث استحباب إطالة الغُرَّة والتحجيل في الوضوء[١] عن أبي هريرة حديثاً فيه حكاية هـٰذا الموقفِ نفسِه عند الحوض ، ولفظه : « وَلَيُصَدَّنَّ عني طائفةٌ منكم فلا يَصِلون ، فأقول : يا ربِّ هـٰؤلاء من أصحابي ، فيجيبني مَلَكٌ : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » ، فلهـٰذا لم أذكره .

أما في حالِ روايةِ الحديثِ علىٰ وجهين متكافئين : قدسي ونبوي : فإني أذكره ، كما يراه القارئ الكريم في رقم ٧٦ ، ٧٨ .

٣ ـ وخرَّجت الحديث من أشهرِ كتابِ رواه ، فلا داعيَ إلىٰ عزو الحديث إلىٰ « سنن » أبي داود أيضاً إذا كان في الصحيحين ، وإذا كان في « سنن » أبي داود أو « سنن » الترمذي فلا حاجة إلىٰ زيادة عزوه إلى ابن ماجه ـ مثلاً ـ ، وإن فعلتُ شيئاً من هـٰذا أوضحتُ مرادي .

وسلكتُ في التخريج والعزو طريقة المحدثين ، ذٰلك أني أنقلُ لفظَ الحديثِ من البخاري ـ مثلاً ـ ويكون هو في « صحيح » مسلم أيضاً ، فإني أعزوه إليهما مع وجودِ اختلافٍ بين اللفظين ، ولا أنبِّه علىٰ شيء من المغايرات إلا أحياناً لأمرٍ يتَّصل بمعنى الحديث .

٤ ـ ولاحظتُ حالَ متوسِّطةِ قراءِ الكتاب الإسلامي ، فأكثرتُ جدّاً من ضبطِ ألفاظِ الحديث ، وتبسَّطتُ في شرح غريبه ، وحَرَصت ـ كعادتي ـ علىٰ نقل المعاني الدقيقة الواضحة للكلمات الغريبة التي تَقْرُب معانيها من غيرها فيُظنُّ فيها الترادف ، معتمداً في ذٰلك « مفردات القرآن » للراغب الأصفهاني ، و« النهاية » لابن الأثير رحمهما الله تعالىٰ .

---

(١) ١ : ٢١٧ (٣٧) .

٥ ـ أما شرح الحديث ومعناه : فحَرَصتُ جدّاً علىٰ تبسيط الأسلوب ، وخُلُوّه من الكلمات الاصطلاحية ، وبُعدِه عن الأسلوب العلمي الذي يُحتاج معه إلىٰ مراجعةٍ أو مَرجع .

٦ ـ ووثّقت النقول ، فعزوتها إلىٰ مصادر معتمدة ، يَطمئنُّ إليها علماء الإسلام ، ويَرضَوْنها في فهم كلام الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم .

٧ ـ ورتَّبْتُ الأحاديث علىٰ وَفْق موضوعاتها ، بجمع النظائر إلىٰ بعضها ، فجاء الكتاب شِبْهَ مرتَّبٍ على الأبواب ، مع مراعاة أبرز موضوع للحديث .

والله عز وجل هو المسؤول وحده : أن يتقبَّل هٰذا العمل مني وسائر ما أعمله ، وأن يجعل فيه السداد ، ويُعظِم به النفع ، ويُجزِلَ لي الأجر والمثوبة ، إنه خير مسؤول ، وأكرم مرجُوّ ومأمول .

وصلى الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد ، وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه
محمّد عوّامة

المدينة المنوّرة ٩ / ٨ / ١٤١١ هـ

من أعظم الأحاديث القدسيّة جلالةً وشمولاً

١ ـ عن أبي إدريسَ الخَوْلاني رحمه الله ، عن أبي ذرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رَوَىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال : « يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلْمَ علىٰ نفسي ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تَظَالموا .

يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُه ، فاسْتَهْدوني أَهْدِكم .

يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أَطْعَمتُه ، فاسْتَطْعِموني أُطْعِمْكم .

يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كَسَوته ، فاستكسوني أَكسُكُم .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أَغفر الذنوبَ جميعاً ، فاستَغْفروني أَغفرْ لكم .

يا عبادي إنكم لن تَبْلُغوا ضَرِّي فتضُروني ، ولن تبلُغوا نفْعي فَتَنْفَعوني .

يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخِركم ، وإنْسَكُم وجِنَّكم ، كانوا علىٰ أتقىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذٰلك في مُلكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نَقَص ذٰلك من مُلكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نَقَص ذٰلك مما عندي إلا كما يَنقُص المِخْيط إذا أُدْخِل البحر .

يا عبادي إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ، ثم أوَفِّيكم إياها ، فمن وَجد خيراً فليحمدِ الله ، ومن وَجَدَ غير ذٰلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه » .

١ ـ **تخريجه** : رواه مسلم : كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ٤ : ١٩٩٤ (٥٥) ، ورواه الترمذي بنحوه وفيه زيادات ٤ : ٦٥٦ (٢٤٩٥) .

غريبه : **الظلم** : وضع الشيء في غير موضعه ، أو : مجاوزة الحق .

معناه : هٰذا الحديث الشريف من أشهر الأحاديث القدسية وأجلِّها ، وأعظمها وَقْعاً ومهابةً في نفس المؤمن ، وقد ذكر الإمام مسلم عَقِبه : أن أبا إدريسَ الخَوْلانيَّ كان إذا حدَّث بهٰذا الحديث جَثَا علىٰ ركبتيه ـ أي : جلس عليهما ـ .

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٣٤ عن الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ أنه قال عن هٰذا الحديث : « هو أشرف حديث لأهل الشام » ! لذٰلك صدَّرت به الكتاب ، بل أرىٰ أنه مثلُ حديث : « إنما الأعمال بالنيات » الذي قال فيه الإمام البخاري : « من أراد

أن يصنِّف كتاباً فليبدأ بحديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، أسنده إليه الخطيب في « الجامع » ٢ : ٤٦٣ ، وسها النووي في « شرح مسلم » ١٣ : ٥٣ ، ثم ابن رجب أول « جامع العلوم والحكم » فنسباه إلى ابن مهدي ، نعم ، لابن مهدي كلمة نحوها أسندها إليه الخطيب عقب كلمة البخاري .

وهٰذا الحديث ـ حديثُ أبي ذر ـ كذٰلك هو من حيثُ الجلالةُ والشمولُ .

ولما تولَّى الإمام تقي الدين السُّبكي التدريس في دار الحديث الأشرفية بدمشق ، وباشر ذٰلك أوائل شهر ربيع الأول سنة ٧٤٢هـ ، افتتح مجالسه فيها بشرح هٰذا الحديث ، واستمرَّ علىٰ ذٰلك يشرحه إلىٰ أن غادر دمشق إلى القاهرة في ٢٦ من شهر ربيع الثاني سنة ٧٥٦هـ ، وتوفي هناك بعد قليل ، ثالث جمادى الآخرة ، فيكون تدريسه بشرح هٰذا الحديث قد استغرق نحواً من أربعة عشر عاماً [١] .

افتتح الله عز وجل هٰذا الحديث بندائه لعباده ، وشرَّفهم بإضافتهم إليه فقال : « **يا عبادي** » ، وهو لفظ يدخل فيه كلُّ من تتوجَّب عليه عبادة الله عز وجل عبادةَ تكليف ، فيدخل تحت هٰذا النداء الكريم : الإنس والجن جميعاً .

وكرَّره الله عز وجل ـ وفيه من التلطُّف والتعطُّف ما فيه ـ قبل كلِّ تنبيه إلٰهيٍّ مهم يريد الله تعالىٰ به تنبيه عباده إلىٰ ما فيه خيرهم وسعادتهم .

وفي هٰذا التكرير أعظمُ لفتِ نظرٍ ، وشدِّ اهتمام إلى الأمر الذي صُدِّر به هٰذا النداء .

ولما كان من طبيعة النفوس البشرية الاطمئنانُ إلى العدل وأهله ، والركونُ

---

(١) انظر « مجالس ابن ناصر الدين في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ » ص ٤٩ ، و« طبقات الشافعية » ١٠ : ٢٠١ ، و« الدرر الكامنة » ٣ : ٧٠ .

إلى الإنصاف في المعاملة : قدَّم الحقُّ سبحانه وافتتح هٰذا الحديثَ العظيمَ الشأن بما يُطَمئِنُ عباده ، ويجعل نفوسهم رضيَّة فقال :

« يا عبادي إني حرَّمت الظلم علىٰ نفسي » فاطمئنُّوا إلىٰ ما آمركم به وأنهاكم عنه ، فإني لا أريد من ذٰلك إلا خيرَكم ؛ ولهٰذا فإني « جعلتُه بينكم محرَّماً » ، لتعيشوا في خير تام ، فلا يَبْغِ أحدٌ علىٰ أحد : « فلا تَظَالموا » أي : فلا تتظالموا .

وهٰذا نصٌّ علىٰ تحريمِ نَوْعي الظلم كليهما ، إذِ الظلم : ظلم للنفس ، وظلم للآخرين .

فظلم النفس : بالمعاصي ، وأعظمُها الشرك بالله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ لقمان : ١٣ ، وقال : ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ النحل : ١١٨ .

وظلم الآخرين : يكون بالقول وبالفعل ، روىٰ مسلم في « صحيحه » ٤ : ١٩٩٧ (٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتَدْرون مَا المُفْلسُ ؟ » قالوا : المُفْلِسُ فينا مَن لا درهمَ له ولا متاعَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن المفلس مِن أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شَتَم هٰذا ، وقَذَف هٰذا ، وأكلَ مال هٰذا ، وسفَكَ دم هٰذا ، وضربَ هٰذا ، فَيُعطَىٰ هٰذا من حسناته ، وهٰذا من حسناته ، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقضَىٰ ما عليه : أُخِذ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ، ثم طُرح في النار » .

ومما يشمل نوعي الظلم : ما رواه البخاري في « صحيحه » في تفسير سورة هود ٨ : ٣٥٤ (٤٦٨٦) ، ورواه مسلم أيضاً عَقِب حديث المفلس (٦٠) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه

وسلم : « إن الله عز وجل لَيُمْلي للظالم ، حتىٰ إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ هود : ١٠٢ .

فهو شاملٌ للظالم لنفسه بالمعاصي على اختلاف مراتبها ، وشاملٌ للظالم للآخرين ، وكذٰلك حالُ أهل القرىٰ ؛ **منهم** : الظالم لنفسه ، **ومنهم** : الظالم لغيره .

وجاء اللفظ القدسي الكريم هنا بلفظ : « فلا تَظَالموا » ، **والتظالم** : تعبير يقتضي المقابلة والمشاركة من طرفين ، فيكون فيه النهيُ عن مقابلة الظلم بظلم ، ووجوبُ أن يقف كل ذي حقٍّ عند حقِّه وحدِّه ، دون تجاوز ، وحينئذ يتحقق بهٰذا التحريم حسم مادة الظلم بين الناس ، ولا يتطاول المظلوم على الظالم بحجة أنه مظلوم ، وأن ذاك هو البادئ المعتدي ؛ ولذٰلك قال الله عز وجل : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الشورىٰ : ٤٠ ، أي : أخذٌ للحق بالمثل دون تجاوز .

وإن يوم القيامة يومٌ يكون فيه كمالُ مظهرِ العدلِ الإلٰهي : فلن يَدخُلَ الجنةَ مؤمن هو من أهلها ما دام عليه حقٌّ لعبدٍ ولو كان هٰذا العبد من أهل النار ، كما جاء في حديث عبد الله بن أُنَيس الذي رواه أحمد ٣ : ٤٩٥ وغيره ، وهو حديث قدسي ، وفيه : « ولا يَنبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النارَ وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ حتىٰ أَقُصَّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حقٌّ حتىٰ أَقُصَّه منه ، حتى اللطمةُ » .

فليحذرْ كلُّ عبدٍ هٰذا الموقفَ العصيبَ ، ولْيُعِدَّ له العُدَّةَ والجوابَ الذي يعتقد أنه يُرضي الله تعالىٰ ويقبلُه منه .

ثم شرَّف المولىٰ سبحانه وتعالىٰ عباده بالإضافة إليه ثانيةً ، وناداهم :

« يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هديتُه ، فاسْتهْدوني أَهْدِكم » .

يُنبِّه الله تعالى العبادَ بأنهم كلَّهم عُرْضةٌ للضلال والغَواية ، ومتأهِّلون للشر والفساد ؛ بما رُكِّبوا عليه من نفسٍ أمَّارةٍ بالسُّوء ، وقرين من الشيطان ، ودنيا مُغْرِيةٍ ، إلا من استعصم بالله واستمسك بحبله المتين ، وكان على وَجَل دائم من أن تَخْطَفَه المُضِلَّات من النفس الشريرة ، ومن شياطين الإنس والجن ، ومن مفاتن الدنيا وزخارفها ، فسأل الله على الدوام الحفظ والوقاية ، والعناية به والهداية ، فأنعم الله عليه باستجابة دعائه وإعطائه سؤالَه ، فوفَّقه للطاعات والقُرُبات ، وجعله من عباده الصالحين .

فقوله : « كلُّكم ضالٌّ » أي : ضالٌّ لو تُرِك وشأنَه وطبعَه ؛ لأنه في أصل أمره مولود على الفطرة الحنيفية ، لكنه يَضِلُّ لو تُرِكَ ونفسَه البهيمية ترتَع وتبغي ، إلا من استهدى الله ـ أي : سأله الهداية ـ فهداه ووفَّقه ، وأخذ بناصيته إلى سواء السبيل .

ومن أعظم مظاهر هداية الله تعالى للعبد : أن يُوفِّقه لصحبة الأخيار ، واتخاذ القُرناء الصالحين الأبرار ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبة : ١١٩ ، وقال عزَّ شأنه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ الفاتحة : ٦ ـ ٧ ، وعلَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم سِبْطَه ورَيحانتَه سيدنا الحسنَ رضي الله عنه دعاء القُنوت ، وأولُه : « اللهم اهدني فيمنْ هَدَيتَ » ، رواه أصحاب السنن وغيرهم ، وقال الترمذي (٤٦٤) : حسن ، وصححه النووي في « خلاصة الأحكام » (١٤٩٩) .

ثم جاء بعده نداءان إلـهيّان بالطعام ـ ومثله الشراب ـ وبالكساء ، وأفردَ كلَّ واحدٍ منهما بنداء ، إشارةً إلى تحقُّق فقر العباد بكلٍّ منهما إلى الله عز وجل ، ومَن كان الفقر ملازماً له في طعامه الذي هو في متناوَل يده بكثرة ،

وفي كسائه الذي عليه منه أطمارٌ مختلفةُ الأشكال والأجناس : ينبغي أن يعلم أنه في غاية الفقر إلى الله تعالىٰ ، وعليه حينئذ أن يتحقَّق بالافتقار ، فيستشعرَ من نفسه أنه عبدٌ لله ، محتاجٌ إليه للوصول إلىٰ لُقمة الطعام ، وجَرْعة الشراب ، وقطعة الكساء ، ثم هو محتاجٌ إليه في هَضْم هٰذه اللقمةِ ، واستساغةِ هٰذه الجَرعة ، ثم هو محتاج إليه فقير في بقاء ما ينفُع بدنه من هٰذه اللقمة والجَرْعة ، وطَرحِ ما لا ينفعه ، وهٰكذا . . .

ولٰكنَّ أكثر الناس عن هٰذه الحقائق غافلون ، بل هم غارقون في خطايا أشدَّ منها ؛ تجاوزاً لحقوق الله عز وجل ، وتعدِّياً علىٰ حُرُماته ، وهم في حال لا يَسَعُهم إلا أن يتداركهم الله تعالىٰ بمغفرته ، وما عليهم إلا أن يستغفروه ؛ لذٰلك عقَّب بيان حالهم السابقة بالنداء الخامس :

« يا عبادي إنك تُخطئون بالليل والنهار ، وأنا أَغفِر الذنوبَ جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم » .

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح صحيح مسلم » ١٦ : ١٣٣ في ضبط « تخطئون » : « الرواية المشهورة : تخطئون ، بضم التاء ، ورُوي بفتحها وفتح الطاء ، يقال : خَطِئَ يَخْطَأُ : إذا فعلَ ما يَأْثم به ، فهو خاطئ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ يوسف : ٩٧ ، ويقال في الإثم أيضاً : أخطأ ، فهما صحيحان » .

فيكون معنىٰ قوله : إنكم تُخطِئون ـ علىٰ كلا الوجهين في الضبط ـ : إنكم تعملون أعمالاً تأثَمون وتُذْنبون بها .

وأفاد الحديث ـ وهو مشاهَدٌ من أنفسنا ـ أن هٰذه الآثامَ والذنوبَ كثيرةٌ مستمرةٌ لا تنقطع ، ليلَ نهار ، ولٰكنَّ عفوَ الله تعالىٰ ومغفرتَه أعظمُ وأوسعُ ؛ لذٰلك تمدَّح الله عز وجل بقوله عقبه : « وأنا أَغفِرُ الذنوب جميعاً » ،

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر : ٥٣ .

إلا الشركَ بالله فإنه استثناه تعالىٰ بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء : ٤٨ .

ولا تَعارض بين التعميم والتأكيد الذي في الحديث القدسي ، وبين التخصيص والتعليق بالمشيئة الذي في الآية ، فالآية لا نصَّ فيها على استغفار العبد استغفاراً شاملاً من الذنوب كلها حتى الشرك ، بأنْ أقلعَ عنه ودخلَ في دين الله وأسلم وجهه إليه ، أما الحديث ففيه قوله : « **فاستغفروني** » من الذنوب التي صدرتْ عنكم : علمتم بها أو لم تَعْلَموا ، **ومن جملة ذٰلك** : إنْ كان مشركاً استغفرَ الله من الشرك وتابَ عنه ودخلَ في الإسلام ؛ فإنكم إنْ تفعلوا ذٰلك : « **أغفر لكم** » .

فإن كان استغفارُه مستوفياً شروطَه ، وتوبتُه صادقةً نصوحاً : غَفَرَ الله ما كان منه ، وهو أكرمُ وأجلُّ من أن لا يقبلَ منه ، ولا يغفرَ له ، سبحانه وتعالىٰ ، وإنما يتوجَّب على العبد الاستغفار ؛ لأن فيه أموراً يحبها الله عز وجل منه ، وهي اعترافُ العبد علىٰ نفسه بالعبدية واعترافُه علىٰ نفسه بالخطيئة ، واعترافُه لله عز وجل بالربوبية ، واعترافُه علىٰ نفسه أمامَ ربِّه بالفَيْئَةِ إليه والتوبة لديه ، وخوفُه من يوم الحساب والجزاء ، وما إلىٰ ذٰلك من معانٍ إيمانية لا يتخلَّف عن صاحبها غفرانُ الله وعفوُه ، بفضله وكرمه .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٤٤ : « كان بعض أصحاب ذي النون ـ المصري الزاهد المشهور ـ يَطوفُ يُنادي : آه أين قلبي ؟ من وَجَد قلبي ؟ فدخل يوماً بعض السِّكك ـ الطُّرق والأزقَّةِ ـ فوجد صبيّاً يبكي وأمُّه تضربُه ، ثم أخرجتْه من الدار وأغلقت البابَ دونَه ،

فجعل الصبيُّ يلتفتُ يميناً وشمالاً لا يدري أين يذهبُ ولا أين يَقصد ، فرجع إلىٰ باب الدار فجعل يبكي ويقول : يا أُمَّاه من يفتح ليَ الباب إذا أغلقتِ عني بابك ؟ ومن يُدْنيني إذا طردتيني ؟ ومن الذي يُدنيني إذا غضبتِ عليَّ ؟ فرحمَته أمُّه فنظرتْ من خَلَل الباب فوجدت ولدها تجري الدموعُ علىٰ خدَّيْه متمعِّكاً ـ متمرِّغاً ـ في التراب ، ففتحت الباب وأخذتْه ، حتىٰ وضعته في حَجْرها وجعلتْ تقبِّله وتقول : يا قرةَ عيني ويا عزيز نفسي أنتَ الذي حَمَلْتَني علىٰ نفسك ، وأنت الذي تعرَّضتَ لِمَا حلَّ بك ، لو كنتَ أطعتني لم تَلْق مني مكروهاً .

فتواجد الفتىٰ ـ صاحبُ ذي النون ـ ثم قام فصاح وقال : قد وجدتُ قلبي ، قد وجدت قلبي » ، وإن الله عز وجل أرحم بعبده المقبِلِ إليه بالاستغفار الصادق من هٰذه الأم بولدها .

وتأمَّلْ قولَه فيما سَبَق : فاستهدوني ، فاستطعموني ، فاستكسوني ، فاستغفروني ، وقارِنْه بقوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيمَ الخليل عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام : ﴿ . . . إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الشعراء : ٧٧ ـ ٨٢ : تجدِ التطابقَ بينهما تامّاً .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٣٨ : « فإن مَن تفرَّد بخلق العبد وبهدايته ، وبرَزْقه وإحيائه وإماتته في الدنيا ، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة : مستحِقٌّ أن يُفرَدَ بالإلٰهية والعبادة والسؤال والتضرُّع والاستكانة له » .

وجاء النداءُ المشرِّف السادسُ لتأكيد حقيقة العجز في العباد ، وتأكيد حقيقة استغناء الله سبحانه عنهم ، فقال :

« يا عبادي إنكم لنْ تبلُغوا ضَرِّي فتضُرُّوني ، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني » .

لن تبلغوا ، أي : لن يبلُغني ضَرٌّ منكم ، بمعنىٰ : لن يَصِلَ إليَّ منكم ضَرَر بمعاصيكم ، أو بإعراضكم عن سؤال حوائجكم مني ، وإن اهتديتُم وتوجَّهتم إليَّ بالسؤال والدعاء : فلن أنتفع منكم بذٰلك ، إنما ضَرَرُ معاصيكم ونفعُ طاعاتكم عائدٌ إليكم ، ذٰلك أن الله هو الغني ونحن الفقراء .

ثم جاء النداء السابع والثامن تحقيقاً وتِبياناً لما قبله :

« يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسَكمْ وجنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذٰلك في مُلْكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا علىٰ أفجَر قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نَقَص ذٰلك من مُلكي شيئاً » .

والمعنىٰ : لو أن كل فردٍ فرد من الثقلين كان قلبُه كأتقىٰ قلب رجلٍ فيهم ـ ولا ريب أن أتقىٰ قلبٍ في مخلوقاتِ الله عز وجل هو قلب محمد صلى الله عليه وسلم [1] ـ لَمَا زاد ذٰلك في مُلك الله شيئاً .

ولو أن كل فردٍ فرد من الثقلين كان قلبه كأفجرِ قلبِ رجلٍ فيهم ـ ولا ريب أن أفجر القلوب قلبُ إبليس [2] ـ لَمَا نَقَص ذٰلك من مُلك الله شيئاً .

وتأمَّلْ هٰذا التأديبَ الربانيَّ الدقيقَ للعباد ، في مخاطباتهم ، ذٰلك أنه قال أولاً : « لو أن أوَّلكم وآخركم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد . . . » ، ثم قال ثانياً : « لو أن أولكم وآخركم . . كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد ما نقص . . . » ففي مقام ذكر العباد بالتقوىٰ والخير جاء

---

(١) « مرقاة المفاتيح » ٥ : ١٢٦ .

(٢) « مرقاة المفاتيح » ٥ : ١٢٦ .

بلفظ المخاطَب « منكم » ، وفي مقام ذكرهم بالفجور والشر لم يأتِ به ، ولم يخاطبهم بكلمة : « منكم » ، مع أن المتكلِّم والمخاطِب هو ربُّ العالمين وخالقُهم ومُحْييهم ومميتُهم ، سبحانه وتعالىٰ ! .

فما أحوجَ العبادَ إلىٰ هـٰذا الأدب ـ وغيرِه وغيرِه ـ فيما بينهم ! .

ثم ، ما أحوجَنا إلىٰ هـٰذا فيما بيننا وبين ربِّنا عز وجل ! وذِروَةُ الأدب مع الله تعالىٰ وغايتُه : أن تُطيعَه فلا تَعصِيَه في أمرٍ ما ، وإن بَدَرتْ منك بادرة أسرعتَ إلى التوبة والإنابة إليه .

وانظر الكلام علىٰ قوله الكريم الآتي : « ومن وجد غير ذٰلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه » .

وإنه لا يؤثِّر علىٰ مُلك الله تعالىٰ شيءٌ : كمّاً وكيفاً ، وهـٰذا هو حقيقة الغِنى المطلق الذي اتصَف به مولانا جلَّ وعلا ، وكيف يزيدُ ويَنقصُ وهو الذي أوجد هـٰذا الوجود ـ مِن حين أوجده ـ علىٰ أكمل الوجوه .

وللغِنَىٰ مرتبتان : دُنْيا وعُلْيا :

فالمرتبةُ الأولى الدُّنيا : بمعنى الاستغناء ، يعني : أن صاحبها مُسْتَغنٍ عن غيره ، غيرُ محتاج إلىٰ أحد ، وهـٰذه هي المرتبة التي تقدَّم بيانُها : الله غني عن العالمين : طائعِهم وعاصيهم .

والمرتبةُ الثانية العليا : بمعنى الإغناء للغير ، وفرقٌ كبير بين المرتبتين : أن تكون مستغنياً غيرَ محتاج ، وأن تكون مستغنياً غيرَ محتاج ومُغْنياً للآخرين تَسُدُّ حاجاتِهم وتُفيضُ عليهم بإحسانك إليهم .

وهـٰذه المرتبةُ هي التي جاءت في النداء الإلـٰهي التاسع :

« يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد

واحد ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نَقَص ذلك مما عندي إلا كما يَنقُص المِخْيَط إذا أُدْخِل البحر » .

فالله سبحانه وتعالىٰ مستغنٍ ومُغنٍ ، وهٰذا هو كمال الغنىٰ وتمامه ، وليس هو إلا لله العلي العظيم .

وقولُه تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران : ٩٧ أي : مُستغنٍ عن عبادتهم .

وقولُه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فاطر : ١٥ : الغنيُّ هنا يَشْمَل المعنيين : هو مستغنٍ فليس محتاجاً إليكم ، وهو مُغْنٍ لكم لأنكم فقراء إليه ، ولأنه حميدٌ في غِناه ، أي : محمودٌ علىٰ غناه ؛ لأنه يُغني عباده : يَمنحُهم ويُعطيهم ويُفْضِل عليهم ويُغدِق عليهم إحسانَه وخيراتِه .

وأيُّ غِنىً أعظمُ من هٰذا الغِنىٰ ! وأيُّ غَنيٍ أعظمُ من هٰذا الغنيِّ ! سبحانه وتعالىٰ ، هو غنيٌّ عن كلِّ خلقه وعن كلِّ ما عند خَلقه ؛ ذلك لأنهم ولأن ما عندهم : مخلوق له ، وهو الذي أمدَّ خَلْقه بكل هٰذه الإمدادات من يومَ خَلَقهم إلىٰ هٰذه اللحظة ، إلىٰ يوم الدين ، إلىٰ ما بعده .

ولا يُقال : إن إمداداتِه لهم كانت علىٰ فتَرات : شيئاً فشيئاً .

لا ، لذلك قال هنا في الحديث القدسي : « قاموا » جميعُهم في موقف ومقام واحد « في صعيدٍ واحدٍ » أرضٍ واحدة ومكان واحد « فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي » .

بل جاء في أثر إسرائيلي نَقَله الحافظ ابن رجب رحمه الله في « جامع العلوم » ٢ : ٤٨ أنقله بطوله ، فيه بيان لغنى الله تعالىٰ علىٰ وجهٍ أكمل مما تقدم ، وهو دعوةٌ من الله تعالىٰ يدعو بها عباده أن يُقبِلوا إليه ويَسألوه .

قال ابن رجب : « وفي بعض الآثار الإسرائيلية : يقول الله عز وجل : أيُؤَمَّل غيري للشدائد ، والشدائدُ بيدي وأنا الحيُّ القيوم ؟ ويُرجىٰ غيري ويُطْرقُ بابُه بالبُكُرات ـ أي : في كل صباح ـ وبيدي مفاتيح الخزائن وبابي مفتوحٌ لمن دعاني ؟ من ذا الذي أمَّلني لنائبةٍ فقطعتُ به ؟ أو من ذا الذي رَجَاني لعظيم فقطعتُ به ؟! أوْ مَن ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له ؟! أنا غايةُ الآمال فكيف تنقطعُ الآمالُ دوني ؟ أبخيلٌ أنا فيُبخِّلَني عبدي ؟! أليس الدنيا والآخرة والكرمُ والفضل كلُّه لي ؟! فما يمنعُ المؤمِّلين أن يؤمِّلوني ؟ لو جَمَعتُ أهلَ السماوات والأرض ، ثم أعطيتُ كلَّ واحد منهم ما أعطيتُ الجميعَ ، وبلَّغتُ كلَّ واحد منهم أمَلَه : لم يَنْقُص ذٰلك من مُلكي عضوَ ذرَّة ! كيف يَنْقُص مُلكٌ أنا قيِّمُه ؟! فيا بُؤْساً للقانطين من رحمتي ، ويا بُؤْساً لمن عصاني وتوثَّب علىٰ محارمي » ![1] أي : تجاوز حدود شرعي .

فانظرْ قوله : « لو جَمعتُ أهل السماوات والأرض ، ثم أَعطيتُ كلَّ واحد منهم ما أعطيت الجميع . . . » ، واستشعرْ هٰذا المعنىٰ بقلبك حقّاً ؛ لتعلمَ عظمةَ غِنَى الله عز وجل ربِّ الأرباب ، وليَصْغُرَ في عينك وقلبك ما في أيدي المخلوقين .

وهل يَنقُص ما عند الله تعالىٰ لو أعطَىٰ كلَّ واحد مسألته ؟ ولو كان نقصاناً خفيفاً طفيفاً كما ينقصُ البحرُ لو غُمِسَ فيه المِخيط ـ الإبرة ـ ؟ .

الجواب : لا ينقص ، وما ذكره الله تعالىٰ في الحديث إنما هو علىٰ سبيل ضرْب المَثَل والتقريب لعقولنا ، والإبرَةُ : مَعْدِن أملسُ ، رأسُها أصغرُ مرئيّ ـ تقريباً ـ لو غُمِس في البحر ـ وهو أكبر مرئي ـ ثم نُظر في البحر : هل نَقَصَ

---

(١) وانظر أيضاً كتاب « المستغيثين بالله تعالىٰ » لابن بشكوال ٩٨ (١٠٧) : قصة لرجل من أصحاب الحديث .

منه شيء ، لما رأيناه نقص ، فالنظر : إلى المأخوذ منه ، لا إلى المأخوذ ، فالتقدير : إلا كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ البحرَ إذا أُدخِلَه .

والأمورُ التي يريد الله إيجادها : تكون بمجردِ توجُّه إرادةِ الله تعالىٰ إليها ، ولا يتوقَّف وجودها علىٰ فترة زمنية قصيرة جدّاً بقدر كلمة « كن » ، ومع ذٰلك قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يسٓ : ٨٢ ، ذٰلك أن هٰذه أقصرُ فترةٍ زمنيةٍ تتَّسع لها عقول المخاطَبين ، لا أن الإيجاد يتأخَّر قدر هٰذه الكلمة زمناً .

وجاء النداءُ العاشر الأخير فيه شمولٌ لكل ما تقدَّم ، فهو الخلاصةُ الجامعةُ : « يا عبادي إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ، ثم أوَفِّيكم إياها ، فمن وَجد خيراً فليحمَدِ الله ، ومن وَجَدَ غير ذٰلك فلا يلُومنَّ إلا نفسَه » .

الأعمال : تشملُ ما يَصدرُ عن الجوارح من أفعال ، وما يصدر عن القلب من أخلاق ونيات .

فالأمر الأول في هٰذا الحديث : تحريم الظلم وهو يكون بالقلب وبالجوارح ؛ ثم طلب الهداية ويكون بالقلب توجُّهاً وطلباً ، وبالجوارح سلوكاً وتطبيقاً ؛ ثم الافتقار إلى الله تعالىٰ بطلب الغذاء والكساء وكلِّ حاجاته الظاهرة ، وهٰذا يكون بالقلب توجُّهاً ودعاءً واستشعاراً بأن المعطي على الحقيقة هو الله ، لا كسبُه وعمله ؛ ثم إن خطاياكم التي تصدر عنكم ليلَ نهارَ لا بدَّ لها من استغفار بالقلب واللسان ، وإقلاعٍ عنها بالجوارح .

ووراءَ ذٰلك كلِّه يجب على العباد أن يَشعروا بالفقر المطلق الذاتي في أنفسهم ، وبالغنى المطلق الذاتي لله تعالىٰ ، فإن هٰذا من حقائق الإيمان ومحضه وخالصه .

هٰذه الأمور القلبية والجارحية يعلمها الله تعالىٰ ، ولولا علمُه الكاملُ

بها لَمَا أحصاها ؛ لأن الإحصاء هو العدُّ والحفظ لدقيق الأشياء وجليلها ، ثم يكون الحساب والتوفية ، « فمن وجد خيراً » وعاقبةً حسنة ونعيماً مقيماً « فليحمد الله » علىٰ فضله وتوفيقه ، « ومن وجد غير ذٰلك » أي : شرّاً « فلا يلومنَّ إلا نفسه » حين لا ينفعه لوم ولا ندم .

قال ابن حجر المكي رحمه الله في « فتح المبين » ص ١٩٩ : « ولم يذكُره بلفظه ـ أي : لم يقل : ومن وجد شرّاً ـ تعليماً لنا كيفية الأدب في النطق بالكناية عما يؤذي ، ومثلُه ما يُستقبَح أو يُستَحيىٰ من ذكره ، أو إشارةً إلىٰ أنه إذا اجتُنِبَ لفظه فكيف بالوقوع فيه » .

و« الكيِّس » : العاقل الفَطِن « مَن دَانَ نفسَه » أي : حاسبها « وعمل لما بعد الموت ، والعاجزُ » : وهو المقصِّر في أموره « مَن أَتبعَ نفسَه هواها » فأعطاها شهواتِها « وتمنَّىٰ على الله الأماني » .

❋ ❋ ❋

أحاديث الإيمان والتّوحيد

٢ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تبارك وتعالىٰ : يا بنَ آدمَ إنك ما دَعَوْتَني وَرَجوْتَني غَفَرتُ لك علىٰ ما كان فيك ولا أُبالي .

يا بن آدم لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنَانَ السماءِ ثم استَغْفرتَني غفرتُ لك ولا أُبالي .

يا بن آدم إنك لو أتيتَني بقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتَني لا تُشركُ بي شيئاً لأَتيتُكَ بقُرابها مغفرةً » .

٢ ـ تخريجه : رواه الترمذي : كتاب الدعوات ـ باب غفران الذنوب مهما عظُمت (٣٥٤٠) وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه .

غريبه : عَنَان السماء : هو السَّحاب .

قُرَاب الأرض : ما يُقارب مَلأَها .

معناه : هٰذا الحديث العظيم « حديث المغفرة » فيه ثلاثةُ نداءات ربَّانيَّة يدعو الله تعالىٰ فيها ابنَ آدم ويُناديه ليستغفِره ، فيغفرَ له ، ومع كل نداء دلالةٌ وإرشاد إلىٰ سبب عظيم من أسباب المغفرة ، فما أرحمَ اللهَ بعباده ! .

١ ـ النداء الأول وسببه : « يا بنَ آدمَ إنك ما دعوْتَني ورَجَوتَني غَفَرتُ لك علىٰ ما كان فيك ولا أُبالي » .

فدلَّنا سبحانه على سبب من أسباب المغفرة ، هو الدعاء والرجاء ، دعاؤك إياه بالمغفرة والتجاوز عما فَرَط منك ، مع رجائِك الإجابةَ منه وعدم القنوط إن تأخَّرت الإجابة .

وجاء النصُّ الكريم يَقرن الرجاء بالدعاء ، لأن الإنسان المذنب قد يَتَعاظمُ ذنوبَه ، أي : يراها عظيمة كثيرة ، فييأسُ أن يغفرها الله له ، فلذلك قال الله له : « إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي » .

أي : إنك ما دمتَ تدعوني وترجو مغفرتي ، فإني غافر لك ذنوبك مهما بلغت كميتها ، ومهما كانت كيفيتها ، فلا يليق بالعبد المسلم أن يجد القنوطُ من رحمة الله تعالى إلى قلبه سبيلاً .

و« ما » في قوله : « ما دعوتَني » تُعْرَب مصدرية ظرفية ، والتقدير : مدة دوام دعائك ، فيستفاد من هذا التقدير ضرورةُ المداومة على الدعاء والإلحاح به وأنت ترجو من الله الحصول على المطلوب ، ذلك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي الآتي برقم ٥٩ : « أنا عند ظنِّ عبدي بي » فكُنْ له راجياً ، يكنْ لك مُعْطياً .

وقد كان شيخنا العلامة الحجة الخاشع المُخْبِت الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى يكرر قوله : ما خاب عبدٌ قَصَد مولاه ، ويمدُّ الألف من كلمة : مولاه .

ومعنى قوله : « ولا أبالي » : أي : لا تَهمُّني كثرة ذنوبك ، ولا يَعْظُم عليَّ مغفرتها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الزمر : ٥٣ إلا الشرك به : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء : ١١٦ ، فالشرك لا يغفره الله تعالى إلا بالإسلام ، ذلك أن « الإسلام يَجُبُّ ما قبله » ، أي : يمحو ما كان قبله من كفرٍ وذنوب .

٢ ـ النداء الثاني وسببه : « يا بن آدمَ لو بلغتْ ذنوبُك عَنَان السماءِ ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي » .

تقدم تفسير « دعوتَني » في النداء الأول بالدعاء بالمغفرة ، ويُشكل هنا قوله : « ثم استغفرتني » والاستغفار هو الدعاء بالمغفرة ؟ .

ولذا فسَّر العلامة ابن حجر المكي رحمه الله قوله : « ثم استغفرتني » بالتوبة الصحيحة ، وذكر شروطها ، وإليه أدَّىٰ كلام ابن رجب رحمه الله ، بعد أن تكلَّم كثيراً عن الاستغفار (١) .

ففي هٰذا النداءِ الربَّاني يفتحُ الله عز وجل لعبده بابَ الرجاء فتحاً كبيراً ، فيصوِّر له كثرةَ ذنوبه كثرةً فاحشة ، بحيث إنها بلغتْ وعمَّتْ ما بينه وبين سَحاب السماء ، ثم تاب إلى الله تعالىٰ توبةً صحيحةً صادقةً ، فإن الله يَغفر له هٰذه الذنوبَ الكثيرة ولا يُبالي سبحانه وتعالىٰ بكثرتها .

والمغفرة : وِقايةُ شرِّ الذنوب مع سَترها ، كما قال ابن رجب .

وهٰذا تعريف ملاحَظٌ فيه المعنى اللغويُّ بدقَّة واستيفاء ، فالغَفْر في الأصل : معناه السَّتْر ، والمِغْفَر : هو الخُوذَة الحديديَّة التي يَلبَسها المقاتلُ علىٰ رأسه ، يَستُره بها ؛ ليتَّقيَ الضَّربات التي تُصِيب الرأس ، فإنها قاتلةٌ غالباً .

فالمغفرة من الله عز وجل : تقي صاحبَها من شرِّ الذنوب ، وذٰلك بِسَتْر الله لها .

والتوبةُ : العودةُ والرجوع إلى الله عز وجل .

ولتكونَ توبةً صادقةً ينبغي أن تُسْتَوفَىٰ شروطُها ، وهي ثلاثة إن كانت

---

(١) « الفتح المبين » ص ٢٤٤ ، و« جامع العلوم والحكم » ٢ : ٤٠٧ .

توبةً عن ذنب بينك وبين الله عز وجل ، ويُضاف إليها شرطٌ رابع إن كانت عن ذنبٍ بينك وبين إنسانٍ آخرَ ولو كان غيرَ مُسْلِم .

وهٰذه الشروط هي :

ـ الإقلاعُ عن الذنب في الزمن الحاضر .

ـ والندم علىٰ ما فَرَط منه في الزمن الماضي .

ـ والعزم علىٰ أن لا يَعود إليه في الزمن المستقبل .

والشرط الرابع : ردُّ الحقِّ إلىٰ أهله ، أو المسامحةُ منهم .

والاستغفارُ اللسانيُّ لا يَتمُّ إلا إذا قُرن بعدم الإصرار ، وأما مع إصرار القلب على الذنب فهو دعاءٌ مجرَّد : إن شاء الله أَجَابَه ، وإن شاء ردَّه ، وقد يكونُ الإصرارُ مانعاً من الإجابة ، وفي « المسند » من حديث عبد الله بن عَمْرو مرفوعاً : « ويلٌ للمُصِرِّين الذين يُصِرُّون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون » ، كما قال ابن رجب[١] .

والاستغفارُ الصادق المقرون بالتوبة : شعارُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما هو ظاهر من آيات القرآن الكريم ، وهو شعار سيدِهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

روى البخاري في « صحيحه » : كتاب الدعوات ـ باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة ١١ : ١٠١ (٦٣٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والله إني لأَستغفِر الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثَرَ من سبعين مرةً » .

---

(١) في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٤٠٩ ، والحديث في « المسند » ٢ : ١٦٥ ، ٢١٩ بإسناد صحيح .

وروىٰ مسلم : كتاب الذكر ـ باب التوبة ٤ : ٢٠٧٥ (٤٢) عن الأغَرِّ المُزني أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس تُوبوا إلى الله ، فإني أتوبُ في اليوم إليه مئة مرة » .

ورواه أبو داود في أبواب الوتر (١٥١١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤) وقال : حسن صحيح غريب ، وابن ماجه : كتاب الأدب (٣٨١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إنْ كنا لَنَعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مئة مرة : « ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التواب الرحيم » ، وهـٰذا لفظ أبي داود .

٣ ـ النداء الثالث وسببه : « يا بن آدم إنك لو أتيتَني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتَني لا تُشركُ بي شيئاً : لأتيتك بقُرَابها مغفرة » .

فالشرط في المغفرة الكبرىٰ : لقاءُ الله عز وجل على التوحيد : « لقيتَني لا تشركُ بي شيئاً » .

فحسنُ خاتمة العبد ، ووفاتُه على الإيمان : سببٌ عظيم بل هو أعظمُ أسباب مغفرة الله له .

قال ابن بطال : « . . . ولا حسنةَ أعظمُ من التوحيد »(١) .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء : ٤٨ ، وسيأتي برقم (٨٥) حديث الرجل الذي جاء بتسعةٍ وتسعين سِجِلاًّ ، كلُّ سجلٍّ مدَّ البصر ، وجاء معها ببطاقة صغيرة مكتوبٍ فيها قوله : « لا إلـٰه إلا الله » فَرَجَحَتْ علىٰ تلكَ السِّجلات ، وأَدخَلَتْ صاحبَها الجنة .

---

(١) نقله الحافظ في « الفتح » ١٣ : ٤٧١ (٧٥٠٧) .

نعم ، إن ذلك داخلٌ تحت مشيئةِ الله المذكورة في الآية الكريمة ، فإنْ تمَّ لصاحبها هذا الفضلُ دخل الجنة مع السابقين ، وإلا فيدخلها بعدُ ، والله غفور رحيم .

ولا أعظم من هذا الحديث في الدلالة على سعة مغفرة الله عز وجل ، وعلى عظم كرامة المسلم على ربه ، وهو تفصيل وتبيين للإجمال الذي في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر : ٥٣ .

* * *

توحيد الله في العمل والعبادة

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تبارك وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّرك ، من عَمِل عَمَلاً أشركَ فيه معي غيري ، تَرَكْتُه وشِرْكَه » .

٣ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الزهد والرقائق ـ باب تحريم الرياء ٤ : ٢٢٨٩ (٤٦) .

معناه : إن الله سبحانه وتعالىٰ متفرِّدٌ بالوحدانية المطلَقة في ألوهيته وذاته وصفاته وأفعاله ، ويريدُ من عباده أن يُفْردوه بالعبادة والتوجُّه إليه ، ويوحِّدوه في القَصْد والعمل ، ويُخلِصوا له العبادة والدين : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ . . . ﴾ البينة : ٥ .

وفي هٰذا الحديث القدسيِّ يبيِّن تعالىٰ بياناً ضِمْنُه الوعيدُ الشديدُ : أنه مَن عَمِل شيئاً وقَصَدَ به الله تعالىٰ وآخرَ معه : فإن الله تعالىٰ يتركُه وشِرْكَه ، أي : يتركُه وهٰذه الجهةَ الأخرى التي أشركها مع الله عز وجل في القصد .

وتَرْكُ الله عز وجل له معناه : أن يتركه ويتخلَّىٰ عنه ويَكِلَه إلىٰ نفسه ومَنْ قَصَده مع ربه ، وقد خاب وخَسِر كلَّ الخُسْران من تخلَّى الله عنه ووَكَلَه إلىٰ نفسه أو إلىٰ غيره .

ذٰلك أن الله تعالىٰ مِن عزَّته وعظمته : يَغَارُ أن يُقْرَن به غيره ، ومَن

الذي يَستحقُّ أن يُقْرَن مع الله تعالىٰ أو يُشرَكَ معه في القصد والتوجُّه والعبادة . . . ؟! .

وقدَّم سبحانه علىٰ بيان هٰذه النتيجة بجملةٍ بيَّن فيها حقيَّة إفراده بالقصد ، وغناه عن الشريك فقال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » ، والحقيقة : أنه لا شريكَ له ولا شُركاء ، إنما هٰذا علىٰ حسب زعم الزاعمين ، فإذا كان أولٰئك في زعم عابديهم أغنياءَ عن الشرك ، فأنا أغنىٰ منهم عن الشرك والشريك .

أو أن (أغنىٰ) هنا ليست علىٰ بابها من التفضيل ، والمعنىٰ : أنا غني ، وأولٰئك محتاجون فقراءُ إليَّ .

وقال النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٨ : ١١٦ في بيان المعنى العام للحديث : « أنا غنيٌّ عن المشاركة وغيرها ، فمن عَمِل شيئاً لي ولغيري لم أقبلْه ، بل أتركُه لذٰلك الغير ، والمراد : أن عملَ المرائي باطلٌ لا ثوابَ فيه ويأثمُ به » .

❋ ❋ ❋

٤ ـ عن شُفَيٍّ الأَصْبَحيِّ أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجلٍ قد اجتمع عليه الناسُ ، فقال : مَنْ هـٰذا ؟ فقالوا : أبو هريرةَ ، فَدَنَوْت منه حتىٰ قَعَدتُ بين يَدَيْه وهو يحدِّث الناسَ ، فلما سكتَ وخلَا الناسُ قلتُ له :

أَنْشُدُك بحقٍ وبحقٍ لمَّا حدَّثتني حديثاً سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عَقَلْتَه وعَلِمْتَه .

فقال أبو هريرةَ : أفعلُ ، لأُحدِّثَنَّكَ حديثاً حدَّثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَقَلْتُه وعَلِمْتُه .

ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً ، فمكثَ قليلاً ، ثم أفاقَ فقال : لأحدِّثنك حديثاً حدَّثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هـٰذا البيتِ ما معنا أحدٌ غيري وغيرُه .

ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشغةً أخرىٰ ، ثم أفاق ، فمسح وجهه فقال : لأحدِّثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هـٰذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيرُه .

ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نشغةً أخرىٰ ، ثم أفاق ، ومسح وجهه فقال : أفعلُ ، لأحدثنك حديثاً حدَّثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه في هـٰذا البيتِ ما معه أحدٌ غيري وغيرُه .

ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدةً ، ثم مالَ خارّاً علىٰ وجهه ، فأسْندتُه عليَّ طويلاً ، ثم أفاق ، فقال : حدثني

رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يومُ القيامةِ ينزل إلى العباد ليقضيَ بينهم ، وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ ، فأوَّلُ مَن يدعو به : رجلٌ جَمَع القرآنَ ، ورجلٌ يُقْتَلُ في سبيل الله ، ورجل كثيرُ المالِ ، فيقول الله للقارئ : أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنزَلْتُ علىٰ رسولي ؟! قال : بلىٰ يا ربِّ .

قال : فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ ؟ قال : كنتُ أقومُ به آناء الليل وآناءَ النهار ، فيقولُ الله له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبتَ ، ويقولُ الله : بلْ أردتَ أن يقال : إن فلاناً قارئٌ ، فقد قيل ذاك .

ويُؤْتَىٰ بصاحب المال فيقولُ الله له : أَلَمْ أوسِّع عليك حتىٰ لم أدعْك تحتاج إلىٰ أحد ؟! قال : بلىٰ يا ربِّ ، قال : فماذا عَمِلتَ فيما آتيتك ؟ قال : كنتُ أَصِلُ به الرحم ، وأتصدَّق ، فيقولُ الله له : كذبتَ ، وتقولُ له الملائكة : كذبتَ ، ويقول الله تعالىٰ : بل أردتَ أن يقالَ : فلانٌ جَوَادٌ ، فقد قيْلَ ذاك .

ويُؤْتَىٰ بالذي قُتِل في سبيل الله فيقول الله له : في ماذا قُتِلتَ ؟ فيقولُ : أُمرتُ بالجهاد في سبيلك ، فقاتلتُ حتىٰ قُتِلتُ ، فيقول الله تعالىٰ له : كذبت ، وتقولُ له الملائكة : كذبت ، ويقولُ الله : بلْ أردتَ أن يُقالَ : فلانٌ جَريءٌ ، فقد قيلَ ذاك .

ثم ضَرَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال : « يا أبا هريرةَ أولئك الثلاثة أولُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة » .

وقال العلاء بنُ أبي حكيمٍ ـ وكان سَيَّافاً لمعاويةَ ـ : دَخَلَ عليه رجلٌ فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاويةُ : قد فُعِل بهؤلاء هذا ، فكيف بمنْ بقيَ منَ الناس ! ثم بكى معاويةُ بكاءً شديداً حتى ظَنَنَّا أنه هالكٌ ، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجلُ بشرٍّ ، ثم أفاق معاوية ومَسَحَ عن وجهه وقال : صَدَقَ الله ورسوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هود : ١٥ ـ ١٦ .

٤ ـ تخريجه : رواه الترمذي بهذا اللفظ المطوَّل في أبواب الزهد ـ باب الرياء والسُّمعة (٢٣٨٢) وقال : حديث حسن غريب .

وأصلُه في « صحيح » مسلم : كتاب الجهاد ـ باب من قاتل للرياء والسمعة استحقَّ النار ٣ : ١٥١٣ (١٥٢) ، والنسائي : كتاب الجهاد ـ من قاتل ليقال : فلان جريء (٣١٣٧) .

غريبه : أَنشدك : أسألك وأُقسم عليك ، وأصل النُّشْدان : يكون مع رفع الصوت ، شأنَ المتَلَهِّف .

لمَّا : أي : إلا ، والفعل بعدها يكون فعلاً ماضياً بلفظه ، لا بمعناه .

عقلتَه : وعيته .

نشغَ : قال في « النهاية » ٥ : ٥٨ : « النَّشْغ : الشهيق حتىٰ يكاد يبلغ به الغَشْي ، وإنما يفعل الإنسان ذٰلك تشوُّقاً إلىٰ شيء فائتٍ وأسفاً عليه » .

جاثية : مجتمعة ، كل أمة جماعة .

تُسَعَّر بهم النار : تُوقد بهم النار .

معناه : هٰذا الحديث الشريف أصلٌ في تنبيه العباد إلىٰ ضرورة الإخلاص لله في القول والعمل ، وأن الله تعالىٰ لا يقبلُ من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وابتُغي به وجهُه ، **وخصَّ الحديثُ هٰذه الأصناف الثلاثة بالذكر** : العلماءَ ، وأصحابَ الأموال (التجار) ، والمجاهدين (الجيش) : لأنهم أهمُّ العاملين من الناس ، وإلا فكلُّ ذي عملٍ مطالَب بإخلاص عمله لله ربِّ العالمين .

فأول الثلاثة : رجل جَمَع القرآن فحفظه وعَلِمه ، يقول الله تعالىٰ له يوم القيامة ـ وهو أعلم بحاله ـ : « **ألم أُعَلِّمْك ما أنزلتُ علىٰ رسولي ؟** » ، قال له ذٰلك تمهيداً لإقامة الحجة عليه ، فيقول : « **بلىٰ ، يا رب** » ، وهٰذا إقرارٌ بنعمة عظيمة تَستَوجبُ منه شكراً عظيماً ، هي نعمة العلم : العلم بالقرآن الكريم ، كلام رب العالمين ، الذي جمع الله فيه الخير من أطرافه ، فما من خير في الدنيا والآخرة إلا ودلَّنا عليه القرآن الكريم .

إلا أن هٰذا الرجل لم يكن من الموفَّقين ، ولم يَصْدُقِ الله في دنياه ، ولا في آخرته ، فلما قال الله له : « **ماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ ؟ قال : كنت أقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار** » ، زعم أنه شَغَل نفسَه بالقرآن الكريم ساعاتِ الليل وساعات النهار كلِّها ، وغفل هٰذا المسكينُ عن روح الاشتغال بالقرآن وتفسيره وفقهه ، وعن المقصود الأكبر من ذٰلك ! غَفَل عن أن الله سبحانه

يحبُّ من عبده أن يُطَهِّر قلبَه وقَصْدَه من كل ما سواه ، وأن واجب العبد إفرادُ الله تعالىٰ بالإرادة والتوجُّه .

ومَن قرأ القرآن الكريم لا يَجهلُ هٰذه المعاني عِلْماً ، لٰكنه قد يجهلُها عَملاً وسلوكاً ، كهٰذا الصنف من القُرَّاء . نسأل الله علماً نافعاً .

ولذٰلك « **يقول الله تعالىٰ له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبتَ** » ، ثم يبيِّن الله له حقيقةَ دَخيلته فيقول له : « **بل أردتَ أن يقال : إن فلاناً قارئ ، فقد قيل ذاك** » ، أي : قد وصلتَ إلىٰ ما سعيتَ إليه ، وحصلتَ علىٰ ما ابتغيتَه ، فلم يبقَ لك مطلوب آخر .

ثم يُؤمَر به فيُسحَبُ علىٰ وجهه ويُلقَىٰ في النار ، كما جاء في رواية مسلم .

وروى البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم ٤ : ٢٢٩٠ (٥١) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيُلقىٰ في النار ، فتندَلِق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحىٰ ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، ما لك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟! ، قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وحديث الباب صريح في أوَّلية هٰذا الصنف بالعذاب يوم القيامة ، حتىٰ إن الإمام الفقيه الشافعي ابن أرسلان قال في أول منظومته « صفوة الزُّبَد » :

فعالِمٌ بعِلْمِهِ لم يَعملَنْ   معذَّبٌ من قبلِ عُبَّاد الوثنْ

فإن قيل : فما ينبغي أن يكون قصد طالب العلم بعلمه ؟

قلت : ينبغي أن يكون قصدُه : اللهَ ، ومرضاته .

أن يكون قصدُه الله : في تعلُّمه ودراسته وكلِّ وسائل العلم ، حتىٰ في ذهابه وإيابه وشرائه الكتب . . . واختياره الشيوخ الذين يَصحَبهم ، فيصحبُ من يدلُّه على الله حاله ومقالُه أكثرَ من غيره . . . حتىٰ في زِيِّه وملبسه العلمي ، يصحِّح نيته ويُحسِن قصده .

وأما ابتغاؤه مرضاةَ الله : ففي عمله بعلمه ، وتطبيقه كلَّ خيرٍ يتعلَّمه ، فما يمرُّ به أمرٌ إلـٰهيٌّ أو نبويٌّ إلا بادر إلىٰ تطبيقه ، وما يمرُّ به نهي منهما إلا انتهىٰ عنه .

فما تمضي عليه أيام إلا عُرِف الخير في هديه وسلوكه ، وما تمضي عليه سنواتٌ قلائلُ إلا وهو عالم عامل .

روىٰ أبو داود (٨٦٧) ، والترمذي (٢٦٢) وقال : حسن صحيح ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما : أنه صلىٰ مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقولُ في ركوعه : « سبحان ربيَ العظيم » ، وفي سجوده : « سبحان ربي الأعلىٰ » وما أتىٰ علىٰ آيةِ رحمةٍ إلا وقف وسأل ، وما أتىٰ علىٰ آيةِ عذابٍ إلا وقف وتعوَّذ .

وهـٰذا هَدْيٌ نبويٌّ عظيم ، يعلِّمنا المبادرةَ إلى امتثال أمر الله ورسوله ، ومنه أَخَذَ سلفُنا حرصَهم على الإسراع بعمل ما يتعلَّمون .

روى الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله في كتابه : « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ١ : ٢٢٠ ـ ٢٢١ عن أبي عثمان الحِيريِّ الزاهدِ الكبير أنه خرج لصلاة العشاء في مسجده بإزار ورداء ، فقال أبو عمرو بن أبي جعفر بن حمدان لأبيه : يا أبتِ أبو عثمان قد أحرم ؟ فقال : لا ، ولـٰكنه هو ذا يَسمعُ مني « المسند الصحيح » الذي خرَّجتُه علىٰ كتاب مسلم ، فإذا سمع بسنَّةٍ لم يكن استعملها فيما مضىٰ ، أحبَّ أن يستعملَها في يومه وليلته ، وإنه سمع

في جملةِ ما قُرِئ عليَّ : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّىٰ في إزار ورداء ، فأحبَّ أن يَستعمل تلك السُّنَّة قبل أن يُصبح ! .

وهٰذه من آثار وسِمَات العلم النافع ، الذي علَّمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاءَ به وسؤالَ الله إياه ، عقب صلاة الفجر كلَّ يوم ، فقد روى النسائي (٩٩٣٠) ، وابن ماجه (٩٢٥) ، وأحمد ٦ : ٢٩٤ عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عقب صلاة الفجر بهٰذا الدعاء : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً طيباً ، وعملاً متقبَّلاً » .

وتُنظر أهمية العلم النافع في ميزان السلف رضي الله عنهم ، وذٰلك في دعاء ابن عمر رضي الله عنهما في سجود التلاوة : « اللهم لك سجد سَوادي ، وبك آمَنَ فؤادي ، اللهم ارزقني علماً ينفعني ، وعملاً يرفعني » ، رواه عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٤٠٦) .

ومما يُحَذَّر منه طالب العلم في أيامنا هٰذه : انهماكُه في القيل والقال ، وكثرة السؤال ، والفضولِ في الكلام ، والأخذِ في الجدال والمراء ، وإغرابُه في المسائل والمحفوظات ، والنقول عن غير المتداوَل من الكتب لدى العلماء ، وأخذُه للعلم عن الكتب لا بالتلقِّي من أفواه العلماء عن طريق مصاحبتهم ومزاحمتهم عليه بالرُّكب .

وكذٰلك انصرافُه عن أدب العلماء وأخلاقهم مع سلفهم وشيوخهم ، بل الازدراءُ بمن يتأدَّب بأدب العلماء ، ووصفُه بأوصاف مُزْرية تنفِّر الناس منه ، وظنُّ بعض الناس أن العلم ما هو إلا معلوماتٌ تُحفظ ـ أو تُحفظ أسماءُ المصادر التي تبحثُ في مسألة كذا وكذا ـ ويتشدَّق بها في المجالس ، أو تُملأ حواشي الكتب وتعليقاتُها بأسماء هٰذه المصادر ،

وحينئذ يُدْعَىٰ صاحبها : بالعلامة المحقق ، وعالم الوقت ، ومحدِّث العصر . . .

أو باللجوء إلى الوسائل المعاصرة (برامج الحاسوب) التي فَتَنت الناس وجعلتهم يظنون أنهم صاروا بها علماء حفَّاظاً مجتهدين ، استغنوا بها عن سؤال الشيوخ والعلماء عن كل صغيرة وكبيرة ، وما دَرَوْا أن هـٰذه البرامج ـ إن استعملها غير المختصين المتمكنين ـ سوف تكون من أعظم الوسائل التي ستحقِّق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « . . . اتَّخذ الناسُ رؤساءَ جهالاً ، فسُئلوا فأفتوا الناس بغير علم ، فَضَلُّوا وأضلُّوا » .

وأبعدُ من هـٰذا وذاك : مَنْ لا يشتغل بشيء من العلم إلا بمعرفة ما طُبع وما صَدَر حديثاً ، ومَنْ حقَّقه ، وأين مخطوطاتُه . . . وهو يَظنُّ أنه صار مَرْجعَ العلماء ، ومَحَطَّ الفضلاء . . .

والعلم فوق هـٰذا ، وغيرُ هـٰذا ، العلم : هو الحفظ والفهم ، والعمل والتطبيق ، والتخلُّق والتعبدُ ، والتصوُّن والتحقُّق ، والمحاسبةُ للنفس والمراقبة لله ، والاهتداء بهدي سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة السلام ، والاقتداء بسيرة أصحابه وتابعيه بإحسان .

وَلْيقرأ ـ بشكل عام ـ سيرةَ السلف وتراجِمهم وحياةَ الأئمة العلمية والعملية ، وليقرأ ـ بشكل خاص ـ : « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » للخطيب البغدادي ، و« تذكرة السامع والمتكلم » لابن جَمَاعة ، ومقدِّمة « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي ، و« شرح حديث أبي الدرداء : من سلك طريقاً يَلتمسُ فيه علماً » و« فضل علم السلف على الخلف » كلاهما لابن رجب الحنبلي .

فإنه إنْ قرأ هـٰذا وأُشْرب قلبُه حبَّ ما يَقرأ : كان من المُفلحين إن شاء الله .

علىٰ أنه لا يُغنيه شيء عن صحبة العلماء العاملين ، فإنهم هم الكتب الناطقة .

فإنْ سأل سائلٌ : فماذا تسمِّي من يحفظ ويحقِّق ويُوصَف بالعالم والحافظ والفقيه . . وهو علىٰ غير ما رسمتَ ووصفتَ ؟ .

فأقول في الجواب : أسمِّيه بما سمَّاه به الإمام الوَرِع أبو محمد بن أبي جَمْرة الأندلسي صاحبُ « بهجة النفوس » المتوفَّىٰ سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالىٰ ، وذٰلك فيما حكاه عنه تلميذه ابن الحاجِّ في كتابه الشهير « المدخل » .

قال ابن الحاج رحمه الله تعالىٰ في أوائل « المدخل » ١ : ١٧ : « وكان سيدي أبو محمد ـ ابن أبي جمرة ـ رحمه الله إذا ذُكر له واحد من علماء وقته ممن يُنْسَب إلىٰ طَرَف مما ذُكِر ـ أي : العلم ، وقليل من العمل ، بالنسبة إلىٰ ذاك الزمان : أواخر القرن السابع ـ ويُثْنىٰ عليه إذ ذاك بفضيلة العلم ، يقول : ناقل ، ناقل ، خوفاً منه ـ رحمه الله ـ علىٰ منصب العلم أن يُنْسبَ إلىٰ غير أهله ، وخوفاً منه أن يكون ذٰلك كذباً ، لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة ، وإنما هو صانع من الصنَّاع » !! .

وهٰذه استطرادة دَعَتْ إليها الحاجة ، أسأل الله أن ينفعني وقارئها بها ، وأعود إلىٰ شرح الحديث الشريف .

وأما ثاني الثلاثة : فصاحبُ المال ، يُعرِّفه الله بنعَمِه عليه فيقول له : « **ألم أوسِّع عليك حتىٰ لم أدَعكَ تحتاج إلىٰ أحد ؟** » وهٰذه أقلُّ نِعم صاحب المال ، أنه لا يحتاج إلىٰ أحد ، وأن الله كفاه همَّ الحاجة وغَمَّ الفاقة ، وكرب القلَّة ، ورَفَعه عن ذُلِّ السؤال ، وحفظ يَده أن تكون اليدَ السفلىٰ ، فما أعظمَها من نعمة ! ولذٰلك خصَّها الله بالذكر ، دون سائر نِعَم الغنىٰ واليسار .

ولا يملك هٰذا الإنسانُ جواباً إلا الاعتراف فيقول : « **بلىٰ ، يا رب ، قال : فما عمِلتَ فيما آتيتك ؟ قال : كنتُ أصِل الرحم وأتصدق** » .

ولٰكن الله تعالى الذي يَعلم السرَّ وأخفىٰ ، يَعلم أن ظاهره كذٰلك ، وأن في باطنه دخيلةً تُفسِد ما عمل ، وهي أنه لم يُرِدْ بصلته الرحم وبصدقته وجه الله عز وجل ، إنما أراد السمعةَ عند الناس ، وثناءَهم عليه ، ووصْفهم له بصالح القول ، وقد حصل علىٰ ما أراد ، فلِمَ يبتغي عند الله شيئاً آخر ؟! ، ولذٰلك « **يقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقولُ الله تعالىٰ : بل أردتَ أن يقال : فلان جوَاد ، فقد قيل ذاك** » .

وقد تقدم في الحديث الثالث قولُ الله تعالىٰ في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشّركاءِ عن الشرك ، من عَمِل عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه » .

وإن آفاتِ المال كثيرةٌ : الطُّغيانُ والبَطَر ، والسَّرَفُ ، والتَّرفُ ، والاستبداد والاستعلاءُ ، والغفلةُ عن الحقِّ ، والتقصيرُ في واجب الله عليه ، والدعاوى العريضة ، ونسيانُ فضل الله عليه .

وقصة الثلاثة من بني إسرائيل : الأبرص والأقرع والأعمىٰ مشهورة معروفة ، حاصِلُها أن اثنين من هٰؤلاء الثلاثة نَسيا فضل الله عليهما بالغنىٰ بعد الفقر ، وتنكَّرا للحق الذي عليهما ، فهٰذا حال الأكثر .

أما قصة قارون التي قصَّها الله تعالىٰ علينا في سورة القَصص : فهي عِبْرة العِبَر ، وما أصدقَ أن يُقال فيها : **خير العِبرة** : ما انسكبت عندها العَبْرة .

وأما ثالث الثلاثة : فالمجاهد الذي يُؤتَىٰ به « **فيقول الله له : في ماذا قُتلتَ ؟ فيقول : أُمرتُ بالجهاد في سبيلك ، فقاتلتُ حتىٰ قُتلتُ ، فيقول الله**

تعالىٰ له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردتَ أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذاك » .

نعم قاتل حتىٰ قُتِل ، ولـٰكنه لم يمحِّص نيتَه ، ولم يُخْلِصها لله ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ » ، فمن كان تعلُّمه وتعليمه ، وصلَاتُه وصدقته ، وجهاده واستشهاده : خالصاً لله ، فهو لله ، وما كان لغير ذٰلك فهو لما نواه .

ولقد كان المخلِصون حقّاً يعرِّضون في كلامهم ويتنكَّرون لئلا يُعْرفُوا فيُذكروا ، فكان جهادهم وبلاؤهم فيه درساً ، وإخلاصُهم درساً آخر هو أعظمَ من الدرس الأول .

قال ابن قتيبة في « عيون الأخبار » ١ : ١٧٢ : « حاصر مَسْلَمة بن عبد الملك حِصناً ، وكان في ذٰلك الحصن نَقْب ـ أي : فتحةٌ في حائطه ـ فندبَ الناسَ إلىٰ دخوله ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عُرْض الجيش ـ من طرف من أطرافه ، لا يُعرف ـ فدخله ، ففتح الله عليهم الحصن .

فنادىٰ مَسْلمة : أين صاحبُ النَّقْب ؟ فما جاء أحد .

فنادىٰ : إني قد أمرتُ الآذِنَ بإدخاله ساعةَ يأتي ، فعزمت عليه إلا جاء .

فجاء رجل إلى الآذن فقال : استأذنْ لي على الأمير .

فقال له : أنتَ صاحب النَّقْب ؟ قال أنا أخبركم عنه .

فأتى الآذنُ إلىٰ مسلمة ، فأخبره عنه ، فأذن له .

فقال الرجل لمسلمة : إن صاحب النَّقب يأخذ عليكم ثلاثاً : أن لا تُسَوِّدوا اسمه ـ أي : لا تكتبوا اسمه بالمداد الأسواد ـ في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسألوه ممن هو ؟ قال مسلمة : فذاك له ، قال الرجل : أنا هو .

فكان مسلمة بعد هٰذه الحادثة لا يصلِّي صلاةً إلا قال : اللهم اجعلْني مع صاحب النَّقب » .

وعلينا ونحن نقرأ هٰذا الحديث الشريف مع قصة أبي هريرة في أوله ، وقصة معاوية في آخره ، رضي الله عنهما ، علينا أن نستشعر خطورة الموقف ، وعِظَم هوله ، كما استشعره هٰذان الصحابيان الكريمان ، ليكون علمُنا للعمل والتخلُّق ، لا للاطلاع ، ولملء الفراغ ، ولا لتقليب الصفحات ، ولا لتتبُّع زلَّات المؤلف أو المحقق ، وحينئذ يقال عنه : العالم الكبير ، والناقد النِّحرير !! .

❋ ❋ ❋

٥ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالىٰ قال : لقد خَلَقْتُ خلقاً ألسنتُهم أَحْلىٰ من العَسَل ، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصَّبر ، فَبِي حلَفتُ : لأُتيحنَّهم فتنةً تدَعُ الحليمَ حيرانَ ، فَبِي يَغترُّون ؟! أمْ عليَّ يجْتَرِئون ؟! » .

٥ ـ **تخريجه** : رواه الترمذي في أبواب الزهد ـ بابٌ ـ (٢٤٠٥) وقال : حسن غريب ، وجاء في الطبعة الحمصية (٢٤٠٧) : حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه ، وروىٰ نحوه قبله مباشرةً عن أبي هريرة وسكت عليه .

غريبه : **لأُتيحنَّهم** : لأُنزِلنَّ بهم .

الحليم : العاقل .

يجترئون : يتجاوزون حدودي ويستخِفُّون بي .

معناه : يذمُّ الله تعالىٰ طائفةً من الناس لاتِّصافهم بصفة النفاق والمكر ، وهي صفةٌ لا تتفقُ مع صفات المسلمين الصادقين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « المكر والخِداعُ في النار »[١] ، وسواء كان مكرهم بالناس لإضرارهم ، أو كان مكرهم بهم من باب تظاهرهم بالدين ليأكلوا به الدنيا .

وقد روى الترمذي قبل هٰذا الحديث مباشرة حديثاً بنحوه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « يخرج في آخر الزمان رجالٌ يَخْتِلون

(١) حديث صحيح ، انظر تخريجه في « الترغيب والترهيب » ٢ : ٥٧٢ ، و« فتح الباري » ٤ : ٣٥٦ (٢١٤٢) .

الدنيا بالدين ، يلبَسون للناس جلود الضأْن من اللين ، ألسنتهم أحلىٰ من السُّكَّر . . . » ، فأفادت هـٰذه الرواية أن الحديث وارد في ذمِّ مَن يشتري الدنيا بالدين من علماء السُّوء في آخر الزمان . حفظنا الله من ذٰلك .

وقد وصَفهم تعالىٰ فقال : « **ألسنتُهم أَحْلىٰ من العَسَل ، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصَّبِر** » .

والصَّبِر : نباتٌ معروف شديد المرارة ، فألسنتُهم أشدُّ حلاوةً من العسل تُغري بسامعها أن يستمع ، كما قال تعالىٰ في صفة المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ إلا أنهم ﴿ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ المنافقون : ٤ ، لا تغني شيئاً ولا تفيد .

وكيف تصدر عنهم فائدة ولا وَزْنَ لدين الله في قلوبهم ، إنما الدنيا عندهم أجلُّ منه ، فهم يسرقون دنيا الناس بالدين (يُتَاجرون) به !! ، أو كيف تصدُر عنهم فائدة ، أو يُرجىٰ منهم خير وهم يحمِلون في قلوبهم الغِلَّ والحِقدَ والبَغْضاء للمسلمين ؟! فلا يُرجىٰ خيرٌ ممن لا يرجو للمسلمين الخير .

وجاءهم الوعيد الإلـٰهي من رب العالمين العزيز الغالب ، مع القَسَم بذاته المقدَّسة : « **فَبِي حلفتُ : لأُتيحنَّهم فتنة** » لأنزلنَّ بهم عذاباً ونقمةً « **تدع** » أي : تترك « **الحليم** » العاقل ذا الرأي منهم « **حيران** » لا يدري ماذا يعمل ، وكيف يتخلص من البلاء النازل به وبذويه .

« **فبي يغترون ؟ أم عليَّ يجترئون ؟** » : إن كان قد غرَّهم حلمي عليهم وإمهالي لهم فاغْتَروا وتجرؤوا علىٰ عصياني وإضرار عبادي ، فما أجهلَهم بالله في خلقه وتدبير كونه !! نسأل الله العافية .

❋ ❋ ❋

٦ ـ عن زيدِ بن خالدٍ الجُهَنيّ رضي الله عنه قال : صلىٰ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية ، علىٰ إثْر سماءٍ كانتْ من الليل ، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال لهم : « هل تدْرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسولُه أعلمُ ، قال : « قال : أصبحَ مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافر بي ، فأما مَن قال : مُطِرنَا بفضلِ الله ورحمته : فذٰلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطِرنا بنَوءِ كذا وكذا : فذٰلك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب » .

٦ ـ تخريجه : رواه الإمام مالك في « الموطأ » : كتاب الاستسقاء ـ باب الاستمطار بالنجوم ١ : ١٩٢ (٤) ، ومن طريقه البخاريُّ في أبواب الاستسقاء ـ باب قول الله تعالىٰ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة : ٨٢ ، ٢ : ٥٢٢ (١٠٣٨) ، ومسلم أيضاً : كتاب الإيمان ـ باب بيان كفر من قال : مُطِرنا بالنَّوْء ١ : ٨٣ (١٢٥) ، ثم رواه عن أبي هريرة بنحوه .

غريبه : صلَّىٰ لنا : قال في « الفتح » ٢ : ٥٢٣ : « أي : لأجلنا ، أو اللام بمعنى الباء ، أي : صلَّىٰ بنا ، وفيه : جوازُ إطلاق ذٰلك مجازاً ، وإنما الصلاة لله تعالىٰ » ، علىٰ أن لفظ مسلم : صلىٰ بنا .

في إثْر سماءٍ : أي : عَقِبَ نزولِ مطرٍ ، وأطلق عليه « سماء » لكونه ينزِل من جهتها .

فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم : أي : فَرَغَ من صلاته .

من عبادي : قال الحافظ : « هٰذه إضافة عموم ، بدليل التقسيم إلىٰ مؤمن وكافر » أي : وليستْ إضافةَ تشريف .

النَّوء : خلاصةُ ما في « النهاية » لابن الأثير ٥ : ١٢٢ ، والنووي ٢ : ٦١ وابن حجر أن (النوء) مصدر : ناء النجم ينُوء نَوْءاً ، إذا سقط ، وإذا طَلَع ، فهو من الأضداد ، ومنازل القمر المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ يسٓ : ٣٩ ، هي ثمانية وعشرون منزلاً ، يَسقط في كل ثلاثَ عشرةَ ليلةً نجمٌ منها في المغرب يسمَّى الساقط ، ويَطلُع آخَرُ مقابلٌ له فوراً في المشرق يسمَّى الطالع ، وينتهي آخر نجم نزولاً وسقوطاً بانتهاء العام .

وكما أن النَّوْء مصدر ، فقد يُستعمل اسمَ فاعلٍ بصيغته ، فيقال : نَوْء كذا ، ويراد به اسم الفاعل ، وكان أهل الجاهلية يزعمون أن مع هٰذا السقوط والطلوع يكون مطر ، فلذا ينسبونه إلى النوء ويقولون : مُطِرنا بنوء كذا ، فالباء سببية .

معناه : جاء الإسلامُ الحنيفُ يربط عقيدة المسلم بربِّه في كلِّ مجالاته ، ويبيِّن له أن الفاعل الحقيقيَّ ومسبِّبَ الأسباب هو الله عز وجل ، وكل ما يجري في الكون فبإرادته ، وإذا جرتْ عادة الله تعالىٰ في أمرٍ ما أن يُحدِثه بقرينة دالة عليه فليس معنىٰ ذٰلك أن القرينة هي المؤثِّرة في وجود ذٰلك الأمر ، لا ، إنما المؤثر في وجوده وفي وجود تلك القرينة ، وفي وجود ذٰلك الأمر عند تلك القرينة ، إنما هو الله عز وجل ، وحصل انحراف للجاهليين من جملة ما حصل لهم أنْ ربطوا الأمور بقرائنها ، فَنَسَبوا ما يحصُل عند ظهور القرينة إلى القرينة نفسها ، واعتقدوا أنها هي المؤثرة فيه .

ومثال ذٰلك فيما نحن فيه : أن العادة الإلٰهية جرتْ أن يحصُل مطر عند سقوطِ نجم وطلوعِ آخر ، ومع استمرار الزمن واستحكام العادة ـ حسب

استقرائهم ـ ظنوا أن النجم الساقط ـ أو الطالع ، على اختلاف كلام العلماء ـ هو الذي ينزِّل المطر ، وجهلوا أن ذاك النجم إنْ هو إلا قرينة وعلامة ، وليس له من التأثير شيء ، وذلك كاستمرار حركة القلب دليل على استمرار حياته ، ووقوفها دليل على انقطاع حياته .

ولهٰذا سمَّى الله تعالى اعتقاد ذلك كفراً ، فقال في هٰذا الحديث القدسي :

« **من قال : مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا : فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب** » .

وشهد سبحانه وتعالىٰ بالإيمان به لمن ردَّ الأمور إليه وعرف الحقائق فقال :

« **من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب** » .

وبناءً علىٰ هٰذا : فمن عرف أن الله تعالىٰ هو المسبِّبُ ، وهو الخالق للقرائن وما يكون عندها : فلا يحكم عليه بالكفر وإن قال تلك الكلمة ، إذ يكون مراده وتفسير كلامه أن المطر إنما حصل عند نوء كذا ، فالباء (عِنْدية) لا سببية ، إنما ننبهه إلى اجتناب هٰذا التعبير ، لما فيه من اشتباه بقول أهل الجاهلية ، ويكره للمسلم أن يتلفظ بالمشتبِهات .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في كتابه « الأم » ١ : ٢٥٢ : « وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا علىٰ ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلىٰ أنه أمطره نَوْءُ كذا : فذلك كفر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن النوءَ وقتٌ ، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ، فأما من قال : مطرنا بنوء كذا علىٰ معنىٰ : مطرنا بوقت كذا ، فإنما ذلك كقوله : مُطِرنا في شهر كذا ، ولا يكون هٰذا كفراً ، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه » ، نبَّهني إلىٰ هٰذا النقل الحافظ في « الفتح » ٢ : ٥٢٣ ، وعلَّق على الجملة الأخيرة منه فقال : « يعني : حسماً للمادة » أي : تجنباً للشبهة .

وفصَّل هٰذا المعنى ابن الأثير والنووي ، وقال ٢ : ٦١ : « اختلفوا في

كراهته ـ أي : التعبير نفسه مع الاعتقاد السليم ـ والأظهر كراهته ، لـٰكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها ، وسببُ الكراهة : أنها كلمة متردِّدةٌ بين الكفر وغيره ، فَيُساءُ الظنُّ بصاحبها ، ولأنها شعارُ أهل الجاهلية ومن سلك مسلكهم » .

ثم حكىٰ قولاً آخر عن بعضهم في معنى الحديث : أن كلمة « كافر » المذكورة في الحديث ، علىٰ معنىٰ : كافر بنعمتي ، فهو كفر نعمة ، لا كفر إيمان ، ويشهد لهـٰذا المعنىٰ رواية مسلم المشار إليها في تخريج الحديث ، عن ابن عباس قال : « مُطِر الناس علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر ، قالوا : هـٰذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نَوْء كذا . . . » فقابل الكافر بالشاكر ، فدلَّ علىٰ أنه كفران نعمة .

وفي رواية أخرىٰ عند مسلم أيضاً عن أبي هريرة : « ألم ترَوا إلىٰ ما قال ربكم ؟ قال : ما أنعمتُ علىٰ عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ، يقولون : الكواكب وبالكواكب » فقوله : « بها » يعود على النعمة ، أي : كافرين بالنعمة . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجلَّ : يُؤذيني ابنُ آدمَ ، يَسُبُّ الدهرَ ، وأنا الدهر ، بيدي الأمرُ ، أقلِّبُ الليل والنهار » .

٧ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التفسير ـ تفسير سورة الجاثية ٨ : ٥٧٤ (٤٨٢٦) ، وفي كتاب الأدب ـ باب لا تسبُّوا الدهر ١٠ : ٥٦٤ (٦١٨١) ، ومواضع أخرىٰ ، ورواه مسلم أولَ : كتابِ ألفاظِ من الأدب وغيرها ـ باب النهي عن سبِّ الدهر ٤ : ١٧٦٢ (٢) .

معناه : قال الطِّيبيُّ في « شرح المشكاة » ١ : ١٤٩ : « **الإيذاءُ** : إيصالُ المكروه إلى الغير قولاً أو فعلاً ، أثَّر فيه أو لم يؤثِّر ، وإيذاؤه تعالىٰ عبارةٌ عن فعل ما يكرهه ولا يرضىٰ به ، وكذا إيذاء رسول الله عليه الصلاة والسلام » .

وقال الحافظ في « الفتح » ١٠ : ٥٦٦ : « **الدهرُ** : مدةُ زمانِ الدنيا ، وعرَّفه بعضهم : بأنه أمدُ مفعولاتِ الله في الدنيا ، أو : فعلُه لما قبل الموت » ، وزاد ابن الأثير في « النهاية » ٢ : ١٤٤ : « **الدهر** : اسم للزمان الطويل » .

فيكون معنى الحديث : يقول ابن آدم ما لا أرضاه ، فَيَعْصِيني حين ينسُب الأمور التي أقدِّرها عليه وعلىٰ غيره : إلى الدهر ، وهل الدهرُ إلا مخلوقٌ من مخلوقاتي أو ظرف يستوعِب أقداري ؟ ذٰلك أن الأمر بيدي أصرِّف شؤون عبادي كما أشاء ، والأزمنةُ من جملة ذٰلك .

وإن مِن جَهْل العرب في جاهليتهم أنهم لا ينسبون إلى الدهر خيراً ، مع أنه ظرف يَستوعبُ ما يحبُّون وما لا يحبون ، وإنما يقتصرون علىٰ نسبة الشرِّ والنكبات إليه ، حتىٰ حكى الله تعالىٰ عنهم ذٰلك في القرآن العظيم :

﴿ . . . وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية : ٢٤ ، وما عُرِف عنهم إضافةُ شيء من الخير إليه ، فلذا خصَّه الله تعالىٰ هنا في الحديث القدسي بذكر سبِّهم له .

وقوله : « **وأنا الدهر** » : حاصلُ ما قيل في تفسيره ، **ثلاثة أوجه** :

أحدها : أن المراد به : وأنا المدبِّر للأمور الكائنة فيه .

ثانيها : أنه علىٰ حذف مضاف ، أي : وأنا صاحبُ الدهر وخالقُه .

ثالثها : أنْ يُقدَّر المضاف المحذوف : مقلِّب الدهر ، يدلُّ عليه قوله عَقِبه : « **بيدي الأمر أقلِّب الليل والنهار** » .

ورواية الإمام أحمد ٢ : ٤٩٦ : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله عز وجل قال : أنا الدهر ، الأيامُ والليالي لي ، أجدِّدُها وأُبْلِيها ، وآتي بملوكٍ بعد ملوك » وسنده صحيح ، كما قاله الحافظ ابن حجر في « الفتح » ١٠ : ٥٦٥ .

ثم نقل الحافظ عن القاضي عياض قوله : « زَعَم بعضُ مَن لا تحقيقَ له أن الدهر من أسماء الله ، وهو غلطٌ ، فإن الدهر مدة زمان الدنيا » ، فهو مخلوقٌ من مخلوقات الله ، فكيف يكون اسماً من أسمائه ! .

وقال قبله بقليل : « قال المحققون : من نَسَب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقةً كفر ، ومن جَرَىٰ هٰذا اللفظ علىٰ لسانه غيرَ معتقِد لذٰلك فليس بكافر ، لٰكنه يكره له ذٰلك ، لشَبَهه بأهل الكفر في الإطلاق » ، وتقويم اللسان وتنزيهه عن المشتبِهات أمر مطلوب شرعاً .

وقد ختم الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله شرحه هٰذا الحديث بقوله في « بهجة النفوس » ٤ : ١٨٠ : « فيا هٰذا إذا تأملتَ مثل هٰذه الأمور وأدلةَ الشرع وجدتَ الدين من شيئين ، ويدور علىٰ قاعدتين : الامتثال والأدب ، فمن امتثل فقد وفَّىٰ ما به أُمر ، ومن تأدَّب فقد نجا مما عنه نُهِي ، وله كُرِه ، وفقنا الله وإياك لذٰلك الامتثال والأدب بمنِّه » آمين .

* * *

٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالىٰ : كذَّبني ابنُ آدم ، ولم يكُنْ له ذٰلك ، وشَتَمني ولم يكن له ذٰلك .

فأما تَكْذيبُه إيايَ فقولُه : لنْ يُعيدني كما بَدَأني ! وليس أوَّلُ الخَلْق بأهونَ عليَّ مِن إعادته ، وأما شَتْمُه إيايَ فقولُه : اتخذَ الله ولداً ! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ ، ولم أَلِدْ ولم أُولَدْ ، ولم يكنْ لي كُفُواً أَحَدٌ » .

٨ ـ **تخريجه** : رواه البخاري : كتاب التفسير ـ تفسير سورة الإخلاص مرتين متتاليتين ٨ : ٧٣٩ (٤٩٧٤ وهٰذا لفظه ، ٤٩٧٥) ورواه قبلُ في تفسير سورة البقرة ـ عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ البقرة : ١١٦ ، ٨ : ١٦٨ (٤٤٨٢) ، ورواه من قبلُ أولَ كتاب بدء الخلق مختصراً ٦ : ٢٨٧ (٣١٩٣) .

غريبه : **الشتم** : هو الوصف بما يقتضي التنقيص .

ابن آدم : أَطلق الكل وأراد البعض ، فهو من العامِّ الذي أريد به الخصوص ، أو أراد به الجنس .

الأحد : هو الواحد المنفرد في ذاته وصفاته ، فهو وصفٌ ينفي وجودَ نظيرٍ لله تعالىٰ أو شريكٍ أو مثيل في ذاته وصفاته ، وينبئ عن تنزيه الله عن كل نقص ، وإثبات كل كمال . كما قاله العلامة علي القاري في « المرقاة » ١ : ٩٦ .

الصمد : هو السيِّد والملجأ الذي لا يمكن الخروجُ عنه ، لإحاطة أمره ، فهو بمعنى : المقصود في الحوائج كلها .

كُفُواً : هو الكُفْء ، أي : المكافئُ المماثِل ، فليس لله كفوٌ ، أي : لا يُماثِل اللهَ عز وجل أحدٌ في ذاته أو صفاته أو أفعاله ، بل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورىٰ : ١١ .

معناه : يحكي الله تعالىٰ عن طائفتين من بني آدم اعتقاداتٍ مكفِّرةً ، حَمَلَهما علىٰ ذٰلك : الجهل ، وتجاوز العبد حدَّه .

أما الطائفة الأولىٰ : فهي التي تَكذِب على الله تعالىٰ ـ وتكذِّبه في قوله ـ فتقول ـ كما حكى الله ذٰلك عنهم ـ : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية : ٢٤ ، وتقول : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ قۤ : ٣ ، وتقول : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الواقعة : ٤٧ ـ ٤٨ .

مع أن الله سبحانه وتعالىٰ قرَّر في كتبه السماوية ، وفي القرآن العظيم خاصةً ، بالبراهين الساطعة حقيَّةَ اليوم الآخر ، وأقام علىٰ ذٰلك الحجةَ ، ومن جملة ذٰلك : ما قاله هنا : « **وليس أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ من إعادته** » .

وبيان ذٰلك : أن الحججَ قائمة علىٰ أن الله خالقُ الخلق ، وذٰلك من خِلال خلقه وموجوداته ، فوجودُها برهانٌ على الله تعالىٰ ، ونرَاها تنقُص بموت بعضهم ، وتزيد بتوالد بعضهم ، وقد شَرَع لهم الشرائع ، وأخبرهم بالمحاسبة علىٰ تطبيقها ، وإخباراتُه صادقةٌ لا تتخلَّف ، وبما أنه سبحانه هو الذي ابتدأ خلقهم ، فإن تنفيذ وعده بالإحياء بعد الإماتة سهل هيِّن عليه ، فإن مَن ابتدأ صُنْعَ شيء هان عليه صُنعه ثانيةً ، بل إن من شأن البشر أن يكون الصنعُ الثاني أهونَ علىٰ أحدهم من الصنع الأول .

وعلىٰ هٰذا المعنىٰ جاء ظاهر قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الروم : ٢٧ ، وإلا فالخلق الأولُ والثاني . . كلُّه هين على الله عز وجل ؛ لأنه يكون بكلمة : « كن » لا بجهدٍ ومُزاولة وتجربة . . معاذ الله وحاشاه ، ولٰكن الله تعالىٰ ـ من رأفته بعباده ـ يخاطبهم بما يَعقلون ، وهٰذا معنىٰ قول النَّحْويين : إن « أفعل » هنا جاءت علىٰ غير بابها ، أي : إن قوله تعالىٰ : ﴿ أَهْوَنُ ﴾ الذي هو علىٰ وزن « أفعل » التفضيل يفيد في أصل وَضْعه أن مقابلَه يكون مفضولاً مرجوحاً ، وهٰذا أفضلُ وأرجح ، فأهونُ : يكون مقابلُه « هين » ، فالمعنىٰ : أن الخلقَ الأولَ هيِّن على الله تعالىٰ ، وهٰذا ـ أي : الخلقُ الثاني والإحياءُ ثانيةً بعد الإماتة ـ أهونُ عليه ، وليس الأمر كذٰلك بالنسبة لله عز وجل ، فالكلُّ عليه سواء .

وخلاصة ذٰلك : أن طائفةً من بني آدم تزعُم عدمَ الإعادة بعد الإماتة ، وفي هٰذا الزعْم كذبٌ على الله تعالىٰ ، وتكذيبٌ له في قوله وإخباره : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ التغابن : ٧ .

وأما الطائفةُ الثانيةُ التي تَصِف الله عز وجل بما يُوجب نِسبةَ النقص إليه جلَّ وعلا : فهي التي حكى الله قولها في كتابه العظيم : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ البقرة : ١١٦ ، وهو زَعْم الطائفة العُزَيرية ـ من اليهود ـ ، والنصارىٰ ، والعربُ حيثُ نسبوا البناتِ إلى الله ، تعالى الله عن ذٰلك .

وفي هٰذا القول من مستَلْزمات النقصِ لله عز وجل الشيءُ الكثير .

فاتِّخاذ الولد : يَستلزمُ الزوجةَ ، ويستلزم الحاجةَ إليها ، ويستلزم تجدُّدَ الحاجة إليها ، ويستلزم الشبيهَ لله تعالىٰ ، ويستلزم وجودَ قدماءَ مع الله تعالىٰ ، أو حاجتَه إلىٰ حوادث ، . . . وما إلىٰ ذٰلك .

ولهٰذا قال : « وأنا الأحَدُ الصمد » : ذَكَر اسم « الأحد » هنا ، لأنه ينفي عنه وجودَ نظير أو شريك أو شبيه ، وكلَّ نقص ، وذَكَر اسم « الصمد » لأنه يُثبت له تعالى الغنى المطلق ، فكلُّ ما سواه مفتقر إليه محتاجٌ ، وهو المقصودُ من قِبَلهم ، فلا حاجة به إلىٰ أحد ، بل كلُّ أحد إليه محتاج ، وله قاصد .

وحاشاه أن يَلد ، لأنه غيرُ محتاج إلىٰ ولد وما سواه ، وحاشاه أن يولد من أمّ وأبٍ ، والكلُّ مفتقرون إليه فكيف يفتقر في وجوده إلىٰ أم وأب .

وجَهلتْ هٰذه الطائفة أنه ليس لله مماثلٌ أو شبيه أبداً ؛ فلذا ختم تعالىٰ حديثه بهٰذا النفي المستأصل للمكافئ أو المشابه له ، لتقرير واقعٍ ثم ردِّه : وهو أن الولدَ يُشْبه أباه ولا بدَّ ، فنسبةُ الولد إليه : نسبةُ شبيهٍ إليه ، والله تعالىٰ يقول عن نفسه ـ ومَن أصدقُ من الله قيلاً ـ : « لم يكنْ لي كفُواً أحدٌ » .

وأما بيانُ وجهِ تجاوزِ العبد حدَّه : فإن الله تعالىٰ ذَكَرَ جهالةَ الطائفة الأولىٰ وقال : « ولم يكنْ له ذٰلك » ، وذكر جهالةَ الطائفة الثانية وقال : « ولم يكن له ذٰلك » ، ومعنىٰ هٰذه الجملة : ولم يكن ينبغي له ذٰلك ، ولا ينبغي له ذٰلك ، لأن قوله هٰذا قولٌ بجهلٍ وعن جهلٍ ، ولا ينبغي للعاقل أن يتعدَّىٰ طوره ، فيتعاطىٰ ما لا يعلمه ، ويقولَ ما يجهلُه ، ورحم الله امرأً عرف حدَّه ووقف عنده فلم يتجاوزه . وسبحان الله ربِّ العرش العظيم .

* * *

٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزَّ وجل : الكبرياء ردائي ، والعَظَمةُ إزاري ، فَمَنْ نازَعَني واحداً منهما قَذَفْتُه في النار » .

٩ ـ **تخريجه** : رواه أبـو داود : كتاب اللباس ـ باب ما جاء في الكِبْر (٤٠٨٧) ، وابن ماجه : كتاب الزهد ـ باب البَراءة من الكِبْر (٤١٧٤) ، وأحمد ٢ : ٢٤٨ بلفظ : « والعزَّة إزاري » ، ورواه ابن ماجه أيضاً عن ابن عباس (٤١٧٥) ، وعندهم جميعاً عطاء بن السائب ، وهو مختلِط ، إلا أن الراويَ عنه عند أحمد سفيانُ بن عيينة ، وهو ممن سمع منه قبل الاختلاط ، وتوقَّاه بعدما اختلط . انظر « الكواكب النيِّرات » لابن الكيال ص ٣٢٧ ، و« تهذيب التهذيب » ٧ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

معناه : « **الكبرياء** : الكِبْر ، وهو الترفُّع على الغير ، بأن يرىٰ لنفسه عليه شرفاً ، **والعظمةُ** : كونُ الشيء في نفسه كاملاً شريفاً مستغنياً ، فالأول أرفع من الثاني ، إذ هو غاية العظمة ، فلذا مثَّله بالرداء ، وقيل : **الكبرياء** : الترفُّع عن الانقياد ، وذٰلك لا يستحقُّه إلا الحقُّ » كما نقله المناوي في « فيض القدير » ٤ : ٤٨٤ عن القاضي البيضاوي في شرحه علىٰ « مصابيح السنة » للبغوي .

ولعل القول الثاني لتعريف الكبرياء أقربُ ، فإنه بمعنى الحديث الآتي في تعريف الكِبر وأنه : « بَطَر الحق وغَمْط الناس » **وبطر الحق** : هو دَفْعه ومعاندتُه ، وهٰذا هو عدم الانقياد إليه .

وقال ابن الأثير في « النهاية » ٤ : ١٤٠ عن صفة الكبرياء : « قيل : هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يُوصَف بها إلا الله تعالىٰ » .

فالله سبحانه الكامل ذاتاً ووجوداً ، والغنيُّ : المستَغني والمُغني ـ كما تقدم بيانه صفحة ٤٦ ـ يحقُّ له أن يكون له الشرف على جميع مخلوقاته ، لتفضُّله عليهم بالوجود بعد العدم ، وبالإمداد بكلِّ ما يحتاجونه ، ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ إبراهيم : ٣٤ .

أما الإنسان : فهو ناقصٌ ذاتاً بافتقاره إلى الله تعالىٰ ، وناقصٌ وجوداً لافتقاره في وجوده إلىٰ إيجاد الله تعالىٰ له ، وهو مخلوقٌ محدودٌ ضعيف ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ النساء : ٢٨ ، ويترقَّىٰ من ضعف إلىٰ قوة ، ثم ينحدر من قوة إلىٰ ضعف وشيبة ، يعتريه الوجود والعدم ، والحياة والموت ، وما إلىٰ ذٰلك من أطوار في الدنيا والبرزخ والآخرة .

فمن كان هٰذا شأنه كيف يُنازع الله ربَّ العالمين خالقَ كلِّ شيء في صفتين عظيمتين من صفاته ـ وكلُّ صفاته عظيمةٌ ـ ويريد أن يتَّصف بهما ـ وهو ليس بأهلٍ لذٰلك ـ أو يريد أن يعامِل خلق الله وعبادَه بمقتضاهما فيتكبَّر عليهم ويتعاظم ! .

إنما صفةُ الإنسان : العبديةُ ، وكمالُه : أن يتحقَّق بها ليسعَد برضاء الله وإحسانه .

روىٰ مسلم في « صحيحه » : كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكِبْر ١ : ٩٣ (١٤٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يَدخُلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّة من كِبْر » فقال رجل : إن الرجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَناً ونعلُه حسنةً ! فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، الكِبْرُ : بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس » ، أي : دَفْع الحق ومعاندتُه ، واحتقارُ الناس وغمطُهم حقوقَهم وأقدارهم .

فمن كان فيه مثقالُ ذرة من بَطر الحق وغَمْط الناس : لا يدخُل الجنة حتىٰ يطهِّره الله منه ، بقذفه إياه في النار ، أو أن يتجاوزَ اللهُ عنه إن شاء ذلك .

ومن تعَاظَمَ على الناس ورأىٰ نفسه خيراً منهم في علم أو عمل وتقوىٰ : فهو دونهم وأشدُّهم تقصيراً .

روىٰ مسلم ٤ : ٢٠٢٤ (١٣٩) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قال الرجل : هَلَك الناس ، فهو أهلكُهم » ، قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان راوي « صحيح » مسلم عن الإمام مسلم : لا أدري : أهلكَهم ـ بالنصب ـ أو : أهلكُهم ـ بالرفع ـ .

قال الإمام النووي في « شرحه » ١٦ : ١٧٥ : « الرفعُ أشهرُ ، ويؤيِّده أنه جاء في رواية رُوِّيناها في « حِلية الأولياء » في ترجمة سفيان الثوري ـ ٧ : ١٤١ ـ : « فهو من أهلكهم » ، قال الحميديُّ في « الجمع بين الصحيحين » : « الرفع أشهر ، ومعناها : أشدُّهم هلاكاً » .

ثم قال النووي : « واتفق العلماء علىٰ أن هٰذا الذمَّ إنما هو فيمن قاله علىٰ سبيل الإزراءِ على الناس واحتقارِهم وتفضيلِ نفسِه عليهم وتقبيحِ أحوالهم ؛ لأنه لا يعلم سرَّ الله في خلقه . . . » .

فهٰذا كلُّه من الكبائر ، وصاحبُه معرَّض لسخط الله وإلقائه في نار جهنم ، فإنه داخل تحت قوله : « فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار » .

وقال النووي أيضاً ١٦ : ١٧٣ : « وهٰذا وعيدٌ شديد في الكِبْر ، مصرِّح بتحريمه ، وأما تسميته إزاراً ورداءً فمجازٌ واستعارةٌ حَسَنة ، كما تقول العرب : فلانٌ شعارُه الزهد ودِثاره التقوىٰ ، لا يريدون الثوب الذي هو شعارٌ أو دثارٌ ، بل معناه : صفتُه ، كذا قال المازِري ، ومعنى الاستعارة هنا : أن

الإزار والرداء يَلْصقان بالإنسان ويَلزمانه ، وهما جَمالٌ له ، قال : فضرب ذٰلك مثلاً لكون العزِّ والكبرياء بالله تعالىٰ أحقُّ ، وله ألزمُ ، واقتَضَاهما جلاله ، ومن مشهور كلام العرب : فلانٌ واسعُ الرداء ، وغَمْرُ الرداء : أي : واسعُ العطية » .

* * *

١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أَنفِقْ أُنفِقْ عليك » ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يدُ الله ملأىٰ ، لا تَغِيضُها نفقة ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ » ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلَقَ السماءَ والأرض ، فإنه لم يَغِضْ ما في يده ، وكان عرشُه على الماء ، وبيدِهِ الميزانُ يخفِضُ ويرفَعُ » .

١٠ ـ **تخريجه** : رواه البخاري في تفسير سورة هود ـ باب : وكان عرشه على الماء ٨ : ٣٥٢ (٤٦٨٤) بهٰذا اللفظ ، والقدسيُّ منه هو الجملة الأولىٰ ، وهي في مواضع أخرىٰ من البخاري ، وفي مسلم أيضاً في مواضع ، منها : كتاب الزكاة ـ باب الحثِّ على النفقة وتبشير المنفِق بالخلف ٢ : ٦٩١ (٣٧) .

غريبه : **لا تَغيضها نفقة** : لا تَنقُصها نفقة ، ومثلها : لم يَغِض : لم يَنْقُص .

سَحّاءُ : مِن : سحَّ يَسُحُّ ، أي : صَبَّ على الدوام .

الليلَ والنهارَ : منصوبان على الظرفية .

معناه : يأمر الله سبحانه وتعالىٰ عبادَه بالإنفاق ، ولا يتحقَّق هٰذا الأمر إلا إذا كان إنفاقه في سُبُل الخيرات والمَبَرّات ، وَوَعدَ عزَّ وجل المنفقَ في وجوه الخير بالخلَف عليه فقال : « **أَنفقْ أُنفِقْ عليك** » فيكون مجمل المعنىٰ : إنْ تُنْفِق فيما يُرضيني : أنفِق عليك ، أي : أخلِف عليك وأُعَوِّضك ، وعبَّر بلفظ « أُنفقْ » : من باب المشاكلة اللفظية .

فهو وعدٌ من الله عز وجل بالخَلَف ، ووعدُ الله لا يتخلَّفُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ الزمر : ٢٠ .

وبمناسبة حكاية النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالىٰ قوله : « **أَنفق أُنفق عليك** » بيَّن عليه الصلاة والسلام كرم الله عز وجل ، واستدلَّ علىٰ ذٰلك ببعض آثاره ، فقال : « **يد الله ملأىٰ** » ، قال في « الفتح » ١٣ : ٣٩٥ (٧٤١١) : « **والمراد من قوله** : « **ملأىٰ** » : لازمه ، وهو أنه في غاية الغنىٰ ، وعنده من الرزق ما لا نهاية له في علم الخلائق » ، لذٰلك قال : « **لا تَغيضُها نفقة** » ، لا تَنقُصُها نفقة ، فالنفقات والعَطيَّات الإلٰهية لا تَنقُص ما عند الله عز وجلَّ ، مع علمنا بأن عطاءَ كلِّ مُعْطٍ علىٰ حَسَبه وقدره ، وعطيَّات الله تعالىٰ تليقُ بعظمته وكرمه .

وهٰذه المِنَح الإلٰهية ليستْ في ساعة من ليل أو نهار ، لا ، إنها دائمة مستمرةٌ لا تقف ، ولا تنحصر علىٰ فئة دون أخرىٰ : علىٰ مؤمن دون كافر ، ولا علىٰ أبيض دون أسود ، ولا علىٰ متقدِّم دون متأخر ، إنما هي « **سَحَّاءُ** » دائمةُ العطاء في كل حينٍ وآنٍ : « **الليلَ والنهارَ** » ، وتقدم في الحديث الأول قولُه[1] : « يا عبادي لو أنَّ أولَكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فأعطيتُ كل إنسان مسألَتَه ما نَقص ذٰلك مما عندي إلا كما يَنقُص المِخْيَط إذا أُدخل البحر » .

ثم استدلَّ النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ ذٰلك بالإمدادات الإلٰهية لكلِّ مخلوق بما ينفعه ويناسِبُه ، فقال : « **أرأيتم** » أي : ألا ترون إلىٰ « **ما أَنفقَ منذ خلقَ السماء والأرض** » من دُهور وقرون متطاولة لا يعلَم أولَها إلا الله ، وهو يَمدُّ كل مخلوق بما يليق به ، فهو يَمدُّ السماءَ بالبقاء بما يناسبها ،

---

(١) تقدم (ص ٣٥ ـ ٣٦) .

ويمدُّ الأرض بالبقاء بما يناسبها ، وكذٰلك الحيوان والنبات والجماد . . كلٌّ بما يناسبه ، بل : كلُّ جزئية بما يناسبها من أجزاء الحيوان : كشعره وعظامه ودمه . . . والنبات : كجذع الشجرة ، وأوراقها وثمارها . . . فالله سبحانه هو المانح الواهب لهٰذه الزهرة لين مَلْمَسها ، وجمال منظرها ، وزَكيَّ رائحتها !! .

وهو المُمِدُّ للكواكب السيَّارة ببقائها في العلو باستمرار ، وبالجَرْي بانتظام ، وبالنور النافع للأرض وأهلها .

وأَمْرُه لهٰذه المخلوقات متوجِّه إليها في كلِّ أقلَّ من طرفة عين : « كن » ، وأمره نافذ « فيكون » هٰذا الشيءُ المتوجِّه إليه هٰذا الخطاب ، فإذا انقطع عنه أقلَّ من طرفة عين زالت عنه صفةُ الحياة والبقاء .

فأوامره تعالىٰ هٰذه ، المستمرَّة الدائمة ، المانحةُ المعطية ، ومع ذٰلك « فإنه لم يَغِض » لم يَنْقُص « ما في يده » .

وكلُّ شيء في هٰذا الكون العظيم الذي نراه ولا نراه : إنما هو مستمِدٌّ من الله عز وجل ، ذٰلك لأنه مشمولٌ مُحاط بالسماء ، والسماءُ مُحَاطَة بالكرسي ، والكرسي حوله ومحيط به عرش الرحمٰن ، وعرشُ الرحمٰن على الماء ، وكلُّ هٰذه مخلوقات لله تعالىٰ ، مستمِدَّة منه بقاءَها وكونها ، وأشار إلىٰ هٰذا الشمول بقوله : « وكان عرشه على الماء » .

وهٰذا الماء : ليس هو الماءَ الذي نعهدُه ونَشربه ـ مثلاً ـ ، إنما هو ماءٌ خاصٌّ لا نعرفه ، قال الحافظ في « الفتح » ١٣ : ٤١٠ (٧٤١٨) : « وليس المرادُ بالماء ماءَ البحر ، بل هو ماء تحت العرش ، كما شاء الله تعالىٰ » ، وانظر لزاماً الكلام على الحديث الآتي برقم ٩٥ .

ثم نبَّه صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن هٰذا العطاءَ والإمدادَ قائمٌ علىٰ مقتضَى الحكمة في مخلوقاته ، فإذا اقتضت حكمتُه قطعَ الإمداد عن هٰذا

الإنسان قَطَعَه ، فلم يَعُدْ متَّصفاً بالبقاء والحياة ، وكذلك هٰذا الحيوان والنبات والجماد . . . وسائر مخلوقاته عز وجل .

نبَّه إلىٰ هٰذا المعنىٰ بقوله : « وبيده الميزان يَخفِضُ ويرفع » : يُحيي ويميت ، يُضعِف ويُقوِّي ، ويعطي ويمنع ، يفعل ما يشاء وما تقتضيه حكمته جل جلاله . والله أعلم .

* * *

١١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَنزِل ربنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخِر ، فيقولُ : من يدعوني فأستجيبَ له ؟ ومن يسألُني فأعطيَه ؟ ومن يستغفرني فأغفرَ له ؟ » .

١١ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواضع بألفاظ متعددة ، منها : كتاب الدعوات ـ باب الدعاء في نصف الليل ١١ : ١٢٨ (٦٣٢١) ، ورواه مسلم بألفاظٍ مختلفةٍ أكثرَ : كتاب صلاة المسافرين ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ١ : ٥٢١ ـ ٥٢٣ (١٦٨ ـ ١٧٢) .

معناه : هـٰذا الحديث من مشهور الأحاديث القدسية بين العامة والخاصة ، ومن مشهورها بين الخاصة في الاختلاف في معنى الكلمة الأولىٰ منه : « **ينزل ربنا** » ، وهـٰذا كلام الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في المسألة ، قال : « هـٰذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء :

أحدهما ـ وهو مذهب جمهور السلف[1] وبعض المتكلمين ـ أنه

(١) يستفاد من هاتين الجملتين أن في السلف مُؤوّلة ، وليس الأمر كما اشتهر : أن جميع السلف علىٰ إثبات ما ورد صفةً لله تعالىٰ . وأقدمُ من رأيته أوّلَ من رجال السلف : الإمام مجاهد بن جبر ، المولود سنة ٢٠ تقريباً ، والمتوفَّىٰ أول القرن الثاني ، ونحوه أبو صالح السمان الثقة المشهور ، وهو قريب الولادة والوفاة من مجاهد ، كلاهما أوّل قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة : ٢٢ : إلىٰ ثواب ربّها ناظرة ، انظر حكاية ذٰلك عنهما في « تفسير » ابن جرير ٢٩ : ١٩٢ ، وخَطَّأَهما ، و« مجموع فتاوى » ابن تيمية ٢٠ : ٣٣ ، و« فتح الباري » ١٣ : ٤٢٥ (باب رقم ٢٤) من كتاب التوحيد . =

يُؤمَن بأنها حقٌّ ، على ما يليق بالله تعالى ، وأن ظاهرها المتعارفَ في حقِّنا غيرُ مراد ، ولا يُتكلَّم في تأويلها ، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق ، وعن الانتقال والحركات وسائر سِمَات الخلق .

والثاني ـ مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف ، وهو محكيٌّ هنا عن مالك[1] والأوزاعي ـ : أنها تُتَأَوَّل على ما يليق بها ، بحسب مواطنها ، فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين :

= ثم الإمام قتادة بن دِعامة وكانت وفاته بعدهما بنحو ١٥ سنة ، انظر كلامه الآتي ص ٣٤٢ .

ثم الأعمشُ المولود سنة ٦١ ، والمتوفَّى سنة ١٤٧ ، انظر « سنن » الترمذي (٣٦٠٣) ، وسيأتي نقل كلامه ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ . وهذا مالك والأوزاعي ، والنضر بن شُمَيل (١٢٢ ـ ٢٠٤) ، بل الإمام أحمد رحمه الله نفسه قال في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ الفجر : ٢٢ ، أي : جاء ثوابه ، أسنده البيهقي وقال : « هذا إسناد لا غبار عليه » ، كما تجده في « البداية والنهاية » لابن كثير ١٠ : ٣٤٢ . وغير هذا وذاك .

قال الذهبي في « السيَر » ١٤ : ٣٩٦ ـ ٣٩٧ عن التأويل : إنه طريقة معروفة ، وينظر آخِر شرح الحديث الآتي برقم ٥٩ .

وطريقة السلف في إثبات ما يثبتونه لله عز وجل من الصفات هي كما نقله ابن العديم المحدِّث المؤرخ ، في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ١٠ : ٤٧٢٣ عن البرهان الرندي الفقيه ، من علماء حلب في القرن السادس ، لما وقع السؤال عن رجل يقول : إني سلفي المذهب ، ويزعم أن الله تعالى في الجهة ، فقال الرندي : « أما السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ما كانوا يثبتون لله من الصفات ما كان يستحيل في حقه من صفات المحدَثات كالأجسام والأعراض والجواهر ، بل ينزهونه سبحانه وتعالى عما يستحيل في حقه ، ويثبتون له ما يجوز في حقه ، وما كانوا يتحدثون في الله وفي ذاته إلا عند الحاجة والضرورة . ولهذا قيل عنهم : تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله . في كلام حسن اختصره » .

(١) ونسبه أيضاً القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ١ : ١٧٤ ، وفيه سَقْط وتحريف يصحَّحان من الطبعة المغربية ٢ : ٤٤ .

أحدهما ـ تأويل مالك بن أنس وغيره ـ معناه : تنزل رحمته وأمره وملائكته ، كما يقال : فعل السلطان كذا ، إذا فعله أتباعه بأمره .

والثاني : أنه على الاستعارة ، ومعناه : الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف . والله أعلم » .

ومتىٰ يكون هٰذا التنزُّل ؟ المشهورُ ما جاء في هٰذه الرواية ، وهو ثلثُ الليل الآخر ، وجاء غير ذٰلك ، وللعلماء كلامٌ في الجمع بين الروايات .

وطريقُ معرفةِ ثلث الليل الآخر : أن يُقْسَم الوقت الذي بين أول المغرب إلىٰ طلوع الفجر علىٰ ثلاثة ، ويُضافَ الحاصلُ علىٰ وقت المغرب ، فيعلَم الثلثُ الأول ، وهٰكذا الثلث الثاني ، والثالث .

وهٰذا الثلثُ الأخير هو وقت السَّحَر ، وهو الوقتُ المبارك الذي يتجلّى الله عز وجل فيه علىٰ عباده المقبِلين عليه بالصلاة والدعاء والقرآن والاستغفار ، فيعطيهم سُؤلهم ، ويقولُ لهم :

« مَن يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يَسألني فأعطيه ؟ من يستغفِرني فأغفرَ له ؟ » .

وفي رواية لمسلم : « أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ فلا يزال كذٰلك حتىٰ يُضيء الفجر » .

وزاد مسلم في رواية أخرىٰ : « ثم يقول : من يُقرضُ غيرَ عَدِيم ولا ظَلوم ؟ » .

وفي رواية له : « ثم يبسُطُ يديه تبارك وتعالىٰ يقول : من يُقرِض غير عديم ولا ظلوم ؟ » .

وفي رواية للنسائي (١٠٣١٠) : « من ذا الذي يسترزقني فأرزقَه ؟ من ذا الذي يستكشفُ الضرَّ ، أكشفُ » .

فهٰذه نداءات الحق تبارك وتعالىٰ تَتْرىٰ علينا كلَّ ليلةٍ لمدة ساعات ، فما أشدَّ حرمانَ الغافلين ! علىٰ مختلِف أنواع غفلتهم .

ولِمَا عَلمه صلى الله عليه وسلم من الخير العظيم في القيام في هٰذه الساعات المباركات قال : « أفضلُ الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل » . رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً ٢ : ٨٢١ (٢٠٢) .

ذٰلك لأن المصلِّيَ يناجي ربَّه ، وربُّه في تلك السَّاعة يُناديه ، فيكون العبدُ مقبلاً علىٰ ربه سبحانه ، حين إقبال الله تعالىٰ عليه .

ولأن « أقربُ ما يكونُ العبد من ربِّه وهو ساجد ، فأَكثِروا الدعاء »[1] ، و« أقربُ ما يكونُ الرَّبُّ من العبد في جوف الليل ، فإنِ استطعتَ أن تكونَ ممن يذكر الله في تلك الساعة فكُن »[2] .

فإذا سجد العبدُ في جوف الليل فقد حَصَل له قربُ الله سبحانه وتعالىٰ منه ، وقربُه من الله جلَّ وعلا . نسأل الله التوفيق لذٰلك بفضله وعافيته .

فمنْ كان يريد الله عز وجل فليتعرَّض لنفحاتِه في هٰذه الساعات .

ومنْ كانت له إلى الله حاجةٌ يريد منه قضاءَها فليقُمْ لمناجاةِ ربِّه في هٰذه اللحظات ، وَلْيسألِ الله ما يريد ، فهٰذه لحظاتُ العطاء .

روىٰ مسلم في « صحيحه » ١ : ٥٢١ (١٦٦) عن جابر رضي الله عنه ،

---

(١) رواه مسلم ١ : ٣٥٠ (٢١٥) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧٩) عن عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه مرفوعاً وقال : حسن صحيح غريب من هٰذا الوجه .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في الليل لَساعةً لا يُوافقها رجل مسلم يَسألُ الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كلَّ ليلةٍ »(١) .

وهٰذه ساعات المحسنين يقدِّمون فيها بين أيديهم إحسانَهم ؛ لينالوا مما عند الله ما يَليق بكرمه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ أي : في الحياة الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ ، ثم ذكر وجوه إحسانهم ، وأوّلُها : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الذاريات : ١٥ ـ ١٨ .

وقوله جل شأنه : « **من يُقرِض غيرَ عديمٍ ولا ظلوم** » أي : من يقرض غير فقيرٍ ولا ظالم .

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ٦ : ٣٦ : « **والمراد بالقَرْض** ـ والله أعلم ـ عملُ الطاعة ، سواءٌ فيه الصدقةُ والصلاةُ والصوم والذِّكر وغيرُها من الطاعات ، وسماه سبحانه وتعالىٰ قرضاً : ملاطفةً للعباد ، وتحريضاً لهم على المبادرة إلى الطاعة ، فإن القرضَ إنما يكون ممن يعرفه المُقتَرِض ، بينه وبينه مؤانسةٌ ومحبةٌ ، فحين يتعرَّض للقرض يبادر المطلوبُ منه بإجابته ؛ لفرحه بتأهيله للاقتراض منه وإدْلاله عليه وذكره له . وبالله التوفيق » .

وأقربُ منه قولُ العلامة عليِّ القاري رحمه الله في « شرح المشكاة » ٣ : ١٤٦ : « **من يقرض** : أي من يُعطي العبادة البدنية أو المالية على سبيل

---

(١) قال عليٌّ القاري رحمه الله تعالىٰ في « المِرقاة » ٣ : ١٤٦ : « **والحكمة في إبهام ساعة الليل** ـ كساعة الجمعة ، وليلة القدر ، والصلاة الوسطىٰ ـ للمبالغة في الاجتهاد لتحصيل المراد ، وعدم اليأس من الفوت ، وعدم الاقتصار على العبادة في وقت دون وقت ، وتخليصِ القلب من العجب والغرور ، وكونِ العبد بين الرجاء والخوف » .

القرض وأخذ العِوَض ، **غيرَ عديم** : أي ربّاً غنيّاً غيرَ فقير عاجزٍ عن العطاء ، **ولا ظلوم** : بعدم الوفاء أو بنقص من الثواب والجزاء . يعني : مَنْ يَعملُ في العاجلة رجاءَ الثواب في الآجلة ، لغنيّ لا يَعجِز عن أداء حقه ، وعادلٍ لا يَظلم المُقرضَ بنقص ما أخذ ، بل يضاعف له أضعافاً كثيرة ، وإنما وَصَفَ ذاته تعالىٰ بنفي هٰذين الوصفين ؛ لأنهما المانعان غالباً عن الإقراض ، **فالمعنىٰ** : من يعملْ خيراً في الدنيا يجدْ جزاءه كاملاً عندي في العُقبىٰ » . والله تعالىٰ وليُّ التوفيق والإحسان .

❋ ❋ ❋

باب القدر

١٢ ـ قال عُبَادةُ بن الصامِتِ رضي الله عنه لابنه : يا بُنيَّ إنك لنْ تَجِدَ طَعْمَ حقيقةِ الإيمانِ حتىٰ تَعْلَمَ أنَّ ما أصابكَ لم يكنْ لِيخطِئك ، وما أخطأكَ لم يكنْ ليصيبَك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أولَ ما خلق الله القَلَم ، فقال له : اكتُبْ ، قال : ربِّ وماذا أكتُبُ ؟ قال : أُكتب مَقاديرَ كلِّ شيء حتىٰ تقومَ الساعةُ » .

يا بُنيَّ إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « من مات علىٰ غير هـٰذا فليس مني » .

١٢ ـ تخريجه : رواه أبو داود : كتاب السنة ـ بابٌ في القَدَر (٤٦٦٨) ، والترمذي : كتاب القدر ـ باب (رقم ١٧) (٢١٥٥) وقال : حديث غريب ، ثم رواه في التفسير تفسير سورة نّ والقلم ، بالإسناد نفسه (٣٣١٩) وقال : حديث حسن غريب ، وفي الطبعة الحمصية (٣٣١٦) : « حسن غريب صحيح » .

معناه : في أول هـٰذا الحديث أُنْموذج من تعهُّد السلف رضي الله عنهم لعقائد أولادهم ، ولم يَسُق الحديث سياقةً مجرَّدة عن استنباط الفائدة منه والاعتبار ، بل قدَّم ذٰلك ، ثم استدلَّ له علىٰ وصيته بكلام النبي صلى الله عليه وسلم .

والفائدة التي استنبطها سيدُنا عُبادةُ هي عبرةٌ إيمانية ودرسٌ عملي لمن

يخوض غَمْرة الدنيا ، فتتجاذبُه سَرَّاؤها تارةً ، وضرَّاؤها تارة : « **لن تجدَ طَعْمَ حقيقة الإيمان** . . . » ، وهٰذا لا يكون إلا بعد جهادٍ طويل ، فلم يكتفِ بطعم الإيمان ، بل نبَّهه إلىٰ أعلىٰ من ذٰلك : طعم حقيقة الإيمان .

« **حتىٰ تعلمَ أن ما أصابك** » من خيرٍ أو شرٍّ ، خطأُ أو صواب ، ضُرٍّ أو نفع « **لم يكن** » أبداً ولا يمكنُ « **ليخطئك** » أي : ليفوتَك فينزلَ علىٰ غيرك ولا يُصيبكَ ، « **وما أخطأك** » أي : وما فاتك فنزل علىٰ غيرك : « **لم يكن ليصيبك** » ، إذْ يلزم من ذٰلك عدمُ صحة العلم الإلٰهيّ ، وعجزُ القدرة الإلٰهية ! وهٰذا مُحال .

والدليل علىٰ ذٰلك : حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدالُّ علىٰ أن كلَّ ذٰلك مقدَّرٌ مسطور قبل خَلق السماوات والأرضين بخمسين ألفَ سنةٍ ، كما جاء في « صحيح » مسلم : كتاب القدر ٤ : ٢٠٤٤ (١٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كتب الله مقادير الخلائقِ قبلَ أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسين ألفَ سنةٍ ، قال : وعرشُه على الماء » .

قال المناوي رحمه الله في « فيض القدير » ٤ : ٥٤٨ شارحاً للتقدير « بخمسين ألفَ سنة » : « معناه : طولُ الأمد ، وتكثير ما بين الخلق والتقدير من المُدَد ، لا التحديد ، إذ لم يكن قبل السماوات والأرض سنة ولا شهر » .

وذٰلك « أن أولَ ما خلَقَ الله القلم ، فقال له : اكتبْ ، قال : ربِّ وما أكتبُ ؟ قال : اكتُبْ مقاديرَ كلِّ شيء حتىٰ تقوم الساعة » .

والقلم : عالَمٌ من العوالم المخلوقة بأمر الله ، لا تُعرَف ماهيتُه ولا صفاتُه .

وظاهر الحديث : أنه أولُ ما خلق الله ، ومثلُه جاء عن ابن عباس رضي الله

عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أولَ شيء خلقه الله القلم ، وأمَره أن يكتبَ كلَّ شيء »[١] .

مع أن حديثَ عِمرانَ بن حُصَين المرويَّ في مواضع في البخاري ، منها : كتاب التوحيد ـ باب « وكان عرشه على الماء » ١٣ : ٤٠٣ (٧٤١٨) ، وفيه : أن أهل اليمن قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : جئناك لنتفقَّه في الدين وَلِنسألك عن أولِ هٰذا الأمر : ما كان ؟ فقال لهم : « كان الله ولم يكنْ شيءٌ قبلَه ، وكان عرشُه على الماء » : فإنه يشير إلىٰ أسبقيَّة العرش والماء للقلم .

وفي « مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية رحمه الله ٢ : ٢٧٥ : « ذهب كثير من السلف والخلف إلىٰ أن العرش متقدِّم على القلم واللوح ، مستدلِّين بهٰذا الحديث » حديث عمران المذكور .

وفي « فتح الباري » ٦ : ٢٨٩ (٣١٩١) : « حكىٰ أبو العلاء الهَمْداني أن للعلماء قولين في أيِّهما خُلِق أولاً : العرش أو القلم ؟ قال : والأكثر علىٰ سَبق خلْق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني » ، وأفاد ابن كثير في أول « البداية والنهاية » ١ : ٧ أن ابن الجوزي تبع ابن جرير ، وقال : « يُحمل حديث القلم ـ « أول ما خَلَق الله القلم » ـ علىٰ أنه أول المخلوقات من هٰذا العالم » ، فهي أوليَّة مقيَّدة ، أما الأولية المطلقة من بين المخلوقات فللعرش .

ولما خلق الله تعالى القلم وجَّه إليه الخطاب ، وكلَّفه بمهمته : « اكتب » فقال القلم : « رب وماذا أكتب ؟ » ، ولكلِّ مخلوقٍ لغتُه ونُطْقُه ، وهٰذا محمولٌ على الحقيقة لا مجازَ ولا تأويل .

قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت : ١١ .

---

(١) قال الهيثمي رحمه الله في « المجمع » ٧ : ١٩٠ : « رواه البزار ورجاله ثقات » .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يسٓ : ٦٥ .

وقال أيضاً : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء : ٤٤ .

فالسماوات والأرض تتكلم ، وتسبِّح ، والأيدي والأرجل تتكلم ، وذٰلك بعد أن يختم الله علىٰ أفواه الكافرين التي هي محلُّ النطق والكلام ، وكل شيء في هٰذا الكون يسبِّح الله .

ثم جاء البيان والتفصيل للأمر بالكتابة : « **اكتب مقادير كلِّ شيء حتىٰ تقومَ الساعة** » ، ولا ريبَ أن القلم امتثلَ الأمرَ وكتب ما قدَّره الله تعالىٰ من حين هٰذا الخطاب إلىٰ أن تقومَ الساعة ، وينقضيَ أمر هٰذا العالَم ، أما ما بعد ذٰلك من عوالم الآخرة ومشاهدِها ومواقفها ثم ما يكون من أهل الجنة بعدما يدخلونها ، ومن أهل النار بعدما يدخلونها ، ويكون خلود بلا موت ، وغير ذٰلك مما حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم : فهٰذا مما لا علاقةَ للقلم به ، فلم يكتبْ من ذٰلك شيئاً .

وأين كانت الكتابة ؟ كانت الكتابة في اللوح المحفوظ ، وليس في اللوح شيء مما يكون بعد انقضاء الدنيا ، وهٰذه الكتابة عامة شاملة للكليات والجزئيات من أمور هٰذا الكون ؛ إذْ كلُّ ما فيه سيقع ويكون في هٰذه الدنيا ، ولا يكون فيها شيء أبداً مهما جلَّ أو دقَّ إلا وهو مقدَّر ، وما قدَّره إلا وقد عَلِمه ، وعلمُ الله تعالىٰ شاملٌ للكليات والجزئيات ، كما هو مقرَّر عند أهل الحق ، خلافاً لمن كَفَر من الفلاسفة بقولهم : إن الله تعالىٰ يعلم الكليات دون الجزئيات ! .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام : ٥٩ . ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ فصلت : ٤٧ .

والتقديُر أزليٌّ قديم بقِدَم الله عز وجل ، لأنه تابعٌ لعلم الله تعالىٰ ، وعلمُه : صفةٌ أزلية ، كباقي صفاته .

أما هٰذه الكتابة فحادثة ، بحدوث القلم واللوح ، ولٰكنْ ليس معنىٰ حدوثها أنها تُسجَّل في اللوح بعد وقوعها !! .

لا ، إنما حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تاريخ حدوثها ، في الحديث الذي تقدَّم نقله عن « صحيح » مسلم : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » .

فَعَلِمَ الله تعالىٰ ذٰلك وقدَّره أزلاً ، ثم جاءت الكتابة بالقلم على اللوح المحفوظ حادثةً ، ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وكان ما كان ، وما يكون وما سيكون ، علىٰ وَفق ما هو مسجَّل مسطَّر في اللوح ، حتىٰ إن خلق السماوات والأرضين جاء كما هو مكتوب في اللوح ، بل إنَّ ما كان ـ مما لا يعلمه إلا الله ـ في هٰذه الخمسين ألفَ سنة بين كتابة المقادير وبين خلق السماوات والأرض ، كلُّه قد كان وحَصَل علىٰ وَفْق ما سُطِّر فيه .

والفِرقةُ القَدَرية المعروفةُ في كُتُب الفِرَق والمقالات : طائفتان :

طائفةٌ تزعُم أنْ « لا قدرَ وأن الأمرَ أُنُفٌ » كما قال يحيى بن يَعْمَر أحد التابعين لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وحديثه هو الحديث الأول في كتاب الإيمان من « صحيح » مسلم .

ومعنىٰ قولهم هٰذا : لم يقدِّر الله تعالىٰ شيئاً على العباد أزلاً ، ونفيُ تقديره : نفيٌ لعِلْمِه الأزليِّ أيضاً ، فنفوا العلم الإلٰهيَّ أزلاً بالكائنات

والحوادث ، وأن الأمر ـ أي : علمَ الله تعالىٰ بالأشياء ـ أُنُف ـ جديدٌ حادث يستفيده ويعلمه الله تعالىٰ بعد وقوعه !! .

وهٰذه الطائفة هي القدرية القديمة التي أدركها عدد كبير من الصحابة ، وقال فيهم عبد الله بن عمر ـ في الحديث المشار إليه ـ ليحيى بن يعمر : أَخبِرهم أني بريء منهم ، وأنهم بُرآءُ مني ، والذي يَحلف به عبد الله بنُ عمر لو أنَّ لأحدهم مِثلَ أُحُدٍ ذهباً فأنفقه ما قَبِل الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر ، ثم حدَّث بحديث جبريل المشهور : أخبرنْي عن الإسلام ، أخبرني عن الإيمان ، أخبرني عن الإحسان . . .

قال القاضي عياض ، ووافقه النووي : « القائل بهٰذا كافرٌ بلا خلاف »[(١)] .

وقال النووي قبل قليل ١ : ١٥٤ : « وقد انقرضت القَدَرية القائلون بهٰذا القول الشنيع الباطل ، ولم يبقَ أحدٌ من أهل القِبلة عليه » .

قلت : وعليه يُحمل تتمة حديث عبادة الذي نشرحه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **من مات علىٰ غير هٰذا فليس مني** » أي : ليس علىٰ ملَّتي وديني الذي جئتُ به .

وأما الطائفة الثانية من القدرية : فقال النووي : « وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ، ولٰكنْ يقولون : الخيرُ من الله والشرُّ من غيره ، تعالى الله عن قولهم » .

قلت : وهٰؤلاء هم الذين يُعرفون في كتب العقائد والكلام بالمعتزلة ، وليست كافرة ، بل هي ضالَّة مبتدعة .

نسأل الله أن يرزقنا الإيمان الكامل ، وأن يتوفانا عليه .

❋ ❋ ❋

---

(١) شرح عياض علىٰ مسلم ١ : ٢٠٢ ، والنووي ١ : ١٥٦ .

باب بدء الخلق، وأحاديث الأنبياء

١٣ ـ عن مسلم بن يسارٍ الجُهَني : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئل عن هٰذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف : ١٧٢ ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأَل عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ خلَقَ آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرجَ منه ذرِّيةً ، فقال : خلقتُ هٰؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرِّية ، فقال : خلقتُ هٰؤلاء للنار ، وبعملِ أهل النار يعملون » .

فقال رجل : ففيمَ العملُ يا رسول الله ؟! قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا خَلَق العبدَ للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتىٰ يموتَ علىٰ عملٍ من أعمال أهل الجنة ، فيُدخلَه به الجنةَ ، وإذا خلق العبدَ للنار استعمله بعملِ أهل النار ، حتىٰ يموتَ علىٰ عملٍ من أعمالِ أهل النار ، فيُدخلَه به النار » .

١٣ ـ تخريجه : رواه مالك في « الموطأ » : كتاب الجامع ـ النهي عن

القول بالقدر ٢ : ٨٩٨ (٢) ، ومن طريقه : أبو داود : كتاب السنَّة ـ باب في القَدَر (٤٦٧١) ، والترمذي : كتاب التفسير ـ ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥) وقال : حديث حسن ، وتتمة كلامه تُشْعِر أنه يريد الحسن لغيره .

معناه : روىٰ عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده على « المسند » ٥ : ١٣٥ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه من قوله في تفسير هـٰذه الآية : « جمعهم ـ الله تعالىٰ ـ فجعلهم أرواحاً ، ثم صوَّرهم ، فاستنطقهم فتكلَّموا ، ثم أَخَذَ عليهم العهدَ والميثاقَ وأشهدهم علىٰ أنفسهم : ألستُ بربكم ؟ قال ـ الله ـ : فإني أُشهدُ عليكم السماوات السَّبع والأَرَضين السبع ، وأُشهدُ عليكم أباكم آدم عليه السلام : أن تقولوا يومَ القيامة : لَمْ نعلمْ بهـٰذا ، اعلموا أنه لا إلـٰه غيري ، ولا ربَّ غيري ، فلا تُشركوا بي شيئاً ، إني سأُرسل إليكم رسُلي يُذَكِّرونكم عهدي وميثاقي ، وأُنزلُ عليكم كتبي ، قالوا : شهدْنا بأنك ربُّنا وإلـٰهنا ، لا ربَّ لنا غيرُك ، فأقرُّوا بذٰلك .

ورفع عليهم آدمَ يَنْظُر إليهم ، فرأى الغنيَّ والفقير ، وحَسَنَ الصورة ، ودون ذٰلك ، فقال : ربِّ لولا سوَّيتَ بين عبادك ؟ قال : إني أحببتُ أن أُشْكر .

ورأى الأنبياءَ فيهم مثلَ السُّرُج ، عليهم النور ، خُصُّوا بميثاق آخَرَ في الرسالة والنبوة ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ الأحزاب : ٧ ، كان في تلك الأرواح فأرسَله إلىٰ مريم »(١) .

قلت : وهـٰذا وإنْ كان موقوفاً علىٰ أُبيّ بن كعب إلا أنه مما لا يُدرَك بالرأي والاجتهاد والفهم من الآيتين المذكورتين ، وأُبيٌّ لم يُعرف بالأخذ

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » ٧ : ١٢٥ : فيه « محمد بن يعقوب الرَّبالي وهو مستور ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . **قلت** : الرَّبالي ليس بمستور ، وانظر « تعجيل المنفعة » (٩٨١) لزاماً .

عن أهل الكتاب ، فهو مما يُجزم بأن له حكم الرفع ، وأنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يُصرِّح بروايته عنه .

وفي الآية الكريمة كلامٌ وأقاويلُ أخرىٰ لا حاجة إلىٰ ذكرها .

وروى النسائي (١١١٩١) ، والإمام أحمد في « المسند » ١ : ٢٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان ، فأخرج من صلبه كلَّ ذرية ذَرَأها ، فنشرهم بين يديه كالذَّرِ[١] ، ثم كلَّمهم قُبُلاً[٢] ، قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ[٣] أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣ »[٤] .

ونَعْمان : جبل قرب عرفة .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم ، ثم مسحَ ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذريةً ، فقال : خلقتُ هـٰؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . . . » ثم قال نحوه بالنسبة لأهل النار .

---

(١) ولهـٰذا يسمي العلماء هـٰذا الموقف : عالَم الذَّر ، وهـٰذا الأخذ للميثاق أمر كائن على الحق والحقيقة ، لا على المجاز والتخيُّل وضرب الأمثال ، كما ذهب إليه ـ والعياذ بالله ـ الأستاذ محمد الغزالي ـ غفر الله لنا وله ـ في كتابه « خلق المسلم » ص ٥٩ ، وهي لوثة من لوثات محمد عبده ـ المصلح الديني !! ـ سَرَت إلىٰ طه حسين ومحمد الغزالي وغيرهما من تلامذة محمد عبده ومدرسته ، نسأل الله العافية والمغفرة .

(٢) قال في « النهاية » ٤ : ٨ : « أي : عِياناً ومقابلة لا من وراء حجاب ، ومن غير أن يُوَلِّي أمرَه أو كلامه أحداً من ملائكته » .

(٣) أي : أتْباعاً لهم في الشرك .

(٤) قال الهيثمي في « المجمع » ٧ : ٢٥ : « رجاله رجال الصحيح » ، لـٰكن الحافظ ابن كثير أعلَّه في تفسيره للآية ٤ : ١٥٠٥ ورجح وقفه على ابن عباس ، ويبقىٰ أن له حكم المرفوع .

ويبدو أن ثمةَ إجمالاً في قوله : « استخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هٰؤلاء للجنة » يبيِّنه ويفصِّله حديثُ ابن عباس المرفوع ، وكلامُ أُبيٍّ بن كعب السابقان ، تقديره وتقريره ـ والله أعلم ـ : استخرج منه ذرية ، فاستشهدهم علىٰ أنفسهم لنفسه بالربوبية ، فمن أجاب طواعيةً جعله من أهل اليمين والجنة ، ومن أجاب اضطراراً جعله من أهل الشمال والنار .

فسأل الرجلُ نفسُه ـ كما يستفاد من رواية الترمذي ـ سؤالاً ثانياً : ففيمَ العملُ يا رسول الله ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم جواباً مفصَّلاً ، وأجاب عليه الصلاة والسلام عن الإشكال نفسه جواباً موجَزاً في مواقفَ أخرىٰ متعدِّدة ، فقال : « اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له »[١] .

وكلمة « ميسر » : كلمةٌ جامعةٌ لكلمتين تندرجان تحتها ، هما الكلمتان الشائعتان علىٰ ألسُن الناس : مسيَّر ومخيَّر ، والإنسان ليس مسيراً فحسبُ ، كما تقوله الجبرية ، ولا مخيراً فحسبُ ، كما تقوله المعتزلة ، إنما هو مسير ومخير معاً ، وبدلاً من أن نقول كلمتين وكلٌّ منها مُوهم ، فإنا نقول ما قاله عليه الصلاة والسلام : ميسر ، فالله تعالىٰ يُيسِّره للخير ويُيسِّر الخير له ـ من حيثُ لا يشعر فهو مسير من هٰذه الناحية ، وهو يمشي في طريق هٰذا الخير باختياره دون عصا تُلْجِئُه ، فهو مخير من هٰذه الناحية .

وقد غيَّب الله تعالىٰ عن عباده تلك النتائج المحتومةَ ؛ ليبقىٰ للإنسان اختياره سلوكَ الطريق التي يريدها ، وهٰذا الاختيارُ هو مناطُ التكليف ، ومحلُّ الثواب والعقاب .

---

(١) رواه البخاري في مواضع ، آخرها كتاب القَدَر ـ باب ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ الأحزاب : ٣٨ ، ١٣ : ٤٩٤ وهنا شرحه ابن حجر ، ومسلم : كتاب القدر أيضاً أوله ٤ : ٢٠٣٩ (٦) كلاهما عن علي رضي الله عنه : كنا في جنازة في بقيع الغرقد . . .

قال الخطابي في « معالم السنن » ، ووافقه النووي في « شرح مسلم »[١] : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبارُ الله سبحانه وتعالى العبدَ وقهرُه على ما قدَّره وقضاه ، وليس الأمرُ كما يتوهَّمونه ، وإنما معناه الإخبارُ عن تقدُّم علم الله سبحانه وتعالىٰ بما يكون من إكساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلقٍ لها : خيرها وشرها » .

ونقل عنه ابن حجر في « الفتح » ١١ : ٤٩٨ (٦٦٠٥) عن الخطابي نصّاً آخر ، قال رحمه الله : « لما أخبر صلى الله عليه وسلم عن سَبق الكائنات رام من تمسَّك بالقدر أن يتَّخذه حجةً في ترك العمل ، فأعلَمهم أن هنا أمرين لا يَبطلُ أحدهما بالآخر : **باطن** : وهو العلَّةُ الموجبةُ في حكم الربوبية ، **وظاهر** : وهو العلامة اللازمة في حق العبودية ، وإنما هي أمارةٌ مُخِيلةٌ في مُطالَعةِ علم العواقب غيرُ مفيدة حقيقة ، فبين لهم أن كلاً ميسر لما خلق له ، وأن علمه في العاجل دليل مصيره في الآجل ، **ونظير ذٰلك** : الرزق ـ محتوم مقدَّر ـ مع الأمر بالكسب ، والأجل ـ مقدَّر مسطَّر ـ مع الإذن في المعالجة » .

وهٰذا كلام جيد وقوي ، **وتقرير هٰذا التنظير** : أن الله تعالىٰ قدَّر أرزاقنا فهي محدودة بما قدَّره ، محتومةٌ لن تتغير في علمه ، ومع ذٰلك أُمِرنا بالكسب والسعي ، وآجالُنا كتبتْها الملائكة حين نفخت فينا أرواحنا ونحن في أرحام أمهاتنا ، فهي معلومة محدودة ، ومع ذٰلك قال صلى الله عليه وسلم : « تداووا عباد الله »[٢] .

---

(١) « معالم السنن » ٤ : ٣٢٢ ، و« شرح مسلم » ١ : ١٥٤ ـ ١٥٥ بشيء من التصرف منه ، وكلمة « إكساب » من « المعالم » ، وعند النووي : اكتساب ، تحريف مطبعي .

(٢) رواه من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه : أبو داود (٣٨٥١) ، والترمذي (٢٠٣٨) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٣٤٣٦) .

وهـٰكذا خواتيمنا معلومةٌ عنده تعالىٰ ، ومع ذٰلك أمَرنا بالعمل الصالح ، ونهانا عن العمل الفاسد .

فيقال لمن يحتجُّ بالقدر ـ وهو مغيَّب عنه ـ : لمَ لا تحتجُّ بالقدر المغيَّب عنك في مجال رزقك وأجلك ، فاستسلمْ للفقر الذي تعيشُه ، وللمرض النازلِ بك !! وإلا فما الفرق بين هـٰذا وذاك ؟! .

ولهـٰذا فإنه لا يجوز للعبد أن يحتجَّ بما هو مغيب عنه ليسوِّغ أعماله الشريرة ؛ لأنه من تسويل الشيطان له ووسوسته ، فإذا عُوتب علىٰ ترك الصلاة والزكاة . . . وشُرب الخمر وفعل المنكرات . . قال : هـٰكذا قدر الله عليَّ !! .

فإن هـٰذا الأحمق الآثم : يُسوِّغ لنفسه البقاءَ علىٰ منكراته ، وبدلاً من أن يوبِّخ نفسه ويعتِب عليها ، إذا به يوجه العتبَ على الله سبحانه وتعالىٰ : هـٰكذا قدَّر الله عليَّ ! .

وفي كلامه هـٰذا من الضلال الكبير ما لو عَقَلَه لأقْلَع عنه وعن معاصيه ، ذٰلك أن مؤدَّى الشعور بالجبر ، وأن الله قدَّر عليه كذا فهو مستسلِم له ، وسيفعله قبل علمه بما قدَّر عليه ، مؤدَّىٰ ذٰلك : تعطيل الشرائع وإلغاؤها ، وإلا : فلِمَ أَمَرَه تعالىٰ ونهاه ، وأوجب عليه وحرَّم ، وأثاب وعاقب . . ما دام هناك قدرٌ ملزِم للعبد ينزع منه اختياره ، ويسلبه عقله ؟! .

وكم وكم في القرآن الكريم من كلمات تنسب الأعمال إلى العباد أنهم عملوها ، فلو كان هناك إجبار من الله تعالىٰ لمَا نَسَب الأعمال إلى العباد ، بل كان يَنْسُبها إلىٰ نفسه ، كما يَنسُب الأعمال الكونية إلىٰ نفسه .

فهو سبحانه يقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ الواقعة : ٦٨ ـ ٦٩ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ الواقعة : ٧١ ـ ٧٢ .

فهو سبحانه ينسب خلْق السماوات والأرض وما بينهما إليه ، وجعْلَ السماوات بناءً ، والأرض مهاداً ، والكواكب زينةً ، والجبال أوتاداً . . كلُّ هٰذا يَنسُبه إلىٰ نفسه سبحانه ، أما أعمالُ العباد التكليفية : فينسُبها إلى العباد ، وما من أسطرٍ قليلة في القرآن تقرؤها إلا وتجدُ فيها ذٰلك .

وإن شئتَ فاقرأ الأسطر الأولىٰ من سورة البقرة : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الواقعة : ٢ ـ ٥ .

فنسب إليهم الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة والإنفاق ، والإيمان بالكتب كلِّها ، والإيقان بالآخرة ، وبناءً علىٰ ذٰلك وصفهم بأنهم علىٰ هدىً من ربهم ، وبأنهم هم المفلحون .

أما إنزال الكتب ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ : فلم يَنسُبه إليهم ، بل هو من الله وهو معلوم ، وإن لم يصرَّح به في الآية .

والذي سوَّغ نسبةَ هٰذه الأعمال إليهم : أنهم ما عملوها إلا باختيارهم ، واختيارُهم جزءٌ من تكوينهم وفِطرتهم التي كوَّنهم الله بها وفَطَرهم عليها .

فكما أن الله تعالىٰ جعلك سميعاً بصيراً عاقلاً . . كذٰلك جعلك مختاراً ، وهٰذا هو مراد علماء الكلام في قولهم : الجزء الاختياري ، أي : الاختيار الذي هو جزء مما خُلقت عليه ، كما قرَّره العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله في رسالته « الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري » .

ولتُحْسِنَ الاختيار أكرمك الله بالعقل ، وبما أن العقل البشري ليس كافياً

في كل المجالات ، وقد يؤثِّر عليه الهوى النفساني في بعض الحالات ، لذٰلك نوَّر لك العقل بالتشريع السماوي ، فبيَّن لك الحلالَ والحرامَ ، والخير والشر ، والعاقبةَ الحسنة والسيئة . . . وكلَّفك .

مع العلم أن اختيارك ليس هو الأولَ والأخير ، فوراءَ اختيارك : إرادةُ الله ومشيئته ، وعلمه في خلقه وحكمته ؛ لأنك لست الوحيدَ في الكون ، فقد تتعارض مصلحتك مع مصالح الآخرين ، لذٰلك أحاطت بالإنسان حكمةُ الله جل جلاله وعلمُه لتسيير الكون كله علىٰ نظام حكيم ، تُراعىٰ فيه المصالحُ من خالقها جميعاً ، فسبحانه وتعالىٰ وهو الفعَّال لما يريد .

علىٰ أن عقلاء هٰذه الأمة وصلحاءَها لم يتخذوا هٰذا الكتاب السابق ـ المغيَّب ـ ذريعةً لتسويغ المنكرات ، بل اتخذوه وسيلةً للخوف الشديد أن يكونوا من غير أهل اليمين والنجاة ! فلله درُّهم ما أعقلَهم ! .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالىٰ في آخر شرح الحديث الرابع من « جامع العلوم والحكم » ١ : ١٧٣ : « وفي الجملة : فالخواتيمُ ميراثُ السوابق (١) ، فكلُّ ذٰلك سَبق في الكتاب السابق ، ومن هنا كان يشتدُّ خوفُ السلف من سوء الخواتيم ، ومنهم من كان يَقلَق من ذكر السوابق ، وقد قيل : إن قلوبَ الأبرار معلَّقةٌ بالخواتيم يقولون : بماذا يُختَم لنا ؟ وقلوبَ المقرَّبين ـ وهم أعلىٰ من الأبرار ـ معلَّقة بالسوابق يقولون : ماذا سبق لنا ؟ .

وبكىٰ بعضُ الصحابة عند موته ، فسئل عن ذٰلك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالىٰ قبض خلْقه قبضتين

(١) يريد : خاتمة الإنسان بالوفاة على الإيمان ، أو غير ذٰلك ـ والعياذ بالله ـ نتيجة لما سبق له في علم الله وقَدَره .

فقال : هـٰؤلاء في الجنة ، وهـٰؤلاء في النار » ولا أدري في أي القبضتين كنت ؟[١] .

وقال بعض السلف : ما أبكى العيونَ : ما أبكاها الكتابُ السابق ، وقال سفيان ـ الثوري ـ لبعض الصالحين : هل أبكاك قطُّ علم الله فيك ؟ فقال له ذٰلك الرجل : تركني لا أفرح أبداً ، وكان سفيان يشتدُّ قلقُه من السوابق والخواتيم ، فكان يبكي ويقول : أخافُ أن أكونَ في أم الكتاب شقيّاً ، ويبكي ويقول : أخاف أن أُسلبَ الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طولَ ليله قابضاً علىٰ لحيته ويقول : يا رب قد علمتَ ساكنَ الجنة من ساكن النار ، ففي أيِّ الدارين منزلُ مالكٍ ؟ . . . » إلىٰ آخر كلامه النفيس الرقيق رحمه الله تعالىٰ .

* * *

---

(١) هـٰذه رواية بالمعنىٰ والاختصار ، وأصل الحديث في « المسند » ٥ : ٦٨ ، قال الهيثمي ٧ : ١٨٦ : « رجاله رجال الصحيح » . ومثل هـٰذه القصة ما حصل لمعاذ بن جبل حين احتضر : بكىٰ وروىٰ مثل هـٰذا الحديث . ذكره الهيثمي ٧ : ١٨٧ وعزاه إلى الطبراني وضعفه .

١٤ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، يرفعه : « إن الله عزَّ وجلَّ يقول لأهونِ أهلِ النارِ عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء ، كنتَ تفتدي به ؟ قال : نعم ، قال : فقد سَألتُك ما هو أهونُ من ذلك وأنت في صُلب آدمَ : أنْ لا تُشرك بي ، فأبيتَ إلا الشرك » .

١٤ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب خلق آدم وذريته ٦ : ٣٦٣ (٣٣٣٤) ، وفي كتاب الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار ١١ : ٤١٦ (٦٥٥٧) ، ورواه مسلم : كتاب صفات المنافقين ـ باب طلب الكافر الفداء : ٤ : ٢١٦٠ (٥١) .

غريبه : « **يرفعُه** » : قال في « فتح الباري » ٦ : ٣٦٩ : « هي لفظةٌ يستعمِلُها المحدثون في موضع : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحو ذلك » ، لكنه لم يذكر هنا أسبابَ عدولهم عن هذه الصيغة الصريحة إلىٰ هذه الكلمة المحتمِلة ، وبيَّن في « النكت على ابن الصلاح » ٢ : ٥٣٧ أسبابَ ذلك ، وخلاصتها :

١ ـ شكُّ الراوي في الصيغة التي سمعها من شيخه ـ الصحابي فمن دونه ـ : هل هي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو غير ذلك .

٢ ـ الاختصار . قلت : وهذا ـ فيما أرىٰ ـ حالُ المصنفين في كتبهم .

٣ ـ شكُّ الراوي في ثبوتِ رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويصلُح مثالاً لذلك : أن يكون الحديث عند هذا الراوي من وجهين فأكثر ،

بعضُها موقوفٌ ، وبعضها مرفوع ، فأورثَ هٰذا الاختلافُ شكّاً في نفس الراوي ، فلما رواه من طريق مَنْ رفعه لم يأت بالصيغة الصريحة الجازمة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلْ عَدَل إلىٰ قوله : رَفَعه ، أو يرفعه ، أو يَنْميه ، ونحو ذٰلك .

وهناك احتمالٌ رابع : أن يكون من ورع هٰذا الراوي في الرواية ، حيثُ عَلِم أن في الرواية بالمعنىٰ خلافاً ، فجاء بهٰذه العبارة ـ « يرفعه » ـ ليخرجَ من الخلاف ، فلا يجزمَ في موضع الخلاف . والله أعلم .

معناه : أورد الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ هٰذا الحديث تحت باب خلْق آدم وذريَّته ، إشارةً منه إلى الربط بين قوله في الحديث هنا : « **وأنت في صلب آدم** » وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ الأعراف : ١٧٢ ، وهٰذا ما يُسمَّىٰ علىٰ لسان بعض أهل العلم بعالم الذَّرِ . وارجع إلى الحديث السابق برقم ١٣ .

قال القاضي عياض في « شرح مسلم » ٨ : ٣٣٧ ـ ووافقه في « فتح الباري » ١١ : ٤٠٣ (٦٥٣٨) : « فهٰذا الميثاق الذي أُخِذ عليهم في صلب آدم ، فمن وَفَىٰ به بعد وجوده في الدنيا فهو مؤمن ، ومن لم يَفِ به فهو الكافر ، **فمراد الحديث** : أردتُ منك هٰذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي حين أخذتُ عليك الميثاق ، فأبيتَ إذْ أخرجتُك إلى الدنيا إلا الشرك » .

والإرادةُ هنا : إرادةُ تكليفٍ لا إرادةُ تكوين ، فإرادةُ التكليف قد تتخلَّف ، أي : لا توجد ، بمعنىٰ أن العبد المكلَّف يتقاعس عن تنفيذ أمر الله تعالىٰ وتكليفه الشرعي .

أما إرادةُ التكوين : فهٰذه لا تتخلَّف أبداً ، وهي المرادةُ بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ النحل : ٤٠ .

إلا أن هـٰذا الكافر قد فَرَط أمره ، ولاتَ حينَ مناصٍ ولا مَنْدَم ، فلا حَسْرة تنفعه ، ولا افتداءَ يُنقذه ، وقد أعذر الله إليه فيما عَمَّره من عُمُر : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ فاطر : ٣٦ ـ ٣٧ .

اللهم إنا نعوذ بك من النار وأسبابها .

* * *

١٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خلق الله آدم ، وطولُه ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسَلِّم علىٰ أولئك من الملائكة ، فاستمعْ ما يحيُّونك ، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلامُ عليك ورحمة الله ، فزادوه (ورحمة الله) ، فكلُّ من يدخُل الجنة علىٰ صورة آدمَ ، فلم يَزَل الخَلْقُ ينقُصُ حتى الآن » .

١٥ ـ **تخريجه** : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ـ باب خلق آدم ٦ : ٣٦٢ (٣٣٢٦) ، وفي الاستئذان ـ باب بدء السلام ١١ : ٣ (٦٢٢٧) ، ومسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٤ : ٢١٨٣ (٢٨) .

معناه : خلق الله تعالىٰ آدم عليه الصلاة والسلام خلقاً مُبتدأً ـ لا متسلسلاً متطوِّراً ـ كما قال جل شأنه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة : ٧ .

وكان طوله عليه السلام ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً ، كما في « المسند » ٢ : ٥٣٥ من رواية علي بن زيد بن جُدْعان [١] .

قال الحافظ في تقدير الذراع ٦ : ٣٦٦ : « يَحتملُ أن يريد بقدر ذراع

(١) وهو ضعيف عند الجمهور ، وبعض الأئمة يحسِّن حديثه ، كما تجده آخر « مسند عمر بن عبد العزيز » للباغندي بتحقيقي ص ٢٨٦ ، وفي تعليقاتي على « الكاشف » للذهبي رقم الترجمة ٣٩١٦ .

نفسه ، ويحتمل أنْ يريد بقدر الذراع المتعارَف يومئذ عند المخاطَبين ، والأولُ أظهر »[١] .

وهل المرادُ : أن (السلام عليكم) تحيةُ ذرية آدمَ جميعِهم ، أو من العامِّ الذي أُريد به الخصوص ؟ .

قال في « الفتح » ١١ : ٤ : « أخرج البخاري في « الأدب المفرد » - (٩٨٨) - وابن ماجه - (٨٥٦) - وصححه ابن خزيمة - (٥٧٤) بمعناه - من طريق سُهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن عائشة مرفوعاً : « ما حَسَدتكم اليهودُ علىٰ شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين » ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنه شُرِع لهٰذه الأمةِ دونهم » ، ثم ساق أدلةً أخرىٰ .

وقولُه صلى الله عليه وسلم : « **فكلُّ من يدخل الجنة** . . . » : هٰذا من باب الاستئناف والإخبار بخبر جديد ، لا التفريعِ عن الكلام قبله ، أخبَرنا أن كلَّ مَن يدخل الجنة فهو علىٰ طول آدم وعرضه وحسنه وجماله .

ثم قال صلى الله عليه وسلم من باب دفع الإشكال قبلَ إيراده : « **فلم يَزَل الخَلْق ينقُص حتى الآن** » ، كأنه قيل : إن النسل يتوارث من أصله صفاتِه ، ومنها : الطولُ ، فأين نحن من ذاك الطول ؟ فقال عليه الصلاة السلام : « لم يزل الخلق ينقص . . . » ، ومع ذٰلك ، فقد قال الحافظ في « الفتح » في شرح الحديث المذكور : « ويشكل علىٰ هٰذا ما يوجد الآن من آثار الأمم السابقة كديار ثمود ، فإن مساكنهم تدل علىٰ أن قاماتهم لم تكن مفرطة الطول علىٰ حسب ما يقتضيه الترتيب السابق ، ولا شك أن عهدهم قديم . . . ، ولم يظهر لي الآن ما يزيل هٰذا الإشكال » .

(١) سقطت كلمات من أول هٰذا النص من الطبعة السلفية التي أنقل عنها ، واستدركتها من طبعة البابي الحلبي ٧ : ١٧٥ فلتستدرك .

قلت : ويضاف إليه ما هو موجود إلى اليوم من الفراعنة وآثارهم ، ففيها قِصَر مفرط ، مما لا يتناسب مع الترتيب السابق والوضع اللاحق ، والله أعلم .

أما الألوان والأخلاق : فهي متوارثة من آدم عليه السلام نفسه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ خَلَق آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذٰلك ، والسَّهل والحَزْن ، والخبيث والطَّيب » . رواه أبو داود (٤٦٦٠) ، والترمذي أول تفسير البقرة (٢٩٥٥) وقال : حسن صحيح .

❋ ❋ ❋

١٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدمَ ونفخ فيه الروح عطسَ فقال : الحمد لله ، فحمِد الله بإذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا آدم ، اذهبْ إلىٰ هٰؤلاء الملائكة ـ إلىٰ ملأ منهم جلوسٍ ـ فقلْ : السلام عليكم ، قالوا : وعليك السلامُ ورحمةُ الله ، ثم رجَعَ إلىٰ ربه فقال : هٰذه تحيتك وتحيَّةُ بنيك بينهم .

فقال الله له ـ ويداه مقبوضتان ـ اخترْ أيَّهما شئتَ ، قال : اخترتُ يمين ربي ـ وكلتا يديْ ربي يمينٌ مباركة ـ ثم بسطها فإذا فيها آدمُ وذريته ، فقال : أيْ ربِّ ما هٰؤلاء ؟ قال : هٰؤلاء ذُرِّيتُك ، فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عُمُره بين عينيه ، فإذا فيهم رجلٌ أضوؤهم ـ أو : من أضوئهم ـ قال : يا رب من هٰذا ؟ قال هٰذا ابنك داود ، وقد كتبتُ له عُمُر أربعين سنةً ، قال : يا ربِّ زِدْهُ في عمره ، قال : ذاك الذي كُتب له ، قال : أيْ رب فإني قد جعلتُ له من عُمري ستين سنةً ، قال : أنتَ وذاك .

قال : ثم أُسكنَ الجنة ما شاء الله ، ثم أُهبط منها ، فكان آدمُ يعدُّ لنفسه ، قال : فأتاه مَلَكُ الموت ، فقال له آدم : قد عَجِلْتَ ، قد كُتب لي ألفُ سنةٍ ! قال : بلىٰ ، ولٰكنك جعلتَ لابنك داودَ ستين سنة ! .

فجحدَ فَجحَدَتْ ذُرِّيته ، ونسيَ فنسيتْ ذريته .
قال : فمن يومئذٍ أُمِر بالكتاب والشهود » .

١٦ ـ تخريجه : رواه الترمذي : آخر كتاب التفسير ـ باب [الأمر بالكتابة والشهود] (٣٣٦٨) وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في « صحيحه » (٦١٦٧) ، عن ابن خزيمة ، عن محمد بن بشار شيخ الترمذي ، بمثله .

وروىٰ نحوه الإمام أحمد ١ : ٢٥٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، قال الهيثمي في « المجمع » ٨ : ٢٠٦ : « فيه علي بن زيد ضعفه الجمهور » ، لٰكن انظر ما تقدم تعليقاً ص ١١٠ .

معناه : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح » فبلغ الروحُ رأسَه ، كما جاء في رواية ابن حبان (٦١٦٥) ، عطس آدم عليه السلام حينئذٍ ، فألهمه ربه أن يقول : الحمد لله ، كما في رواية ابن حبان أيضاً (٦١٦٤) ، ولَفْظُ حَمْدِهِ في هٰذه الرواية الثانية : الحمد لله ، وفي الرواية الأولى : الحمد لله رب العالمين ، وكلاهما جائز ، وهٰذا اللفظُ التامُّ أولىٰ (١) .

وقولُه هنا : « فحمد الله بإذنه » : يحتمل أن يكون معناه : بإلهامه ، كما تقدم في رواية ابن حبان ، فشمَّته ربه سبحانه وقال له : « رحمك الله » .

والحكمة في ذٰلك ـ علىٰ ما قال الحليمي في « شعب الإيمان » ٣ : ٣٣٩ : « أن العُطاس دفع للأذىٰ من الدماغ الذي فيه قوةُ الذكر والفكر ، ومنه منشأ الأعصاب التي هي معدِن الحس والحركة ، وبسلامتها تكون سلامة الأعضاء ، والتوصل بكل شيء منها إلىٰ ما خُلق له ، فإنْ تيسَّر ذٰلك فإنما هو نعمة

---

(١) كما قرره الحافظ في « الفتح » ١٠ : ٦٠٠ (باب رقم ١٢٣) من كتاب الأدب .

جليلة ، وفائدة عظيمة ، فلا أقلَّ من أن نعرف قدرها بالحمد لله عز وجلّ ، وفيه مع ذٰلك اعتراف له بالخَلْق والتدبير ، وإضافة ما يُقدَّر منه إليه ، لا إلى الطباع ، كما يقوله الملحدون » ، ونقله في « فتح الباري » ١٠ : ٦٠٢ (٦٢٢١) ، ووافقه ، والله أعلم بصحة ذٰلك طبّيّاً .

وأما مناسبةُ الدعاء للعاطس بالرحمة فنقل الحافظ أيضاً قبل قليل ١٠ : ٦٠١ عن القاضي ابن العربي قوله : « إن العاطِسَ ينحلُّ كلُّ عضو في رأسه وما يتصل به منه العُنُق ونحوه ، فكأنه إذا قيل له : رحمك الله ، كان معناه : أعطاه الله رحمةً يرجع بها بذٰلك العضو إلىٰ حاله قبل العُطاس ويُقيم علىٰ حاله من غير تغيير » .

ثم إن الله تعالىٰ قال لآدم : « **اذهبْ إلىٰ هٰؤلاء الملائكة : إلىٰ ملأ منهم جلوس ، فقل : السلام عليكم** »(١) ، فامتثل أمرَ ربه ، فأجابته الملائكة بقولهم : « **وعليك السلام ورحمة الله** » فزادوه وردُّوا عليه بأحسنَ من تحيته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ النساء : ٨٦ .

ثم خيَّره الله عز وجل بين قبضتين ، فاختار اليمنىٰ ، فإذا فيها آدمُ وذريتُه ، وبين عينيْ كلِّ واحدٍ منهم عُمُره ، « فرأىٰ فيهم رجلاً يَزْهَر » كما في رواية ابن عباس في « المسند » ، وتقدمت الإشارة إليها في التخريج ، فإذا هو داود عليه السلام ، فأحبَّه آدم عليه السلام ، وسأل الله تعالىٰ أن يزيدَ في عمره ، لأنه استقلَّ ما رآه مكتوباً عليه : أربعين سنة فقط ، ولآدم ألفُ سنة ، فقال آدم : « **أيْ ربِّ فإني قد جعلتُ له من عُمُري ستين سنة** » ، وذٰلك بعد أن

---

(١) وغاب عن الحافظ رحمه الله لفظ هٰذه الرواية فقال في « الفتح » ١١ : ٤ (٦٢٢٧) : « لعل الله ألهمه أيضاً صفة السلام » مع أنها صريحة في ذٰلك .

أشار الله تعالىٰ إليه بذٰلك فقال له ـ كما في « المسند » ١ : ٣٧١ ـ : « لا ، إلا أن تَزيده من عُمُرك » .

فوهبه آدمُ ستين سنةً من عُمره ، فكان لآدم أربعون وتسعُ مئة سنة ، ولداود مئة سنة ، وفي رواية « المسند » المشار إليها : « فكتب الله عز وجل عليه كتاباً ، وأشهد عليه الملائكة » ، ثم كان ما كان ، وهٰذه الزيادة تُظهِر مناسبة قوله آخر الحديث : « فَمِن يومئذٍ أُمر بالكتاب والشهود » .

والجحود : معناه في الأصل : الإنكار بعد علم ، لٰكنك ترىٰ في الحديث صراحةً أن جحود آدم عليه السلام لم يكن من هٰذا القبيل ، بل كان عن نسيان : « ونسيَ فنسيتْ ذريته » ، ومعاذ الله أن يقع ذٰلك من نبيّ معصوم ، فتعيَّن المصير إلىٰ ما نقله الزَّبيدي في « شرح القاموس » ٧ : ٤٧١ عن شيخه ابن الطيِّب الشَّرْقي أن الجحود « قد يطلق علىٰ مطلق الإنكار » ، أي : إن آدم جحد وأنكر ما كان وهبه لابنه داود عليهما الصلاة والسلام ، نسياناً منه ، لا مكابرةً ، وبهٰذا يتلاءم قوله صلى الله عليه وسلم : « فجحد » مع قوله : « ونسي » .

❋ ❋ ❋

١٧ ـ عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجيء نوحٌ وأمته ، فيقول الله تعالىٰ : هل بلَّغتَ ؟ فيقول : نعم أيْ ربِّ ، فيقول لأمَّته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبيٍّ ، فيقول لنوحٍ : مَن يشهدُ لك ؟ فيقول : محمد ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ وأمته ، فنشهدُ أنه قد بلَّغ ، وهو قولُه جلَّ ذكره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة : ١٤٣ ، والوسط : العدل » .

١٧ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . ﴾ نوح : ١ ، ٦ : ٣٧١ (٣٣٣٩) ، وفي تفسير سورة البقرة ـ باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة : ١٤٣ ، ٨ : ١٧١ (٤٤٨٧) ، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أيضاً ١٣ : ٣١٦ (٧٣٤٩) .

معناه : مِن مشاهد القيامة ومواقفها : إظهارُ الله عز وجل فضيلةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وفضيلةَ أمته ، وإقامتُه الحجةَ على الكافرين المنكرين من الأمم الأخرىٰ .

يقول عليه الصلاة والسلام : « يجيءُ نوح وأمته . . . » وهٰذا ذكرٌ لموقفٍ واحد علىٰ سبيل المثالِ ، لا لأنه موقفٌ واحدٌ لا يتكرر ، وليس خاصّاً بنوح وأمته ، لا .

والآية الكريمة المذكورة آخرَ الحديث تُشير إلى العموم : ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ

عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة : ١٤٣ ، فلم يخصَّ من بينهم نوحاً وأمته .

وجاءتْ رواية الإمام أحمد ٣ : ٥٨ ، وابن ماجه (٤٢٨٤) بإسناد صحيح صريحةً في العموم ، ولفظ أحمد[١] : « يجيء النبي يومَ القيامة ومعه الرجلُ ، والنبي ومعه الرجلان ، وأكثر من ذٰلك ، فيدعىٰ قومُه ، فيقالُ لهم : هل بلَّغكم هٰذا ؟ فيقولون : لا ، فيقالُ له : هل بلَّغتَ قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : من يَشهدُ لك ؟ ، فيقول : محمدٌ وأمته ، فيدعىٰ محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلَّغ هٰذا قومه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : وما عِلمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا [فصدقناه] ، فذٰلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، قال : يقول : عدلاً ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة : ١٤٣ .

فالوسطُ : العَدْل بنصِّ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما في هٰذا الحديث : « قال ـ أي : الصحابي راوي الحديث وهو أبو سعيد الخدري ـ : يقول ـ أيْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـ : عدلاً » ، وكما تراه في آخر الحديث الذي نحن بصدد شرحه : « **والوسط : العدلُ** » ، فقد حقَّق في « الفتح » أنه مرفوع من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا مُدرج في الحديث من كلام بعض الرواة للتفسير .

وهل جميعُ أفرادِ الأمةِ سَتشهد للأنبياء علىٰ أممهم ، أو العدولُ منهم ، كما يقتضيه لفظ : « وسطاً » ؟ وإذا كان العدولُ منهم فقط . . فما معنىٰ : ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فإن ظاهره يقتضي جميع الأمة ؟ .

والجواب : أنه من المعلوم أن الشهادة لا تقبل إلا من عدل ، ولا يُرجع إلىٰ غير العدل في الشهادات ، وكذٰلك : من المعلوم المشهور أن العلماء

---

(١) إلا كلمة : « فصدقناه » فمن عند ابن ماجه ، لذا وضعتها بين معقوفين .

يَقسِمون الأمة المحمدية إلىٰ قسمين : أمةِ دعوة ، وهم كل من بَلَغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وسمع بدين الإسلام ، سواء أسلم أو لم يُسلم ، فمن أسلم منهم سُمي بأمة الإجابة ، أي : استجاب لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل دين الإسلام .

وهناك من يجعلُ التقسيم ثلاثيّاً : أمة دعوة ، وأمة إجابة ، وأمة اتِّباع ، ذٰلك أن أفراد أمة الإجابة يقع للواحد منهم ما يُخرِجه عن مقتضى العدالة ، كما نشهد في الواقع ، فالصالحون الصادقون في استجابتهم لله ورسوله هم خيار هٰذه الأمة ، المتبعون المستمسكون بالهدي المحمدي ، وهم أهل الشهادة للأنبياء علىٰ أممهم .

وقد رأيتُ هٰذا التقسيم الثلاثي لأبي بكر الكَلَاباذي المتوفىٰ سنة ٣٨٠ ـ أو ٣٨٤ ـ في كتابه « بحر الفوائد » المشهور بـ « معاني الأخبار » ، نقله عنه الحافظ في « فتح الباري » ١١ : ٤١١ (٦٥٤٢) عند كلامه علىٰ حديث : « سبقك بها عكَّاشة » ، قال : « قال الكَلَاباذي : المراد بالأمة أولاً ـ في حديثٍ ذكره هناك ـ أمة الإجابة ، وبقوله آخِراً : (أمتي) أمة الاتِّباع ، فإن أمته صلى الله عليه وسلم علىٰ ثلاثة أقسام ، أحدُها أخصُّ من الآخر : أمة الاتباع ، ثم أمة الإجابة ، ثم أمة الدعوة ؛ فالأولىٰ : أهل العمل الصالح ، والثانية : مطلق المسلمين ، والثالثة : مَن عداهم ممن بُعِث إليهم » .

وبهٰذا يزول الإشكال : كيف يَشهدُ من ليس عدلاً ، ويقبل الله شهادته . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

١٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يلقَىٰ إبراهيمُ أباه آزَرَ يوم القيامة ـ وعلىٰ وجه آزر قَتَرةٌ وغَبَرةٌ ـ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ! فيقولُ أبوه : فاليومَ لا أعصيك ، فيقولُ إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تُخزِيني يوم يبعثون ، وأيُّ خزيٍ أخزىٰ من أبي الأبعدِ ؟! فيقول الله تعالىٰ : إني حرمتُ الجنة علىٰ الكافرين ، ثم يُقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر ، فإذا هو بذِيخٍ ملتطِخٍ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيُلقَىٰ في النار » .

١٨ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ النساء : ١٢٥ ، ٦ : ٣٨٧ (٣٣٥٠) ، وفي كتاب التفسير ـ سورة الشعراء ، باب ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾ الشعراء : ٨٧ ، ٨ : ٤٩٩ (٤٧٦٨ ، ٤٧٦٩) مختصراً ، وهنا شرحه ابن حجر .

غريبه : قَتَرة وغَبَرة : قال الإمام البخاري في تفسير سورة الشعراء : « الغَبَرة هي القترة » ، فتكون الواو هنا من عطف التفسير ، وجعله بعضهم عطفَ مغايرة ، فالغَبَرة : الغُبار الذي يعلق بالأشياء ، والقترة : شِبه دخان يغشى الوجه من الكرب[1] ، كما في « مفردات » الراغب ص ٦٠١ ، ٦٥٥ .

لا تُخزيني : الخِزي : انكسار يلحق الإنسان من غيره ، كما قاله الراغب أيضاً ص ٢٨١ .

(١) في « المفردات » : من الكذب ، والظاهر : من الكرب ، كما أثبته عن « الفتح » .

الأبعد : بمعنى : البعيد ، وهو الهالك ، كما يؤخذ من « النهاية » ١ : ١٣٩ ، وهو في « الفتح » وقال : هي صفةٌ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وصَف بها نفسه « علىٰ طريق الفرض إذا لم تقبل شفاعته في أبيه » ، وقيل : الأبعد : صفةُ أبيه ، أي : إنه شديد البعد من رحمة الله ، لأن الفاسق بعيد منها ، فالكافر أبعد » ورجَّح الاحتمال الأول .

ذِيخ : الضَّبعُ الذكَر .

ملتطخ : متلوثٌ بدم أو رجيع ، أو طين أو غير ذٰلك .

معناه : من أوصاف يوم القيامة أنه ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩ ، وهٰذا الموقف الذي يحكيه لنا النبي صلى الله عليه وسلم يصور لنا هٰذه الحقائق .

فآزرُ : لم ينفعه في ذاك اليوم شيءٌ ، بل مُسِخ علىٰ هيئةِ أحمقِ حيوانٍ ، وعلىٰ حالة قذرة : ضبعٍ متلوِّث بما له رائحةٌ نتنة ، كما أفادته بعض الروايات ، ثم أُخِذ بقوائمه وأُلقيَ في النار ! وهٰذه نتيجة كلِّ من كان علىٰ شاكلته ، وإن اختلفت المقدمات .

وندمُه لم ينفعه ، لأنه ندِم حين رأى العذاب وعايَن النار فقال : « **اليومَ لا أعصيك** » ، أما في الدنيا فكان إبراهيم عليه السلام يتلطَّف به ، ويُقيم عليه الحجة بأبسط ما تكونُ وأوضح ، وآزر يُغلظ عليه ويقول له : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ مريم : ٤٦ ، أي : هجراً طويلاً .

وندمُ آزرَ لم ينفعْه ؛ لأنه حقَّ القولُ من الله العظيم : إني حرَّمت الجنة على الكافرين ، وحينئذ تبرأ منه إبراهيم التبرؤ النهائي الأخير ، أما تبرُّؤه الأول فذاك يومَ تركَ الاستغفار له ، وهو المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة : ١١٤ .

ولئن كان الكافر لا يتعظُ بهٰذه المواعظ ؛ لأنه لا يؤمن بها ، فلا أقلَّ من أن يتعظ المؤمنُ بها فيقلعَ عن معاصيه التي تؤدي إلىٰ مواقف الذلّ والخسران يوم القيامة ، ومنها إلىٰ عذاب النار ، ولا ينفعه ندم ولا توبة حينئذ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ صٓ : ٣ .

❋ ❋ ❋

١٩ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه ، قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول : إنه خير من يونسَ بنِ مَتَّىٰ » ، ونَسَبه إلىٰ أبيه .

١٩ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب ذِكْر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه ١٣ : ٥١٢ (٧٥٣٩) ، ومسلم : كتاب الفضائل ـ باب في ذكر يونس عليه السلام ٤ : ١٨٤٦ (١٦٦) ، ولفظه : « عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ـ يعني الله تبارك وتعالىٰ ـ : لا ينبغي لعبدٍ لي . وقال ابن المثنىٰ : لعبدي »[١] .

معناه : « **لا ينبغي** » أي : لا يليق ولا يحقُّ « **لعبد** » من عباد الله تعالى الذين اتَّصفوا بصفة العَبدية ، وعَرفوا حدَّهم ومقامهم ، لا يحقُّ لهؤلاء أن يَتَجرؤوا علىٰ أمر من أمور الله عز وجل ، فإنه هو المعطي والمتفضِّل علىٰ عامة عباده ، وعلىٰ خاصة عباده ـ كالأنبياء والمرسلين ـ بالمقامات العالية والاختصاصات دون سائر البشر .

ومن تجرُّئهم الممنوع : أن يُفضِّل أحدُهم نفسه علىٰ بعض الأنبياء والمرسلين الكرام ، كيونس عليه الصلاة والسلام فيقولَ عن نفسه : إنه خيرٌ من يونس .

وقد قيل : إنما خصَّ يونسَ عليه الصلاة والسلام بالذِّكر من بين الأنبياء

---

(١) وكلتاهما من رواية شعبة ، فقول الحافظ في « الفتح » ١٣ : ٥١٥ (٧٥٣٩) : « لم أرَ في شيء من الطرق عن شعبة فيه « عن ربه » ولا « عن الله عز وجل . . . » في محل المنع .

الآخرين « لِمَا يُخْشَىٰ علىٰ مَن سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له ، فبالغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذكر فضله ، لسدِّ هٰذه الذريعة »[١] .

وكان من قصته : أنه توعَّد مَن كذَّبه من قومه بالعذاب ، فلما رأوا آثار العذاب كما توعَّدهم يونس آمنوا ، فكشف الله عنهم العذاب ، فلما أصبح يونس ولم يَرَ العذاب وقع عليهم ـ وكان في شريعتهم أن من كذب قُتِل ـ فانطلق مُغاضِباً لقومه ، أنفةً من ظهور خُلْفِ وعده لهم ، وأنْ يُسمىٰ كذاباً ، لا كراهيةً لحكم الله تعالىٰ إذْ رَفَع عنهم العذاب وهو قد توعَّدهم به ! معاذ الله .

حتىٰ ركب سفينة ، وقال لأهلها : إن معهم عبداً آبقاً من ربّه ، وإنها لا تسير حتىٰ تُلقوه ، فقالوا : لا نُلقيك يا نبي الله أبداً ، قال : فاقترعوا ، فخرج عليه ثلاث مرات ، فألقَوْه فالتقمه الحوت ، فبلغ به قرارَ الأرض ، فسمع تسبيح الحصىٰ ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء : ٨٧ .

ثم إن هٰذا التأديب الإلٰهي ، وهو قوله : « لا ينبغي . . . » : عامٌّ لجميع عباد الله تعالىٰ يشمل الأنبياء وغيرهم ، فلا ينبغي لنبي ولا رسول أن يقول ذٰلك ، كما جاء في رواية أحمد وابنه عبد الله ١ : ٢٠٥ ، وأبي داود (٤٦٣٧) : « لا ينبغي لنبي أن يقول . . . »[٢] .

قال الحافظ ٦ : ٤٥١ : « وفي رواية للطحاوي : إنه سبَّح اللهَ في الظلمات » فأشار إلىٰ جهة الخيرية المذكورة » .

وليس معنىٰ هٰذا : أن يونس عليه الصلاة والسلام أفضلُ من جيمع الأنبياء

---

(١) انظر « فتح الباري » ٦ : ٤٥٢ (٣٤١٦) .

(٢) انظر « فتح الباري » ٦ : ٤٥٢ (٣٤١٦) .

والمرسلين ، أو أنه يساوي أفضلهم في الرتبة ، وهو نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

إنما معناه : ما قاله الإمام النووي رحمه الله في « شرح صحيح مسلم » ١٥ : ١٣٢ : « قال العلماء : هٰذه الأحاديث تحتمل وجهين ، أحدهما : أنه صلى الله عليه وسلم قال هٰذا قبلَ أن يعلَم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذٰلك قال : « أنا سيد ولد آدم . . . » .

« الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم قال هٰذا زجراً عن أن يتخيَّل أحدٌ من الجاهلين شيئاً من حطِّ مرتبة يونس صلى الله عليه وسلم من أجل ما في القرآن العزيز من قصته . قال العلماء : وما جرىٰ ليونس صلى الله عليه وسلم لم يحُطَّه من النبوة مثقال ذرة » .

ومما يحسُن التنبيه إليه في شرح هٰذا الحديث الشريف : أنه لا علاقة بينه وبين قوله تعالىٰ في آخر سورة البقرة : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ البقرة : ٢٨٥ ، فالتسوية المطلوبة بينهم في الآية الكريمة : التسوية بالإيمان بهم جميعاً دون إنكار لنبوة واحد منهم ثبتتْ نبوته ، وخاصة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وليس المراد في الآية : لا نفضِّل بينهم في الرتبة ، لا ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة : ٢٥٣ ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو سيد الجميع ، ويليه سائر أولي العزم المذكورون في الآية السابقة من سورة الأحزاب ، والآية الثالثة عشرة من سورة الشورىٰ ، كما قال ابن كثير في آخر تفسير سورة الأحقاف ، وهم : إبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، ونوح ، صلوات الله وسلاماته عليهم جميعاً .

❋ ❋ ❋

٢٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاء ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام فقال له : أجِبْ ربك ، قال : فَلَطم موسىٰ عليه السلام عين مَلَك الموتِ ففقأها ، قال : فرجع الملكُ إلى الله تعالىٰ فقال : إنك أرسلتني إلىٰ عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني ! قال : فرَدَّ الله إليه عينه وقال : ارجعْ إلىٰ عبدي فقُلْ : الحياةَ تريد ؟ فإنْ كنتَ تريد الحياة فضع يدك علىٰ متن ثور ، فما توارتْ يدُكَ من شعرةٍ فإنك تعيش بها سنةً ، قال : ثم مَهْ ؟ قال : ثم تموت ، قال : فالآن من قريب ، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رميةً بحجر » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لو أني عنده لأريتُكم قبره إلىٰ جانب الطريق عند الكَثيب الأحمر » .

٢٠ ـ تخريجه : رواه البخاري في الجنائز ـ باب من أحب أن يدفن في الأرض المقدسة أو نحوها ٣ : ٢٠٦ (١٣٣٩) ، وفي بدء الخلق ـ باب وفاة موسىٰ عليه السلام ٦ : ٤٤٠ (٣٤٠٧) ، ورواه مسلم : كتاب الفضائل ـ باب من فضائل موسىٰ عليه السلام ٤ : ١٨٤٣ (١٥٨) ، وهـٰذا لفظ مسلم ، وأما لفظه في البخاري ـ وفي مسلم قبل الرقم المذكور ـ فنحو هـٰذا لـٰكنه لم يصرِّح أبو هريرة برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا البخاري فإنه قال عقب الموضع الثاني : « وأخبرنا معمر ، عن همَّام ، حدثنا أبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه » ، فأشار إلىٰ رفعه ووصله ، ولا ريب

أن مثل هٰذا لا يقال من قِبَل الرأي حتىٰ لو لم يصرح أبو هريرة ـ أو الراوي ـ بذٰلك .

غريبه : متن ثور : ظهر ثور .

الكثيب : الرمل المستطيل المُحْدَوْدِب .

معناه : في هٰذا الحديث حكايةُ قصةٍ جرتْ لملك الموت مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وذٰلك : أن ملك الموت جاء إلىٰ موسىٰ ليقبض روحه ، فغضب موسىٰ فَلَطَمَه لطمةً شديدة ، وموسىٰ عليه السلام معروفٌ بغضبه ، ذُكِر في القرآن الكريم بذٰلك في أكثر من موضع .

فرجع ملك الموت إلىٰ ربه وذَكَر له ما جرىٰ له من موسىٰ ـ والله أعلم بالذي جرىٰ ـ فقال الله له : ارجع إلىٰ موسىٰ ، وقل له : نَمُدُّ له في أجله مدّاً كبيراً ، وذٰلك بأن يضعَ يده علىٰ ظهر ثور ـ الحيوان المعروف ـ فإنَّ لموسىٰ من العُمُر والحياة مقدارَ سنةٍ كاملة مقابلَ كلِّ شعرة تدخل تحت يده ! .

فقال موسىٰ ـ وقد بلَّغه ملكُ الموت ذٰلك ـ : يا ربِّ وما بعد ذٰلك العُمُرِ المديد ؟ قال : ثم الموت ، قال موسىٰ : فالآن يا ربِّ .

إلا أنه عليه الصلاة والسلام نبَّه إلىٰ أمرٍ مهم تَطمحُ إليه نفوسُ عباد الله الصالحين ، هو أن يكون ـ وهو ميت ـ بجوار أرضٍ مباركة ، فسأل عليه السلام ربَّه أن يقرِّبه من بيت المقدس رَميةً بحجر ، أي : أن لا يكون بينه وبين بيت المقدس مسافة بعيدة ، بل قدرَ رمية حجر .

ولم يسأل الله تعالىٰ أن يجعلَ موتَه في بيت المقدس ؛ لئلا يُعرَفَ قبره فَيَفْتتنَ به الجهالُ من أهل ملَّته ، كما نقله النووي وابن حجر في شرحيهما (١) .

---

(١) من « الفتح » ٣ : ٢٠٧ (١٣٣٩) عن ابن بَطَّال ، والنووي علىٰ مسلم ١٥ : ١٢٨ .

فيكون نبيُّ الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام قد راعى الأمرين : **مصلحتَه** : أن يُدفَن بجوارٍ مبارك ، **ومصلحةَ قومِه من بعده** : أن لا يَعبُدوا قبره من بعده .

وقد رأىٰ سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء موسىٰ قائماً في قبره يصلِّي عند الكثيب الأحمر ، فعرف ذٰلك المكانَ وَضَبَطه ؛ فلذٰلك قال هنا : « **لو أني عنده لأريتُكم قبره . . .** » .

وقد بوَّب البخاري ـ كما ذكرتُ لفظه في التخريج ـ « بابُ مَن أحبَّ الدفنَ في الأرض المقدسة أو نحوها » ، وعلَّق عليه الزينُ ابنُ المنيِّر رحمه الله فقال : « المرادُ بقول البخاري : « أو نحوِها » : بقيةُ ما تُشَدُّ إليه الرحال من الحرمين الشريفين ، وكذٰلك ما يُمكن من مدافن الأنبياء وقبور الشهداء والأولياء ، تيمناً بالجوار ، وتعرضاً للرحمة النازلة عليهم ، اقتداءً بموسىٰ عليه السلام » كما في « الفتح » ٣ : ٢٠٧ (١٣٣٩) ، و« عمدة القاري » ٧ : ٦٣ .

وفي الحديث : أن عين ملك الموت قد انفقأتْ من جَرَّاء صكِّ موسىٰ له ، عليهما الصلاة والسلام ، فلما رَجَع إلى الله تعالىٰ شَكا إليه ذٰلك فردَّ الله عليه عينه .

وفي هٰذا إشكالٌ ظاهر : كيف تجرَّأ موسىٰ عليه السلام علىٰ ذٰلك ؟ وكيف انفقأتْ عينُ الملك ، والملائكة غيرُ البشر من هٰذه الحيثية ؟ وكيف لم يقتصَّ الله لملك الموت ؟ .

والجواب عن الأول والثالث : أن موسىٰ عليه السلام لم يَعرفْ ملكَ الموت ، كما ذهب إليه عدد من الأئمة المتقدمين والمتأخرين ، ولا غرابة منه في ذٰلك ؛ فإبراهيم ولوطٌ عليهما السلام من قَبْل موسىٰ لم يعرفا الملائكة الذين دخلوا عليهما ، والشرع يبيحُ قتلَ من دخل علىٰ دارِ غيرِه

بغير إذنه ، وأباح فقء عين الناظر من خَلَل الباب على داخل بيت غيره ، وحَصَل لداود من بعد موسىٰ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مثل ذٰلك ، لما دخل عليه الخصمان (١) .

بل قد تخفىٰ معرفة الملَك علىٰ ملَك آخر مثله ، كما حصل هٰذا لملائكة الرحمة وملائكة العذاب حين اختصموا في الرجل الذي قتل مئة نفس ، ثم مات في وسط الطريق بين قريته والقرية التي خرج إليها ، فأرسل الله تعالىٰ إليهم ملَكاً بصورة إنسان ليحكم بينهم ، ولو عرفوه ملكاً لما كان من تشكُّله بصورة إنسان فائدة .

والجوابُ عن الثاني : أن الملائكة تتمثَّل بالبشر ، فيرى الإنسانُ صورةَ بشرٍ مثله أمامه ، إلا أن هٰذا (المثال) لا تَثبت له أحكامُ ولوازمُ المتمثَّل به ، وهو البشر .

أعني : أن هٰذا المثالَ لا تكون له خصائص البشر وحاجاته : من أكل وشرب ونوم ، فإبراهيم عليه السلام قدَّم الطعام لضيفانه ، وهم ملائكة لم يعرفهم : ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ فلم يمدُّوا إليه أيديهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ؟ ﴾ قالوا : لا ، ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ ﴾ الذاريات : ٢٧ ـ ٢٨ .

وكذٰلك ضيفانُ لوط عليه السلام ، وهم ملائكة لم يعرفهم ، جاؤوه بصورة جميلة ، فخاف عليهم من قومه فطمأنوه : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ هود : ٨١ أي : لا قدرة لهم علينا ، ولا يَصلون إلينا .

فالملائكة ـ وإن تمثَّلوا بهيئة البشر ـ ليس لهم ما للبشر ، وكذٰلك أمرُ ملك الموت مع موسىٰ ، وإنْ ضربه وفقأ عينه ، فهٰذه هي العين البشرية التي تمثَّل بصورتها ملك ، وليست عينَه الملكية .

---

(١) انظر « أعلام الحديث » للخطابي ١ : ٦٩٦ .

« قال ابن قتيبة : إنما فقأ موسى العينَ التي هي تخييل وتمثيل ، وليست عيناً حقيقية ، ومعنىٰ : « ردَّ الله عينه » أي : أعاده إلىٰ خِلقته الحقيقية ، وقيل : علىٰ ظاهره ، وردَّ الله إلىٰ ملك الموت عينه البشرية ليرجع إلىٰ موسىٰ علىٰ كمال الصورة ، فيكون ذٰلك أقوىٰ في اعتباره ، وهٰذا هو المعتمد »[١] .

وبهٰذا البيان السهل يكون الجواب عن الشُّبَه التي يثيرها بعض المشتبِهين من أهل عصرنا ومَن قبلهم ، أو المبتدعةِ الضُّلَّال المتَسترين وراء النقد الحرّ ، والمحاكمات العلمية ! والله الموفق والهادي .

ومع ذٰلك فلا بدَّ من تأصيل قاعدة يُرجع إليها للإيمان بمثل هٰذه الأخبار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن من المقرَّر لدىٰ علماء الإسلام عامة ، ولدىٰ عقلاء الناس كافة : أنه يجب النظر إلىٰ كلام أيِّ عاقل بعين الاعتمادِ والاعتبار ، والتعامل معه علىٰ هٰذا الأساس فيما له أو عليه ، ولولا هٰذا النظر لما صحَّ تعامل في الدنيا بين الناس أبداً ، إذا كان كل واحد منا يعامل الآخر بكلامه علىٰ حسب رغبته : يقبل منه ما يناسبه ، ويردُّ منه ما لا يناسبه ، فهٰذا شأن غير العاقل في تعامله مع العقلاء .

ولو قُدِّر أن في بعض كلام هٰذا الإنسان العاقل غموضاً أو احتمالاً لكان الواجب استفساره إن أمكن ، أو تبيين الغموض وتحديد الاحتمال من مواقف أخرىٰ له ، أو من منهجه العام في حياته ، أو من أي قرينة أخرىٰ .

ولا ريب أن هٰذا (المقرَّر) مشروط بصحة هٰذا النقل عن صاحبه ، وما إلىٰ ذٰلك مما هو ملاحظ في نفوس الناس حين تعاملهم .

---

(١) من « فتح الباري » ٦ : ٤٤٣ (٣٤٠٧) .

وعلىٰ ضوء هٰذا (المقرَّر) يكون موقف المسلم وتعامله مع ما ينقل إليه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد ثبوته عنه ، ووضوح مراده منه ، بل يزداد موقف المسلم هٰذا صلابة وثباتاً لملاحظة المسلم أمراً إيمانياً آخر معه ، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم : ٣ ـ ٤ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما أقول ما أُقَوَّل »[١] ، فهو مسدَّد ومقوَّل من قِبَل الله عز وجل .

فإذا صحَّ لدى المسلم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب عليه أن يستسلم إليه وينقاد ، ويتلقاه بالرضا والاعتقاد ، علىٰ ضوء ما في المسألة من نصوص شرعية أخرىٰ : قرآنية أو حديثية ، بناء علىٰ ما قدَّمتُه من الأمر الثابت المقرَّر لدى العقلاء عامة ؛ إذ يقبلون منهم ، ويعتمدون علىٰ ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال .

وفي حال عدم قبول المسلم ما يُنقل إليه عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو صحيح ثابت ـ : فموقفه هٰذا يحتمل عدة أمور منه ، أذكر واحداً منها ، هو عَرْض هٰذا المنقول علىٰ عقله ؛ فإن قَبِله رضيه ، وإن لم يقبله رفضه .

وأقول في الجواب : إن هٰذه خَصلة رديَّة ، دالة علىٰ عقل فاسد منحرف ، ذٰلك لأن الله تعالىٰ قصَّ علينا في كتابه العظيم الشيء الكثير من أخبار بني إسرائيل مع أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام ، وخاصة ما كان منهم مع سيدنا موسىٰ صلى الله عليه وسلم ، وفي القصص القرآني رياض الجنات للمعتبرين ، فهي ليست للتاريخ .

ومما قصَّه الله علينا : أن رجلاً منهم قُتل ولم يُعرف قاتله ، فجاؤوا

---

(١) رواه أحمد ٥ : ٢٥٧ عن أبي أمامة ، وقال المنذري في « الترغيب » ٤ : ٤٤٥ : إسناده جيد .

إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام يسألونه أن يسأل الله تعالىٰ عن القاتل ، فأنزل الله تعالىٰ قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ . . . ﴾ البقرة : ٦٧ ، إلىٰ آخر الآيات الكريمة .

وسبب قولهم : أتتخذنا هزواً : أنهم عرضوا الجواب والأمر الإلـٰهي علىٰ عقولهم فاستنكرتْه : ما علاقة الجواب بالسؤال ؟!! وكان منهم ما كان ، ثم أوصلهم الله إلى النتيجة بعد جهد : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ فنطقت البقرة حينئذ وقالت : القاتل هو فلان .

ومحل العبرة لنا : أن الله قصَّ علينا سوء صنيعهم وموقفهم من الأمر الإلـٰهي ، فكأنه يقول لنا : يا أمة محمد لا تكونوا كأمة موسىٰ ، أولـٰئك يعرضون أوامري علىٰ عقولهم يحكمون بها علىٰ تشريعي وأوامري ، ويقولون : سمعنا وعصينا ، أما أنتم فكونوا علىٰ غير هـٰذا الهَدْي والشأن ، اسمعوا وأطيعوا وسارعوا إلىٰ تنفيذ أوامري وما يبلِّغكم إياه رسولي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لئلا تقعوا في المشقة والعَنَت كما وقعوا ، وهـٰذه عبرة من عبر هـٰذه القصة .

إذاً : فتحكيم العقل البشري في أوامر الله وتشريعاته ، وهو الحَكَم الضعيف القاصر الملوَّث بالشهوات والشبهات ، إنما هو شأن اليهود الذين حذَّرنا الله تعالىٰ من السير علىٰ منهجهم في التعامل مع ما يثبت عن الله ورسوله ، ونسأل الله الهدي النبوي .

وليس هـٰذا هو الحديث الواحد الذي يثير المجاهرون والمتستِّرون حوله الشبهات المقنَّعة ، بل ما يمرُّ وقت يسير من الزمن إلا ونقرأ ونسمع الجديد من هـٰذه الأباطيل ، ويتلقَّفها البسطاء من العامة ، وينهزم أمامها الانهزاميون الضعفاء من طلبة العلم !! .

ولو تدبَّر أيُّ مسلم الكلمات التي قدَّمتها أول كلامي لسهل عليه الجواب ، ولكانت النتيجة الحتمية أمامه : إذا كنتُ أنا لا أرضىٰ من أحد أن يتحكَّم في كلامي الذي قلتُه ، فكيف أرضىٰ أن يتحكم أيُّ إنسان بكلام رسولي محمد صلى الله عليه وسلم بعقله وهواه ؟! وإن مآل هـٰذا التحكُّم والمتحكِّم إلىٰ نتيجة : اتهام رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وحاشاه ـ في عقله أو في نقله عن الله تعالىٰ !! أو الاعتراض على الله ـ جل جلاله ـ في تشريعه ووحيه ؟! وكلاهما أشدُّ كفراً من الآخر .

ولقائل أن يقول : معاذ الله أن أتَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به ، إنما أتهم الرواة النَّقلة للحديث أن يكون واحد منهم وَهِم ، فنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله .

والجواب : أن الوهم قد يقع من أي راوٍ ، ولـٰكن في كلمة أو كلمتين ، فيبدل لفظاً بلفظ ، أو يُقحم كلمة غلطاً ، أما أن يَهِم في حديث كامل بقصته ـ كهـٰذا الحديث ـ : فلا ، ولم يعرف عن أحد من الرواة شيء من هـٰذا القبيل ، ولا يصح توهيم الراوي بمجرد الظن أو الاستبعاد الناشئ عن بُعدٍ في عقل الإنسان عن المعنويات ، ووقوفٍ منه عند الماديات .

ولو أن هـٰذا الحديث هو الحديثُ الواحدُ الذي في ساحة المعنويات الرَّحبة ، لكان للمنكرين مندوحة وعذر ، ولـٰكنْ ما أكثرَ نظائرَه في الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، فالجمود عند الماديات ، واتخاذ موقف سلبي من المعنويات والغيبيات يؤدي بصاحبه إلىٰ إنكار كثير جداً من أخبار القرآن العظيم والسنة الثابتة بعرضها علىٰ عقله وفهمه ونفسيته المريضة !! .

وكما رأينا الجواب السهل الواضح عن هـٰذا الحديث ، كذلك نرىٰ عن

الأحاديث الأخرىٰ ـ بعون الله ـ أجوبة سهلة واضحة ، ولٰكنْ لغير المتعنِّت أو مريض الفكر والقلب ، الذي اتخذ موقفاً سلبيّاً من هٰذا النوع من الأحاديث ، مع صحتها وتمشِّيها مع سائر ما ثبت عن الله ورسوله .

* * *

٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أيوبُ يغتسلُ عُرياناً ، خرَّ عليه رِجْل جرادٍ من ذهب ، فجعل أيوبُ يحثي في ثوبه ، فناداه ربُّه : يا أيوبُ ألَم أكُن أغنيتُك عما ترىٰ ؟ قال : بلىٰ وعزَّتك ، ولٰكنْ لا غِنىٰ بي عن بركتك » .

٢١ ـ تخريجه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ الأنبياء : ٨٣ ، ٦ : ٤٢٠ (٣٣٩١) ، ورواه من قبلُ : كتاب الغسل ـ باب من اغتسل عُرياناً ١ : ٣٨٧ (٢٧٩) ، ورواه بعدُ في كتاب التوحيد ـ باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح : ١٥ ، ١٣ : ٤٦٤ (٧٤٩٣) .

غريبه : رِجْلُ جَرَاد : جماعةُ جراد .

يحثي في ثوبه : يأخذ بكلتا يديه ويجمع في ثوبه .

معناه : في الحديث بيانُ فضلِ الله تعالىٰ وكرمه علىٰ سيدنا أيوبَ النبيِّ الصابر ، وقد تفضَّل الله عليه بما ذُكر هنا في الحديث لما تفضَّل عليه بالعافية مما ابتلاه ، كما جاءت روايةُ الإمام أحمد ٢ : ٣٤٧ ، وابن حبان (٦٢٣٠) ، والحاكم ٢ : ٥٨٢ وصححه علىٰ شرط البخاري ، فجعله الذهبي علىٰ شرطهما ، ثلاثتهم من طريق بشير بن نَهيك ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « لما عافى الله أيوب أمطَر عليه جراداً من ذهب » .

وفي هٰذا درس عظيم ، وموعظة كبرىٰ للمُبتلين أن يصبروا وإن طال عليهم البلاء ، فإن الذي يستقبلُهم من رحمة الله ورَوْحه ورَيحانه وعظيم

فَرَجه : ما يُنسيهم البلاء الشديد الطويلَ ، من فضل الله وكرمه ، ونسأل الله العافية .

وقد لبث أيوبُ عليه الصلاة والسلام في بلائه ثماني عشرة سنةً علىٰ ما في « صحيح » ابن حبان (٢٨٩٨)[١] ، وكان ابتلاؤه هٰذا في شيخوخته وهو ابن سبعين عاماً ! فشدةُ البلاء وثقلُه يَتَضاعف على الإنسان في هٰذه السنِّ المتأخرة ، ومع ذٰلك صَبَر وصابر ، فكان من فضل الله عليه أن عافاه معافاةً عجيبة في سرعتها وتمامها ، وأغدق عليه من المال ما قصَّه علينا هٰذا الحديث الشريف . ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة : ١٥٥ .

أرسل الله تعالىٰ علىٰ أيوب رِجْلاً من جراد من ذهب ، وأَنَّىٰ يُعهد أن يكون الجرادُ ذهباً ! لٰكن الله خالقُ كلِّ شيء ، وقادرٌ علىٰ كل شيء ، سبحانه وتعالىٰ .

وكأن ذٰلك كان كثيراً ، كما تُفيده الرواية التي نقلتُها قريباً : « لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب » .

وإنْ صح ما نُقِل عن ابن عباس فيكونُ الله قد أكرمه إكراماً ثالثاً أجلَّ من اللذَين قبله ، وذٰلك أنه قال : « ألبسه الله حُلَّة من حُلل الجنة » . أسنده ابن أبي حاتم في « تفسيره » عنه ١٠ : ٣٢٤٥ .

ولما رأىٰ أيوبُ هٰذا الفضل الإلٰهي « جعل يحثي » الجرادَ بكلتا يديه ويجمعه « في ثوبه » فناداه الله تعالى اختباراً له ـ وهو سبحانه أعلم بعباده جميعاً ـ وتعليماً لنا أن نُلاحظ النية الحسنةَ في كلِّ عملٍ نقوم

---

(١) ومثله في « موارد الظمآن » ص ٥١١ ، و« تفسير » ابن كثير ـ سورة الأنبياء ـ ، وفي مطبوعة « المستدرك » ٢ : ٥٨١ : خمس عشرة سنة ، وفي مطبوعة « فتح الباري » ٦ : ٤٢٠ (٣٣٩١) منسوباً إلى ابن حبان : ثلاث عشرة سنة ؟ .

به : « ألم أكنْ أغنيتك عما ترىٰ ؟ » فهو امتحانٌ مادي بعد ذاك الامتحان الجسدي .

قال أيوب : « بلىٰ » يا رب ، قد أغنيتني عن كلِّ ما أرىٰ ، لـٰكنه لما كان إكراماً منك علىٰ هـٰذا الوجه الخارق للعادة ـ مما يدلُّ علىٰ أنه فضلٌ منك وبركة ـ فإنه « لا غِنىٰ بي عن بركتك » .

وكأنَّ إغناءَ الله تعالىٰ له المشارَ إليه في هـٰذا الحديث هو ما جاء في رواية ابن حبان التي أشرت إليها قبل قليل ، ففي « صحيح » ابن حبان (٢٨٩٨) عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أيوب نبيَّ الله لبث في بلائه ثماني عَشْرةَ سنةً ، فرَفَضَه القريب والبعيد ، وكان يخرج إلىٰ حاجته ، فإذا قضىٰ حاجته أمسكتْ امرأته بيده ، فلما كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها ، فأوحى الله إلىٰ أيوب في مكانه : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ صٓ : ٤٢ ، فاستبطأَتْه ، فبلغته ـ أي : ذهبتْ إليه حتىٰ وصلت ـ فأقبلَ عليها قد أذهبَ الله ما به من البلاء ، فهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أيْ بارك الله فيك ، هل رأيت نبيَّ الله هـٰذا المبتلىٰ ؟ والله ـ علىٰ ذٰلك ـ ما رأيتُ أحداً كان أشبهَ به منك إذْ كان صحيحاً ! قال : إني أنا هو .

وكان له أَنْدران ـ أي : بيدران ـ أندرُ القمح ، وأندرُ الشعير ، فبعثَ الله سحابتين ، فلما كانتْ إحداهما علىٰ أندر القمح أفرغتْ فيه الذهبَ حتىٰ فاضت ، وأفرغتْ الأخرىٰ علىٰ أندَر الشعير الوَرِق ـ الفضة ـ حتىٰ فاضت ! » وهو في « المستدرك » ٢ : ٥٨١ وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي .

فكأن هـٰذا هو الإغناء المشار إليه ، وكأنه عقبَ معافاته وقبلَ رِجْل الجراد من الذهب . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

٢٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قَرَصَتْ نملةٌ نبيّاً من الأنبياء ، فأَمر بقريةِ النملِ فأُحْرِقَتْ ، فأوحى الله إليه : أنْ قرصتْكَ نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تُسبِّح الله ؟! » .

٢٢ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الجهاد ـ بابٌ (بعدَ باب : إذا حرَّق المسلمُ المشركَ هل يُحرَّق) ٦ : ١٥٤ (٣٠١٩) ، وفي بدء الخَلْق ـ باب إذا وقع الذباب . . . وخمسٌ من الفواسق ٦ : ٣٥٦ (٣٣١٩) ، ورواه مسلم : كتاب السلام ـ باب النهي عن قتل النمل ٤ : ١٧٥٩ (١٥٠) .

غريبه : قرية النمل : بيت النمل .

معناه : نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت ظلِّ شجرة ـ كما في رواية البخاري الثانية ، وروايةٍ لمسلم ـ وهٰذا النبي : قيل : هو موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وقيل : العُزير ، فقرصتْه نملة ، فأمر بجَهازه فأُخرج من تحت الشجرة ، وأمر ببيت النمل فأُحْرق .

فعتَبَ الله عليه فأوحىٰ إليه : أنْ قَرَصَتْك نملةٌ واحدة أمرتَ بإحراق الجميع ! « فهلا نملةً واحدةً » كما في روايةٍ عندهما ، أما علمتَ أن النمل أمةٌ من الأمم تسبِّح الله تعالىٰ .

وتسبيحُ النمل : تسبيحٌ على الحقيقة لا على المجاز ، كما تقدم تقريره في شرح الحديث (١٢) ، وقولُه تعالىٰ هنا : « فهلا نملةً واحدة » معناه : فهلا أحرقتَ نملةً واحدة وهي التي قَرَصتك ، وليس معناه إحراقَ واحدةٍ لا على التعيين ، بل : أحرقْ التي آذتك ، فيكونُ المرادُ : إنِ استطعتَ تعيينَ التي

قَرَصَتْك فأحْرِقْها ، فهو القَدْرُ المأذونُ فيه لك ، وإنْ لم تستطعْ تعيينَها فلا تُحرق غيرها ، فيكون أمره بإحراق واحدة تعليقاً علىٰ أمر بعيد متعذِّر ، وكأنه يدعوه ضمناً إلى الصفْح والصبر .

ومن الناحية الفقهية : فإن في قوله تعالىٰ : « فهلا نملة واحدة » دلالةً علىٰ أن إحراق النمل جائز في شرعهم ، ولٰكنْ هل هو جائز في شرعنا ؟ وسواء بعد ذٰلك كان الإحراقُ بالنار أو بهٰذه المبيدات الكيماوية ؟ .

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ١٤ : ٢٣٩ : « أما في شرعنا : فلا يجوز الإحراق بالنار للحيوان ، إلا إذا أحرق إنساناً فمات بالإحراق فَلِوليّه الاقتصاصُ بإحراق الجاني ، وسواء في منع الإحراق بالنار القملُ وغيرهُ ، للحديث المشهور : « لا يعذِّبُ بالنار إلا الله » ، وأما قتل النمل ـ أي : بغير الإحراق ، كالدَّهْس مثلاً ـ فمذهبنا ـ أي : الشافعية ـ أنه لا يجوز ، واحتج أصحابُنا فيه بحديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن قتل أربع من الدواب : النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والصُّرَد[1] . رواه أبو داود بإسناد صحيح علىٰ شرط البخاري ومسلم » .

قلت : أما الحديث المشهور : فهو في البخاري : كتاب الجهاد ـ باب لا يُعذَّب بعذاب الله ٦ : ١٤٩ (٣٠١٧) ، وهو طرف من الحديث ، ولفظه : « . . . وإن النار لا يعذِّب بها إلا الله » .

وأما حديثُ ابن عباس : فرواه عنه أبو داود : كتاب الأدب (٥٢٢٥) ، وابن ماجه : كتاب الصيد (٣٢٢٤) بإسناد صحيح .

وقد روىٰ أبو داود حديثاً صريحاً في النهي عن إحراق النمل ، ففي

(١) قال في « النهاية » ٣ : ٢١ : الصرد : « طائر ضخم الرأس والمِنقار ، له ريش عظيم ، نصفه أبيض ونصفه أسود » .

كتاب الجهاد منه (٢٦٦٨) ، وكتاب الأدب (٥٢٢٦)[١] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمَّرة معها فرخانِ ، فأخذنا فرخَيْها ، فجاءت الحُمَّرة فجعلتْ تعرّش[٢] ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « من فَجَع هٰذه بولدها ؟ رُدُّوا ولدَها إليها » ، ورأىٰ قريةَ نملٍ قد حرَّقناها فقال : « من حرَّق هٰذه ؟ » قلنا : نحن ، قال : « إنه لا ينبغي أن يُعذِّب بالنار إلا ربُّ النار » .

فتحصَّل أن قتلَ النمل مطلقاً بالحَرْق والدَّهس ونحوهما منهيٌّ عنه ، نعم قال الخطابيُّ رحمه الله في « معالم السنن » ٢ : ٢٨٣ : « النمل علىٰ ضربين ، أحدهما : مؤذٍ ضرَّار ، فدفع عاديته جائز ، والضرب الآخر : لا ضرر فيه ، وهو الطوال الأرجل لا يجوز قتله » ، وأفاد ابن حجر رحمه الله في « الفتح » ٦ : ٣٥٨ أن النمل الذي بهٰذا الوصف يعرف بالسُّليماني ، ثم قال : « قال البغوي : النملُ الصغيرُ الذي يقال له : الذرُّ يجوز قتله ، ونقَله صاحب « الاستقصاء » عن الصَّيْمَري ، وبه جزَم الخطابي » .

علىٰ أن الطبري أسند في تفسير سورة المطففين إلى الحسن البصري من وجهين عنه أنه قال في الأبرار : هم « الذين لا يؤذون الذَّرَّ » .

وجاء في آخر كتاب « مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية ابنه عبد الله » ٣ : ١٣٤٤ ما نصه : « عن حبيبة مولاةِ الأحنف بن قيس أنها رأت الأحنف بن قيس ، ورآها تقتل نملة ، قال : لا تقتليها ، ثم دعا بكرسيٍّ ، فجلس عليه

(١) وهو من رواية عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، وفي سماعه منه خلاف ، وقد أثبته البخاري وغيره ، انظر التعليق على « الكاشف » (٣٢٤٤) .

(٢) قال في « النهاية » ٣ : ٢٠٨ : « أي : ترتفع وتظلِّل بجناحَيْها علىٰ من تحتها » .

ثم قال : إني أُحَرِّج عليكنَّ لَمَا خرجتنَّ من داري ؛ فإني أكره أن تُقتلنَ في داري ، قالت : فخرجنَ فما رُئي منهن بعد ذٰلك اليوم واحدةٌ .

قال ـ عبد الله ابن الإمام أحمد ـ : ورأيت أبي فعل مثل ذٰلك ، حرَّج على النمل ، وأكثر علمي أنه جلس علىٰ كرسي يجلس عليه يتوضأ ، ثم رأيت النمل قد خرجن بعد ذٰلك اليوم ، نملٌ كبار سُود ، فلم أرهمْ بعد ذٰلك .

* * *

٢٣ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه ذَكَرَ رجلاً فيمن سَلَف ـ أو : فيمن كان قبلكم ، يعني أعطاه الله مالاً وولداً ـ فلما حضرتِ الوفاة قال لبنيه : أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرَ أبٍ ، قال : فإنه لم يَبْتَئِرْ ـ أو : لم يبتئز ـ عند الله خيراً ، وإنْ يَقْدِرِ الله عليه يعذِّبه ، فانظروا إذا متُّ فأحرِقوني ، حتىٰ إذا صِرتُ فحماً فاسْحَقوني ـ أو قال : فاسحكوني ـ فإذا كان يومَ ريح عاصفٍ فأَذْروني فيها ، فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم : « فأخذَ مواثيقهم علىٰ ذٰلك وربّي ، ففعلوا ، ثم أَذروه في يوم عاصفٍ ، فقال الله عز وجل : كنْ ، فإذا هو رجلٌ قائم ، قال الله : أيْ عبدي ما حَمَلَك علىٰ أنْ فعلتَ ما فعلتَ ؟ قال : مخافتُك ـ أو : فَرَقٌ منك ـ قال : فما تلافاه أنْ رَحِمه عندها » ، وقال مرةً : « فما تلافاه غيرها » .

٢٣ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح : ١٥ ، ١٣ : ٤٦٦ (٧٥٠٨) ، ورواه البخاري أيضاً بألفاظ أخرىٰ في مواضع متعددة ، وهو في « صحيح » مسلم نحوه : كتاب التوبة ـ باب في سعة رحمة الله تعالىٰ ٤ : ٢١١٠ (٢٥) .

غريبه : لم يبتئر : لم يقدِّم ولم يدِّخر ، وأما « يبتئز » : فقالوا : هي شك من الراوي ، ولم أرَهم ذكروا لها معنىً .

فما تلافاه : فما تداركه .

معناه : مِن القصص النبوية ذات العِبَر والعِظات : قصةُ الرجل الذي أسرف علىٰ نفسه طَوال حياته ، ثم أدركه خوف الله وخشيته ، فتداركه الله بالمغفرة والرحمة .

وكان صلى الله عليه وسلم يتخوَّل أصحابه بما جرىٰ لبني إسرائيل ؛ إذِ الأحداثُ الواقعة ذات أثر في النفس كبير ، يفوق التحدُّث بالموعظة المستفادة من الحادثة إذا لم تكن مع الحادثة .

فلو قلتَ لآخر : من مات خائفاً من الله غفر الله له ، كان لقولك أثر في نفسه ، وقد أفدته فائدة .

أما لو قصصتَ عليه قصةَ هٰذا الرجل من بني إسرائيل ، لكان الأثر في نفسه أكبر ، وأعظمَ وقعاً ، وأدعىٰ للخوف من الله عز وجل .

فلذا كان صلى الله عليه وسلم يقصُّ علىٰ أصحابه أخبارَ من مضىٰ .

رجلٌ أعطاه الله مالاً وولداً ، وبارك له فيهما ووسَّع عليه منهما ، وهٰذا معنى الرواية الأخرىٰ لمسلم : « رَغَسَه الله مالاً وولداً » .

فهو يتقلَّب في نِعَمِ الله كيف يشاء ، إلا أنه لم يشكر الله علىٰ هٰذه النعم ، وشُكرها : صرفُها فيما يرضي الله تعالىٰ ، لٰكنه لم يفعل شيئاً من ذٰلك .

فلما حضرته الوفاة أوصىٰ أولاده وصيةً يعلم أنها وصيةٌ غريبة ، وليَضْمَن منهم تنفيذَها قال لهم : « أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ » ، قالوا : خيرَ أب ، قال الرجل عن نفسه : « إنه » بضمير الغائب ، في حين أنه قال ذٰلك بضمير المتكلم ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله بضمير الغائب تنزيهاً لنفسه أن يَنسُب إليها ما لا يليق ، ولو بحكايته كلامَ غيره ، وهٰذه عادةُ العرب كذٰلك .

قال : إنه إنسانٌ ضيَّع حياتَه فيما لا يرضي الله ، فهو لم يقدِّم لنفسه في

الآخرة خيراً ، ولم يدَّخِر عند ربه صالحاً ، من أفعال الجوارح [١] ، ولئن قَدَر الله عليه ليعذِّبنه عذاباً شديداً .

قال ذلك وهو معتقدٌ أن الله قادر عليه ، وأنه سيحييه بعد موته ويُوقفه للحساب ، لكنها كلمةُ اليائس الذي لا يدري كيف ينجو .

قال الإمام النووي رحمه الله ١٧ : ٧١ : قال الرجل هذا القول « وهو غيرُ ضابطٍ لكلامه ، ولا قاصدٍ لحقيقة معناه ومعتقدٍ لها ، بل قاله في حالةٍ غلب عليه فيها الدَّهش والخوف وشدة الجزع ؛ بحيثُ ذهب تيقظُه وتدبُّر ما يقوله ، فصار في معنى الغافل والناسي . . . » [٢] .

« وقالت طائفة : هذا من مجاز كلام العرب وبديع استعمالها ، يُسمونه : مزج الشكِّ باليقين ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾ سبأ : ٢٤ ، فصورته صورةُ شكٍّ ، والمرادُ به اليقين » .

وقد أشكل قوله : « إن يَقدر الله عليه يُعذِّبه » ، بناء علىٰ أن معنىٰ (يَقْدِر) هو المعنى المتبادر من القدرة ، فيكون كلامُه كلامَ شاكٍّ في اتصاف الله عز وجل بصفة القدرة ، مع أنها ثابتةٌ لله عز وجل دون أي شك ، وعلىٰ هذا جاء كلام الإمام النووي ـ وغيره ـ : إن الرجل كان في حال دَهَش ولا يريد معناها .

وقد ذكر النووي قبلَ هذا ـ وغيرُه ـ معنىً آخر لهذه الكلمة .

قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالىٰ : ٤ : ٤٨ من « بهجة النفوس » :

---

(١) أما أعمال القلوب : ففي قلبه توحيد الله ، كما جاء في رواية ابن مسعود وأبي هريرة لهذه القصة عند أحمد ١ : ٣٩٨ ، ٢ : ٣٠٤ .

(٢) ومثله قول الإمام ابن أبي جمرة ٤ : ٤٨ : « وقد يكون ذلك عن حال خوفٍ غَلَب عليه حتىٰ أخرجه عن حال التمييز ، وهو أظهرُها . والله أعلم » . أي : أظهر الأقوال والتوجيهات . وانظر بعد قليل .

« يَحتمِل أن يكون المراد بقوله : « لئن قَدَر الله عليَّ » بمعنىٰ : لَئن ضيَّق الله عليَّ بإقامة عدله سبحانه وتعالىٰ ، فيكونُ مثلَ قوله تعالىٰ : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ الأنبياء : ٨٧ ، معناه : أن لن نُضيِّق عليه[١] ، وكذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾ الفجر : ١٦ ، أي : ضيَّق عليه ، وهٰذا هو الظاهر . والله عز وجل أعلم »[٢] .

ثم أوصاهم بإحراقه ثم سَحْقِه ودَقِّه حتىٰ يصير رماداً ، ثم تحيُّنِ يومٍ عاصفٍ ليُذْروه في البحر ـ كما في رواية في الصحيحين ـ ففعلوا .

وقد أكدَّ لنا صلى الله عليه وسلم أن هٰذا الرجل أخذ المواثيق علىٰ أبنائه أن يفعلوا به ذٰلك إذا مات ، أكدَّ لنا ذٰلك بالقسم فقال : « وربي » .

« فأمر الله البَرَّ فجمع ما فيه ، وأمر البحرَ فجمع ما فيه » ، كما في رواية مسلم ، ثم قال الله عز وجل له : كنْ ، فإذا هو رجلٌ قائم ، مجتمعُ الذرَّات ! .

فسأله ربُّه ـ وهو أعلم به ـ لِمَ أوصىٰ بما أوصىٰ به ؟ فأَفصح عن مكنونِ صدره ، وندمِه علىٰ إسرافه ، وعن آخر حالٍ عرضتْ له قبلَ الوفاة فقال : خشيتك يا رب .

فتداركه الله تعالىٰ بالرحمة لِمَا علمَ من صدقه في حاله ومقاله ، كما في رواية للبخاري ومسلم : « من خشيتك ، وأنت أعلم » .

---

(١) أفاد النووي ١٧ : ٧١ أن هٰذا أحد الأقوال في تفسير الآية الكريمة ، وانظر « تفسير » الطبري ١٧ : ٧٨ ، وقال ابن كثير ٥ : ٢٣٣٦ : « يروىٰ نحو هٰذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، واختاره ابن جرير » .

(٢) ثم رأيت أن هٰذا الجواب مختصر من كلام الإمام الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » الحديث (٥٥٦) ، فينظر . ومن الآيات الكريمة المذكور فيها التقدير بمعنى التضييق : الآيات التي جاء فيها بسط الله تعالى الرزق لمن يشاء من عباده وتقديره علىٰ من يشاء منهم ، وهي تسع آيات في كتاب الله : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ الرعد : ٢٦ .

فهٰذا يفيدُ أن الخوفَ من الله تعالىٰ سببٌ للمغفرة والرحمة ، والخوفُ عملٌ قلبيٌّ لا يُضَيِّعه الله تعالىٰ هدَراً ، بل يحفظُه لصاحبه ، ويعاملُه بمقتضاه ، وأعمالُ القلوب لا يُشترطُ لقبولها اقترانُ أفعالِ الجوارح بها ، وبما أن هٰذا الإنسان خُتم له بهٰذا الخوف الشديد فإن الله عز وجل تداركه بالمغفرة والرحمة ، أما غيره من العباد فقد يكون لهم مثلُ هٰذه المعاملة من الله تعالىٰ ، وقد يكون لهم غيرها ، وهم في المشيئة الإلٰهية .

نسأل الله الكريم أن يتداركنا برحمته ومغفرته .

❋ ❋ ❋

٢٤ ـ عن عياضِ بن حِمَارِ المُجَاشِعيّ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خُطبته : « ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتُم مما علَّمني يومي هٰذا :

كلُّ مالٍ نَحَلْته عبداً حلالٌ ، وإني خَلَقتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم ، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرَتْهم أن يُشْركوا بي ما لم أُنزلْ به سلطاناً .

وإن الله نظر إلىٰ أهلِ الأرضِ فمَقَتَهم : عَرَبَهم وعَجَمَهم إلا بَقَايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليَك وأبتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماء ، تقرؤه نائماً ويقظانَ .

وإن الله أمرني أن أُحَرِّق قريشاً ، فقلت : ربِّ إذاً يَثْلَغُوا رأسي ، فيدَعوه خُبزةً ! قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغْزُهُمْ نُغْزِك ، وأَنْفِقْ فسَنُنفقَ عليك ، وابعثْ جيشاً نبعثْ خمسةً مثله ، وقاتلْ بمنْ أطاعك مَنْ عصاك .

قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطانٍ ، مُقْسِطٌ ، متصدِّقٌ ، موفَّق ؛ ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب لكلِّ ذي قُربىٰ ومسلم ؛ وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيالٍ .

قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زَبْرَ له ، الذين هم فيكم تبعاً ، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ؛ والخائن الذي لا يخفىٰ له طمع وإنْ دقَّ إلا خانه ؛ ورجلٌ لا يُصبحُ ولا يمسي إلا وهو يُخادعُك عن أهلِك ومالك ، وذكر البخلَ ـ أو الكذبَ ـ ، والشِّنْظِيرُ الفَحَّاشُ » .

٢٤ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤ : ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨ (٦٣ ـ ٦٥) .

غريبه : نَحلْتُه : أعطيتُه ، حنفاء : على الفطرة والاستقامة ، كقوله الآخر : « كل مولود يولد على الفطرة » ، وانظر « الفتح » ٣ : ٢٤٨ (١٣٨٥) .

اجْتالتْهم : أخذَتهم عن الفطرة والاستقامة .

سلطاناً : حجةً وبرهاناً .

مَقَتَهم : المقْت : البُغض الشديد .

يَثْلَغوا : يَشُجُّوا رأسي .

لا زَبْرَ له : لا عَقلَ له يزبُره ، أي : يَرْدَعه .

الشِّنظير : الفحَّاش ، كما ذكره ، السَّيئ الخُلُق .

معناه : هٰذا الحديث من جوامع الأحاديث القدسية ، ويُمكن تلخيصه إلىٰ ثلاثة أقسام : القسم الأول : أسبابُ البعثة المحمدية . القسم الثاني : أحداث البعثة المحمدية . القسم الثالث : نتائج البعثة المحمدية . وهو في كل ذٰلك يتحدَّث عن أهمّ ما يتعلق بكل قسم .

أما القسم الأول : فأسبابُ البعثة المحمدية : إنقاذُ الناس من أيدي

الشياطين الذين اختطفوا قلوبَ الناس وعقائدهم ، وأمَالوها عن فِطرتها الحنيفية ، فأَحْدَثَت فيهم الجَنَفَ بعد الحَنَف .

قال العلامة الراغب الأصفهاني رحمه الله في « مفرداته » ص ٢٦٠ : « الحَنَف : هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجَنَف : ميل عن الاستقامة إلى الضلال » .

وإن الله عز وجل خَلَق العباد على الحنيفية مستقيمين ، فجاءت الشياطين فأمالوهم عن الحنيفية إلى الضلال ، وهٰذا هو الجَنَف ، إلىٰ أنْ تمكَّن الميلُ فيهم فانحرفوا تماماً ، واتخذوا أرباباً غيرَ رب العالمين .

واستمرَّ الانحراف في معتقدات الناس بتسويل من الشياطين إلىٰ أنْ دخل ذٰلك في معتقداتهم الدينية ـ فاتخذوا أرباباً غير الله ـ وفي تصرفاتهم المالية ـ وغيرها ـ فحرَّموا ما أحلَّ الله ، وذٰلك أن الله تعالىٰ أباح لعباده التملك بالطريق المشروعة ، فجاءت الشياطين وأمرتْهم أن يُحرِّموا السائبة والبَحيرة والوَصِيلة والحامي [١] وغيرَ ذٰلك .

ولهٰذا افتتح الحديثَ بقوله : « كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبداً حلال » أي : إن أصل ما ملَّكتُه عبادي وأعطيتهم إياه : حلالٌ خالصٌ لهم ، ليس فيه حرام ، ولا حرَّمتُ عليهم ما أعطيتهم ، إنما حرَّموا علىٰ أنفسهم ما حرَّموه بتأثير الشياطين عليهم .

---

(١) السائبة : هي الناقة التي وَلَدتْ عشر إناث متتابعةً ، فلا تُركب حينئذ وتُترك مسيَّبة ، فما وَلَدت بعد ذٰلك إن كان أنثىٰ شقوا أذنها وسُيِّبت وسميت بَحيرة . والوَصيلة : الشاة إذا وَلَدتْ ستة أبطن كل بطن شاتان شاتان ، فإذا وَلَدت في السابعة ذكراً وأنثىٰ قالوا : وَصَلت أخاها ، فأَحَلُّوا لبنها للرجال فقط . كما في « النهاية » ١ : ١٠٠ ، ٥ : ١٩٢ . والحامي : هو الفحل من الإبل إذا ضَرَب عشرة أبطن يُحمىٰ ظهره فلا يُركب . كما في « المفردات » للراغب ص ٢٥٩ .

وإنما افتتح الحديث بهٰذه الجملة : تمهيداً لبيان مدىٰ ما أثَّرت عليهم الشياطين .

وقولُه تعالىٰ : « وأَمَرتُهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً » : فيه توبيخ وتقريع للمشركين ، وبيانٌ لسُخف عقولهم ، إذْ كيف يَعتقدون شيئاً ليس فيه حجةٌ باهرة قاطعةٌ مُلزِمة باعتقادِ ما فيها ، كما يُلزم السلطانُ رعيته باتباع أوامره ؟ .

لأن قوله « سلطاناً » : معناه : حجةً وبرهاناً . وما وجهُ تسمية الحجة بالسلطان ؟ وجه ذٰلك : أن الحجةَ تكونُ ملزمة لسامعها بالانصياع إليها واتباع مقتضاها ومدلولها ، فإذا كانت الحجةُ بهٰذه القوةِ الملزمةِ ، سمِّيت سلطاناً ، كما أن السلطان يتصف بصفة السلطةِ الملزِمة للرعية بتنفيذ أوامره واتباعها كما يريد .

فالله تعالىٰ يَعيب على المشركين عقولَهم السخيفة التي تَقْبل الانصياع والاتباع لعقائدَ غيرِ ملزمة ، وإذا كانت غير ملزمة فهي غيرُ قوية الحجيَّة ، والعاقل لا يكون كذٰلك .

وفي هٰذا القول الإلٰهي « وأمَرتُهم أن يشركوا . . . » : دليلٌ ضمنيٌّ علىٰ أن عقائد الإسلام كلَّها مبنيةٌ علىٰ (سلطانٍ) من الأدلة والبراهين الملزمة للإنسان أن يتبعها وينقادَ إليها ، فإنه تعالىٰ لا يُنزِّل إلا ما به سلطان .

ولما تمَّ هٰذا الانحراف البشريُّ عن الحنيفية السمحة ، بوساوس الشياطين ، وبسخافة العقول ، حلَّ سَخط الله الجبَّار علىٰ هٰؤلاء المشركين فمقَتَهم وأبغَضَهم أشدَّ البغض ، ولم يَنْجُ من سَخَطه تعالىٰ إلا قليل جداً ممن تمسَّك بالكتاب الذي كان بين يديه .

فهٰذا هو واقعُ الناس في تلك الفترة ، وخلاصتُه : إشراكٌ وكفر بالله ،

واتباع للشيطان ، وزيغٌ في العقائد ، وانحراف في المفاهيم ، حتىٰ دخل في تصرُّفاتهم المالية ومع حيواناتهم وبهائمهم ، ومَقْتٌ إلـٰهي وسُخْط ربَّاني . . .

وها هنا تقتضي الحكمةُ الإلـٰهية إنقاذَ البشرية المنحرفةِ الضالةِ الممقوتة ، إنقاذَها بنورٍ ربَّاني ، ورحمة إلـٰهية ـ مع هـٰذا المقْت والسخط ـ لأن رحمة الله عز وجل تغلب غضبه وتسْبقُه .

وهنا يجيء الحديث عن القسم الثاني :

أرسل الله تعالىٰ محمداً صلوات الله وسلامه عليه رحمةً لأولـٰئك الناس ومن بعدهم إلىٰ يوم الدين ؛ لينقذَهم من مقت الله وغضبه ، ويصحح لهم عقائدهم وأفهامهم ، ويبصِّرهم الطريق القويم في معاملاتهم وتصرُّفاتهم ، وينهض بهم من وَهْدَة الفكر السخيف إلى العقل السليم . . .

كلُّ ذٰلك مبنيٌّ ومتصلٌ بقانونٍ سماوي وكتاب رباني ، وتشريعٍ خالد دائم ثابت ، ليس كتلك الأديان والتشريعات السابقة ، إذْ كانت محلّاً للتبديل والتحريف ، والتأقيت والنسخ .

وذٰلك في قوله : « **إنما بعثتُك لأبتليَك وأبتليَ بك** » .

والابتلاء والفتنةُ والامتحان والاختبار كلماتٌ ذات مدلول واحد هنا .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ ١٧ : ١٩٨ : « **معناه** : لأمتحنك بما يَظهر منك من قيامك بما أمرتُك به : من تبليغ الرسالة وغير ذٰلك ، والجهاد في الله حقَّ جهاده ، والصبر في الله تعالىٰ وغير ذٰلك ، وأبتلي بك مَنْ أرسلتُك إليهم ، فمنهم من يُظهِر إيمانه ويُخلص في طاعته ، ومن يتخلَّف ويتأبَّد بالعداوة والكفر ، ومن يُنافق .

والمراد : أنه يمتحنُه ليصيرَ ذٰلك واقعاً بارزاً ، فإن الله تعالىٰ إنما يُعاقب العباد علىٰ ما وقع منهم ، لا علىٰ ما يَعلَمه قبل وقوعه ، وإلا فهو سبحانه

عالمٌ بجميع الأشياء قبل وقوعها ، وهٰذا نحو قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ محمد : ٣١ أي : نعلمهم فاعلين متصفين به » .

ولقد أيَّد الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بكتابٍ من لَدُنه ، فيه تشريعٌ خالدٌ مؤبَّد ، وهٰذا معنىٰ قوله : « وأنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِله الماء » إذِ المراد بقوله : « لا يغسله الماء » : ثباتُه ودوامُه ، وحفظُه واستمراره ، وليس المرادُ أنك إذا كتبت كلماته علىٰ لوح ـ مثلاً ـ لا يُمحىٰ بالماء لو غسلته به .

بل المراد ـ كما قلتُ ـ : أن هٰذا الكتاب يختلف عن الكتب السماوية السابقة عليه ، فهٰذا محفوظ بحفظ الله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ ، فلا يُذهَبُ به ، ولا يغيَّر ولا يبدَّل ، ولا يُزاد فيه ولا ينقص منه ، علىٰ خلاف ما حصل لتلك الكتب ، فإنهم استُحفظُوا عليها ، أي : وُكِلَ إليهم حفظها ، فما قاموا بذٰلك ، وهٰذا دائم لا يُنسخ ولا يُغيَّر حكمه ، علىٰ خلاف ما حصَل لتلك الكتب ، فإن تشريعها مؤقت .

ثم إن من مزايا هٰذا الكتاب العظيم الذي أيَّد الله به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم : أنه كتاب ميسَّر للحفظ والفهم والعمل به ، وهٰذا معنىٰ قوله : « تقرؤه نائماً ويقظانَ » ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر : ١٧ .

علىٰ خلافِ واقعِ الكتب الأخرىٰ وأصحابها ، فإنه لا يُعرفُ عن واحدٍ منهم أنه حفظ التوراةَ أو الإنجيل أو الزبور كما أُنزلت من الله سبحانه .

وبعد أن أيَّد الله سبحانه نبيَّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام بالقرآن العظيم أمَره بدعوةِ قريش إلى اتِّباعه ونبذ ما كانوا عليه من قبلُ ، وفي دعوتهم هٰذه هلاكهم إنْ لم يستجيبوا له ، ولذٰلك عبَّر عن ذٰلك بالإحراق

المستلزِم للهلاك[١] فقال : « وإن الله أمرني أن أُحرّق قريشاً » ، وفي قريشٍ عُتاة طُغاة ؛ فلذٰلك قال صلى الله عليه وسلم : « رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزةً » وتعبيره بـ « إذاً » بيانٌ لنتيجة حتميةٍ عنده صلى الله عليه وسلم ؛ لعلمه بما جُبلتْ عليه نفوسُ قريش .

قال في « النهاية » ١ : ٢٢٠ : « الثَّلْغ : الشَّدخ » ، ثم فسَّر الشدْخ في ٢ : ٤٥١ فقال : « الشدْخ : كسر الشيء الأجوف » ، وهٰذا غايةُ الشَّجِّ ، لذٰلك شبَّهه بالخُبزة المنكسِرة المنقسِمة .

إلا أن الله عز وجل أعلَمه بأن العاقبةَ له ، بما أعدَّ له من الإمدادات الإلٰهية التي لا يقوم لها بشر .

أعلَمه بأن العاقبة له ، وذٰلك في قوله تعالىٰ له : « استَخْرِجهم كما استخرجوك » من مكة ، وكيف لا ، ومن سنة الله في خلقه : أن العاقبة الحسنةَ دائماً وأبداً للمتقين ؟! .

وأعلمه بما أعدَّ له من إمدادات إلٰهية : « أُغْزُهم نُغْزِك » أي : نكنْ عوناً لك علىٰ غزوهم : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ الأنفال : ١٧ ، ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ الأنفال : ١٢ ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ المدثر : ٣١ .

وهٰذه الإمداداتُ مضاعفةٌ بالنظر إلىٰ ما يكونُ من قوة مادية يُعدُّها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقاتلتهم : « ابعثْ جيشاً نبعثْ خمسةً مثله » .

ورَسم الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم منهجاً : « قاتلْ بمن أطاعك من عصاك » ، ففي ذٰلك فائدة لك ولهم ، فإن هٰذا المنهج برهان صادق علىٰ

---

(١) ذَكَر الحديثَ في « النهاية » ١ : ٣٧١ وفسَّره بالهلاك .

صدق إسلام من أطاعك ، إذ لا تبذل الروح العزيزة إلا في سبيل ما هو أعزُّ منها .

وأما قوله تعالىٰ : « وأَنفِقْ فسنُنْفِق عليك » : فقد ورد حديثاً قدسيّاً جملةً مستقلةً عند البخاري أول : كتاب النفقات ٩ : ٤٩٧ (٥٣٥٢) ولفظه : « قال الله : أَنفِقْ يا بن آدم أُنفِقْ عليك » .

وورد جملة قدسية أولَ حديث نبوي ، وقد تقدم برقم (١٠) ، ووردت هٰذه الجملةُ هنا في حديث عِياض الذي نشرحه .

وهي أمرٌ بالإنفاق عامةً دون تحديد جهةٍ منفَقٍ عليها ، أو سبب يكون الإنفاق من أجله ، وقد تقدم شرحها علىٰ هٰذا النحو العام ، جاءت رواية الإمام أحمد ٤ : ١٦٢ تحدِّد جهةً منفَقاً عليها ، ولفظ الحديث عنده : « وأنفق عليهم فسننفق عليك » .

فيحتمِل المعنىٰ حينئذٍ أن يكون أمراً بالإنفاق على الجيوش الغازية مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون أمراً بالإنفاق علىٰ أولـٰئك المعاندين ، ليكونَ تألُّفاً لقلوبهم ، أو أن يجمع بين الاحتمالين ، وهو الأولىٰ . والله أعلم .

ويلاحَظُ من التأمُّل في الأمر بالمقاتلة والإنفاق : أن الله تعالىٰ جَمَع بين الجهادين : الجهاد ببذل النفس ، والجهاد ببذل المال ، كما قال الله تعالىٰ في وصف المؤمنين الصادقين : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ الحجرات : ١٥ .

وخلاصةُ الحديث عن أحداث البعثة المحمدية :

ـ بيانٌ للمقصود من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو امتحانُه وامتحانُ أمته : « لأبتلِيَك وأبتليَ بك » .

- تأييدُه بالقرآن العظيم والشريعة الخالدة المؤبَّدة .

- دعوةُ قريشٍ إلى الله تعالىٰ مع الوعد بالإمدادات الإلـٰهية .

- تقديمُ الأرواحِ والأموالِ في سبيل الدعوة إلى الله .

أما الحديثُ عن نتائج هـٰذه البعثة النورانية : ففي الحديثِ عن أوصاف أتباعها ومآلهم ، وعن أوصافِ مخالفيها ومعانديها ومصيرهم :

« وأهلُ الجنة ثلاثة » ، ومعلومٌ أن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٣ ، وهم أتباعُ الرسل عامة ، وأتباعُ هـٰذا النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً .

ثم قال : « وأهل النار خمسة » ، ومعلوم أن النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران : ١٣١ ، وهم أعداءُ الرسلِ عامةً ، وهـٰذا النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً .

والأصناف الثلاثة :

أولُهم : « ذو سُلطانٍ ، مُقِسطٌ ، متصدِّقٌ ، موفَّقٌ » .

- فأولُ وصفٍ للصنف الأول : أنه حاكمٌ « سلطانٌ » ، ولّاه الله عز وجل أمر الرعية ، وجَعَله خليفةً عنه في تنفيذ أحكامه فيهم أمراً ونهياً ، فاستجاب لذٰلك ، وهـٰذا هو :

- الوصف الثاني له : « مقسط » أي : عادلٌ ، ولا يتحقق العدل إلا بالحكم بما أنزل الله .

- والوصف الثالث له : أنه « متصدق » : لا يستأثر علىٰ رعيته بالدنيا التي تأتيه ، بل لا يَدَّخر وُسْعاً في التوسعة عليهم والعطاء والإنفاق .

- والوصف الرابع له - وهو الوصفُ المجمِّل لما تقدم - : أنه رجل

« موفَّق » للخيرات ، ولتحبيب شريعة الله إلىٰ قلوب الناس ، وذٰلك بتطبيقها تطبيقاً حكيماً ، لا بتطبيقها تطبيقاً منفِراً منها ، و« موفَّق » : مسدَّد في أحكامه وأقضيته بين الناس ، وكلِّ ما هنالك ، مما يَعرِض لمن يقومُ هـٰذا المقام ، فهي كلمةٌ عامة تدلُّ علىٰ أنه إنسان يُسِّر للخير ويُسِّر له الخير .

والحقُّ أن هاتين الصفتين : « متصدِّق ، موفَّق » : صفتان زائدتان علىٰ مقتضى الصفتين الأوليين : « ذو سلطان ، مقسط » فهما زائدتان مجمِّلتان محببتان فيه .

فإذا كان « الإمام العادل » هو أولَ مذكور في « السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه » ، فكيف بمن كان إماماً عادلاً مِعْطاءً موفَّقاً في كل أموره للخيرات ؟ .

والصنف الثاني من أهل الجنة : « رجل رحيم رقيقُ القلب لكلِّ ذي قُربىٰ ومسلم » .

والرحمة : صفةٌ تحمل صاحبها علىٰ إرادة كل خير للعباد ، فإن قدر علىٰ تنفيذه وتحصيله له فَعَله ، وإلا أراده لهم بقلبه ودعا لهم به ، وينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « الخلقُ كلُّهم عيالُ الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله »[(١)] ، وهـٰذه خصلةٌ من أعظم خصال الإيمان ، وما أحوجَ المسلمين إليها ! .

وأما « رقيق القلب لكل . . . » فهـٰذه هي صفةُ الصدِّيقين ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال وهو في مرض وفاته : « مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس » ، فقالت له السيدة عائشة : « إنه

---

(١) حسَّنه بعضهم لكثرة طرقه وشواهده العامة . وانظر شرح « الجامع الصغير » للمناوي والعزيزي ، و« المقاصد الحسنة » ص ٢٠١ .

رجلٌ رقيق ، إذا قام مَقامك لم يستطع أن يُصليَ بالناس » قال ابن الأثير في « النهاية » ٢ : ٢٥٢ : « أي : هيِّن ليِّن » .

فيكون المعنىٰ : رجلٌ رحيم يُحبُّ كلَّ خير للناس ، وهو هيِّن الجانب ، ليِّنُ الخُلق ، حسنُ العِشرة مع الناس عامةً قريبهم وبعيدهم ما دام مسلماً ، وما أعظم ذٰلك ! .

والصنف الثالثُ من أهل الجنة : « عفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيال » : أبيٌّ كريم النفس متجمِّلٌ في مظهره ، متحمِّل لمرارة الصبر على الفقر مع الحاجة والخَصَاصة :

وإذا تُصِبْكَ خَصَاصة فتحمَّلِ

أو : فتجمَّلِ .

ومما يزيدُ صبرَه مرارةً أنه ذو عيالٍ ، فالإنسانُ قد يَصبر فيما بينه وبين نفسه ، ويتصبَّر ، ويصبِّر نفسه ، ويُصابِرها ، أما العيال فلا يصبرون ، ولئن صبرتِ الزوجة فالأولاد الناشئون المراهقون لا يصبرون ، والأطفال الصغار لا يدركون ما بأبيهم فيطلبون ويطالبون ، ومع ذٰلك فهو صابر في نفسه مصابر لعياله ، متجمِّل متعفف ، فهو من أهل الجنة .

ولا ريبَ أن كلَّ هٰذه الصفات مقرونة بالإيمان .

وأما أهل النار المُشاقُّون لله ورسوله فخمسة أصناف :

أولهم : « الضعيف الذي لا زَبْر له » أي : لا رادع له يَحجُزه ، وذٰلك الرادع هو العقل السليم الذي يبصِّر صاحبه بالأمور ، إنما فيه العقلُ التكليفي ، أما العقلُ الذي (يعقِله) ويردَعه عن التبعيَّة لكل ناعق : فلا ، ولشدةِ ضعفه العقليِ ، وتمكُّنِ التبعية فيه وصفه الله تعالىٰ : **« لا يبتغون أهلاً ولا مالاً »** إلا التبعيَّة والإمَّعة للآخرين .

ثانيهم : « **الخائن** » ، والخيانة لا تقتصر علىٰ خيانة الأمانة والمال ، بل تشملها وتشمل نقض العهد والذمة ؛ ولذٰلك كان وزرها عند الله عظيماً ، وجاء فيها الوعيد الشديد ، قال صلى الله عليه وسلم : « **يُطْبَع المؤمن علىٰ كل شيء إلا الخيانةَ والكذب** »(١) .

وهي هنا شاملةٌ للمعنى العام ، لأنه « **الذي لا يخفىٰ له طمع وإنْ دقَّ إلا خانه** » ، فقوله : « **لا يخفىٰ** » : أي لا يظهر ، قال الإمام النووي رحمه الله ١٧ : ١٩٩ : « معنىٰ لا يخفىٰ : لا يظهر ، قال أهل اللغة : يقال : خفيتُ الشيء : إذا أظهرتَه ، وأخفيتُه : إذا سترتَه وكتمتَه » .

فالمعنى : الخائن الذي لا يظهر له مطمع وإن كان قليلاً دقيقاً إلا خانه .

وقوله « **طمع** » : أي مَطْمَع ، وهو الأمر الذي يكون محلاً للطمع ، وهٰذا المطمع قد يكون مادياً يوصَل إليه مباشرةً ، كاختلاس مال وخيانة أمانة ، وقد لا يوصَل إليه مباشرة إلا بخيانة أخلاقية كنقضِ عهدٍ وكذب ، فيكون قد جمع الرذيلتين .

ثالثهم : « **رجل لا يُصبح ولا يُمسي إلا وهو يُخادِعك عن أهلك ومالك** » ، فالمخادعة صفة لازمة متمكِّنة في كلِّ حركة وسَكْنة منه ، وفي كل مجال : في الأهل والعرض والنساء ، وفي المال ، والخِداعُ في النار ، وأهله في النار ، وقد روى ابن حبان (٥٦٧ ، ٥٥٥٩) من حديث ابن مسعود ، عن النبي صلى الله

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » ١ : ٩٢ : « رواه البزار وأبو يعلىٰ ـ عن سعد بن أبي وقاص ـ ورجاله رجال الصحيح » ، لٰكن انظر « الترغيب » للمنذري ٣ : ٥٩٥ ، و« الفتح » ١٠ : ٥٠٨ (٦٠٩٤) ، ورواه ابن أبي شيبة (٢٦١٢١) ، وأحمد ٥ : ٢٥٢ عن أبي أمامة ، وراويه عن أبي أمامة لم يسمّ ، ورواه الطبراني في الكبير (٨٩٠٩) موقوفاً على ابن مسعود ورجاله ثقات ، كما قال الهيثمي .

عليه وسلم : « المكر والخِداع في النار » ، فكيف بمن تمكَّنت هٰذه الصفة الذميمة في تصرفاته كلَّ هٰذا التمكن ؟! نعوذ بالله .

رابعهم : « **البخل ، أو الكذب** » : أي المتصف بإحدىٰ هاتين الصفتين : البخيل أو الكذاب . أما الكذب : فقد تقدَّم قبل أسطر قوله عليه الصلاة والسلام : « يُطبع المؤمن علىٰ كل شيءٍ إلا الخيانةَ والكذب » ، وهو بابُ المآثم ، كما يفيده قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ابن مسعود رضي الله عنه : « إن الصِّدق يَهدي إلى البِر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدُق حتىٰ يكتبَ عند الله صِدِّيقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذَّاباً » .

رواه البخاري ١٠ : ٥٠٧ (٦٠٩٤) ، ومسلم ٤ : ٢٠١٢ (١٠٣) .

فتأمَّلْ قوله صلى الله عليه وسلم : « يهدي إلى الفجور » أي : يدلُّ ويُوصلُ إلىٰ كلِّ فسق ومعصية .

وتذكَّرْ قصة كعب بن مالك رضي الله عنه وحديثَ توبته وتوبة الله عز وجل عليه ؛ لكونه صَدَق الحديث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم مناماً فيه بيانُ عذاب الكذَّاب في عالم البرزخ ، فأخبرنا به ، ورؤيا الأنبياءِ جميعِهم من الوحي الإلٰهي .

روى البخاري في « صحيحه » في آخر : كتاب التعبير ١٢ : ٤٣٨ (٧٠٤٧) عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأىٰ أحدٌ منكم من رؤيا ؟ » وإنه قال لنا ذاتَ غداةٍ ـ أي : صباحاً ـ : « إنه أتاني الليلة آتيانِ ، وإنهما ابتعثاني ، وإنهما قالا لي : انطلق ، وإني انطلقتُ معهما ، فأتينا علىٰ رجل مُستلقٍ لقفاه ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحدَ شِقَّيْ وجهه ، فيُشَرْشِرُ

ـ أيْ : يشقِّق ويقطع ـ شِدْقه إلىٰ قفاه ، ومَنْخِره إلىٰ قفاه ، وعينه إلىٰ قفاه ، ثم يتحوَّل إلى الجانب الآخر ـ أي : الشِّدْق الثاني ـ فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذٰلك الجانب حتىٰ يصحَّ ذٰلك الجانبُ كما كان ، ثم يعودُ عليه فيفعلُ مثل ما فعل في المرة الأولىٰ .

قال : قلت : سبحان الله ! ما هـٰذان ؟ » قالا لي : « انطلق انطلق . . . » .

ثم قال لهما عليه الصلاة والسلام في آخر الرؤيا : « إني قد رأيتُ منذ الليلة عجباً ، فما هـٰذا الذي رأيت ؟ قال : قالا لي : أما إنا سنُخبِرك . . . ، أما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شِدقه إلىٰ قفاه ، ومَنْخِره إلىٰ قفاه ، وعينه إلىٰ قفاه : فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذبُ الكِذْبَةَ تبلغُ الآفاق » .

وفي رواية للبخاري أيضاً : كتاب الجنائز ٣ : ٢٥١ (١٣٨٦) زيادة : « يُصنَعُ به ما رأيتَ إلىٰ يوم القيامة » .

وقد صحَّ عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله : « إياكم والكذبَ ، فإن الكذب مُجانبُ الإيمان »[١] .

والنصوص في هـٰذا الصدد كثيرة .

وأما البخلُ : فكذٰلك جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديثُ كثيرةٌ في ذمه ، ومنها : حديث الترمذي (١٩٦٣) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخلُ الجنةَ خَبٌّ ، ولا منَّان ، ولا بخيل » ، **والخَبُّ** : هو الخَدَّاع الذي يُفسد فيما بين الناس .

وروىٰ الطبراني في « الكبير » ١٢ : ١٤٧ (١٢٧٢٣) ، و« الأوسط »

---

(١) « الترغيب » ٣ : ٥٩٥ ، و« الفتح » ١٠ : ٥٠٨ (٦٠٩٤) .

(٥٥١٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله جنة عدنٍ بيده ، ودلّىٰ فيها ثمارها ، وشقّ فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال لها : تكلّمي ، فقالت : « قد أفلح المؤمنون » ، فقال : وعزّتي وجلالي لا يُجاوِرني فيكِ بخيل »[١] .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله عز وجل يُبغضُ البخيل المتكبّر ! .

فروى ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٥٠) عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله » ، وذكر الثلاثة الأُوَل ثم قال : « ويبغضُ الشيخَ الزاني ، والبخيل المتكبر » ولم يُسم الثالث ، وسُمي في الرواية التي قبله : الغنيّ الظّلوم ، فانظر كيف قرن بين هٰؤلاء الثلاثة !! .

وكما أن الكذبَ يُجانب الإيمان ، كما تقدم عن سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه ، فكذٰلك الشح يجانب الإيمان ، والشح والبخل متقاربان ، ومن وادٍ واحدٍ .

فروى النسائي (٣١١٠ وما بعده) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جنهمَ في جوف عبدٍ أبداً ، ولا يجتمعُ الشح والإيمان في قلبِ عبدٍ أبداً » .

خامسهم : « الشِّنظيرُ الفحّاش » وهو السَّيء الخُلُق .

وفي ذمِّ الفحش والفاحش والفحّاش ، وسوء الخُلُق والسَّيء الخُلُق : أحاديثُ كثيرةٌ ، وأكثر من هٰذا وذاك الأحاديث التي فيها الثناء على الخُلُق الحسن وحَسَن الخُلُق .

وقد بوَّب البخاري رحمه الله تعالىٰ في كتاب الأدب من « صحيحه » :

---

(١) قال المنذري ٣ : ٣٨١ ، والهيثمي ١٠ : ٣٩٧ عن أحد إسنادي الطبراني : جيد .

« باب لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفاحشاً » ١٠ : ٤٥٢ وأورد تحته أحاديث ، منها (٦٠٣٠) : حديث عائشة رضي الله عنها أن « يهود أتَـوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : السامُ عليكم ـ يعنون : الموت عليكم ـ فقالت عائشة : عليكم ، ولعنكم الله وغضب عليكم ، قال ـ صلى الله عليه وسلم هو بأبي وأمي ـ : « مهلاً يا عائشة ، عليكِ بالرِّفق ، وإياكِ والعُنفَ والفحشَ » ، قالت : أوَلم تسمعْ ما قالوا ؟! قال : « أوَلم تسمعي ما قلت ؟ ، رددتُ عليهم ، فَيُستجابُ لي فيهم ، ولا يُستجابُ لهم فيَّ » صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

ثم ساق حديثاً آخر لعائشة (٦٠٣٢) : أن رجلاً استأذن علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : « بئسَ أخو العشيرة ، وبئس ابنُ العشيرة » ، فلما جلس تَطَلَّق النبيُّ صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجلُ قالت له عائشة : يا رسول الله حين رأيتَ الرجلَ قلتَ له كذا وكذا ، ثم تطلَّقتَ في وجهه وانبسطت إليه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشةُ متىٰ عهدتِني فاحشاً ؟! إن شرَّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتقاء شره » .

ورواه تحت باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والرِّيَب ١٠ : ٤٧١ (٦٠٥٤) بلفظ : « أيْ عائشةُ ، إن شرَّ الناس من تركه الناس ـ أو : وَدَعَه الناس ـ اتقاءَ فُحشه » .

ورواه أبو داود : كتاب الأدب أيضاً تحت : باب في حسن العِشْرة (٤٧٥٩) ولفظه : « يا عائشة إن الله لا يحبُّ الفاحش المتفحِّش » .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد في « مسنده » ٥ : ٨٩ ، ثم ابنُه عبد الله في زوائده عليه ٥ : ٩٩ عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنهما أنه قال : كنت

في مجلس فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبي سَمُرةُ جالسٌ أمامي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الفحشَ والتفحُّشَ ليسا من الإسلام في شيء ، وإن أحسنَ الناسِ إسلاماً أحسنُهم خُلُقاً » ، إلىٰ غير ذٰلك من الأحاديث الكثيرة .

فإذا كان الفحش ليس من الإسلام في شيء ، وشرُّ الناس من اتقاه الناس لفُحشه ، وإن الفاحش لا يحبه الله تعالىٰ : إذا كان كذٰلك أدركنا حقيقة أن الشِّنْظير الفَحَّاش هو من أهل النار .

وأشدُّ ما يكون الفحش وبالاً علىٰ صاحبه : إذا صَدَر ممن يتزيَّا بزيِّ أهل العلم ، وينتسب إلىٰ كريم مقامهم ، عافانا الله بمنه وكرمه .

وبعدُ : فهٰذه صفاتُ أهل الجنة وأهل النار ، **وتلك عُظْم نتائجِ البعثة المحمدية** : أن نتعرَّف من هم أهل الجنة ، ولماذا ؟ ، ومن هم أهل النار ، ولماذا ؟ حتىٰ نعملَ بأوصاف هٰؤلاء ، ونتجنبَ أوصافَ أولٰئك .

والحمد لله الذي أوحىٰ إلىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بهٰذا ، وجزى الله عنا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كلَّ خير علىٰ تبليغه هٰذا إلينا ، ونسأل الله التوفيق إلى العملِ بمحابِّه ، والاجتنابِ لمساخِطه . إنه ولي التوفيق .

❋ ❋ ❋

من إكرام الله تعالىٰ للنبيّ ﷺ ولأمّته

٢٥ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُتيتُ بالبُراق ـ وهو دابّةٌ أبيضُ طويل ، فوقَ الحمار ودون البغل ، يضعُ حافِرَه عند منتهىٰ طرفه ـ قال : فركبتُه حتىٰ أتيتُ بيت المقدِس ، قال : فربطته بالحَلْقةِ التي يَربطُ بها الأنبياء ، قال : ثم دخلت المسجدَ ، فصليتُ فيه ركعتين ، ثم خرجتُ ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمر ، وإناء من لَبَن ، فاخْتَرْتُ اللبن ، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم : اخترتَ الفِطرة .

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريلُ ، فقيل : من أنتَ ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعِث إليه ؟ قال : قد بُعِث إليه ، فَفُتح لنا ، فإذا أنا بآدمَ ، فَرَحَّبَ بي ، ودعا لي بخير .

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريلُ عليه السلام ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففُتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالةِ : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا ، صلوات الله عليهما ، فرحبا ودعَوَا لي بخير .

ثم عَرَج بي إلى السماء الثالثة ، فاستفتَحَ جبريلُ ، فقيل : مَن أنتَ ؟ قال : جبريل ، قيل : ومَن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، فَفُتِح لنا ، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم ، إذا هو قد أُعْطِيَ شطرَ الحُسْن ، فرحَّب ودعا لي بخير .

ثم عرجَ بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل : من هٰذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، فَفُتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فَرَحَّب ودعا لي بخير ، قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ مريم : ٥٧ .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومَن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففُتح لنا ، فإذا أنا بهارونَ صلى الله عليه وسلم ، فرحَّب ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل : من هٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بموسىٰ صلى الله عليه وسلم ، فرحَّب ودَعَا لي بخير .

ثم عَرَجَ إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيمَ مُسنِداً ظهرَه إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملكٍ لا يعودون إليه .

ثم ذَهَب إلى السِّدرة المُنتَهىٰ ، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلة ، وإذا ثَمَرُها كالقِلال ، قال : فلما غَشِيها من أمر الله ما غَشِي تغيرتْ ، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحىٰ إليَّ ما أوحىٰ ، ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة .

فنزلتُ إلىٰ موسىٰ صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما فَرَض ربُّك علىٰ أمتك ؟ قلت : خمسين صلاةً ، قال : ارْجعْ إلىٰ ربّك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تُطيق ذٰلك ، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرتهم .

قال : فرجعتُ إلىٰ ربي فقلت : يا ربِّ خفِّف علىٰ أمتي ، فحطَّ عني خمساً ، فرجعتُ إلىٰ موسىٰ فقلت : حطَّ عني خمساً ، قال : إن أمتك لا تُطيق ذٰلك ، فارجعْ إلىٰ ربك فاسأله التخفيف .

قال : فلم أزلْ أرجع بين ربي تبارك وتعالىٰ ، وبين موسىٰ

عليه السلام حتىٰ قال : يا محمد إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلة ، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ ، فذٰلك خمسون صلاةً ، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلها كُتِبتْ له حسنةٌ ، فإن عمِلها كُتبتْ له عشراً ، ومَن همَّ بسيئة فلم يَعملها لم تُكتب له شيئاً ، فإن عمِلها كُتبتْ سيئةً واحدة .

قال : فنزلتُ حتى انتهيتُ إلىٰ موسىٰ صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : ارجعْ إلىٰ ربك فاسأله التخفيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : قد رجعتُ إلىٰ ربي حتى استحييتُ منه » .

٢٥ ـ **تخريجه** : هٰذا لفظ مسلم في كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض الصلوات ١ : ١٤٥ (٢٥٩) ، والحديث في « صحيح » البخاري : أول كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ١ : ٤٥٨ (٣٤٩) ، وقد اعتمد القاضي عياض رحمه الله في « الشفا » وغيره سياقة مسلم لحديث الإسراء فتبعتُهم .

غريبه : **القِلال** : جمع قُلَّة ، وهي الجَرَّة العظيمة تَسَعُ قِرْبتين أو أكثر . قاله النووي .

ينعتها : يصفُها . والنعت : هو الوصف بالحسن ، أما **الوَصْف** : فيستعمل في الوصف بالحسن والقبح .

بَلَوتُ : خبرت .

معناه : الكلام علىٰ حديث الإسراء والمعراج طويل جدّاً ، وأُفردت فيه

كتب كبيرة ورسائل لطيفة ، ومن أوسع مَن تكلَّم فيه ـ وكتابه مطبوع متداول ـ العلامة الصالحي رحمه الله تعالىٰ في سيرته « سُبل الهدىٰ والرشاد » ، كتب فيه قُرابة ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير أول الجزء الثالث ، وهٰذا خلاصة كتابه « الفضل الفائق في معراج خير الخلائق » صلى الله عليه وسلم ، ذَكَر ذٰلك في مقدمة كلامه المشار إليه ٣ : ١١ .

كما أسهب الزرقاني رحمه الله تعالىٰ في « شرح المواهب » علىٰ ذٰلك في أول الجزء الخامس منه ، وجُلُّ اعتماده على الصالحيِّ المذكور ، كما هو معلوم .

واللفظ القدسيُّ من هٰذا الحديث : آخره ، وأنبِّه إلىٰ شيء في جملة منه ، وهي قوله تعالىٰ : « ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئاً » مع أنه في الحديث الآتي برقم ٨٢ أنه تكتب له حسنة .

والجواب ـ والله أعلم ـ أن قوله هنا « لم تُكتب شيئاً » معناه : لم يُكتبْ عليه شيء ، أي : لم يكتب عليه سيئة ، ولٰكن هل تكتب له حسنة أو لا ؟ هٰذا أمر مسكوت عنه هنا ، وصُرِّح به هناك : أنها تُكتَب حسنة إن كان تركُه لها خوفاً من الله عز وجل ، ولا تُكتَب شيئاً لا حسنة ولا سيئة إن كان تركُه لها لغير ذٰلك . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

٢٦ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قولَ الله عز وجلَّ في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي . . . ﴾ الآية ، إبراهيم : ٣٦ ، وقال عيسىٰ عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ المائدة : ١١٨ ، فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي ، أمتي » وبكىٰ ، فقال الله عز وجل : « يا جبريلُ اذهبْ إلىٰ محمد ـ وربُّك أعلمُ ـ فَسَله ما يبكيك ؟ » فأتاه جبريلُ عليه الصلاة والسلام فَسَأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريلُ اذهبْ إلىٰ محمد فقلْ : إنا سَنُرضيك في أمتك ولا نَسُوءُك » .

٢٦ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الإيمان ـ باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ١ : ١٩١ (٣٤٦) .

معناه : مدار هٰذا الحديث الشريف علىٰ مَكْرُمتين للنبي صلى الله عليه وسلم :

الأولىٰ : شفقته علىٰ أمته واهتمامه بأمرها ومصيرها .

والثانية : مكانتُه عند الله عز وجل التي جاء التعبيرُ عنها بـ « **إنا سَنُرضيك في أمتك ولا نسُوءك** » صلى الله عليه وسلم .

وكان سببُ ذٰلك ما يحكيه سيدُنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا آيتين كريمتين فيهما موقفُ بعضِ النبيين من أممهم .

فالآية الأولىٰ : قولُ الله تعالىٰ علىٰ لسان خليله إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام في سورة إبراهيم : ٣٦ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والآية الثانية : قولُ الله تعالىٰ علىٰ لسان كلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر سورة المائدة : ١١٨ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

ففيهما استرحامٌ لله عز وجل من إبراهيم وعيسىٰ لأمتهما ، ولٰكنْ ليس فيهما بيانُ نتيجةٍ أو استجابةٍ .

وائتساءً منه صلى الله عليه وسلم بهما ، وعملاً بقول الله تعالىٰ : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ الأنعام : ٩٠ : فإنه دعا لأمته ، ورجا ربَّه بكلمةٍ عامة شاملةٍ لكلِّ وجوه الإحسان إليها فقال : « **اللهم أمتي ، أمتي** » .

وهو يَحتمل معنىٰ : تداركْ أمتي ، ارحمْ أمتي ، أحسنْ إليها ، الطُفْ بها ، اغفر لها ، وما شاكل هٰذه التقديرات ، فكان من حُسْن اختياره صلواتُ الله عليه وسلامه ، أنْ دعا بكلمة جامعةٍ لكل هٰذه الوجوه والاحتمالات .

وقد جَمَع صلى الله عليه وسلم بين دعائه هٰذا ـ ودعاؤه لا يُردُّ ولا يُخيَّب ـ وبكائه الذي يستنزل من الله تعالىٰ كلَّ خير ورحمة ورضوان ؛ ليكون أسرع إجابة ، وأكثر إكراماً من الله تعالىٰ .

فأمرَ الله سبحانه أمينَ وحيه جبريلَ أن يَسأل النبي عليه الصلاة السلام عن سبب بكائه ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالأمر ، ولمزيد التكريم وإظهار المزية ، ورفع شأن ما سيكونُ من عطاء وإكرام ، أرسله إليه أولاً للسؤال ، وثانياً للجواب .

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ٣ : ٧٩ : « **والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله صلى الله عليه وسلم** : إظهارُ شرفِ النبي صلى الله

عليه وسلم ، وأنه بالمحلِّ الأعلىٰ فيُسترضَىٰ ويُكرم بما يُرضيه » .

ثم جاء الجواب الإلـٰهي الكريم : « **يا جبريل ، اذهب إلىٰ محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك** » .

وفيه لطيفتان :

الأولى : التعبير بـ « إنَّا » التي يُعبَّر بها من جانب الحق سبحانه وتعالىٰ دائماً في مقام الدلالة على العظمة ، ولكل مقام عظمتُه المناسبة له ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ القدر : ١ ، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ الكوثر : ١ ، ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ القمر : ٢٧ ، ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ الكهف : ٨ ، وهـٰكذا ، وهو كثير جدّاً في القرآن الكريم .

فيكون المعنىٰ هنا : إنا بعظمتنا وقدرتنا وسلطاننا ، وكرمنا ورحمتنا . . سنرضيك .

واللطيفةُ الثانيةُ : نَقَلها النووي عن « التحرير في شرح صحيح مسلم »[(١)] فقال : « وأما قوله تعالىٰ : « ولا نسوءك » فقال صاحب « التحرير » : هو تأكيد للمعنىٰ ، أي : لا نُحْزِنُك ؛ لأن الإرضاء قد يحصل في حقِّ البعض بالعفو عنهم ، ويُدخل الباقي النار ، فقال تعالىٰ : نرضيك ولا نُدخلُ عليك حزناً ، بل نُنْجي الجميع » . اللهم حقِّق ذٰلك .

لذٰلك قال النووي رحمه الله قبل أسطر : « هـٰذا الحديث من أرجى الأحاديث لهـٰذه الأمة ، أو أرجاها » .

هـٰذا ، ومعلوم أن حرف السين يستعمل للزمن المستقبل القريب ،

(١) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد بن الفضل التَّيْمي الأصبهاني الشافعي رحمه الله تعالىٰ (٥٠٠ ـ ٥٢٦) ، كما في « السِّيَر » ٢٠ : ٨٣ ـ ٨٤ ، ووالده هو أبو القاسم التيمي (٤٥٧ ـ ٥٣٥) صاحب كتاب « الترغيب والترهيب » ، وكان الحافظ المنذري قد عمل كتابه الشهير علىٰ نَسَقه .

و« سوف » للمستقبل البعيد ، وحينئذ فقد يُسأل : لمَ جاءت الآية الكريمة بـ « سوف » في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ الضحىٰ : ٥ ، وهنا في الحديث : « سنرضيك » ؟ .

والجواب ـ والله أعلم ـ أن الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالىٰ في « تفسيره » قال ٣١ : ٢١٤ عن المجيء بـ « سوف » : « يدل علىٰ أنه ما قَرُبَ أجلُه ، بل يعيش بعد ذٰلك زماناً » ، ولعل هٰذا يزداد وضوحاً إذا قلنا : إن قريشاً كانوا يتمنَّون موت محمد صلى الله عليه وسلم ، كما هو معلوم ، فالإتيان بـ « سوف » المُؤذنة بالزمن البعيد فيها إغاظةٌ لقلوبهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعيدٌ زمنُ وفاته .

ثم إن العطاءَ الموعودَ به هناك ﴿ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ الضحىٰ : ٥ : منه الدنيوي : كالنصر والظهور عليهم ، ومنه الأخروي : كالمقام المحمود والدرجات العلا في الجنة ، فحتىٰ لا يضيقَ صدرُ النبي صلى الله عليه وسلم إذا تأخَّر نصره وظهوره عليهم عن الوقت الذي يتوقَّعه ، لاقتضاء الحكمة الإلـٰهية ذٰلك ، قيل له : ولسوف ، فإن الأمر حاصل ولا بدَّ ، وهو مؤكَّد باللام : ولسوف ، فلا تتعجَّلْ ، واطمئنَّ .

أما الحديث الشريف الذي نحن فيه : فإن استعمال « سوف » فيه غير مناسب للمقام أبداً ، ذٰلك أنه مقام دعاء من محمدٍ صلى الله عليه وسلم وبكاء ، فكيف يليقُ التسويف البعيد ! ثم إن الطلب كان مُتَمحِّضاً لحال الآخرة ومواقفها ، ومع ذٰلك جاء الوعد بحرف السين القريب ، في ذٰلك الزمن البعيد عن وقت الدعاء والرجاء ، إشعاراً بقرب الأمر وحصوله .

فسبحان الله والحمد لله علىٰ كرمه ، وصلى الله وسلم على النبي الرؤوف الرحيم .

❋ ❋ ❋

٢٧ ـ عن ثوبانَ مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زَوَىٰ لي الأرض ، فرأيتُ مَشارقَها ومغاربَها ، وإن أمتي سَيَبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها ، وأُعطِيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهْلِكَها بسنةٍ عامةٍ ، وأن لا يُسَلِّط عليهم عدوّاً مِن سوىٰ أنفسهم فَيَسْتَبيحَ بيْضَتَهم .

وإن ربي قال : يا محمدُ إني إذا قَضَيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ ، وإني أعطيتُك لأمتِك أنْ لا أُهلكَهم بسنةٍ عامةٍ ، وأن لا أسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوىٰ أنفسهم يستبيحُ بيضتهم ولو اجتُمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال : مِن بين أقطارها ـ حتىٰ يكونَ بعضُهم يُهلك بعضاً ، ويَسبي بعضُهم بعضاً » .

٢٧ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الفتن ـ باب هلاك هـٰذه الأمة بعضهم ببعض ٤ : ٢٢١٥ (١٩) .

غريبه : زوىٰ : جمَع .

المشارق والمغارب : هاتان الكلمتان تَرِدان في النصوص الشرعية بلفظ الإفراد والتثنية والجمع ، قال الراغب في « مفرداته » ص ٤٥١ : « إذا قِيلا بالإفراد فإشارة إلىٰ ناحيتي الشرق والغرب ، وإذا قِيلا بلفظ التثنية فإشارة إلىٰ مطلعَيْ ومغربَيِ الشتاء والصيف ، وإذا قِيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلَع كل يوم ومغربه ، أو بمطلع كل فصلٍ ومغربه » ، وقال الإمام عليٌّ القاري في « المرقاة » ١١ : ٥٠ في شرح هـٰذه الجملة :

« فرأيت مشارقها ومغاربها » : أي : جميعها .

الأحمر والأبيض : الذهب والفضة .

السنة العامة : القحطُ العامُّ المُهلكُ لبلاد الإسلام .

بيضتهم : قال في « النهاية » ١ : ١٧٢ : « أي : مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقرَّ دعوتهم ، أراد : عدوّاً يستأصلهم ويُهلكُهم جميعَهم » .

قضيتُ قضاءً : حكمت حكماً وأبرمت أمراً .

من سوىٰ أنفسهم : المراد : عدوّ خارجي .

معناه : في هٰذا الحديث بيانُ عظيم مقامِ النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالىٰ ، وذكرُ بشاراتٍ لهٰذه الأمة المحمدية .

أما مقامُ النبي صلى الله عليه وسلم : ففي ثلاثة أمور ، في : إطْلاع الله تعالىٰ له علىٰ مشارق الأرض ومغاربها ، وفي إعطائه الكنزين : الذهبَ والفضةَ ، وفي استجابة الله تعالىٰ دعاءه .

أما الأول : فإن الله تعالىٰ جمع لرسوله عليه الصلاة والسلام الأرضَ فرأىٰ مشارقها ومغاربها ، وهٰذا كنايةٌ عن رؤيته للأرض جميعها ، وهٰذه الرؤيةُ العامةُ الشاملةُ تُكْسِبه علماً عظيماً واسعاً لا يُدرك له مَدىً .

وجاءته البشارة مع هٰذا الاطلاع : « **وإن أمتي سيبلُغ مُلكها ما زُوي لي منها** » فَبُشِّر بامتداد ملكِ أمته ، وامتدادُ ملك أمته : يعني انتشارَ الإسلام .

وأما الثاني : فقال الإمام النووي رحمه الله : « قال العلماء : **المرادُ بالكنزين** : الذهب والفضة ، **أو المرادُ** : كنزا كسرىٰ وقيصر مَلِكي العراق والشام » .

قلت : والأمرُ أعمُّ من هٰذا والله أعلم ، فقد روى البخاري في كتاب المغازي ـ باب أُحُد جبل يحبنا ونحبُّه ٧ : ٣٧٧ (٤٠٨٥) عن عقبة بن عامر

رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فصلىٰ علىٰ أهل أحُد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : « إني فَرَطٌ لكم ، وإني شهيدٌ عليكم ، وإني لأنظُر إلىٰ حوضي الآن ، وإني أعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ـ . . . » .

وفي البخاري أيضاً : كتاب الجهاد ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر » ٦ : ١٢٨ (٢٩٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثتُ بجوامع الكلم ، ونُصِرت بالرعب ، فبينا أنا نائم أوتيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض فَوُضِعتْ في يدي » .

وفي « المسند » ٤ : ٣٠٣ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أَمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، قال : وعَرَضَ لنا صخرةٌ في مكانٍ من الخندق لا تأخذ فيها المَعَاول ، قال : فشكوها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال عوفٌ أحدُ الرواة : وأحسَبه قال : وَضَعَ ثوبَه ثم هبط إلى الصخرة ـ فأخذ المِعْوَل فقال : « بسم الله » ، فضرب ضربةً فكَسِر ثُلُث الحجر ، وقال : « الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح الشام ، والله إني لأُبصِر قصورها الحُمر من مكاني هٰذا » ، ثم قال : « بسم الله » ، وضربَ أخرىٰ فكُسر ثُلُث الحجر فقال : « الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح فارس ، والله إني لأُبصر المدائن ، وأُبصر قصرها الأبيضَ من مكاني هٰذا » ثم قال : « بسم الله » ، وضرب ضربةً أخرىٰ فقلع بقيةَ الحجر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هٰذا »[(١)] .

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » ٦ : ١٣١ : « فيه ميمون أبو عبد الله ، وثقه ابن حبان =

فعلىٰ مقتضى الحديثين اللَّذينِ في البخاري : حديث عُقبة وأبي هريرة : يكون الأمر عاماً ، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام : « **أعطيت الكنزين** » كنايةً عن كنوز الأرض جميعاً ، ولهٰذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول عقب روايته لحديثه السابق : « وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تَنْتَثِلُونها » أي : تستخرجون الأموال والكنوز ، وما فتح الله عليكم من زهرة الحياة الدنيا(١) .

وأما الأمر الثالث : فواضح في هٰذا الموقف وغيره من مواقفه الكريمة عليه الصلاة والسلام ، وهي كثيرة كثيرة ، استجاب الله فيها دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام .

أما الدعوة الأولىٰ : فأن لا يُهلكَ الله هٰذه الأمة بقحط عام ، **والمراد** : هلاكُ استئصال لها يستأصلُها عن بَكْرة أبيها ، أما الإهلاكُ الجزئي : فجائز واقع .

وأما الدعوة الثانية : فأن يحفظ الله هٰذه الأمة من متسلِّط أجنبي عنها يُنزِل بها البأس والهوان ، ويكسر منها المُلك والسلطان ، وما ذاك إلا كرامةٌ لهٰذه الأمة عند ربها ، فلأَنْ تَهلِك هٰذه الأمة بسبب داخلي منها أعزُّ وأكرمُ لها من أن يتسلط عليها متسلِّطون من الأمم الأخرىٰ فيُهلكوها .

= وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات » ثم ذكر عقبه حديثاً بمعناه من رواية عبد الله بن عمرو ، وقال : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما حُيَيُّ بن عبد الله ، وثقه ابن معين وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . فمثل هٰذا الحديث يكون حسناً لغيره .

(١) ذهب إلىٰ أن المراد جهة المشرق والمغرب فقط : القاضي عياض في « شرح مسلم » ٨ : ٤٢٥ ، والنووي في « شرحه » ١٨ : ١٣ ، والمنذري في « تهذيب سنن أبي داود » ٦ : ١٣٨ ، والأُبِّي ٩ : ٣٣٨ ، وذهب إلىٰ عموم جهات الأرض : الخطابي في « معالم السنن » ٤ : ٣٣٩ ، والطِّيبي في « شرح المشكاة » ١٠ : ٣٤٤ ، وعليٌّ القاري في « المرقاة » ١١ : ٥٠ .

فيكون عزُّ الأمةِ المسلمة برجالاتها المستقلّين ، كما أن هلاكها برجالاتها المستأجَرين ، ولا شأن ليدٍ أجنبية عنها بها .

ولقد أكَّد الله عز وجل هٰذا الوعد علىٰ نفسه بقوله : « **ولو اجتُمع عليهم مَن بأقطارها** » ، يريد : ولو أن أهل الأرض قاطبةً اجتمعوا علىٰ إهلاك الأمة وتدميرها لن يستطيعوا ولن يجدوا إلىٰ ذٰلك سبيلاً .

* * *

٢٨ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلىٰ غروب الشمس : أُوتي أهلُ التوراةِ التوراةَ ، فعملوا حتىٰ إذا انتصف النهارُ عَجَزوا ، فأُعطوا قِيراطاً قِيراطاً ؛ ثم أوتي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ ، فعَمِلوا إلىٰ صلاةِ العصر ثم عَجَزوا ، فأُعطوا قِيراطاً قيراطاً ؛ ثم أوتينا القرآنَ فعملنا إلىٰ غروب الشمس ، فأعطينا قيراطين قيراطين .

فقال أهلُ الكتابين : أيْ ربَّنا أَعطيتَ هٰؤلاء قيراطين قيراطين ، وأَعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن كُنا أكثرَ عملاً ؟! قال : قال الله عز وجل : هل ظَلَمتُكُم من أجركم مِن شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أوتيه من أشاء » .

٢٨ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواضع ، وهٰذا لفظه في كتاب مواقيت الصلاة ـ باب من أدرك من العصر قبل الغروب ٢ : ٣٨ (٥٥٧) .

غريبه : بقاؤكم فيما سلفَ : أي : بقاؤكم بالنسبة إلىٰ ما سلف .

قيراطاً قيراطاً : « القيراط : جزء من أجزاء الدينار ، وهو نصف عُشره في أكثر البلاد ، وأهلُ الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين » قاله ابن الأثير .

معناه : مدار هٰذا الحديث الشريف علىٰ بيانِ فضلِ الله علىٰ هٰذه الأمة المحمدية ، إذْ ضاعَفَ لها أجر عملها مع قلّته .

وفي صدر الحديث أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ قِصر مدة هٰذه

الأمة في الحياة الدنيا بالنسبة إلىٰ مدةٍ بقاء الأمم الأخرىٰ ، فشبَّه مدةَ بقائنا بوقتِ صلاةِ العصر : من أوله إلىٰ آخره ، وبقاءَ الأمم الأخرىٰ بمنزلة بقية النهار .

ووصف صلى الله عليه وسلم ضعفَ اليهودِ أهلِ التوراة عن القيام بواجبهم تُجاه ربهم فقال : « **أوتيَ أهلُ التوراةِ التوراةَ ، فعملوا ، حتىٰ إذا انتصف النهار عجزوا** » ، في هـٰذا التعبير إشارة إلىٰ أنهم كُلفوا عملَ النهار كلِّه فعجزوا عنه .

ثم وصفَ ضعفَ النصارىٰ أهل الإنجيل عن القيام بواجبهم أيضاً ، وعبَّر في حقِّهم كما عبر في حق أهل التوراة ، فوصفهم بالعجز .

أما نحن : فأوتينا القرآنَ العظيمَ خيرَ الكتب ، وعَمِلْنا وقتاً أقصرَ من وقتهم ، وأُعطينا من الأجر ضِعفَ ما أعطوا ، ولم نُذكر بصفة العجز ـ ولله الحمد ـ كما ذُكروا .

ومن المعلوم : أن الله تعالىٰ تفضَّل علينا فخصَّ أمكنةً وأزمنةً بمضاعفة الأجر للعاملين فيها بالصالحات ، زيادةً في اغتنام الأجر ، كما هو الحال في ليلة القدر مثلاً ، وكالصلاة في الحرمين الشريفين .

ولما اعترض أهلُ الكتابين بقولهم : « **أيْ ربنا** » ، والمعنىٰ : يا ربنا « **أعطيتَ هـٰؤلاء قيراطين قيراطين ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً ؟!** » أجابهم الله العليم الحكيم : « **هل ظلَمتكم من أجركم من شيء ؟ ، قالوا : لا** » ، فأجابهم بإظهار حكمتِه معهم ، وفضلِه علينا ، وأنه الفعَّال لما يريد فقال : « **هو فضلي أوتيه من أشاء** » .

فنحن معاشرَ الأمة المحمدية محطُّ فضلِ الله عز وجل ومنَّته ، والحمد لله رب العالمين ، ولا ريب أن ذٰلك إكرام من الله لنا لكرامة نبينا صلى الله عليه وسلم علىٰ ربِّه سبحانه .

❋ ❋ ❋

٢٩ ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هٰذه الآيـة : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ البقرة : ٢٨٤ ، قال : دخل قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخُل قلوبَهم من شيء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قولوا : سمعْنا وأطعْنا وسلَّمنا ، قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : قد فعلتُ ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال : قد فعلتُ ، ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ البقرة : ٢٨٦ قال : قد فعلتُ » .

٢٩ ـ تخريجه : رواه مسلم في « صحيحه » : كتاب الإيمان ـ باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس . . . ١ : ١١٦ (٢٠٠) ، وأخرجه قبله مطوّلاً من حديث أبي هريرة ، ولفظ الجملة القدسية منه : « قال : نعم » ، وفيه قوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ البقرة : ٢٨٥ ، قال : نعم .

معناه : يحكي عبد الله بن عباس عن الصحابة رضي الله عنهم جميعاً حالهم لما نزلت الآية الأولىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ البقرة : ٢٨٤ ، وأنهم قد أخذهم الوجلُ الشديد واستصعابُ الأمر جدّاً ؛ لأن الإنسان لا يملك خواطره المَخْفية في صدره ، والله تعالىٰ يخبر أنها معروضة يوم القيامة للحساب ، ولله سبحانه

المشيئةُ المطلقة فيمن يعذبه وفيمن يغفر له ! فقالوا ـ كما في الرواية التي قبلها ـ : كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق ، وقد أُنزِلت عليك هٰذه الآية ولا نُطيقها ! .

ولٰكن النبي صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى السلامة في أمرهم ، فقال لهم : « قولوا : سمعنا وأطعنا وسلَّمنا » لئلا تكونوا كغيركم من أهل الكتاب ممن أُشربوا في قلوبهم حبَّ العجل وقالوا : سمعنا وعصينا ، فقالوا رضي الله عنهم ما أمرهم به .

فأنزل الله تعالىٰ ثناءَه عليهم : ﴿ . . . وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ البقرة : ٢٨٥ ، وخفف عنهم ما ثقُل عليهم ـ وعلىٰ مَن بعدهم مِن بابِ أولىٰ ـ فأنزل قوله الكريم : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴾ البقرة : ٢٨٦ ، وتكرَّم سبحانه عليهم ـ وعلىٰ من بعدهم ـ بأنْ أنزل في هٰذه الآية الدعوات المذكورة ، فلما قرأها عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلَمهم أن الله تعالىٰ قد أجاب دعاءَكم بها فقال : « قد فعلت » .

وليس هٰذا قاصراً عليهم ، بل هو عامٌّ بإذن الله ومشيئته لكلِّ من دعا بها .

وتأمَّلْ دقة الإمام مسلم رحمه الله في عرضه الأحاديث وترتيبها ، فإنه أعقب روايةَ هٰذا الحديث بحديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن الله تجاوزَ لأمتي ما حدَّثتْ به أنفسَها ما لم يتكلَّموا أو يعملوا به » ، وبحديثه القدسي الآتي برقم ٨٢ : « قال الله عز وجل : إذا همَّ عبدي بسيئةٍ . . . » ، والمناسبة واضحة تماماً .

وانظر قوله : « فألقى الله الإيمان في قلوبهم » ، يُرشدُك إلىٰ أن الإيمان نورٌ يقذفُه الله في قلوب مَن يشاء من عباده ، ثم يكون التصديق بالجَنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ـ أي : الجوارح ـ .

وبإنزال الله تعالىٰ قوله الكريم : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴾ : « انكشفت الكُربة عن المسلمين في تأوُّلهم أمرَ الخواطر » كما قاله الإمام ابن عطية رحمه الله في تفسيره « المحرَّر الوجيز » ٢ : ٥٣٩ .

ومما يُستفاد للوقوف علىٰ دقائق التعبير في القرآن العظيم : التنبيهُ علىٰ ما وراء التفرقة اللفظية بين : كَسَبَتْ ، واكتسبت ، فأقول :

جاءت الآية الكريمة بـ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة : ٢٨٦ ، فاستعمل اللام مع : كَسَب ، وهي تستعمل في مجال الغُنْم والاستفادة ، فيقول القائل : لي حقّ ، ولي دَيْن ، ولي مال ، ومنفعة ، ونحوَ هٰذا .

واستعمل « علىٰ » مع : اكتسبَ ، وهي تُستعمل في حال الغُرْم والمسؤولية ، فيقول القائل : عليَّ لفلان حق ، ودَين ، ومال ، ونحو هٰذا .

وهٰذا كثير في القرآن الكريم ، وما جاء علىٰ خلاف هٰذا فمؤوَّل ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ الإسراء : ٧ ، بأن هٰذه اللام هي لام الاستحقاق ، كقوله : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران : ٩١ ، أو اللام بمعنىٰ (إلىٰ) ، أي : فالإساءة راجعة إليها ، وجاءت بمعنىٰ (إلىٰ) في قوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ ، أو بمعنىٰ (علىٰ) كقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ الإسراء : ١٠٩ .

والأصل في استعمال هٰذين الحرفين ما قدَّمته ، فلما استعمل اللامَ مع كسب ، علمنا أن معناها فيما هو غُنْم وخير لها ، وكذٰلك في استعماله (علىٰ) مع : اكتسبتْ ، أي : فيما هو ضرر وشرٌّ عليها ، وليس هٰذا من باب التفنُّن في التعبير ، كما قاله بعضهم ، وحكاه ابن عطية ٢ : ٥٤٤ ، إنما هو كما ارتضاه ابن عطية فقال : « **الذي يظهرُ لي في هٰذا** : أن الحسنات هي ما كُسب دون تكلُّف ، إذْ كاسِبها علىٰ جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات

تكتسبُ ببناء المبالغة ، أي : زيادة حروف في الكلمة ـ إذْ كاسبها يتكلَّف في أمرها خرقَ حجاب نهي الله تعالىٰ ويتخطَّاه إليها ، فحَسُن [١] في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهـٰذا المعنىٰ » .

وتوجيه آخر للزمخشري في « الكشاف » ١ : ١٧٢ قال : « في الاكتساب اعتمال ، فلما كان الشرُّ مما تشتهيه النفسُ وهي منجذبةٌ إليه وأمَّارة به كانت في تحصيله أعملَ وأجدَّ ، فجُعِلتْ لذٰلك مكتسِبة ، ولمَّا لم تكن كذٰلك في باب الخير وُصفتْ بما لا دلالة فيه على الاعتمال » .

وخلاصة هـٰذا : أن زيادة المبنىٰ تدلُّ علىٰ زيادة المعنىٰ ، فـ « اكتسب » فيها تكلُّف وزيادةٌ ليخرجَ الإنسان عن فِطرته حين عملِ الشرِّ الذي يَجلب عليه وزره .

أما « كسب » فالخيرات تتمشَّىٰ مع فِطْرة الإنسان ، ولا يحتاج الإنسانُ إلىٰ زيادة تعمُّل وتكلُّف فيها ليخرج عن طبعه ، هـٰذا ما ينبغي قوله هنا في هـٰذه الآية الكريمة التي جمعت بين اللفظين ، أما إذا جاء أحدهما فقط فإنه يفيد الدلالة علىٰ فعل الخير والشر معاً دون تفرقة ، وهـٰذا كثير جدّاً في القرآن الكريم .

ثم بعد هـٰذا جاء الأمرُ الإلـٰهيّ بالدعاء : قولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ البقرة : ٢٨٦ .

ومن النسيان ما يُؤاخذ عليه صاحبه ، كمن حفظَ القرآن الكريمَ ثم أهْملَ مذاكرتَه حتىٰ نسيه ، دون عذر شرعي ، ذٰلك أنه أهملَ ما وجب عليه تعهده ، أو يكون النسيانُ بمعنى الترك ، كقوله عز وجل : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة : ٦٧ ، أي : تركوا أمر الله ، فتركهم الله من رحمته .

---

(١) في المصدر المنقول منه : فيحسن ، ولعل صوابها ما أثبتُّه .

ومن الخطأ ما يُؤاخذ عليه فاعله ، وذٰلك : « أن يأتيَ العبد ما نُهي عنه بقصد وإرادة ، فذٰلك خطأ منه ، وهو به مأخوذ ، فيحسنُ طلبُ العفو والغفران لذٰلك الفعل الذي ارتكبه » ، أما إذا كان « علىٰ سبيل الجهل والظَّن بأنَّ له فِعلَه ، كمن ظَنَّ أن وقت الصلاة لم يدخُل ، وهو في يوم غيمٍ ، فأخَّرها حتىٰ خرج وقتُها ، فهٰذا من الخطأ الموضوع عن العبد ، لٰكنْ طلبُ العفو والغفران لسبب تقصيره »[1] .

فتحصَّل من هٰذا أن الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ : إما الخطأ في الفعل ، وإما الخطأ في سببه .

وسبحان المتفضِّل علىٰ عباده بدعوتهم إلى الدعاء ، وبإجابة الدعاء ، أمرهم وعلَّمهم الدعاء ، وتفضَّل عليهم بإجابته فقال : قد فعلت .

وأما الإصرُ : فهو ـ في قول ابن عباس وآخرين ـ : العهدُ والميثاق الغليظ ، ونحوُه قول الإمام مالك : الأمر الغليظ الصعب ، وقال غيرهم : الذنب الذي لا كفارة فيه .

والفرق بين هٰذا الدعاء ، والدعاء الذي يليه : أن المدعوَّ به في هٰذه الجملة أمرٌ خاصٌ ، وهو الذي يُشبِه ما كان على الأمم من قبلنا ، أما الدعاء الآتي : فهو أن لا يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به عامة ، مما لا علاقة لمن قبلنا به .

ثم علَّمنا سبحانه أن نسأله النصر على القوم الكافرين ، لٰكنْ علَّمنا

---

(١) من « تفسير » الخازن ١ : ٢٢٧ ، وهو من أجود التفاسير وأسهلها ليُسر الحصول على الفائدة منه ، لٰكنْ شَوَّه بعضُهم سُمعته وصُورته بما فيه من إسرائيليات ، يبيِّن هو ما فيها من مخالفات لشرعنا ، ويسكتُ عما سوىٰ ذٰلك ، إلا ما لا يخلو عنه الطبع البشري ، فهو جدير بأن يُلقَّب بـ « التفسير المظلوم » .

قبلَه أن ندعوه بممهِّدات النصر ومقدِّماته : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ البقرة : ٢٨٦ .

العفو عن الذنب : يكون بإسقاط العقوبة عليه ، والمسامحة بها .

والمغفرة : تكون بستر الذنب علىٰ صاحبه ، فلا فضيحة .

والرحمة : بالإحسان إلينا ، ويكونُ ذٰلك بإعطاء كلِّ مقام ما يناسبُه من الإحسان ، ونحن نرجوك وندعوك يا ربنا بهٰذه الأمور ، لأنها بيدك ، ونحن تحت سلطانك وتدبيرك ، فأنت مولانا وناصرنا ، فانصرنا على القوم الكافرين ، ولا نصرَ لنا على القوم الكافرين إلا من عندك .

وهٰذه الذنوب إن لم يَعفُ عنها ربنا ، ويَغفرها لنا فإنها عَثَراتٌ في طريق النصر ، وعَثَرات في طريق رفع البلاء .

وما تسبَّب في تسلُّط الكافرين على المسلمين إلا ذنوبُهم ، بل إن الذنوبَ سببٌ لنزول كلِّ بلاء .

وقد قال أحدُ صلحاءِ الأندلس وزُهادها : ابنُ العَسَّال ، لما سقطتْ إشبيليَّة بيد النصارىٰ وأخِذت من المسلمين ، قال أبياتاً ، منها :

لولا ذنوبُ المسلمين وأنّهم ... ركبوا الكبائر ما لهنَّ خَفَاءُ
ما كان ينصرُ للنصارىٰ فارسٌ ... أبداً عليهم ، فالذنوب الداءُ

وإذا كانت الذنوبُ هي الداءَ ، فإن الدواءَ هو التوبة والاستغفار .

قال التابعي الجليل قتادةُ بن دِعامةَ السَّدوسيُّ رحمه الله تعالىٰ : ألا أدلُّكم علىٰ دائكم ودوائكم ؟ ألا إن داءَكم الذنوب ، ودواءَكم الاستغفار(١) .

---

(١) ذكره المنذري في « الترغيب » ٢ : ٤٦٨ حديثاً مرفوعاً وصدَّره بـ « رُوي » وقال : « رواه البيهقي ، وقد رُوي عن قتادة من قوله ، وهو أشبه بالصواب » لذٰلك نَسَبْتُه إلىٰ قتادة .

والذنوب والآثام عثرات في طريق النصر ورفع البلاء ، لٰكنها أشدُّ ضرراً على الأمة إذا فُعلت في أيام الفتن والمحن ، كما قال الصحابي ابن الصحابي : النعمان بن بَشير رضي الله عنهما : « إن الهَلَكة كلَّ الهَلَكَة أن تُعملَ السيئاتُ في أيام البلاء »(١) .

ومن روائع القول والتشبيه : دَاوِ بمَراهِم التوبة جرحَ دِينك ، فبرؤها أسرعُ من طرفة العين(٢) .

وهٰذا الاستغفار مطلوب قبل النصر ، وكذٰلك هو مطلوب بعد النصر ، علامةً على الشكر ، تأملْ قول الله تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ النصر : ١ ـ ٣ .

فمقابلُ فضل الله عليك بالنصر في المواقف كلها ، وبفتح مكةَ الذي هو تاجُ هٰذه المواقف وإكليلُها ، وبإقبالِ الناس على الإسلام أفواجاً أفواجاً ، مقابلُ هٰذا : عليك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تُقدِّس الله وتحمَدَه ، وعليك أن تستغفره ، فامتثل صلى الله عليه وسلم الأمر فكان يُكثر أن يقولَ في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ، والركوعُ والسجودُ هما غايةُ الخضوع لله العزيز الكبير ، فسبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي وللمسلمين .

* * *

(١) كما في ترجمته من « البداية والنهاية » لابن كثير ٨ : ٢٤٨ .

(٢) « بهجة النفوس » للإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالىٰ ٤ : ٤٩ ، وصدَّره بقوله : « وقد قال » ولم يسبق ذِكْر لقائل ، ليعود عليه هنا ، فالله أعلم .

٣٠ ـ عن أبي طَريف عديّ بن حاتمٍ الطائي رضي الله تعالىٰ عنه قال : بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذْ أتاه رجلٌ ، فشكا إليه الفاقةَ ، ثم أتاه آخرُ فشَكا إليه قطعَ السبيل ، فقال : « يا عديُّ هل رأيتَ الحِيرة ؟ » قلتُ : لم أرها ، وقد أُنبئت عنها ، قال :

« فإنْ طالتْ بك حياةٌ لتَرينَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرة حتىٰ تطوف بالكعبة لا تخافُ أحداً إلا الله » ! .

قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَّارُ طَيءٍ الذين قد سَعَّروا البلاد ؟ .

« ولئن طالتْ بك حياة لتُفْتَحَنَّ كنوز كسرىٰ ! » قلتُ : كسرى بنِ هُرمُزَ ؟ قال : « كسرى بن هُرمُز ، ولئن طالتْ بك حياةٌ لترينَّ الرجل يُخرِج مِلء كفه من ذهب أو فضة ، يطلبُ من يقبلُه منه فلا يجدُ أحداً يقبلُه منه .

وليلقينَّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاهُ وليس بينه وبينه تَرجُمان يُترجِم له فيقولنَّ : ألم أبعثْ إليك رسولاً فيبلِّغَك ؟ فيقول : بلىٰ ، فيقول : ألم أُعطِك مالاً وأُفضِلْ عليك ؟ فيقولُ : بلىٰ ، فينظر عن يمينه فلا يرىٰ إلا جهنَّم ، وينظر عن يساره فلا يرىٰ إلا جهنَّم » ! .

قال عديٌّ : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ :

« اتقوا النارَ ولو بشِقّ تمرةٍ ، فمن لمن يجدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمة طيبة » .

قال عديٌّ : فرأيت الظعينةَ تَرتَحلُ من الحِيرة حتىٰ تطوفَ بالكعبة لا تخافُ إلا الله ، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمُز ، ولئن طالتْ بكم حياةٌ لترونَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « يُخرِج ملء كفه » .

٣٠ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام ٦ : ٦١٠ (٣٥٩٥) ، وأخرجه مختصراً قبلُ : كتاب الزكاة ـ باب الصدقة قبل الردِّ ٣ : ٢٨١ (١٤١٣) .

غريبه : الفاقة : الفقر والحاجة .

الحِيرة : بلد بالعراق ، وهي بكسر الحاء المهملة .

الظعينة : هي هنا المرأة المسافرة .

دُعَّار : جمع داعر ، وهو الرجل الخبيث المفسد ، والمراد : قُطَّاع الطرق .

سعَّروا : قال في « مقدمة الفتح » ص ١٣٢ : « بتشديد العين ، وحكىٰ أبو حاتم ـ السجستاني ـ التخفيف ، أي : أَلهبوها كالتهاب السعير » ، والسعير : النار الموقَدة .

ونحو هٰذا المعنىٰ في « الفتح » ٦ : ٦١٣ ولٰكنه لم يضبط العين ، فليتنبه ، فإن في « المقدمة » من الفوائد ما ليس في الشرح .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف عَلَم من أعلام النبوة ، وقد كتب

فيها أئمة كُثر باسم : أعلام النبوة ، و : دلائل النبوة ، جمعوا هٰذه الأخبار النبوية ، وما شاكلها ، وهٰذا الحديث الشريف واحد منها .

أسلم عديٌّ رضي الله عنه سنة تسع أو عشرٍ من الهجرة ، فهٰذا الحديث كان في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذٰلك استغرب عديٌّ بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بفتح خزائن كسرىٰ وحصول المسلمين علىٰ كنوزها ! فكيف به لو سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول لسُراقة بن مالك يومَ الهجرة وهو في أول الطريق من مكة : كيف بك إذا لبستَ سواريْ كسرىٰ ومِنْطَقته وتاجه ؟ قال له ذٰلك وهو مختفٍ من قومه مهاجرٌ يترقَّب ! .

وكان في مطلع هٰذه البشارة بشارة أخرىٰ : « **إنْ طالت بك حياة** » ، وفعلاً قد طالت به الحياة ، فقد عُمِّر مئة وعشرين سنة ، وقيل : مئة وثمانين سنة ! .

وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطمئنَ السائل وجليسه عديّ بن حاتم أن نظام الإسلام كفيلٌ بأن يحقق لأتباعه الأمن والطمأنينة ، والعيشَ الهَنِيء ، أراد هٰذين الأمرين وخصَّهما بالذكر مقابلَ الشِّكايتين : الفاقةِ ، وقطع السبيل .

وسأل عدياً : « **يا عديُّ هل رأيتَ الحِيرة ؟** » وهي بلد قُرب الكوفة ، فبينها وبين المدينة المنورة ـ الموضع الذي يتكلم منه ـ مسيرة أيام وليالٍ طويلة ، ومع هٰذا جاءت البشارة النبوية لمنْ لا يأمنُ علىٰ نفسه قطعَ السبيل وهو في بلده أو البلدان المجاورة : إنْ طالتْ بك حياةٌ لترينَّ المرأة الضعيفةَ المَظِنَّة الاعتداءِ علىٰ مالها وعِرْضها تُسافر من بلدها الحِيرة حاجَّة أو معتمرة ، فتصلُ إلى الكعبة وتطوفُ حولها وهي في تمام الأمن علىٰ مالها وعرضها ونفسها ، لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل !![1] .

---

(١) يستدل بعضهم بهٰذا الحديث علىٰ جواز سفر المرأة دون محرم ، وهو استدلال =

فأثارتْ هٰذه البشارةُ في نفس عديّ الاستغراب فقال في نفسه : أين دُعَّار طيِّءٍ الذين سَعَّروا البلاد ، فملؤوها شرّاً وفساداً ؟! .

وبشارةٌ أخرىٰ ، جواباً عن شاكي الفقر : « لئن طالتْ بك حياة لَتُفتحنَّ كنوز كسرىٰ » فقال عدي متعجباً : كسرى بن هرمز يا رسول الله ؟ نعم هو كسرى بن هرمز صاحب تلك القوى الضاربة في شرق المعمورة آنذاك ، سوف يفتحها أولٰئك الأعرابُ آكِلو الجُعلان والحيات ، فيما سبق ، بُناةُ صرحِ العلم والحضارة والأخلاق بعد دخولهم تحت راية : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله .

قال فيلسوفُ التاريخ ابنُ خلدون رحمه الله في « مقدمته » الشهيرة ٢ : ٥١٨ في « فصلٌ في أن العرب أبعدُ الأمم عن سياسة الملك » أي : أيام جاهليتهم ، أما بعد دخولهم الإسلام فقد « كان رُستُمُ إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول : أكلَ عُمر كبدي ! يعلِّمُ الكلابَ الآداب » ![١] .

ذٰلك لأنه يعرف ما كان عليه العرب قبل سنوات قليلة خلتْ ، ثم هم الآن يجتثُّون عروشَ كسرىٰ وحاشيته من جذورها .

ويزيد الله تعالىٰ فتحَ الدنيا عليكم ، ولن تقفَ عند حدِّ أخذِكم كنوزَ

= غير صحيح ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في « التلخيص الحبير » ٢ : ٢٢٢ : « تنبيه : هٰذا الحديث استدلوا به علىٰ أن المحرمية ليست بشرطٍ ، ووجَّهه ابن العربي بأنه صلى الله عليه وسلم لا يبشِّر إلا بما هو حسنٌ عند الله ، وتُعقِّب بأن الخبر المحض لا يدل علىٰ جواز ولا علىٰ غيره ، وقد صح نهيه صلى الله عليه وسلم عن تمنِّي الموت ، وصح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ يمرَّ الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانَه » ، وهٰذا لا يدل علىٰ جواز التمني المنهيّ عنه ، بل فيه الإخبار بوقوع ذٰلك » . وهٰذا أولىٰ وأتمُّ من كلامه في « الفتح » ٤ : ٧٦ أواخر الصفحة (١٨٦٢) ، فليتنبَّه له .

(١) وانظر يوم أَرْماث من أيام القادسية ، في « تاريخ الطبري » ٢ : ٤٠٨ .

كسرىٰ ، فالدنيا فيها كنوز أخرىٰ ، وسوف يعمُّ الغِنى الناسَ جميعاً ، حتىٰ إن الرجل يريد أن يُخرج زكاةَ ماله فلا يجدُ لها مستحِقّاً شرعيّاً يكون لها مصرفاً من مصارف الزكاة المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ التوبة : ٦٠ .

وليس هٰذا الحَدَثُ العظيم بعيدَ عهد عن وقت هٰذا النبأ ، لا ، إنما هو وشيكُ الحدوث : « **لئنْ طالتْ بك حياة ـ يا عديُّ ـ لترينَّ الرجلَ يُخرج ملءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلبُ من يقبلُه منه فلا يجدُ أحداً يقبلُه منه** » ، فهٰذا ليس إخباراً عن شَرَطٍ من أشراط الساعة ، بل يخاطبُ به صحابيّاً لو طالتْ حياته لرآه .

وقد حَصَل هٰذا ، وحقَّق الله تعالىٰ خبر نبيّه صلى الله عليه وسلم في خاتمة القرن الذي كان فيه ، كما حصل الأمر الأول والثاني : أمنُ المرأةِ علىٰ نفسها ، وفتحُ كنوزِ كسرىٰ ، وشهدَهما عديٌّ نفسه .

ففي « المعرفة والتاريخ » ليعقوب بن سفيان ١ : ٥٩٩ بسنده إلىٰ عمر بن أسيل(١) بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب قال : « إنما وَلي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً : ثلاثين شهراً ، لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتىٰ جعل الرجلُ يأتينا بالمال العظيم فيقولُ : اجعلوا هٰذا حيثُ تروْنَ من الفقراء ، فما يبرحُ حتىٰ يرجعَ بماله ، يتذكَّر من يضعهُ فيهم فلا يجده ، فيرجعُ بماله ، قد أغنىٰ عمرُ بن عبد العزيز الناس » ! .

وفي « سيرته » لابن عبد الحكم ص ٦٩ : « قال يحيى بن سعيد : بعثني

---

(١) هٰكذا في المصدر المذكور ، وفي « فتح الباري » ٦ : ٦١٣ (٣٥٩٥) : عمر بن أسيد ، وهو المعروف في هٰذا الرسم ، فلعله الصواب ، والخبر الآتي هو في « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن عبد الحكم ص ١٢٨ عن « رجل من ولد زيد بن الخطاب » .

عمر بن عبد العزيز علىٰ صدقات إفريقية ، فاقتضيتُها ، وطلبتُ فقراءَ نُعطيها لهم فلم نجدْ بها فقيراً ، ولم نجدْ من يأخذُها مني ، قد أغنىٰ عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريتُ بها رقاباً فأعتقتُهم ، وولاؤهم للمسلمين » .

ولٰكنْ ماذا بعد هٰذا الغنىٰ ؟ .

بعده التخلِّي الكاملُ عنه من كلِّ إنسان باختياره أو اضطراره ، والانتقالُ عنه إلىٰ بيت الوَحدة وصُندوق العمل : إلى القبر ! .

ثم مِن القبر إلىٰ لقاءِ الله عز وجل والوقوفِ بين يديه للحساب والجزاء كفاحاً دون واسطة ولا حاجز : « **وَلَيلقينَّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجُمان يُترجم له** » ، إنما الله العليمُ الخبيرُ هو السائل ، وأنت أيها العبد الضعيفُ الجاني المسؤول ! .

« **ألم أبعثْ إليك رسولاً فيبلِّغَك ؟ فيقول** » ـ العبد ـ : « **بلىٰ ، فيقول : ألم أُعْطِك مالاً وأُفضِلْ عليك ؟ فيقول : بلىٰ** » ، إذاً فما عملتَ فيما علمتَ ورُزقتَ ؟ .

وكما أن من الأجوبة ما يسمَّىٰ : أجوبةً مُسكتة ، كذٰلك هناك أسئلة مُسكتةٌ ، فاحرصْ أيها المسلمُ علىٰ أن لا تكون ممن يُسأل أسئلةً مسكتةً ، فهي أسئلةٌ لإقامة الحجة على العبد المقصِّر ، لذٰلك يقع هٰذا العبد في الحرج ، فيلتفتُ يمنةً ويسرةً ليرىٰ مهرباً فلا يرىٰ إلا ما يَسوءُه غاية السوء ، لا يرىٰ إلا جهنم ! فأين المهربُ ؟ فما هو إلا أسوأ حالاً من المُسْتَجِير من الرَّمضاء بالنار .

إلا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيمَ بالمؤمنين ، لم يتركْنا حيارىٰ في هٰذا الموقف الرهيب ، بل دلَّنا على النجاة منه بما لا يَضرُّنا ، فقال : « **اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة . . .** » ، والروايةُ المذكورة فوق

توهِم أنه حديثٌ آخر لا ارتباطَ بين هٰذه الجملة والتي قبلها ، لٰكن الرواية الأخرىٰ في كتاب الزكاة جاء الارتباطُ بينهما واضحاً ، وأنهما حديث واحد ، جاء ذٰلك بحرف الفاء التي تفيد تفريعَ ما بعدها عما قبلها : « فَلْيتقينَّ أحدُكم النارَ ولو بشِقِّ تمرة . . . » .

ذٰلك أن النار مَظْهَرُ غضبِ الربِّ جل جلاله ، والصدقةُ تُطفئ غضب الربِّ[1] ؛ فلذٰلك جاء الإرشادُ النبويُّ إلى اتقاء نار جهنم بالصدقات ولو قلَّتْ وخفَّتْ ، فإنها في ميزان الله تعالىٰ كبيرةٌ ثقيلة ، حتىٰ لو كانتْ شقَّ تمرة ، فإنها بالنظر إلىٰ ما عند المتصدِّق بها كثيرةٌ ، ويزيدها كثرةً إخلاصُه ، وعِظَمُ موقعها لدى المتصدَّق عليه ، فقد تسدُّ منه رمقاً ، وتشدُّ أزراً .

---

(١) ورد ذٰلك في عدة أحاديثَ تؤيِّد بعضها بعضاً ، منها عند الترمذيّ (٦٦٤) وقال : حسن غريب ، وخُولِف ، والطبراني في « الكبير » ٨ : ٢٦١ (٨٠١٤) عن أبي أمامة ، وحسَّنه الهيثمي في « المجمع » ٣ : ١١٥ ، وعند ابنِ عساكر عن عبدِ الله بن عباس ، وهو في « الجامع الصغير » للسيوطي ٢ : ٤٥٦ بشرحه للمناوي ، وحديث عبدِ الله بن جعفر ، عند الطبراني في « الأوسط » ، وضعَّفه الهيثمي ٣ : ١١٠ ، ومعاويةَ بن حَيْدَة في « الأوسط » أيضاً ، وضعَّفه المناوي ٢ : ٤٥٧ في الشرح ، وليس في المتن ، وحديثُ أبي سعيد الخُدْري عند أبي أحمد العسكري في « السرائر » ، ذكره السيوطي في « الجامع » أيضاً ٤ : ١٩٣ بشرحه ، وعند الطبراني في (الكبير) ١٧ : ٢٨٦ (٧٨٧) عن عقبة بن عامر بلفظ : « إن الصدقة لَتُطْفئُ من حرِّ القبور » و(٧٨٨) بلفظ : « إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حرَّ القبور » .

وفي إسناد الرواية الأولى الحكم بن يعلى بن عطاء : متروكُ الحديث ، منكر الحديث ، عند أبي حاتم ، ونحوه عند أبي زرعة ، انظر « الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم ٣ : ١٣٠ (٥٨٩) ، وفي إسناد الثانية : رِشْدين بن سعد ، ضعيفُ الحديث مع صلاحه في دينه . وإعلالُ الهيثمي له بابن لهيعة ـ ومتابعة ناشر « المعجم الكبير » له ـ : فيه نظر ، فإن ابنَ لهيعة مقرونٌ في الإسناد برجلين : عَمْرِو بن الحارث وهو ثقة فقيه حافظ ، والحسنِ بن ثَوبان ، وهو صدوق فاضل ، كما في « تقريب التهذيب » . فلا يَستحق الحديثُ أن يُعَلَّ به .

وعلىٰ كلٍّ : فالمعنىٰ ثابتٌ بجملة هٰذه الأحاديث .

ففي « المسند » ٦ : ٧٩ : « يا عائشةُ استتري من النار ولو بشِق تمرة ، فإنها تسدُّ من الجائع مسدَّها من الشبعان » ، وإسناده حسن ، كما في « فتح الباري » ٣ : ٢٨٤ (١٤١٧) .

ولا يَعجبنَّ القارئ أو السامعُ من مثل هٰذه الافتراضات من النبي صلى الله عليه وسلم فيقولُ : هل يُتصوَّر أن يضيق الأمر علىٰ إنسان فلا يجد ما يتصدَّق به إلا شقَّ تمرة ! .

لقد حصل هٰذا في بيت النبوة ، في بيت سيِّد ولدِ آدمَ عليهما الصلاة والسلام ! فقد روى البخاري في « صحيحه » ٣ : ٢٨٣ (١٤١٨) ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتِ امرأة معها ابنتان تسألُ ، فلم تجدْ عندي شيئاً غيرَ تمرة ! فأعطيتُها إياها ، فَقَسَمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامتْ وخرجتْ ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرتُه فقال : « مَن ابتُلي من هٰذه البناتِ بشيءٍ كنَّ له سِتراً من النار » .

وروىٰ قبله بحديثٍ واحد عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدُنا إلى السوق فتحامَل ، فيُصيبُ المُدَّ ، وإنَّ لبعضهم اليومَ مئةَ ألف » ، ولو كان يجدُ تمرةً أو شقَّها لتصدَّق به ، وأغنىٰ نفسَه عن مشقة مؤاجرة ظهره للحُمولة بمُدٍّ من طعام ليتصدَّق به ، فانظر عِظَم أجر الصدقة ! وانظر حرصَ الصحابة رضي الله عنهم علىٰ كسب الثواب ! .

بل كان مَن بعدهم علىٰ هٰذا النهج من الحرص علىٰ كسب ثواب الصدقَة ، وأخبارُهم في ذٰلك كثيرة ، منها : ما رواه أحمد ٤ : ١٤٨ ـ وغيره ـ عن أبي الخير مَرْثد بن عبد الله اليَزَني ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، مرفوعاً : « كلُّ امرئ في ظلِّ صدقته حتىٰ يُفصَل بين الناس » ، وكان أبو الخير هٰذا لا يُخطِئه يوم إلا تصدَّق فيه بشيء ، ولو كعكةً أو بَصَلةً ، أو كذا .

وروى الخطيب في « تاريخ بغداد » ٤ : ١٩١ في ترجمة الإمام أبي بكر أحمد ابن سَلْمان النجّاد الحنبلي أنه كان « يصوم الدهر ، ويُفطر كلَّ ليلة علىٰ رغيف ، ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدّق بذٰلك الرغيف ، وأكل تلك اللقَم التي استفضلها » ، أي : تصدّق بالرغيف الجديد ، وأكل الكِسَر اليابسة ! .

ثم ، لو ضاقت الصدقة علىٰ إنسانٍ فلم يجد شقَّ تمرة ، أو بصلةً ونحوهما : فإنه لا يعدَمُ لساناً ناطقاً أو إشارةً مُفهمةً فيها دلالةٌ علىٰ خير ، أو إرشادٌ إلىٰ برٍّ ، أو إشارةٌ إلىٰ معروف ، أو نحوُ ذٰلك مما يدخُل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « **فمن لم يجدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمة طيبة** » أي : فليتَّق النار بكلمةٍ طيبة ، ولا يليقُ بعاقلٍ عَرَف نار جهنم وأهوالها أن يُقَصِّر في اتقائها ما استطاع إلىٰ ذٰلك سبيلاً ، قبل أن يتلفَّت يميناً ويساراً فلا يرىٰ سواها ، اللهم أجرنا من النار وأسبابها برحمة منك يا أرحم الراحمين .

❋ ❋ ❋

من أحاديث الصّلاة

٣١ ـ عن عُقْبَةَ بن عامرٍ الجُهَنِيّ رضي الله تعالىٰ عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يعجبُ ربُّكم من راعي غنمٍ في رأس شَظِيةٍ بجبلٍ ، يُؤذِّنُ بالصلاة ويصلّي ، فيقول الله عز وجل : انظُروا إلىٰ عبدي هٰذا ، يُؤذِّن ويُقيمُ الصلاة ، يخافُ مني ، قد غفرتُ لعبدي وأدخلتُه الجنة » .

٣١ ـ تخريجه : رواه أبو داود : كتاب الصلاة ـ باب الأذان في السفر (١١٩٦) ، والنسائي في باب الأذان لمن يصلي وحده (٦٦٦) ، وقال المنذري في « تهذيب سنن أبي داود » ٢ : ٥٠ : « إسناده ثقات » .

غريبه : شظية : قطعة مرتفعة في أعلى الجبل .

معناه : هٰذا مثالٌ من أمثلةِ الخوفِ من الله عز وجل ، يكونُ سبباً لنجاةِ صاحبه من النار ، ودخوله الجنة .

فصاحبُه في مكانٍ منعزلٍ قاصٍ عن الناس ، لا يراه أحدٌ منهم فيخاف أمره ونهيَه ولومَه ، يعلمُ أنه لا يراه أحد إلا الله ، فيقوم لأداء حقّ الله عليه ، إعظاماً لهٰذا الحق ، وإخلاصاً لله ، وإلا فما الدافعُ له وهو في هٰذه الحال ؟! .

فيقومُ : يكبّر الله ، ويشهدُ له بالوحدانية ، ولنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، وينادي من يسمعُه من سكان المكان وعامريه إلى الصلاة والفلاح ، ثم يُثني فيكبر الله ويهلله ، ثم يجيبُ نفسه بنفسه إلى الصلاة فيؤدّيها .

فهو موقف يُرضي الله سبحانه ، ويُعظم صاحبه عليه ، إنه موقفُ مراقبةٍ لله وإخلاصٍ له ، لا يحمل صاحبَه عليه إلا شهودُه حقَّ الله عليه وخوفه المقامَ بين يديه ، وإن الله عز وجل أكرمُ من أن يجمَع علىٰ عبده خوفين : خوفَه الله في الدنيا ، وخوفَه عذابَه في الآخرة ، بل إنْ خافه العبدُ في الدنيا أمَّنه في الآخرة ، وإن أَمِنه العبد في الدنيا أخافه الله في الآخرة .

قال الله تعالىٰ علىٰ لسان الأبرار : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ الإنسان : ١٠ ـ ١١ .

فمن خاف الله في الدنيا حفظه الله في الآخرة من مكارهها ، وأناله نعيمها وسرورها . نسأل الله ذٰلك من فضله .

وثمَّة دقيقةٌ في الحديث ، يقول الله فيه : « قد غفَرتُ لعبدي . . . » ، وهٰذا تنبيه إلىٰ أن العبد الذي لم يَذكُر اللهُ من شأنه إلا هٰذا الخير ، فإنه لا يخلو من هَفَوات ومؤاخذات ، لٰكن الله الرحمٰن الرحيم يغفرها له ولا يؤاخذُه عليها ، ويدخله الجنة .

❋ ❋ ❋

٣٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلىٰ صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج ـ ثلاثاً ـ غيرُ تمامٍ » .

فقيل لأبي هريرة : إنا نكونُ وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول :

« قال الله تعالىٰ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله تعالىٰ : حَمِدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالىٰ : أثنىٰ عليَّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال الله : مجَّدني عبدي » وقال مرةً : « فوَّض إليَّ عبدي .

فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هٰذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة : ١ ـ ٧ ، قال : هٰذا لعبدي ، ولعبدي ما سألَ » .

٣٢ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الصلاة ـ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ١ : ٢٩٦ (٣٨) .

غريبه : خِداج : غير تمام ، كما فُسِّرت في الحديث .

قسمت الصلاة : قسمت الفاتحة ، ومن أسماء الفاتحة : الصلاة ، أخذاً من هٰذا الحديث .

مجَّدني : عظَّمني .

معناه : في هٰذا الخبر حديثان يرويهما أبو هريرة رضي الله عنه :

أولُهما : حديث نبوي .

وثانيهما : هو الحديث القدسي .

وفي الأول : يقول عليه الصلاة والسلام : من لم يقرأ الفاتحة في صلاته فصلاتُه ناقصةٌ غيرُ تامة ، والنقصانُ غيرُ الفساد .

وفي الثاني : يقول الله تعالىٰ : جعلتُ الفاتحةَ نصفين : نصفاً لي ، فيه الثناءُ والحمدُ والتمجيدُ ، ونصفاً لعبدي : فيه الدعاءُ له ، ومني الإجابة والعطاء .

قال الإمام النوويُّ رحمه الله ٤ : ١٠٤ ـ وأصله للقاضي عياض ٢ : ٢٧٦ ـ : « وقوله تعالىٰ : حَمِدني عبدي ، وأثنىٰ عليَّ ، ومجَّدني ، إنما قاله لأن **التحميدَ** : الثناءُ بجميل الفِعال ، **والتمجيدَ** : الثناءُ بصفات الجلال ، ويقال « أثنىٰ عليه » في ذٰلك كلِّه ، ولهٰذا جاء جواباً لـ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، لاشتمال اللفظين على الصفات الذاتية والفعلية .

وقوله : « **وربما قال : فوَّض إليَّ عبدي** » : وَجْهُ مطابقة هٰذا لقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الفاتحة : ٤ : أن الله تعالىٰ هو المنفردُ بالملك ذٰلك اليوم ، وبجزاء العباد وحسابهم ـ **والدِّين** : الحساب ، وقيل : الجزاء ـ ولا دعوىٰ لأحدٍ ذٰلك اليوم ، ولا مُجازٍ ، وأما في الدنيا فلبعضِ العباد ملكٌ مَجازيٌّ ، ويدّعي بعضُهم دعوىٰ باطلة ، وهٰذا كلُّه ينقطع في ذٰلك اليوم . هٰذا معناه .

وإلا فالله سبحانه وتعالىٰ هو المالكُ والمَلِك (١) على الحقيقة للدارين وما فيهما ومَن فيهما ، وكلٌّ من سواه مربوب له ، عبد مسخَّر ، ثم في هٰذا الاعترافِ من التعظيم والتمجيد وتفويض الأمر ما لا يخفىٰ » .

* * *

(١) يشير رحمه الله إلى القراءتين المتواترتين : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، و﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

٣٣ ـ عن حُرَيثِ بن قَبيصةَ قال : قَدِمتُ المدينة فقلتُ : اللهم يسِّرْ لي جليساً صالحاً ، قال : فجلستُ إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه فقلت : إني سألتُ الله عز وجل أن يرزقني جليساً صالحاً ، فحدِّثْني بحديثٍ سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل الله أن ينفعني به ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أولَ ما يُحاسَبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه ، فإنْ صلُحَتْ فقد أفْلَح وأنجح ، وإن فسدتْ فقد خاب وخسر ، فإن انتقصَ من فريضته شيءٌ قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوُّع ، فيكمَّلَ بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائرُ عمله علىٰ ذٰلك » .

٣٣ ـ تخريجه : رواه الترمذي : كتاب الصلاة ـ باب ما جاء أن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٦) ، وقال : حسن غريب ، ورواه النسائي : كتاب الصلاة ـ باب المحاسبة على الصلاة (٤٦٥) ، ورواه أبو داود : كتاب الصلاة ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل صلاة لا يُتمها صاحبها تُتَمُّ من تطوعه (٨٦٠) عن أبي هريرة ، ثم رواه نحوه (٨٦٢) عن تميم الداري ، وذكر جملةً واحدة من آخره ، ورواه ابن ماجه : كتاب إقامة الصلاة ـ باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة (١٤٢٥) عن أبي هريرة ، ثم رواه نحوه عن تميم الداري .

معناه : في صدر هٰذا الحديث تنبيهٌ عظيمُ الأهميةِ لكلِّ مسلم ، يتعلَّق

بسلوكه العامّ ، وبحالٍ خاصةٍ من أحواله ، هو قولُ راوي الحديث : « **إني دعوتُ الله عز وجل أن يرزقني جليساً صالحاً ، فحدِّثني . . .** » .

فاختيارُ الجليس ، وسؤالُ الله تعالىٰ أن يكون جليساً صالحاً : أمرٌ هامٌّ في حياة كل مسلم ، ولا مجالَ الآن للإفاضة فيه ، لـٰكن الذي يَلفِتُ النظر في كلام هـٰذا التابعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال : « **قدمتُ المدينة** » ، وذكروا في ترجمته أنه بصريٌّ ، فيكون قد قَدِم المدينةَ مسافراً إليها من البصرة ، وبما أنه غريبُ البلد رَغِب إلى الله عز وجل أن يُهيِّئ له جليساً صالحاً يستفيد منه ، ولا يُنكَر ضرر الغربة علىٰ صاحبها إن لم يتخذ له إخوةً ناصحين ينقذونه من أوحال الغربة : غربة البلد ، وغربة الدِّين .

وفائدة أخرىٰ في كلامه رحمه الله تعالىٰ ، وهي أنه فور جلوسه إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال له : « إني دعوت الله أن يرزقني جليساً صالحاً فحدِّثْني . . . » ، فعجَّل بطلب الفائدة العلمية من هدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهـٰكذا فليكن المسلم ، حِرْصاً على الجليس الصالح ، ومبادرةً إلى الاستفادة من العلم والخير .

ولم يكن هـٰذا الخُلُق شأنَ هـٰذا الرجل حسبُ ، بل نُقِل مثلُه عمن هو أجلُّ منه ، وعمن هو مثله .

ففي « صحيح » البخاري ٧ : ٩٠ (٣٧٤٢) عن علقمة بن قيس ـ وهو كوفيٌّ ـ ، أنه قال : قدمتُ الشام فصليت ركعتين ثم قلت : اللهم يسِّر لي جليساً صالحاً ، وذكر حديثه مع أبي الدرداء ، والحديثُ عند مسلم دون هـٰذه الجملة ١ : ٥٦٦ (٢٨٤) .

وروى الترمذي (٣٨١١) ـ وقال : حسن غريب صحيح ـ عن خيثمة بن أبي سَبْرة ـ وهو كوفيٌّ أيضاً ـ ، أنه قال : أتيت المدينة فسألت الله أن ييسر لي جليساً صالحاً ، فيسَّر لي أبا هريرة .

ورجل رابع : روى ابن جرير في تفسير الآية ٣٢ من سورة فاطر : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت ـ ولم يُسمَّ ـ أنه دخل المسجد ، فجلس إلىٰ جنب أبي الدرداء ، فقال : اللهم آنِسْ وحشتي ، وارحم غُربتي ، ويسِّر لي جليساً صالحاً ، فقال أبو الدرداء : لئن كنتَ صادقاً لأنا أسعدُ به منك ، وذكر تمام الحديث ، وهو عند الحاكم ٢ : ٤٢٦ وجعل للحديث أصلاً .

أما معنى الحديث الشريف : **ففيه الدلالة علىٰ ثلاثة أمور** : أهمية الصلاة في الإسلام ، وعلىٰ لطف الله بعبده ، وعلى الترغيب بفعل نوافل العبادات .

١ ـ أما أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام : فتُستفادُ من تقديم الله عز وجل لها بالمحاسبة عليها ، فإنها أولُ ما يُحاسَب عليه العبد ، وفوزُه في هٰذا الحساب علامةٌ علىٰ فوزه فيما بعده .

ومعلومٌ **أن الحقوق قسمان** : حقوقٌ لله تعالىٰ ، وحقوقٌ لعباده بين بعضهم بعضاً ، فهٰذه الأوَّلية : إنما هي بالنسبة لحقوق الله سبحانه ، وأما أولُ ما يُحاسَب عليه العبد من بين حقوق العباد ، فهو الدماء .

روى البخاري في الرِّقاق ١١ : ٣٩٥ (٦٥٣٣) ، وأول الدِّيات ١٢ : ١٨٧ (٦٨٦٤) ، ومسلم : كتاب القَسامة ـ باب المُجازاة بالدماء في الآخرة ٣ : ١٣٠٤ (٢٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يُقضىٰ بين الناس يومَ القيامة الدماء » .

ولا ريب أن الأولية دليلُ الأهمية .

وهل يُبدأ بالحساب عن حقوق الله تعالىٰ ، أو حقوق العباد ؟ قالوا : الأمر توقيفي ، وظاهر الحديث تقدُّم حساب حقوق الله تعالىٰ ، وهو أعلم .

٢ ـ وأما لطفُ الله بعبده : ففي تداركه تقصيرَ العبد في هٰذا الركن

الركين من أعمال الإسلام ، وهو الصلاة ، فإنه سبحانه لم يُؤاخِذ العبدَ لأولِ وَهْلةٍ ظهر فيها تقصيره ، بل أمر ملائكته أن تنظُرَ في نوافله من جنسها ، فإن وُجِدتْ له نوافلُ جعلتْها الملائكةُ جوابر للفرائض الناقصة .

٣ ـ وأما الترغيبُ بالقيام بالنوافل : فواضحٌ من قول الله عز وجل للملائكة : « انظُروا هل لعبدي من تطوُّع » فلا ينبغي للمسلم التهاونُ بها ، والنظرُ إليها نظرةَ العملِ (الثانوي) ، فإنه سيندم على تقصيره بها أحوجَ ما يكونُ إليها ، لِتُتَمِّم له فرائضه ، فإن تمتْ له فرائضُه : فقد أفلح وأنجح ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث : « فإن صلُحتْ فقد أفلح وأنجح » وإلا فيا خسارتَه ويا ندمَه ! .

وهل يليقُ بمسلمٍ أن يتهاون بركعتي سنة الفجر مثلاً وهو يسمعُ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ركعتا الفجرِ خيرٌ من الدنيا وما فيها » ؟ ، والحديث رواه مسلم ١ : ٥٠١ (٩٦) .

أو هلْ يليقُ به التهاونُ بأربعِ ركعاتٍ قبل فريضة الظهر وأربعِ بعدها وهو يسمعُ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى قبلَ الظهر أربعاً ، وبعدها أربعاً حرَّمه الله على النار » ؟ رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذي (٤٢٧) : « حسن غريب » ، ثم رواه بلفظ : « من حافظَ على أربع ركعات . . . » وقال : « حسن صحيح غريب » .

وروى الترمذي أيضاً ـ وغيره ـ (٤٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « رحم الله امرأً صلَّى قبل العصر أربعاً » وقال : « غريب حسن » ، ومَن منا غيرُ مفتقِرٍ إلى رحمة الله تعالى ، لا سيما والداعي لك بالرحمة هو سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! .

والركعتانِ اللتان بعد المغرب من جملة اثنتيْ عَشْرةَ ركعةً حضَّ النبي

صلى الله عليه وسلم عليها مع المواظبة والمثابرة ، في كلِّ يوم وليلة ، ووَعد من ثابر عليها ببيتٍ في الجنة ، والحديث في « صحيح » مسلم دون تعدادٍ لركعات النوافل ، وجاء بيانها وتعدادها في رواية الترمذي ـ وغيره ـ (٤١٥) وقال : حسن صحيح ، ولفظه : « من صلىٰ في يوم وليلةٍ ثنتيْ عشْرة ركعةً بُني له بيتٌ في الجنة : أربعاً قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » .

وهـٰذا ما يُسمِّيه العلماء بالنوافل الراتبة ، أي : الدائمة الثابتةِ ذاتِ الوقت المعيَّن .

وهناك النوافلُ المطلقة التي لا تحدَّد بوقت ، إنما هي تطوُّع محضٌ لله عز وجل ، أما ما تقدم فهو نفل محدَّد بوقت ، وتحية المسجد ـ مثلاً ـ ، وسنة الوضوء ، فهي نافلة محدَّدة بسبب .

والنوافل ـ جميعُها ـ تدخُل تحت قوله تعالىٰ في الحديث القدسي التالي برقم (٣٤) : « وما يزَالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه . . . » وفيه : أن من أسباب إجابة الدعاء الإكثارَ من النوافل .

فهل يليقُ بمسلم أن يتهاون بالنوافل وينظر إليها تلك النظرة التي تُهوِّن عليه تَرْكَها ؟! .

فإن قال قائل : إذا كنا نحافظ على القيام بالنوافل كمحافظتنا على الفرائض ، فما الفرق بينهما من الناحية العملية ؟ .

أقول في الجواب : إن السلف الصالح رضي الله عنهم لم يكونوا يفرّقون من الناحية العملية بين أشدِّ الفرائض الإسلامية ـ كفريضة الصلاة مثلاً ـ وبين أدنى السنن العملية الفقهية ، بل كانوا يحرصون ـ عملاً ـ علىٰ هـٰذا وذاك ، إنما التفرقة من حيثُ الاعتقاد ، كانوا يعتقدون أن هـٰذا سنة ، وهـٰذا فرض ،

ويحكمون ـ ويعتقدون ـ علىٰ من أنكر فريضةً بالكفر ، ولا يحكمون به علىٰ من أنكر سنةً غير معلومة من الدين بالضرورة .

قال الإمام أبو العباس القرطبي المحدِّث ، شيخ الإمام القرطبي المفسِّر ، في كتابه « المفهِم » ١ : ١٦٦ كلاماً نفيساً ، أنقله بطوله ، وقد لخصه الحافظ في « الفتح » ٣ : ٢٦٥ (١٣٩٦) ، قال القرطبي رحمه الله : « من تركها ـ التطوعات ـ ولم يعمل شيئاً منها فقد فوَّت علىٰ نفسه رِبْحاً عظيماً وثواباً جسيماً ، ومن داوم علىٰ ترك شيء من السنَّة كان ذٰلك نقصاً في دينه ، وقدحاً في عدالته ، فإن كان تركه تهاوناً بها ورغبة عنها ، كان ذٰلك فسقاً يستحقُّ به ذمّاً(١) ، قال علماؤنا : لو أن أهل بلدة تواصلوا علىٰ ترك سنة لقوتلوا عليها حتىٰ يرجعوا ، ولقد كان صدر الصحابة ومَن بعدهم يثابرون علىٰ فعل السنن والفضائل مثابرتهم على الفرائض ، ولم يكونوا يفرِّقون بينهما في اغتنام ثوابهما ، وإنما احتاج أئمة الفقهاء إلىٰ ذكر الفرق بينهما ، لِما يترتَّب عليه من وجوب الإعادة وتركها ، وخوف العقاب على الترك ونفيه إن حصل تركٌ ما بوجهٍ ما » .

ثم أشار إلىٰ بعض ما ورد وفيه الاقتصار على الفرائض فقط ، وقال : « إنما سكت النبي صلى الله عليه وسلم لهٰؤلاء السائلين عن ذكر التطوُّعات ولم يذكرها لهم ؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بإسلام ، فاكتفىٰ منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال ، لئلا يَثقل ذٰلك عليهم فَيَمَلّوا ، أو لئلا يعتقدوا أن تلك التطوعات واجبة ، فتركَهم إلىٰ أن تنشرح صدورهم بالفهم عنه ، والحرص علىٰ تحصيل تلك المندوبات ، فتسهل عليهم » . انتهىٰ كلامه رحمه الله .

---

(١) قال الحافظ في « الفتح » ٣ : ٢٦٥ (١٣٩٧) : « يعني : لورود الوعيد عليه . حيث قال صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سنتي فليس مني » .

ومن هٰذا المنطلق أوصىٰ بعضُ العلماء أصحابَه فقال : « اجعلوا النوافلَ كالفرائض ، والمعاصي كالكفر » أي : من حيثُ الحرصُ على الأداء للنوافل ، والتركُ والاجتناب للمعاصي .

وإن فقهاءنا رحمهم الله تعالىٰ وهم الذين يرتِّبون هٰذه المراتب ـ هٰذا مستحبٌّ ، وهٰذا واجب ، وهٰذا سنة ، وهٰذا فرض ، وذاك حرام ، ومكروه ، وخلافُ الأولىٰ ـ لم يكونوا في تطبيقهم العمليّ إلا علىٰ هَدْي السلف الذي تقدم ، ومعاذَ الله أن يكونوا متهاونين في أداء النوافل ، متساهلين في ارتكاب المكروهات ، كما قد يُفْهَم هٰذا عنهم بسبب تقسيماتهم المذكورة ! .

ولا مجال الآن للإفاضة في الحديث عن ورعهم ، وزهدهم ، وتحرِّيهم للحلال ، ومحاسبتهم لأنفسهم ، وإكثارهم من النوافل وألوان العبادات ، رضي الله عنهم ، فكتبُ الطبقات والتراجم مستفيضةٌ بأخبارهم في هٰذا الصدد ، مما يَجعلُهم مناراتٍ يَسترشد بها السالكون .

اللهم وفقنا لكل خيرٍ يُرضيك عنا يا أكرم الأكرمين .

❋ ❋ ❋

من فضيلة النّوافل

٣٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجلَّ قال : مَن عادَىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به ، وبصرَه الذي يُبصِر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، وإن سألني لأُعطِينَّه ، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه ، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعلُه تردّدي عن نفس المؤمن : يكرهُ الموت وأنا أَكرهُ مَساءته » .

٣٤ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الرقاق ـ باب التواضع ١١ : ٣٤٠ (٦٥٠٢) .

معناه : هٰذا الحديث الشريف من مشهور الأحاديث القدسية ، ومن أشدِّها هيبةً وجلالةً في نفس سامعه والمتدبِّر لمعانيه ، وقيل فيه : إنه أشرف حديثٍ رُوي في صفة الأولياء .

وفيه حضٌّ أكيدٌ ودعوةٌ لازمة إلىٰ تقوى الله عز وجل ، وملازمتها والازدياد منها ما استطاع العبد المسلم ، ليحظَىٰ بحبِّ الله له .

يقول الله تعالىٰ فيه : « مَن عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب » .

من هو الوليُّ ؟ وما مُعَاداته المرادةُ هنا ؟ وكيف تكون الحرب من الله لمن عادىٰ وليّاً من أوليائه ؟ .

الوليُّ : هو كلُّ مؤمن تقي ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ يونس : ٦٢ ـ ٦٣ ، فعرَّف القرآن الكريمُ الوليَّ لله بأنه مؤمنٌ تقيٌّ ، ولا بدَّ لكل مؤمنٍ أن يكون تقيّاً ، مهما كان غارقاً في معاصيه ، علىٰ معنىٰ أنه آمن فاتقى الشركَ والكفر ، فهو تقيٌّ تقوىٰ عامة ، وبهـٰذا المعنىٰ تكون ولايته عامةً .

أما الوليُّ المذكور هنا في الحديث : فهو الوليُّ بالمعنى الخاص ، فتقواه تقوىٰ أهلِ الخصوص ، وأهلُ الخصوص علىٰ مراتبَ متفاوتة ، فتقواهم لله عز وجل متفاوتة ، وجميعهم وصلوا إلىٰ رتبةِ الوَلاية الخاصة .

فهـٰؤلاء هم الذين ينتصِرُ الله تعالىٰ لهم إذا أُوذوا ، ويدافعُ عنهم إذا اعتُدِيَ عليهم ، فيرضىٰ لرضاهم ويغضبُ لغضبهم ، وينتقمُ ممن أساء إليهم ، ويُحسن إلىٰ من أحسن إليهم ، ذٰلك لأنهم وَالَـوُا الله في دينه وأحكامه ، فَطَبَّقوها ودعَوْا إليها وعلَّموها الناسَ ، فوالاهم الله تعالىٰ في أمورهم الدنيوية والأخروية ، ومن معاني **الموالاة** : المناصرة .

أو علىٰ معنىٰ : أنهم تولَّوا الله ، أي : أقبلوا عليه وأعرضوا عما سواه ، فتولاهم الله ، أي : أقبلَ عليهم الله ربُّ العالمين ، فكان لهم عوناً ونصيراً ، ولم يتركهم لأنفسهم أو للناس ، فتولَّىٰ شؤونَهم كلَّها بالتدبير الخاص .

والأولياءُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ : هم صفوة المؤمنين ، ولا ريبَ أنهم علىٰ مراتبَ متفاوتةٍ كثيرة جدّاً ، وكلما عَلَتْ مرتبةُ هـٰذا الرجل الصالح : كلَّما ازداد انتصار الله له .

أما معاداةُ الوليِّ المذمومة ، وهي المرادةُ في الحديث : فهي إذا لم

تكنْ لله ، بل لمآربَ شخصيةٍ دنيويةٍ ، ولم تكنْ ناشئةً عن اختلاف وجهات النظر والاجتهاد المشروع .

أما إذا كانت المعاداةُ لله وفي الله : فلا يترتَّب عليها الوعيدُ المذكور ، وقد جرىٰ بين بعض الصحابة رضوان الله عليهم مشاجرةٌ لله تعالىٰ ، فلا يدخلون تحت هٰذا الوعيد .

إنما المعاداة في دنيا يُيَسِّرها الله لهٰذا الولي الصالح ، فيحسُده عليها غيره ، أو إقبالٍ من الناس عليه ينتفعون بعلمه وتعليمه ، فيُبْغَض علىٰ ذٰلك من قِبَل بعض الناس الهلكىٰ ، فينفِّرون الناسَ عنه ويُشيعون عليه الإشاعاتِ الكاذبة . . . أو جاهٍ ومكانٍ عند ذي سلطان يستخدمه الوليُّ في قضاءِ حوائج المسلمين ، فتحملُ النفسُ الشرّيرة صاحبَها علىٰ بغض هٰذا الصالح ، لما يُجْريه الله علىٰ يديه من منافع للمسلمين . . . وما إلىٰ ذٰلك .

والمعاداة في ظاهرها تكون من طرفين : من طرفِ المبغِض المُعادي ، ومن طرفِ الوليِّ ، إنما يَختلِف المَنزع الذي ينشأ عنه العِداء ، فالوليُّ يعادي مبغضه لله لا لحظٍّ نفسي دنيوي ، وذاك : يبغضُ الوليَّ بدافع شيطاني نفسي دنيوي ، فاختلفا ، فأحدهما مأجور ـ وهو الولي ـ ، والثاني مأزور ـ وهو المعادي له ـ .

وأما محاربةُ الله لمعادي أوليائه : فالمرادُ منها لازمُ الحرب ، أي : ما ينتج عنه الحرب وما ينشأ عنها ، وهو إهلاكُ اللهِ عز وجل الغالبِ القاهرِ لكل من يُعادي ولياً له ، إذ المخلوقاتُ كلُّها في أسْر الله وتحت تصرُّفه ، فكيف يُحاربونه ؟ إنما هو سبحانه يُحاربُهم فَيُهلِكُهم ، وإن جنود الله التي يحاربُ بها أعداءَ أوليائه كثيرة لا تدخل تحت الحصر : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ المدثر : ٣١ .

ومما ينبغي أن يُتأمَّل في هـٰذا التعبير العظيم : « **من عادىٰ لي وليّاً . . .** » : تقديم الجارِّ علىٰ متعلَّقه فقال : لي وليّاً ، ولم يقلْ : من عادىٰ وليّاً لي ، وهـٰذا معروفٌ في أساليب لغة العرب ، يُرادُ منه مزيدُ اختصاصِ الله لهـٰذا الوليِّ .

وقولُه : « **آذنته بالحرب** » أي : أَعلمته بها وأنذرته ، فسيبدأ نزولُ البلاء به ، فإنْ كان عاقلاً حكيماً اتَّعظَ واعتبر ، وانزجر عما هو واقع فيه ، فإن هـٰؤلاء خاصتي من خلقي ، وعلىٰ سائر خلقي حبُّهم لا مُعاداتُهم ، قال العلامة ابن حجر المكي في « فتح المبين » ص ٢٧٠ : « وإذا عُلم ما في معاداة الوليِّ من عظيم الوعيدِ والتهديد : عُلِم ما في موالاته من جَسيم الثواب وباهر التوفيق ، والهداية والقرب والتأييد » .

ثم بيَّن سبحانه طريقَ الوَلاية ، فأشار إلىٰ أنها ذاتُ مرتبتين : طريقُ الفرائض وطريق النوافل ، أو إن شئت قلتَ : قربُ الفرائض ، وقرب النوافل .

قال سبحانه : « **وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه** » .

فأحبُّ ما يُتَقرَّب به إلى الله عز وجل : أداءُ فرائضه على اختلاف أنواعها : البدنية كالصلاة والصيام ، والمالية كالزكاة ، وما يَجمعُ بينهما كالحج والجهاد ، والقلبيَّة كذكر الله تعالىٰ ، والقلبية واللسانية كذكر الله ـ أيضاً ـ وتلاوة القرآن .

ويدخلُ في الفروض : ما كان تركاً ، كترك السرقة والخمر . . . والغيبة والحقد والحسد . . . وما إلىٰ ذٰلك .

ولا ريبَ أن هـٰذه الأعمال تُحبِّبُ صاحبَها إلى الله عز وجل ، إلا أن الحديث ذكر حبّاً خاصّاً من قِبَل الله عز وجل للعبد ، وذٰلك في قوله :

« **وما يزالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحِبَّه** » .

وذٰلك هو قربُ النوافل الذي ينشأ عنه حبُّ الله عز وجل لصاحبه ، وهٰذا هو الحبُّ الخاص .

وسببه : أن لسان حال صاحب النوافل يقول : اللهم إنك تحبُّ من الأعمال كذا وكذا ، فأنا سأعملُها وأداومُ عليها وأُكثِر منها ، ابتغاءَ قُربك ورضاك ، ولأنك تحبُّها ، فأنا ما حييتُ ساعٍ في محابّك وما يزيدني قرباً إليك ورضاءً عني ، وإن الله أكرم من أن يخيِّب مَن هٰذا رجاؤه ومُناه .

قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إنك ما كنتَ في صلاةٍ فإنك تقرع باب الملِك ، ومن يُكثرْ قَرْعَ باب الملك يُوشِك أن يُفتَح له »(١) .

والدليل علىٰ أن صاحب النوافل عازمٌ علىٰ دوامِ النوافل والإكثار منها : التعبير بـ « وما يزال عبدي » ، فإنها تفيد الدوام والاستمرار .

والدليلُ علىٰ أن قَصدَ المتنفِّل التحبُّبُ إلى الله عز وجل : روايةُ الطبراني ـ علىٰ ضعفٍ فيها ـ عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وفيها : « ولا يزالُ عبدي يتحبَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه »(٢) .

والنوافل : هي الطاعاتُ الزائدةُ على الفرائض المفروضة ، والصدقات الزائدة على الزكاة المفروضة ، والصيام والحج . . . وحفظ القرآن الكريم ـ ما زاد منه على المفروض حفظُه للصلاة ـ وهٰكذا ، كلُّها نوافل يتقرب بها العبد إلىٰ ربه سبحانه ، ويُسمَّىٰ : قرب النوافل .

وهٰذه الفرائض ينبغي أن يُلاحَظَ فيها الفرائض العينيَّة المتوجِّبة علىٰ

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » ٢ : ٢٥٧ : « رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح » .

(٢) انظر « المعجم الكبير » للطبراني ٨ : ٢٦٤ (٧٨٨٠) و« مجمع الزوائد » ٢ : ٢٤٨ و« الفتح » ١١ : ٣٤٣ (٦٥٠٢) .

كل مسلم بعينه ، والفرائض الكفائية التي تجبُ أولَ ما تجبُ علىٰ جماعة المسلمين ، فإذا قصَّر بها كثيرون وبقيت ثلَّةٌ من المسلمين تعمل بهٰذا الفرض الكفائي ، وكان بحيث إذا تخلَّف بعضُهم لا يَتمُّ القيامُ به ، فقد انقلب الكفائي إلىٰ فرض عين ، وإذا وُجد جماعةٌ من المسلمين قائمةٌ به وسُدَّتْ الحاجة بها صار هٰذا الفرض الكفائي سنَّةً عينية في حق باقي المسلمين ، فالفرض الكفائي : قد ينقلب إلىٰ فرض عيني ، وقد ينقلب إلىٰ سنة عينية .

وحفظُ القرآن الكريم كلِّه من هٰذا القبيل .

وهل قُربُ الفرائض أعلىٰ درجةً أو قرب النوافل ؟ .

الجواب : أن قرب الفرائض أعلىٰ درجة ؛ لأنه لا تكون نوافل إلا بعد أداء الفرائض ، فبالفرائض كانت النوافل ، فهي قاعدتها وأساسُها ، أما أن يأتي الإنسان بالنوافل دون الفرائض فهٰذا أحمقُ مغرورٌ علىٰ شفا جُرُف .

والنوافلُ متمِّمةٌ ومكملة للفرائض ، كما تقدم شرحه في الحديث الذي قبل هٰذا .

فالنوافل شُرعت لتكميل ما يخلُّ به العبد من الفرائض ، ولذٰلك كان قرب الفرائض أعلىٰ رتبةً .

وقد يُخَيَّل إلىٰ بعض الناس أن قرب النوافل أعلىٰ درجةً ، أخذاً من ظاهر لفظ هٰذا الحديث : « كنتُ سمعه الذي يسمع به . . . » ، ومن ظواهر أحاديثَ أخرىٰ تقدم بعضها في شرح الحديث الذي قبل هٰذا : ركعتا سنَّة الفجر خير من الدنيا وما فيها ، صلاة أربع ركعاتٍ قبل فرض الظهر وأربع بعده تُحرِّم صاحبها على النار ، و« رحم الله امرأً صلَّىٰ قبل العصر أربعاً » ، وهٰكذا مما لم يَردْ مثله في الفرائض .

وجوابه : هو توضيحُ قولي السابق : لا تكون نوافلُ إلا بعد أداء الفرائض ، وأن الفرائض أساس النوافل ، ويكون ذٰلك بالمثال .

إن منزلة النوافل من الفرائض : منزلةُ الزخرفةِ والزينة للبيت ، فالبناء من جدران وأرض وسقف : هو الأساسُ الذي يقومُ به كيانُ البيت ، ثم يأتي ألوان الزخارف والتجميلِ بعد ذٰلك ، ولولا ذٰلك الحَجَر لما كانت ألوانُ الزينة ، فعلىٰ أيِّ شيء ترتكز الدِّهانات والرسوم والتشكيلات ، وبمَ تتعلَّق القناديل . . . ؟؟ .

فالأساسُ هو الفرائض ، وزخارفُه هي النوافل ، ولولا الأساسُ والفرائض ، لما كانت الزخارف ولما سُمِّيت نوافل .

ومع ذٰلك فإن نتيجة قرب النوافل حبُّ الله عز وجل لعبده ، ويا له من شرفٍ لا يعدِله شرف ! .

ثم بيَّن سبحانه ما ينتجُ عن حبِّه لعبده فقال : « **فإذا أحبَبْتُه كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويدَه التي يبطِش بها ، ورِجْله التي يمشي بها ، وإنْ سألني لأُعطينَّه ، ولئنِ استعاذني لأُعيذنَّه** » .

قال الحافظ في « الفتح » ١١ : ٣٤٤ : « قال الطُّوفيّ : اتفق العلماء ممن يُعتدُّ بقوله أن هٰذا مجاز وكناية عن نُصرة العبد وتأييده وإعانته ، حتىٰ كأنه سبحانه ينزِّل نفسه من عبده منزلةَ الآلات التي يستعين بها ، ولهٰذا وقع في روايةٍ : « فَبي يسمع ، وبي يُبصر ، وبي يبطِش ، وبي يمشي » .

ونقله ابن حجر الهيتمي في « شرح الأربعين » صفحة ٢٧٢ دون عزو لقائل ، وصدَّره بقوله : « والتحقيق أنه مجاز وكناية . . . » ، وفسَّر الهيتميُّ الروايةَ التي ذكرها الطوفي : « فبي يسمع ، وبي يبصر . . . » بقوله : « أي : أنا الله الذي أقدرتُه علىٰ هٰذه الأفعال وخلقتُها فيه ، فأنا الفاعل لذٰلك ، لا

أنه يخلق أفعال نفسه ـ سواء الجزئيات والكليات ـ خلافاً لما زعمتْه المعتزلة من خلقه ـ أي : العبدِ ـ للجزئيات ، وهٰذا الحديثُ يردُّ عليهم » .

قلت : ويؤيِّد هٰذا القول تتمةُ الحديث : « وإن سألني لأُعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه » ففيها تمامُ نصرةِ الله للعبد وتأييده وإعانته .

وخلاصة المراد من هٰذه الكلمات : أن الله تعالىٰ يتولاه في كل تصرفاته التي يتصرف فيها بكل جارحة من جوارحه ، ولا يردُّ له دعوةً ولا سؤالاً ولا استعاذة ، ذٰلك لأنه صار حبيب الله .

بل لا يبقىٰ في قلبه غيرُ الله سبحانه ، ولا تستطيع جوارحه أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلبه ، ومَن كان هٰذا حالَه يقال فيه : ما بقي في قلبه إلا الله ، أي : ليس في قلبه إلا معرفة الله ومحبته وذكره . كما قاله الحافظ ابن رجب في شرح هٰذا الحديث في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٣٤٦ .

وهٰذا إكرامٌ من الله تعالىٰ لا يكون من غير الله ، فسبحان الله الكريم الوهاب .

ومما يُستفادُ من هٰذا الحديث : أن المحافظةَ على النوافل سببٌ رئيسي لاستجابة دعاء صاحبه ، فقد وعدَ الله تعالىٰ صاحبه وعداً مؤكداً بالإجابة بمؤكِّدَين : اللام ، ونون التوكيد الثقيلة : « وإن سألني لأُعطينَّه ، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه » .

ثم قال تعالىٰ مبيِّناً تمامَ إكرامه لهٰذا العبد : أنه تعالىٰ لا يريد إنفاذ أمرٍ بهٰذا العبد فيه شيءٌ من الإساءة إليه ، لٰكنْ حكمةُ الله وقدرُه ـ المغيَّبُ علمُهما عن العبد ـ لا بدَّ من نفاذ آثارهما في هٰذا العبد وغيره .

قال : « **وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن : يكره الموت ، وأنا أكره مساءته** » .

فقوله : « ترددي عن نفس المؤمن » : أي : عن قبضِ نفسِ المؤمن .

والتردد : إحجامُ العبد عن أمر بعد الإقدام علىٰ فعله ، لمصلحة تبدو لصاحبه ، فهو صفةُ نقصٍ وبَداءٍ ، لذٰلك قال الإمام ابن الصلاح ـ كما في « فتح المبين » ص ٢٧٣ ـ : « ليس المرادُ بالتردد هنا حقيقته المعروفة منا ، بل إنه يفعل به كفعل المتردد الكاره » ، وعلَّق ابن حجر الهيتمي بقوله : « فهو لمحبته له يكره مساءته بالموت . . . وفيه إشعارٌ بأنه لا يَفعلُ به ذٰلك مريداً إهانتَه ، بل رِفْعتَه ، إذ هو طريق انتقاله إلىٰ دار الكرامة والنعيم » ، ومعنىٰ هٰذا : أن الموت مَسَاءة إذا قَصَرنا النظر عليه ، لٰكنه إحسان وتكريم من الله ، لِمَا يكون بعده من نُقْلة إلىٰ دار النعيم .

وذكر الخطابي في « أعلام الحديث » ٣ : ٢٢٦٠ وجهين في تأويل التردد ، ثانيهما : « أن يكون معناه : ما رَدَّدتُ رُسُلي في شيء أنا فاعلُه ترديدي إياهم في نفس المؤمن » ، **والرسل هنا** : الملائكة ، كما فسَّره الحافظ في « الفتح » ١١ : ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

وهٰذا معناه : تفسير « تَرَدَّدْتُ » بـ « رَدَّدْتُ » ، ولما كان الظاهرُ اختلافهما ، نَقَل الحافظ بعد قليل عن الكَلَاباذي قوله : « وقد ورد ـ أي : في اللغة ـ تفعَّل بمعنىٰ فَعَّل ، مثل : تفكَّر وفكَّر ، وتدبَّر ودَبَّرَ ، وتهدَّد وهدَّد » ، فيسوغ حينئذ تفسير تردَّد بـ : ردَّد . والله أعلم .

وما أجملَ وَقْعَ هٰذه الجملة في ختام دعاء الاستخارة : « واقدُرْ ليَ الخير حيثُ كان ، ثم رضِّني به » . وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد .

* * *

٣٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَتَعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل ، وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يَعرُج الذين باتوا ـ أو : كانوا ـ فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بهم ـ : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يُصلُّون » .

٣٥ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواضع من « صحيحه » ، منها : كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل صلاة العصر ٢ : ٣٣ (٥٥٥) وهٰذا لفظه ، وكتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٦ : ٣٠٦ (٣٢٢٣) ولفظ : « كانوا فيكم » منه ، ورواه مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١ : ٤٣٩ (٦٣٢) .

ورواه آخرون ، منهم ابن خزيمة في « صحيحه » (٣٢١) وجاءت روايته مفصَّلة أكثر من سائر الروايات الأخرىٰ ، وفي آخرها قول الملائكة لله عز وجل : « فاغفر لهم يوم الدين » .

معناه : في الحديث الشريف إخبار عن فَوْجَينِ من الملائكة الكرام عليهم السلام جميعاً ، فوج يحفُّ بالإنسان من أول النهار الشرعي : صلاة الفجر ، إلىٰ صلاة العصر ، ولعل ذٰلك يكون إلىٰ حين أدائه إياها ، فيمتدّ ذٰلك معه إلىٰ صلاة المغرب ، فيجتمع ملائكة هٰذا الفوج مع ملائكة الفوج الثاني الذين يحفُّون به من أول الليل : وقت صلاة المغرب ، إلىٰ آخر الليل وأول النهار ، وذٰلك عند الفجر .

فيكون منهم اجتماعان ولقاءان ، وتوضيحهما في رواية ابن خزيمة : « إذا

كان صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار فشهدوا معكم الصلاة جميعاً » أي : شهدت ملائكة الليل التي انتهت مهمتهم الليليَّة مع هٰذا الإنسان ، وشهدت معهم ملائكة النهار الذين سيبدؤون مهمتهم الآن ، هٰذا معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « شهدوا معكم الصلاة جميعاً » .

ثم تصعد الملائكة الليليون الذين انتهت مهمتهم ، وتبقىٰ ملائكة النهار ، فيسأل المولى العليمُ الخبيرُ ملائكةَ الليل المُغَادرين : « **كيف تركتم عبادي ؟** » وعلىٰ أي حال كانوا ؟ ، فتجيبه الملائكة الكرام جواباً فيه غاية الرحمة للمؤمنين : ربنا « **تركناهم وهم يصلون** » ، والظاهر أن ينتهي الجواب هنا ، لأن السؤال عن حالهم التي تركوهم عليها فقط ، لٰكنهم يزيدون في الثناء على العباد زيادةً في استرحام الله لهم فيقولون : « **وأتيناهم وهم يصلون** » .

ويزيدون في الاسترحام لهم تقديمَ الرجاء إلىٰ رب العزة أن يتدارك هٰؤلاء الأقوام بالمغفرة يوم الجزاء والحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ، فيقولون : « فاغفر لهم يوم الدين » .

فجزى الله عنا الملائكة الكرامَ كلَّ خير .

وهٰكذا تنتهي مهمة كل فوج ، ويجتمع مَن بعده به قبل المغادرة ، وهٰكذا يكون السؤال ، وهٰكذا يكون الجواب منهم مع رجاء المغفرة .

فعلى المسلم العاقل أن يحرص علىٰ أوقاته كلِّها ، خاصةً منها ما يكون هٰذا فضلَه ، وهٰذا مشهدَه ، وهٰذا شهوده ، وهٰذا هو السؤال عن حاله فيه من قِبَل رب العزَّة سبحانه وتعالىٰ .

فهٰذا وقت مشهود ، يشهده ويحضره مع الإنسان من ملائكة الله عز وجل وجنوده ما لا يعلم عددهم إلا الله ، فهم حاضرون معه ، شاهدون عليه

أمام الله عز وجل بما يفعله ، فإن كان في المسجد ـ أو في البيت ـ في صلاة وعبادة ، شهدوا عليه بذٰلك ، وزادوا له في الاسترحامِ والاستعطاف ورجاء المغفرة .

وإن كان حالُه علىٰ غير ذٰلك ، وأدنىٰ ، وأدنىٰ . . . ـ والعياذ بالله ـ : فليعلم أن عليه شهوداً صادقين مصدَّقين ، سيرفعون عمله إلى الله تعالىٰ بعد ساعة أو سُوَيعات ، ويجيبون عن السؤال عنه : كيف تركتم عبادي ؟ فسيقولون : تركنا فلاناً وفلاناً علىٰ كذا وكذا مما لا يرضيك يا رب ! .

فلا بدَّ للمسلم من مراقبة أحواله ، ومحاسبة نفسه في كل أوقاته .

ثم إن هـٰؤلاء الملائكة هم الحَفظة في قول الأكثر من أهل العلم ، وقيل : إنما هم صنف آخر موكَّلون برفع أعمال اليوم والليلة .

وهـٰذا الرفعُ هو المذكور في حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه مسلم في « صحيحه » ١ : ١٦١ (٢٩٣) قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إن الله تعالىٰ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القِسط ويرفعه ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور ، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه » .

ويُستفاد من الحديث المشروح : فضيلةُ وقت الفجر والعصر ، فإنهما الوقتان اللذان اختارهما الله تعالىٰ لرفع أعمال النهار ، وأعمال الليل ، واختار العلامة ابن أبي جمرة رحمه الله في « بهجة النفوس » ١ : ٢٠٣ أن الصلاة الوسطى التي أُمرنا بالمحافظة عليها هي صلاتان : وسطى النهار ، وهي العصر ، ووسطى الليل ، وهي الفجر .

وأما وقتُ عروج كل طائفة : فقد جاء في الرواية : « **ثم يَعرجُ الذين**

باتوا » ، والمبيت وقته من المغرب إلى الفجر ، فهٰذا فيه إخبار عن ملائكة الليل ، إذا أخذنا بهٰذه الرواية ، فأين الحديث عن ملائكة النهار ؟ الحديث عنهم في رواية : « ثم يعرج الذين كانوا فيكم » ، أي : تعرج الطائفة الأولى : النهارية أو الليلية التي كانت ، بعد صلاة الفجر أو العصر ، وتبقى الطائفة الثانية .

وأما قول الملائكة الكرام في جوابهم لله عز وجل : « تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » : فلا يلزم من هٰذا أن يكونوا أتوا بني آدم وهم مباشِرون لفعل الصلاة ، وتركوهم وهم مباشرون لها أيضاً ، بل المراد : أنهم في حال صلاة : فعلاً ، أو استعداداً ، أو انتظاراً لصلاةٍ آتية ـ وإن الرجل في صلاة ما دام ينتظر الصلاة ـ وهٰكذا ، فهو في صلاة أو في متعلِّقاتها .

وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم حذَّرنا أن نكون من الثلاثة الذين لا يُكَلِّمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، ومنهم : « رجلٌ حلَف على يمينٍ كاذبة بعد العصر ليقتطعَ بها مالَ رجل مسلم » ، كما سيأتي الحديث برقم (٥٤) ، مراعاةً منه صلى الله عليه وسلم لحرمة هٰذا الوقت ، لمثل هٰذا الحَدثِ الهامِّ الذي يخصُّ الإنسانَ ، فكذٰلك ينبغي القول : إن الحلفَ الكاذبَ بعد الفجر ليقتطع به مالَ رجل مسلم ، يُدخل صاحبه بمثل هٰذا الوعيد ، والله أعلم ، ذٰلك أن الحرمة مشتركة بين الوقتين ، لاتِّحادهما في السبب ، وإن كان وقتُ ما بعد العصر يزيد بأنه نهايةُ العمل اليومي للإنسان ، فيكون قد ختمَ صحيفته بهٰذا المنكر ، نسأل الله العافية .

* * *

٣٦ ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتَبَسَ عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ غَداةٍ عن صلاة الصبح ، حتىٰ كِدْنا نتراءىٰ عينَ الشمس ، فخرج سريعاً فثوَّب بالصلاة ، فصلّىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجوَّز في صلاته ، فلما سلَّم دَعَا بصوته قال لنا : « علىٰ مَصَافِّكم كما أنتم » ثم انفتَلَ إلينا ، فقال : « أما إني سأحدِّثُكم ما حَبَسَني عنكم الغَداةَ ، إني قمتُ من الليل فتوضأتُ فَصَلَّيتُ ما قُدِّر لي ، فنَعَسْتُ في صلاتي فاسْتثقَلْتُ ، فإذا أنا بربِّي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة ، فقال : يا محمدُ ، قلت : ربِّ لبيك ، قال : فِيمَ يختصمُ الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : لا أدري ربِّ ـ قالها ثلاثاً ـ .

قال : فرأيتُه وضَع كفَّه بين كتفيَّ حتىٰ وجدتُ برْدَ أنامله بين ثديَيَّ ، فتجلَّىٰ لي كلُّ شيء وعرفتُ ، فقال : يا محمد ، قلت : لبيك ربِّ ، قال : فيمَ يختصِمُ الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : في الكفارات ، قال : ما هنَّ ؟ قلت : مَشْيُ الأقدام إلى الجماعات ، والجلوسُ في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغُ الوضوء في المكروهات .

قال : ثم فيمَ ؟ قلت : إطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، والصلاةُ بالليل والناسُ نِيام .

قال : سَلْ ، قلت : اللهم إني أسألُك فِعلَ الخيرات ، وتركَ المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تَغفِرَ لي ، وترْحَمَني ، وإذا أردتَ فتنةً في قوم فتوفَّني غيرَ مفتونٍ ، وأسألك حبّك ، وحُبَّ من يُحِبُّك ، وحبَّ عملٍ يقرِّبُ إلىٰ حبّك » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها حقٌّ ، فادرُسوها ، ثم تعلَّموها » .

٣٦ ـ تخريجه : رواه الترمذي : أبواب تفسير القرآن ـ باب سورة صٓ (٣٢٣٥) وقال : حديث حسن صحيح ، وللحديث ألفاظٌ وروايات كثيرة ، ورواه من الصحابة كثيرون ، وخرَّجه كثيرون من أئمة الحديث ، وقد استقصىٰ تخريجه شيخنا العلامة المفسِّر الحافظ الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ في كتابه « صعود الأقوال ورفع الأعمال » ص ١١١ ـ ١٢٣ .

وللحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله رسالة مطبوعة في شرحه سماها « اختيار الأَوْلىٰ في اختصام الملأ الأعلىٰ » .

غريبه : **الغَداة** : الصباح ، وهو وقت غدوِّهم ـ أي : رَواحهم ـ إلىٰ أعمالهم .

نتراءىٰ : نحاولُ ونتكلَّف رؤية عين الشمس .

ثوَّب بالصلاة : أقامها .

تجوَّز : خفَّف .

علىٰ مصافِّكم : يريد : الزموا أماكنكم .

فاستثقلتُ : غَلَبني النعاسُ وصار ثقيلاً ، فهي رؤيا منامية .

الملأ الأعلىٰ : طائفةٌ خاصة من الملائكة المقرَّبين .

يختصم : يختلف .

معناه : هٰذا الحديث الشريف من أعظم الأحاديث جمعاً لأعمالٍ صالحةٍ تكفِّر الخطيئات ، وأعمالٍ أخرىٰ ترفعُ الدرجات ، ودعواتٍ جامعةٍ أُلهِمَها رسول الله عليه أفضل الصلوات والتسليمات ، في هٰذا الموقف العظيم .

ورؤيا الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام وحيٌ من الله وحقٌّ ، فلا يقالُ عن هٰذا الحديث : إنه رؤيا منامية ! ذريعةً لعدمِ الاهتمام بشأنه وبما فيه .

فالله عز وجل قد تجلَّىٰ لحبيبه صلى الله عليه وسلم في هٰذا المشهد ، فتجلَّىٰ له كلُّ شيء وعَلِمه ، لذٰلك كرَّر عليه السؤال ، فلما سأله المرةَ الأولىٰ قال : « لا أدري » ثلاثاً ، كما جاء في الآية الكريمة علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ صٓ : ٦٩ .

وفي هٰذا الجواب من النبي صلى الله عليه وسلم : « لا أدري » ـ وهو صاحب المقام العظيم ـ : تعليم وتأديب لنا بخُلُق علمي رفيع ، نفتقر إليه كثيراً في أيامنا ، هو أن يقول أحدنا إذا سُئل عما لا يعلم : لا أدري ، لا أعلم ، وما شاكل هٰذا ، وأن لا يتقحَّم النار بالقول بغير علم ولا مستند شرعي يقدِّمه بين يديه أمام الله عز وجل .

وفي تكراره صلى الله عليه وسلم قوله : « لا أدري » ثلاثاً : إشعار منه ـ والله أعلم ـ بافتقاره إلىٰ ربه أن يعلمه الجواب ، وإلا فما معنى التكرار ! .

وفي تجلِّي الله عز وجل له بالعلم بذٰلك : إشعار من الله بأنَّ من افتقر إليه بأمر أغناه الله بما افتقر . والله أعلم .

فلما تجلَّى الله له ، تجلَّىٰ للنبي صلى الله عليه وسلم كلُّ شيء وعَرَفه ، وفي رواية للترمذي (٣٢٣٣) : « فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض » ، فأجاب حينئذ عن اختصام الملأ الأعلىٰ ، واختصامُهم : اختلافُهم فيما بينهم

في تقدير أجورِ أعمالٍ معيَّنة ، فقسمٌ منهم يقدِّر لهٰذا العمل أجْرَ كذا وكذا ، وبعضٌ آخرُ يقدِّر أكثر من ذٰلك ، وهٰكذا ، يختلفون في ثوابِ أعمالٍ معيَّنة لبني آدم ، وإعطائها ما تستحقُّ من مكافآت .

والأمرُ الأول الذي يختلفون فيه : الكفارات ، أيْ : الأعمالُ الصالحةُ التي إذا عَمِلها ابنُ آدم كفَّر الله عنه بها من خطاياه ، **فالكفارات** : هي مكفِّرات الذنوب والخطايا ، وقد عدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم منها هنا ثلاثة أعمال : المشيَ إلىٰ صلاة الجماعة ، وانتظار صلاةِ فريضةٍ بعد أداء فريضة قبلها ، وإسباغَ الوضوء بالماء البارد في أيام البرد .

والأمر الثاني : في الدرجات ، كما وُصفتْ بذٰلك في رواية الترمذي التي برقم (٣٢٣٣ ، ٣٢٣٤)[1] ، أما الرواية التي تقدَّم نصُّها فلم تردْ هٰذه اللفظة فيها . **والمراد بالدرجات** : تقديرُ ثواب الأعمال الصالحة التي إذا عملها ابن آدم رفع الله بها درجاته في الجنة .

وعدَّ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا **ثلاثةَ أعمال أيضاً** : إطعامَ الطعام ، وليْنَ الكلام ، والصلاةَ بالليل والناسُ نيام ، وهي داخلة في هٰذه الرواية تحت الكفارات .

١ ـ فالعمل الأول من الأمر الأول : الخُطَا التي يَخْطُوها المسلم إلىٰ صلاة الجماعة .

روى البخاري ٢ : ١٣١ (٦٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّف علىٰ صلاته في بيته وسوقه خمساً وعشرين ضِعفاً ، وذٰلك أنه إذا توضَّأ فأحسنَ

---

(١) وسقطت كلمة : « الدرجات » من « المسند » ٥ : ٢٤٣ من رواية معاذ بن جبل ، لٰكنْ سياقه واضح في ثبوتها ، وأن سقوطها خطأ مطبعي .

الوضوءَ ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاةُ ، لم يخطُ خُطوةً إلا رُفعتْ له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلَّىٰ لم تَزَل الملائكةُ تصلِّي عليه ما دام في مصلَّاه : اللهم صلِّ عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدُكم في صلاةٍ ما انتظر الصلاة » .

فقوله : « حُطَّ عنه بها خطيئة » : يجعل المشي إلى الجماعات من الكفارات ، لكن قوله : « رفعت له بها درجة » يجعلُه من الأمر الثاني ، وهو الدرجات ، فيحصُل إشكال ، وجوابُه : أن مِن الأعمال الصالحة ما له اعتبارٌ واحد ، إما من الدرجات ، وإما من الكفارات ، ومنها ما له اعتباران مختلِفان ، يُغلَّب أحدُهما فيُلْحِق العملَ بالدرجات ، أو يُلحقُه بالكفارات .

كالصلاة ، فيها مجاهدة للنفس علىٰ أدائها والمواظبة عليها ، وكونها في وقت مخصوص ، فهٰذا يُلحقها بالكفارات ، وفيها عبادةٌ ومناجاة ، وتسبيح وتحميد ودعاء ، فهي بهٰذا الاعتبار من الدرجات .

وعلى الاعتبارِ الأول ـ كونِ الصلاة من الكفارات ـ جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمسُ ، والجمعةُ إلى الجمعة ، ورمضانُ إلىٰ رمضان : مكفِّرات لما بينهنَّ ما اجتُنِبت الكبائر » ، رواه مسلم ١ : ٢٠٩ (١٦) ، ورواه قبله بلفظ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن » .

وعلى الاعتبار الثاني ـ كونها من الدرجات ـ جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد ، فأكثِروا الدعاء » ، رواه مسلم أيضاً ١ : ٣٥٠ (٢١٥) .

وبمراعاة الاعتبارين : جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « من ركع ركعةً أو

سجد سجدةً رُفع بها درجةً وحُطّت عنه بها خطيئة »[١] ، ومن هٰذا القبيل حديث أبي هريرة عند مسلم ، الآتي قريباً .

وهٰذا الإشكال يَرِدُ في أعمالٍ أخرىٰ ، وجوابُه كما ذكرت ، فلا حاجة إلىٰ تكراره .

٢ ـ والعمل الثاني من الأمر الأول ، وهو الكفارات : هو الجلوس في المساجد بعد الصلوات ، بنيَّة انتظار الصلاة الأخرى اللاحقة .

وفي الحديث التالي بعد هٰذا : أن الله تعالىٰ يُباهي بهٰؤلاء الجالسين المنتظِرين ملائكتَه الكرامَ يقول لهم : « انظُروا إلىٰ عبادي قد قَضَوْا فريضةً ، وهم ينتظِرون أخرىٰ » .

٣ ـ وأما إسباغُ الوضوء في المكروهات ، أي : إتمامُه واستيعابُ أعضائه مسحاً وغَسلاً ، واستيفاءُ سُنته ، في حالة البرد الشديد مع التوضؤ بماء بارد .

فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إسباغ الوضوء وحده من الكفارات ، فكيف في المكاره ؟ روىٰ مسلم ١ : ٢٠٧ (٨) عن حُمرانَ مولىٰ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه قال : أتيت عثمان بوَضوء ، فتوضأ ، ثم قال : إن ناساً يتحدَّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديثَ لا أدري ما هي ؟ إلا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثلَ وُضوئي هٰذا ثم قال : « من توضأ هٰكذا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه ، وكانت صلاتُه ومشيه إلى المسجد نافلة » .

---

(١) رواه أحمد عن أبي ذر ٥ : ١٤٧ وله قصة ٥ : ١٤٨ ، قال الهيثمي ٢ : ٢٤٨ ـ ٢٤٩ : « رواه كله أحمد ، والبزار بنحوه ، بأسانيدَ وبعضُها رجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الأوسط » .

هٰذا ، وقد روىٰ مسلم أن هٰذه الأعمال الثلاثة التي تقدمت هي كفارات ودرجات ، وشبَّهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرابطة في سبيل الله ، ومعلومٌ أن الرباط كالجهاد ، وأن المرابطَ مجاهد .

ففي « صحيح » مسلم ١ : ٢١٩ (٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدُلُّكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « إسباغُ الوضوء على المكاره ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذٰلكم الرِّباط » .

وقد بيَّن لنا النبي صلى الله عليه وسلم فائدةَ هٰذه الكفارات في الدنيا والبرزخ والآخرة فقال ـ كما في رواية الترمذي (٣٢٣٣) وغيره ـ : « من فعل ذٰلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيومَ ولدته أمّه » .

وهٰذه نتيجةٌ طبيعية لكون هٰذه الأعمال الثلاثة كفاراتٍ للذنوب .

لٰكنْ رواية الترمذي الأخرىٰ برقم (٣٢٣٤) جاءت بلفظ : « من يحافظ عليهن عاش . . . » فالفعلُ لها مرةً أو مرتين أو مراتٍ لا يُسمَّىٰ محافظة ومداومةً ، بل لا بدَّ من كثرة الفعل لها بحيث يقال عن صاحبها : إنه محافظ مداوم عليها ، ولو تخلَّل ذٰلك انقطاعه عنها في بعض الأحايين ، فإن ذٰلك لا يضرُّه إن شاء الله .

٤ ـ **وأما أولُ أعمال الأمر الثاني ـ وهو الدرجات ـ** : فهو إطعام الطعام وبذلُه ، وكونُه لمستحِقٍ فقيرٍ أولىٰ وأحبُّ ، وسبب لرفع درجاتٍ أكثرَ مما لو كان مبذولاً لغير فقير .

روى البخاري ١ : ٨٢ (٢٨) ، و١١ : ٢١ (٦٢٣٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أيُّ الإسلام خير ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : « تطعمُ الطعامَ ، وتقرأ السلام علىٰ من عرفتَ ومن لم تعرف » .

فإطعام الطعام من خيرِ أعمالِ الإسلام وأفضلها .

وروى الترمذي ٦ : ١٣٥ (١٨٥٥) عن عبد الله بن عمرو أيضاً ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اُعبُدوا الرحمـٰن ، وأطعِموا الطعام ، وأَفْشُوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، قال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الترمذي أيضاً وقال : صحيح ٧ : ١٨٢ (٢٤٨٥) : عن عبد الله بن سَلام رضي الله عنه قصةَ إسلامه التي يقول فيها : لما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم انجفلَ ـ أي : أسرعَ ـ الناسُ إليه ، وقيل : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فجئتُ في الناس لأنظرَ إليه ، فلما اسْتَثْبتُّ وجهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ أن وجهه ليس بوجهِ كذاب ، وكان أولَ شيء تكلَّم به أنْ قال : « أيُّها الناسُ أفْشوا السلامَ ، وأطعِموا الطعام ، وصلُّوا والناسُ نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

ودخولُ الجنة بسلام : معناه ـ والله أعلم ـ : دخولُها من غير حساب ولا عذاب ، وهـٰذا ترغيبٌ عظيم ، لا ينبغي للقادر عليه أن يَغفُل عنه . وفقنا الله لما يرضيه عنا .

بل لقد ثبتَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لصاحب هـٰذه الخصال الثلاثة مرتبةً خاصة في الجنة غيرَ دخوله إياها بسلام .

فقد روى الطبراني في « معجمه الكبير » بإسناد حسن ـ كما قال المنذري ٢ : ٦٣ ، والهيثمي ٢ : ٢٥٤ ـ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في الجنة غُرفاً يُرىٰ ظاهرُها

من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو مالك الأشعري : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « لمن أطابَ الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائماً والناس نيام »(١) .

وهٰذه الأحاديثُ ـ وغيرها كثير ـ تدلُّ علىٰ أن هٰذه الخصلةَ من شرائف الخِصال التي يترتَّب عليها رفعُ درجاتِ العبد المسلم عنده .

وقد ذكر الله عز وجل هٰذه المكرمة في خصال (الأبرار) المذكورة في سورة الدهر : (هل أتىٰ على الإنسان) ، وذٰلك عند قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . . . ﴾ الإنسان : ٥ ـ ١١ .

فإطعام الطعام لمستحقِّيه مع الإخلاص لله عز وجل من صفات الأبرار ، وإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ المطففين : ٢٢(٢) .

٥ ـ وأما الأمر الثاني من أعمال الدرجات : فهو لِين الكلام .

وهو داخل في الأحاديث السابقة ، وهو المعبَّر عنه في الحديث المتقدم قبل أسطر : « لمن أطاب الكلام » ، فلينُ القول وطِيبه شيء واحد ، وكذٰلك

---

(١) ورواه الإمام أحمد ١ : ١٥٦ ، والترمذي ٦ : ٢٠٢ (١٩٨٥) ، ٧ : ٢١٢ (٢٥٢٩) عن علي رضي الله عنه ، وفي إسنادهما عبد الرحمٰن بن إسحاق ، ضعَّف الترمذي الحديثَ بسببه . ورواه عبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » ٥ : ٣٤٣ عن أبي مالك الأشعري المذكور في حديث ابن عَمْرو ، وفيه شيء ، فالحديث ثابت .

(٢) وأما ما رواه الحاكم ٤ : ١٢٠ عن أبي هريرة مرفوعاً : « الكفاراتُ : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام » ، ففيه راو متروك شديد الضعف ، فلا يُلتفت إليه .

القول المعروف ، والقول الكريم ، وإن البِرَّ الذي يجعل صاحبه من الأبرار قائم علىٰ شيئين ، جمعهما ابن عمر رضي الله عنهما ، كما في « عيون الأخبار » ٢ : ٣٦٢ : « البرُّ شيء هين : وجه طليق وكلام لين » ثم جُعل شعراً :

بُـنَـيَّ إن الـبِـرَّ شـيءٌ هـيِّـنُ وجـهٌ طَـلـيـقٌ وكـلامٌ لـيِّـنُ

ولينُ القول سِمَةٌ للمسلم حتىٰ مع أعدائه ! حتىٰ في حال مخاصمته ! .

أما مع أعدائه : فقد روى البخاري في كتاب الأدب ١١ : ٤١ (٦٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخل رهْطٌ من اليهود علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السامُ عليك ، ففهمتُها ، فقلت : عليكم السامُ واللعنةُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مهلاً يا عائشة ، فإن الله يحبُّ الرِّفْق في الأمر كله » فقلت : يا رسول الله أَوَلم تسمعْ ما قالوا ؟ قال رسول الله : « فقد قلتُ : عليكم » .

ثم أسند إلىٰ أنس ـ وابن عمر نحوه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا : وعليكم » ، فجعل ذٰلك صلى الله عليه وسلم حكماً عامّاً وسنةً لأمته من بعده .

ولفظُ حديث عائشة في كتاب الأدب ١٠ : ٤٥٢ (٦٠٣٠) : أن يهود أَتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليكم ، فقالت عائشة : عليكم ، ولعنكم الله وغضب الله عليكم ! قال : « مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياكِ والعُنفَ والفُحشَ » ، قلت : أَوَلم تسمع ما قالوا ؟ قال : « أَوَلم تسمعي ما قلتُ ؟ رددتُ عليهم ، فَيُسْتجاب لي فيهم ، ولا يُستجابُ لهم فيَّ » .

ولمناسبة قوله : إياكِ والعنف والفحشَ : أخرج البخاري حديثاً قبله فيه وصْف عبد الله بن عمرو للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله : لم يكنْ صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحِّشاً .

أما في حال مخاصمته للآخرين : فذٰلك فيما رواه البخاري أوائل « صحيحه » ١ : ٨٩ (٣٤) عن عبد الله بن عمرو أيضاً ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانتْ فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يَدَعها : إذا ائتُمِن خان ، وإذا حدَّث كذَب ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فَجَر » ، والمخاصمة : المجادلة والمخالفة في الرأي ، والفجور : هو الميل عن الحق والاحتيال في ردِّه .

ففي قوله صلى الله عليه وسلم « وإذا خاصم فجر » : تنبيه للمسلم أن يحفظَ لسانه فلا يخرج عن طَوْره في الخصومة ، وعن حدِّ الأدب في القول ، والنَّصَفة في الانتصار لنفسه ، بحجة أن هٰذا خَصْمه ! يُسوِّل له الشيطان كلَّ رذيلةٍ لينتصر عليه ! لا ، فإن ذٰلك من خصال النفاق ! .

٦ ـ وأما الأمر الثالث من أعمال الدرجات : فهو صلاة الليل .

والحديث عن صلاة الليل طويل جدّاً ، لكثرة ما في صلاة الليل من آيات كريمة ، وأحاديثَ نبوية شريفة ، وأقوالٍ وأفعالٍ عن السلف الصالح رضي الله عنهم حولها ، وفي كتاب « قيام الليل » للإمام محمد بن نصر المروزي ، المطبوع « مختصره » للمَقريزي ، و« التهجد » لابن أبي الدنيا ، وغيرهما ، و« الترغيب والترهيب » للمنذري ١ : ٤٢٢ ـ ٤٤٦ شيء كثير وفير ، لا سيما الكتاب الأول ففيه من آثار السلف ما يَشرح الصدور وينور القلوب ، ويَشْحَذ الهِمم لهٰذه الطاعة ، التي كان غَفَل عنها كثيرٌ من الناس بالنوم ، وغفل عنها الآن أقوامٌ أكثرُ وأكثرُ باللهو والجلوس طَوال الليل أمام الوسائل الإعلامية الهدَّامة للعلم والفكر ، والدين والأخلاق ، باسم الثقافة المعاصرة !! ، ثم ينامون عن صلاة الفجر المفروضة !! .

وهٰذه الوسائل الإعلامية هي أخطر ما قدَّمه الكفرة إلينا ـ الآن ـ ، إذْ سرقوا بها منا عقولنا وصوابنا وأوقاتنا وأولادنا !! .

وقد أشار الحديث الذي نحن بصدد شرحه إلىٰ سبب من أسباب فضيلة صلاة الليل ، وذٰلك في قوله : « **والصلاة بالليل والناس نيام** » فأشار إلىٰ أن الليل وقتُ غفلة الناس ونومِهم ، أما هٰذا الإنسان طالبُ الدرجات عند ربه تعالىٰ فهو منتصبٌ قائم بين يدي الله عز وجل يناجيه ويناديه : يا رب يا رب ، ويستمع بقلبه هو كذٰلك إلىٰ نداء الله لعباده : هل من مستغفر فأغفرَ له ؟ هل من مسترزق فأرزقَه ؟ .

وقد روىٰ أبو الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة يحبُّهم الله ويضحكُ إليهم ، ويستبشرُ بهم : الذي إذا انكشفتْ فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يُقتل ، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه ، فيقول : انظروا إلىٰ عبدي هٰذا كيف صبر لي بنفسه ، والذي له امرأة حسنة ، وفراشٌ ليِّن حسن ، فيقومُ من الليل ، فيقول : يَذَر شهوته ويذكُرني ، ولو شاء رَقَد ، والذي إذا كان في سفر ـ وكان معه ركب ـ فسهِروا ثم هجعوا ، فقام من السَّحَر في ضراءَ وسراءَ »(١) .

وفي « صحيح » مسلم ٢ : ٨٢١ (٢٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضلُ الصيام بعد رمضان شهرُ الله المحرَّم ، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » .

وروى الطبراني في « الأوسط » بإسناد حسن ـ كما قال المنذري ١ : ٤٣١ ،

---

(١) قال المنذري ١ : ٤٣٥ : « رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن » ، وقال الهيثمي ٢ : ٢٥٥ : « رجاله ثقات » . وذكرا بعده حديثاً آخر نحو هٰذا عن ابن مسعود ، وإسناده حسن أيضاً . وهٰذا حديث قدسي .

والهيثمي في « المجمع » ١٠ : ٢١٩ ـ عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد عِشْ ما شئتَ فإنك ميت ، واعمَلْ ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به ، وأحبِبْ من شئت فإنك مفارقُه ، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُ الليل ، وعِزَّه استغناؤه عن الناس » .

وفي ختام هٰذا المقام العظيم الذي أفاض الله تعالىٰ فيه علىٰ حبيبه المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم بما أفاض من علوم ومعارف ، قال الله تعالىٰ له : « سَلْ » ، وكأنه يقول له : إنك في مقام إجابة فاسألْ وادعُ ، كما في رواية البغوي في « شرح السنة » ٤ : ٣٣ عن ثوبان رضي الله عنه ، وفيها : « يا محمد قل يُسمعْ ، وسل تُعطَ » . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هٰذا المقام بعد أن تجلَّىٰ له كلُّ شيء وعَرَفه ، وبعد أن تجلَّىٰ له كل ما في السماوات والأرض ، فهو في مقام إفاضات علمية عظيمة جدّاً لا يعلم حقيقته من البشر إلا هو صلى الله عليه وسلم ، في هٰذا المقام دعا عليه الصلاة والسلام بهٰذه الدعوات الجامعات العظيمات ، لأنها دعواتٌ نابعة من قلب مَن قال : « فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض » ، صلوات الله وسلاماته عليه .

وهٰذه الرواية هي أوْفى الروايات الجامعةِ للدعوات ، ففيها الدعاءُ بتسعة أمور ، وجاء في بعضها أربعةٌ ، وفي أخرىٰ ستة ، وفي رواية عبد الرحمٰن بن عائش الحضرمي رضي الله عنه عند البغوي في « شرح السنة » ٤ : ٣٦ الدعاء بسبعة أمور ، وفيها زيادة واحدة على التسعة المذكورة هنا ، وهي قوله : « وتتوبَ عليَّ » مع قوله : « وأن تغفرَ لي وترحمَني » ، فيكون العدد عشر دعوات .

ومغايرة أخرىٰ ، جاءت في رواية البغوي في « شرح السنة » ٥ : ٣٩ عن ثوبان رضي الله عنه في آخر الدعاء : « وحبّاً يبلِّغني حبَّك » ، فتكون حصيلة الدعوات إحدىٰ عشرة دعوة .

ويكون صلى الله عليه وسلم قد سأل حسب الروايات المشهورة ـ حبَّ أعمال تقرب إلىٰ حب الله له ، أما في هٰذه الرواية فإنه يسأل الله تعالىٰ أن يرزقه حبّاً لله يوصلُه إلىٰ حب الله له ، فهو قربٌ بالحبِّ لا بالعمل ، وهٰذا أعلىٰ من الأول .

وقد حـدَّدت بعض الروايات وقت هٰذه الدعوات ، أن تكون عقب الصلوات ، ففي رواية الترمذي وغيره : « وقال : يا محمد إذا صليتَ فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات . . . » .

إنه لا ينبغي لمن علم بهٰذه الدعوات أن يتخلَّف عن جَعْلها هِجِّيراه وديدنه بعدما يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يختمها بقوله : « إنها حق ، فادرسوها ثم تعلموها » . نسأل الله التوفيق لذٰلك ، والإجابة . آمين .

* * *

٣٧ ـ عن عبد الله بن عمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال : صلَّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغربَ ، فرجع من رجع ، وعقَّب من عقَّب ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مُسرعاً قد حفزَه النفَس ، وقد حسَر عن ركبتيه ، فقال : « أبشِروا ، هـٰذا ربُّكم قد فتح باباً من السماء يُبَاهي بكمُ الملائكة يقول : انظروا إلىٰ عبادي قد قضوا فريضةً وهم ينتظرون أخرىٰ » .

٣٧ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه : كتاب المساجد والجماعات ـ باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة (٨٠١) ، وصححه الشهاب البوصيري في « مصباح الزجاجة » (٣٠٣) .

غريبه : عقَّب : أقام في المسجد بعدما فرَغ من الصلاة .

حَفَزه النفَس : قال الإمام النووي في « شرح مسلم » ٥ : ٩٧ : « أي : ضغطَه ، لسرعته » .

معناه : هـٰذه مباهاة إلـٰهية أخرىٰ ، وعمل من أعمال البر يتسابق فيه البررة في حَلْبة ميدان الخيرات والأعمال الفاضلة ، وليتصور أحدُنا أنه يسمعُ هـٰذا النداء الإلـٰهي للملائكة الكرام الأطهار : « انظُروا إلىٰ عبادي » وأنت فيهم يفاخر بك الله عز وجل ، فما أعظمَه من شرف ! وما أعظمَها من بشارة ! .

لذٰلك رجعَ سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ مَن بقي في المسجد ينتظر أداءَ فريضةٍ أخرىٰ ، رَجَع إليهم مسرعاً بالبشارة ، قد أثقله نفَسه من السرعة ، قال لهم : « أبشروا ، هـٰذا ربكم . . . يباهي بكم الملائكة . . . » .

والطاعة التي تؤهلك لهٰذا المقام الرفيع : أنك إذا صليتَ فريضةً مكثتَ في مسجدك أو مصلاك ، تنتظر دخولَ وقت فريضة أخرىٰ لتصليها أيضاً ، كمن صلى المغرب في المسجد ، وجلس ينتظر العشاء ليؤدِّيها ، ففي انتظاره مباهاة الله تعالىٰ به الملائكة ، ثم إن منتظر الصلاة كأنه في صلاة ، والملائكة تستغفر له ما دام كذٰلك .

روى البخاري ـ وغيره ـ ٢ : ١٤٢ (٦٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الملائكة تصلي علىٰ أحدكم ما دام في مصلَّاه ، ما لم يحدث : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، لا يزالُ أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبِسه ، لا يمنعُه أن ينقلبَ ـ أي : يرجعَ ـ إلىٰ أهله إلا الصلاة » .

لذٰلك كره السادة الحنفية تنزيهاً السلام على الجالس الذي ينتظر الصلاة . ذكره ابن عابدين في « حاشيته » ١ : ٤١٥ .

❋ ❋ ❋

٣٨ ـ عن أبي الدرداء ، وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله عز وجل أنه قال : « ابنَ آدمَ اركَعْ لي من أول النهار أربعَ ركَعاتٍ أكفِكَ آخره » .

٣٨ ـ **تخريجه** : رواه الترمذي في أبواب الصلاة ـ باب صلاة الضحىٰ وفيه قولُ الترمذي : حسن غريب ، ونحوه عند أبي داود : كتاب الصلاة ـ باب صلاة الضحىٰ (١٢٨٣) ، وصحَّ عن غيرهما من الصحابة رضي الله عنهم ، انظر « الترغيب والترهيب » ١ : ٤٦٤ ، و« مجمع الزوائد » ٢ : ٢٣٥ ، إلا حديث أبي مُرَّة الطائفي فقد ذكر الحافظ في ترجمته في « الإصابة » ٧ : ٧٤ أنه شاذ .

معناه : يرغِّب الله تعالىٰ عباده بصلاةِ أربع ركعات في وقت الضَّحْوة ، ويَعِدُهم عليها بما يَرغَب به كلُّ عاقل : هو كفاية الله تعالىٰ لهم من هموم بقية يومهم وشروره ومكارهه .

وسبب ذٰلك : أن وقت الضحىٰ وقتُ انهماكِ الناس في أعمالهم ، وغفلتِهم عن التوجه إلىٰ ربهم سبحانه ، فيقوم هٰذا الإنسان ويصلي لله ويذكره ويدعوه ، فيقابلُه الله تعالىٰ بأفضلَ مما عمل ، هو حفظُه بقية يومه ، كفاءَ توجهه إليه دقائقَ معدودة .

ولذٰلك سمىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الضحىٰ هٰذه بصلاة الأوابين ، والأواب : صيغة مبالغة من : آيب ، وهو الراجع إلىٰ ربه بالطاعة والتوبة والإنابة .

فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم ١ : ٥١٥ (١٤٣) : « صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصال » .

قال النووي رحمه الله ٦ : ٣٠ : « رمِض يرمَض : كعلِم يعلَم ، والرمضاء : الرمل الذي اشتدتْ حرارته بالشمس ، أي : [صلاة الأوابين] : حين تحترق أخفاف الفِصال ـ وهي الصغارُ من أولاد الإبل ، جَمع فَصيل ـ من شدة حرّ الرمل ، والأوّاب : المطيع ، وقيل : الراجع إلى الطاعة ، وفيه : فضيلة الصلاة هٰذا الوقت ، قال أصحابنا ـ الشافعية ـ : هو أفضل وقت صلاة الضحىٰ ، وإن كانت تجوز من طلوع الشمس إلى الزوال » ظهراً .

فصلاة الضحىٰ : صلاة الأوابين إلىٰ ربهم ، لذٰلك يكون لهم من الله تعالىٰ حفظ وكفاية خاصة .

وكما أن صلاة الضحىٰ سبب للكفاية من الهموم والشرور ، هي كذٰلك كفاية من أمور أخرىٰ كثيرة يُطالَب بها المسلم .

روىٰ مسلم ١ : ٤٩٨ (٨٤) عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُصبح علىٰ كل سُلامَىٰ من أحدكم صدقة ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقة ، وكلُّ تحميدة صدقةٌ ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهيٌ عن المنكر صدقة ، ويُجزِئ من ذٰلك ركعتان يركعُهما من الضحىٰ » .

وسُلامَيَات الإنسان ـ كما جاء في الحديث عند مسلم ٢ : ٦٩٨ (٥٤) عن عائشة مرفوعاً ـ ستون وثلاث مئة ، فصلاة ركعتين في الضحىٰ تقوم مقام ستين وثلاث مئة صدقة !! فهي الصلاة الكافية ، فإذا صلاها ركعتين كَفَته عن متطلَّباتٍ كثيرة ، وإذا صلاها أربعاً كَفَته شروراً ومكاره كثيرة .

ومما يذكر في الحديث عن صلاة الضحىٰ : ما جاء في « فتح الباري » ٣ : ٥٥ (١١٧٦) ، قال : « لطيفة : روى الحاكم ـ في جزئه عن صلاة الضحىٰ ـ

من طريق أبي الخير ، عن عقبة بن عامر قال : أَمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلِّي الضحىٰ بسوَرٍ ، منها : والشمس وضحاها ، والضحى . انتهىٰ ، ومناسبة ذٰلك ظاهرة جدّاً » .

* * *

من أحاديث الصّدقة

٣٩ ـ عن بُسْر بن جَحَّاش القُرَشي رضي الله عنه قال : بَزَق النبي صلى الله عليه وسلم في كفه ، ثم وضَع إصبعه السبابة وقال : « يقول الله عز وجل : أنَّىٰ تُعجِزُني ـ ابنَ آدم ـ وقد خَلَقتُك من مثل هٰذه ؟! فإذا بَلَغَتْ نفسُك هٰذه ـ وأشار إلىٰ حَلْقه ـ قلتَ : أتصدَّق ، وأنَّىٰ أوَانُ الصدقة » ! .

٣٩ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه : كتاب الوصايا ـ باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، وصححه الشهاب البوصيري في « مصباح الزجاجة » (٩٦١) .

معناه : في هٰذا الحديث القدسي تنبيهٌ إلٰهي للعباد ، وإيقاظُهم من طُول الرُّقاد ، وزجْر لهم عن الاسترسال وراءَ الأملِ ، وقلَّةِ العمل مع الزَّلل والخلل ! وفيه تذكيرهم بأصل الخِلْقة ، ليرتدِعَ المتكبِّر المتطاول ، المغرور الجَشِع ! .

فأصلُ الإنسان من نطفة وماءٍ مَهين ، إن لم تكن رأيتَه فهو كالبصقة ، ما أحقرها ! فهي حقّاً ـ كما قال عز وجل ـ : ﴿ مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ المرسلات : ٢٠ ، ومَن كان كذٰلك فأنَّىٰ يُعجزُ ربَّه وخالقَه ! .

ولِمَ هٰذا الانغماسُ الشديد ، والغَرَقُ في الدنيا والغفلةُ بها عن الله والآخرة ، ولمَ هٰذا التكالبُ على الدنيا وهي فانية زائلة من بين يديك رضيتَ أم كرهتَ ! فما تَصْحو من غفلتها وسيطرتها علىٰ قلبك إلا لحظةَ مفارقتِها

لك وانصرافها عنك ، وزوالها من بين يديك ، وهي لحظةُ وقوعِك في أحضان الآخرة والقبر ! .

فحين إدبارها عنك ، ومفارقتك لها قَسْراً عنك : تذكرتَ وصحوتَ ! فرُحْتَ تقول : أعطُوا فلاناً كذا ، وفلاناً كذا ! ، فهـٰذه صدقة الغافلين المكرَهين .

روى الإمام مسلم في « صحيحه » ٢ : ٧١٦ (٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال : يا رسول الله أيُّ الصدقةِ أعظمُ ؟ فقال : « أن تَصَدَّق وأنت صحيحٌ شَحيح ، تخشَى الفقرَ وتأمُل الغنىٰ ، ولا تُمْهِل ، حتىٰ إذا بلغتِ الحُلقومَ قلتَ : لفلانٍ كذا ، ولفلان كذا ، ألا وقد كان لفلان ! » .

ورواه النسائي (٣٦١١) مثله ، ورواه مختصراً قبلُ (٢٥٤٢) ، ورواه ابن ماجه أيضاً (٢٧٠٦) وزاد آخره : « قلتَ : ما لي لفلان ، وما لي لفلان ، وهو لهم وإن كرهتَ » .

وقد أمرنا عز وجل في كتابه الكريم بالانتباه من هـٰذه الغفلة قبلَ الوقوع في عواقبها الوخيمة فقال عزَّ شأنُه : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فيردُّ الله عليه بقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المنافقون : ١٠ ـ ١١ .

ولا يقولنَّ قائل جاهل غافل : هـٰذه الآياتُ في حق الكافرين ، فكيف تُنَزِّلها على المؤمنين ![1] وجوابه : أن الآيات مصدَّرةٌ بالخطاب للمؤمنين :

---

(١) وهـٰذا غير جائز ، بل إن هـٰذا شأن الخوارج الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر عند مسلم ٧ : ١٧٤ : « هم شَرُّ الخَلْق والخليقة » أي : الآدميين والبهائم . وقد حكىٰ عنهم هـٰذه الصفةَ عبد الله بنُ عمر رضي الله عنهما ، فيما =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ . . . ﴾ المنافقون : ١٠ .

فالسعيد من تقدَّم في الخيرات ، وقدَّم لآخرته بين يديه خيرات . والله وليُّ التوفيق .

* * *

= علَّقه عنه البخاري في « صحيحه » ١٢ : ٢٨٢ قال : « باب قتل الخوارج والملحدين . . . وكان ابن عمر يراهم شِرارَ خَلْق الله : إنهم انطلقوا إلىٰ آياتٍ نزلتْ في الكفار فجعلوها على المؤمنين » .

٤٠ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الأرض جعَلَتْ تَميدُ ، فخلق الجبالَ ، فعاد بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدَّة الجبال ، قالوا : يا ربِّ هل من خَلْقك شيءٌ أشدُّ من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، قالوا : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد ؟ قال : نعم ، النار ، فقالوا : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالوا : يا ربِّ ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالوا : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الريح ؟ قال : نعم ، ابنُ آدم تصدَّق بصدقةٍ بيمينه ، يُخفيها من شماله » .

٤٠ ـ تخريجه : رواه الإمام أحمد ٣ : ١٢٤ ، والترمذي آخرَ : كتاب تفسير القرآن (٣٣٦٩) وقال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هـٰذا الوجه ، وعزاه الحافظ في « فتح الباري » ٢ : ١٤٧ إلىٰ أحمد فقط وقال : « بإسناد حسن » .

غريبه : تميد : تتحرك وتضطرب .

بها عليها : بالجبال على الأرض .

معناه : قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ لقمان : ١٠ ، وجاء صدر الحديث مصرِّحاً بما أشارت إليه الآية الكريمة ، وذلٰك : أن الله تعالىٰ خلق الأرض أولاً ، فلما مادَتْ أرساها وثبَّتها بالجبال .

« فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، قالوا : يا ربِّ هل من خلقك شيء أشدُّ من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد » ، فَبِه تُنحَت البيوت من الجبال ، وتُقطع بها الصخور ، وتُفتح فيها الأنفاق ، بل تزال الجبال من أماكنها بالحديد .

وكرَّرتِ الملائكة الكرامُ السؤال : « هل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد ؟ قال : نعم ، النار » ، فَبِها يُلان الحديد ويكيَّف كما يريد الإنسان ، وعليها يُحمىٰ ويَحمَرُّ ، وبها يُصهَر حتىٰ يَذُوبَ وَيَنْماع ـ يصير مائعاً ـ .

ويشتدُّ العجبُ لدىٰ كلِّ سامع .

وتسأل الملائكة : « هل من خلقك شيء أشدُّ من النار ؟ قال : نعم ، الماء » ، فإن النار مهما اضطرَمت وتأجَّجتْ وارتفعت وأكلت الأخضر واليابس فإن الماء ـ بإذن الله ـ تُطْفِئها وتتغلَّب عليها ، فلا تُبقي لها أثراً .

« قالوا : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الماء ؟ قال : نعم ، الريح » ، فإنها تجفِّف الماء وتَذهب به ، وإذا كانت الريحُ تحمل رائحةً طيبةً ومرتْ بماء جعلت الماء طيبة الرائحة ، وكذلك العكس ، والماء حين يكون في السحاب فإن الريح تُسَيِّره يمنةً ويَسْرة .

ولا ريب أن الأمر قد تعاظم على الملائكة ، فسألوا : « هل من خلقك شيء أشدُّ من الريح ؟ قال : نعم ، ابنُ آدم تصدَّق بصدقةٍ بيمينه ، يُخفيها من شماله » .

فالأرضُ ، وما أدراك ما الأرض ، هٰذا المخلوق العظيم ، وأعظمُ منها الجبال ، وأعظم منها الحديد ، ثم أعظم منه النار ، وأعظم منها الماء ، وأعظم من الماء الريح ، وأعظم من الريح إخفاءُ ابن آدم لصدقته إخفاءً مبالَغاً فيه بحيثُ إن شماله لا تعلم بما تنفق يمينه .

فإخفاءُ الصدقة يجيء في المرحلة السابعة من حيثُ عِظَمُه عند رب العالمين وقوةُ تأثيره .

ولـذلك كان صاحبُ هـذه الخَصلة الصالحة في ظـلّ الله تعالىٰ يوم القيامة ، يوم يخوضُ الناسُ في عَرَقهم خوضاً ، من شدة دنوّ الشمس من رؤوس الخلائق ، وبعضهم يُلجِمه العَرَق فيصلُ إلىٰ فمه حتىٰ يكاد يُغْرِقه ـ لكنْ لا موت هناك ! ـ .

في تلك الحال الشديدة الرهيبة يكون هـذا الصنفُ من الناس ـ من أَسَرَّ بصدقته ـ وأصنافٌ أخرىٰ معروفة : آمنين في ظلِّ الله لا يمسُّهم نصبٌ ولا لُغُوب ، ولا حرارة شمس ولا مكروه .

وحقيقٌ بطاعةٍ يكون هـذا أثرها في صاحبها : أن تكونَ أعظمَ من الأرض والجبال والحديد . . .

روى الإمام البخاري ٢ : ١٤٣ ـ من « الفتح » ـ ، ومسلم ٢ : ٧١٥ (٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلُّهم الله في ظِله يوم لا ظل إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه ، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ في المساجد ، ورجلان تحابَّا في الله : اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجل طلبته امرأةٌ ذاتٌ منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلٌ تصدَّق أخفىٰ حتىٰ لا تعلمَ شمالُه ما تنفق يمينه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه » .

وروى الإمام أحمد ٤ : ١٤٧ ـ ١٤٨ بإسناد صحيح ، والحاكم ١ : ٤١٦ وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي من طريق أبي الخير اليَزَني ، عن عقبة بن عامر الجُهني رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّ امرئ في ظلِّ صدقته حتىٰ يُفصَل بين الناس ـ أو قال :

يُحكم بين الناس ـ » ، قال فكان أبو الخير اليزنيُّ لا يخطئه يومٌ إلا تصدَّق فيه بشيء ولو كعكةً أو بصلةً أو كذا[١] .

وروى الطبراني في « المعجم الكبير » ٨ (٨٠١٤) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صنائع المعروف تَقِي مصارعَ السُّوء ، وصدقة السِّر تُطفئ غضب الربِّ ، وصلةُ الرحم تزيد في العمر »[٢] .

فإذا كانتْ صدقةُ السرِّ تُطفئ غضب الله عز وجل ، وهو أشدُّ من كلِّ شديد مذكورٍ في الحديث الذي نتكلم عليه ، فلا بِدْع أنْ كانت أشدَّ من الريح التي هي أشدُّ من الماء الذي يطفئُ النار فيتغلَّبُ عليها .

❋ ❋ ❋

---

(١) معنىٰ لا يُخطئه : لا يفوته . وكلمة « كذا » هنا كناية عن أيِّ شيءٍ قليل تافهِ الثمن ، وتقدم الحديث ص ١٩٦ .

(٢) قال الهيثمي ٣ : ١١٥ : « إسناده حسن » . وانظر التعليق علىٰ صحفة ١٩٤ .

من أحاديث الصّيام

٤١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزَّ وجل : كل عملِ ابن آدمَ له إلا الصيام فإنه لي ، وأنا أجزي به ، والصيام جُنَّة ، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُثْ يومئذٍ ولا يَسْخَب ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقلْ : إني امرؤ صائم ، والذي نفس محمدٍ بيده لَخُلُوف فم الصائم أطيبُ عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يَفْرَحُهما : إذا أفطر فَرِح بفطره ، وإذا لَقِي ربَّه فرح بصومه » .

٤١ ـ تخريجه : رواه البخاري في « صحيحه » بألفاظ كثيرة ، ومواضع متعددة ، أولها : كتاب الصوم ـ باب فضل الصوم ٤ : ١٠٣ (١٨٩٤) ـ وانظر أطرافه هناك ـ ، ورواه مسلم أيضاً بألفاظ متعددة : كتاب الصيام ـ باب فضل الصيام ٢ : ٨٠٧ (١٦٣ ـ ١٦٥) ، وهٰذا لفظ الموضع الأول منه ، وقد جمع الإمام المنذري له ألفاظاً كثيرةً أول كتاب الصوم من كتابه « الترغيب والترهيب » ٢ : ٧٩ .

غريبه : جُنَّة : وقاية يُتَّقَىٰ بها .

لا يرفُث : لا يتكلم بكلام قبيح ، مطلقاً .

لا يَسْخَب : لا يصيح ولا يرفع صوته بصُراخ علىٰ وجه يُعَدُّ قلَّة أدب ،

وفي رواية البخاري التي أشرت إليها ، ومسلم (١٦٠) : « ولا يَجْهَل » ، وهي تُشير إلى المعنى الذي ذكرته .

خُلُوف : بضم الخاء ، وجوَّز بعضهم فتحها ، لـٰكن عدَّه آخرون خطأً ، ومعناه : تغير رائحة فم الصائم .

معناه : واضح أن الطرف الأول من الحديث قدسي ، وأن الطرف الأخير من قوله : « والذي نفسُ محمد بيده . . . » نبوي لا قدسي ، ولـٰكن أين ينتهي القدسي ، ويبدأ النبوي ؟ لم أر تنبيهاً علىٰ ذٰلك .

ثم إن الحديث دالٌّ علىٰ عِظَم فضل الصوم وأجر الصائم ، وعلىٰ إرشاد أدبي وتوجيه خلُقي للصائم ليحصِّل هـٰذه الفضيلة .

أما قوله تعالىٰ : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيامَ فإنه لي » : ففيه إشكال ظاهر ، وهو : أن جميع الطاعاتِ والقُرُبات التي يعملها العبد هي لله عز وجل وحده ، فلماذا خصَّ تعالى الصيامَ من بينها ؟ وأقدمُ مَن رأيتُه تعرَّض للإشكالِ والجواب عنه بما يأتي : الإمامُ أبو عبيد القاسم بن سلَّام رحمه الله في « غريب الحديث » ١ : ٣٢٥ .

وقد أجاب العلماء عنه بأجوبة ، ذكر منها الإمام النووي في « شرح مسلم » ٨ : ٢٩ ستة ، وأوصلَها الحافظ في « الفتح » ٤ : ١٠٧ ـ ١٠٩ إلىٰ عشرة ، وقال في آخرها : « هـٰذا ما وقفت عليه من الأجوبة ، وقد بَلَغني أن بعض العلماء بلَّغها إلىٰ أكثر من هـٰذا ، وهو الطالْقاني في « حظائر القدس » له ، ولم أقفْ عليه » .

وعبارةُ المناوي في « فيض القدير » ٤ : ٤٧١ : « وللطالقاني في ذٰلك جزء مفرد ، جمع فيه نحوَ خمسين قولاً » .

وقبل ذِكْر الجواب لا بدَّ من التنبيه إلىٰ ركيزة أساسية هي : أن الصوم الذي

هٰذا فضلُه وجزاؤه عند رب العالمين ، وهٰذا مقامُ صاحبه ، إنما هو الصومُ الخالصُ لله عز وجل ، السالم من شائبة المعاصي القولية والفعلية .

أما أنه خالص لله عز وجل : فلقوله في روايةٍ من رواياته ـ وهي في البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١٦٤) ـ : « يترك طعامه وشرابَه وشهوته من أجلي » وهٰذا لفظ البخاري .

فقولُه : « من أجلي » نصٌّ صريح في أن إكرام الله تعالىٰ قد ناله لإخلاصه .

وأما أنه سالمٌ من شوائب المعاصي مطلقاً : فلقوله في الحديث الذي نشرحه : « **والصيامُ جنَّةٌ فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُث ولا يَسْخَب . . .** » ، فقوله : « جُنَّة » أي : وقاية وحِصْن لصاحبه ، يقيه من عذاب الله في الآخرة ، ويقيه من الوقوع في المآثم في الدنيا ، ولقوله صلى الله عليه وسلم في حديث النسائي (٢٢٣٤) : « الصيام جُنة من النار ، فمن أصبح صائماً فلا يجهل . . » ، فرتَّب النهيَ عن الجهل علىٰ كون الصيام جُنَّة ، وفي النسائي أيضاً قبل وبعد هٰذا الحديث : « الصوم جُنة ما لم يَخْرِقها » ، وعند الطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٥٣٣ ، ٧٨١٠) عن أبي هريرة مرفوعاً : « الصيام جُنّةَ ما لم يخرقه » ، قيل : وبمَ يَخرِقه ؟ قال : « بكذب أو غيبة »[١] .

وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٥٧٠ ـ ٣٥٨٢) ، من حديث ابن وهب ، عن ابن لَهيعة : « قال ربنا : الصيام جُنَّة يَسْتجِنُّ بها العبد من النار ، وهو لي وأنا أجزي به » ، وهو في « المسند » ٣ : ٣٤١ لٰكن من حديث الحسن بن موسى الأشيب ، عن ابن لهيعة ، وفيه : « يستجير » وهو تحريف عن : « يستجنُّ » .

أما الجواب : فأختاره مما ذكره ابن حجر في « الفتح » ، وقد ذكرتُ قبل

---

(١) قال في « مجمع الزوائد » ٣ : ١٧١ : « فيه الربيع بن بدر ، وهو ضعيف » .

قليل أنه ذكر عشرة أقوال ، وختمها بقوله : « أقربُ الأجوبة التي ذكرتها إلى الصواب الأول والثاني »[١] .

أما الأول : فهو أن الصوم لا يقع فيه الرياء ، كما يقع في غيره من الأعمال ، لذٰلك تكفَّل الله عز وجل بإثابة الصائم المُخْلص إثابةً لا يعلم قدرها إلا هو سبحانه .

ففعلُ الصيام لا يَدخله رياء ؛ لأنه كفٌّ عن محظورات خاصة به ، وليس مباشرة عملٍ ما ، وإن كان قد يدخله رياءٌ قوليٌّ ، بأنْ يُخْبر عن نفسه أنه صائم ! أما سائر العبادات الأخرىٰ فيدخلها الرياء فعلاً وقولاً ، كما أوضحه الحافظ ابن حجر .

وأقدم من قال هٰذا : الإمام أبو عبيد رحمه الله في « غريب الحديث » وهٰذا لفظه : « قد علمنا أن أعمالَ البر كلَّها لله تعالىٰ ، وهو يجزي بها ، فنرىٰ ـ والله أعلم ـ أنه إنما خصَّ الصوم بأن يكون هو الذي يتولىٰ جزاءه ، لأن الصوم لا يظهر من ابن آدم بلسانٍ ولا فعل فتكتبه الحَفَظة ، وإنما هو نيَّة بالقلب وإمساكٌ عن حركة المَطْعَم والمَشْرَب والنكاح ، يقول : فأنا أتولَّىٰ جزاءه علىٰ ما أحبُّ من التضعيف ، وليس علىٰ كتاب كتب له ، ومما يبيِّن ذٰلك قوله عليه السلام : « ليس في الصوم رياء » . ـ حدَّثنيه شَبَابة ، عن ليث ، عن عُقَيل ، عن ابن شهاب ، يرفعه ـ[٢] .

---

(١) وقال : « ويقرب منهما الثامن والتاسع » ، ولدىٰ مراجعة كلامه فيهما يُرىٰ أنه أورد عليهما اعتراضات ، فلذا لم أذكرهما .

(٢) ما بين المعترضتين ثابت في إحدى النسخ الخطية التي طبع عنها كتاب « غريب الحديث » ، كما أفاده محققه ، ونقله كذٰلك الحافظ في « الفتح » ٤ : ١٠٧ ، وسقط منه قوله : « عن ليث » ، فيصحح ، ثم خرَّجه عن « الشُّعَب » للبيهقي (٣٥٩٣) من مراسيل الزهري ، كما هنا ، ومن مسند أبي هريرة ـ من طريق الزهري ـ بإسناد ضعيف ، وقال : « لو =

وذٰلك أن الأعمال كلَّها لا تكون إلا بالحركات ، إلا الصومَ خاصة ، فإنما هو بالنية التي قد خفيتْ على الناس ، فإذا نواها فكيف يكون ها هنا رياء ؟! هٰذا عندي ـ والله أعلم ـ وجه الحديث » .

وهٰذا القول ارتضاه ـ بعد أبي عبيد ـ المازَري ، وصدَّر به الأقوال : القُرطبي صاحب « المُفْهِم » ، والنوويُّ وابنُ حجر والعيني وغيرهم ، وظاهر نقلِ ابن حجر عن ابن الجوزي أنه يعتمده أيضاً .

وأما الثاني : فهو « أن المراد بقوله : « وأنا أجزي به » : أني أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته ، وأما غيره من العبادات فقد أُطْلِعُ عليها بعض الناس » ، ويتأيد هٰذا بروايات وأخبار ، فانظر « الفتح » ٤ : ١٠٨ .

وسَبَق إلىٰ نحو هٰذا : سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ ، فقد نقل عنه أبو عبيد في « غريبه » ١ : ٣٢٦ أنه علل ذٰلك بقوله : « لأن الصوم هو الصبر ، يصبر الإنسان عن المطعم والمشرب والنكاح ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر : ١٠ ، فثواب الصبر ليس له حساب يُعلم ، مِن كثرته » .

قلت : القول الأول يتناسب تماماً مع الرواية المذكورة أعلاه ، والقول الثاني يتناسب تماماً مع رواية مسلم (١٦٤) : « كلُّ عمل ابن آدم يُضاعَف ، الحسنةُ عشرُ أمثالها إلىٰ سبع مئة ضِعف ، قال الله عز وجل : إلا الصومَ فإنه لي وأنا أجزي به ، يَدَع شهوته وطعامه من أجلي » .

فانظر موقع قوله : « فإنه لي وأنا أجزي به » بين سِباقه ولِحاقه ، تتضح لك المناسبة . والله أعلم .

= صحَّ لكان قاطعاً للنزاع » . وكأن هٰذا السَقْطَ قديم ، فقد جاء كذٰلك ـ ساقطاً ـ في « عمدة القاري » ٩ : ١٠ .

وإرشادُ النبي صلى الله عليه وسلم الصائمَ المخاصَم إلىٰ أن يقول : « إني امرؤ صائم »[١] : فيه تنبيه للصائم أن لا يجاوز حدَّه ، ولا يقابل خصمه بمثل فعله ، وفيه زجر للمخاصِم الشاتم أن يرتدع عن سوء فعله .

ذٰلك أن الصيامَ وشهرَه (دورة) تدريبية عملية على الترقِّي في مكارم الأخلاق لمن كان من أهلها متدرِّجاً في معاليها .

و(دورة) تدريبية عمليَّة على الدخول في سلكها ، والانتظام في أهلها ، ويكونُ ذٰلك بحبس النفس عن الانطلاق معها في سَفَه الكلام ، وبذاءة اللسان ، وسَوْرة الغضب ، وما إلىٰ ذٰلك من مظاهر الجهل الخُلُقي .

وشهر رمضان فترة زمنية تكفي لهٰذه (الدورة) العملية على التحصُّن من هٰذه المنزَلقات ، وعلى التدرُّج في تلك الكمالات : المخاصَم يحفظ نفسه ويترفع بها عن مقابلة السيئة بسيئة ، فيذكِّر نفسه بأنه صائم ، ويذكِّر مخاصِمَه أيضاً بأن كليهما في صيام وحبس نفسٍ عن شهوتي البطن والفرج ، وبأنهما في صيام ، والصيام جُنَّة ووقاية من عذاب الله وناره الجهنمية ، فلا يليق بهما أن يخرقاها بالمُلاحاة والمخاصمة ، وقد كانت الملاحاة في ساعة من الساعات سبباً في حَجْب ليلة القدر .

روى البخاري ٤ : ٢٦٧ (٢٠٢٣) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحىٰ رجلان من المسلمين فقال : « خرجتُ لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحىٰ فلان وفلان فَرُفِعتْ ، وعسىٰ أن يكون خيراً لكم ، فالتمِسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » .

فحينما يقول الصائم المخاصَم : إني امرؤ صائم ـ ويكرره ، كما في

---

(١) بلسانه ، وبقلبه ، في صيام الفرض أو النفل ، وانظر « فتح الباري » .

بعض الروايات ـ يكون في قوله هٰذا تذكيرٌ لنفسه ، لتبقىٰ مستعصِمة برَزانتها وخُلُقها الحسن ، وتذكيرٌ لمخاصِمه ، ليكفَّ عن خصامه ، وإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، فإن لم يكفَّ يكون قد أظهر الصائمُ فضلَ صيامه ، وأنه هو السبب في اعتصامه بالسكوت ، وأن ترفُّعه عن مجاراة السفيه : من فضل تلبُّسه بعبادة الله تعالىٰ ، لا عن ضعف وجُبن .

فالصوم حاجز بين الصائم وبين آفات اللسان خاصة ، وبينه وبين الآفات المهلكات ـ المعاصي ـ عامة ، وهٰذا ما عبَّر عنه النبي صلوات الله وسلامه عليه : « الصيام جُنَّة » أي : وقاية تحُول بينه وبين الوقوع في الآثام عامة .

ومن جعل بينه وبين الآثام حائلاً : جنَّبه اللهُ تعالىٰ بفضله النارَ وعذابَها ، وعلىٰ هٰذا المعنىٰ جاءت الرواية الأخرى : « الصيام جُنَّة من النار كجُنَّة أحدكم من القتال » .

فالصيام جنَّة من الوقوع في المعاصي ، وجُنَّة من النار ، وقانا الله ذٰلك بفضله .

ومن قَبيل دفع التوهُّم والإشكال : قال القرطبي رحمه الله ٣ : ٢١٤ : « لا يفهم من هٰذا الشرط : أن غير يوم الصوم يباح فيه الرَّفَث والسَّخَب ، فإنهما ممنوعان على الإطلاق ، وإنما تأكَّد منعهما بالنسبة إلى الصوم » ، ذٰلك أن الإنسان يُفارق مألوفه في حال الصيام ، فهو في حالِ عُرْضةٍ لتغيُّر مزاجه ، فجاء التنبيه النبويُّ الكريم إلى التحفُّظ والتصوُّن ، وهٰذا هو الذي يُعينه على الدخول في سلك ذوي الأخلاق الكريمة ، وعلى الترقِّي والتدرُّج في كمالاتها .

أما خُلُوفُ فم الصائم : فقال القاضي عياض رحمه الله ٤ : ١١٢ :

« يجزيه الله في الآخرة ، حتىٰ تكون نَكْهَتُه أطيبَ من ريح المسك . . . ، وقيل : بل ينال صاحبها من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك عندنا . . . ، وقيل : يُعتدُّ بها وتُدَّخر علىٰ ما هي عليه أكثر مما يعتد بريح المسك لصاحبه ، وأيضاً فيكون رائحتها عند ملائكة الله أطيبَ من المسك ، وإن كانت عندنا نحن بخلافه . . . » .

وهٰذه الأطيبيَّةُ لريح خُلوف الصائم حاصلة في الدنيا وفي الآخرة ، جمعاً بين أدلة الإمام العز ابن عبد السلام الذي رجَّح أنها في الآخرة ، وأدلة الإمام ابن الصلاح الذي رجَّح أنها في الدنيا ، وإن كان قوله هنا : « . . . عند الله يوم القيامة » يؤيد قول ابن عبد السلام(١) .

ومن المقارنة بين قوله صلى الله عليه وسلم هنا : « **لخُلوف فم الصائم** أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك » ، وبين قوله الذي رواه البخاري في كتاب الجهاد ٦ : ٢٠ (٢٨٠٣) : « والذي نفسي بيده ، لا يُكْلَم أحدٌ في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة واللونُ لون الدم ، والريح ريح المسك » : من المقارنة بينهما ينتج أن رائحة خُلوف الصائم « أعظمُ من دم الشهادة ، لأن دم الشهيد شُبِّه ريحه بريح المسك ، والخُلُوف وُصف بأنه أطيب »(٢) ، ومع ذٰلك « فلا يلزم من ذٰلك أن يكون الصيامُ أفضلَ من الشهادة » ، فرائحةُ أثرِ عملٍ من الأعمال لا تقتضي أفضلية العمل .

ولماذا كان لهٰذه الرائحة تلك الأطيبية ؟ قال العلامة الفقيه ابن حجر الهَيْتَميُّ رحمه الله في « إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام »

---

(١) انظر « فتح الباري » ٤ : ١٠٦ (١٨٩٤) ، و« عمدة القاري » ٩ : ٩ .

(٢) « الفتح » الموضع المذكور نفسه .

ص ٤١ ـ ٤٢ : « إما لكون صيامه سراً بينه وبين ربه في الدنيا ، فأحبَّ أن يظهره بإظهار أثره في الآخرة علانيةً للخلْق ، ليشتهر فضل الصوَّام ، وتمتاز مراتبهم ، وجزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا . . . ، وقيل : إنه إشارة إلىٰ أن مَن عَبَدَ الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل : ينشأ من عمله آثار مكروهة للنفس في الدنيا ، وهي محبوبة لله وطيبة عنده ، لأنها نشأت عن طاعته ، فإخباره بذٰلك للعالَمين في الدنيا فيه تطييب لقلوبهم ، لئلا يُكره منهم ما وجد في الدنيا » ، ثم أيَّد القول الأول .

ومما حكاه أن « عبد الله بن غالب أحدَ العُبَّاد المجتهدين في الصلاة والصوم ، فاح من تراب قبره رائحة المسك ، فرُئيَ في المنام فسئل عنها ؟ فقال : تلك رائحة التلاوة والظمأ » ، رحمه الله تعالىٰ .

وأما قوله « للصائم فرحتان . . . » : فقال النووي رحمه الله ٨ : ٣١ : « قال العلماء : أما فرحته عند لقاء ربه : فَبِما يراه من جزائه وتذكُّر نعمة الله تعالىٰ عليه ، بتوفيقه لذٰلك ، وأما عند فِطْره : فسببها تمام عبادته وسلامتها من المفسدات وما يرجوه من ثوابها » وانظر « الفتح » ٤ : ١١٨ .

كما أن من دواعي فرح الصائم عند فطره : إجابَةَ الله تعالىٰ دعاءه .

روى الترمذي أواخر : كتاب الدعوات ٩ : ٢٢٥ (٣٥٩٢) ـ وقال : حديث حسن ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم : الصائم حين يُفْطِر ، والإمام العادل ، ودعوةُ المظلوم يَرفعها الله فوق الغَمام ويَفتح لها أبواب السماء ويقول الربُّ : وعزَّتي لأَنصُرنَّك ولو بعدَ حين » .

هٰذا لفظ الترمذي : « الصائم حين يُفطر » ، أما لفظ الإمام أحمد ٢ : ٣٠٥ ، ٤٤٥ ، وابن ماجه (١٧٥٢) : « الصائم حتىٰ يفطر » أي : إن دعاءه

مستجاب ما دام صائماً ، فإذا أفطر توقفت الخصوصية ، ولا تعارض ، إنما هي زيادةٌ في الوقت الذي يستجاب فيه دعاء الصائم ، هل هو عند فطره فقط ، أو من أول صومه إلىٰ حين فطره ؟ والله أعلم . ونسأل الله أن يكرمنا بما هو أهله .

❋ ❋ ❋

٤٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : أحبُّ عبادي إليَّ : أعجلُهم فِطراً » .

٤٢ ـ تخريجه : رواه الترمذي : كتاب الصوم ـ باب ما جاء في تعجيل الإفطار (٧٠٠) وقال : حديث حسن غريب ، ورواه أحمد في « المسند » ٢ : ٣٢٩ ، وتضعيف المناوي له في « فيض القدير » ٤ : ٤٨٥ في غير محلِّه[١] .

معناه : يخبرنا الله عز وجل عن عباده الذين استجابوا لأمره بالصيام فصاموا ، وبالإفطار فأفطروا : أنهم كلَّهم أحبابُ الله تعالىٰ ، لٰكنْ أحبُّهم إليه مَن بادر إلى الفطر قبل غيره ـ بعد الاطمئنان إلىٰ غروب الشمس ـ .

ذٰلك أن في الإمساك وفي الإفطار معنىً عظيماً من معاني العبودية لله العظيم ، فمن أمسك : أمسك امتثالاً لأمر الله ، ومن أفطر : أفطر امتثالاً لأمره أيضاً ، فهو في كلتا الحالين متقلبٌ في الانقياد لأمر الله ، ممتثلٌ له ، عبدٌ بين يديه ، لسانُ حاله يناجي ربَّه : يا رب أمرتَني بالإمساك عن شهواتي البشرية ، فأنا ممتثل ، ثم إنك أذِنتَ لي ورغبتَ مني بتناولها : فأنا لك عبد مِطْواع ، مبادِر لأمرك ، أُحِبُّ أن تَراني حيث تحبُّ يا رب .

(١) وسبب وَهْمه في هٰذا الحديث وأمثاله : أنه كان عمل فِهْرِساً لأحاديث « ميزان الاعتدال » و« لسان الميزان » ، فكان يكشف فيه عن الحديث ، فيجده فيه ، فينقل كلام الذهبي أو ابن حجر في الراوي الذي ذكر الحديث في ترجمته ، ظناً منه رحمه الله أن هٰذا الراوي مذكور في سند من عزا السيوطيُّ الحديثَ إلىٰ كتابه ، وقد يكون الأمر كذٰلك ، وقد لا يكون ، كما هو الحال في حديثنا هٰذا ، فإن الذهبي ذكره في « الميزان » ٤ : ١١٠ في ترجمة مسلمةَ بن عُلَي الخُشَني أحدِ الضعفاء .

فلهٰذا المعنىٰ كان أحبَّ عباد الله الصائمين أعجلُهم فطراً . والله أعلم .

يضاف إلىٰ هٰذا الملحظ : مخالفةُ المسلمين لليهود والنصارىٰ ، إذْ يؤخرون فِطرهم ، كما صحَّ عند أبي داود (٢٣٤٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناسُ الفِطر ، لأن اليهود والنصارىٰ يؤخرون » .

وهٰذه الأمة المحمدية هي أحبُّ الأمم إلى الله تعالىٰ ، بفضل نبيها الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأحبُّهم إلى الله من كان ممتثلاً لأوامره ، مخالفاً لليهود والنصارىٰ ، وَلْينظر المسلم العاقل لأمر دينه ، الفاهمُ عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم : ما في سلوك مسلك اليهود والنصارىٰ من أضرار وعواقب وخيمة : « لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناس الفِطْر » ، فكيف بالتشبُّه بهم في أمور وأمور هي أشدُّ خطراً وضرراً !! .

❋ ❋ ❋

من أحاديث الحج

٤٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يومٍ أكثرَ من أن يُعتقَ الله فيه عبداً من النار : من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ، ثم يُباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هٰؤلاء ؟ » .

٤٣ ـ تخريجه : رواه مسلم في « صحيحه » : كتاب الحج ـ باب في فضل يوم عرفة ٢ : ٩٨٣ (٤٣٦) .

غريبه : « من » الأولىٰ والثانية : زائدتان ، والثالثة : متعلقة بـ « يعتق » والرابعة : متعلِّقة بـ « أكثر » ، و« ما » التي في أول الحديث تميمية ، أو حجازية تعمل عمل ليس .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف ترغيب إلٰهي عظيم ، بالتعرُّض لهٰذا الفضل العميم ، في ذٰلك اليوم المبارك ، فإنه أمنيَّة كلِّ مسلم يخشىٰ عذاب الله .

ذاك اليوم هو يوم عرفة ، يوم التجلِّي الإلٰهي بالمغفرة والغفران ، والرضا والرضوان ، بالمغفرة العامة لكل من أكرمه الله تعالىٰ فشهد ذٰلك المشهد الذي لا يفوقه مشهد سواه بخشعته وهيبته ، وجلاله وعظمته .

يوم تتَّصل فيه القلوبُ المتجرِّدة بخالقها ، وأصواتُ الحناجر الصاخبة بالسماء ، منادية مناجية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والمُلك ، لا شريك لك ، تكرِّر هٰذه المناجاة التي فيها

الاستجابة لنداء الله لهم : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ الحج : ٢٧ ، لعل الله يستجيب لهم .

فالعباد : استجابوا لنداء الله لهم ، وقالوا له : لبيك ربَّنا وسَعْديك ، والخير كلُّه بيديك ، ونحن نرجوك من هٰذا الخير العظيم ، فإنه لا يَملِكه أحدٌ سواك ، فأنلْنا منه يا ربنا ، فحينئذ يتعطَّف المولى الكريم علىٰ عباده ، ويُكرم جُؤَارهم ـ صُراخهم بالتلبية ـ ودعاءَهم ، ويرحم غربتهم وفراقهم للأهل والولد والوطن ، وبُعدهم عن أسباب الراحة المعتادة لهم ، فيتجلَّىٰ عليهم بالمغفرة العامة الشاملة ، ويُعتقهم من ناره ، فإن الله أرحم بعبيده أن يَجمع عليهم خوفَه في الدنيا ، وخوفه من عذابه في الآخرة .

ومَن أصبح مغفوراً له مُعتَقاً من النار : فقد شابَهَ الملائكةَ الكرام ، علىٰ ما رُكِّب فيه من الصفات البشرية الأرضية ، لذٰلك يكرمه الله عز وجل بمباهاة ملائكته به ، وبقوله لهم : انظروا إلىٰ هٰؤلاء العباد ، إنهم علىٰ ما هم عليه من العالم الأرضي ، المركَّب من نوازع الخير والشر ، قد أقبلوا عليَّ ، وتجردوا لي ، خائفين راجين ، ضارعين باكين ، معترفين آملين . . . أشهِدكم يا ملائكتي أني قد غفرتُ لهم ما كان منهم ، فإني أكرمُ من أنْ أردَّ سائلاً ! .

فقوله في الحديث : « إنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة . . . » : اعتبره الإمام النووي رحمه الله روايةً مختصَرة من رواية عبد الرزاق في « مصنفه » (٨٨٣٠) عن ابن عمر ، وهو حديث طويل ، محلُّ الشاهد منه : قوله صلى الله عليه وسلم لرجل أنصاري جاء يسألُه عما أعدَّه الله للحاج يوم عرفة : « وأما وقوفك بعرفة فإن الله تبارك وتعالىٰ ينزل إلىٰ سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول : هٰؤلاء عبادي جاؤوا شُعْثاً غُبْراً من كل فجٍ عميق ، يرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ، ولم يروني ، فكيف لو رأوني ؟ فلو كان عليك ـ الخطاب

للأنصاري ـ مثلُ رملِ عالجٍ(١) ، أو مثل أيام الدنيا ، أو مثل قطر السماء ذنوباً : غَسَلها الله عنك »(٢) .

فقوله « ما أراد هٰؤلاء » : سؤال منه للعطاء ، لا للعلم ، فإنه أعلم من كل إنسان بنفسه ، سبحانه وتعالىٰ ، يسأل ملائكته عما يريد هٰؤلاء العباد لِيُعْلِمَهم بأنه جل جلاله سيعطيهم سُؤلهم ويزيدُهم من فضله .

وهل عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة يتناول (المظالم) أي : حقوق العباد فيما بينهم ؟

والجواب : أن المقام مقام كرم وتفضُّل ، وإحسان وامتنان ، فلا يليق

---

(١) قال في « المصباح المنير » : « رمل عالج : جبالٌ متواصلةٌ يتصل أعلاها بالدَّهناء ـ والدهناء بقرب اليمامة ـ وأسفلها بنجد ، ويتَّسع اتساعاً كثيراً ، حتىٰ قال البكري : رمل عالج يحيط بأكثر أرض العرب » .

(٢) لٰكنْ شيخ عبد الرزاق فيه : ابن مجاهد ، وهو عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر المكي ، وهو ضعيف بل اتُّهم ، كذَّبه الثوري .

إنما جاء هٰذا اللفظ تقريباً من رواية ابن عمر أيضاً عند البزار والطبراني في « المعجم الكبير » ، قال الهيثمي في « المجمع » ٣ : ٢٧٥ : « رجال البزار موثَّقون ، وقال البزار : قد رُوي هٰذا الحديث من وجوه ولا نعلم له أحسن من هٰذا الطريق » ، وهو في « صحيح » ابن حبان بلفظ قريب منه جداً ، وصححه المنذري في « الترغيب » ٢ : ٢٠٥ ثم انظر أول صفحة ٢٠٧ منه .

ثم ذكره أيضاً من رواية أنس عند البزار وقال : « فيه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف » .

ثم ذكر رواية عبادة بن الصامت وعزاها إلى الطبراني في « الأوسط » وقال : « فيه محمد بن عبد الرحيم ابن شَرْوَس ، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، ومَن فوقه موثقون » .

وقريب منه رواية جابر التي رواها ابن حبان في « صحيحه » وعزاها المنذري في « الترغيب » ٢ : ٢٠٠ إلىٰ أبي يعلىٰ والبزار وابن خزيمة أيضاً . فلا أقلَّ من تحسين الحديث ، وكان الأولىٰ ذكر رواية هٰؤلاء لا رواية عبد الرزاق .

السؤال والاستفصال ، وتعلُّقُ العبدِ المذنب بعموم ذلك أولىٰ ، وكما أن صاحب الحق يتمنَّىٰ أن لا يكون ذلك حينما يكون الحق له ، لكنه يتمناه حينما يكون الحق عليه .

وأيضاً : قد جاء التصريح بمغفرة المظالم في حديث العباس بن مِرداس الآتي عقب هٰذا الحديث ، نسأل الله من فضله أن يوفقنا لذلك ولا يحرمنا منه ، إنه جواد كريم .

* * *

٤٤ ـ عن العباس بن مِرْداس السُّلَمي رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيَّة عرفةَ بالمغفرة والرحمة ، فأكثرَ الدعاءَ ، فأجابه الله عز وجل : « أنْ قد فعلتُ ، وغفرتُ لأمتك إلا مَن ظَلَمَ بعضُهم بعضاً » ، فقال : يا رب إنك قادر أن تغفِر للظالم وتُثيبَ المظلوم خيراً من مَظْلِمَته » ، فلم يكن في تلك العشيَّة إلا ذا .

فلما كان من الغدِ دعا غداةَ المُزدَلِفةِ ، فعاد يدعو لأمته ، فلم يَلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن تبسَّم ، فقال بعض أصحابه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ضحكتَ في ساعة لم تكنْ تضحكُ فيها ، فما أضحكك ؟ أضحك الله سنَّك ! قال : « تبسَّمتُ من عدوِّ الله إبليسَ حين علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي وغفر للظالم ، أهْوَىٰ يدعو بالثُّبور والوَيْل ، ويَحْثو الترابَ علىٰ رأسه ، فتبسَّمتُ مما يصنعُ من جَزَعه » .

٤٤ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه في « سننه » : كتاب المناسك ـ باب الدعاء بعرفة (٣٠١٣) ، وعبد الله ابن الإمام أحمد في « زوائد المسند » لأبيه ٤ : ١٤ ، واللفظ له ، ورووىٰ منه أبو داود طَرَف : « أضحك الله سِنَّك » (٥١٩٢) ، وقد قوَّى الحديثَ الحافظُ ابنُ حجر في « القول المسدَّد » ص ٤٤ ، ثم أفرد الكلام عليه في رسالة لطيفة سماها « قوَّة الحِجاج في عموم المغفرة للحُجَّاج » . وانظر : « الترغيب » للمنذري ٢ : ٣٠٢ .

غريبه : غَداةَ المزدلفة : صباح يوم مزدلفة ، وهو صبيحة يوم النحر .

أهوىٰ : أسرع وتعجَّل .

الثُّبور : هلاك فيه معنى الدوام والاستمرار ، مأخوذ من (المثابرة) كما نبَّه إليه الراغب الأصفهاني في « مفردات القرآن » ، فعطفُ (الويل) عليه من عطف العام على الخاص .

معناه : في الحديث : بيانُ رأفةِ النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته بمن يُكرمه الله تعالىٰ بالحج والوقوف بعرفة ، فقد اجتهد في الدعاء لهم الوقتَ الطويلَ ليضمنَ لهم تفضُّل الله تعالىٰ عليهم بالمغفرة العامة ، وهم علىٰ مدار السنين ومواسم الحج كُثُر ، والحمد لله .

دعا لهم مساءَ عرفةَ كثيراً وكثيراً ، فاستجاب الله تعالىٰ له أن يَغفِر لهم كلَّ ما اقترفوه ، إلا ما كان من ظُلْم بعضهم بعضاً ، أي : إلا ما كان من حقوقٍ لبعضهم علىٰ بعض (المظالم التي بينهم) ، فإن الله تعالىٰ أوقف ذٰلك .

فكان من رأفته صلى الله عليه وسلم ورحمته ـ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ـ أنْ عاد إلىٰ دعاء ربه ، وهو يعلم كرمه وفضله ورحمته بعباده ، ويعلم أيضاً أن رأفته ورحمته بالمؤمنين إنما هي مستمدَّة من رأفة الله تعالىٰ ورحمته ، فعاد الدعاءُ والإلحاح ، وإن الله يحبُّ من عبده الإلحاح في الدعاء .

وقال : يا رب إنك قادر أن تغفر لهٰذا الظالم ، وقادر أن تُرضي مظلومَه عنه فتثيبَه خيراً من حقِّه الذي له علىٰ ظالمه ، وذٰلك بأن تُعطيه « من الجنة » ما يشاء ، كما جاء في رواية ابن ماجه ، فيكون فضلك قد عمَّ الطرفين : الظالمَ والمظلوم ، يا رب فاغفر ، فاغفر يا رب .

فلم يكنْ من الله الكريم إلا أنْ أجابَ دعاءَ حبيبه الذي سماه في قرآنه الخالد : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة : ١٢٨ ، فصلوات الله تعالىٰ

وسلاماته عليه ، وجزاه الله عنا أفضل ما جزىٰ نبياً عن أمته ، كم أسدىٰ إلينا من الخيرات والمكرمات .

فكان من ذٰلك الفضلِ الإلـٰهي : سرورُ حبيبه وضَحِكُه ، وغضبُ إبليسَ وجَزَعُه .

وبهـٰذا يجاب عما أورده بعضهم على الحديث ـ وأعلَّه به ـ هو : أن في هـٰذا الحديث تصريحاً بمغفرة الله لحقوق العباد ، وهـٰذا لا يكون إلا بأدائها لأصحابها أو بالتحلُّل منهم ، والجواب : هو أن الله عز وجل هو الذي سيؤدي هـٰذا الحقَّ لصاحبه بإرضائه ، فلا يُلغىٰ حق ، ولا يموت حق ، ولا يَسقط الحق قائم ، والله تعالىٰ هو الذي يؤديه ، وهـٰذا التكفُّل من الله لأداء حق العبد لون من ألوان إكرام الله لمن وقف الموقف الكريم .

اللهم فأكرِمْ سيدَنا محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته بالأخذ بناصيتها إلىٰ كلِّ خير دنيا وآخرة .

ولما كان ضحكُ النبي صلى الله عليه وسلم في وقتٍ ويوم لا يناسبُه إلا الخضوع والدموع عَجِبَ بعض الصحابة من ذٰلك ، وسُمُّوا في رواية ابن ماجه : أبا بكر وعمر ، فكان الجواب بالبشارة بنتيجة ذاك الخضوع وتلك الدموع : إن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي وغفر للظالم ، وأما التبسم : فلأن الله أخزىٰ إبليس ، وراح اللعينُ يدعو علىٰ نفسه بالهلاك الدائم ، ويحثو علىٰ رأسه التراب .

فالحمد لله علىٰ ما أنعم به وتفضَّل ، وصلَّى الله وسلَّم علىٰ سيدنا محمد رحمةِ الله المهداة .

* * *

من فضائل الجهاد والمجاهدين

٤٥ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا مَرْثَدٍ والزبيرَ ـ وكلُّنا فارس ـ قال : « انطلقوا حتىٰ تأتوا روضةَ خاخٍ ، فإن بها امرأةً من المشركين معها كتابٌ من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين » فأدركناها تسير علىٰ بعير لها حيثُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : الكتابَ ، فقالت : ما معنا كتاب ، فأنخْناها ، فالتمسْنا ، فلم نرَ كتاباً ، فقلنا : ما كذبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتُخرِجنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدَنَّكِ ، فلما رأتِ الجِدَّ أهوتْ علىٰ حُجْزَتها ـ وهي محتجِزةٌ بكساء ـ فأخرجته ، فانطلقنا بها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسولَه والمؤمنين ، فدَعني فلأضربْ عنقه ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما حملكَ علىٰ ما صنعتَ ؟ » قال حاطب : والله ما بي أن لا أكونَ مؤمناً بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أردتُ أن تكونَ لي عند القوم يَدٌ يدفعُ الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك مِن عشيرته مَن يدفعُ الله به

عن أهله وماله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق ، ولا تقولوا له إلا خيراً » ، فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدَعني فلأضرب عنقه ! فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » ، فقال : « لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال : اعملوا ما شِئتم فقد وجبتْ لكم الجنة » أو : « فقد غفرتُ لكم » ، فدمعتْ عينا عمر وقال : الله ورسولُه أعلم .

٤٥ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواطن عدَّة من « صحيحه » ، منها هٰذا اللفظ في كتاب المغازي ـ باب فضل من شهد بدراً ٧ : ٣٠٤ (٣٩٨٣) ، وأطال الحافظ في شرح الحديث في كتاب استتابة المرتدين ـ باب ما جاء في المتأوِّلين ١٢ : ٣٠٤ (٦٩٣٩) ، ورواه مسلم في فضائل الصحابة ـ باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر رضي الله عنهم ٤ : ١٩٤١ (١٦١) .

غريبه : الحُجْزَة : موضع مَعْقِد الإزار .

يدٌ : صنيعة ومعروف .

وروضة خاخ : موضع يبعد عن مسجد الغمامة ـ الذي بجوار الحرم النبوي الشريف ـ ١٨ كيلو متراً ، جنوباً .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف عَلَمٌ من أعلام النبوة ، أظهره الله عز وجل في هٰذه المناسبة ، لسلامة جيش الإسلام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم .

ومَنْقَبةٌ وبشارةٌ لطائفة من الصحابة أكرمهم الله عز وجل في أول موقعة كانت بين جيش الحق ، وجيش الباطل ، هي موقعة بدر الكبرىٰ .

حاطبُ بن أبي بلتعة صحابيٌّ جليل كان واحداً من جيش الإسلام يوم بدر ، عَرَض له ضعفٌ ممزوجٌ بحسن نيَّة ، فعذَره الله تعالىٰ علىٰ لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنه مغفور له ، ولم يكن عذرُه ومغفرتُه مانعاً من أن يلقِّن الله عز وجل للمسلمين درساً في الوَلاء والبَراء .

قال حاطب ـ كما في رواية للبخاري ٧ : ٥١٩ (٤٢٧٤) ـ : يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ ، إني كنت امرأً مُلْصقاً في قريش ـ أي : حليفاً لا أصيلاً فيهم ـ ولم أكنْ مِن أنفسها ، وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم بها قراباتٌ يَحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببتُ إذْ فاتني ذٰلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمُون قرابتي ، ولم أفعلْه ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فهٰذا عذره .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أما إنه قد صدقكم . . . ، لعل الله اطلعَ علىٰ مَن شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فهٰذه مغفرةُ الله له .

فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الممتحنة : ١ ، فهٰذا هو الوَلاء والبَراء .

وفي الحديث الشريف درسٌ عظيمٌ لكل مسلم يتلقَّنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ومن كان علىٰ هَدْيهم من الصادقين المصدِّقين ـ .

عليٌّ والزبيرُ وأبو مرثد ـ وفي رواية : والمقداد ـ أربعةٌ رضي الله عنهم ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امرأة معها كتابٌ من حاطب ، فأدركوها » ، فسألوها الكتاب فأنكرتْ ، فعارض إنكارُها خبرَ رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، ولا ريبَ أنهم سيقدِّمون خبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لٰكنهم فتَّشوها ، فلم يجدوا شيئاً ، فاعتضد إنكارُها ببحثهم وتفتيشهم ، ومع ذٰلك فإنهم وَثِقوا بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلىٰ سواه : « فقلنا : ما كذبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتُخرِجِنَّ الكتاب أو لَنجرِّدنَّكِ » ، فكان في أنفسهم من الثقة بكلام النبي عليه الصلاة والسلام فوق ما يقولُه غيره ، أو يَصِلون إليه من العلم بالبحث عنه من قِبَلِهمْ وبأنفسهم ! .

ولا يقال : كيف يكرِّر عمر علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان بضَرب عُنُق حاطب ، وقد أعلمه بصدْقه ، لأن الأمر كما قال ابن حجر ١٢ : ٣٠٩ : « ظنَّ ـ عمر ـ أن صِدقَه في عذره لا يدفعُ ما وجب عليه من القتل » فصدْقُه يغفر ذنبه عند الله تعالىٰ ، أما خيانتُه فعقوبتُها الدنيوية القتل ، هٰكذا ظن رضي الله عنه .

وهٰذه الثقة منهم لها من الشواهِد الأخرىٰ والمواقف شيءٌ كثير من أخبار الصحابة رضي الله عنهم .

أما من أخبار مَن كان علىٰ سُنَّتهم وهديهم : فكذٰلك لها مواقفُ كثيرة ، وأذكُر منها شاهداً واحداً .

روىٰ سيدنا عثمانُ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من عبدٍ يقول في صباحِ كلِّ يوم ومساءِ كلِّ ليلة : بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ـ ثلاث مرات ـ : لم يضرَّه شيء » .

ورواه عن عثمان ابنُه أبانُ بنُ عثمان بن عفان ، ومرةً كان أبانُ يحدِّث

بهٰذا الحديث الراويَ الشهيَر بلقبه : أبا الزِّناد ، وكان أبان قد أصابه فالج ـ عافانا الله ـ فجعل أبو الزناد ينظُر إليه ، كأنه يقولُ له : كيف أُصِبتَ بالفالج ، وأنت تروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لم يضرَّه شيء » ؟! .

فقال له أبان : ما لكَ تنظرُ إليَّ ؟! أما إن الحديثَ كما حدَّثتك ، ولٰكني لم أقُله في ذٰلك اليوم ، ليُمضيَ الله عليَّ قدره ، هٰذه رواية الترمذي (٣٣٨٨) وقال : حسن غريب صحيح .

ولفظُه عند أبي داود (٥٠٤٧) : ما لكَ تنظُر إليَّ ، فوالله ما كذبتُ علىٰ عثمانَ ، ولا كذب عثمانُ على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولٰكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبتُ ، فنسيتُ أن أقولَه .

وإذا كان عثمان لم يكذبْ علىٰ رسول الله ، فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الصادقُ المصدوق على الله وعن الله ، فقوله وخبره حقٌّ وصدقٌ وحقيقة ، فيجب أن يُؤخَذ بالاستسلام والتسليم .

فانظر ثقتهم بإخبارات رسول الله ، ورضي الله عنهم ، ولنتأسَّ بهم .

ويتصلُ بهٰذا : موقفُ عمر رضي الله عنه آخرَ الحديث ، إنه قال عن حاطب : قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنين ، وهٰذا كلامٌ لا يقال إلا بعد قناعةٍ تامةٍ بما في قرارة النفس ، فلما قال له صلى الله عليه وسلم : « أليس من أهل بدر ، لعل الله اطَّلع علىٰ أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم . . . ؟! » اغرورقت عيناه ، وانقشَعَ ما في نفسه من تلك القناعة التي استحلَّ بها دمَه ـ ولا أعزَّ من هٰذا ولا أشدَّ حرمةً من دم المرء ـ واستسلم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : الله ورسوله أعلم من علمي وقناعتي ، فلأُقلعْ عما في نفسي إلىٰ ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلُ اعتذار حاطب لا يُزيل تُهَمةً ، ولا يُزيحُ الشك عنه في مثل هٰذا

الموقفِ الخطير ، أيامَ تجهيزِ عشرةِ آلافِ مقاتلٍ لفتح مكة ، فيكتبُ كتاباً يُفْشي فيه سرَّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم العسكريَّ ، فلو لم يكن الوحيُ صدّق حاطباً لما صدَّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « صدق ، ولا تقولوا له إلا خيراً »(١) .

ونصُّ كتاب حاطب إلىٰ قريش : « أما بعد ، يا معشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش كالليل ، يسير كالسَّيل ، فوالله لو جاءكم وحدَه لنصره الله وأنجز له وعدَه ، فانظروا لأنفسكم ، والسلام »(٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر » قال فيه الحافظ في « الفتح » ٧ : ٣٠٥ (٣٩٨٣) : « قال العلماء : إن الترجِّي ـ يعني كلمة : لعل ـ في كلام الله وكلام رسوله للوقوع ـ أي : تفيد الوقوع والجزم ـ ، وعند أحمد وأبي داود وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة بالجزم ، ولفظه : « إن الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وعند أحمد بإسناد علىٰ شرط مسلم ، من حديث جابرٍ مرفوعاً : « لن يدخُلَ النارَ أحدٌ شهد بدراً »(٣) .

---

(١) كونُ هـٰذا التصديقِ كان منه صلى الله عليه وسلم عن وحي : أحد احتمالين ذكرهما ابن حجر ١٢ : ٣٠٨ (٦٩٣٩) ، والاحتمال الأول : « أن يكون صلى الله عليه وسلم عرف صدقه مما ذَكَر » . وهـٰذا أبعدُ عندي ، وذاك أقربُ وأرجحُ ، إن لم يكن هو المتعيِّن . والله أعلم .

(٢) « فتح الباري » ٧ : ٥٢١ (٤٢٧٤) .

(٣) الحديث الأول عند أحمد ٢ : ٢٩٥ ، وأبي داود (٤٦٢٢) عن شيخيه موسى بن إسماعيل وأحمد بن سنان ، ولفظ موسىٰ : فلعل الله ، ولفظ ابن سنان : اطلع الله ، وأما الحديث الثاني : فهو عند أحمد ٣ : ٣٩٦ بلفظ : « لن يَدخُلَ النارَ رجلٌ شهد بدراً والحديبية » . وروىٰ مسلم ٤ : ١٩٤٢ (١٦٢) عن جابر أن عبداً لحاطب جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطباً ، فقال : يا رسول الله ليدخلنَّ حاطبٌ النارَ ! فقال =

فهٰذا يؤيد جعلَ الحديث قدسيّاً .

ولا بدَّ من التنبيه لصحة فهم الحديث : أن الله تعالىٰ قد غفر لأهل بدر ـ والحديبية ـ ما فَرَطَ منهم من حقوق الله عز وجل ، أما ما كان منهم من أمور تتعلق بحقوق العباد فحقوق العباد لا تسقط إلا بإسقاطهم ، وتبقى المؤاخذة الإلـٰهية مغفورة لهم .

قال الحافظ في « الفتح » ٧ : ٣٠٦ (٣٩٨٣) : « واتفقوا علىٰ أن البشارة المذكورة : فيما يتعلّق بأحكام الآخرة ، لا بأحكام الدنيا ، من إقامة الحدود وغيرها » .

وقال ١٢ : ٣١٠ (٦٩٣٩) : « وقد استُشْكِلتْ إقامةُ الحدِّ علىٰ مِسْطَح بقذف عائشة رضي الله عنها ، كما تقدَّم مع أنه من أهل بدر ، فلم يُسامَح بما

= رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذبتَ ، لا يدخلها ، فإنه شهد بدراً والحديبية » ، وكأن هـٰذه الرواية أصل رواية « المسند » ؟ .

ومع هـٰذه التبرئة لحاطب رضي الله عنه من قِبَل الوحي ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله فيه : « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً » ، ومع هـٰذا الإكرام الإلـٰهي لحاطب ولكل من شهد بدراً بالمغفرة والصفح عنهم رضي الله عنهم ، مع كل هـٰذا يأتي المستشرق الكافر الغيور على الإسلام (!!) فرانز روز نثال ويقول معلقاً علىٰ كلام الحافظ السخاوي رحمه الله في « الإعلان بالتوبيخ » ص ١١٨ ـ وقد أشار إلىٰ هـٰذا الحديث ـ فيقول المستشرق : « أما عن خياناته فانظر . . . » ، فما اكتفىٰ حقده بقوله : أما عن خيانته ـ وأستغفر الله ـ بل قال : خياناته !! .

وأحبُّ أن أقول لكل غيور علىٰ دينه ، حريص علىٰ ثقافته الدينية أن تكون صافية نقية : إذا كان هـٰذا المستشرق الكافر يستغلُّ هـٰذه المناسبة ـ مع وضوحها ـ ليفرز سمومه نحو هـٰذا الصحابي الكريم ، فكيف ستكون إفرازات سمومه وسموم أمثاله نحو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في سيرتهم ومواقفهم كلها طوال قرن كامل ، ثم نحو تاريخ الإسلام بكامله ، والله تعالىٰ يقول لنا : ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران : ١١٨ .

ارتكبه من الكبيرة ، وسُومح حاطب ، وعُلِّل بكونه من أهل بدر ؟ **والجواب** : ما تقدم في باب فضل من شهد بدراً ـ ٧ : ٣٠٦ ـ أن محل العفو عن البدري في الأمور التي لا حدَّ فيها » ، وأصلُ هٰذا في « شرح مسلم » للقاضي عياض ٧ : ٥٣٩ ، والنووي ١٦ : ٥٦ .

وفي الحديث أيضاً من الدروس والعِبَر ما يحتاجُه كلُّ مسؤول ، من رئيس وسلطان وقائد ونحوهم ، وهو أن لا يُؤخذ ويتأثَّر بكلام مَن حوله ، ولو كان مِن البِطانة الصالحة ، ولو كان في مواقفَ صعبةٍ حرِجة ، بل عليه بالتثبُّت والتأني واستبانة ما وراء الأمور بنفسه ، وإلا فإن الخطأ منه قريب ، وقد لا يمكنه تدارك الخطأ .

يستفاد هٰذا من موقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الحكيم ، والقائد الرشيد :

رجل يُفشي سرَّه العسكري ، ونحن نعلم حرصه الشديد صلى الله عليه وسلم في الأمور العسكرية ، وحديث كعب بن مالك معروف يوم تخلَّف عن غزوة تبوك ، وقوله في أوله : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوةً إلا ورَّىٰ بغيرها ، فكيف بهٰذا الموقف !! إنها إساءة كبيرة ، وذنبٌ فادحٌ لا يحتملُه أيُّ قائد كان ، فهو بحدِّ ذاته لا داعيَ فيه أن يُثارَ القائدُ من أحدِ أفراده ليقول له : اقتلْه : أو : دَعْني لأقتلَه ، بل يكفي اعترافُ فاعلِه علىٰ نفسه أنه فعله ، ليقتلَه القائد بنفسه ، أو يأمر بقتله .

ولٰكنَّ رسولَ الله القائدَ المعلِّمَ المشرِّع لم يفعل ذٰلك ، ولم يتأثَّر بكلمةِ عمر وتقديمه نفسه لقتل حاطب ، بل قال : « ما حملك علىٰ ما صنعتَ ؟ » .

فهٰذا هو درسُ التثبُّت في المواقف الحرِجة ـ بَلْهَ مواقفَ السِّلم ـ وهٰذا

درس التعقُّل وعدم الانسياق مع كلام الآخرين وإن كان من المقرَّبين ومن البطانة الصالحة كعمر رضي الله عنه .

ولا علاقةَ هنا لكون رسول الله صلى الله عليه وسلم مسدَّداً مؤيَّداً بالوحي ، فالوحيُ بعد التثبُّت ، وبعد إظهارِ حاطبٍ عذرَه . والله أعلم .

نسأل الله تعالى السداد في الأمور كلها بمنِّه وكرمه .

* * *

٤٦ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يَحْكيه عن ربِّه عزَّ وجلَّ ، قال : « أيُّما عبدٍ من عبادي خَرَجَ مُجاهداً في سبيل الله ابتغاءَ مَرْضاتي : ضَمِنْتُ له أن أُرْجِعه ـ إنْ أرجَعْتُه ـ بما أصابَ من أجرٍ أَوْ غنيمة ، وإنْ قَبَضْتُه غفرتُ له وَرَحِمْتُه » .

٤٦ ـ تخريجه : رواه النسائي : كتاب الجهاد ـ باب في ثواب السَّرية التي تُخفق ٦ : ١٨ (٣١٢٦) ، ونحوه في « صحيح » مسلم : كتاب الإمارة ـ باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ٣ : ١٤٩٥ (١٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تضمَّن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجُه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسُلي : فهو عليَّ ضامنٌ أن أدخِلَه الجنة ، أو أرْجِعَه إلىٰ مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . . . » ، ونحوه لفظ البخاري ١ : ٩٢ (٣٦) وواضح ما فيه من جُمَلٍ لفظُها حديثٌ قدسي ، لـٰكنْ روايةُ النسائي صريحة فاعتمدتُها .

معناه : الحديثُ في لون آخر من ألوان أجر المجاهدين ، فهو يحكي ما أعدَّه الله سبحانه للمجاهدين من أجر دنيوي وأخروي .

فالمجاهد : له إحدى الحُسْنيين : إما سلامةٌ ، وإما استشهادٌ .

فإن سَلِم ورجع إلىٰ أهله : رَجَع بأجر عظيم ذَخَره الله له يوم القيامة ، ورجع أيضاً بمغنَم من أرض المعركة ، والأجرُ العظيمُ يومَ القيامةَ محفوظٌ له مدَّخَر ، أما المغنم : فقد يكون مع الأجر ، وقد لا يكون ، ولـذلك جاء

بلفظ : أو غنيمة ، لا بلفظ : وَغنيمة ، علىٰ أنه جاء في حديث آخر عند أبي داود (٢٤٨٦) عن أبي أمامة الباهلي مرفوعاً : « . . . رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله فهو ضامنٌ على الله حتىٰ يتوفاه ، فيدخلُه الجنة أو يردُّه بما نال من أجر وغنيمة »[١] .

وإن استُشهد : قَدِم على الله تعالىٰ يوم القيامة مرحوماً مغفوراً له ، وكفىٰ ببارقة السيوف له فتنةً ، فلا يُعرَض علىٰ فتنة أخرىٰ بعدها ، وكلُّ مؤمن مضمون له الجنة ، بفضل من الله تعالىٰ ، لٰكنْ قوله في الروايات الأخرىٰ : « فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة » : أي مع أول الداخلين لها ؛ لأنه مغفور له ، فليس ثمة عَثَراتٌ أمامه تُعرقِل سرعةَ دخوله الجنة .

ويلاحظ في الحديث : أن الله تعالىٰ رتَّب هٰذا الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة لمن توفَّر في جهاده أمران : أن يكون جهاده في سبيل الله ، وأن يكون خالصاً لوجه الله وابتغاءِ مرضاته .

ويكون الجهاد في سبيل الله : إذا كان لإعلاء كلمته سبحانه .

روى البخاري ٦ : ٢٧ (٢٨١٠) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : الرجلُ يُقاتِل للمغنم ، والرجل يقاتل للذِكْر ، والرجل يُقاتل لِيُرىٰ مكانُه ، فمَنْ في سبيل الله ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام جواباً عاماً وقاعدةً عامةً : « من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا : فهو في سبيل الله » .

ويكون خالصاً لوجه الله وابتغاء مرضاته : بأنْ لم تُشارِك نيةَ الجهاد في سبيل الله نيةٌ أخرىٰ .

---

(١) وانظر « الفتح » ٦ : ٨ (٢٧٨٧) .

روى النسائي في « سننه » (٣١٤٠) بإسناد جيد[١] إلىٰ أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيتَ رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذكْرَ ، ما لَه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيءَ له » ، فأعادها ثلاثَ مراتٍ يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصاً وابتُغي به وجهُه » .

وفي قوله آخر الحديث : « وإن قبضتهُ غفرت له ورحمته » : بشارتان : المغفرة ، وهي أن يستر الله عليه ذنوبه فلا يفضحه بها علىٰ مشهد الخلائق في ذاك اليوم الرهيب ، ويلزم من ذٰلك : تجاوز الله تعالىٰ عنها ، والثانية : أن يكرمه الله بإعطائه كلَّ ما يحبُّ عبده من الخيرات والمَحَابّ ، وكفاه بذٰلك فضلاً .

❋ ❋ ❋

(١) وعزاه المنذري في « الترغيب » ١ : ٥٥ ، ٢ : ٢٩٨ ، والحافظ في « الفتح » ٦ : ٢٨ (٢٨١٠) إلىٰ أبي داود أيضاً ، ولم أره فيه ، وانظر « فيض القدير » للمناوي ٢ : ٢٧٥ .

٤٧ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتَىٰ بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله عز وجل : يا بن آدم كيف وجدتَ منزِلك ؟ فيقول : أيْ ربِّ خيرَ منزل ، فيقول : سَلْ وتمَنَّ ، فيقول : أسألُك أن ترُدَّني إلى الدنيا فأقتلَ في سبيلك عَشْرَ مراتٍ ، لِمَا يَرَىٰ من فضل الشهادة » .

٤٧ ـ تخريجه : رواه النسائي : كتاب الجهاد ـ باب ما يتمنَّىٰ أهل الجنة (٣١٦٠) .

معناه : في هٰذا الحديث إعلانٌ من الله عز وجل لفضل الشهادة في سبيله عن طريق الحِوار مع رجل من أهل الجنة ، ولم يُوصَف في الحديث بأن هٰذا الرجل من زمرة الشهداء ؛ فمن المحتمل : أن يكونَ منهم ، فيكونَ سؤاله اللهَ تعالىٰ أن يردَّه إلى الدنيا سؤالَ من ذاق كرامة الشهادة ، فلذٰلك يطلُبها أن تتكرر له عشر مرات ـ ولربما كان العدد هنا غير مراد ، بل للكثرة ـ .

ومن المحتمل : أن يكون الرجل ليس منهم ، إنما سأل ذٰلك لِمَا رآه من إكرام الله عز وجل للشهداء ، فأحبَّ أن يُردَّ إلى الدنيا ليُقاتِلَ في سبيل الله فيقتلَ ، ثم يردَّ ثانية وثالثة ، وهٰكذا ، ليتكرر له تذوقُ فضل الشهيد[1] .

---

(١) ذكر هٰذين الاحتمالين السنديُّ رحمه الله تعالىٰ في « حاشيته » علىٰ « سنن » النسائي . ويُضْعِفُ الاحتمالَ الثاني حديث البخاري ٦ : ٣٢ (٢٨١٧) ، ومسلم ٣ : ١٤٩٨ (١٠٩) عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من أحدٍ يدخلُ الجنة يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء ، غيرُ الشهيد ، فإنه يتمنىٰ أن يَرجعَ فيقتلَ عشر مرات ، لِمَا يرىٰ من الكرامة » . فهٰذا الحصر الذي في قوله « ما من أحد . . . =

ومع أن منزلته التي هو فيها الآن في خير عظيم ، وقد شكر ربَّه عليها ، وقال له : إنها يا ربِّ خير منزل ، لٰكنه ظنَّ أن له مجالاً للرجوع إلى الدنيا التي بها يكون التزوُّد للدرجات العالية في الجنة ، فرغب إلى الله تعالىٰ أن يردَّه إلى الدنيا ليفوز فيها بالشهادة مرةً تِلْوَ مرةٍ ، وما ذٰلك إلا لِمَا يُريه الله تعالىٰ لأهل الجنة من فضل الشهادة والشهداء .

وفي حديث البخاري ٦ : ١٦ (٢٧٩٧) وغيره : « والذي نفسي بيده لَوَدِدْتُ أني أقتلُ في سبيل الله ثم أُحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل » ، قال هٰذا لبيان فضل الجهاد في سبيل الله وتحريض المسلمين عليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولئن كانت هٰذه الرغبة من غير الشهيد[1] : فإنها من الشهيد متوقَّعةٌ من بابِ أولىٰ ، كما جاء ذٰلك في حديث ابن مسعود عند مسلم ، وحديث جابر عند الترمذي ، التاليين .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح » ٦ : ٣٣ (٢٨١٧) : « قال ابن بطال : هٰذا الحديث أجلُّ ما في فضل الشهادة ، قال : وليس في أعمال البرِّ ما تبذل فيه النفس غيرُ الجهاد ، فلذٰلك عَظُم فيه الثواب » .

❋ ❋ ❋

= غير الشهيد » يدل علىٰ أن الشهيد هو الذي يرى الكرامة ، وأن غيره لا يحب الرجوع إلى الدنيا . والله أعلم .

(١) هٰذا بناء على الاحتمال الثاني .

٤٨ ـ عن مسروق قال : سألنا عبدَ الله بنَ مسعود عن هٰذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران : ١٦٩ ؟ قال : أمَا إنا قد سألنا عن ذٰلك ، فقال : « أرواحُهم في جَوفِ طير خُضرٍ ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش ، تسرحُ من الجنة حيثُ شاءتْ ، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً فقال : هل تشْتَهون شيئاً ؟ قالوا : أيَّ شيء نشتهي ونحن نسرحُ من الجنة حيثُ شِئْنا ؟! ففعل بهم ثلاثَ مرات ، فلما رَأوْا أنهم لن يُتْركوا من أن يَسألوا[1] قالوا : يا رب نُريد أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا حتىٰ نُقْتَلَ في سبيلك مرةً أخرىٰ ، فلما رأىٰ أنْ ليس لهم حاجةٌ تُرِكوا » .

٤٨ ـ تخريجه : رواه مسلم في « صحيحه » : كتاب الإمارة ـ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ٣ : ١٥٠٢ (١٢١) .

معناه : بيَّن هٰذا الحديثُ الشريفُ أن الشهيد لا يتمنَّىٰ إلا أن يُعيده الله تعالىٰ إلى الدنيا ، ليقاتلَ مرة ثانية وثالثة . . . في سبيل الله ، فيقتل ، ليتجدَّد تنعُّمه بفضل الله مرةً بعد مرة .

(١) ضبط العلامة عليّ القاري رحمه الله في « المرقاة » ٧ : ٢٧٧ « يَسألوا » هٰكذا : « بصيغة الفاعل » أي : بفتح الياء ، ليكون مبنياً للفاعل ـ أي : للمعلوم ـ لا بضم الياء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ـ أي : للمجهول ، كما يقولون ـ .

وما جاء في طبعة متن « صحيح » مسلم نشرة محمد فؤاد عبد الباقي ، متابِعاً لما في طبعة « شرح النووي » يُسْألوا : فخطأ مطبعي يُجتَنَب .

وفي هٰذا الحديث تفسير للحياة المذكورة في الآية الكريمة : ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران : ١٦٩ ، فالحياةُ : هي أن أرواحَهم في حواصل طيرٍ تتنقَّل تحت العرش علىٰ قناديل معلَّقةٍ به ، كما تتنقل طير الدنيا وبلابلُها علىٰ أغصان الشجرة .

والمشابهة في الأسماء فقط ، فقناديلُ الآخرة غيرُ قناديل الدنيا ـ ولا سيما القناديل التي تتعلَّق بالعرش ـ والطير غير الطير ! .

« فقال : هل تشتهون شيئاً » : في نسخة الإمام النووي التي شرح عليها ١٣ : ٣١ : « فقال لهم الله تعالىٰ : هل تشتهون شيئاً » ، وهٰذا تصريح بقدسيَّة هٰذه الجملة ، وإن كان واضحاً ، وهو مستفاد من كلام عياض أيضاً ٦ : ٣٠٩ .

فلما أظهر الله عز وجل منهم أنْ ليس لهم حاجة في الجنة سوىٰ هٰذه الحاجة ، لم يُكَرِّر عليهم الطلبَ بعد المرات الثلاث ؛ لأن عودهم إلى الدنيا أمرٌ قد فُرِغ منه ، كما جاء بيانه في الحديث التالي .

❋ ❋ ❋

٤٩ ـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال : لَقِيَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : « يا جابرُ ما لي أراكَ مُنكَسِراً ؟ » ، قلتُ : يا رسول الله استُشْهِد أبي يومَ أُحُد وتَرَك عِيالاً ودَيْناً ، قال : قال : « ألا أُبشِّرُك بما لَقيَ اللهُ به أباك ؟ » ، قال : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « ما كلَّم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباكَ فكلَّمه كِفَاحاً فقال : يا عبدي تَمَنَّ عليَّ أُعْطِك ، قال : يا ربِّ تُحْييني فأقتلَ فيك ثانيةً ، قال الربُّ تبارك وتعالىٰ : إنه قد سَبَق مني أنهم إليها لا يَرجعون » ، قال : وأنزلتْ هـٰذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا . . . ﴾ الآية ، آل عمران : ١٦٩ .

٤٩ ـ تخريجه : رواه الترمذي : كتاب تفسير القرآن ـ من تفسير سورة آل عمران (٣٠١٠) وقال : حديث حسن غريب من هـٰذا الوجه ، وأشار إلىٰ رواية الإمام أحمد في « المسند » ٣ : ٣٦١ من طريق عبد الله بن محمد بن عَقيل ، عن جابر مرفوعاً بلفظ : « يا جابر أما علمتَ أن الله أحيا أباكَ فقال له : تمنَّ عليَّ فقال : أُرَدُّ إلى الدنيا فأقتلَ مرة أخرىٰ ، فقال : إني قضيتُ الحكمَ أنهم إليها لا يَرجعون » .

غريبه : منكسراً : أي : منكسر الخاطر ، حزيناً .

العيال : قال في « المصباح المنير » : هم « أهل البيت ومَن يَمُونه الإنسان ، الواحد : عَيِّل ، مثل جِياد وجيِّد » .

كِفاحاً : قال في « المرقاة » ١١ : ٤٣٩ : أي « من غير واسطة بينه وبين الله تعالىٰ » .

تمنَّ عليَّ : التمني : تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه ، كما قال ابن الأثير أيضاً ، وهٰذا الأمرُ المرغوبُ فيه : مطلقٌ ، سواء أكان بعيدَ الحصول عليه ، أم قريباً ، ممكناً أم غيرَ ممكن ، أما « ليت » ـ وهي للتمني ـ فإنها غالباً تُستعمل مع المستحيل الوقوع ، وقد تأتي مع ممكن الحصول ، علىٰ قلَّة .

معناه : في هٰذا الحديث تأكيدٌ على المعنى السابق ، وهو أنه لا أمنيةَ ولا رغبةَ عند الشهداء إلا أن يَردَّ الله تعالىٰ عليهم أرواحهم ، ليقاتلوا في سبيله مرة أخرىٰ ، فيُقْتلون ، فيتنعَّمون بكرامة الشهادة ، لٰكنْ زادت هٰذه الرواية علىٰ سابقتها أن الله تعالىٰ يُخبرهم أنه لا مجال إلى العودة ثانية إلى الدنيا ، إذْ قد سبق من الله تعالىٰ قضاؤه المُبْرَم : أنْ لا رجعةَ إلى الدنيا بعد الخروج منها .

وفي قوله : « سبق مني أنهم إليها لا يرجعون » : تلطُّف وتنبيه إلىٰ أدب من آداب المخاطبة ، فإن الله تعالىٰ لم يخاطبْ عبدَ الله والدَ جابر : سَبَق مني أنكم إليها لا ترجعون ، قطعاً لتمنِّيه ، إنما تلطَّف فخاطبه بضمير الغائب ، وإن كان المؤدَّىٰ واحداً ، لا سيما والمقامُ مقامُ تكريم للشهيد ، لا مقامُ ردِّ رغبة ، وصدٍّ عن طَلَب .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما كلَّم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب » : فيه أمران : الأمر الأول : أن ظاهره لا يُلاقي قول جابر : ترك أبي دَيناً وعيالاً ، فلذٰلك تَراني منكسر الخاطر ! وجوابه : أن هٰذا الإكرامَ الإلٰهي الذي لقيه أبوك إكرامٌ عظيمٌ يَفوق ويُغطِّي كلَّ مشكلة تَعرِض لك من جَرَّائه ، فلا تَهتمَّ .

قال الطِّيبيُّ في « شرحه » ١١ : ٣٤٨ : « هٰذا الجواب من الأسلوب الحكيم ، أي : لا تهتم بشأن أمر دنياه ، فإن الله تعالىٰ يقضي عنه دَينه ببركة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ولٰكن أبشّرك بما هو فيه من القُرب عند الله تعالىٰ ، وما لقيه به من الكرامة والمنحة » ، ونقله عنه في « المرقاة » ١١ : ٤٣٩ .

والجملة الأولىٰ من هٰذا الجواب تُذكِّرنا بالحديث الذي رواه البخاري في مواضعَ من « صحيحه » ، أولها : كتاب البيوع ـ باب الكيل على البائع والمعطي ٤ : ٣٤٤ (٢١٢٧) فانظره وانظر أطرافه هناك ، وجملة الحديث : أن والدَ جابر : عبدَ الله بن عمرو بن حَرَام رضي الله عنه استشهد يوم أُحُد ، وترك دَيناً كثيراً عليه ، وجاء الغرماء يطالبون جابراً بما لهم علىٰ أبيه ، وفيهم رجل يهودي ، فكلّمهم جابر أن يقسطوا الدَّين أو يحطُّوا عنه بعضه ، فلم يفعلوا ، فاستشفع إليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلوا .

وكانت تَرِكةُ عبد الله بن عَمرو بن حرام حائطاً من نخيل ، ومحصولُه قليل لا يَفي بدَينه ، بل غلَّة سنين له لا تفي بدينه .

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذٰلك منهم قال لجابر : « صنِّف تمرك أصنافاً : العجوةَ علىٰ حِدة ، وعِذْقَ ابن زيد علىٰ حِدَة ، ثم أرْسِل إليَّ » ، ففعل ذٰلك جابر ، وأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بما فعل ، فجاء عليه الصلاة والسلام ومشىٰ حول البيادر المصنَّفة ، ودعا اللهَ تعالىٰ ، ثم جلس علىٰ أحدها ، وأمرهم بالكيل والاستيفاء ، ففعلوا ، فأوفاهم دَيْنهم جميعَه ، قال جابر : وبقي تمري كأنه لم يَنْقُص منه شيء ! وفي رواية : كأنه لم يُمَسَّ ! .

وقال صلى الله عليه وسلم لجابر : « أخبر بذٰلك ابن الخطاب » ، وفي رواية : أبا بكر وعمر ، فأخبرَهما ، فقالا : قد علمنا إذْ صَنَع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صَنَع ـ وهو الدعاء والجلوس ـ أنْ سيكونُ ذٰلك ،

وقال عمر : قد علمنا أنك رسول الله ، والله إنك لرسول الله . صلوات الله وسلامه عليه .

فهٰذا ما يُشير إليه الطِّيبي رحمه الله في قوله : إن الله تعالىٰ يقضي عنه دَيْنه ببركة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويلطُف بعياله ، فلا داعي للاهتمام .

والأمر الثاني الذي في قوله صلى الله عليه وسلم : « ما كلَّم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب » : فهو أنه لا تعارض بين هٰذا القول الكريم ، وبين قولِ الله عز وجلَّ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ . . . ﴾ الشورىٰ : ٥١ ، الخاصِّ بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وعبدُ الله هٰذا ليس منهم .

وبيانُ عدم التعارض : أن التكليمَ المذكورَ في الآية الكريمة خاصٌّ بالدنيا ، أما عبدُ الله رضي الله عنه فإن الله تعالىٰ كلَّمه كفاحاً وهو في عالم البرزخ . أفاده العلامة القاري رحمه الله ، أيضاً .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « وأحيا أباك فكلَّمه كفاحاً » : فهٰذه حياة أقوىٰ من الحياة العامة للشهداء ، فيها « زيادة قوة روحه ، فشاهد الحق بتلك القوة » قاله الطيبي ، وعنه القاري أيضاً .

* * *

٥٠ ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَجِبَ ربُّنا من رجلٍ غزا في سبيل الله ، فانهزم » يعني : أصحابَه « فعلمَ ما عليه ، فرجع حتىٰ أُهريق دمه ، فيقول الله تعالىٰ لملائكته : أُنظُروا إلىٰ عبدي رجع رغبةً فيما عندي ، وشفقةً مما عندي ، حتىٰ أُهريق دمه » !.

٥٠ ـ تخريجه : رواه أبو داود : كتاب الجهاد ـ باب الرجل يشري نفسه (٢٥٢٨) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ : ١١٢ وصححه ووافقه الذهبي ، ولفظه : « فانهزم أصحابُه » دون أداة التفسير « يعني » .

معناه : يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ من عباد الله جاد بنفسه في سبيل الله ، علىٰ وجه غير مألوف من قِبل كثير من المجاهدين ، فنال هٰذا العبد الشهيد إعظامَ الله تعالىٰ لفِعْلته هٰذه ، وإكبارَه لها ، فأكرمه الله عز وجل بأنْ باهىٰ به ملائكته الكرام وفاخرَهم به !.

وإخبارُ النبي صلى الله عليه وسلم لنا بذٰلك : فيه حضٌّ لنا وترغيبٌ بهٰذه المَكْرُمة التي نال بها هٰذا الشرفَ العظيم .

تلك هي : رجلٌ غزا مع قوم في سبيل الله ، فانكشَفوا أمامَ عدوِّهم وهُزِموا ، أما هو فعلم ما عليه من وزر [١] إن انكشف ، فراجع نفسَه ، وذكَّرها بحق الله

(١) كتبت هٰذا وما بعده بناءً علىٰ كلام المناوي في « التيسير » ٢ : ١٢٧ ، وتبعه صاحب « عون المعبود » ٧ : ٢١١ ، مع أن في الجزم بالحرمة والوزر وقفةً ظاهرة ، إذْ لا يجب على الواحد أن يقف أمام أكثر من اثنين . انظر كلام العلقمي الآتي .

تعالىٰ والإسلام عليه ، فرجع إلىٰ مَصافِّ العدو وحده ، فقاتلهم حتىٰ قُتِل ، يبتغي بذٰلك ما عند الله من أجر ، ويَحذَر ما عنده من عقاب : أن يكتبه من الفارين من الزحف ، والفرارُ من الزَّحْف أحدُ السبع المُوبِقات .

فعجب الله جلَّ شأنه من إقدام عبده علىٰ إراقةِ دمِه بعد أنْ تمكَّن من عذر يُعْذَر به لو فرَّ ، وكيف يرجع إلى الموت مَن نجا منه ؟ ولو لم يكن مُلِئ هٰذا العبد إيماناً من فَرْقه إلىٰ قدمه لما فَعَل ما فَعَل ، وربُّك أكرمُ من أن يَغمُرَ عبداً أراد إعلاءَ كلمة الله ، فلذٰلك رَفَع ذكْرَه عند ملائكته فباهاهم به .

والتعجُّبُ يكون من أمر خَفِيَ سببُه ولم يُعلَم ـ كما قال ابن الأثير في « النهاية » ٣ : ١٨٤ ـ و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ آل عمران : ٥ ، فكيف يَخْفىٰ عليه سببُ رجوعِ هٰذا المجاهد إلىٰ حَلْبته ، بل إنه يقولُ هنا : « رجع رغبةً فيما عندي ، وشفقةً مما عندي » ، فالأمرُ والسببُ معلومان مذكوران .

لذٰلك استبعد أهل العلم هٰذا المعنىٰ بالنسبة إلى الله عز وجل .

فنَقَل المناوي رحمه الله في « فيض القدير » ٤ : ٣٠٣ عن القاضي البيضاوي رحمه الله قوله : « إن صفات العباد إذا أطلقتْ على الله أريد بها غاياتُها ، فغايةُ التعجُّب من الرضا بالشيء : استعظامُ شأنه » .

وأولىٰ من هٰذا وغيرِه من التأويلات أن يقال : إنه عَجَب يليق بكمال ربِّنا وجلاله .

وفي هٰذا الحديث من الفوائد الفقهية : ما ذكره المناوي في كتابه المذكور : « أن نية المقاتل في الجهاد طَمعاً في الثواب وخَوْفَ العقاب على الفرار : معتبرةٌ ، لأنه علَّل الرجوع للرغبة وللإشفاق » أي : إن هٰذا الطمع والخوف لا يؤثِّران علىٰ نية المقاتل ، ولا يفسدان نيَّته الجهادَ في سبيل الله .

وحكمٌ فقهي آخر: قال صاحب «عون المعبود» ٧ : ٢١١ : «قال العَلْقَمي[١] : في الحديث دليلٌ على أن الغازي إذا انهزم أصحابُه وكان في ثباته للقتال نكايةٌ للكفار، فيستحبُّ الثبات، لكن لا يجب، كما قاله السُّبكي، وأما إذا كان الثبات موجِباً للهلاك المحض من غير نِكايةٍ فيجبُ الفرار قطعاً. انتهى».

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ البقرة: ٢٢٠.

* * *

(١) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العلقمي، أدرك الحافظ السيوطي وأخذ عنه، وشرح له كتابه «الجامع الصغير» في ثلاث مجلدات، وهذه النقول منه، وكانت وفاته سنة ٩٦٣، أو ٩٦٩، رحمه الله تعالى.

٥١ ـ عن العِرباض بن ساريةَ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَختَصِمُ الشهداء والمتوفَّوْن على فُرُشهم إلىٰ ربنا ، في الذين يُتوفون من الطاعون ، فيقول الشهداء : إخوانُنا قُتِلوا كما قُتِلنا ، ويقول المتَوَفَّوْن علىٰ فُرُشهم : إخوانُنا ماتوا كما مِتنا ، فيقولُ ربُّنا : انظروا إلىٰ جِراحِهم ، فإنْ أشبَهَ جراحُهم جِراحَ المقتولين : فإنهم منهم ومعهم ، فإذا جِراحُهم قد أشبَهَتْ جِراحَهم » .

٥١ ـ تخريجه : رواه النسائي : كتاب الجهاد ـ باب مسألة الشهادة (٣١٦٤) ، وهٰذا لفظه ، ورواه أحمد ٤ : ١٢٨ ، ١٢٩ ، وعبد الله بن أبي بلال راويه عن العرباض : وثقه ابن حبان ٥ : ٤٩ ، فحديثه حسن ، ولا أقل .

غريبه : يختصم : يتجادل ، والخصام : المجادلة .

الطاعون : هو « المرض العامُّ والوباء الذي يَفسُد له الهواء ، فتفسُد به الأمزجة والأبدان » كما قال ابن الأثير ، وفيه كلام كثير غيرُ هٰذا جمعه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١٠ : ١٨٠ .

معناه : هٰذا لونٌ آخَر من ألوان الشهادة والشهداء .

وإن من فضل الله علىٰ هٰذه الأمةِ أنْ أكْثَرَ مِن أنواع الشهادة ، ليكثُر الشهداء في الأمة المحمدية ، وقد جمَعَ العلماء أنواع الشهادة ، وأفرد لها المنذري رحمه الله فصلاً في « ترغيبه » ٢ : ٣٣٢ ـ ٣٤٠ ، ثم أفردها في جزءٍ شيخُنا العلامةُ الحافظُ الشيخ عبد الله الصديق الغُماري رحمه الله تعالىٰ ، سماه « إتحاف النبلاء » وهو مطبوع .

والشهداء ثلاثة أصناف : شهيد في الدنيا والآخرة ، وشهيد دنيا ، وشهيد آخرة .

فشهيد الدنيا والآخرة : شهيد الجهاد في سبيل الله ولم يرتكب محظوراً من محظورات الجهاد ، ومات فور طَعنه ، أو بعد أنْ طُعن لم يَستفدْ من هٰذه الفترة بين طعنه ومفارقته الحياة فائدةً دينيةً ـ كوصيَّة مثلاً ـ أو دنيويةً ، ولا يؤثر علىٰ شهادته معالجتُه ـ مثلاً ـ ليبرأ من أضرار طعنه ، إلا إذا بَرَأ منها .

وشهيد الدنيا : مَن وقع في محظورٍ من محظورات الجهاد ، فأفسدَ جهاده ، ـ كغُلُوله من الغنيمة ، أو ريائه ـ لٰكنه لو استُشهد لَعُومِلَ معاملَةَ الشهيد من أنه : لا يُغسَّل ، ولا يكفن ، بل يُزَمَّلُ ويُلفَّفُ بثيابه ، وعملُه ذاك يُفْسِدُ عليه أجرَ آخرته ، لذٰلك لا يُقال له : شهيد آخرة أيضاً .

وشهيدُ الآخرة : هم أصحابُ الأنواع الأخرىٰ من أنواع الشهادات ، التي تقدَّمتْ الإشارة إليهم ، فهٰؤلاء لا يُسمَّون : شهداء دنيا أيضاً ، لأنهم ليس لهم : أحكامُ الشهداء في الجهاد من أن الواحد منهم لا يُغَسَّل ولا يُكفَّن ، بل لهم الأجر العظيم في الآخرة ، فهم شهداء آخرة .

ومن هٰذا الصنف الثالث : ما جاء ذِكْره في « صحيح » البخاري : كتاب الجهاد ـ باب الشهادة سَبْعٌ ٦ : ٤٢ (٢٨٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الشهداءُ خمسةٌ : المطعونُ ، والمبطون ، والغَرِق ، وصاحبُ الهَدْم ، والشهيد في سبيل الله » .

فالمطعون : من مات في طاعون ، والمبطون : من مات بمرضِ بطنه ، كالاستسقاء ونحوه ، والثلاثةُ الباقيةُ معروفة .

وجاءت أحاديثُ أخرىٰ تذكر أنواعاً كثيرةً سوىٰ هٰذه الخمسة . قال

الحافظ في « الفتح » ٦ : ٤٣ : « وقد اجتمع لنا من الطرق الجيِّدة أكثرُ من عشرين خَصلةً » ، وهٰذا تعدادها ملخَّصاً من كلامه رحمه الله :

١ ـ الشهيد في سبيل الله . ٢ ـ المطعون .

٣ ـ المبطون . ٤ ـ الغريق .

٥ ـ صاحب الهدم . ٦ ـ من مات في الحريق .

٧ ـ من مات بذات الجَنْب . ٨ ـ من ماتت في نفاسها .

٩ ـ من مات في مرض السِّلِّ . ١٠ ـ من قُتِل دون ماله .

١١ ـ ودينه . ١٢ ـ ودمه .

١٣ ـ وأهله . ١٤ ـ ومظلِمته .

١٥ ـ ومن وَقَصَته فرسُه أو بعيره فمات .

١٦ ـ ومن لدغَته هامَّة فمات .

١٧ ـ ومن خرج في سبيل الله فمات علىٰ فراشه .

١٨ ـ والغريب . ١٩ ـ والمرابط .

٢٠ ـ ومن شَرِق بالماء فمات . ٢١ ـ أو افترسته السباع .

٢٢ ـ أو مادَ به البحر فأصابه القيءُ فمات .

٢٣ ـ ومن طلب الشهادة بنية صادقة .

٢٤ ـ ومن صبر في الطاعون فمات بغيره .

٢٥ ـ والمتردِّي من رأس جبل بغير قصدٍ .

ثم قال : « ووردتْ أحاديثُ أخرىٰ في أمور لم أُعَرِّج عليها لضعفها » ، وما أرىٰ ذٰلك مسلَّماً في جميعِ ما سوى المذكور .

قال المناوي رحمه الله في « فيض القدير » ٤ : ١٧٩ ـ ١٨٠ : « تنبيه : قد

التقطَ ابنُ العماد الشهداءَ من الأخبار ونَظَمَها . . . » وذكر الأبيات ، ويُستخلص منها زيادةً على ما تقدم ـ دون التزام الصحة ـ :

٢٦ ـ محبُّ آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

٢٧ ـ من نَطَق عند إمام جائر بكلمة حق .

٢٨ ـ المشتغلُ بالعلم ومات على ذٰلك .

٢٩ ـ من مات على وضوء . ٣٠ ـ المتوفَّى فجأة .

٣١ ـ من مات مسحوراً . ٣٢ ـ أو مسموماً .

٣٣ ـ أو عطشاً . ٣٤ ـ العاشق المتعفِّف .

٣٥ ـ المجنون . ٣٦ ـ المقتول ظلماً .

٣٧ ـ أو مات في الحرب ـ وقد يكون هو المتقدم برقم ١٧ .

٣٨ ـ المؤذن المحتسِب .

٣٩ ـ الجالبُ القوت إلى البلد ويبيعُ بسعر يومِه دون احتكار أو غَبْن فاحش .

٤٠ ـ من أصابتْه عين حاسدة فمات من ذٰلك .

٤١ ـ من قرأ أواخر سورة الحشر فمات في يومه .

٤٢ ـ المواظب على وِرده من صلاة الضحى .

٤٣ ـ المواظب على الصيام ـ أي : النافلة ـ .

فهٰؤلاء كلُّهم من شهداء الآخرة ، أي : لهم في الآخرة أجر الشهيد ، أما من حيثُ أحكامُ الدنيا ـ عدم التغسيل والتكفين ـ : فلا ، بل يغسَّلون ويكفنون كسائر الأموات .

ولا يُستثنى من هٰذا العدد إلا الأول : الشهيد في سبيل الله ، فإنه إن

استوفىٰ أحكام المجاهدين المخلصين الصادقين فهو شهيد دنيا وآخرة ، وإنْ تلبَّس بشيء مما سوىٰ ذٰلك : فأمره إلى الله تعالىٰ ، لٰكنا نعطيه أحكامَ الشهيد الدنيوية .

ولا ينبغي أن يتوسَّع في إعطاء هٰذا اللقب الكريم (الشهيد) لأيِّ إنسان كان ، كما يحصل في كثير من البلاد إذْ يطلقونه . . . حتىٰ على الكافر !! .

هٰذا ، وأحاديثُ إثبات الشهادةِ للمتوفَّيْن بالطاعون متعددة ، وثَبَت ـ كما قال الحافظ في « الفتح » ١٠ : ١٨١ في شرح الباب ٣٠ من كتاب الطب ـ أن الطاعون إنما هو من وَخْز أعدائنا من الجن ، وذكرَ الأحاديثَ الواردة بذٰلك ، ثم قال ص ١٨٢ : « قال العلماء : أراد صلى الله عليه وسلم أن يحصُل لأمته أرفعُ أنواع الشهادة ، وهو القتل في سبيل الله بأيدي أعدائهم إما من الإنس ، وإما من الجن » .

وكونُ الطاعون شهادةً لهٰذه الأمة المحمدية : خَصيصةٌ لها من أعظم مزاياها التي امتازتْ بها علىٰ طائفة من بني إسرائيل ، فإنه أرْسِل الطاعون عليهم رجزاً وعذاباً ، كما جاء في كتاب أحاديث الأنبياء من « صحيح » البخاري ٦ : ٥١٣ (٢٤٧٣) ، بل جاءت الرواية التي بعدها بلفظ : « عذابٌ يبعثُه الله علىٰ من يشاء » أي : علىٰ بني إسرائيل وغيرهم « وأن الله جعله رحمةً للمؤمنين » ، وفي « المسند » ٥ : ٨١ : « . . . الطاعون شهادةٌ لأمتي ورحمةٌ لهم ، ورجسٌ على الكافرين » .

ومن أجل هٰذه المرتبة الرفيعة للمطعون : استشرف من توفَّاه الله وفاةً عادية إلىٰ مرتبته ، للشَّبه الظاهريِّ بين وفاتَيْهما ، كما قال عليه الصلاة والسلام في هٰذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه : « يقول الشهداء : إخواننا قُتلوا كما قُتِلنا ، ويقول المُتوَفَّوْن علىٰ فُرُشهم : إخواننا ماتوا علىٰ فرشهم

كما مِتنا » أي : فإن كنت يا ربَّنا ستُلْحِقُهم بالشهداء في سبيلك ، فألحِقنا بهم أيضاً ، فإن بيننا وبينهم شبهاً في الوفاة على الفرش ! .

قال العلامة السندي رحمه الله في « حاشية سنن النسائي » : « لا شك أن مقصود الشهداء بذلك إلحاقُ المطعون معهم ، ورفعُ درجته إلىٰ درجاتهم ، وأما الأموات على الفُرُش فلعله ليس مقصودهم أصالةً أن لا تُرفَع درجة المطعون إلىٰ درجات الشهداء ، فإن ذلك حسدٌ مذموم ، وهو منزوع عن القلوب في تلك الدار ، وإنما مرادهم أن ينالوا درجات الشهداء ، كما نال المطعونُ مع موته على الفراش .

فمعنىٰ قولهم : « إخواننا ماتوا علىٰ فُرُشهم كما متنا » أي : فإن نالوا مع ذلك درجاتِ الشهداء ينبغي أن ننالَها أيضاً » .

والحديثُ الشريفُ : من الأدلة علىٰ صحة القول بالقياس والعمل به .

❋ ❋ ❋

من أحاديث الأيمان والنّذور

٥٢ ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قالَ الله عزَّ وجلَّ : لا يَأْتي النَّذرُ على ابنِ آدمَ بشيءٍ لم أقدِّره عليه ، ولٰكنَّه شيءٌ أَستخرجُ به من البخيل ، يُؤْتِيني عليه ما لا يُؤتِيني على البُخْل » .

٥٢ ـ تخريجه : رواه الإمام أحمد في « المسند » ٢ : ٢٤٢ بإسناد من أصح الأسانيد ، وأصلُه في البخاري : كتاب القدَر ـ باب إلقاءُ النذرِ العبدَ إلى القدر ١١ : ٤٩٩ (٦٦٠٨ ، ٦٦٠٩) ، عن ابن عمر ، وعن أبي هريرة رضي الله عنهم ، وليسا صريحين في كونهما قدسيين ، إلا الثاني فقريبٌ ، وكررهما البخاري ١١ : ٥٧٥ (٦٦٩٢ ـ ٦٦٩٤) وقال الحافظ ١١ : ٥٧٥ : « هٰذا من الأحاديث القدسية لٰكنْ سقط منه التصريح بنسبته إلى الله عز وجل » .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف ذمٌّ لنذر البخيل ، وتنبيه لأمر اعتقادي يتعلَّق بالقدر ، والنذرُ ـ من حيثُ هو ـ غيرُ مذموم ، ولو كان مذموماً لَمَا أمر الله تعالىٰ بالوفاء به ، ولَمَا مدَح المُوفِين بنذرهم ، أما البخل فمذموم ، ومذموم ما يتَّصل به وينشأ عنه ، وعبَّر عن هٰذا الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالىٰ بأن النذر نذران ، نذر ابتدائي ، فهو قُربة محضة ، ونذرُ مجازاةٍ ومعاوضة فهو منهي عنه ، انظره في « فتح الباري » ١١ : ٥٧٨ (٦٦٩٢) ، وأصله في « شرح العمدة » لابن دقيق العيد ٢ : ٦٥٠ (٣٦٩) .

قال في « فتح الباري » ١١ : ٥٧٦ : « قال القرطبي : النذر من العقود

المأمور بالوفاء بها ، المُثْنَىٰ علىٰ فاعلها ، وأعلىٰ أنواعه ما كان غيرَ معلَّق علىٰ شيءٍ يريد حصولَه ، كمن يُعَافَىٰ من مرض فقال : لله عليَّ أن أصوم كذا ، أو أتصدَّق بكذا ، شكراً لله تعالىٰ ، ويليه : المعلَّق علىٰ فعلِ طاعة ، كإن شَفَى الله مريضي صمتُ كذا ، أو صليت كذا ، وما عدا هٰذا من أنواعه كنذر اللَّجاج : كمن يستثقلُ عبدَه فينذرُ أن يُعتقَه ليتخلَّص من صحبته ، فلا يقصد القُربة بذٰلك ، أو يحملُ علىٰ نفسه فينذرُ صلاةً كثيرةً أو صوماً مما يشقُّ عليه فعلُه ويتضرَّر بفعله ، فإن ذٰلك يُكره ، وقد يبلُغ بعضُه التحريم » .

وواجبُ العبد أن يكونَ مع الله عز وجل بالرجاء والذُّل والخضوع ، يلتمس بذٰلك ما عند الله من خير ، أما هٰذا البخيلُ فإنه يلتمسُ ما عند الله بطريق المعاوضة ، كأنَّ لسانَ حاله ـ والعياذُ بالله ـ يقول : إن أعطيتَني كذا عملتُ لك كذا !! فهٰذا مَثَل عبدِ السَّوء .

والنذرُ سببٌ من الأسباب التي يترتَّب عليها ـ إن شاء الله ذٰلك ـ ما يُريدُه العبد ، كالدعاء والصدقة ، وقد لا يترتَّب عليه شيء .

وقد نبَّه أولُ الحديث إلىٰ هٰذا المعنىٰ : « لا يأتي النذرُ على ابن آدمَ بشيء لم أقدِّره عليه » فهو لا يمنع عنه المرض ، ولا يقدِّم له الشفاء ، إن لم يكن هٰذا وذاك مقدَّرَيْن عليه .

فإذا أراد الله عز وجل أن يَستخرجَ من البخيل ما تَشِحُّ به نفسُه ويَثقُلُ عليه بذلُه أوقَعَه في مكروهٍ ما ، كمرض أو خسارة . . . ، فحينئذ يلجأ إلىٰ ربه ويتذكَّره ، فيقول : إن فعلتَ لي كذا فعلتُ كذا !! فيستخرجُ الله تعالىٰ منه المالَ العزيزَ عليه ، الضَنينَ به ! .

فمعنىٰ قوله في الحديث : « يُؤتيني عليه » أي : ينذر لي علىٰ ما يَطْلُبُه

مني ، كالشفاء مثلاً « **ما لا يؤتيني على البخل** » : ما لا يُنفِقُه في سبيلي ، لكونه بخيلاً .

وفي رواية لمسلم ٣ : ١٢٦٢ (٧) : « إن النذر لا يُقَرِّب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدَّره له ، ولكن النذرَ يُوافِق القدرَ ، فيُخرجُ بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يُريد أن يُخرج » .

❋ ❋ ❋

٥٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالىٰ : ثلاثةٌ أنا خَصمُهُم يومَ القيامةِ : رجلٌ أعطىٰ بي ثم غَدَر ؛ ورجلٌ باعَ حُرّاً فأكل ثَمَنَهُ ؛ ورجلٌ استأجَر أجيراً فاستوفىٰ منه ولم يُعطِهِ أجْرَه » .

٥٣ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب البيوع ـ باب إثم من باع حرّاً ٤ : ٤١٧ (٢٢٢٧) ، وكتاب الإجارة ـ باب إثم من منع أجر الأجير ٤ : ٤٤٧ (٢٢٧٠) .

معناه : هٰذا الحديث الشريف فيه بيانُ جانبٍ من جوانب أخلاق الإسلام في المعاملة ، وفي كلِّ جملةٍ منه تنبيهٌ إلىٰ خُلُق كريم .

ففي الجملة الأولىٰ : حضٌّ على الوفاء بمقتضىٰ ما يَحلِف عليه الرجل من أيمان ، وتحذيرٌ من نقضِها والغدر بالمحلوف له ، وتقدير معنى الجملة الكريمة : رجلٌ أعطىٰ يمينَه بي ثم نقضَه ، أي : عاهدَ عهداً وحَلَف عليه بالله ، كما في « فتح الباري » .

ونقضُ العهد ، ونكثُ الأيمان ، والغدرُ وعدمُ الوفاء : كلٌّ منها صفةٌ ذميمة على انفرادها ، فكيف لو تجمَّعت في أمر واحد ، فمن عاهد آخر عهداً ، ثم إنه لغير عذرٍ شرعيٍّ لم يَفِ له بما عاهده عليه ، كان ذٰلك مذموماً منه ، فكيف لو وثَّق له عهده بالحِلف بالله عز وجل ؟! .

وأسوأ من عدم الوفاء : أن يعاملَه بنقيض ما عاهده عليه ، كمن عاهد رجلاً آخر بالأمانة فخانه ، أو بالأمن فأخافه ، ونحو ذٰلك ، فهٰذه إساءات متراكمة .

فهٰذا أحد ثلاثة أصناف يكون الله عز وجل خَصْمَهم ، ومن كان الله عز وجل خَصْمَه خَصَمَه الله ـ كما صحَّ في بعض الروايات عند غير البخاري ـ أي : غَلَبه الله وقهره .

والصنف الثاني : رجلٌ باع حرّاً فأكل ثمنه ، ذٰلك لأن بيع الحرِّ حرام عظيم ، وأعظمُ منه بيعُه واغتصابُ ثمنه والتصرُّف فيه ! والإسلام جاء بتحرير الأرقَّاء ، لا باسترقاق الأحرار ! وما أجملَ قولَ ابن الجوزي رحمه الله تعالى : « الحرُّ عبدُ الله ، فمن جَنَىٰ عليه فخَصْمُه سيدُه » ، نقله عنه ابن حجر ، وهٰذه ـ أيضاً ـ إساءات متراكمة .

والصنف الثالث : رجل استأجر أجيراً فَوَفَّى الأجيرُ ما عليه من حقٍّ وعمل ، واستحقَّ ما له على المستأجِر ، لٰكن المستأجِر خانه وغدرَ به وعامله معاملة الرقيق ، فلم يُعطه أجره ، وكأنه السيد وذاك العبد ! فيكون هٰذا المسكينُ الجائر قد جمع ذَميمتَيْ مَن قبله : غدَرَ بمن ائتمنه ، فلم يتقاضاه أجرتَه قبل البدء بعمله ، وعامَلَ الأحرار كأنهم أرقَّاء ، واستضعفَ غيرَه واستقوىٰ نفسه ! وغفل عن أن قوة الله فوق قوته ، وأن مصيره إلى الله .

وإذا سمع العبد المسلمُ الموقنُ بربه وبيوم الحساب بين يديه عز وجل ، إذا سمع أن الله خصم هٰؤلاء الثلاثة ، وأن هٰؤلاء الثلاثة خُصَماء الله ، خاف ورَهِبَ ، وأشفق علىٰ نفسه أن يكون واحداً منهم ، فاتَّعظ وانزجر عن هٰذه الأعمال بذاتها ، وعن الخصال التي تؤدي إليها ، وتخلَّق بأضدادها ، فسعِد . والله تعالىٰ هو الموفق .

* * *

٥٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُم الله يومَ القيامةِ ، ولا ينظُرُ إليهمْ : رجُلٌ حَلَفَ علىٰ سِلْعةٍ : لقد أُعطيَ بها أكثرَ مما أُعطي ، وهو كاذبٌ ، ورجلٌ حَلَف علىٰ يمينٍ كاذبةٍ بعدَ العَصْرِ ، لِيقْتَطِعَ بها مالَ رجلٍ مسلم ، ورجلٌ منعَ فضْلَ مائه فيقولُ الله : اليوم أَمْنَعُكَ فَضْلي ، كما مَنَعْتَ فَضْلَ ما لم تعْمَلْ يَدَاكَ » .

٥٤ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب المساقاة ـ باب من رأىٰ أن صاحب الحوض والقِرْبة أحقُّ بمائه ٥ : ٤٣ (٢٣٦٩) ، وهـٰذا لفظه ، وهو في « صحيح » مسلم : كتاب الإيمان ـ باب بيان غِلظ تحريم إسبال الإزار . . . ١ : ١٠٣ (١٧٣) ، لـٰكن ذكر بدلَ الرجلِ الأول « ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وَفَىٰ ، وإن لم يُعطِه منها لم يَفِ » ، وهـٰذه الزيادة مذكورة في « صحيح » البخاري ٥ : ٣٤ (٢٣٥٨) .

غريبه : فضْلَ : ما فَضَل وزادَ عن كفايتك .

فضْلي : إحساني ومعروفي .

معناه : ثلاثُ خصالٍ أخلاقية تتصلُ كثيراً بتعامل الناس فيما بينهم ، يحضُّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاستقامة فيها وسلوك طريق الخير والرشاد .

وهي ثلاثُ خصال في هـٰذا الحديث ، وجاء في أحاديثَ أخرىٰ ثلاثٌ أخرىٰ ، وروايـاتٌ تزيد علىٰ غيرها ، فلا أريدُ من كلمة « ثلاث خصال » الحصرَ وعدمَ الزيادة عليها .

وذُكِر في صدر الحديث جزءان لهم : لا يُكلِّمهم الله ، ولا يَنظُر إليهم ، وجاء في بعض رواياته زيادة : « ولا يُزَكِّيهم ولهم عذاب أليم » .

وكيف « لا يُكلِّمهم الله » وهو الذي سيحاسبُهم ؟ وكيف « لا ينظر إليهم » وهم في ملكه ولا يغيب عنه سبحانه وتعالىٰ مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء لا علماً ولا نظراً ؟ .

قال الإمام النووي رحمه الله : « قال جمهور المفسِّرين : لا يكلِّمهم كلاماً ينفعهم ويسرُّهم ، وقيل : لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ، ومعنىٰ : « لا ينظر إليهم » أي : يُعرِض عنهم ، ونظَره سبحانه وتعالىٰ لعباده : رحمتُه ولطفُه بهم ، ومعنىٰ : « لا يُزكِّيهم » : لا يُطَهِّرهم من دَنس ذنوبهم ، وقال الزَّجّاج وغيره : معناه : لا يُثني عليهم ، ومعنىٰ « عذاب أليم » : مؤلم ، قال الواحدي : هو العذاب الذي يخلُصُ إلىٰ قلوبهم وَجَعُه » .

وأولُ هـٰؤلاء : غاشٌّ ، كاذبٌ ، يَحلِف علىٰ كذبه الأيمان الكاذبةَ ، خائنٌ في بيعه وشرائه ، فما أجدرَ هـٰذا بهـٰذه العقوبات الإلـٰهية ! وما أعظمَ الإسلامَ حين حرَّم هـٰذه الأمور ، وتوعَّد فاعلَها بهـٰذا الوعيد ، ليطهِّر المجتمع الإسلامي منها ومن مرتكبيها !! .

يَحلِف أنه أُعطِيَ بهـٰذه السلعة ثمناً أزيدَ من الثمن الذي دفعه إليه المشتري القائم أمامه ، والواقع أنه لم يُدفع إليه شيء أبداً ، أو أنه دُفع إليه غيرُ المقدار الذي يذكره ، فهو كاذب ، ويحاولُ أن يستُرَ كذبه باسم الله تعالىٰ فيحلف به ، ويَغِشُّ المشتري ويخدعُه ويُغرِّر به ، من أجل دُريهمات يَستدرُّها من المشتري ! وهـٰذه خَصلة ذكرها الله تعالىٰ عن المنافقين بقوله سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ المجادلة : ١٦ .

وأين هـٰذا الخُلُق الدنيءُ من خُلُق الإسلام الرفيع ! .

حكى النووي في « شرح مسلم » ٢ : ٤٠ : « أن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أمر مولاه أن يشتري له فرساً ، فاشترىٰ له فرساً بثلاث مئة درهم ، وجاء به وبصاحبه لينقُده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس : فَرَسُك خير من ثلاث مئة درهم ، أَتبيعُه بأربع مئة درهم ؟ قال : ذٰلك لك يا أبا عبد الله ! .

فقال : فرسُك خير من ذٰلك ، أَتَبِيعُه بخمس مئة درهم ؟ ثم لم يزل يزيده مئةً فمئةً وصاحبُه يرضىٰ ، وجريرٌ يقول : فرسك خير ، إلىٰ أن بلغَ ثمانَ مئة درهم ، فاشتراه بها .

فقيل له في ذٰلك ـ أي : عُوتِب وسُئِل عن السبب ـ ؟ فقال : إني بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » ![1] .

ورویٰ أبو داود (٤٩٠٦) عن جرير نفسه أنه « كان إذا باع الشيء أو اشتراه قال : أَمَا إن الذي أخذْنا منك أحبُّ إلينا مِمَّا أعطيناك ، فاخترْ » .

وروى الطبراني في « المعجم الكبير » ٢ (٢٥١٠) عن جرير أيضاً « أنه كان إذا أقام سلعةً ـ ليبيعها ـ بَصَّر عيوبَها ـ للمشتري ـ ثم خيَّره فقال : إن شئتَ فخُذْ ، وإن شئت فاتركْ ، فقيل له : يرحمك الله ! إنك إذا فعلتَ هٰذا لم ينفذ لك البيع ! فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لأهل الإسلام » .

فلا غرابة إذا رأينا هٰذا الوعيدَ لمن يخالف هٰذا الصراط المستقيم ! .

وثاني الثلاثة : رجلٌ حلف يميناً كاذبةً ليأكُل بها حقَّ مسلم ومالَه ، فلم يُراعِ حرمةَ اسم الله تعالىٰ في الحلف ، ولم يراعِ الصدقَ الذي هو من أساسيات الأخلاق الإسلامية ، ولم يُراعِ حقَّ الأخوَّة الإسلامية ، ولم يُراعِ حرمةَ أموالِ الآخرين ، وأيضاً : لم يُراعِ حرمةَ الوقتِ والزمنِ : بعد العصر .

---

(١) وأصل الرواية في « المعجم الكبير » للطبراني ٢ (٢٣٩٥) .

وإنما خصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدَ العصر بالحرمة ؛ لأنه آخِرُ النهار بالنسبة للناس العاملين أعمالاً دنيوية ، كانوا يختمون عملَهم اليوميَّ الدنيويَّ بعد العصر ، وينصرفون إلىٰ بيوتهم ، وهٰذا إلىٰ عهدٍ قريب منا غيرُ بعيد .

ولأنه أيضاً وقتُ ختم ملائكة النهار صحفَ الإنسان ، ومباشرةِ ملائكة الليل عملَهم مع هٰذا الإنسان ، وذٰلك كما تقدم في الحديث برقم (٣٥) ، فانظره .

فمن فَقَد مراعاةَ هٰذه الحُرَم فلا غرابةَ أن يكونَ متوعَّداً من الله عز وجل بهٰذه العقوبات ! .

أما ثالث الثلاثة : فرجلٌ بخيل شحيح ، فَقَدَ فضيلة النجدةِ وإغاثة اللهفان دون أن يخسر شيئاً من مال أو جهد ، وهو في فلاةٍ ـ كما جاء في رواية مسلم ـ والفلاةُ مظِنَّة الهلاك والانقطاعِ من وسائل النجاة ، فكيف تطيبُ نفسه بمثل هٰذا الخُلُق الرخيص ، وأخلاقُ الإسلام الذي ينتسب إليه عاليةٌ غالية !! ولم يكفِ هٰذا المسكينَ المحرومَ أن يُحرمَ خُلُق الإيثار الذي مدح الله تعالى الصحابة من أجله ، وخلَّد ذٰلك في كتابه العظيم ، لم يَكْفِه حرمان ذٰلك ، بل زاد عليه حرمانَ أجر أفضل الصدقة [1] ، وحرمانَ أجر إغاثةِ اللهفان ، وقد يبلغ به الأمر إلى الحرمان من أجر ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المائدة : ٣٢ .

قال الله عز وجل في صفة الأنصار رضي الله عنهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ

---

(١) روى النسائي (٣٦٦٤) أن سعد بن عبادة سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ الصدقة أفضل ؟ فقال له : « سَقْيُ الماء » ، ورواية أبي داود (١٦٧٦) : أيُّ الصدقة أعجبُ إليك ؟ قال : « الماء » .

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر : ٩ .

وقصةُ ذاك الأنصاريّ وزوجته مع ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة .

روى البخاري في « صحيحه » في تفسير هٰذه الآية ٨ : ٦٣١ (٤٨٨٩) ـ ومِن قبلُ في مناقب الأنصار ٧ : ١١٩ (٣٧٩٨) ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتىٰ رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله أصابَني الجَهْد ! فأرسلَ صلى الله عليه وسلم إلىٰ نسائه ، فلم يَجدْ عندهنَّ شيئاً ، ـ وفي الرواية الثانية : فقلنَ : ما معنا إلا الماء !! ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا رجلٌ يُضيفهُ الليلةَ ؟ يرحَمُه الله » ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلىٰ أهله فقال لامرأته : ضيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تدَّخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلا قُوتُ الصِّبْية ! قال : فإذا أراد الصِّبيةُ العَشاء فَنوِّميهم ، وتعالَيْ فأَطْفِئي السِّراج ونَطْوِي بطونَنا الليلةَ ! ففعلتْ ! ثم غدا الرجلُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد عَجِبَ الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلانٍ وفلانة » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الحشر : ٩ .

وروى البيهقي في الشُّعبة الثانية والعشرين من « شُعَب الإيمان » (٣٤٨٣) عن أبي جَهْم بن حذيفة العَدَوي قال : « انطلقتُ يومَ اليرموك أطلُبُ ابنَ عمي ومعي شَنَّةٌ من ماء أو إناءٌ ، فقلت : إنْ كان به رَمَقٌ سَقَيتُه من الماء ومَسَحتُ به وجهه ، فإذا أنا به يَنْشَغ [١] ـ صوت خفيّ يخرج من المحتضَر ـ ، فقلت :

(١) أي : يَشْهَق حتىٰ يكاد يغشىٰ عليه .

أَسقيك ؟ فأشار أيْ : نعم ، فإذا رجل يقول : آه ، فأشار ابن عمي أنِ انطلقْ به إليه ! فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو ، فأتيتُه ، فقلت : أَسقيك ؟ فسمع آخرَ فقال : آه ، فأشار هشامٌ أنِ انطلق به إليه ! فجئته ، فإذا هو قد مات ! فرجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات ! فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات » ! رضي الله عنهم وأرضاهم .

وأعقَبَ هـٰذه القصةَ المشهورةَ بإسنادِ قصةٍ أخرىٰ مثيلتِها ، مع رجال آخرين ، فكأن الحادثة تكرَّرتْ ، قال : « إن الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعياش ابن أبي ربيعة ارتُثُّوا(١) يوم اليرموك ، فدعا الحارثُ بماءٍ يشربُه ، فنظر إليه عكرمة ، فقال الحارث : ادفعوه إلىٰ عكرمة ، فنظر عياش بن أبي ربيعة ، فقال عكرمة : ادفعوه إلىٰ عياش ، فما وصل إلىٰ عياش ولا إلىٰ أحد منهم حتىٰ ماتوا وما ذاقوه » ! .

هُمُ الرجالُ ، وعيبٌ أن يقال لمن لم يتَّصفْ بمعاني وصفهم : رجلُ

فأين هـٰذا الشحيحُ المَقيتُ من هـٰؤلاء : يُؤْثرون غيرَهم علىٰ حياتهم في آخرِ لحظةٍ من لحظاتهم في الدنيا وهم علىٰ عَتَبة البرزَخ !! .

وانظر تقبيح الله عز وجل لصنيعه وشُحِّه إذْ يقول له : « كما منعتَ فضلَ ما لم تَعْملْ يداك » ، أي : إنك بَخِلْتَ ومنعتَ المحتاجَ من عبادي شيئاً ليس لك في وجوده يدٌ ولا أَثَر ، إنما أوجدتُه لك لأختبرك وأَبتليَك ، أخرجتُ لك الماء من أرضك دون جهد منك ولا تعَمُّل ، وجعلتُ حاجةَ الناس إليك ، ولم أجعلْ حاجتَك إليهم ، فكانت يدُك العليا ، ومع هـٰذا فلم تَشكُرْ هـٰذه النِّعم ببذلها لعبادي وعيالي ! .

فلا غرابة إذا كان ممن يشملهم الوعيد المذكور في الحديث : لا

---

(١) أي : حُمِلوا من أرض المعركة جرحىٰ وبهم رَمَق .

يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم في نار جنهم لتزكِّيَ نفوسَهم من أدران هٰذه الأخلاق السيئة ، نعوذ بالله من ذٰلك .

وفي حديث ضعيف ـ وقال بعضهم : حسن لغيره ـ يقول عليه الصلاة والسلام : « الخَلْقُ كلُّهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله » وشواهد الكتاب والسنة كلُّها تدلُّ علىٰ صحته(١) .

* * *

(١) وانظر ما تقدم ص ١٥٧ .

٥٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : ومَنْ أَظْلَمُ ممن ذَهَبَ يخلق كَخَلْقي ؟! فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً ، أو لِيَخْلُقوا حبَّةً ، أو شَعيرةً » ! .

٥٥ ـ تخريجه : رواه البخاري حديثاً قدسيّاً في كتاب التوحيد ـ باب قول الله : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات : ٩٦ ، ١٣ : ٥٢٨ (٧٥٥٩) ، ورواه قبلُ نبويّاً في كتاب اللباس ـ باب نقض الصُّوَر ١٠ : ٣٨٥ (٥٩٥٣) ، ورواه مسلم قدسيّاً : كتاب اللباس والزينة ـ باب تحريم تصوير الحيوان . . . ٣ : ١٦٧١ (١٠١) .

غريبه : ذَهَبَ : قَصَدَ وتوجَّه وأراد .

كَخَلْقي : الخَلْق هنا : مصدرٌ أريد به اسم المفعول ، التقدير : كمخلوقي ، والكاف للتشبيه ، فالمعنىٰ : يخلُق مخلوقاً مشابهاً للمخلوقات الإلـٰهية ، وخُصَّ هـٰذا العموم بحديث ابن عباس الآتي نقلُه عن البخاري ومسلم .

ذَرَّة : نملةً صغيرةً ، أو : هي الهَبَاء الذي يُرَىٰ في البيت بدخول الشمس من نوافذه .

معناه : افتتح الله عز وجل هـٰذا الحديثَ القدسيَّ بهـٰذا الاستفهام الإنكاري ، وتقديره : لا أحدَ أظلمُ لنفسه ممن « يصوِّر صورةً تُشْبِه صورةَ خلقتُها » ، كما قاله القاري في « مِرقاة المفاتيح » ٨ : ٣٣٠ .

قال المناوي في « فيض القدير » ٤ : ٤٨١ : « وهـٰذا التشبيه لا عمومَ له ، يعني : كخَلْقي من بعض الوجوه في فعل الصورة ، لا من كل وجه » .

والظاهر: أن الحرمةَ تثبُت بالقَصْد والإرادة، كما قال: «ذَهب يخلُق كخلقي»، وسواء أكان ماهراً أم متدرّباً، أم في بداية امتهانه عملَ التصوير.

و«يخلُق» أي: يصوِّر، كما قال الله تعالىٰ حاكياً قول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل: ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٤٩، أي: أُصوِّر من الطين.

وقوله: «كخلقي» أي: يصوِّر صورةً تُشبِه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالىٰ، وهٰذا كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عائشة المتفق عليه عند الشيخين: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُضاهون بخَلْق الله» ـ وهو حديثُ القِرَام المعروف ـ أي: يَعملُون عملاً يُشابهون به خَلْق الله، أي: ما خَلَقه الله، أو ـ كما تقدم ـ: مخلوقَ الله، ولا يصح أن يُراد المصدر، لأن خَلْق الله ـ بمعنى المصدرية ـ لا يُعلم، إذْ لا أحدَ يَعلم كيف يخلُق الله الخَلْق، ولأن خَلْق الله للخَلْق يكونُ بتوجُّه إرادته إلى الأمر فيكون ما يريد، جل وعلا، وهٰذا التوجُّه هو المعبَّر عنه بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يسٓ: ٨٢.

قال الحافظ في «الفتح» ١٠: ٣٨٧ (٥٩٥٤) في شرح حديث القِرام: «أي: يُشَبِّهون ما يصنعونه بما يصنعُه الله، ووقع في رواية الزهري، عن القاسم عند مسلم ـ ٣: ١٦٦٧ (٩١) ـ: الذين يُشَبِّهون بخلق الله»، فالمضاهاة: المشابَهة، وهي مشابَهةٌ بين ما يَصنعُه العبد، وبين ما صَنَعه الله، كما هو صريحُ قول ابن حجر: بما يصنعه الله، فمراده: المصنوع المخلوقُ، لا الصَّنْعة، بمعنى المصدر، ونقل ١٣: ٥٣٥ (٧٥٥٧) عن ابن بطَّال قولَه: «إنما نُسِب خَلْقُ ـ الصُّوَر ـ إليهم، تقريعاً لهم بمضاهاتهم الله تعالىٰ في خلقه، فبكَّتَهم بأنْ قال: إذا شابهتم بما صوَّرتم مخلوقاتِ الله

تعالىٰ فأَحْيُوها ، كما أحيا هو ما خَلَق » ، فانظر قوله : مخلوقات الله تعالىٰ .

وقال القاري في « مرقاة المفاتيح » ٨ : ٣٣٠ في شرح « يُضَاهون بخلْق الله » : أي يُشابهون عملَهم التصوير بخَلق الله ، قال القاضي ـ البيضاوي ـ : أي : يفعلون ما يُضاهي خَلْق الله ، أي : مخلوقه ، أو يشبِّهون فعلهم بفعله ، أي : في التصوير والتخليق » ، فمآل القول الثاني إلى القول الأول ، لأن المصوِّر يحاول محاكاة مصنوعِهِ بمصنوع الله ، من طُول وقِصَر ، ونَحافةٍ وبَدَانةٍ ، وكِبَرِ عينيه وصِغَرهما ، وكذا فمه وأنفه وخَدَّيه . . .

وينتج عن ذٰلك : أن من توجَّه قصدُه لإحداث هيئة تُشبِه ـ قليلاً أو كثيراً ، أو تماماً ـ هيئةَ مخلوقٍ من مخلوقات الله عز وجل : فقد حقَّتْ عليه الحُرمة والمعصية .

وها هنا اعتراضان :

١ ـ قد يقول قائل : إن مقتضىٰ هٰذا الذي تقدَّم أن تصوير كل مخلوق لله تعالىٰ كائناً ما كان : حرام ، ولو كان شجرةً ، أو سماءً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نهراً . . . ، وكل ما يدخل تحت قول الناس في زماننا : المناظر الطبيعية .

وأقول : نعم ، إن هٰذا هو مقتضىٰ عموم ما تقدم ، لٰكنْ أَخَذَ جماهير العلماء بفتوى ابن عباس رضي الله عنهما ، المروية في الصحيحين ، لرجل قال له : إني رجلٌ أصوِّر هٰذه الصُّوَر ، فأَفْتِني فيها ، فقال له : أُدنُ مني ، فدنا منه ثم قال : ادنُ مني ، فدنا حتىٰ وَضَع يده علىٰ رأسه ـ وكأن هٰذا حَصَلَ له لما قام بصرُه رضي الله عنه ـ قال : أنبئك بما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّ مصوِّرٍ في

النار ، يَجعلُ (اللهُ) له بكل صورة صوَّرها نَفْساً فتعذِّبُه في جهنم » ، وقال ابن عباس : إنْ كنتَ لا بدَّ فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نَفْس له ، أي : ما لا روح له ، هـٰذا لفظ مسلم ٣ : ١٦٧٠ (٩٩) .

ولفظه عند البخاري في أواخر كتاب البيوع ٤ : ٤١٦ (٢٢٢٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَن صوَّر صورةً فإن الله معذِّبُه حتىٰ يَنفُخَ فيها الروح ، وليس بنافخٍ فيها أبداً » ، قال : فَرَبا الرجلُ رَبْوةً شديدةً ـ أي : تنفَّس الصُّعداء ـ واصفرَّ وجهه ، فقال له ابن عباس : وَيْحك ـ وهي كلمة ترحُّم ـ إنْ أبيتَ إلا أن تصنَعَ فعليك بهـٰذا الشجرِ : كلِّ شيء ليس فيه روح » .

فهـٰذا هو أصل ما اشتهر لدى الناس بجواز تصوير المناظر الطبيعية ، وهو ـ كما قلت ـ مذهب الجماهير .

ونقل العلماء ـ النووي وابن حجر وغيرهما ـ أن مجاهداً تلميذَ ابنِ عباس خالف في ذٰلك .

قال النووي رحمه الله ١٣ : ٩١ : « أما الشجر ونحوه مما لا روح فيه : فلا تَحرُم صَنْعَتُه ولا التكسُّبُ به ، وسواءٌ الشجر المثمِر وغيره ، وهـٰذا مذهب العلماء كافة إلا مجاهداً فإنه جَعَل الشجر المثمِر من المكروه ، قال القاضي ـ عياض ـ : لم يقلْه أحدٌ غير مجاهد ، واحتج مجاهد بقوله تعالىٰ في هـٰذا الحديث القدسي : ومن أظلمُ ممن ذَهَبَ يخلق كخلقي ، واحتج الجمهور بقوله صلى الله عليه وسلم : يقال لهم : أحْيوا ما خلقتم ، أي : اجعلوه حيواناً ذا روح كما ضاهيتم . . . » .

فيكون استدلال مجاهد بعموم قوله : يخلقُ كخلقي ، والشجر ونحوه من مخلوقات الله تعالىٰ .

وملحظ آخر لمجاهد ، نبَّه إليه المناوي ، هو قوله في الحديث : « أو

لِيَخْلقوا حبةً أو شعيرة » ، قال المناوي ٤ : ٤٨٢ : « وأخذَ منه مجاهد حرمةَ تصوير ما لا روح فيه ، حيث ذكر الشعيرة ، وهي جَمَاد » .

واستثنى العلامة عليٌّ القاري من جواز تصويرِ المناظرِ الطبيعية : تصويرَ الشمس والقمر ونحوهما ، مما عُبِد من دون الله تعالىٰ ، فقال رحمه الله في « المرقاة » ٨ : ٣٣١ : « وأما ما عُبد من دون الله ولو كان من الجمادات كالشمس والقمر ، فينبغي أن يَحْرُمَ تَصويرُه ، والله أعلم » ، وهٰذا ـ كما ترىٰ ـ استظهار منه ، وليس جزماً بالمنع .

٢ ـ وللمعترِض أن يقول أيضاً : إن مقتضىٰ ما تقدَّم أن يَحرُم تصوير ما له ظِلٌّ ، أي : المحرَّم من التصوير هو هٰذه (المجسَّمات) ولو لم تكن كبيرةً كالتماثيل الكبيرة لبعض زعماء العالَم ، أما ما كان صورةً (فوتوغرافية) مطبوعةً علىٰ ورقة فلا تدخل تحت التحريم ، إذ كيف تُنفَخ الروحُ في صورة كهٰذه ، أما المجسَّمات : فنعم ! .

والجواب : أن الأمر يحتاجُ إلىٰ نظر في جميع الأحاديث الواردة في المسألة ، ومما ورد فيها حديثُ النُّمْرُقة أو القِرام ، أو النَّمَط ، أو السِّتْر ، أو الدُّرْنوك ـ بالنون أو الميم ـ ألفاظٌ متعدِّدةٌ ، ومعناها متقاربٌ ، وكلُّها واردةٌ في حديث واحد ، تعددتْ رواياته وألفاظه ، وقد ساقها مسلم ، واتفق معه البخاري علىٰ رواية أصل القصة ، وخلاصته :

أنه كان عند عائشة رضي الله عنها بساطٌ لطيف له خَمْل ـ أهداب ـ فسترتْ به باب بيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج في غزوة من غَزَواته ، فلما قَدِم منها ورآه ، استنكره ، قالت عائشة : فعرفتُ الكراهية في وجهه ، فَجَذَبه حتىٰ هَتَكَه وقال : « إن الله لم يأمرنا أن نَكْسُوَ الحجارةَ والطينَ » ، قالت : فقطَعنا منه وسادتين وحَشَوْتُهما لِيفاً ، فلم يَعِبْ ذٰلك عليَّ .

وليس في هٰذه الرواية ما يدلُّ أن على البساط صورةً ، لذٰلك أعقبها مسلم بروايةٍ أخرىٰ فيها أنه كان على البساط تِمثالُ طائر ، وفي رواية ثانية : فيه الخيل ذواتُ الأجنحة ، وفي رواية ثالثة : تناول السِّتْر فهتكه وقال : « إن من أشدِّ الناس عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهون بخلق الله » ، وفي عدد من الروايات الأخرىٰ أنها جعلتْ منه وسادة أو وسادتين .

وفي رواية : أنها نَصَبتْ سِتراً فيه تصاوير ، فنزعه ، فجعلتْ منه وسادتين ، فكان يَرْتَفِق عليهما ، أي : يتكئ .

ثم ذكر مسلم حديثَها رضي الله عنها وأنها اشترتْ للنبي صلى الله عليه وسلم نُمْرُقَة ـ أي : وسادةً صغيرةً ـ فيها تصاوير ، فلما رآها لم يدخُل البيت ، قالتْ عائشة : يا رسول الله أتوبُ إلى الله وإلىٰ رسوله ! فماذا أذنبتُ ؟ قال : « ما بالُ هٰذه النُّمْرُقَة ؟ » فقالت : اشتريتُها لك تَقعدُ عليها وتَوَسَّدُها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن أصحاب هٰذه الصور يُعَذَّبون ويقال لهم : أَحْيوا ما خَلَقْتم » ، ثم قال : « إن البيت الذي فيه الصُّور لا تدخُلُه الملائكة » .

وزاد في رواية : قالت عائشة : فأخذتُه فجعلتُه مِرْفَقَتين ، فكان يَرتَفِقُ بهما في البيت .

والمِرْفَقَة : المُتَّكَأُ ، فهي أعمُّ من النمرُقة التي هي الوسادة الصغيرة .

ويؤخذ من هٰذه الروايات : جوابُ الاعتراض الثاني ، وهو أن الصُّوَر حرامٌ اتخاذُها وفعلُها ، سواء أكانت مجسَّمةً ذاتَ ظلٍّ أم لا ، لأن هٰذه التماثيل التي كانت على السِّتارة لم تكن ذاتَ ظلٍّ ، قال الحافظ في « الفتح » ١٠ : ٣٩٠ (٥٩٥٧) : « يُستفاد منه : أنه لا فرق في تحريم التصوير بين أن تكون الصورة لها ظِل أوْ لا ، وبين أن تكون مدهونةً أو منقوشة أو منقورة أو منسوجة ، خلافاً لمن استثنى النسج وادَّعىٰ أنه ليس بتصوير » .

ويُستفاد منها : أنها إذا كانت علىٰ هيئة محترمة لا يجوز ، وإذا جُعلت ممتهَنةً جاز ، يدلُّ علىٰ ذٰلك رواية : نَصَبَتْ سِتراً فيه تصاوير ، فلما جعلته وسادتين ارتفق عليهما ، علىٰ أنه لا دليلَ واضحٌ علىٰ أن التصاوير فيه بقيت كاملة بعد تقطيعه إلىٰ وسادتين ، قال الحافظ في الموضعِ المذكور قبلُ : « يَحتمِل بأنها لما قَطعتْ السِّتر وقع القَطْع في وسَط الصورة مثلاً ، فخرجتْ عن هيئتها ، فلهٰذا صار يرتفق بها » وأيَّده .

نعم ، نصَّ فقهاؤنا الحنفية رحمهم الله تعالىٰ علىٰ كراهية السجود علىٰ صورةٍ في البساط أو السَّجَّادة وإن كانت تُوطأ بالأقدام ، فالاتكاء عليها أمرٌ غير السجود عليها .

ومما ينبغي التنبيه إليه أمور :

أولها : يزعم بعض الناس أن تحريم التصوير إنما كان أولَ الإسلام ، قطعاً للناس وإبعاداً لهم عما يمتُّ إلىٰ أمور الجاهلية بأية صِلة ، فقُرْبُهم من عبادة الأوثان في الجاهلية حَمَل الشارعَ علىٰ أن يحرِّم عليهم ما يتَّصل بذٰلك من قريب أو بعيد ، فهٰذا من شاكلة ما يُسمىٰ في أصول الفقه : سدُّ الذرائع .

وهو زعم خاطئ ، فأحاديث تحريم التصوير كانت في العهد المدني لا العهد المكي ، وحديث السيدة عائشة ـ وغيرها ـ صريح في ذٰلك ، وما زال الصحابة رضي الله عنهم ومَن بعدهم يَرْوون على الناس أحاديثَ تحريم الصور فعلاً وتزيُّناً بها في بيوتهم ، وأيُّ عبادة لخيل لها أجنحة ؟! ، وقد تقدم بيان تحريم الصُّور المجسَّمةِ وغيرها ، ولو صح قولهم لجاء التصريح بالنسخ ، كما في الأنبذة ، ولَمَا بقي حاجة لتعذيب الله لهم في الآخرة .

ثانياً : مما يستغرب في التحليل والتحريم اعتبارُ اختلاف الأسماء من بلد إلىٰ بلد ، فكَوْنُ ممتَهِنِ عمل التصوير يسمَّىٰ في بعض البلاد : مصوِّراً ، وفي

بعضها يسمىٰ غيرَ ذٰلك : لا يدلُّ علىٰ جواز التصوير الفوتوغرافي ، فالعبرةُ بالمعاني لا بالحروف والمباني ! والأمر : بحصوله ، لا بتحصيله ، فهو تصويرٌ وصورةٌ ومصوِّرٌ ومصوَّر ، شاء المغالِطون أم أبَوْا .

ثالثها : زعمهم أن التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) لا يدخُل تحت التصوير المحرَّم ، وما هو إلا (حَبْس ظلّ) ، كمن وقف أمام مرآة ، فظهرت صورتُه وشخصيَّتُه فيها ، ثم إنا قد استطعْنا حبسَ هٰذه الصورة علىٰ ورقة مع تحوُّل الإنسان من أمام المرآة .

وهٰذا لونٌ آخر في تحوير الحكم الشرعي ، ذٰلك أن هٰذه وسيلةٌ حديثةٌ للحصول علىٰ صورة الشخص ، واختلافُ الوسائل لا يُغَيِّرُ الحكم الشرعي الذي اتَّحَدَتْ فيه نتائج هٰذه الوسائل ، وحَصَلَ منها للإنسان مُبْتَغاه ومراده ، وهو أن يحصل علىٰ (رسم) لإنسانٍ ما ، أو حيوانٍ ما .

فسواءٌ أحَصَل ذٰلك بالرسم اليدوي ـ وغالباً ما يكون مع بعض الفوارق ـ أم حصل بآلة ، وغالباً ما يكون دون أيِّ فارق ، بل قد يكونُ فيها تجميلٌ وتلوين ، وتقدَّم قبل أسطر ذِكْرُ القاعدة الشرعية : العبرة بالمعاني ، لا بالحروف والمباني .

وقد شاعت فتوى العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٥٤ رحمه الله تعالىٰ بإباحة هٰذا النوع من التصوير ، واتَّكأَ علىٰ فُتياه هٰذه مَن جاء بعده ، متمسِّكاً بتعليله ، أو مُتَدَرِّئاً بمقامه العلمي .

ومقام الشيخ لا يُنكَر ، لٰكنْ قد ردَّ عليه علماء ـ أيضاً ـ ذَوو جلالة ومقام علمي كبير من معاصريه ، منهم العلامة الحجة الشيخ محمد زاهد الكوثري ، المتوفىٰ سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالىٰ ، فإنه قال في « مقالاته » ص ١٤٣ وهو يردُّ عليه اعتماده قولاً لأبي السُّعود العِمادي في مسألة من مسائل الطلاق :

« غلِط الشيخ بخيت رحمه الله في تأييد هـٰذا القول الذي ليس من المذهب في شيء ، حتىٰ ألَّف رسالة فيه ، لـٰكنْ قولُه هـٰذا كقوله في التصوير الشمسي ، مغمورٌ في زاخر صوابه ، سامحه الله » .

والكوثري من أعرف الناس بمكانة الشيخ بخيت رحمهما الله ، وأشدِّهم ثناءً عليه ، ويُكْثِر من وصفه وتلقيبه بـ « شيخ فقهاء عصره » ، وانظر المقال نفسه ص ١٤٠ .

ومنهم العلامة الداعية الشيخ مصطفىٰ أبو سيف الحَمَّامي ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٦٨ رحمه الله تعالىٰ ، في كتابه المشهور « النهضة الإصلاحية » ص ٢٦٤ وما بعدها ، وعرَّض بالشيخ بخيت ولم يصرِّح باسمه .

وكأن العلامةَ المحبَّ الشيخ يوسف النبهانيَّ ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٥٠ رحمه الله تعالىٰ ، كتب رسالته « التحذير من اتخاذ التصوير » رداً علىٰ رسالة الشيخ بخيت .

وكذٰلك الظنُّ برسالة الشيخ محمد الفاهاشم الفُوتي المالكيِّ المذهب ، أحدِ علماء المدينة المنورة ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٤٩ ، جَمَع فيها أقوال علماء المذاهب الأربعة الدالة علىٰ تحريم التصوير ، وفيهم الإمام مالك رضي الله عنهم .

وغير هـٰؤلاء كثير ممن عاصروا الشيخ ، وبعده ، قبل أن يَستمرئ الناس هـٰذه الفَعْلة ، بسبب شيوعها فيهم .

وفي الصورة والتصوير أحكام فرعية عديدة منها ما هو جائز مع شيوع حرمته بين العامة ، ومنها ما هو حرام مع تَعَارُف الناس حِلَّهُ ، ليس هـٰذا مجالَ استعراضها .

ومن الجائز : أخذ الصورة (النِّصفية) في المعاملات الرسمية ، كالهُويَّة

الشخصية ، وجواز السفر ، ونحو ذٰلك ، وكذٰلك الصورة الفردية أو الجماعية كيفما كانت لتوثيق أمور رسمية ، أو هامة ، يترتب علىٰ فعلها خير ، أو توثيق عمل خيِّر ، أو دفع ضرر ما ، ونسأل الله حسن القصد .

وفي قوله آخرَ الحديث : « فلْيَخْلُقوا ذَرَّة ، أو ليخلُقُوا حبةً أو شعيرة » نكتتان علميتان :

الأولى : الأمر في قوله : « فليخلقوا » أمرٌ للتعجيز ، ومعنى التعجيز : إيقاعُ المأمور بالعجْز ، وذٰلك بتكليفه بأمر لا يستطيعُ القيام به ، فيعجِزُ عنه ، وهـٰذا يُقصد منه إيقاعُه بالعَنَت والمشقَّةِ ، ولا يكونُ ذٰلك إلا من آمرٍ قادر ، إلىٰ مأمورٍ عاجزٍ مسيءٍ أراد الآمرُ قهرَه ، وأنّىٰ للمخلوقِ الضعيفِ أن يصيرَ خالقاً قوياً .

الثانية : أن قوله : « فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة » : فيه ذكر لنوعين : ذرة ـ وهي مخلوق فيه حياة ـ ، وحبة وشعيرة وهما مخلوقان لا حياة فيهما ، فيكون في المأمور به ذِكْرٌ لما فيه حياةٌ ، ولما لا حياةَ فيه ، وذَكَر أولاً ما له وجودٌ وحياة ، ـ والتكليف به أصعبُ ـ ثم ذكر من باب التدنّي ما له وجودٌ ولا حياةَ فيه ـ والتكليفُ به أسهل ـ ومع ذٰلك فلن يستطيع المأمورُ أحدَهما .

هـٰذا على القول بأن الذرَّة هي النملةُ الصغيرةُ ، وعلى القول بأنها من الهَبَاء ، فيكون من باب التدني في التعجيز أيضاً .

قال الحافظ السخاوي في « الضوء اللامع » ٢ : ١٧٥ في ترجمةِ العلامة تقيِّ الدين أحمد بن محمد الشُّمُنِّي (٨٠١ ـ ٨٧٢) رحمه الله تعالىٰ : إنه أخذ علم الحديث عن الحافظ ابن حجر ، وكان ابن حجر يساعده « وزاد إقبالاً عليه حين وَقَعَ السؤالُ عن حكمة الترقِّي ـ في التعجيز ـ من الذَّرة ، إلى

الحبَّة ، إلى الشعيرة في قوله : « فليخلقوا ذرةً » ، وأجاب التقي ـ الشُّمُنِّي ـ بديهةً بأنَّ صُنعَ الأشياء الدقيقة فيه صعوبة ، والأمر بمعنى التعجيز ، فناسب التدلّي من الأعلىٰ ـ الأشدِّ صعوبةً ، لصغره ـ إلى الأدنىٰ ـ الأقل صعوبةً ، لكبره ـ ، فاستحسنه ـ ابن حجر ـ وزاد في إكرامِه والتعريفِ بفضيلته » ، ونبَّهني إلىٰ هٰذه القصة أولاً المناويُّ في « فيض القدير » ٤ : ٤٨٢ .

وقد ذكر الحافظ هٰذه المعاني والاحتمالاتِ بإيجاز في « الفتح » ١٠ : ٣٨٦ (٥٩٥٣) ، ١٣ : ٥٣٤ (٧٥٥٩) ، وهٰذا لفظه في الموضع الثاني ، قال : هٰذا « أمر بمعنى التعجيز ، وهو علىٰ سبيل الترقي في الحَقَارة ، أو التنزُّل في الإلزام ، والمرادُ بالذرَّة إن كان النملة : فهو من تعذيبهم وتعجيزهم بخلق الحيوان تارةً ، وبخلق الجماد أخرىٰ ، وإن كان بمعنى الهَبَاء : فهو بخلْق ما ليس له جِرمٌ محسوس تارة ، وبماله جِرمٌ أخرىٰ ، ويَحتمِل أن يكون « أو » شكاً من الراوي » . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

من أحاديث الرّقاق والذّكر والدّعاء

٥٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله تعالىٰ يقول: يا بنَ آدمَ تَفَرَّغْ لعبادتي أمْلأْ صَدْرَكَ غِنىً وأسُدَّ فَقْرك، وإلا تَفْعَلْ مَلأتُ يَدَيْكَ شُغلاً ولم أسُدَّ فقرَك ».

٥٦ ـ تخريجه: رواه الإمام أحمد في « المسند » ٢ : ٣٥٨، والترمذي في أبواب صفة القيامة ـ باب [من كانت الآخرة همَّه . . .] (٢٤٦٦) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٠٧).

معناه: يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، ويؤكد مولانا جلَّ وعلا هٰذا المعنىٰ هنا بندائه لبني آدمَ جميعاً: « يا بن آدم تفرَّغ لعبادتي » فإنك إنْ تفرَّغْتَ فقد تفرغتَ لما خُلِقتَ له، وحينئذٍ يمنحك الله تعالىٰ ما تكفَّل لك به، وهو الرزق، بل يمنحك ما هو أنفعُ لك من مجرد وجودِ المال بين يديك، ألا وهو الرِّضا بما قدَّر الله عز وجل لك وأعطاك إياه ويسَّره لك، وإن كان قليلاً، فأنت تشعرُ بكفَايته لك وبسدِّ حاجاتك فيه، وهٰذا ما نسمِّيه بالقناعة، وهو الذي جاء في الحديث: « أملأْ صدرك غِنىً وأسدَّ فقرك ».

فالتوجه للعبادة ـ مع المال الكثير أو القليل ـ والشعورُ بالرضا والكفاية: هو الغنى الحقيقي، وفيه الراحةُ في الدنيا من الكَدِّ وراء المال والدنيا

والحُطام ، وفيه الراحة في الآخرة من عَناء الحساب : « من أين اكتسبَه ، وفيمَ أنفقه » .

روى الترمذي (٢٤١٧) وقال : حسن صحيح ، عن أبي برزةَ الأسلمي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزولُ قدَما عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن عُمره فيمَ أفناه ، وعن علمه فيمَ فعلَ ، وعن ماله من أين اكتسبَه ، وفيمَ أنفقه ، وعن جسمه فيمَ أبلاه » .

« **وإلا تفعل** » فأعرضتَ عما خُلِقتَ من أجله ، ولم تتفرّغ لعبادة الله عز وجل : « **ملأتُ يديك شُغلاً** » ـ وفي رواية ابن ماجه : ملأت صدرك ـ أي : قلبك ـ شغلاً ، والمعنىٰ واحد ـ « **ولم أسُدَّ فقرك** » .

أي : إن الله يعاقبُ من لم يتفرَّغ لعبادته ، بل يريد الدنيا ، والازدياد منها ، يعاقبه بأخذ الدنيا منه ليتهالك عليها ويكدح وراءها ، وهي هاربة منه ، ويداه مغسولتان منها ، فهو فقير حسّاً ومعنىً .

أو : بإعطائه الدنيا وفَتْح بابها له علىٰ مصراعيها ، لا يَدْري كيف يجمع المال ويحسبُه ، ولا يشعرُ إلا وبابٌ يُفتح عليه بعد باب ، وهو يقول : هل من مزيد ، فمثَلُه كمثل الغريق : هو في كلِّ لحظةٍ يتسفَّل في الماء ، والماء يغمره أضعافاً فأضعافاً ، حتىٰ يُميتَه ، وكذٰلك حالُ المال مع الغني ، كحال الماء مع الغريق .

فهٰذا فقيرٌ معنىً ، وهو يستحقُّ الإشفاقَ عليه منا أكثرَ مما نُشْفِق علىٰ ذٰلك المُعَاقَب بأخذ الدنيا منه ، فذاك قد يقفُ عند حدِّه ويرتدُع لو جاءته الدنيا ، فسدَّتْ حاجتَه ، أما هٰذا فكالجَرِب ، كلما زاد حِكَّةً كلما ازداد جَرَباً ، وكلما زاد مالُه زاد نَهَمه ، وزاد إعراضاً عن الله . نسأل الله العافية .

والعاقلُ من رُزِق المالَ في يده ، ولم يتعلَّق به قلبه ، بل تَرَك يده للمال ،

وقلبَه لله ، فَيَدُه تشتغل بالمال ، وقلبُه مشغولٌ بربّه ، يشاهدُ فضْلَ الله عليه بالنعمة ، وأنه مُسْتَخْلَف فيها ، وأن الله تعالىٰ يُخاطِبُه ـ لا يخاطب غيره ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ المنافقون : ٩ ، فانظر إلىٰ قوله عز وجل ـ وهو أصدق القائلين ، وهو العليم والخبير ـ : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ كيف حَصَر الخسارة فيهم ، وحَصَرهم فيها ، مع أنهم ـ في الظاهر ـ جمَّاعون للأموال ، منشغلون بالأولاد ، لٰكنهم في الحقيقة خاسرون لهما ، أعاذنا الله منها بفضله .

وللسلف أقوال متعددة في المراد بـ ﴿ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ هنا ، أعمها أن يكون المراد به : طاعة الله ، كما قاله القرطبي ١٨ : ١٢٩ .

* * *

٥٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدي إذا هو ذَكَرَني وتَحَرَّكتْ بي شَفَتاه » .

٥٧ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه : كتاب الأدب ـ باب فضل الذِّكْر (٣٧٩٢) ، والإمام أحمد في « مسنده » ٢ : ٥٤٠ ، وذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾ القيامة : ١٦ ، ١٣ : ٤٩٩ ، ورواه مسنداً في كتابه « خلق أفعال العباد » (٣٤٤) . ورواه آخرون .

معناه : هٰذا حديث عظيم في الدلالة علىٰ فضل ذكر الله تعالىٰ ، ذٰلك أن الله عز وجل يُخْبر عن ذاته العليَّة فيقول : « أنا » الله الرحمٰن الرحيم ، الكريم ، الهادي ، اللطيف . . . ، « مع عبدي » ، أنا معه بالرحمة له ، والكرمِ عليه ، والهداية له ، واللطفِ به ، فأوفِّقه للخير ، وآخذ بيده إلى الصالحات ، وأدفعُ عنه الشرور والمكاره . . .

متىٰ ؟ ولماذا ؟ .

« إذا هو ذكرني » ، ولفظُ البخاري المعلَّق بشرح الكِرْماني ٢٥ : ٢١٧ ، والعيني ٢٠ : ٣٧٧ : « حيثُما ذكرني » ، ولفظُه في « خلق أفعال العباد » : « مع عبدي ما ذكرني » .

فروايةُ : « إذا ذكرني » : تُفيدُ أن معيَّة الله تعالىٰ بالرحمة والخير تكون له بمجرد الذكر ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ البقرة : ١٥٢ ، وهي ثابتة متصلة دائمةٌ ما دام ذاكراً ، كما يُستفاد من روايةِ : « مع عبدي ما ذكرني » ، وتفيدُ روايةُ : « حيثُما ذكرني » أن الله تعالىٰ معه بهٰذه الصفات في أي

مكان كان : في المسجد ، وفي البيت ، وفي المَتجر ، والسوق ، وفي الجهاد « وهو مُلاقٍ قِرْنَه »[١] ، وفي المدرسة ، وفي الفراش ، والمسِير ، وهٰكذا ، وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين الآتي برقم (٥٩) : « وأنا معه إذا ذكرني . . . » ، والذِكْر يكون باللسان ، وبالفعل ، وبالقلب .

فذكر الله باللسان : يكون بالتسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، وقراءة القرآن ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالأذكار المأثورة عامة ، والمأثورة في مناسبات خاصة ، كالأذكار المأثورة حين دخول المسجد ، والخروج منه ، وعقب الصلوات ، وعند النوم والاستيقاظ منه ، وعند الصباح والمساء ، وسمى الله تعالىٰ خُطبة الجمعة ذِكراً في قوله : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الجمعة : ٩[٢] ، وهٰذا ما صُرح به في الحديث : « وتحركتْ بي شفتاه » .

وهو صريح في أن المعيَّة ثابتةٌ للذاكر بمجرَّد تحريك الفم : الشفتين واللسان ، إذا كانت الواو للحال لا للعطف ، أما إذا جعلْناها عاطفةً فالمعيَّة ثابتةٌ لمن جَمَع بين الذكر اللساني والقلبي ، قال العلامة القاري في « مرقاة المفاتيح » ٥ : ٧١ : « وهٰذا أولىٰ ، لأن المؤثّر النافع هو الذكر باللسان مع حضور القلب ، وأما الذكر باللسان ، والقلبُ لاهٍ ، فهو قليل الجدوىٰ » ، وأصل الفكرة للإمام الغزالي رحمه الله في « الإحياء » أوائل كتاب الذكر ١ : ٢٩٤ ، وأنبِّه إلىٰ قوله : قليل الجدوىٰ ، أي : إن في الذكر اللساني فائدةً ، لٰكنها قليلة ، فلا نمنع عنها العامة ، بل ننبههم إلىٰ ضرورة ذكر القلب معه ، وانظر لزاماً « فتح الباري » ١١ : ٢٠٩ .

---

(١) انظر الحديث رقم ٦١ .

(٢) هٰذا أحد الأقوال في تفسير هٰذه الآية الكريمة ، وهو قول قوي ، ولا يتنافىٰ مع غيره .

وذكر الله **بالفعل** : كالصلاة ، فإنها مشتملة على ذكر الله تعالىٰ .

وبالقلب ـ وهو الذِّكر السِّرِّي ـ ، وبه يحضُر القلب ويَلينُ ويطمئنُّ ويخشع ، وينتج عنه النشاط للعبادة والخير بألوانه ، وبه . . . ، وبه . . .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » ١ : ٣٠١ في فصل فضيلة التسبيح والتحميد من كتاب الأذكار والدعوات : « حضور القلب في لحظةٍ بالذكر ، والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا قليلُ الجدوىٰ ، بل حضورُ القلب مع الله تعالىٰ على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدَّم على العبادات ، بل به تَشْرُفُ سائرُ العبادات ، وهو غاية ثمرةِ العبادات العملية » .

❋ ❋ ❋

٥٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذِّكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هَلُمُّوا إلىٰ حاجتكم ، قال : فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : ربُّهم عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلمُ بهم ـ : ما يقول عبادي ؟ قال : تقول : يُسَبِّحونك ، ويكبرونك ويحمَدونك ويمجِّدونك ، قال فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رَأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً ، وأشدَّ لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثرَ لك تسبيحاً .

قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يسألونك الجنَّةَ ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربِّ ما رأوها ، قال : فكيف لو أنهم رأوْها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوْها كانوا أشدَّ عليها حِرْصاً ، وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبةً .

قال : فممَّ يتعوَّذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشدَّ منها فِراراً ، وأشدَّ لها مخافةً .

قال : فيقول : فأُشهدُكم أني قد غفرتُ لهم .

قال : يقول مَلَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجةٍ ! قال : هُمُ الجُلَساءُ لا يَشقىٰ جَليسُهم » .

٥٨ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الدعوات ـ باب فضل ذكر الله عز وجل ١١ : ٢٠٨ (٦٤٠٨) ، ومسلم : كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل مجالس الذكر ٤ : ٢٠٦٩ (٢٥) ، ورواه الترمذي عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما في أبواب الدعوات ـ باب [لله ملائكة سيَّاحون] (٣٦٠٠) .

غريبه : يلتمسون : يقصدون بالبحث .

هَلُموا : تعالوا ، أقبلوا .

يحفُّونهم : يلتفون بهم ويحوطونهم .

يمجدونك : يعظمونك ، ويذكرون فضلك عليهم .

معناه : في أولِ هٰذا الحديث القدسي الشريف وآخرِه بيانُ فضلِ الله تعالىٰ علىٰ عباده ، ولو أنهم طائعون ذاكرون ، فإنما أطاعوه وذكروه بفضله وتوفيقه ، وفي وسطه بيان فضل الذكر وأهله .

ففي أوله : فضلُ الله علىٰ عباده ، إذْ يُرسِل ملائكة كراماً تطوف في الأرض بحثاً عن الذاكرين الله عز وجل ، فإذا وجدوا ضالَّتهم المنشودة نادىٰ بعضُهم بعضاً : هلمُّوا إلىٰ ما تبغون ومن تبغون : إلىٰ مجالس الذكر وأهل الذكر ، فيحفُّونهم بأجنحتهم ، ويكونُ بعضُهم فوق بعض « حتىٰ يملؤوا ما بينهم وبين سماءِ الدنيا » كما في رواية ذكرها الحافظ في « الفتح » ١١ : ٢١٢ .

ويسألهم الله تعالىٰ ـ وهو العليم الخبير ـ أين كانوا ؟ وماذا عندهم من علم وخبر ؟ ويكون الحوار المذكور في الحديث .

قال الحافظ في « الفتح » ١١ : ٢١٣ : « قيل : إن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر : الإشارة إلىٰ قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة : ٣٠ ، فكأنه قيل لهم : انظروا إلىٰ ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سُلِّط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان ، وكيف عالجوا ذٰلك ، وضاهوكم في التسبيح والتقديس » .

وفي آخره : فضل الله عز وجل من وجهين : تفضله عليهم بالعطاء والنوال للذي يسألونه : نجاةٍ من النار ، وحُظوةٍ بالجنة ، وهٰذا هو الفوز العظيم : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ آل عمران : ١٨٥ .

وهٰذا تفضُّلٌ عظيم ، ومرغِّب بذكر الله تعالىٰ والحرص على البحث عن مجالسه ، وصحبةِ أهله ، لٰكنَّ الوجهَ الثاني أعظمُ وأدعىٰ لمحبة العبدِ لربِّه ، وأظهرُ لفضل الله علىٰ عباده ولطفه بهم وكرمه عليهم ، هو أن الله تعالىٰ يكرم العبدَ الخطَّاء المذنب من أجلهم وبسببهم ؛ لأنه جلس معهم جلوساً عابراً غير قاصد له ، إنما عرضت له حاجة للمكان أو لأحد الذاكرين من أهل المجلس ، فدخل فجلس ، فشمِلته مغفرة الله الغفور الرحيم ، وتداركته العناية الربانية بهٰذا الوعد الكريم : « **أُشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ، ليس منهم . . .** » ، وفي رواية : « **إن فيهم فلاناً الخطَّاء لم يُردهم** » لم يقصد مجلسهم ولا مجالستهم « **إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقىٰ جليسهم** » .

وفي رواية : « هم القوم » ، قال في « الفتح » : « وفي اللام ـ أي : أل التعريف الداخلة علىٰ كلمة : قوم ـ إشعارٌ بالكمال ، أي : هم القومُ كل القوم » .

وقوله : « **لا يشقىٰ جليسهم** » : فيها إشعارٌ ببيان علَّة عدم الشقاوة ، وهي :

المجالسة ، وجاءت رواية أخرىٰ تفيدُ علةً أخرىٰ ولفظُها : « لا يشقىٰ بهم جليسهم » أي : بسببهم ، وفي رواية الترمذي المشار إليها في التخريج : « لا يشقىٰ لهم جليس » أي : من أجلهم وإكراماً لهم .

وفي « فيض القدير » ١ : ٤٤٢ : « قال النووي : كما يستحب الذكر يستحبُّ الجلوس في حِلَق أهله ، وقد تظاهرت علىٰ ذٰلك الأدلة » .

فانظر فضل مجالس الذكر ، وفضل مجالس الذاكرين .

وانظر فضل الصحبة لهم ما أعظمَها ! فإذا كانت مجالستهم عن غير قصدٍ وإرادة تُنتج هٰذا الخيرَ العظيمَ ـ وزيادةً في تعظيمه أن الله تعالىٰ أَشهدَ ملائكتَه عليه ـ فكيف بما يَنْتُج عن مصاحبتهم وملازمتهم وتعلُّق القلب بهم ! لا ريب أن « المرء مع من أحبَّ » .

ومن هنا يُستفادُ ضرورة اختيار الجليس الصالحِ والصاحبِ الخيِّر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة : ١١٩ .

قال العلامة الحكيمُ الراغبُ الأصفهانيُّ رحمه الله تعالىٰ في « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » ص ٢٢٥ كلاماً نفيساً في الصحبة وأثرها ، أنقلُه بطُوله لنَفَاسته ؛ قال :

« حق الإنسان أن يتحرَّىٰ بغاية جُهده مصاحبة الأخيار ، فهي قد تجعلُ الشِّرِّير خيِّراً ، كما أن صحبةَ الأشرار قد تجعلُ الخيِّر شِريراً ، قال الحكماء : من جالسَ خيِّراً أصابته بركته ، فجليس أولياء الله لا يشقىٰ وإن كان كلباً ، ككلب أصحاب الكهف ، حيثُ قال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ الكهف : ١٨ [١] .

---

(١) ينظر « تفسير » ابن عطية ١٠ : ٣٧٨ ، والقرطبي ١٠ : ٣٧١ ـ ٣٧٢ عند هٰذه الآية الكريمة ، بل ذكر الصاوي في « حاشيته » على الجلالين عند هٰذه الآية أن هٰذا الحيوان من جملة الحيوانات التي تدخل الجنة ، وذٰلك بفضل الصحبة !.

ولهٰذا أوصت الحكماء بمنع الأحداث من مجالسة السفهاء ، وقال عليٌّ أمير المؤمنين رضي الله تعالىٰ عنه : لا تصحب الفاجرَ فيزيّنَ لك فعلَه ، ويودَّ أنك مثلُه ، وقيل : جالسوا من تذكِّركم اللهَ رؤيتُه ، ويزيد في خيركم نطقه ، وقالوا : إياك ومجالسةَ الشرير ، فإن طبعك يسرِق من طبعه ، وأنت لا تدري ، بل قال صلى الله عليه وسلم : « مثلُ الجليس الصالح والسَّوْءِ كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسكِ إما أن يُحذِيك ـ أي : يعطيك ـ وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخ الكير إما أن يُحرِق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المرء علىٰ دين خليله ، فلينظر أحدُكم من يُخالل »[٢] أي : يجذبه خليله إلىٰ دينه ، ومن قوة هٰذا المعنىٰ في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر[٣] :

عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينه فكلُّ قرين بالمقارن يقتدي

وليس إعداءُ الجليس جليسَه بمقاله وفعاله فقط ، بل وبالنظر إليه ، فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقاً مناسبة إلىٰ خُلق المنظور إليه ، فإن من دام نظره إلىٰ مسرور سُرَّ ، ومن دام نظره إلىٰ محزون حزن .

وذٰلك ليس في الإنسان فقط ، بل وفي الحيوان وسائر النبات ، فإن

---

(١) هٰذا لفظ البخاري في كتاب الذبائح ـ باب الصيد ٩ : ٣٢٢ ، وذكره الراغب بغير هٰذا اللفظ فأثبتُّ لفظ البخاري .

(٢) هٰذا لفظ أحمد ٢ : ٣٣٤ ، ورواه الترمذي (٢٣٧٨) بلفظ : « الرجل علىٰ دين خليله . . . » وقال : حسن غريب .

(٣) هو طَرَفة بن العبد ، أو عدي بن زيد التميمي ، انظر آخر شرح معلَّقة طرفة ص ١٢٤ ، من « شرح القصائد العشر » للتِّبريزي ، فيضاف هٰذا إلى التعليق علىٰ « مصنف » ابن أبي شيبة (٢٦١٠٤) بتحقيقي .

الجمل الصعبَ قد يصير ذلولاً بمقارنة الذلول ، والذلول يصير صعباً بمقارنة الصعاب ، والريحانة الغضَّة تذبل بمقارنة الذابلة ، ولهٰذا يلقُط أصحاب الفلاحة الرِّمم ـ العظام البالية ـ عن الزروع لئلا تُفسدَها ، ومعلومٌ أن الهواء والماء يَفسُدان بمجاورة الجيفة إذا قَرُبتْ منهما ، وذٰلك مما لا ينكره ذو تجربة .

وإذا كانت هٰذه الأشياء قد بلغتْ في قَبول التأثير هٰذا المبلغَ ، فما الظنُّ بالنفوس البشرية التي موضوعها لقَبول صورِ الأشياء : خيرها وشرها ؟! » . انتهىٰ[١] .

ومع ذٰلك : فممَّا ينبغي أن يُعلم أن الحكماءَ والمشتغلين بتهذيب النفوس نبهوا إلىٰ أن صحبةَ الأخيار وأهل الصلاح وسيلةٌ لا غاية ، فلا ينبغي للعاقل أن يشتغل بالوسيلة عن الغاية .

قال المناوي رحمه الله تعالىٰ في « فيض القدير » ١ : ٤٤٢ : « قال الجنيد : دخلتُ على السَّري ـ السَّقَطي ، وهو خالُ الجنيد ـ وهو يجودُ بنفسه ـ في حالة الاحتضار ـ فجلستُ وبَكيتُ ، فسقطت دموعي علىٰ خدِّه ، ففتح عينيه ونظر إليَّ ، فقلتُ : أوصني ، قال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشتغل عن الله بمخالطة الأخيار » .

فنبَّهه إلىٰ أن صحبة الأخيار للدلالة على الله تعالىٰ ، فإذا حَصَلتْ لك فلا تبقَ متشاغلاً بصحبتهم عما وصلتَ إليه ، بزَعْم أن صحبتهم خيرٌ ، ومخالطتهم فضيلة ، فتبقىٰ فيما كنتَ عليه ، ولا ترتفعُ إلىٰ مقام أعلىٰ ، وكذٰلك لا تَنْسَ فضلَهم عليك فلا تلتفت إليهم بالوفاء لهم ! .

---

(١) وينظر لزاماً من « مصنف » ابن أبي شيبة : كتاب الأدب ـ باب : « في الرجل : مَن يُؤمر أن يُجالس ويداخل » (٢٦١٠٢ ـ ٢٦١٠٥) .

وانظر إلىٰ هِمَّة الجنيد رضي الله عنه ، فإنه لم يشأْ أن تفوتَه فرصةُ الاستفادةِ من خاله وهو في حالة النزْع وسياق الموت ، وهو يبكي عليه ودموعُه تتساقط علىٰ خدِّه ، بل اهتبلَ الفرصة فسأله وصيةً غالية ، هي وصيةُ مودِّع ومودَّع .

وانظر إلىٰ أثر الصحبة في نفوس القوم ، فإنه آثرها علىٰ أي وصية سواها ، وهو في هٰذه الحال : آخر لحظةٍ من لحظاته مع ابن أخته وخليفته من بعده . رضي الله عنهم وأرضاهم .

هٰذا عما في أول الحديث وآخره .

وأما ما في وسطه : فذكرُ الله تعالىٰ ، ومجالس الذكر ، وأهل الذكر .

أما ذكرُ الله تعالىٰ : فيكونُ بما جاء في هٰذه الرواية التي فيها نصٌّ على التسبيح ، والتكبير ، والتحميد ، والتمجيد ، وسؤال الله الجنةَ والاستعاذةِ به من النار ، وجاءت روايات أخرىٰ ذكرها الحافظ في « الفتح » ١١ : ٢١٢ فيها النصُّ على : التهليل « لا إلـٰه إلا الله » وتعظيم آلاء الله ، ـ وهٰذا مردُّه إلى التحميد والتمجيد ـ والسؤالِ لآخرتهم ودنياهم ـ وهٰذا يشمل سؤالَ الجنة والاستعاذةَ من النار ، وكل دعاء لصلاح دنياهم وآخرتهم(١) ـ وتلاوة القرآن الكريم ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

فهٰذه أمور زائدةٌ على الخمسة المذكورة ، وقد تُدْمَج فتبقىٰ ثمانية أو تسعة .

فهٰذه مشتملاتُ مجالس ذكر الله تعالى المشروعةِ ؛ لذٰلك كانت بُغيةَ الملائكة الكرام وطِلْبتهم : « إذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادَوْا : هلُموا إلىٰ حاجتكم » .

---

(١) قال في « الفتح » ١١ : ٢١٢ (٦٤٠٨) : وفي حديث أنس عند البزار : « ويعظِّمون آلاءَك ، ويتلون كتابك ، ويصلّون علىٰ نبيك ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم » .

ويحقُّ لهم أن يتفضَّل الله تعالىٰ عليهم بما تقدَّم بيانه .

قال الحافظ بعد بيان الروايات التي أشرتُ إليها : « وفي دخول قراءة الحديث النبوي ومدارسة العلم الشرعي ، ومذاكرته ، والاجتماع علىٰ صلاة النافلة في هٰذه المجالس : نظرٌ ، والأشبه اختصاص ذٰلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما والتلاوة : حسبُ ، وإنْ كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه : من جملة ما يدخل تحت مسمىٰ ذكر الله تعالىٰ » .

روى الترمذي (٣٥١٠) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارْتَعوا » ، قالوا : وما رياضُ الجنة ؟ قال : « حِلَق الذِّكْر » وقال : حسن غريب .

وروىٰ قبْله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، قلت : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : « المساجد » ، قلت : وما الرَّتْع يا رسول الله ؟ قال : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر » وقال : حسن غريب (١) .

فهٰذه مجالس الذِّكر ، وهٰذا هو الرتع فيها ، وهو يؤيد ما استظهره الحافظ ابن حجر رحمه الله .

وأما حديث ابن عباس مرفوعاً : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالسُ العلم » فرواه الطبراني في « المعجم الكبير » ١١ : ٩٥ (١١١٥٨) ، وفيه راوٍ لم يُسمَّ .

---

(١) هٰكذا في المطبوعة ، وفي « الترغيب والترهيب » ٢ : ٤٣٧ : « رواه الترمذي وقال : حديث غريب . قال الحافظ ـ أي المنذري ـ : وهو مع غرابته حسن الإسناد » . والرَّتْع في اللغة : هو الأكل والشرب ـ كما يشاء ـ في خِصْب وَسَعة .

وأما أهلُ الذِّكر : ففضائلهم ومَكرُماتهم عند الله تعالىٰ كثيرة ، ويكفيهم فضلاً أن الله يغفر لمن جالسهم مجلساً ـ ولو قصيراً ـ غيرَ مقصود ولا متعمِّد ، بسببهم ولكرامتهم عند ربهم .

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من الذاكرين له كثيراً والذاكرات ، على الوجه المشروع دون حَيْف ولا زيغ ، وهو الهادي والموفق .

* * *

٥٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذَكرني ، فإنْ ذكرني في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ : ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم ، وإنْ تقرب إليَّ شبراً : تقَّربت إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً : تقرَّبتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي : أتيتُه هرولةً » .

٥٩ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ آل عمران : ٢٨ ، ١٣ : ٣٨٤ (٧٤٠٥) مطوَّلاً هٰكذا ، ورواه مسلم أول : كتاب الذكر والدعاء : ٤ : ٢٠٦١ (٢) .

غريبه : الظنُّ ـ هنا ـ : العلم واليقين .

الملأ : أشراف القوم .

الباع : قَدْر اليدين مفتوحتين ممدودتين والصدرُ بينهما .

معناه : هٰذا لون آخر من ألوان إكرام الله تعالىٰ لعباده الذاكرين ، مع بيان أنواع الذكر السرِّيِّ والجهري .

وجاء في صدر هٰذا الحديث الذي فيه هٰذا الإكرام وهٰذا البيان ، جاء في صدره بيان عظيم كرم الله علىٰ عباده : « أنا عند ظنِّ عبدي بي » .

فالله جل جلاله يُطَمئن عباده : أن لا تخافوا ولا تحزنوا ، ما دمتم ترجون مني المغفرة ، معتقدين أني أغفرُ لكم : فثقُوا بأني قد غفرت لكم ، وإن دعوتموني معتقدين الإجابة والنوال ، راجين مني جزيل العطاء فثقُوا بذٰلك وتحقَّقوا الإجابة ، فأنا عند اعتقادكم ورجائكم .

وهٰكذا سائر أحوال العبد ، ينبغي أن يكون فيها واثقاً بربه أن يعامله بما هو له أهل ، سبحانه وتعالىٰ ، ولذا جاء في رواية واثلة بن الأسقع رضي الله عنه : « قال الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظُنَّ بي ما شاء »(١) إجابةً لدعاء ، وشفاء من مرض ، وغنىً من فقر ، ونُصرة من ظلم ، ومغفرة لذنب ، وعلماً بعد جهل . . . وهٰكذا .

ومن هنا « قال علماؤنا : ليس في خصال الخير وإنْ جلَّتْ ، ولا في أنواع الأعمال وإن عظمت ، أعلىٰ من حسن الظن بالله تعالىٰ ، ونظمه بعض الشعراء فقال :

أيُّها العبدُ كنْ لما لستَ ترجو ... من نجاحٍ أرجىٰ لما أنت راجي
إن موسىٰ مضىٰ لِيَقْبِسَ ناراً ... من شُعاعٍ قد لاح ، والليلُ داجي
فأتىٰ أهلَه وقد كلَّم اللـ ... ـهَ وناجاه ، وهو خير مناجي
وكذا الكربُ كلَّما اشتدَّ بالعبـ ... ـد دَنَتْ منه راحةُ الانفراجِ(٢)

ثم يذكر اللهُ تعالىٰ فضل الذاكرين ، ويجعل ذكرهم له علىٰ نوعين : سِريّ وجهري ، وذٰلك بعد أنْ ذكر فضلاً عظيماً منحهم إياه ، هو المعيَّة الإلٰهية الخاصة بهم ، إذ قال : « وأنا معه إذا ذكرني » ، وفي رواية لمسلم : « وأنا معه حين يذكرني » ، ورواية الترمذي : « وأنا معه إذا دعاني » .

وكلُّها متفقة غيرُ مختلفة ، فهو سبحانه مع ذاكريه حين يذكرونه ، وتمتدُّ

---

(١) رواها الإمام أحمد ٣ : ٤٩١ ، والطبراني في « الكبير » ٢٢ (٢١٠) ، قال الهيثمي ٢ : ٣١٨ : « رجال أحمد ثقات » ، وهي أيضاً عند الحاكم ٤ : ٢٤٠ وصححها ، وقال الذهبي : علىٰ شرط مسلم .

(٢) من « سراج الملوك » للإمام أبي بكر الطُّرطوشي رحمه الله تعالىٰ ، أواخر الباب التاسع والخمسين ص ٢٩٠ .

هٰذه المعيَّة فلا تنقطِع ، كما يُستفاد من التعبير بـ (إذا) الظرفية لما يستقبل من الزمن ، ويشهد لذٰلك إحدىٰ روايات الحديث المتقدم برقم (٥٧) : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركتْ بي شفتاه » .

والذِّكر شامل للدعاء وغيره من تسبيح وتحميد . . . كما تقدم هناك .

وهٰذه المعيَّة الخاصة ، ليس معيةً بالعلم فقط ، كما قال في « الفتح » ١٣ : ٣٨٦ (٧٤٠٥) ، بل هي معيَّة بها و« بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية » كما قال الإمام النووي : ١٧ : ٢ فلا يحصُل له إلا ما فيه رحمة ، ولا يصدر عنه إلا ما فيه رحمة ، ولا يقدر له إلا التوفيق ، ولا يصدر عنه أمر إلا والتوفيق حليفُه ، وهٰكذا سائر شؤونه ، تحفُّه فيها العِناية الإلٰهية ، والحفظ والوقاية .

ثم ذَكَر اللهُ تعالى النوعَ الأول من الذكر : « فإن ذَكَرني في نفسه : ذكرتُه في نفسي » ، ففضلُ الله تعالىٰ دائماً غالبٌ ظاهر : إذا ذكره العبد في نفسه ، تفضَّل سبحانه على العبد فذكره في نفسه ، وذكرُ الله للعبد أشرفُ من ذكر العبد لله .

ومعنىٰ « إنْ ذكرني في نفسه » : واضح : أن يذكر العبدُ ربَّه تعالىٰ في نفسه سراً ، بتسبيحه وتهليله وتحميده . . .

أما ذكر الله تعالىٰ له : فمعناه : كما نقَله النووي عن المازَريِّ : « إذا ذكرني خالياً أثابه الله وجازاه عما عَمل بما لا يطَّلع عليه أحد » .

وقال الحافظ في « الفتح » : « أي : إن ذكرني بالتنزيه والتقديس سراً ، ذكرته بالثواب والرحمة سراً » والمعنىٰ واحد ، والرحمة التي سيذكره الله تعالىٰ بها سراً ، لا بدَّ أنها تناسب حالَ الذاكر وحاجته ، ولسانَ حاله الذي يَسأل به ربه ، فإنْ ذَكر العبدُ ربَّه وهو خائف ، ذكره الله بالرحمة فأمَّنه ، وإن ذكره وهو مستوحِش آنسه ، كما قال الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله

تعالىٰ ، فلا منافاة بين ما قاله ابن حجر في تفسيره الذي نقلته ، وبين تفسير ابن أبي جمرة الذي نقله عنه ابنُ حجر نفسُه ، إنما جاء كلام الحافظ عاماً ، وكلام ابن أبي جمرة كالمثال علىٰ بعض الحالات .

ومن دواعي الذكْر السرِّي : الإخلاص فيه وتجنبُ الرياء ، وكلَّما تمكَّن هٰذا الملحظ في نفس الذاكر ، كان ذكره أدعىٰ للقبول ، ولإعظام الثواب عليه ، ولذكر الله تعالىٰ له في نفسه .

ويشهد لذٰلك رواية البزار ١١ : ٣٢٥ (٥١٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : « قال الله تعالىٰ : يا بن آدم إذا ذكرتني خالياً : ذكرتك خالياً » .

قال الهيثمي في « المجمع » ١٠ : ٧٨ : « رجاله رجال الصحيح غير بشر بن معاذ العقدي وهو ثقة » .

وأما النوع الثاني من الذكر : فهو الذكر الجهري : « وإن ذكرني في ملأ : ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم » .

وصار الملأ الثاني خيراً من الملأ الأول ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ مع من يذكر هٰذا الذاكر ، وإلا لكان ظاهر الحديث يفيد أن الملائكة أفضلُ من البشر ، وهو خلاف مذهب جمهور أهل السنة[1] ، ولا ريب أن ذِكر كلِّ ذاكر علىٰ حسبه ، فذكر الله له بالرحمة ، وذكر الآخرين ـ الملائكة ـ بالدعاء .

قال في « الفتح » ١٣ : ٣٨٧ قال : « القاضي كمال الدين ابن الزَّمْلكاني في الجزء الذي جمعه في الرفيق الأعلىٰ : إن الله قابَلَ ذِكْرَ العبد في نفسه ، بذكره له في نفسه ، وقابل ذكر العبد في الملأ : بذكره في الملأ ، وإنما صار الذكر في الملأ الثاني خيراً من الذكر في الأول ، لأن الله هو الذاكر فيهم ، والملأ

(١) « فتح الباري » ١٣ : ٣٨٦ (٧٤٠٥) .

الذين يذكرون ـ اللهَ ، والله فيهم ـ أفضلُ من الملأ الذين يذكرون وليس الله فيهم » .

وقد جاء في روايةٍ عند الطبراني في « معجمه الكبير » عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه وصف هـٰذا الملأ الثاني بأنه « الرفيق الأعلىٰ » وحسَّنها المنذري ٢ : ٣٩٤ ، والهيثمي ١٠ : ٧٨ .

وما حكمةُ ذكر الله تعالىٰ في الملأ والرفيق الأعلىٰ ، لمن ذكره في ملأ ؟ قال المناوي رحمه الله ٤ : ٤٩٦ : « مباهاةً بك ـ بالذاكر في الملأ ـ وإعظاماً لقدرك » أي : إن الله تعالىٰ يباهي بهـٰذا العبد ملائكته الكرام ويرفع من قدره لديهم ، وكأنه يشير بذٰلك إلى المعنى الذي تقدم نقله ص ٣٣٣ عن الحافظ ابن حجر في « الفتح » أن الله تعالىٰ يريد أن يُريَ الملائكة برهانَ قوله لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ حين قالوا له : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة : ٣٠ ، ولا ريب أن حِكَم الله تعالىٰ في أموره أجلُّ وأعلىٰ .

وأما قولُه عزَّ شأنه : « وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » : ففي هـٰذا القول الكريم عظيمُ فضلِ الله ولطفه وكرمه علىٰ عباده المُقْبلين عليه بالتوبة والإنابة .

ونقل الإمام الترمذي رحمه الله تفسيره ـ عقبَ روايته له ـ عن الأعمشِ أحدِ رواة هـٰذا الحديث ، وهو إمامٌ مشهور بالقراءات ورواية الحديث ، توفي سنة بضع وأربعين ومئة ، قال : « ويُـروىٰ (١) عن الأعمش في تفسير هـٰذا

---

(١) ليس مرادُ الترمذي تضعيفَ هـٰذا النقل عن الأعمش بالتعبير « يُروىٰ » . ولا يُعْرَفُ للعلماء المتقدمين مثلُ هـٰذا الاصطلاح ، ولا للإمام البخاري في معلقاته .

وينظر لهـٰذا التأويل ما تقدم في شرح الحديث رقم (١١) .

الحديث « من تقرب مني شِبراً تقربت منه ذراعاً » : يعني بالمغفرة والرحمة ، وهٰكذا فسَّر بعضُ أهل العلم هٰذا الحديث ، قالوا : إنما معناه : يقول : إذا تقرَّب إليَّ العبد بطاعتي وبما أمرتُ ، تُسارعُ إليه مغفرتي ورحمتي » ، ونحو هٰذا التفسير قولُ قتادة عقب روايته للحديث : « فالله تعالىٰ أسرع بالمغفرة » كما في « المسند » ٣ : ١٣٨ ، وتوفي قتادة قبل الأعمش بنحو ثلاثين سنة .

وقال النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ١٧ : ٣ : « هٰذا الحديث من أحاديث الصفات ، ويستحيل إرادةُ ظاهره ، ومعناه : من تقرب إليَّ بطاعتي تقربتُ إليه برحمتي والتوفيق والإعانة ، وإن زاد : زدتُ ، فإن أتاني يمشي وأسرعَ في طاعتي : أتيتُه هرولةً ، أي : صببت عليه الرحمة وسبقته بها ، ولم أُحْوِجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، والمراد : أن جزاءه يكون تضعيفُه علىٰ حسب تقرُّبه » .

وقال ابن الأثير في « النهاية » ٥ : ٢٦١ في تحديد معنى الهرولة ، والمعنى العام للجملة : « الهرولة : بين المشي والعَدْو ـ أي : الركض ـ وهو كنايةٌ عن سرعة إجابة الله تعالىٰ ، وقبول توبة العبد ولطفه ورحمته » .

❋ ❋ ❋

٦٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقولُ الرب عزَّ وجل : مَن شَغَلَه القرآن وذِكري عن مسألتي : أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين ، وفضلُ كلامِ الله علىٰ سائر الكلام كفضلِ الله علىٰ خلْقه » .

٦٠ ـ تخريجه : رواه الترمذي آخر أبواب ثواب القرآن (٢٩٢٦) وقال : حديث حسن غريب .

ورواه ابن أبي شيبة (٢٩٨٨١) عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن مالك ابن الحارث : يقول الله : . . . ، فهو مرسل ، وانظر لزاماً « اللآلئ المصنوعة » ٢ : ٣٤٢ .

معناه : يبيّن الله عز وجل في الشطر الأول من الحديث فضلَ طائفةٍ من عباده ، علىٰ طائفة أخرىٰ هي فاضلةٌ صالحة أيضاً .

فالطائفة الثانية : طائفةُ السائلين اللهَ لهم الداعين له أن يرزقهم المال والولد . . . وأن يُصلح شأنهم ، وأن يُعافيهم . . . وأن يغفر لهم ويرحمهم . . .

والطائفة الأولىٰ : هي طائفةُ المشتغِلين المُنْهَمِكين بتلاوة كتاب الله ، وبذكر الله : من تسبيح وتقديس ، وتحميد وتمجيد ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسؤال بما يُصلح لهم آخرتهم ودنياهم . . . كما تقدم تعداده صفحة ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ومن جملة ذكر الله تعالىٰ ما تقدم هناك : تلاوة كتاب الله تعالىٰ ، فيكون قوله هنا : « من شغله القرآن وذكري . . . »

من باب عطف العام على الخاص ، لبيان شرف هٰذا الخاص ، لذٰلك خصَّه بالذكْر من بين الأذكار .

علىٰ أنه تقدم هناك ص ٣٣٨ أن من جملة الذكر : « يسألونك لآخرتهم ودنياهم » ، فالسؤال من جملة الذِّكر ، فكيف جَعَل الكلَّ هناك ذاكرين ـ ومقتضاه أن يكونوا متساوين ـ وهنا فاضَلَ بينهم ، فجعل السائلين مفضولين ، وأولٰئك فاضلين ؟ .

والجواب : أن المقتضَى المذكور في الاعتراض غير صحيح ، ألا ترىٰ أن أفراد المشتغِلين بذكْر واحد ليسوا سواءً في الرتْبة ، فكذٰلك المشتغلون بأذكار مختلفة تختلف مراتبهم ، فليس كلُّ من اشتغل بالقرآن الكريم في مرتبة واحدة ، ولا كل من اشتغل بالتسبيح كذٰلك ، وهٰكذا ، فكذٰلك المشتغلون بالتسبيح ليسوا في مرتبةِ المشتغلين بالقرآن الكريم ، وإن كان الجميع ذاكرين لله تعالىٰ .

علىٰ أنه يمكن أن يقال جواب آخر : إن « السائلين » المذكورين هنا قد يكون سؤالهم متمحِّضاً قاصراً علىٰ أمور دنيوية ، فكونُهم سائلين : يجعلُهم في ذكر ، لٰكنهم ذاكرون الله تعالىٰ لمصالحهم الدنيوية ، أما المشتغلون بالقرآن والألوان الأخرىٰ من الذكر فأجلُّ وأرفعُ رتبةً . والله أعلم .

ولماذا كان المشتغلون بالقرآن وذكرِ الله أفضلَ قدراً عند الله عز وجل ؟ .

الجواب ـ والله أعلم ـ : أن السائلين يسألون لأنفسهم من الله ، أما أولٰئك فمشغولون بالله عن أنفسهم ، وفرقٌ عظيمٌ لا يُقْدَرُ قدْرُه بين المقامين .

وتقدَّم قبل قليل : أن عطف « وذكري » على « القرآن » من عطف العام على الخاص ، لبيان شرف هٰذا الخاص ، وهو القرآن الكريم .

وبياناً لمقدار شرف هـٰذا الخاصِّ قال جل جلاله : « وفضلُ كلام الله علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ خلقه » .

فالقرآن كلامُ الله ، وتاليه تالٍ لكلام الله وذاكرٌ لله بكلامه تعالىٰ ، أما المسبِّحُ ، الحامدُ ، الممجِّد ، المهلِّل . . فهو ذاكرٌ لله بكلامٍ من عند نفسه .

فلذٰلك خصَّ القرآن بالذكر ، ولذٰلك جاء بالشطر الثاني من الحديث مع الشطر الأول ، مع أن الشطرَ الأول قِيل لتفضيل طائفة علىٰ طائفة ، والشطرَ الثاني لتفضيلِ كلام علىٰ كلام . والله أعلم .

* * *

٦١ ـ عن عُمَارة بن زَعْكَرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن عبدي كلَّ عبدي : الذي يذكُرني وهو مُلاقٍ قِرْنَه » .

٦١ ـ تخريجه : رواه الترمذي في أبواب الدعوات (٣٥٨٠) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه ، وليس إسناده بالقوي » ، ونقل المناوي رحمه الله في « فيض القدير » ٢ : ٣١٠ عن ابن حجر أنه قال : « لا يُعرف له إلا هٰذا الحديث ، وهو حسن غريب ، وقولُ الترمذي : ليس إسناده بقوي : يريد ضعف عُفَيْر ، لٰكنْ وجدت له شاهداً قوياً مع إرساله ، أخرجه البغوي ، فلذٰلك حسَّنتُه ، وقول الترمذي « غريب » : أراد غرابتَه من جهة تفرُّد عُفَير بوصله ، وإلا فقد وُجد من وجه آخر » .

غريبه : قِرْنه : في « النهاية » ٤ : ٥٥ : « القِرْن : الكُفء والنَّظير في الحرب والشجاعة » .

معناه : يمتدحُ الله عزَّ وجل صنفاً من عباده امتداحاً عظيماً ، ذٰلك لأنهم حازوا صفةً عظيمة ، هي التحقُّق بصفة العبودية لله تعالىٰ ، وذٰلك في قوله : « إن عبدي كلَّ عبدي » .

وما هي علامة هٰذا التحقُّق ؟ وماذا ظهر منهم للناس ؟ قال : « الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنه » .

فمن ذَكَر ربَّه في معضلاتٍ وشدائد كهٰذه : كان ذٰلك علامةَ تحقُّقه بالعبودية لرب العالمين ، ولماذا ؟ لأن من شأن العبد أن يعلم أن له ربّاً فيذكُرَه ، ومن كان عريقاً في العبودية متحقِّقاً بها تمامَ التحقُّق : كان علىٰ ذِكْرٍ لربه دائماً وأبداً ، ومتذكراً له .

وهٰذان أمران لا ينفكّان : ربٌّ معبود ، وعبدٌ مربوب ، فالذي يتحقق أنه عبدٌ مربوبٌ يعلمُ ويتذكَّر أن له ربّاً معبوداً ، فيلْهجُ بذكره علىٰ قدر تحققه من هٰذه العبودية ، ولا سيما عند الشدائد ، تراه يفزع إلىٰ ربه فيذكره بوجهٍ من وجوه الذكر ، فلا تشغلُه شدَّة ولا رخاء عن ذكر مولاه عز وجل .

وتأمَّلْ قوله : « قِرْنه » ! فإنه صلى الله عليه وسلم لم يقل : عدوَّه ـ مثلاً ـ ، فقد يكون المقابلُ له ، المقاتلُ له ، أضعفَ منه ، وهو واثقٌ من غلبته له ، فذكره لربه حينئذ ذكرُ المطمئنِّ الواثق من قوته وغلبته علىٰ عدوِّه .

أما إذا كان قِرناً له مكافئاً مماثِلاً ، فهو مضطربُ النفس خائفٌ من تغلُّب عدوِّه عليه ، فذِكْره لله تعالىٰ في تلك الساعة أعلىٰ مقاماً ، وأجلُّ قدراً ، وأدلُّ علىٰ تحققه بالعبودية ، وأجلُّ من هٰذا وذاك : ذكرُه لله تعالىٰ أمامَ عدوٍّ أقوىٰ منه ، فبذكره لله يستمدُّ العونَ والنصر منه .

وهٰذا الحديثُ القدسيُّ الشريف من بابة الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ الأنفال : ٤٥ ، فرتَّب الله عز وجل الفلاح في الجهاد علىٰ أمرين : على الثبات أمامَ العدوِّ ، وعلىٰ ذِكْر الله جلَّ شأنُه ذكراً كثيراً ، ولم تقتصر الآية الكريمة علىٰ مجرَّد ذكر الله تعالىٰ ، بل أمَرَتْ بالذكْر الكثير ! وفقنا الله لذٰلك .

❋ ❋ ❋

٦٢ ـ عن الأغرِّ أبي مسلم قال : أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة : أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال : لا إلـه إلا الله والله أكبر : صدَّقه ربُّه فقال : لا إلـه إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إلـه إلا الله وحده : قال : يقول الله : لا إلـه إلا أنا وحدي ، وإذا قال : لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له : قال الله : لا إلـه إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال : لا إلـه إلا الله ، له الملك وله الحمد : قال الله : لا إلـه إلا أنا ، ليَ الملك ولي الحمد ، وإذا قال : لا إلـه إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله : قال : لا إلـه إلا أنا ، ولا حول ولا قوة إلا بي » .

وكان يقول : « من قالها في مرضه ثم مات : لم تَطْعَمْه النارُ » .

٦٢ ـ تخريجه : رواه الترمذي : كتاب الدعوات : باب ما يقول العبد إذا مرض (٣٤٣٠) وقال : حسن غريب ، واللفظ له ، ورواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٩٨٥٨) ، وابن ماجه : كتاب الأدب ـ باب فضل لا إلـه إلا الله (٣٧٩٤) بنحوه .

معناه : هـٰذا الحديث جامع لعدد من صِيغ الأذكار التي تكون سبباً للنجاة من النار لمن وُفِّق لقولها .

وفيهما جملة واحدة مشتركة بين الجميع هي : « لا إلـه إلا الله » التي هي أفضل الذكر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الذكر :

لا إلـٰه إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله » رواه الترمذي (٣٣٨٣) وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم ، ورواه ابن ماجه (٣٨٠٠) ، وابن حبان (٨٤٦) ، والحاكم ١ : ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

والصيغ الأخرىٰ فيها زيادات إما مؤكِّدة للتوحيد ، مثل : « وحده » « لا شريك له » ، وإما زيادات فيها معنىً جديد ، مثل : « والله أكبر » ، « له الملك وله الحمد » ، « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

والجملتان الأوليان فيهما : تعظيمُ الله تعالىٰ : بالتكبير وإثبات الملك له ، والثناءُ عليه : بالتحميد ، ومن الثناء عليه تعظيمه ، سبحانه وتعالىٰ ، فيكون الجامعُ لهما : الثناء على الله .

وأما الجملة الثالثة : ففيها غاية التفويض لله والاستسلام إليه ، وذٰلك أن قائلها ينفي عن كل أحد من مخلوقات الله تعالىٰ : من إنسٍ وجنٍّ وملائكة ، أنْ يكون لأحد منهم حركة يتحرك بها من قِبَل نفسه ، أو قوةٌ يقوىٰ بها علىٰ فعل شيءٍ ما ، إلا بإذن الله ومشيئته ، وبقوةٍ وقدرة من عنده يَمُدُّك بها .

فأيُّ معنىً إيمانيٍّ عظيم تَحمله هـٰذه الجملة : لا حركة لأحد ، ولا قوة لأحد ، إلا بعون الله وإرادته وقدرته ، تستمنحه إياها ، فيمنحك ، ولهـٰذا كانت هـٰذه الجملة الواحدة كنزاً من كنوز الجنة ، كما جاءت بذٰلك عدة أحاديث .

ومما يُستفاد من هـٰذا الحديث : ضرورةُ انتظار العبد الذاكر لله بهـٰذه الأذكار ، كأنه يستمع إلىٰ تصديق الله له : صدق عبدي : لا إلـٰه إلا أنا ، وأنا أكبر ، لا إلـٰه إلا أنا وحدي . . . وهـٰكذا ، فالعبد يقول ، والله يصدِّقه ويكرِّر قولَ عبده ، فما أطيبها من مناجاة ومحاورة ! .

ثم جاءت البشارة العظمىٰ لمن مات علىٰ هٰذه الكلمات قولاً وتحقُّقاً ، وهي نجاته من النار ، فما أعظمها من بشارة لمن كان علىٰ فراش الموت ! .

* * *

٦٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله : قال الله : أسلَمَ عبدي واستسلم » .

٦٣ ـ تخريجه : رواه الحاكم في « المستدرك » ١ : ٥٠٢ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي في « تلخيصه » : صحيح ، سمِعه الوليدُ بن مسلم ـ أحدُ رواته ـ منه ، أي : من شيخه إبراهيم بن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب ، ونقله المنذري في « الترغيب » ٢ : ٤٣٥ ، ونقل كلام الحاكم وسكت عليه فلم يتعقبه بشيء .

معناه : هـٰذا الحديث جامع لأشهر صِيغ ذكر الله تعالىٰ ، وفي فضيلة كلِّ جملة علىٰ حدة ، أو مقترنة بأخرىٰ : أحاديثُ كثيرةٌ ، تجدُها في « الترغيب » للمنذري ٢ : ٤١٢ ـ ٤٤٦ ، وفي « مجمع الزوائد » ١٠ : ٨١ ـ ٩٩ .

ومعنىٰ سبحان الله : تنزيه الله ، أي : أُنـزِّه الله عز وجل عن كل نقص وشَينٍ ، وصفه به مَن كفرَ مِن السابقين واللاحقين ، وعن كل ما لا يليق بجلاله مما يخطر بالبال أو يتوهمه الخيال ، فهو الله المقدس المُبرَّأ من كل عيب .

والحمد لله : فيه إثبات الكمال لله ؛ لأنه لا يُحْمَد أحد علىٰ كمالاته إلا الله .

فيكون ـ حينئذ ـ التسبيح والتحميد كلمتين جامعتين لصفات الله عز وجل علىٰ وجه العموم والإجمال : تنزيهٍ عن النقائص ، وإثباتٍ للمحامد ، ولذٰلك نجدهما مقترنتين معاً في كثير من النصوص .

أما لا إلـه إلا الله : فنفي لجنس ما يتصوَّر أن يُعبد سوى الله عز وجل : لا معبود بحق إلا الله ، ولا موجود بحق وجوداً ذاتياً إلا الله .

والله أكبر : من كل كبير ، وأعظمُ من كل عظيم ، وأجلُّ من أن تُدركَ لذاته حقيقةٌ ، أو لصفاته كُنْه ، فلذلك استحق الإفراد بالعبادة له .

ولا حول ولا قوة إلا بالله : قال في « النهاية » ١ : ٤٦٢ : « يقال : حالَ الشخص يَحُول : إذا تحرك ، المعنىٰ : لا حركة ولا قوة إلا بمشيئة الله تعالىٰ » .

فالحول إذاً : الحركة ، والمعنىٰ : لا حركة لأحد من خلق الله ، في شأن من شؤونه من خير أو شر ، أو نفع أو ضرّ ، إلا بإذن الله ومشيئته ، وكذلك لا قدرة له علىٰ شيء مما ذُكر إلا بالله : بتوفيقه أو خذلانه .

فإذا استشعر العبد من نفسه فاعترف بهٰذه الحقيقة وتحقَّق بها : فقد حَظِي بكنز من كنوز العرش ، كما جاء في أحاديث كثيرة أنَّ : لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز العرش ، ومن كنوز الجنة ، ومن تحت العرش من كنز الجنة .

وهٰذا العبد الذي يذكر الله تعالىٰ بهٰذه المحامد : يأتيه الجواب من الله تعالىٰ ، وفيه بيان المقام الذي ارتقىٰ إليه العبد : « **أسلَمَ عبدي واستسلم** » .

والاستسلامُ أبلغُ من الإسلام ، لأن زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ ، كما قرره أهل العربية .

فالإسلام : هو الانقياد لرب العالمين ، وقد انقاد إليه وخضع له حينما أقرَّ له بصفات الكمال (الحمد لله) ، ونزَّهه عن أي نقيصة (سبحان الله) ، ورفض وجود أيِّ معبود سواه فأقرَّ له بالوحدانية (لا إلـه إلا الله) ، واعتقد أنه أعظم من أي عظيم ، وأكبر من كل كبير (الله أكبر) .

فمن البَدهي أن ينتج عن هٰذا : الاستسلام الكامل ، والتفويضُ التام ،

والخروج والبراءة من كل حول له إلىٰ حول الله ، ومن كل قوة له إلىٰ قوة الله العلي العظيم (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، وهٰذا هو الاستسلام .

فالإسلام : بالصيغ الأربع الأولىٰ ، والاستسلام : بالصيغة الخامسة الأخيرة . والله أعلم .

ومما ينبَّه إليه في آخر الحديث عن « لا حول ولا قوة إلا بالله » : أن كثيراً من العوام يتلفظون بها تلفظاً مختصراً مُخِلاً إخلالاً قبيحاً فيقولون : لا حول لله ، ولا يريدُ هٰذا المعنىٰ أحدٌ من المسلمين ، إذ المعنىٰ كفر ، وتصحيح التلفظ واجبٌ ، فليتنبه له ، ولينبه إليه .

❋ ❋ ❋

٦٤ ـ عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذاتَ يوم والبشرىٰ في وجهه ، فقلنا : إنا لَنَرى البُشرىٰ في وجهك ! فقال : « إنه أتاني الملَكُ فقال : يا محمد إن ربك يقول : أَمَا يرضيك أنه لا يصلي عليك أحدٌ إلا صليتُ عليه عشراً ، ولا يُسلِّم عليك أحدٌ إلا سلمتُ عليه عشراً ؟ قال : بلىٰ » .

٦٤ ـ تخريجه : رواه النسائي في « السنن الصغرىٰ » : كتاب الصلاة ـ باب فضل التسليم على النبي صلى الله عليه وسلم ٣ : ٤٤ ، وأحمد ٤ : ٣٠ في موضعين ، والجملة الأخيرة من الحديث « قال : بلىٰ » : من الموضع الثاني ، وعند ابن حبان (٩١٥) : « بلىٰ أيْ رب » .

معناه : إن الله تعالىٰ وعد نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وعداً عاماً عظيمَ المنقبة بقوله جلَّ شأنه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ الضحىٰ : ٥ ، وظهر هٰذا الوعد في مواقف شتىٰ ، ومن ذٰلك : مقابلةُ الله عز وجل بالثواب العظيم ، لمن يصلِّي ويسلِّم على النبي الكريم ، عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم ، ولما عَلم النبي عليه الصلاة والسلام بهٰذا الثواب سُرَّ واستنار وجهُه ، وظهر البِشرُ عليه ، وانطلقتْ أساريره .

ورُوي نحوُ هٰذا الحديث عن عدد من الصحابة ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سجد لله عز وجل شكراً .

ففي « المسند » ١ : ١٩١ عن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فتوجَّه نحو صدَقته ـ أي : أرض

الصدقة ـ ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخرَّ ساجداً ، فأطال السجودَ حتىٰ ظننتُ أن الله عز وجل قبضَ نفسَه فيها ، فدنوتُ منه ، فجلستُ ، فرفع رأسه فقال : « من هٰذا ؟ » قلت : عبد الرحمٰن ، قال : « ما شأنكَ ؟ » قلت : يا رسول الله سجدتَ سجدةً خشيتُ أن يكون الله عز وجل قد قبض نفسَك فيها ! فقال : « إن جبريل عليه السلام أتاني فبشَّرني فقال : إن الله عز وجل يقول : مَن صلَّىٰ عليك صليتُ عليه ، ومن سلم عليك سلَّمتُ عليه ، فسجدتُ لله عز وجل شكراً »(١) ، وهٰذا حديث قدسي .

وفي رواية أبي يعلىٰ ١ : ٣٨٨ (٨٤٣) أن ذٰلك كان في بستان من بساتين الأسْواف ـ بالفاء ـ وهو موضع بالمدينة المنورة عند المسجد المشهور فيها باسم : مسجد أبي ذر ، ويتحرَّف في كثير من المطبوعات والمخطوطات إلى : الأسواق ـ بالقاف ـ فليصحح .

ثم إن في هٰذا الحديث مقابلةَ صلاةِ الله لصلاةِ عبده بعشرِ صلوات ، ومقابلةَ السلامِ كذٰلك ، وفي ذٰلك أحاديثُ أخرىٰ كثيرة .

وجاء في أحاديث أخرىٰ زيادةُ فضيلةٍ وأجرٍ .

ففي « المسند » ٣ : ١٠٢ ، ٢٦١ ، وابن حبان (٩٠٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن صلىٰ عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطَّ عنه عشر خطيئات » .

وزاد في رواية للنسائي (٩٨٩٠) عن أنسٍ نفسِه ، ولفظُها : « من صلَّىٰ عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحَطَّ عنه بها عشر سيئات ، ورفعه بها عشر درجات » .

وفي حديث أبي بُردةَ بن نِيَارٍ رضي الله عنه زيادة : « وكتب له بها عشر

---

(١) قال الهيثمي ٢ : ٢٨٧ : « رجاله ثقات » ، وانظر فيه الأحاديث الأخرىٰ .

حسنات » ، رواها النسائي (٩٨٩٣) ، وعزاه المنذري ٢ : ٤٩٤ ، والهيثمي ١٠ : ١٦٢ إلى الطبراني والبزار ، وقال عن رجال البزار : ثقات .

فهٰذه أربعةُ أمور : عشرُ صلواتٍ من الله تعالىٰ ، ورفعُ عشرِ درجات ، وكتْبُ عشر حسنات ، وحطُّ عشر سيئات .

وجاء أثَر في عدد الصلوات فيه زيادةٌ على العشر .

فروىٰ أحمد في « المسند » ٢ : ١٧٢ ، ١٨٧ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من قوله موقوفاً عليه : من صلَّىٰ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةً صلى الله عليه وملائكتُه سبعين صلاةً ، فليُقِلَّ عبدٌ من ذٰلك أو ليُكْثِرْ .

وهٰذا مما لا يُقال بالرأي ، وموضوعُه ليس مما له صلةٌ بالكتب السماوية الأخرى التي كان عبد الله بن عمرو يقرأ فيها .

فصلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم أفضلَ ما صلَّىٰ علىٰ نبي من أنبيائه ، إلىٰ يوم الدين ، عدد خلقِه ، ورضاءَ نفسِه ، وزِنَةَ عرشه ، ومداد كلماته .

ثم ، ما معنى الصلاة والسلام عليه ، صلى الله عليه وسلم ؟ .

أما الصلاة : فإنها تكون من الله عز وجل ، ومن الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام ، ومن المؤمنين .

وقد اشتهر عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أن الصلاة من الله تعالىٰ رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العباد دعاء .

فحينما نقول : اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، نكون قد دَعَوْنا الله أن يرحم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن يرحَم آله ؛ لأن الصلاة من الله رحمة .

وإن في مقابلِ صلاتنا عليه صلاةَ الله علينا عشر صلوات ، أي : أن الله يَرْحمُنا عشر رحَمات ، لأن الصلاة من الله رحمة .

ويُشكِل علىٰ هٰذا التفسير قولُ الله تعالىٰ عن الصابرين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ البقرة : ١٥٧ ، فعطف الرحمةَ على الصلوات ، والعطفُ يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوفِ عليه .

وأجيبَ عن الإشكال : بأن الصلوات رَحَماتٌ خاصة ، أي : نوعٌ خاصٌ من الرحمة ، فيكون العطف في الآية من باب عطفِ العامِ على الخاص ، فهو من التغاير الجزئي لا الكلي .

وعلىٰ هٰذا فالصلاةُ من الله تعالىٰ رحمةٌ خاصة يُنْزلها علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم تليق بمقامه ، ورحمةٌ خاصة يُنزلها على المصلِّين علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم تليق بمقام كل مصلٍّ .

والرحمة تقتضي كلَّ خيرٍ وإحسان من الراحم للمرحوم ، ودفعَ كلِّ شرٍ وضُرٍّ .

وقد عدَّد ابن الأثير رحمه الله في « النهاية » ٣ : ٥٠ بعضَ وجوه هٰذه الرحمة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أما قولنا : « اللهم صل علىٰ محمد » : فمعناه : عظِّمه في الدنيا بإعلاء ذِكْره ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته » .

وأما رحمتُه تعالىٰ للمصلين على النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين : فآثارُها ذَكرها الله تعالىٰ في قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ الأحزاب : ٤٣ .

فمما يستفيده المؤمن إذا صلَّىٰ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالىٰ يُخرجه من الظلمات إلى النور : من ظلمات وشُبَه الكفر إلىٰ نور

حقائق الإيمان ، ومن ظلمات المعاصي والآثام إلىٰ نور الطاعات والمبرَّات ، ومن ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم ، ومن ظلمات الشكِّ إلىٰ نور اليقين ، ومن ظلمات الهموم والكُرُبات إلىٰ نور السرور والفَرَج ، وهٰكذا . . .

روى الترمذي في « سننه » (٢٤٥٧) وقال : حسن صحيح ، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثُلُثا الليل قام فقال : « يا أيها الناسُ اذكروا الله ، اذكُروا الله ، جاءتِ الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموتُ بما فيه ، جاء الموت بما فيه » .

قال أُبيٌّ : قلت : يا رسول الله إني أكثرُ الصلاةَ ، فكم أجعلُ لك من صلاتي ؟[1] .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما شئتَ » .

قال : قلت : الربع ؟ قال : « ما شئتَ ، وإن زدتَ فهو خير لك » .

قلت : النصف ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدتَ فهو خير لك » .

قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئتَ ، وإن زدتَ فهو خير لك » .

قلت : أجعلُ لك صلاتي كلَّها ؟ قال : « إذاً تُكفىٰ همَّك ، ويُغفرَ لك ذَنْبُك » .

وتنظر آثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ صاحبها ، في « القول البديع » للسخاوي ص ٢٣١ ـ ٢٨٢ .

أما صلاةُ الملائكة على النبي صلى الله عليه وسلم : ففي « صحيح » البخاري عند تفسير هٰذه الآية ٨ : ٥٣٢ عن أبي العالية : « صلاةُ الملائكة :

---

(١) قال الحافظ المنذري في « ترغيبه » ٢ : ٥٠١ : « معناه : أُكثِر الدعاءَ ، فكم أجعلُ لك من دعائي صلاةً عليك » .

الدعاءُ ، قال ابن عباس : يصلون : يبركون » ، قال الحافظ في « شرحه » : « يبركون على النبي أي : يدعون له بالبركة ، فيوافق قولَ أبي العالية ، لٰكنه أخصُّ منه » أي : فسَّر أبو العالية صلاتهم بالدعاء مطلقاً ، وقيده ابن عباس بدعاءٍ معين هو الدعاء بالبركة ، فلا تنافيَ بينهما .

والبركة لها معنيان : الثبوت والدوام ، والزيادة والنَّماء ، فيكون دعاء الملائكة بالبركة أي : بدوام ما أكرمَ الله تعالىٰ به النبيَّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وبزيادته ونَمائه .

ولا ريب أن صلاة الملائكة عليه صلى الله عليه وسلم هي لهم صلاةُ تشريف ، لا صلاة تكليف ، فهم يتشرفون بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليسوا من أهل عالم التكليف ، ليكلَّفوا بها .

أما صلاتهم على المؤمنين الذين يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم : فهي دعاؤهم لهم واستغفارهم .

قال ابن كثير رحمه الله في « تفسيره » لآيةِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ الأحزاب : ٤٣ ، ٦ : ٢٨٢٥ : « وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . . ﴾ غافر : ٧ ـ ٩ ، الآية » .

ثم إن الله تعالىٰ أمرنا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب : ٥٦ ، ولما سُئِل صلى الله عليه وسلم : أَمَرنا الله أن نُصليَ عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي

عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صلِّ علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد . . . » كما في « صحيح » مسلم ١ : ٣٠٥ (٦٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري .

وهنا يَسبق إلى الذهن إشكال : كيف يأمرُنا الله عز وجل بالصلاة علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم يأتينا الأمر بأنْ نقولَ : اللهم صل علىٰ محمد ، فنحيل على الله تعالى الصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ .

والجواب : ما قاله ابن الأثير رحمه الله في « النهاية » ٣ : ٥٠ : « لما أمر الله سبحانه بالصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم نبلغ قدرَ الواجب من ذٰلك : أحلْناه على الله وقلنا : اللهم صلِّ أنت علىٰ محمد ، لأنك أعلمُ بما يليق به » .

هٰذا كله يتعلَّق بالصلاة .

أما السلام : فقد أطال العلامة الآلوسي رحمه الله في تفسيره « روح المعاني » ٢٢ : ٧٩ الكلام عليه عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ الأحزاب : ٥٦ .

وحاصلُ كلامه وخلاصتُه :

١ ـ أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، أي : ادعوا الله تعالىٰ أن يُسلِّم نبيَّه تسليماً تاماً من النقائص والآفات ، ورجَّحه .

٢ ـ أن السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ ، فهو مداومٌ علىٰ حفظك ورعايتك ومُتَولٍّ لك وكفيلٌ بك ، وهٰذا متكلَّف بالنسبة للآية الكريمة ، لٰكنه قريبٌ لقولنا في التشهد : السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته .

٣ ـ ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ أي : انقادوا له انقياداً ، ويكون المعنىٰ أيضاً في قولنا : « صلى الله عليه وسلم » أي : سلَّم له العباد وانقادوا له ولشريعته ، فهو إنشاء ودعاء بلفظ الخبر .

وهٰذا التأويلُ يميلُ إليه من أجاز إفراد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، دون كراهة ، فلا يكره قولنا ـ مثلاً ـ : قال رسول الله عليه السلام ، أو : اللهم صلّ علىٰ محمد ، دون ذكر للسلام مع الصلاة ، والمشهور عند المحدثين كراهةُ ذٰلك ، أو أنه خلاف الأولىٰ .

ومن الغريب قول بعض المفسرين في تفسير : ﴿ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب : ٥٦ ، أي : حيُّوه بتحية الإسلام !! .

* * *

من أحاديث الأدب

٦٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الخلق حتىٰ إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالتْ : هٰذا مَقام العائذ من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضينَ أن أَصِل من وصلك ، وأقطعَ من قطعك ؟ قالت : بلىٰ ، قال : فذاكِ لكِ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد : ٢٢ ـ ٢٤ » .

٦٥ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواضع ، منها : كتاب الأدب ـ باب من وَصَل وصله الله ١٠ : ٤١٧ (٥٩٨٧) ، ومسلم : كتاب البر والصلة والآداب ٤ : ١٩٨٠ (١٦) واللفظ له .

غريبه : الرَّحِم : أصلُ معناها : محلُّ احتواء الجنين في بطن أمه ، ثم أُطلق على القرابة ، وهو المراد هنا ، وهي أمر معنوي لا حسيٌّ .

فرَغ منهم : الفراغ يلزم منه الانشغال ، والله تعالىٰ منزَّه عن أن يَشْغَله أمر عن أمر ، لذٰلك فسروا الفراغ بالإتمام ، أي : أتـمَّ الله خلق الخلائق ، قال القرطبي في « التذكرة » ص ٤١١ : « معناه : تَمَّمَ عليهم حسابهم وفَصَل بينهم ، لأنه لا يشغلُه شأن عن شأن سبحانه وتعالىٰ » .

العائذ : المستجير .

معناه : هـٰذا الحديث الشريف فيه تطييبٌ من الله الرحمـٰن الرحيم لخاطر الرَّحم ، وفيه ترغيب وترهيب للناس .

وذٰلك : لمَّا خلق الله عز وجل مخلوقاته بتقديره لها علماً ، أو بإظهاره لها إلىٰ حيِّز الوجود ، قامت الرحِم وتكلَّمت واستعاذت بالله تعالىٰ من القطيعة .

وقيامُها وكلامُها علىٰ سبيل الحقيقة لا المجاز ، عند بعضهم ، وعلىٰ سبيل المجاز عند آخرين ، والمعروف في كثير من النصوص الشرعية : القرآنية والنبوية ، أن المعنويات والجمادات تتمثل وتتكلم ، وهي لكثرتها لا تدخل تحت الحصر .

قال الإمام أبو محمد ابن أبي جمرة رحمه الله تعالىٰ في كتابه « بهجة النفوس وتحلِّيها » ٤ : ١٤٧ : « هل كلامُ الرحم للحقِّ جل جلاله بلسان المقال أو بلسان الحال ؟ وإن كان بلسان المقال : هل كان ذٰلك بعدما جَعَلها في جوهر ـ يريد : تمثَّلتْ وتشكَّلتْ ـ ووضع فيها الحياة والعقل ، أو هي علىٰ حالها ؟ .

الكلام علىٰ هـٰذا مثلُ كلامِ العلماء علىٰ كلام الجمادات ، وهي علىٰ ثلاثة وجوه : لأن منهم من قال : إن كلام الجماد بلسان حاله : ما أظهره الله فيه من أثر قدرته ، ومنهم من قال : إنه خلق لهم حياة وعقلاً ، وحينئذٍ تكلموا ، ومنهم من قال : إنهم تكلموا وهم علىٰ حالهم ، وهو الأظهر ، وإن كانت القدرة صالحةً للوجوه الثلاثة .

لـٰكن الوجهان ـ الأول والثاني من الثلاثة ـ فيهما تخصيص لعموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل شرعي ، وحصرٌ لقدرة القادر التي لا يحصرها شيء ، لأن قدرته عز وجل صفةٌ من صفاته ، فكما ذاته الجليلة لا تنحصر

بوجه من الوجوه ، فكذٰلك كلُّ صفاته لا تنحصر بوجه من الوجوه ، فكذٰلك كل صفاته لا تنحصر منها صفة من الصفات بوجه من الوجوه ، لأن الصفة لا تفارق الموصوف » .

وممن حَمَله على المجاز : القاضي عياض ، كما في « شرح صحيح مسلم » ٨ : ١٩ ، قال : « ذِكْر مقامها وتعلُّقها هنا ضَرْب مَثَل وحسنُ استعارة ، علىٰ مجاراة كلام العرب ، لتعظيم شأن حقِّها ، وعِظَم إثم مقاطعتهم وعقوقهم . . . ، أو قيام ملك من ملائكة الله تعالىٰ وتشبُّثه بالعرش وكلامه عنها ذٰلك الكلام بأمر الله تعالىٰ » ، وهٰذا من القاضي ـ وسكوت النووي بعد نقله له ـ غريب .

وأما قوله : « أنْ أَصِلَ من وصلك . . . » : « فهو كناية عن عظيم الإحسان ، فإن أعظمَ ما يعطي المحبوبُ لحبيبه الوصالُ ، وهو القرب منه ومساعدته في مرضاته ، وهٰذه الأمور في حق مولانا سبحانه مستحيلة أن يكون علىٰ ما نعرف من صفات المحدَث الفاني ، بل هي كنايةٌ عن قدر الإحسان منه لعبده وعظمه . . . ، ومعنىٰ : « أقطعَ من قَطَعكِ » : فهو كناية عن شدَّة الحرمان والعذاب ، لأن القطع ضدُّ الوصل ، فكما عبَّر عن عِظم الأجر بالوصل ، عبَّر عن عظم البلاء بالقطع ، أعاذنا الله من البلاء بمنه » . قاله ابن أبي جمرة أيضاً .

والظاهر من قول الرحم : « هٰذا مقام العائذ من القطيعة » : أنها تستجير بالله خوفاً علىٰ نفسها أن يقطعها قاطع ، وكلام عليّ القاري رحمه الله تعالىٰ يفيد أنها تستجير خوفاً علىٰ قاطعها أن يقطعَها فيقعَ في غضب الله عز وجل .

قال في « مرقاة المفاتيح » ٩ : ١٦٩ : والمعنىٰ : أن سببَ عياذي وباعث

لِيَاذي بذيل رحمتك التي وسعت كل شيء أن يقطعني أحد فيقعَ في غضبك وسخطك » .

وهـٰذا دالٌّ علىٰ رأفة الرَّحم المشتقَّة من الرحمة ، فهو ألطفُ وأقربُ . والله أعلم .

أما الرحم التي تُوصل : فهي ـ علىٰ ما صوَّبه النووي ١٦ : ١١٣ ـ : « كل رحمٍ من ذوي الأرحام في الميراث ، يستوي فيه الرحم المَحْرَم وغيره » ، فيدخل أولاد الأعمام والأخوال في حكم الصِّلة ، ولا تجوز قطيعتهم .

وما حكمُ صِلةِ الرحم ؟ : « قال القاضي عياض : ولا خلاف أن صلة الرحم واجبةٌ في الجملة ، وقطيعتها معصية كبيرة ، ولـٰكن الصلة درجات ، بعضُها أرفعُ من بعض ، وأدناها تركُ المُهاجَرة ، وصلتُها بالكلام ولو بالسلام ، ويختلِف ذٰلك باختلاف القدرة والحاجة ، فمنها واجبٌ ، ومنها مستحبٌّ ، لو وصل بعض الصلة ولم يصلْ غايتها : لا يسمىٰ قاطعاً ، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له : لا يسمىٰ واصلاً » .

فالأصلُ في صلة الرحم : الصلةُ الكاملةُ ، ومن الطرفين ، وفي حال الشغل والحاجة تقدَّر ظروف كل واحد منهما ، ويحاسب ويؤاخذ عما نقص .

والأصلُ كذٰلك فيها : أن تكون علىٰ وفق شرع الله عز وجل ، فإذا كانتْ صلتُه للرحم تُوقعُه في الإثم : فلا ، ودرءُ المفاسد مقدَّم علىٰ جلب المصالح ، كمن يزور عمه ، فتجالسُه زوجة عمه وبناتُ عمه كاشفاتٍ عن رؤوسهن مع المصافحة والزينة والسَّمر أمام التلفاز ، و . . . ما وراء ذٰلك !! ، وكلُّ واحدةٍ من هـٰذه المنكرات يكفي لإسقاط وجوب صلة الرحم عليه .

وليستْ صلةُ الرحم بالزيارة فقط ، بل تكون الصلةُ بوجوهٍ ، يقدَّر فيها حاجة الموصول .

قال الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالىٰ ٤ : ١٤٦ : « وأما كيفيةُ الوصل للرحم : فهو علىٰ ضروب مختلفة ، منه ما يكونُ ببذل المال ، ومنه ما يكون ببذل العوْن علىٰ ما يحتاجون إليه ـ أعني أهلَ رحمه ـ ومنه ما يكون بالزيارة لهم ، ومنه ما يكون بالدعاء لهم ، ومنه ما يكون بإكرامهم والبشاشة لهم ، ومنه ما يكون بدفع المضارِّ عنهم ، والمعنى الجامعُ له : إيصالُ ما أمكنه من الخير إليهم علىٰ قدر استطاعته ، بنية القربة إلى الله تعالىٰ .

إلا أن ذٰلك بشروط ذكرها العلماء ، وهي أن يكون على الاستقامة ، وإلا فمقاطعتهم من أجل الله هو إيصال لهم ، بشرط أن تبذُل جهدك في وعظهم وزَجْرهم والإنكار عليهم ، لأنه إذا قيل لك في الأجنبي الذي هو أخوك في الإسلام « انصره ظالماً أو مظلوماً » ـ وهو ردُّه عن الظلم ـ فالأقرب من بابِ أولىٰ ، فبعد ذٰلك يكونُ الهجْران لهم ، وتُعْلمُهم أن هِجْرانك لهم إنما هو من أجل تخلُّفهم عن الحق ، فإذا استقاموا وصلتَهم قدر طاقتك في ذٰلك .

لـٰكن يبقىٰ عليك من صلَتهم عند المقاطعة الدعاء لهم بظهر الغيب : أنْ يُصلح الله حالهم ويُجيرَهم بفضله » .

فانظر يا أخي ذوقَ الإسلام ورحمته ! وقل : الحمد لله علىٰ دين الإسلام .

❋ ❋ ❋

٦٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال : إني أحبُّ فلاناً ، فأَحِبَّه ، قال : فيحبُّه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض .

وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريلَ فيقول : إني أُبغض فلاناً ، فأبغضْه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً ، فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البَغْضاء في الأرض » .

٦٦ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب البر والصِّلة ـ باب إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلىٰ عباده ٤ : ٢٠٣٠ (١٥٧) ، ورواه البخاري في ثلاثة مواضع مقتصراً على الجملة الأولىٰ منه فقط التي فيها المحبة : في بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٦ : ٣٠٣ (٣٢٠٩) ، وفي كتاب الأدب ـ باب المِقَة من الله ١٠ : ٤٦١ (٦٠٤٠) ، وفي التوحيد ـ باب كلام الرب مع جبريل ونداء الملائكة ١٣ : ٤٦١ (٧٤٨٥) .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف ترغيب وترهيب ، وعلاماتُ أمنٍ وحذر ، وكلُّ ذٰلك من فضل الله على العباد ، ليزدادَ الصالح صلاحاً ويعلمَ أنه علىٰ هَدْيٍ صالح ، وليرتدعَ الطالح عن غَيِّه ويعلم أنه علىٰ غير صراط مستقيم .

أما ما في الحديث من ترغيب وأمْن وعلامة على استقامة الرجل :

ففي الجملة الأولىٰ : « إن الله إذا أحبَّ عبداً . . . » ، ومَن الذي يحبُّه الله تعالىٰ ؟ .

بيَّن ذٰلك بعضُ روايات الحديث ، وأحاديثُ أخرىٰ .

قال في الحديث القدسي المتقدم برقم (٣٤) : « إن الله عز وجل قال : مَن عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحِبَّه . . . » .

فبيَّن سبب حبِّ الله تعالىٰ لعبده : هو أداؤه فرائضَ الله عليه ونوافلَه ، فالصلاة : المفروضة ونوافلها الراتبة والعامة ، والزكاة : المفروضة والصدقات العامة والمساهمة في الأعمال الخيرية ، والصيام : المفروض ونوافله المحددة والعامة ، والحج والعمرة كذٰلك ، وتعلُّم العلم وتعليمه ، والجهاد : فرضه العيني والكفائي ، واجتنابُ المحرمات ، وأداءُ حقوق العباد ، والتحاكمُ إلىٰ شرع الله والرضا به ، . . .

فكلُّ هٰذا سبب لحبِّ الله تعالىٰ لعبده كما نص عليه الحديث القدسي المشارُ إليه : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه . . . » .

أما بعضُ روايات الحديث الذي نحن بصدد شرحه ، وهي دالة علىٰ سبب حب الله للعبد : فمن ذٰلك : روايةُ الترمذي (٣١٦١) آخر تفسير سورة مريم : « إذا أحبَّ الله عبداً نادىٰ جبريل : إني قد أحببتُ فلاناً فأحبَّه ، قال : فينادي في السماء ، ثم تنزلُ له المحبةُ في أهل الأرض ، فذٰلك قولُ الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ مريم : ٩٦ » .

والودُّ : المحبةُ ، فمن الذين سيجعل لهم الرحمٰن محبةً في قلوب عباده ؟ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

روى الإمام أحمد في « مسنده » ٥ : ٢٧٩ عن ثوبانَ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبدَ لَيلْتمس مرضاة الله ، ولا يزال بذٰلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلتمس أن يُرْضيني ، ألا وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمةُ الله علىٰ فلان ، ويقولُها حَمَلَةُ العرش ، ويقولها من حولهم ، حتىٰ يقولها أهلُ السماوات السبع ، ثم تُهْبَطُ له إلى الأرض » .

فأفاد هٰذا الحديثُ : أن الذي يُحبُّه الله هو العبدُ القائمُ بالفرائض والنوافل ، وآمَن وعمِل صالحاً ـ كما تقدم ـ وأفاد معنىً زائداً علىٰ ذٰلك هو : بحثُ هٰذا العبد عن عملٍ صالحٍ ، لا أنه إذا علم بعملٍ صالح عمله ، لا ، بل إنه يلتمسُ ذٰلك ويتطلّبه .

ومعنىً آخر زائداً علىٰ هٰذا : « ولا يزال بذٰلك » : أي إنه مستمر دائم علىٰ تطلُّب العمل الصالح ، والعمل به .

فمن كان كذٰلك : أحبَّه الله عز وجل و« دعا جبريلَ عليه السلام فقال : إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه ، فيحبُّه جبريل ، ثم يُنادي في السماء فيقول : إن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه » ، ويقول مثلَه حملةُ العرش ومَن حولهم وأهلُ السماوات السبعِ ، كما تقدم في رواية ثوبان ، « فيحبُّه أهل السماء ثم يُوضَع له القَبول » أي : المحبةُ والرضا عنه « في الأرض » .

وحاصلُ ذٰلك : أن العبد إذا صَلَح أمره واستقام وداوم أحبَّه الله وأمرَ أهل سماواته : جبريلَ وحملةَ العرش فمن دونهم ، بحبِّه ، ووضعَ له المحبة في أهل الأرض ، فمحبَةُ أهل الأرض له علامةٌ علىٰ قَبول الله لأعماله الصالحة وبشارة خيرٍ له ، وترغيبٌ له بالدوام علىٰ ما هو عليه ، فكان ذٰلك من فضل الله عليه .

وكذلك العكس : إذا فسد عمل الرجل ، فعملَ السيئات أبغضه الله ، وأمرَ أهل سماواته : جبريل وحملة العرش فمن حولهم أن يبغضوه ، وتُوضع له البغضاء في أهل الأرض .

فتكون بغضاؤهم له علامةً على عدمِ صلاح أمره ، فهذا ترهيبٌ له وتخويفٌ من عاقبة السوء ، ونِذارة له أن يرجع عما هو عليه ، فيكون ذلك من فضل الله عليه ، فقد تنفعه الذِّكرىٰ ، فيرجع إلى الله ويتوبُ إليه ، ويختم له بخير .

فإذا كان العبد الذي يحبُّه الله ويأمرُ أهل السماء بحبِّه ، ثم توضع له المحبة في الأرض : إذا كان هذا لا يكون إلا للعبد الصالح ، فمن الذي يحبُّه من أهل الأرض ؟ .

لا ريبَ أنه لا يحبُّ الصالحَ إلا الصالحون أمثالُه ، وعن حبِّهم له ينشأُ حبُّ مَن دونهم في الصلاح له ، ولا عبرة بحبِّ غَوغاء الناسِ ودَهْمائهم للإنسان وإنْ كَثُروا ، فقد يُحبُّون غيرَ الصالح ، ومن لا يعملُ بشرع الله ، بل إنك لتراهم يحبون دعاةَ فسادِ الأخلاق والمجون أكثرَ من حبهم للعلماء العاملين ، وأولياء الله الصالحين !! إن الله لا يعبأُ بهؤلاء ولا هؤلاء ، لا بالمحبين ولا بالمحبوبين .

وما معنىٰ محبة الله للعبد ، ومحبةِ الملائكة له ، ومحبةِ العباد أهل الأرض له ؟ .

قال النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح مسلم » ١٦ : ١٨٣ ـ ١٨٤ : « قال العلماء : محبة الله تعالىٰ لعبده : هي إرادتُه الخيرَ له وهدايته وإنعامُه عليه ورحمتُه ، وبغضه : إرادةُ عقابه أو شقاوته ، وحبُّ جبريل والملائكة يحتمل وجهين ، أحدهما : استغفارُهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم . والثاني : أن

محبتهم علىٰ ظاهرها المعروف من المخلوقين ، وهو ميل القلب واشتياقه إلىٰ لقائه ، وسببُ حبِّهم إياه كونُه مطيعاً لله تعالىٰ محبوباً له » .

وقال الحافظ في « الفتح » ١٠ : ٤٦٢ ـ بعدما لخَّص هٰذا ـ : « وقد تُطلقُ محبةُ الله تعالىٰ للشيء علىٰ إرادة إيجاده ، وعلىٰ إرادة تكميله ، والمحبةُ التي في هٰذا الباب من القبيل الثاني ، وحقيقةُ المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تُحدُّ ـ أي : لا تُعرَّف ـ وإنما يعرفها من قامتْ به وجداناً لا يمكن التعبير عنه ، والحبُّ علىٰ ثلاثة أقسام : إلٰهي ، وروحاني ، وطبيعي ، وحديث الباب ـ أي : الذي نشرحه ـ يَشتملُ علىٰ هٰذه الأقسام الثلاثة ، فحبُّ الله للعبد : حبٌّ إلٰهي ، وحبُّ جبريل والملائكة له : حبٌّ روحاني ، وحبُّ العبادِ له : حبٌّ طبيعي » .

اللهم إنا نسألك حبَّك ، وحُبّاً يُبلِّغنا حبَّك .

* * *

٦٧ ـ قال أبو إدريس الخَوْلاني : دخلت مسجدَ دمشقَ ، فإذا فتىً شابٌّ بَرّاقُ الثنايا ، وإذا الناسُ معه إذا اختلفوا في شيء أَسْنَدوه إليه وصَدَروا عن قوله ، فسألتُ عنه ، فقيل : هٰذا معاذُ بنُ جبل ، فلما كان الغدُ هَجَّرت ، فَوَجْدتُه قد سَبَقَني بالتهجير ، ووجدته يصلِّي ، قال : فانتظرته حتىٰ قضىٰ صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه ، فسلَّمت عليه ثم قلت : والله إني لأحبُّك لله ، فقال : آللهِ ؟ فقلت : آللهِ ، فقال : آللهِ ؟ فقلت : آللهِ ، فقال : آلله ؟ فقلت : آلله ، فأخذ بحُبْو ردائي فجبذني إليه وقال : أبشرْ ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تبارك وتعالىٰ : وجَبَتْ محبتي للمُتَحابِّين فيَّ ، والمتجالسينَ فيَّ ، والمُتزاوِرين فيَّ ، والمتباذِلين فيَّ » .

٦٧ ـ تخريجه : رواه الإمام مالك في « الموطأ » : كتاب الجامع ـ ما جاء في المتحابين في الله ٢ : ٩٥٣ (١٦) .

وروى الإمام أحمد في مواضع من « مسنده » منها ٥ : ٢٣٦ عن أبي مسلم الخولاني بنحو قصة أبي إدريس ، وفيه قولُ معاذ : « سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن ربِّه يقول : المتحابُّون في الله علىٰ منابرَ من نورٍ في ظِلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه » ، قال أبو مسلم : فخرجتُ حتىٰ لقيتُ عُبادةَ بن الصامت ، فذكرت له حديث معاذ بن جبل ، فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ يقول : « حقَّت

محبَّتي للمتحابين فيَّ ، وحقَّتْ للمتباذلين فيَّ ، وحقَّت محبتي للمتزاورين فيَّ ، والمتحابُّون في الله علىٰ منابرَ من نورٍ في ظلِّ العرش يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه » .

وإسناد أحمد فيه : حدثنا وكيع ، حدثنا جعفر بن بُرْقان ، عن حبيب بن أبي مرزوق ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن أبي مسلم الخولاني ، وروى الترمذي في كتاب الزهد ـ باب ما جاء في الحب في الله ٧ : ١١٩ (٢٣٩١) الطرف الأول منه : حدثنا أحمد بن مَنيع ، حدثنا كثير بن هشام ، حدثنا جعفر بن بُرْقان ، به ، بلفظ : « المتحابّون في جلالي لهم منابرُ من نور يَغْبِطُهم النبيون والشهداء » وقال : حديث حسن صحيح .

ويلاحظ أن بين رواية مالك ، ورواية أحمد والترمذي اختلافاً لا يؤثر ، ففي رواية مالك : أبو إدريس الخولاني ، وفي رواية أحمد والترمذي : أبو مسلم الخولاني ، وكلاهما ثقة حجة ، بل هما أجلُّ ، وقد روى الحديثَ أيضاً ابن حبان في « صحيحه » (٥٧٧) وسماه أبا مسلم أيضاً ، وأكَّد ذٰلك بحكايته كرامتين ظهرتا لأبي مسلم : أولاهما : مع الأسود العنسي المتنبئ الكذاب ، حين ألقاه في النار ، فنجَّاه الله منها ، وثانيتهما : حين دعا علىٰ جارته التي أفسدت عليه زوجته ، فدعا عليها بالعمىٰ ، فعميت ، ثم جاءته معتذرةً تائبة ترجوه أن يدعو الله لها بردِّ بصرها ، فدعا لها ، فَرَدَّه الله عليها .

أما الإمام ابن عبد البر فأكَّد في « التمهيد » ٢١ : ١٢٥ ، و« الاستذكار » ٢٧ : ١١٢ صحة رواية مالك ، وأنه أبو إدريس ، والأمر ـ كما قلت ـ : اختلاف لا يؤثر ، لٰكنهُ انفرد ـ رحمه الله ـ بقوله في « التمهيد » ٢١ : ١٣٠ عن أبي مسلم : « إنهم يضعِّفون نقله » ، فهٰذا لا يتابع عليه ، ولا يُعرف عن أحد .

غريبه : فتىً شاب : كان عُمُر معاذ رضي الله عنه لما توفِّي أربعاً وثلاثين سنة أو نحوها ، وكانت وفاته في طاعون عَمَواس ناحيةَ الأردنِّ سنة ثماني عشرة . انظر « طبقات » ابن سعد ٣ : ٥٨٣ وما بعدها .

برَّاق الثنايا : قال ابن الأثير رحمه الله تعالىٰ : « وَصَف ثناياه ـ مقدَّم أسنانه ـ بالحُسْن والصفاء ، وأنها تلمع إذا تبسَّم كالبرق ، وأراد صفة وجهه بالبِشْر والطلاقة » ، وأصل معناه : أبيضُ الثَّغر حَسَنُه .

أسندوه إليه : رجعوا إليه فيما يختلفون فيه .

صَدَروا عن قوله : عَمِلوا به واعتمدوه دون اختلاف .

هجَّرت : بكَّرت إلى المسجد .

بحُبْو ردائي : أي بطرف ثوبي من محلِّ الحُبْوة ، والاحتباء : نصبُ الساقين وضمُّ الفَخذين إلى البطن .

آللهِ : الهمزة الأولىٰ بدل عن القسم ، ويجب الجرُّ معها ، كأنه يستثبتُ من أبي إدريس : أتحِبُّني لله ؟ ويُجيبه أبو إدريس باللفظ نفسه ، وبالمدِّ ، من باب المشاكلة اللفظية .

فجبذني : أي : جَذَبني إليه وشدَّني وأمالني .

وجبَتْ : حقَّت ، كما في رواية « المسند » وهما بمعنىً : ثبتتْ .

المتجالسين ، والمتزاورين : الرجل يجلس إلى الرجل ، أي : يجالسه ، ويزوره زيارةً خالصة لله تعالىٰ ، لا يَحمِله علىٰ ذٰلك أمر دنيوي آخر .

المتباذلين : المتباذل : هو الذي يبذُل لأخيه في الله ما لديه من غالٍ ورخيص .

معناه : يذكرني هٰذا الانجذاب السريع من أبي إدريس الخولاني إلىٰ

معاذ بن جبل رضي الله عنهما ، بوصية فيها تشبيه بديع ، حكاها الأصمعي عن بعض الحكماء يُوصي بها ابنه ، وقد ساق المُعافى بن عمران النَّهْرواني في « الجليس الصالح » ٣ : ٧ سنده بها إلى الأصمعي قال : « قال بعض الحكماء لابنه : يا بنيَّ اقْبَل عهدي ووصيتي : إن سُرعة ائتلاف قلوب الأبرار حين يلْتقون ، كسُرعة اختلاط قطْر المطرِ بماء الأنهار » .

وفي هٰذا الحديث يخبرنا الله عز وجل عن أناس مخصوصين ، خصَّهم بمحبته الخاصة ، وأن هٰذه المحبَّة قد أوجبها الله تعالىٰ علىٰ نفسِه من قِبَل نفسه ، لا بإيجاب من غيره عليه ، فإنه لا مُوجِب لشيء على الله تعالىٰ إلا ما كان من الله عز وجل ، هو يُحِقُّه علىٰ نفسه .

ومما أوجبه الله عز وجل علىٰ نفسه : محبتُه سبحانه لمن تحابُّوا في الله تعالىٰ ، وتجالسوا ، وتزاوروا فيه ، وتباذلوا من أجله .

وفي رواية ابن سعد في « طبقاته » ٣ : ٥٨٧ عن معن بن عيسىٰ ، عن مالك ، به : « وجبتْ رحمتي . . . » وهي أعمُّ من المحبة ، فمنْ رَحِمه الله فقد ظفر بمحبته تعالىٰ وبغيرها .

ومن أحبَّه الله : فهو من التوابين ، والمتطهرين ، والمتقين ، والمحسنين ، وما إلىٰ ذٰلك مما ورد به القرآن العظيم والحديث الشريف ، ومع هٰذا فالرحمة أعمُّ وأشملُ .

وقد يُرَجِّح الرواية الأولى المشهورة وهي : « وجبت محبتي » : القاعدة المقررة : الجزاءُ من جنس العمل ، وهٰؤلاء المذكورون قد اتصفوا بالمحبة في الله ، سواء فيهم المتحابون ، والمتجالسون ، والمتزاورون ، والمتباذلون ، فناسبَ المقامَ محبةُ الله عز وجل لهم .

أما فضلُ المحبةِ في الله ـ والبُغضِ في الله ـ : فأعظمُ من أن يُختصَرَ

الحديث عنه في سطور ، لٰكن انظر ـ إن شئت « الترغيب والترهيب » ٤ : ١٤ ـ ٢٨ ـ تجد أحاديث ذٰلك بكثرة .

وأعظمُ منها : المحبة لله ، قال الإمام الغزالي في « الإحياء » ٢ : ١٦٥ : « إن حبَّ الله إذا قويَ أثمرَ حبَّ كلِّ من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل ، وأثمر حبَّ كلِّ من فيه صفةٌ مرضيَّة عند الله ، من خُلُق حسن ، أو تأدُّب بآداب الشرع ، وما من محب للآخرة ، أو محب لله إلا إذا أُخبر عن حال رجلين أحدهما عالمٌ عابدٌ ، والآخر جاهل فاسق : إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد ، فذٰلك الميلُ هو حبٌّ في الله ولله ، من غير حظٍّ » .

ومثَّل لذٰلك بحبِّ المؤمنين لأنبياء الله ورسُله عليهم الصلاة والسلام ، وللصحابة والصالحين ، والأخيار السابقين . وانظر تمام كلامه النافع ، رحمه الله تعالىٰ .

وأما قوله : « والمتجالسين فيَّ » : فهم القوم الذين يجلسون إلىٰ بعضهم بعضاً يذكرون الله عز وجل ، ويتذاكرون فيما بينهم جلالَه وعظمته ، وأمره ونهيَه ، وإقامةَ حدوده وحقوقه ، وما إلىٰ ذٰلك ، يجمعهم المحبةُ في الله وذكرُ الله .

قال المُنَاوي رحمه الله ٤ : ٤٨٥ ـ وعنه الزُّرقاني في « شرح الموطأ » ٤ : ٣٤٩ ـ : « كان الجنيد أبداً مشغولاً في خَلْوته ، فإذا دخل إخوانُه خرج وقعد معهم ويقول : لو أعلم شيئاً أفضلَ من مجالستكم ما خرجتُ إليكم ، وذٰلك لأن لمجالسة الخواصِّ أثراً في صفاء الحضور ونشر العلوم ، ما ليس لغيرهم » .

وهٰذا تنبيه من الله عز وجل لضرورة مجالسة الصالحين علىٰ ذكره جل جلاله ، لفائدة مجالستهم ، كما ذكر المناوي والزرقاني ، ولنيل محبة الله

تعالىٰ ورحمته ، كما جاء به الحديث الشريف المذكور .

« والمتزاورين فيَّ » : فإخوة متحابُّون في الله ، أراد أحدهم أن يزور أخاه زيارة خالصة لا يبغي من ورائها شيئاً أبداً سوىٰ صلةِ الأخوة في الله ، فهـٰذا ممن أوجب الله عز وجل علىٰ نفسه محبته إياه ورحمته له .

روىٰ مسلم في « صحيحه » ٤ : ١٩٨٨ (٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرىٰ ، فأَرْصَدَ الله له علىٰ مَدْرَجته ملَكاً ، فلما أتىٰ عليه قال : أين تريدُ ؟ قال أخاً لي في هـٰذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها ؟ قال : لا ، غير أني أَحببتُه في الله عز وجل ، قال : فإني رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببتَه فيه » ، والمراد في قوله : « نعمة تَرُبُّها » : فائدة دنيوية تُريد دوامَها بينكما .

ومما يحسنُ التنبيه إليه لتصحيح خطأ عاميٍّ : أن المراد بالزيارة ذهابُ الأخ إلىٰ أخيه للِّقاء به ، وليس المراد بها عيادة المريض .

فكم يخسر المسلمون في مجالس سَمَرهم وأُمْسِياتهم ! وكم يربحون لو أنهم جعلوها في ذكر الله تعالىٰ ! فهم متجالسون متزاورون لـٰكنْ علىٰ لهو وباطل ، ولغو وحِنث ، وهَرْج واختلاط ، وأخفُّ منكراتِ بعضهم : الجلوسُ أمام الرائي (التلفزيون) ، علىٰ عُجَره ، وبُجَره ، وخيره وشره ، وقد يكون هـٰذا الجلوس أشدَّ منكرات بعضهم ، فاستفادةُ هـٰذا البعض واتِّعاظُهم وقَلْبُ مجالسهم إلىٰ ذكر الله تعالىٰ أمرٌ قريب يسير : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ النساء : ٦٦ . اللهم وفقنا لما تحبُّه وترضاه .

ومعنىٰ « والمتباذلين فيَّ » : الذين يبذُلون لبعضهم بعضاً ما يحتاجونه : غَلا أو رَخُص ، قال الإمام الباجيُّ رحمه الله تعالىٰ في « المنتقىٰ » ٧ : ٢٧٥ :

« يريد : يبذُلون أنفسهم في مرضاته ، من الإنفاق علىٰ جهاد عدوه وغير ذٰلك مما أمروا به ، ويُعطيه مالَه إن احتاج إليه » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » ٤ : ٣٨٦ هٰذا الحديثَ عن عمرو بن عَبَسة بإسناد حسن وزاد فيه صِفَتين : « وحقَّتْ محبتي للذين يتصافَوْن من أجلي . . . وحقَّت محبتي للذين يتناصرون من أجلي » .

أما الأولىٰ : فمعناها : يرجع إلى المتحابين في الله ، لأن معنىٰ « يتصافَوْن » : يتخذ كلُّ واحد من الآخر صفياً له وخليلاً ، فالأول اصطفى الثاني ، وكذٰلك العكس ، فكل منهما صَفيُّ أخيه في الله .

وأما الثانية : فثناءٌ علىٰ من ينصُر أخاه من أجل الله ، وفي سبيله ، وفي سبيل إحقاق الحق ، لا مناصرةً جاهليةً عمياءَ ، لا ، بل ينصرُه علىٰ ظالمه ، بمعاضدته والوقوف بجانبه ، وينصر مظلومه عليه بأنْ ينبِّهَه ويرشده إلى الحق الذي جانَبَه ، ليرجع إليه ، وفي تحقيق هٰذه الصفة راحةٌ كبرىٰ للعالم من عنائه في مجالات كثيرة .

فأعظِمْ بالإسلام وتعاليمه ! .

❋ ❋ ❋

٦٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ يقول يوم القيامة : أينَ المُتحَابُّون لجلالي ؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي » .

٦٨ ـ تخريجه : رواه مالك في « الموطأ » أيضاً : كتاب الجامع ـ ما جاء في المتحابِّين في الله ٢ : ٩٥٢ (١٣) ، ومن طريقه رواه مسلم : كتاب البر والصلة ـ باب فضل الحبِّ في الله ٤ : ١٩٨٨ (٣٧) بلفظ : « أين المتحابُّون بجلالي » .

معناه : يريد الله عز وجل أن يُظهر يومَ القيامة فضيلةَ طائفةٍ خاصةٍ من عباده ، تحابُّوا في الدنيا حباً خالصاً لجلال الله ، أي : لعظمته وطاعته ، دون دخول أيِّ شائبة أخرىٰ علىٰ هٰذا الحبِّ الإلٰهي الكريم ، وعلامةُ ذٰلك ـ إن شاء الله ـ أن لا يزيدَ حبُّ أحدهم للآخر إذا برَّه ، ولا ينقصَ إذا جفاه ، فما دام الحبُّ بينهما لجلال الله وعظمته ، فلن يزيدَ بمؤثرات خارجيَّة ، ولن ينقصَ بها ، إنما يزيدُ كلَّما زاد سببُه ، وينقُصُ إذا نَقَص .

فإذا أراد الله تعالىٰ إظهارَ فضيلتهم قال : « أينَ المتحابُّون لجلالي » ، وهٰذا نداء وليس سؤالاً ، وهو نداء تكريم لهم وتعظيم ، وإعلامُ الله تعالىٰ لنا بهٰذا ـ عن طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيه حضٌّ ضِمنيٌّ لنا أن نتخلَّق بهٰذا الخُلُق ، وإلا فما الفائدة ؟! .

وإن للقيامة أهوالاً وشدائدَ ، ومواقف مُفْظِعةً مُفْزِعةً ـ وقانا الله إياها بمنِّه علينا ـ ومنها : دُنُوُّ الشمس من رؤوس الخلائق حتىٰ تدنوَ من رؤوس الخلائق

دُنواً شديداً جدّاً فيخوضون في عَرَقهم خَوْضاً ، ومنهم من يُلْجِمُه عرقُه ، أي : يصلُ إلىٰ فمه ! .

ومنها : فيحُ جهنم ورائحتها ، ولهَبُها ، إضافةً إلىٰ أنفاس الخلائق ، ولا ينجو منها أحد إلا ذوو أعمال خاصة وفَّقهم الله تعالىٰ للقيام بها في الدنيا ، وتكونُ نجاتُهم من هٰذه الأهوال بوقوفهم في الظِّلال آمنين مستريحين من ذاك العَناء ، ويكون هٰذا الوقوف بشرىٰ عاجلةً لهم بما يستقبلهم من الفوز الأبدي .

وقد جمع بعض العلماء الأحاديثَ التي ذُكر فيها من يَنْعَمُ بهٰذه الظلال ، ومنهم الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله في رسالة سماها « تمهيد الفَرْش في الخصال الموجبة لظلِّ العَرْش » ، ثم لخَّصها في « بزوغ الهلال في الخصال الموجِبة للظلال » وقد طُبِعَتا .

وسَبَقه إلىٰ هٰذا الحافظُ ابن حجر ، وجمعها عصريُّه السخاويُّ ، ولم تُطْبعا ، ولخَّص رسالةَ السخاوي الزُّرقاني في جزء لطيف ، ولخصه أيضاً في « شرحه على الموطأ » فانظره ٤ : ٣٤٣ منه فما بعدها .

وهٰذه الظلالُ منهم مَنْ جَعَلها ثلاثة : ظل الله تعالىٰ ، وظل عرشه ، وظل العمل الصالح ، وقوفاً عند ظواهر النصوص ، إذْ في بعضها : في ظلِّي ، وفي بعضها : في ظلِّ عرشي ، ونحوه ، وفي بعضها : في ظل كذا ، وذٰلك كحديث مَرْثَد بن عبد الله اليَزَني ، عن عقبةَ بن عامر الجُهَني رضي الله عنه ، مرفوعاً : « كل امرئ في ظل صدقته حتىٰ يُفْصَل بين الناس ـ أو قال : يُحكَمَ بين الناس ـ » فكان مَرْثد لا يُخطِئه يوم إلا تصدّق فيه بكعكة أو بَصَلة أو كذا(١) .

ومنهم من جعلها ظلاً واحداً هو ظلُّ العرش ، لأن الظلَّ من شأن الأجسام ،

(١) وتقدم تخريجه ص ٢٥٠ .

فإضافة الظل إليه سبحانه في بعض الأحاديث : لأن العرش عرشه ، وهو خالقُه ، وما ورد من إضافة الظلِّ إلى العمل ـ كحديث الصدقة ـ فعلىٰ معنىٰ أن لكل عاملٍ ظلاً يخصُّه من الظلِّ العامِّ للعرش .

ومنهم من جَعَلها ظلاً واحداً هو ظلُّ الله تعالىٰ ، لٰكنْ لما كان الظلُّ من شأن الأجسام ، والله منزَّه عن هٰذا : أوَّلوا كلمة « ظل » ، وجعلوها بمعنى : الكرامة والكَنَف والرِّعاية والسَّتر ، كقولهم : فلان في ظل السلطان ، أي : في كنفه وكرامته وحفظه .

قلت : ورواية عبد الله ابن الإمام أحمد في « زوائده على المسند » ٥ : ٣٢٨ نصٌّ في المغايرة بين ظلِّ الله تعالىٰ وبين ظل عرشه ، فلفظه : « إن المتحابين بجلال الله في ظلِّ الله وظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، لٰكنْ في إسناده رجل مبهم ، فلفظُ الأوزاعي : « حدثني رجلٌ في مجلس يحيى بن أبي كثير عن أبي إدريس . . . » .

في حين أن روايات الطبراني له تدلُّ علىٰ أنهما واحد ، فبعضُها بلفظ : في ظل الله ، و : في ظله ، وبعضُها الآخر وهو الأكثر : في ظل العرش . انظر « المعجم الكبير » ٢٠ (١٤٥ ، ١٤٨) و(١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨) ، ولا تستقيم المغايرة . والله أعلم .

والنظرُ في رسالتيْ الحافظ السيوطي المذكورتين قبلُ يؤيد عدم المغايرة وأنهما ظل واحد ، ذٰلك أنه سمىٰ جُزْأَه : « تمهيد الفَرْش في الخصال الموجبة لظل العرش » ، ثم قال في مقدمته : « الحمد لله العظيم ، الذي لا ظل إلا ظله . . . وبعد : فإن الحديث المشهور في السبعة الذين يظلُّهم الله في ظل عرشه . . . » .

ثم ذكر لفظ الحديث : « سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظلُّه . . . » .

فهٰؤلاء المتحابون لجلال الله : محفوظون من أهوال القيامة ، هم في كرامة الله ورعايته وحفظه .

وليسوا وحدَهم في هٰذه الكرامة ، بل يَشْرِكُهم فيها آخرون ، ورد في تَعْدادهم أحاديثُ ، أشهرها حديث : « سبعةٌ يظلُّهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه ، ورجلٌ قلبه معلَّق في المساجد ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أَخْفَىٰ حتىٰ لا تعلم شمالُه ما تنفق يمنيه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ، رواه كثيرون جدّاً ، ومنهم البخاري في مواضع من « صحيحه » وهٰذا لفظ أول موضع منها : كتاب الأذان ـ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٢ : ١٤٣ (٦٦٠) .

وهناك أناس آخرون ، انظر تعدادهم وأحاديثهم وتخريجها باختصارٍ شديد في « شرح الزرقاني على الموطأ » ٤ : ٣٤٣ فما بعدها عند شرح حديث هٰؤلاء السبعة .

وليست هٰذه الكرامةُ العظيمة للمتحابين لجلال الله هي الكرامة الوحيدة لهم ، بل لهم إكرام إلـٰهي آخر ، هو المذكور في الحديث التالي ، وهٰذا لفظه وشرحه :

❋ ❋ ❋

٦٩ ـ عن أبي مسلم الخولاني قال : حدثني معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : المُتَحابُّون في جلالي لهم منابر من نور يَغبِطُهم النبيون والشهداء » .

٦٩ ـ تخريجه : رواه الترمذي في « سننه » : كتاب الزهد ـ باب ما جاء في الحبِّ في الله (٢٣٩٠) وقال : حسن صحيح .

وأبو مسلم : عبد الله بن ثُوَب الخولاني ، وانظر أول شرح الحديث المتقدم برقم (٦٧) .

معناه : هٰذا لونٌ آخر من إكرام الله عز وجل للمتحابّين فيه ، يخبرنا الله تعالىٰ به علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم ترغيباً لنا ، وتحبيباً بهٰذا المقام العظيم : مقام المحبة في الله .

يخبرنا أن لهم منابرَ من نور يومَ القيامة ، يقومون عليها ، **والمِنبَر** : سُمِّي منبراً لارتفاعه عن الأرض ، فهم يقومون مقاماً مرتفعاً عما سواهم من الناس ، علامةً علىٰ رفعة مكانتهم ، إذْ رفعةُ المكان دليلٌ علىٰ رفعة المكانة .

وهٰذه المنابر من نور ، من نورِ يومِ القيامة ، فلا يُقاسُ علىٰ نور شمس الدنيا وكَهْرُبائها ، إنما هو نورٌ خاص ، وهو دالٌّ علىٰ رفعة مكانتهم أيضاً ، لأنه منبر من نور ، ولأن فيه لفتاً لنظر أهل الموقف نحوهم ، وهٰذا كما يقولُ الناسُ اليوم في كلماتهم الاصطلاحية : فيه تسليطٌ للأضواء عليهم ، زيادةً في إشهار الله عز وجل لهم .

ومن عِظَم ما هم فيه : فإن خواصَّ عباد الله تعالىٰ ـ وهم الأنبياء والشهداء ـ

يغبطونهم علىٰ ذٰلك ، أي : يتمنَّون أن يكونوا مثلهم دون أن يزول عنهم ما أُكرِموا به ، من شدة إعظامهم لهم ، ومعلوم أن هٰذا حَسَد جائز .

وكيف يتمنَّى الأنبياءُ مقامَهم ـ وهم صفوةُ الخلق وأكرمُهم عند الله ـ ؟ .

ذكر المناوي رحمه الله أجوبةً فقال في « فيض القدير » ٤ : ٤٨٥ : « يعني : أن حالهم عند الله يوم القيامة بمثابةٍ لو غَبَط النبيون والشهداءُ يومئذ ـ مع جلالة قَدْرَهم ونَبَاهةِ أمرهم ـ حالَ غيرهم لغبطوهم ، وقال البيضاوي : كلُّ ما يتحلىٰ به الإنسان ويتعاطاه من علم وعمل فإن له عند الله تعالىٰ منزلةً لا يشاركه فيها من لم يتصف بها ، وإن كان له من نوع آخر ما هو أرفعُ قدراً وأعزُّ ذخراً ، فيغبطه بأنْ يتمنىٰ ويحب أن يكون له مثل ذٰلك ، مضموماً إلىٰ ما لَه من المراتب الرفيعة الشريفة . . . ، هٰذا من أولىٰ ما قيل في التأويل .

وأما قول السبْكي : هٰؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما أولٰئك فلا بد من سؤالهم عن التبليغ فيغبِطون السالم من ذٰلك التعب لراحته ، ولا يلزم أن تكون حالة الراحة أفضل : تعقَّبه ابن شُهبة بأن المتحابين في مقام الوَلاية ، وهي أولُ درجة النبي قبل النبوة ، ولا يمكن أن يحصلَ للولي خصلة ليست للنبي ، قال : والجواب المرضيُّ عندي : أنهم لا يغبطونهم علىٰ منابر النور والراحة ، بل على المحبة ، فإن المحبة في الله محبةٌ لله ، وهو مقام يُتنافس به ، فالغبطة علىٰ محبة الله لا علىٰ مواهبه . انتهىٰ » .

قلت : ما أورده ابن شهبة ـ ولعله : ابن قاضي شُهْبة ـ علىٰ كلام السبكي : صحيح مسلَّم به ، لٰكن قوله أخيراً : الغبطة علىٰ محبة الله لا علىٰ مواهبه : فيه نظر ، ففي بعض روايات الحديث التصريحُ بأن الأنبياء والشهداء يَغبِطون المتحابين في الله لما وهبهم الله إياه في ذٰلك اليوم الفظيع .

ففي روايةٍ لعبد الله ابن الإمام أحمد في « زوائده » ٥ : ٣٢٨ لحديث معاذ :

« . . . يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء » ثم ذكر رواية عبادة بن الصامت الحديثَ لأبي مسلم بلفظ : « يغبطهم بمكانهم النبيون والصدِّيقون » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » ٥ : ٣٤١ ، ٣٤٣ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم من جملة حديثٍ آخر : « . . . إن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداءَ يغبطهم الأنبياء والشهداءُ علىٰ مجالسهم وقُرْبهم من الله . . . » ، ثم وصفهم بأنهم تحابوا في الله . . .

ومثله حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً عند أبي داود : كتاب البيوع والإجارات ـ باب في الرهن ٤ : ١٩٠ (٤٦ تعليقاً) : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالىٰ . . . » فذكرهم .

فهٰذا تصريح بما نفاه ابن شهبة .

وأَرجَعَ العلامة عليٌّ القاري رحمه الله تعالىٰ في « المرقاة » ٩ : ٢٥٢ معنى الغِبطة في الحديث إلى المعنى اللغوي الأصلي لها ، فقال : « . . . **الغِبْطة في الحقيقة** : عبارةٌ عن حسن الحال ، كذا قيل ، وفي « القاموس » : **الغبطة** : حسنُ الحال والمَسَرَّةُ ، فمعناها الحقيقي مطابق للمعنى اللغوي ، **فمعنى الحديث** : يَستحسن أحوالهم الأنبياءُ والشهداء ، وبهٰذا يزول الإشكال الذي تحيَّر فيه العلماء » ، وليكن هٰذا مسك الختام .

وإشكالٌ آخر في كلام السبكي رحمه الله ، هو جزمُه بأن المتحابِّين في الله يدخلون الجنة بغير حساب ، فإن كان استفاد هٰذا من علوِّ مقامهم المذكور : ففيه نظر أيضاً ، لأن الحديث الآخر المشهور ـ حديثَ : « سبقك بها عُكَّاشة » ـ بيَّن مَن هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « كانوا لا

يَكْتَوون ، ولا يَسْتَرقُون ، ولا يتطيَّرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون » ، هٰذا لفظ البخاري في كتاب الطب والرقاق (٥٧٠٥ ، ٥٧٥٢ ، ٦٥٤١) ، ومسلم في أواخر كتاب الإيمان ، وفي إحدىٰ رواياته زيادة صفة أخرىٰ : « لا يَرْقُون » ، وليس فيها ذكر المتحابين في الله عز وجل . والله أعلم .

وكرامةٌ أخرىٰ من الله عز وجل لهٰذه الطائفة الميمونة : أخبرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله الكريم : « إن المتحابين لتُرىٰ غُرَفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي ، فيقال : مَن هٰؤلاء ؟ فيقال : هٰؤلاء المتحابون في الله عز وجل » رواه الإمام أحمد في « مسنده » ٣ : ٨٧ بإسناد قال عنه الهيثمي في آخر « مجمع الزوائد » : « رجاله رجال الصحيح » .

نسأل الله أن يكرمنا بهٰذه الخصلة المرضيَّة عند الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم .

❋ ❋ ❋

٧٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدمَ مرِضْتُ فلم تَعُدني ! قال : يا ربِّ كيف أَعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين ! قال : أَمَا عَلِمتَ أنَّ عَبْدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْه ؟ ، أمَا علمتَ أنكَ لو عُدْتَه لَوَجَدْتَني عنده ! .

يا بنَ آدمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْني ! قال : يا ربِّ وكيف أُطْعِمُك وأنتَ ربُّ العالمين ! قال : أما عَلِمتَ أنه استَطْعَمك عَبْدي فلانٌ فلم تُطْعِمْه ؟ ، أما عَلِمْتَ أنكَ لو أطعمتَه لوجدتَ ذٰلك عندي ! .

يا بنَ آدمَ اسْتَسْقَيْتُك فلم تَسْقِني ! قال : يا ربِّ كيفَ أَسْقيكَ وأَنت ربُّ العالمين ! قال : اسْتَسْقاك عَبْدي فلانٌ فلم تَسْقِهِ ، أما إنك لو سَقَيْتَه وجدتَ ذٰلك عندي » .

٧٠ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل عيادة المريض ٤ : ١٩٩٠ (٤٣) ، وزاد المُناويُّ ٢ : ٣١٣ عزوه إلى « الترمذي في الزهد » ولم أَرَه فيه .

معناه : في هٰذا الحديث القدسي غايةُ التشريف من الله عز وجل لعبده المريض ، وذٰلك أنه سبحانه وتعالىٰ وتقدَّس أقام ذاته العليَّة المقدَّسة مُقام العبد المريض ، فقال ـ وذٰلك يوم القيامة ـ معاتِباً المسلمَ المقصِّر في عيادة أخيه المسلم المريض : مرضتُ ، وإنما مراده : مرض عبدي فلان الذي قصَّرت فلم تَعُدْه .

ومثلُ هٰذا قولُه الآتي : استطعمتُك ، واستسقيتك ، أي : استطعمك عبدي فلان ، واستسقاك فلان ، وأما الله عز وجل فقد أجمع العقلاء علىٰ تنزُّهه سبحانه عن كل هٰذا ونحوِه ، وأن هٰذه الكلمات من النصوص الشرعية التي لا بدَّ من تأويلها .

قال الإمام النووي رحمه الله : « قال العلماء : إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالىٰ ، والمرادُ العبدُ : تشريفاً للعبد وتقريباً له » ، وزاد العلامة القاري ٣ : ٢٤٩ قوله : « **والحاصل** : أن من عاد مريضاً لله ، فكأنه زار الله » ، ونحوه في « فيض القدير » ٢ : ٣١٣ .

وأما قوله عز وجل : « **لو عُدْتَه لوَجَدتني عنده** » : فمعناه كما حكاه النووي عن العلماء أيضاً : « أي : وجدتَ ثوابي وكرامتي ، ويدلُّ عليه قولُه تعالىٰ في تمام الحديث : لو أطعمتَه لوجدتَ ذٰلك عندي ، لو أسقيتَه لوجدتَ ذٰلك عندي ، أي : ثوابَه » .

وقد قال الله تعالىٰ في سورة الكهف : ٤٩ : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ .

وفي الحديث : حضٌّ علىٰ هٰذه المكارم الأخلاقية الثلاثة : عيادةُ المريض ، لما فيها من مواساةٍ له وتخفيفٍ لآلامه ، وإطعامُ الجائع ؛ وسقايةُ الظمآن ، فإنها عنوان تكافل المسلمين فيما ينزِل ببعضهم من شدائد ، يخفِّفُها عنهم إخوانُهم الآخَرون المُعَافَوْن .

وفي عيادة المريض من الأجر العظيم ما لا يَعلمه إلا الله تعالى الذي يكتبُه للعائد ، من أدلة ذٰلك حديث ثوبان رضي الله عنه ـ عند مسلم ٤ : ١٩٨٩ (٤٢) ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عاد مريضاً لم يَزَلْ في خُرْفَة الجنة » ، قيل : يا رسول الله وما خُرْفة الجنة ؟ قال : « جَنَاها » ، فشبَّه وبَشَّر صلى الله عليه وسلم عائد المريض بأنه ما دام في عيادة المريض فهو

يَجْتَني من ثمار الجنة ، وهي بشارة : لأن جَنَاها لا يكون إلا لمن دخلها ، ومن دخلها لا يخرج منها ، فهي بشارة عاجلة له بأنه من أهلها .

ولا ينبغي للمسلم أن يَسْتَثْقِل من كثرة ذهابه إلى المريض وإيابه ما دام الأمر يتطلَّب منه ذٰلك ، فإن عيادة المريض سُمِّيتْ عيادةً ، لأن فيها الزيارةَ مرة بعد مرة ، والعودَ إليه مكرَّراً ، كما أفاده ابن الأثير في « النهاية » ٣ : ٣١٧ .

فاجعل عيادتك له مواساةً له ، وشكراً لله علىٰ معافاتك ، وأنك تعود لا تُعاد .

وإن معنىٰ قوله تعالىٰ « لو عدتَه لوجدتَني عنده » : كمعنىٰ قوله في المناسبتين الثانيتين : « لوجدتَ ذٰلك عندي » ، كما تقدم ، لٰكن لاختيار اللفظ أَثَرٌ ومدلولٌ ، ولا بدَّ ، فانظر الفرق بين العبارتين : لوجدتَني ، و : لوجدتَ ذٰلك عندي ، لِتُدْرِك الفرق بين الثوابين : ثواب عيادة المريض ، وثواب إطعام الجائع وسَقْي العطشان ، ومن أجل قول الله تعالىٰ في هٰذا الحديث القدسي « لوجدتني عنده » : كان صلى الله عليه وسلم يذهب لعيادة المريض حافياً ، والله أعلم ، قال الحافظ العراقي رحمه الله في « ألفيته » في السيرة النبوية ، رقم البيت (٣٧١) :

يمشي بلا نعلٍ ولا خفٍّ إلىٰ عيادة المريض حولَه المَلا

والله تعالىٰ هو الموفق للخيرات .

❋ ❋ ❋

٧١ ـ عن عطاء بن يسار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مرِض العبد بعث الله تعالىٰ إليه مَلَكَين فقال : انظُرا ماذا يقول لِعُوَّاده ، فإنْ هو إذا جاؤوه حَمِدَ الله وأثنىٰ عليه : رَفَعا ذٰلك إلى الله عز وجل ـ وهو أعلمُ ـ فيقولُ : لعبدي عَلَيَّ إنْ تَوَفَّيْتُه أن أُدْخِلَهُ الجنة ، وإنْ أنا شَفَيْتُه أن أُبْدِلَ له لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أُكَفِّر عنه سيئاته » .

٧١ ـ تخريجه : رواه الإمام مالك في « الموطأ » : كتاب الجامع ـ ما جاء في أجر المريض ٢ : ٩٤٠ (٥) ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء ، وهٰذا إسناد صحيح ، وإن كان مرسلاً ، فالمرسل حجة عند الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة ومالك وأحمد ، على الصحيح المعتمد ، ووصله ابن عبد البر من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً بإسناد تالف ، ثم ذكر ما يشبهه ويشدُّه .

غريبه : عُوَّاده : جمع عائد ، وتقدم أن العيادة مأخوذة من تكرار الزيارة والعود إليها مرةً بعد مرة .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف تنبيهٌ إلٰهيٌّ للعبد المسلم أن يَحمَد الله تعالىٰ علىٰ ما يُصيبه من ابتلاء ومرض ، وأن عاقبة حَمْده خيرٌ كبير له في الدنيا والآخرة .

والله تعالىٰ أعلمُ بعباده منهم بأنفسهم ، لٰكنه أراد أن يظهر هٰذا الثواب لملائكته ، ثم لنا ، عن طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فحمدُ الله والثناءُ عليه من قِبَل العبد المبتلَىٰ : له عند الله تعالىٰ منزلةٌ رفيعة ، والله أكرمُ من أن يضيّع ذٰلك ، وأكرمُ من أن يجمع علىٰ عبده المرضَ والحرمانَ من فضله .

وواضح من سياق الحديث : أن المريض المشار إليه : مسلم ، فهو من أهل الجنة بفضل الله ورحمته ، والحديث يشير إلىٰ أن له مزية خاصة ، تكون له مع دخوله الجنة ، لكونه كان له في حال مرضه مزيةٌ خاصة ، هي حمدُه الله وثناؤه عليه ، ولعل هٰذه المزية تكون بدخوله الجنةَ مع السابقين الأولين ـ أو دون عذاب ـ إنْ توفَّاه في مرضه هٰذا ؛ وإن شفاه منه أَبدله الله بدناً خيراً من بدنه المريض ، وكفَّر عنه سيئاتِه .

فهو علىٰ خير وإلىٰ خير كيفما انقلب ، ونسأل الله من خيره وفضله مع العافية .

روىٰ مسلم في « صحيحه » : كتاب الزهد ـ بابٌ في أحاديث متفرقة ٤ : ٢٢٩٥ (٦٤) عن صُهَيب الروميّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمرَه كلَّه خير ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن ، إنْ أصابتْه سَرَّاءُ شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » ٤ : ١٢٣ عن أبي الأَشْعَث الصَّنْعاني أنه راح إلىٰ مسجد دمشق وهجَّر بالرواح ، فلقيَ شدادَ بنَ أَوْسٍ ـ والصُّنَابِحيُّ معه ـ فقلت : أين تريدان يرحمكما الله ؟ قالا : نريد ها هنا ، إلىٰ أخ لنا مريض نعوده ، فانطلقتُ معهما حتىٰ دخلا علىٰ ذٰلك الرجل ، فقالا له : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحت بنعمة ، فقال له شداد : أبشر بكفَّارات السيئات ، وحَطِّ الخطايا ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله

عز وجل يقول : إني إذا ابتليتُ عبداً من عبادي مؤمِناً فحمِدني على ما ابتليتُه فإنه يقوم من مضجَعه ذلك كيومَ ولدتْه أمُّه من الخطايا ، ويقول الربُّ عزَّ وجل : أنا قيَّدت عبدي وابْتَلَيْتُه فأَجْروا له كما كنتم تُجْرون له وهو صحيح » ، وفي إسناده إسماعيل بن عيَّاش الحمصي ، عن راشد بن داود الصنعاني ، وإسماعيل روايته عن الشاميين مقبولة ، وهذا منها ، فراشد من صنعاء دمشق ، وزاد المنذري في « الترغيب » ٤ : ٢٩١ ـ ٢٩٢ عَزْوَه إلى « الطبراني في الكبير والأوسط » وقال : « له شواهد كثيرة » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » ٢ : ٣٤١ ، ٣٦١ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : إن المؤمنَ عندي بمنزلةِ كلِّ خير ، يَحْمَدُني وأنا أَنْزِع نفسَه من بين جنبيه » ، وعزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٢ : ٣٢١ إلى البزار فقط « عن شيخه أحمد بن أبان القرشي ، ولم أعرفه ، وبقيَّة رجاله رجال الصحيح » ، وكذلك اقتصر على عزوه إلى البزار الحافظ ابن حجر في « النكت على ابن الصلاح » ٢ : ٥٣٩ ، لكنه قال : « حديث حسن رواته من أهل الصدق »[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) وكذلك حسَّنه السخاوي في « فتح المغيث » ١ : ١٢٠ وليس فيه عزو الحديث إلى أحد . ونقل الصنعاني في « توضيح الأفكار » ١ : ٢٥٨ كلام ابن حجر بطوله ، وحَصَل فيه تحريف فاحش جداً في اسم مخرجه ، فجاء فيه : « أخرجه الدارمي في « مسنده » » ! فليصحح ، وليس له وجود في كتاب الدارمي .

وهو حديث نبوي ـ لا قدسي ـ في « سنن » النسائي ٤ : ١٢ (١٨٤٣) وله قصة .

٧٢ ـ عن أبي أُمَامةَ الباهليِّ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله سبحانه : ابنَ آدمَ إن صبرتَ واحتسبتَ عند الصَّدْمة الأولىٰ لم أَرْضَ لك ثواباً إلا الجنةَ » .

٧٢ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه : كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٧) ، وصحَّح إسناده البوصيري في « مصباح الزجاجة » (٥٨٤) .

معناه : سيأتي الكلام عن الصبر والاحتساب تحت رقم الحديث (٧٥) .

وأما الصدْمة الأولىٰ : فقال الإمام الخطابي في شرحه على البخاري « أعلام الحديث » ١ : ٦٩٠ : « يريد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أن الصبرَ المحمودَ المأجورَ عليه صاحبُه هو ما كان عند مفاجأة المصيبة ، وهي الصدمة الأولىٰ ، دونَ ما بعدها ، فإنه إذا طالت الأيام عليها وَقَعَ السُّلُوُّ ، وصار الصبر حينئذ طبعاً ، فلم يكن للأجر موضع [١] .

« وقد قال بعض الحكماء : إن الإنسان لا يُؤجَر علىٰ شيء من المصائب التي تناله في نفسه من مرضٍ وموتِ حميمٍ ورُزْءِ مالٍ ، لأجل ذوات هٰذه

(١) جاءت هٰذه الجملة عند المناوي رحمه الله ٤ : ٢٣٤ ـ دون عزو إلىٰ أحد ـ : « وأما إذا طالت الأيام على المصائب وقع السُّلُوُّ ، وصار الصبر طبعاً ، فلا يؤجر عليه مثل ذٰلك » ، وفرق واضح بين النتيجتين . وقد قال الطِّيبي في شرح المشكاة ٣ : ٣٩٧ مثلَ قول الخطابي ، وتفصيلُ العلامة عليّ القاري أولىٰ . وهٰذا لفظهما من « المرقاة » ٤ : ٩٠ : « قال الطيبي : . . . فيصير الصبر طبعاً فلا يؤجر عليه . اهـ . أما إذا لم يَصِر الصبرُ طبعاً ثم تذكر المصيبة ثم صَبَر ولو طال العهد فيثاب ، ولٰكن الدرجة الأعلىٰ عند الصدمة الأولىٰ » .

الأمور ، فإن جميع ذلك طبعٌ وجِبِلَّة ، ولا صنعَ للإنسان فيه ، وقد يصيب الكافرَ مثلُ ما يصيب المسلمَ ، إنما يؤجر الإنسان علىٰ نيَّته واحتسابه الأجرَ فيها ، وتَلَقِّي الأمرَ في ذلك بالرضا وجميل الصبر » .

وأفاد الحافظ رحمه الله في « الفتح » أيضاً ٣ : ١٧٢ أن « الصبر عند الصدمة الأولىٰ هو المطلوبُ المبشَّرُ عليه بالصلاة والرحمة » في قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة : ١٥٥ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ . . . ﴾ البقرة : ١٥٧ .

❋ ❋ ❋

٧٣ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ماتَ وَلَدُ العبدِ قال الله لملائكته : قَبَضْتُم ولدَ عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتُم ثمرةَ فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حَمِدَكَ واسْتَرْجَع ، فيقول الله : أُبْنُوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسَمُّوه : بيتَ الحَمْدِ » .

٧٣ ـ تخريجه : رواه الترمذي : أبواب الجنائز ـ باب فضل المصيبة إذا احتُسِبَتْ (١٠٢١) وقال : حديث حسن غريب ، وهو في « المسند » ٤ : ٤١٥ .

معناه : إن العبد الذي مات ولده : هو من المؤمنين ، كما يدلُّ عليه آخر الحديث ، إذِ الكافر لا حظَّ له في الجنة .

وسؤالُ الله عزَّ وجلَّ للملائكة ـ ملائكةِ الموت ـ : قبضتُم ولدَ عبدي ، قبضتم ثمرة فؤاده ، سؤالٌ لإبراز الله تعالىٰ عِظَم مُصابِ الإنسان بفقد ولده ، ولذٰلك تدرَّج بصيغة السؤال : ولد عبدي ، ثمرة فؤاده ، وفي رواية « المسند » : « يا ملك الموت قبضتَ ولد عبدي ، قبضت قرةَ عينه وثمرةَ فؤاده » ، والولد ثمرة أبيه ، كمنزلة الثمرة من الشجرة .

وتأكيداً لهٰذا السبب وتنويهاً من الله العظيم الكريم بمقام عبده يَسألُهم سؤالاً ثانياً ـ وهو سبحانه أعلم ـ فيقول لهم : ماذا قال عبدي حين أَنزلتُ به هٰذه الفاجعة ؟ فيجيبونه : حَمِدك يا ربَّنا واسترجع فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمدُ ـ كما قالوا ـ هو : « النعتُ بالجميل على الجميلِ ، أي :

الفعلِ الحسن الصادر من المحمود باختياره »[١] ، فهٰذا المبتلَىٰ بفقد ولدِه وقرةِ عينه وثمرةِ فؤاده : يَصف اللهَ سبحانه المبتلِيَ له بفقد ولده ، يصفُه بالجميل ، ويَرَىٰ أن ما نزلَ به إنما هو جميلٌ وفعلٌ حسن ، لأنه صدر من مولاه خالقِه وخالقِ ولده وخالقِ الخلق أجمعين ، وهو أرحمُ الراحمين ، وأرحمُ بنا من أنفسنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فلذٰلك يحمَده ! .

وفي هٰذا الموقف من عظمة إيمان المبتلَىٰ ما لا يدخُل تحت الوصف ، فلذٰلك كرَّر المولىٰ سبحانه السؤالَ على الملائكة ليُظهِر لهم فضلَ الإنسان المؤمن الذي قال فيه الملائكة أولَ الأمر : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة : ٣٠ .

لذٰلك نجد في كثيرٍ من الأحاديث إبرازَ الله تعالىٰ فضلَ المؤمنين أمامَ ملائكته ـ علىٰ قدسيتهم لديه ، سبحانه ـ .

وهٰذا هو مقام الرضا عن الله سبحانه وعن قضائه لعبده ، وهو من أعظمِ ما يَصلُ إليه الواصلون ، وهو الذي دعا به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه النسائي (١٣٠٥) ، وأحمد ٤ : ٢٦٤ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما ـ وبعضُ جُمَله جاءت من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه في « المسند » أيضاً ـ ٥ : ١٩١ ، ونصُّه : « اللهم بعلمِك الغيبَ ، وقدرتِك على الخَلْق ، أحْيِني ما علمتَ الحياةَ خيراً لي ، وتَوَفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمةَ الحقِّ في الرضا والغضب ، وأسألك القَصْدَ في الفقر والغنىٰ ، وأسألك نعيماً لا يَنْفَدُ ، وأسألك قُرَّة عينٍ لا تنقطعُ ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذَّةَ النظر إلىٰ وجهك ، والشوقَ إلىٰ لقائك ،

---

(١) هٰذا لفظ المناوي في « فيض القدير » ١ : ٦ .

في غيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّة ، ولا فتنة مُضِلَّة ، اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان ، واجعلْنا هُداة مهتدين » .

وانظُر قوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : « أسألك الرضا بعد القضاء » : « سأله الرضا بعد وقوع القضاء ؛ لأنه حينئذٍ تتبيَّن حقيقة الرضا ، وأما الرضا قبلَه فإنما هو عزمٌ علىٰ أنه يرضىٰ إذا أصابه ، وإنما يتحقَّق الرضا بعده » كما في « مدارج السالكين » ٢ : ٢٢٣ لابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالىٰ .

ويجد القارئ الكريم فصلاً في الحديث عن الرضا في المصدر المذكور ٢ : ١٧١ ـ ٢٤٢ هو من أنفس ما يُقرأ ويُستفاد ، ومما حكاه فيه ٢ : ٢٢٧ : « لما قدم سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه إلىٰ مكة ـ وقد كُفَّ بصره ـ جعل الناسُ يُهْرَعون إليه ليدعوَ لهم ـ ومعلومٌ أنه كان مستجابَ الدعاء ـ فجعل يدعو لهم ، قال عبد الله بن السائب : فأتيتُه وأنا غلام ، فتعرَّفتُ إليه فَعَرَفني ، فقلت : يا عمِّ أنت تدعو للناس فَيُشْفَوْن ، فلو دعوتَ لنفسك لردَّ الله عليك بصرك ! فتبسَّم ، ثم قال : يا بنيَّ قضاءُ الله أحبُّ إليَّ من بصري » .

ثم ذكر سبحانه لهم ما أعدَّه من جزاء لعباده الحامدين له في الضرَّاء ـ بَلْه السراء ـ فقال لهم : « **ابْنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسمُّوه : بيتَ الحمد** » .

فهاتان بشارتان : الجنة ، وبيت الحمد فيها ، والجزاء من جنس العمل ، فالجنة دار المؤمنين ، وهٰذا منهم ، ودار الحامدين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ . . . ﴾ فاطر : ٣٤ ـ ٣٥ ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ . . . ﴾ الزمر : ٧٤ ، وهٰذا منهم ، ولمزيد اختصاصه بالحمد مَنَحَه الله فيها بيتَ الحمد .

والتنوين في قوله تعالى : « ابْنوا لعبدي بيتاً » هٰذا التنوين للتعظيم ، أي : بيتاً عظيماً[١] يَليق بحمده وبصبْره ، اللهم إنا نسألك ذٰلك بفضلك من فضلك مع عافيتك ، فإنها أوسع لنا .

* * *

(١) أفاده القاري في « المرقاة » ٤ : ٩٥ .

٧٤ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالىٰ قال : إذا ابتليتُ عبدي بحبيبَتَيْه فصبر ، عوَّضْتُه منهما الجنةَ » .

٧٤ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب المرضىٰ ـ باب فضل مَن ذهب بصره ١٠ : ١١٦ (٥٦٥٣) ، ورواه الترمذي : كتاب الزهد ـ باب ما جاء في ذهاب البصر (٢٤٠٠ ، ٢٤٠١) عن أنس وعن أبي هريرة ، وقال عن الأول : حسن غريب ، وعن الثاني : حسن صحيح .

غريبه : حبيبتَيه : هما العينان ، وشدةُ حاجة الإنسان إلىٰ عينيه سوَّغتْ وَصْفَهما بالحبيبتين .

معناه : يُطمئِن الله عز وجل مَن يبتليه مِن عباده بفقد بصره ، بأنه سبحانه سيعوّضه عِوضاً أعظَم مما أخذه منه ، ذٰلك « أن الالتذاذ بالبصر يَفْنَىٰ بفناء الدنيا ، والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها » قاله ابن حجر .

وهٰذا الأجر ملاحَظٌ فيه من الشروط :

ـ أن يكون العبد المبتلَىٰ مؤمِناً ، فتكون إضافتُه في قوله : « عبدي » إضافةَ تشريف .

ـ وصابراً ، أخذاً من صريح الحديث المذكور .

ـ ومحتسباً ، أخذاً من رواية الترمذي المشار إليها ، ففيها : « فَصبر واحتسب » ، فهو يلاحِظ في صبره ادَّخارَ أجره عند الله تعالىٰ .

ـ وأن يكون صبره واحتسابُه من أول الأمر ، لا بعد أن تبلَّد طبعُه وإحساسه ، واعتاد فقد البصر ـ نسأل الله العافية ـ ، جاء ذٰلك في رواية

البخاري للحديث في كتابه « الأدب المفرد » (٥٣٥) « يقول الله : يا بن آدم إذا أخذتُ كريمتيكَ فصبرت عند الصَّدْمة واحتسبتَ لم أَرْضَ لك ثواباً دون الجنة » ، والتعبير بالفاء في الحديث المشروح يفيد هٰذا المعنىٰ : « إذا ابتليتُ عبدي فصبر . . . »[١] .

وقوله : « إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه » : هل هو فيمن وُلِد أعمىٰ ؟ أو وُلد بصيراً فَعَمِي ؟ الظاهر : الاحتمال الثاني ، ولم أَرَ من نصَّ علىٰ هٰذا صراحةً إلا أن عبارة العلامة علي القاري رحمه الله تفيد هٰذا الذي استظهرته ، فإنه قال في « المرقاة » ٣ : ٣٦١ : « إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه : أي : بفقد بصر عينيه » ، والفقد ـ كما قال الراغب في « مفرداته » ـ : « عَدَمُ الشيء بعد وجوده ، فهو أخصُّ من العدم ، لأن العدم يقال فيه ، وفيما لم يُوجَد بعدُ » .

❋ ❋ ❋

(١) وهٰذا النصّ الخاص غير الذي تقدم برقم (٧٢) .

٧٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالىٰ : ما لعبدي المؤمنِ عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صَفِيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتَسَبَه إلا الجنة » .

٧٥ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الرِّقاق ـ باب العمل يُبْتَغَىٰ به وجه الله ١١ : ٢٤١ (٦٤٢٤) .

غريبه : **الصَّفِيُّ** : الرجلُ الذي أحببتَه واصطفيتَه لك .

احتسَبَه : « صبر علىٰ فَقْده راجياً الأجر من الله علىٰ ذٰلك » قاله في « فتح الباري » .

معناه : يخبر الله عز وجل في هٰذا الحديث عن أجر مَن صَبَر علىٰ فَقْد حبيبه ، من : ولد ، أو والد ، أو أخ ، أو زوجة ، أو صديق . . . ، أن من صَبَر علىٰ ذٰلك محتسِباً أجره عند الله علىٰ مصيبته هٰذه : فله الجنة .

وجاء هٰذا الإخبار بهٰذا الثواب العظيم بصيغة الحصر ، زيادةً في تأكيد الخبر : ما لعبدي . . . إلا الجنة .

والحديثُ جاء بهٰذا الأجر بهٰذه الشروط :

ـ أن يكون العبدُ مؤمناً ، فلا علاقة للكافر هنا .

ـ أن يكون فقيدُه عزيزاً عليه ، صَفِياً له ، صديقاً حميماً .

ـ أن يحتسبَ مُصَابَه ، وتحت الاحتساب شرطان :

* الصبر ، والصَّبْرُ أشدُّ مرارةً من الصَّبِر .

* وابتغاءُ الأجر من الله تعالىٰ .

وقد جاءت أحاديثُ فيها الدلالةُ علىٰ إثابة الله تعالىٰ بالجنة لمن فَقَد ولده وصَبَر ، لٰكنْ هٰذا الحديث أعمُّ منها ، فقد جاء بلفظ : « صَفِيَّه » كما تقدم . ونسأل الله العافية .

وجاء في حديث آخر شرطٌ آخر ، هو : أن يكون الصبرُ والاحتساب أولَ نزول المصيبة بصاحبها ، أما أن يَجْزَعَ ويَفْزَعَ ، ثم يَرَىٰ أن لا مفرَّ له من قَدَر الله فيصبِّر نفسه : فلا يدخل تحت هٰذا ، كما يُستفاد من الحديث السابق برقم ٧٢ ، ٧٤ .

❋ ❋ ❋

٧٦ ـ عـن أبـي هـريـرة رضـي الله عـنـه : أن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم قـال : « قـال الله عز وجـل : إذا أحبَّ عبدي لقائي : أحببتُ لقاءَه ، وإذا كَرِه لقائي : كَرِهتُ لقاءَه » .

٧٦ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح : ١٥ ، ١٣ : ٤٦٦ (٧٥٠٤) ، وكان قد أخرج نحوه في كتاب الرقاق ـ باب من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ١١ : ٣٥٧ (٦٥٠٧ ، ٦٥٠٨) مرفوعاً نبوياً ، ومثله في « صحيح » مسلم : كتاب الذكر والدعاء ـ باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٤ : ٢٠٦٥ ـ ٢٠٦٧ (١٤ ـ ١٨) .

معناه : لقاء الله عز وجل يكون بالبعث من القبور ، إلىٰ ما وراء ذٰلك من مواقفَ يؤول إليها الخلائق في ذاك اليوم ، وليس هو الموت ، بل الموتُ مقدِمةٌ لذاك اللقاء .

فالله تعالىٰ يخبرنا أن العبد إذا أحبَّ لقاءَ ربِّه ، فإن ربَّه يحبُّ لقاءه ، وكذٰلك العكس : إذا كره العبد لقاءَ ربِّه ، كره الربُّ سبحانه لقاءَ عبده .

ولما حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم بعضَ أصحابه بهٰذا الحديث من كلامه صلى الله عليه وسلم ـ كما في رواية البخاري ومسلم اللتين أشرتُ إليهما ـ قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : إنَّا لَنكرهُ الموتَ ، وهٰذا القول منها ليس تفسيراً للقاء الله بالموت ، بل إنها تقول : نكرهُ الموتَ الذي هو مقدِمة للقاء الله ، لما بعده من متاعب وأهوال .

فقال لها عليه الصلاة والسلام : « ليس ذٰلكِ ، ولٰكنَّ المؤمنَ إذا حَضَره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامَه ، فأحبَّ

لقاء الله ، وأحبَّ الله لقاءَه ، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيءٌ أكرهَ إليه مما أمامَه ، فكرِه لقاءَ الله وكرِه الله لقاءَه » .

وهٰذا التوهُّم الذي عرضَ للسيدة عائشة رضي الله عنها ، عَرَض لتابعيٍّ اسمُه شُرَيحُ بن هانئ ، فجاء إليها يَستفسرُها ، ففسَّرت له الحديث بوصفها حال المحتضَر ، ففي « صحيح » مسلم ـ الموضع السابق ـ (١٧) أن شريحاً المذكور سمع أبا هريرة رضي الله عنه يروي هٰذا الحديث ، فجاء أمَّ المؤمنين عائشةَ وقال لها : إن كان كذٰلكِ فقد هَلَكْنا ! فقالت له : ليس بالذي تذهبُ إليه ـ أي : ليس كما فهمتَ ـ ولٰكنْ إذا شَخَص البصرُ ، وحَشْرَجَ الصدر ، واقشعرَّ الجلد ، وتَشَنَّجت الأصابع : فعند ذٰلك : من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .

وحاصل ذٰلك : أن الله يُبشِّر المؤمن المحتضَر بكرامته عنده في الآخرة ، فهي من عاجل بُشْرى المؤمن ، وحينئذ يُقبِل ويحبُّ هٰذا العبدُ لقاءَ الله تعالىٰ ، والعكس بالعكس ، والعياذ بالله .

وقد بوَّب العلَّامة القرطبيُّ المفسِّر الشهير ، في كتابه « التذكِرة » ص ٥٧ : « باب لا تخرج روحُ عبدٍ مؤمن أو كافر حتىٰ يُبشَّر ، وأنه يُصعَد بها » ، ومما ذكره فيه : « عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ في قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ الأحزاب : ٤٤ : فيسلِّم ملكُ الموتِ على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحَه حتىٰ يُسَلِّم عليه » ، وهو بهٰذا اللفظ في « تفسيره » للآية الكريمة المذكورة ١٤ : ١٩٩ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٤٢٦٢) ، وصحح إسنادَه البُوصيريُّ في « مصباح الزجاجة » (١٥٢٤) ، وأوَّله : « الميتُ تَحْضُره الملائكة ، فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا : اخْرُجي أيتُها النفسُ الطيِّبة ،

كانت في الجسد الطيِّب ، اخْرُجي حميدةً ، وأَبْشِري برَوْح ورَيْحان وربٍّ غير غضبان ، فلا يَزالُ يُقالُ لها حتىٰ تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء فيفتح لها . . . » ، وكذٰلك العكس : « يقال : اخْرُجي أيتُها النفسُ الخبيثةُ ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمةً ، وأَبْشِري بحَميمٍ وغَسَّاق ، وآخَرُ من شَكْله أزواجٌ ، فلا يَزالُ يُقال لها ذٰلك حتىٰ تَخْرُج ، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فلا يُفْتَح لها . . . »[(١)] .

والشاهدُ من هٰذا : أن الله تعالىٰ يَكشِف للمحتَضَر في اللحظة الأخيرة عن مستقرِّه ، فالمؤمن يتلهَّف شوقاً إلىٰ ذاك المآل ، ويتشوَّق إلىٰ لقاء الله عز وجل والدار الآخرة ، وغيرُه يزداد تمسُّكاً بالدنيا التي عَمَرَها ، ويكرهُ النُّقْلَةَ عنها إلىٰ لقاء الله عز وجل والدار الآخرة .

وفي مقدمة « سنن » الدارمي ـ باب في إعظام العلم ص ١٦٢ حوارٌ طويل بين سليمان بن عبد الملك وأبي حازمٍ سلمةَ بن دينار المخزوميِّ أحدِ صغارِ التابعين طبقةً ، ولٰكنه من أَجِلائهم علماً وعملاً وفضلاً ، وفيه يقول له سليمان بن عبد الملك :

ـ يا أبا حازم ما لَنا نَكْرَهُ الموت ؟ .

فأجابه بجَراءَة الناصح الصادق :

ـ لأنكم أَخْرَبْتُمُ الآخرةَ ، وعَمَرتُم الدنيا ، فَكرهْتم أن تَنْتَقلوا من العُمران إلى الخراب ! .

قال سليمان : أصبتَ يا أبا حازم ، فكيف القدومُ غداً على الله ؟ .

---

(١) وانظر حديثاً لعائشة رضي الله عنها في « فتح الباري » ١١ : ٣٥٩ (٦٥٠٧) عزاه لعبد بن حميد ، ليس في المطبوع ، وهو في « مسند » إسحاق بن راهويه ٣ (١٠٤٩) بإسناد صحيح .

قال أبو حازم : أما المحسِنُ فكالغائب يَقْدَم علىٰ أهله ، وأما المسيءُ فكالآبِق يَقْدَم علىٰ مولاه ! .

قال : فبكىٰ سليمان ، وانظر الحوار هناك بتمامه ، ففيه صدقُ السائل ، ونُصْح المسؤول .

* * *

من أحاديث صفة الجنّة والنّار وأهلهما

٧٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خَلَق الله الجنةَ والنارَ : أرسلَ جبريلَ إلى الجنة فقال : أُنظُرْ إليها وإلىٰ ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فجاءها ونَظَر إليها وإلىٰ ما أعَدَّ الله لأهلها فيها ، قال : فَرَجَع إليه ، قال : فَوَعِزَّتِك لا يَسمعُ بها أحدٌ إلا دَخَلَها ، فأَمَرَ بها فَحُفَّتْ بالمكاره ، فقال : ارْجِعْ إليها ، فانظُرْ إلىٰ ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره ، فرجع إليه فقال : وعِزَّتِك لقد خِفتُ أن لا يدخُلَها أحد .

قال : اذهبْ إلى النار فانظُرْ إليها ، وإلىٰ ما أعددتُ لأهلها فيها ، فإذا هي يَرْكبُ بعضها بعضاً ، فرجع إليه فقال : وعِزَّتِكَ لا يسمع بها أحدٌ فَيدخُلَها ، فأمر بها فَحُفَّتْ بالشهوات ، فقال : ارجعْ إليها ، فرجَع إليها فقال : وعزَّتك لقد خشيت أن لا يَنْجُوَ منها أحد إلا دخلها » .

٧٧ ـ تخريجه : رواه الترمذي في أبواب صفة الجنة ـ باب حُفَّت الجنةُ بالمكاره (٢٥٦٠) وقال : حسن صحيح ، وهو في أبي داود أيضاً : كتاب السُّنَّة ـ باب خلق الجنة والنار (٤٧١١) ، والنسائي في « الصغرىٰ » ـ بنحوه ـ أول : كتاب الأيمان والنذور ـ باب الحَلِف بعزَّة الله تعالىٰ ٧ : ٣ .

معناه : في هٰذا الحديث الإلٰهي : تنبيهٌ من الله عزَّ وجلَّ لعباده أن ينظروا إلىٰ حقائق الأمور وعواقبها ، وتحذيرٌ منه تعالىٰ لهم أن يَغْتَرُّوا بمظاهر الأمور وعاجلها .

وبيان ذٰلك : أنه خَلَق الجنة وأعدَّ فيها لأهلها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خَطَر علىٰ قلب بَشَر ، وجعلها دار رحمته وكرامته ورضوانه ، بحيث إنه لا يَسمعُ بها أحد إلا خَطَبها وَمَهَرها مهما كان الثمن .

ثم إنه حفَّ طريقَها بالتكاليف الشرعية ، فَبَدَتْ لناظرها أنه لن يدخُلَها أحد .

فالعاقل : مَن نَظَر إلىٰ ما وراءَ التكاليف ، حيثُ تكونُ الحقائق ، ونظر إلىٰ أن هٰذه التكاليفَ مؤقَّتةٌ بعُمُره المحدود بسنوات معدودات ، وأن العواقب دائمةٌ مُؤَبَّدة ، إذ يُذْبَح الموت في أول لحظة يَسْتقرُّ فيها أهلُ الجنة بنعيمهم ، حتىٰ لا يشعروا بمنغِّصٍ يكدِّر عليهم نعيمَهم ، وهو خشيتُهم من الإخراج من هٰذا النعيم .

والأحمقُ : هو الذي تَحْجُبُه وتَصُدُّه عن الجنة هٰذه التكاليفُ الشرعية التي اقتضتْها حكمة الشارع الحكيم للاختبار ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ الأنفال : ٣٧ .

وإن الله عز وجل خَلَق النارَ ، وجعل فيها من العذاب لأهلها « لو أن قطرةً من الزَّقُّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدتْ علىٰ أهلِ الدنيا معايشَهم ، فكيف بمن يكون طعامَه ؟! »[١] ، ووصفها تعالىٰ بقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ الملك : ٨ إلىٰ ما هنالك ، أعاذنا الله منها بمنِّه وكرمه ، بحيث لا يَسمعُ أحدٌ بعض ما فيها إلا وتجنَّب طريقَها وكلَّ ما يؤدِّي إليها .

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٥) وقال : حسن صحيح .

لكنه تعالىٰ ـ بحكمته ـ حفَّ طريقَها بالشهوات العاجلة ، وزيَّنها لناظريها ، فبادروا إليها ، ونَسُوا عاقبتها المُخِيفة وويلاتِها الدائمة .

فالعاقلُ من نَظَر إلىٰ حقيقتها وعاقبتها ، ولم تَغُرَّه زخارفُها ، ولم تَخْدَعْهُ الستائر البرَّاقة التي عليها .

وما مَثَلُ الجنةِ وما حُفَّت به ، والنارِ وما حُفَّت به إلا كقِطعة حلوىٰ لذيذةٍ فيها شفاءُ صاحبها وبُرْؤُه من المرض ، لكنْ عليها ذرَّاتٌ من غبار ، تحتاج إلىٰ إزالةِ عنها ، ثم تناولِها .

وإلىٰ جانبها لقمةٌ من السُّمِّ الزُّعَاف القاتل لساعته ، وعليها قِشرةٌ رقيقةٌ من الطَّعْم الحُلْو الخَلَّاب .

فإزالةُ ذرات الغبار عن الحلوى اللذيذة : تحتاجُ إلىٰ تأنٍّ ووقت ، وفيها العاقبة الحسنة والبَلْسَمُ الشافي ، واللونُ الحلوُ والطعم الحلو يجذِبُ الأحمق أو الطفل الصغير الذي لا يدرك العواقب إلىٰ تناوله ، فأوّلُ ما يُصيبُ لسانه يجدُه حلواً ، ولا يَتمُّ شعوره بحلاوته إلا ويسقطُ على الأرض ميتاً بسُمِّه .

وإن الله تعالىٰ يُنادينا صباحَ مساءَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ لقمان : ٣٣ .

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله في « مفرداته » ص ٣٥٩ : « الغَرور : كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مال وجاهٍ وشهْوةٍ وشيطان ، وقد فسّر بالشيطان ، إذْ هو أخبثُ الغارّين ، وبالدنيا ، لِما قيل : الدنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ » أي : تَمْضي وتنتهي .

وأشدُّ من هذا التحذير وأبلغُ منه قولُ الله عز وجل الآخَرُ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ ثم ختم الآية

بقوله : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ الحديد : ٢٠ ، وتأمَّلْ قول الله تعالىٰ في صدر هٰذه الآية : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ ﴾ يكفِك للاتعاظ والاعتبار .

هٰذا ، وقد روى البخاري : كتاب الرِّقاق من « صحيحه » ١١ : ٣٢٠ (٦٤٨٧) عن أبي هريرة ، ومسلم أول : كتاب صفة الجنة ونعيمها ٤ : ٢١٧٤ (١) ، عن أبي هريرة أيضاً ، وعن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّت الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات » ، ولفظ البخاري : « حُجِبت » في الموضعين .

قال الإمام النووي رحمه الله : « معناه : لا يُوصَل الجنةَ إلا بارتكاب المكاره ، والنارَ بالشهوات ، وكذٰلك هما محجوبتان بهما ، فمن هَتَكَ الحجابَ وصل إلى المحجوب ، **فهتْكُ حجاب الجنة** : باقتحام المكاره ، **وهتكُ حجاب النار** : بارتكاب الشهوات ، **فأما المكارهُ** : فيدخل فيها الاجتهادُ في العبادة والمواظَبةُ عليها والصبرُ علىٰ مشاقِّها ، وكظمُ الغيظِ ، والعفوُ والحلمُ والصدقةُ ، والإحسان إلى المسيء ، والصبرُ عن الشهوات ، ونحو ذٰلك .

وأما الشهواتُ التي النارُ محفوفةٌ بها : فالظاهر أنها الشهواتُ المحرَّمة ، كالخمر والزنا ، والنظر إلى الأجنبية ، والغيبة ، واستعمال الملاهي ، ونحو ذٰلك ، **وأما الشهواتُ المباحةُ** : فلا تدخل في هٰذه ، لٰكن يُكرَهُ الإكثارُ منها مخافةَ أن يَجرَّ إلى المحرَّمة أو يُقَسِّي القلب ، أو يَشغَلَ عن الطاعات ، أو يُحوِجَ إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرْف فيها ، ونحو ذٰلك » .

وقال المُنَاوي رحمه الله في « فيض القدير » ١ : ٣٨٩ : « هٰذا تمثيلٌ حسن ، معناه : يُوصَل إلى الجنة : بارتكاب المكاره ، من : الجُهد في الطاعة ، والصبر عن الشهوة ، كما يُوصَل المحجوبُ عن الشيء إليه بهتْك حجابه ، ويُوصَل إلى النار : بارتكاب الشهوات ، ومن المكاره : الصبرُ على المصائب

بأنواعها ، فكلَّما صَبرَ علىٰ واحدة قَطَعَ حجاباً من حُجُب الجنة ، ولا يزالُ يقطعُ حُجُبَها حتىٰ لا يبقىٰ بينه وبينها إلا مفارقةُ روحِه بَدَنَهُ ، فيقال : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ المطففين : ٢٧ ـ ٣٠ .

* * *

٧٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : سَبَقَتْ رَحْمتي غَضَبي » .

٧٨ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب التوبة ـ باب سَعَة رحمة الله تعالىٰ وأنها تغلب غضبه ٤ : ٢١٠٨ (١٥) ، وأحمد في « المسند » ٢ : ٢٤٢ .

ورواه البخاري أولَ : كتابِ بدءِ الخلق : ٦ : ٢٨٧ (٣١٩٤) لـٰكن بلفظ : « لما قضى الله الخَلق كتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ : إن رحمتي غلبت غضبي » ، فهو نبويٌّ لا قدسيٌّ ، وهو بلفظ البخاري في مسلم الموضع السابق .

معناه : عَهِد الله عز وجل ـ وهو أصدقُ القائلين ـ علىٰ نفسه أن رحمته تَسبِق غضبه وتَغلِبه ، وجاء هـٰذا الفعل في الأحاديث بلفظ الماضي وبلفظ المضارع : سبقت وغلبت ، وتغلب ، إشارة إلىٰ وقوع ذٰلك في الماضي الغابر ، واستمراره في المستقبل الحاضر .

فالسَّبْق في الماضي : خَلْقُه آدم عليه السلام بيده ، وتكريمه بذٰلك ، وكونُه في الجنة ، وإيناسُه بحواء عليها السلام ، ولما كان من آدم ما كان : تاب الله عليه ، وكرَّمه بالوحي الإلـٰهي وإنزال صحف عليه فيها الهداية لذريته من بعده : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة : ٣٨ .

قال الطِّيبي رحمه الله ـ كما في « الفتح » ٦ : ٢٩٢ ـ : « في سَبْق الرحمة إشارة إلىٰ أن قِسْطَ الخلق منها أكثرُ من قِسطهم من الغضب ، وأنها تنالهم من غير استحقاق ، وأن الغضبَ لا ينالُهم إلا باستحقاق ، فالرحمةُ تشمل

الشخص جَنيناً ورضيعاً وفطيماً وناشِئاً قبل أن يَصدرَ منه شيء من الطاعة ، ولا يلحقه الغضبُ إلا بعد أن يصدُر عنه من الذنوب ما يَستحقُّ معه ذٰلك » .

وأما الرحمة : فهي كلمة شاملة لكلِّ معاني الخير والإحسان والإفضال ، ولهٰذا يدعىٰ بها للميت فيقال : رحمه الله ، لشمولها كلَّ وجوه الخير ، فيصيبُ الميتَ منها ما هو محتاج إليه .

وأما الغضب : فيأتي بمعنى : الانتقام ، والإعراض ، والمعاقبة .

والرحمة والغضب : صفتان لله عز وجل لا تُوصفان بسَبْق ولا غَلَبة ، إنما آثارُهما هي التي توصف بذٰلك .

قال ابن الأثير رحمه الله في « النهاية » ٣ : ٣٧٧ : في الحديث : « إشارةٌ إلىٰ سَعَة الرحمة وشمولها الخلقَ ، كما يقال : غلبَ علىٰ فلانٍ الكَرَمُ ، أي : هو أكثرُ خِصاله ، وإلا فرحمةُ الله وغضبهُ صفتان راجعتان إلىٰ إرادته للثواب والعقاب ، وصفاتُه لا تُوصَف بغلبة أحدهما الأخرىٰ ، وإنما هو علىٰ سبيل المجاز ، للمبالغة » .

ونحو هٰذا المعنىٰ قاله الإمام النووي في « شرح مسلم » ١٧ : ٦٨ ونسبه إلى العلماء عامة .

ومن مظاهر سَعَة رحمة الله عز وجل : ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ١٠ : ٤٣١ (٦٠٠٠) ، ومسلم ٤ : ٢١٠٨ (١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جعل الله الرحمة مئة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذٰلك الجزء تَتَراحم الخلائق ، حتىٰ ترفعَ الدابةُ ـ وفي رواية البخاري : الفرسُ ـ حافِرها عن ولدها خشيةَ أن تُصيبه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يتخوَّل أصحابَه أن يُرِيهم أثراً من آثار هٰذا

الجزء الواحد للرحمة الإلـهية ، فروى البخاري ١٠ : ٤٢٦ (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٢) ـ واللفظ له ـ عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قُدِم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَبْيٍ ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي ، إذا وجدتْ صبياً في السَّبْي أخذتْه فألصقتْه ببطنها وأرضعتْه ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتُرَوْن هـٰذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار ؟ » قلنا : لا والله ، وهي تقدِرُ علىٰ أن لا تطرحَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للهُ أرحمُ بعباده من هـٰذه بولدها » .

وروى البخاري ١١ : ٣٠١ (٦٤٦٩) طرفاً من حديث ، وهو عند مسلم (٢٣) حديث مستقلٌّ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طَمع بجنَّته أحدٌ ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من جنته أحد » .

❋ ❋ ❋

٧٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تَحَاجَّتِ الجنة والنار ، فقالت النار : أُوثِرْتُ بالمتكبّرين والمتجبّرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخُلُني إلا ضُعَفاءُ الناس وسَقَطُهم ؟ قال الله تبارك وتعالىٰ للجنة : أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ من أشاءُ من عبادي ، وقال للنار : إنما أنتِ عذابي ، أعذِّبُ بكِ من أشاءُ من عبادي ، ولكلِّ واحدةٍ منهما مِلْؤُها .

فأما النار : فلا تَمتلئُ حتىٰ يَضَعَ رِجْلَه فتقول : قَطٍ ، قَطْ ، قَطٍ ، فهنالك تمتلئ ، ويُزْوَىٰ بعضُها إلىٰ بعض ، ولا يَظْلِمُ الله عزَّ وجلَّ من خَلْقه أحداً .

وأما الجنة : فإن الله عز وجل يُنْشِئُ لها خَلْقاً » .

٧٩ ـ تخريجه : رواه البخاري في التفسير ـ تفسير سورة قٓ باب : ﴿ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ قٓ : ٣٠ ، ٨ : ٥٩٥ (٤٨٥٠) ، وغيره ، ورواه مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب النار يدخلها الجبارون ٤ : ٢١٨٦ (٣٥ ، ٣٦) .

غريبه : المتكبرين والمتجبرين : قال في « الفتح » : « المتكبر : المتعاظم بما ليس فيه ، والمتجبر : الممنوع الذي لا يُوصَل إليه » .

سَقَطُهم : ضعفاؤهم والمحتَقَرون منهم .

يُزْوَىٰ : يجتمعُ وينضمُّ .

يُنشئ : يَخلق خلقاً جديداً .

قط ، قط : قال النووي : معناه : « حسبي ، يكفيني هٰذا ، وفيه ثلاث لغات : بإسكان الطاء ، وبكسرها مُنَوَّنَةً وغيرَ منوَّنة » .

معناه : تحاجَّت الجنة والنار : أي : تجادلتا وتَخَاصَمَتَا إلى الله عز وجل ، وقولُه عليه الصلاة والسلام : تحاجَّتْ ، وقالت النار ، وقالت الجنة ، وتقول ـ النار ـ : كلُّ هٰذا من باب الحقيقة لا المجاز ، وهو علىٰ ظاهره فلا تأويلَ ، كما تقدَّم الكلام عليه بإيجاز مع شيءٍ من الأدلة في شرح حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، رقم (١٢) .

وكانت شكوى النار : أنها خُصَّت بالمتكبِّرين والمتجبِّرين ! فالمتَّصفون بهٰذه الصفة : الترفُّع عن الناس والتَّعالي عليهم ، يُشْتَكَىٰ منهم ، حتىٰ إن نار جهنم لَتَشْتكي : لمَ لا يدخُلها إلا هٰؤلاء ! .

واشتكت الجنةُ : لمَ خُصَّت بالضعفاء والعَجزة والمحتَقَرين ، أي : هٰذه صفاتُهم في أعين الناس وميزانِهم ، أما عند الله عز وجل فهم كِرام الناس : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ الحجرات : ١٣ ، ولا ريب أن هٰذه الصفاتِ هي صفاتُ غالبِ أهل الجنة وأهل النار .

فبيَّن الله عز وجل للنار مهمَّتَها ووظيفتَها : أنها دارُ مَن شاء الله عذابَه ، ولها مِلْؤها وكفايتها .

وبيَّن للجنَّة كذٰلك : أنها دار مَن يشاءُ رحمتَه وكرامته ، ولها مِلْؤُها وكفايتها .

أما النار فتمتلئُ ، لأنها مظهرُ العذاب والغَضَب الإلٰهي ، أما الجنة فلا تمتلئُ حتىٰ يُنْشِئَ الله عز وجل لها خلقاً يملؤونها ، ذٰلك لأن رحمة الله تَغْلِب غضبَه ، فلذٰلك قال : « ولكلٍّ واحدةٍ منهما مِلْؤُها » .

ثم ذكر كيف يكون امتلاءُ النار حتىٰ تقولَ كلمة الممتلئ الذي لا يتحمَّل الزيادة : قط ، وتكرِّرُها ثلاثَ مرات ، إيذاناً بشدة امتلائها .

وقولُه : « حتىٰ يَضَعَ رِجْلَه » : قال النوويُّ رحمه الله ١٧ : ١٨٢ : « هٰذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات ، والعلماءُ فيها علىٰ مذهبين :

أحدهما ـ وهو قول جمهورِ السلف وطائفةٍ من المتكلِّمين ـ : أنه لا يُتَكَلَّم في تأويلها ، بل نؤمنُ أنها حقٌّ ، علىٰ ما أراد الله ، ولها معنىً يليقُ بها ، وظاهرها غير مراد .

الثاني ـ وهو قول جمهورِ المتكلمين ـ : أنها تُتَأَوَّلُ بحسب ما يليق بها » ، ثم قال نقلاً عن عياض ٨ : ٣٨٠ وغيره : « قالوا ـ أي : كافة العلماء المؤوِّلين وغيرهم ـ : ولا بدَّ من صرفه عن ظاهره ، لقيام الدليل القطعيِّ العقليِّ على استحالةِ الجارحةِ على الله تعالىٰ » .

وأما الجنةُ : فتمتلئُ بمن يُنْشِئُه الله تعالىٰ من جديد ، أما قبلَ ذٰلك فيكون فيها فضلٌ وزيادةٌ ، كما جاء في الرواية الثانية للبخاري : « ولا تَزالُ الجنةُ تَفْضُلُ حتىٰ يُنْشِئَ الله لها خلقاً فيُسكنَهم فضلَ الجنة » .

قال الحافظ في شرح قوله : « تفضُل » ١٣ : ٣٧١ : « كذا بصيغة الفعل المضارع ، ووقع في رواية المستملي بموحدة مكسورة وفاء مفتوحة وضاد معجمة ساكنة ، وكأن الباء للمصاحبة » ، أي : في رواية المستملي : بفَضْلٍ ، أي : بزيادة .

وقال النووي رحمه الله : « قوله صلى الله عليه وسلم : « وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً » : هٰذا دليل لأهل السنة أن الثواب ليس متوقِّفاً على الأعمال ، فإن هٰؤلاء يُخْلَقون حينئذ ويُعْطَوْن في الجنة ما يُعطَون بغير عمل ، ومثلُه أمرُ الأطفال والمجانين الذين لم يعملوا طاعةً قطُّ ، فكلُّهم في الجنة برحمة الله تعالىٰ وفضله » .

❋ ❋ ❋

٨٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عزَّ وجلَّ : يا آدم ، فيقول : لبَّيْك وسَعْدَيك ، والخيرُ في يديك ، قال : يقول : أَخْرِجْ بَعْثَ النار ، قال : وما بَعْثُ النار ؟ قال : من كلِّ ألفٍ تسعَ مئة وتسعةً وتسعين ، قال : فذاك حين يَشيب الصغير ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج : ٢ » ، قال : فاشتدَّ ذٰلك عليهم فقالوا : يا رسول الله أيُّنا ذٰلك الرجلُ ؟ فقال : أَبْشِروا فإن مِن يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ ألفاً ، ومنكم رجلٌ .

قال : ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأَطْمَعُ أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجنة ، فحمِدنا الله وكبَّرنا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأَطمعُ أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة ، فحمِدنا الله وكبَّرنا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمعُ أن تكونوا شَطْرَ أهلِ الجنة ، إن مَثَلَكم في الأمم كمثَل الشعْرة البيضاء في جِلد الثور الأسود ، أو كالرَّقْمَة في ذراع الحمار » .

٨٠ ـ تخريجه : رواه البخاري في مواضع من « صحيحه » ، منها : كتاب الرقاق ـ باب قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحج : ١ ، ١١ : ٣٨٨ (٦٥٣٠) وهنا شَرَحه ابن حجر ، ومسلم آخر : كتاب الإيمان ـ باب بيان كون هٰذه الأمة نصفَ أهل الجنة ١ : ٢٠١ (٣٧٩) ، واللفظ له .

غريبه : بَعْثَ النار : مصدر أريد به اسم المفعول ، أي : مبعوثَ النار ، فمعناه : ميّز أهل النار من غيرهم ، من ذريتك .

شطر : كلمة تطلق على الجزء مطلقاً ، وعلى النصف ، وهو المراد هنا .

الرَّقمة : قطعة بيضاء تكون في باطن عضو الحمار والفرس ، وتكون في قوائم الشاة ، نقله في « الفتح » ١١ : ٣٨٨ عن ابن التين .

معناه : في هٰذا الحديث حكايةٌ لمشهد يكون من أوائل مشاهد يوم القيامة ومواقفها ، كما يشير إليه الحديث الذي رواه البخاري قبلَه مباشرة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أولُ مَنْ يُدعَىٰ يوم القيامة آدم ، فَتَرَاءَىٰ ذريتُه ، فيقال : هٰذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بَعْثَ جهنمَ من ذريتك . . . » .

وأصرحُ منه : حديثُ مسلم ٤ : ٢٢٥٨ (١١٦) ، عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما ، وفيه : ذكرُ الدجال وهلاكُه ، ثم الريحُ الباردة تَقبِضُ أرواح المؤمنين ، ثم النفخة الأولىٰ ، ثم الثانية ، قال : « فإذا هم قيامٌ ينظرون ، ثم يُقال : يا أيها الناس هَلُمَّ إلىٰ ربكم ، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ الصافات : ٢٤ ، ثم يقال : أَخْرِجوا بَعْثَ النار ، فيقال : مِن كَمْ ؟ . . . » .

وما أشدَّه من موقفٍ ! وما أثقلَه على القلب ! أن يقدِّم الأبُ أبناءَه إلىٰ نار جهنم الخالدة المؤبَّدة ! لٰكنْ لما كان الكفر قاطعاً للرَّحِم في عُرف أهل الإيمان ، ولما كان آدم عليه الصلاة والسلام يَعرفُهم من قبلُ ، ويَعرفُ أنهم من أهل الشقاوة والنار ، هان الأمر عليه .

ومن المعلوم : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم قد رأىٰ آدم عليه السلام ليلةَ الإسراء في السماء الدنيا ، وعن يمينه أَسْوِدَة ، هم أهلُ اليمين

والنجاة ، وعن شماله أَسْوِدَة هم أهل الشمال والهلاك ، فهو عارف بهٰذه النتيجة .

ثم إنه نبيٌّ لله ، وتنفيذُ أوامر الله أحبُّ إليه من كلِّ حبيب .

فَيُؤْمَر أن يقدِّم إلى النار من أهل الموقف ـ وكلُّهم من ذريته ـ تسعَ مئة وتسعةً وتسعين شخصاً من كل ألف ، فماذا بقي ؟ اللهم اجعلْنا من الناجين بفضلك يا أكرم الأكرمين .

فلذٰلك يشتدُّ الأمر على الناس ، ويأخذُ الهولُ منهم كلَّ مأخذ ، ويكون حالُهم بحيث لو قُورِن بحال الدنيا لكان يَشيبُ الصغيرُ قبلَ أوانِ شيبه ، وتضعُ الحامل قبل أوان وضعها ، ولا ترىٰ إلا امرأً غَطَّت الأهوال عقلَه وفكره ، يتخبَّط في أموره تخبُّط السكران ، وما هو بسكران ! ومعلومٌ أن القيامة ليس فيها حَمْلٌ ولا رَضاع ، فما في الحديث الشريف هو من المجاز وتقريب الأمور الغيبية إلى الواقع الحسيِّ . هٰذا قول .

وقيل : إن هٰذه الأمور الثلاثةَ تَحصُل للناس في الدنيا ، وذٰلك في آخر لحظاتهم فيها ، وحدَّدَ الحافظ ابن حجر وقتها بين النفختين ، وكلامُه اللاحقُ يُشعر بميله إلىٰ هٰذا ، وقال قبله احتمالاً آخر : « يَحتَمِل أن يُحمل علىٰ حقيقته ، فإن كل أحد يُبعَث علىٰ ما مات عليه ، فَتُبْعَثُ الحاملُ حاملاً ، والمرضعُ مرضعةً ، والطفلُ طفلاً ، فإذا وقعت زلزلة الساعة ، وقيل ذٰلك لآدم ، ورأى الناسُ آدمَ وسمعوا ما قيل له : وَقَعَ بهم من الوَجَل ما يَسقُط معه الحمل ، ويَشيبُ له الطفل ، وتَذْهَل به المرضعة » .

وصدَّر هٰذا الاحتمال بـ « أقول » فأَشْعَرَ بأنه قائلٌ لهٰذا الاحتمال من عنده غيرُ مسبوق به ، مع أن الفخر الرازي حكاه في تفسير أول سورة الحج عن القفال . والله أعلم .

ومهما يكنْ من احتمالات وتفسيرات : فـ : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾

الحج : ١ ، وهو يومٌ وَصَفَه الله عز وجل : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ ، وذٰلك لِمَا يكون فيه من عظائم الأمور ، ومنها : ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ وهٰذا أمر حاصل لا محالةَ ولا مفرَّ منه ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ المزمل : ١٧ ـ ١٨ .

وذكرتُ قبل قليل حديثَ أبي هريرة الذي رواه البخاري ، وفيه أنه يقال لآدم : « أَخْرِجْ بَعثَ جهنمَ من ذريتك » ، فقوله : « من ذريتك » : صريحٌ في أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام ومن نسله (١) .

ثم جاءت البشارةُ النبوية ، وتخفيف الوطأة عن قلوب الصحابة رضي الله عنهم : « أبْشِروا ، فإن مِن يأجوج ومأجوج ألفاً ، ومنكم رجلٌ » واحدٌ مقابلَ الألف ، يُدخَل النار .

ثم زادهم صلى الله عليه وسلم بشارةً مقرونة بالقَسَم : « والذي نفسي بيده إني لأَطْمع أن تكونوا رُبُع أهل الجنة » فسُرَّ الصحابة رضي الله عنهم وكبَّروا الله وحَمِدوه ، فجاءت بشارةٌ أعلىٰ منها مع القَسَم أيضاً : « إني لأطمع أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة » فحمِدوا الله وكبروه ، ثم البشارة العظمىٰ : « إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة » ، وإن الله عز وجل أكرمُ من أن يُخَيِّب طمعَ حبيبه الأعظم المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، فهو طَمَع محقَّق ، بفضل الله تعالىٰ .

وهل بعد النصف مطمع آخر ؟ .

---

(١) وقولُ كعبِ الأحبار : إنهم من ولد آدم من غير حواء : ردَّه ابن كثير في « تفسيره » أواخر تفسير سورة الكهف ، واستغرب من النووي ـ رحمهما الله ـ حكايته في « شرح مسلم » ٣ : ٩٨ دون أن يتعقَّبه ، وهو الصواب ، وتأويلُ الحافظ له في « الفتح » ١٣ : ١٠٦ (باب ٢٨ من كتاب الفتن) : فيه تكلُّف ، ولا يعرف هٰذا عن غير كعب ، وكلامُ النووي في « فتاويه » ص ١٨٣ سليم لا شيء فيه ، ونقلُ الحافظ عنه في « الفتح » ١٣ : ١٠٧ : فيه عكسٌ وقلب له ، كأن في نسخةِ الحافظ من « الفتاوىٰ » خللاً ، أو أنه يكتب من ذاكرته ؟ .

أقول : وردت روايات ضعيفة ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح » ١١ : ٣٨٧ تفيد بمجموعها القول بحصول الزيادة على نسبةِ نصفِ أهلِ الجنة لهٰذه الأمة المحمدية ، كرامةً من الله تعالىٰ لنبيها سيدِ الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين .

وتَصلُ الزيادة إلى الثلثين ، ويتأيد ذٰلك بحديث : « أهلُ الجنة عشرون ومئة صفٍّ ، ثمانون منها من هٰذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم » ، رواه الترمذي (٢٥٤٦) وغيرُه عن بُرَيدةَ بن الحُصَيب مرفوعاً وقال : حديث حسن[1] ، وورد بهٰذا اللفظ وبنحوه عن ابن مسعود عند أحمد ١ : ٤٥٣ ، وهو حسن أيضاً ، وعن ابن عباس عند الطبراني ١٠ : ٣٤٨ (١٠٦٨٢) ، وعن معاوية بن حَيْدَة القُشَيريّ عند الطبراني أيضاً .

وها هنا فائدة ، إن العطاء والفضل عندما يَقْسِمه الله تعالىٰ ويهيّؤه لعباده ، ويكون منهم الرضا به ، والاعترافُ لله تعالىٰ بالفضل فيه ، إن هٰذا الموقفَ من العباد يَستنزل عليهم من الله خيرَه وبركتَه .

وهٰذا مستفادٌ من فعل الصحابة رضي الله عنهم ، لما أخبرهم عليه الصلاة والسلام بأنهم ربعُ أهل الجنة : رَضُوا بهٰذا الفضل الإلٰهي والعطاء الجزيل ، فكبَّروا الله وحمِدوه علىٰ منَّته ، فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبيّه وحبيبه ، أن يُبشِّرهم بالزيادة ، فبشَّرهم أنهم ثلثُ أهل الجنة ، فزادوا علىٰ شكرهم شكراً ، فزادهم الله فضلاً علىٰ فضل .

فعلى المسلم أن يكون مع الله تعالىٰ دائماً بالحمد والشكر علىٰ ما يُوليه من نِعَم ، فإنه هو المنعم المتفضِّل ، وإلا فأيُّ حقّ للعباد على الله !! .

❋ ❋ ❋

(١) ولم يصححه ، كما نقله عنه ابن حجر في « الفتح » ١١ : ٣٨٨ (٦٥٢٩) ! .

٨١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن عبداً أصابَ ذنباً ـ وربما قال : أَذْنَبَ ذنباً ـ فقال : ربِّ أذنبت ذنباً ـ وربما قال : أصبْتُ ـ فاغفِرْ لي ، فقال ربُّه : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يَغْفِرُ الذنبَ ويأخُذُ به ؟ غفرتُ لعبدي .

ثم مكثَ ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً ـ أو : أذنب ذنباً ـ فقال : ربِّ أَذْنبتُ ـ أو : أَصَبْتُ ـ آخَرَ فاغفِرْه ، فقال : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يَغْفِرُ الذنبَ ويأخُذُ به ؟ غَفَرْتُ لعبدي .

ثم مكثَ ما شاء الله ، ثم أذنَبَ ذنباً ـ وربما قال : أصاب ذنباً ـ فقال : ربِّ أصبتُ ـ أو قال : أذنبتُ ـ آخَرَ فاغفِرْه ، فقال : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يغفِر الذنب ويأخُذُ به ؟ غفرتُ لعبدي ـ ثلاثاً ـ فلْيعْمل ما شاء » .

٨١ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح : ١٥ ، ١٣ : ٤٦٦ (٧٥٠٧) ، ومسلم : كتاب التوبة ـ باب قبول التوبة من الذنوب ٤ : ٢١١٢ (٢٩) .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف دلالةٌ علىٰ عظيم فضل الله تعالىٰ علىٰ عباده ، من وجه آخر ، فليست التوبة لمن أذنب وتاب مرة واحدة ، إنما الله يتوب علىٰ من تاب إليه ولو بعد عودته إلى الذنب مرات ومرات ، فكلما أحدث ذنباً أحدث توبة ، وكلما عاد إلى الذنب نفسه أو غيره جدَّد التوبة

ـ بشروطها ـ فإن الله من فضله ورأفته بعباده يقبل منهم هٰذا العود والتكرار لها .

قال القرطبي في « المُفْهِم » ٧ : ٨٥ : هٰذا الحديث « يدل : علىٰ عظيم فائدة الاستغفار ، وعلىٰ عظيم فضل الله وسَعَة رحمته وحلمه وكرمه ، ولا شك في أن هٰذا الاستغفار ليس هو الذي ينطق به اللسان ، بل الذي يثبت معناه في الجنان ، فيحلُّ به عَقْد الإصرار ـ على الذنب ـ ويندم معه علىٰ ما سلف من الأوزار ، فإذن الاستغفار ترجمةُ التوبة ، وعبارة عنها ، ولذٰلك قال : « خيارُكم كل مُفْتَنٍ تَوّاب »[1] ، قيل : هو الذي يتكرر منه الذنب والتوبة ، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة ، وأما مَن قال بلسانه : أستغفر الله ، وقلبُه مُصِرٌّ علىٰ معصيته : فاستغفاره ذٰلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبار ، إذْ لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار .

وفائدةُ هٰذا الحديث : أن العَوْدَ إلى الذنب وإن كان أقبحَ من ابتدائه لأنه

---

(١) سيعزوه الحافظ بعد أسطر إلى « الفردوس » للديلمي ٢ : ١٧٣ (٢٨٦٢) ، عن عليٍّ ، مرفوعاً ، ورواه البيهقي في « شُعب الإيمان » عن عليٍّ ، موقوفاً ، ثم مرفوعاً (٧١٢٠ ، ٧١٢١) ، وهو ضعيف ، وله لفظ آخر عن عليٍّ مرفوعاً : « إن الله يحب العبد المؤمن المُفْتَن التواب » ، وهو في زوائد عبد الله علىٰ « مسند » أبيه ٣ : ٨٠ ، ١٠٣ ، وأبي يعلىٰ (٤٨٣) ، وعلقه البيهقي في « الشعب » (٧١٢٢) وضعفه ، وقال الهيثمي ١٠ : ٢٠٠ : فيه من لم أعرفه . وفي « الحِلْية » ٣ : ٢١١ عن ابن عباس مرفوعاً : « إن المؤمن خُلِق مُفْتناً تواباً نَسِيّاً إذا ذُكِّر ذَكَر » وفيه عتبة بن يقظان ضعيف . انظر « شرح الإحياء » ٨ : ٥٩٥ . ويمكن بهٰذه الروايات تحسين الحديث .

ومعنى « المفتَن » : العبد الممتَحَن ، يمتحنه الله تعالىٰ بالذنب ، ثم يتوب ، ثم يعود ثم يتوب ، وهٰكذا . لٰكن قد يدخل الشيطان علىٰ قلب الإنسان من هٰذا الطريق ، فعلى التائب ـ ليحذر وساوس الشيطان ـ أن يراجع كلام الإمام الغزالي في كتاب التوبة من « الإحياء » فإنه نفيس .

انضاف إلى الذنب نقضُ التوبة ، فالعَوْدُ إلى التوبة أحسنُ من ابتدائها ، لأنه انضاف إليها ملازمةُ الإلحاح بباب الكريم ، وأنه لا غافِرَ للذنوب سواه » .

فالإشكالُ : نقضُ التوبة ، فكيف تُقْبل توبةُ ناقضِ العهدِ مع ربه ؟ .

والجواب : تكرُّر العَوْدِ إلى الله وسؤالِه المغفرة ، والشعورُ من المذنب أنه عبدٌ خطَّاء ، له ربٌّ محاسِب مؤاخِذ له بالذنب .

وهٰذا الشعور : من مَحْضِ الإيمان ، لذٰلك كرَّر الله عزَّ وجل قولَه في الحديث : « أَعَلِمَ عبدي أن له ربّاً يغفِر الذنب ويأخذُ به ؟ » وكان جزاؤه : « غفرتُ لعبدي » .

وهٰذا المعنىٰ نفسُه موجود في الدعاء ، فالداعي يعترِف أنه عبد ، وأن له ربّاً يدعوه ؛ فلذٰلك سمَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم الدعاءَ عبادة بقوله : « الدعاء مخُّ العبادة » ، وفي رواية : « الدعاء هو العبادة »[1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر : ٦٠ ، والمعنىٰ : إن الذين يستكبرون عن دعائي سَيَدْخلون جهنم صاغرين .

وأما قوله آخِر الحديث : « فليعْمل ما شاء » : فليس من باب إباحة المحرَّمات ، إنما هو مشروط باستمراره على الحال التي هو فيها ، وهي التوبة بعد الوقوع في الذنب ، قال الإمام النووي رحمه الله ١٧ : ٧٥ : « معناه : ما دمتَ تُذنبُ ثم تتوبُ غفرت لك » .

---

(١) روى الأولَ الترمذي عن أنس (٣٣٧١) وضعفه بابن لَهِيعة ، لٰكنه روىٰ عقبه الحديث الثاني من رواية النعمان بن بشير (٣٣٧٢) وقال عنه : حسن صحيح ، وأشار إلىٰ تقويته ، وقد سبق منه أن روىٰ حديث النعمان بن بشير هٰذا في موضعين سابقين (٢٩٦٩ ، ٣٣٧٢) وقال عنه كذٰلك : حسن صحيح .

وقال قبل سطر : « لو تكرَّر الذنبُ مئة مرة ، أو ألفَ مرة ، أو أكثر ، وتاب في كلِّ مرةٍ ، قُبِلتْ توبتُه وسَقَطتْ ذنوبه ، ولو تاب عن الجميع توبةً واحدة صحت توبته » .

قلت : ولا تنسَ أن التوبة التي تصحُّ وتُسْقِطُ الذنوب هي التوبة المستوفيةُ للشروط : الإقلاعِ عن الذنب في الحال ، والندمِ على ما فات في الماضي ، والعزمِ علىٰ عدم العودة إليه في المستقبل ، قال الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » ٢ : ٤٠٩ في شرح هـٰذه الجملة : « والمعنىٰ : ما دام علىٰ هـٰذا الحال : كلما أذنب استغفر ، والظاهر : أن مراده الاستغفارُ المَقْرونُ بعدم الإصرار ، وأما الاستغفار باللسان مع إصرار القلب على الذنب فهو دعاءٌ مجرَّد ، إن شاء الله أجابه ، وإن شاء ردَّه ، وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة . . . » .

فإن استوفتِ الشروطَ أسقطَتِ الذنوب ، فإن عاد إلى الذنب وأَتْبَعَه بتوبةٍ ثانية كهـٰذه قبلتْ منه ، وهـٰكذا ، والله غفور رحيم ، وعليم بذات الصدور .

❋ ❋ ❋

٨٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ قال : « قال : إن الله كتب الحسناتِ والسيئاتِ ، ثم بيَّن ذٰلك : فمن هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً ، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلها كتبها الله له عنده عَشْرَ حسناتٍ ، إلىٰ سبع مئة ضِعفٍ ، إلىٰ أضعافٍ كثيرة .

ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنةً كاملة ، فإن هو همَّ بها فَعَمِلَها كتبها اللهُ له سيئةً واحدةً » .

٨٢ ـ تخريجه : رواه البخاري في الرِّقاق ـ باب من همَّ بحسنة أو سيئة ١١ : ٣٢٣ (٦٤٩١) ، وغيره ، ورواه مسلم بألفاظ كثيرة : كتاب الإيمان ـ باب إذا همَّ العبد بحسنة كُتبت ١ : ١١٧ ـ ١١٨ (٢٠٣ ـ ٢٠٥) .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف لونٌ آخَر من ألوان الفضل الإلٰهي على العباد ، فيه بيانُ إكرامِ الله وعطائه الجزيل لمن أحسن ، وتجاوزه عن بعض حالات المسيء ، وفيه بيان عِظَم أجرِ الخوف من الله تعالىٰ ، وذٰلك في قوله في الرواية الأخرى التي عند البخاري في كتاب التوحيد ١٣ : ٤٦٥ (٧٥٠١) عن أبي هريرة : « وإنْ تركها ـ أي : السيئةَ ـ من أجلي فاكتبوها له حسنة » .

وقد صُدِّرتْ احتمالاتُ عَمَلِ العبد هنا بـ : « هَمَّ » ، وصُدِّرت في رواية أبي هريرة المشارِ إليها عند البخاري بـ : « أراد » ، وهٰذا هو دليلُ الراغب الأصفهاني رحمه الله في جَعْلِه الإرادة هي الهَمَّة ، وذٰلك في كتابه « الذريعة » حيث قال فيه ص ٤٦ : « أولُ ما يَعرِضُ : السانح ، ثم الخاطر ، . . . ، ثم

الإرادة ، ثم العزم ، ثم العمل ، فالسانحُ عِلَّةُ الخاطر ، والخاطرُ علَّة الإرادة ، والإرادة وهي الهَمَّة علةُ العزم ، فالسانح والخاطر يعبَّر عنهما بالهاجس ، والهاجس مُتَجاوَز عنه ما لم يَصِرْ إرادةً وعزماً » .

فالمراحل عنده خمسة ، والإرادةُ والهَمةُ شيء واحد ، لكن نقل عنه العلامة ابن عابدين في « حاشيته » الشهيرة ٢ : ١٥٨ أن المراحل سبعة : « السانح ، ثم الخاطر ، ثم الفكر ، ثم الإرادة ، ثم الهمَّة ، ثم العزم » أي : ثم العَمَل المذكور في كلامه السابق .

ونقل العلامة الفقيه ابن حجر المكي في « شرحه على الأربعين النووية » ص ٢٦٦ عن « الأجوبة الحلبيات » للإمام تقي الدين السُّبْكي رحمهما الله تعالىٰ أن مراحل العمل لشيءٍ ما ستةٌ : الهاجس ، الخاطر ، حديث النفْس ، الهَمُّ ، العزم ، الفعل .

وقد قال الراغب في « مفرداته » عن الإرادة هي منقولة من : رَاد يَرُود ، إذا سعَىٰ في طلب شيء ، والإرادة في الأصل : قوَّة مركبة من : شهوة ، وحاجة ، وأمل ، وجُعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يُفْعل أو لا يفعل . . . » إلىٰ آخر كلامه .

وقد رأيت للشيخ ابن تيمية رحمه الله كلاماً نفيساً مسهَباً عن الإرادة والهمِّ المذكورين في هٰذا الحديث ، في « مجموع فتاويه » ١٠ : ٧٢٠ ـ ٧٦٩ ، أكَّد فيه أن الإرادة المرادة هنا هي الإرادة الجازمة مع القدرة التامة على الفعل ، فإذا لم يقع الفعل مع القدرة التامة عليه ، دلَّ علىٰ أن الإرادة غير جازمة .

ونقل ١٠ : ٧٤٠ عن الإمام أحمد قولَه : « الهمُّ همَّان : همُّ خَطَرات ، وهمُّ إصرار ، فهمُّ الخَطَرات يكون من القادر ، فإنه لو كان همُّه إصراراً جازماً وهو قادر لوقع الفعل » .

ووُجِد هٰذا المعنىٰ في كلام المتأخرين عن الإمام أحمد ، ففي « شرح مسلم » للنووي ٢ : ١٥١ عن القاضي عياض : « . . . فأما الهمُّ الذي لا يُكتب : فهي الخواطر التي لا تُوطِّن النفس عليها ، ولا يصحبُها عقد ولا نيَّة وعزم » .

ثم إن حديث ابن عباس هٰذا يستفاد منه حكمُ أربعة احتمالات ، ويُضَمُّ إليها احتمال خامس من حديث أبي هريرة الذي تقدمت الإشارة إليه ، وها هي ذي :

١ ـ من همَّ بحسنة فلم يعملها .

٢ ـ ومن همَّ بحسنة فعملها .

٣ ـ ومن همَّ بسيئة فلم يعملها خوفاً من الله .

٤ ـ ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لعدم توافر أسبابها .

٥ ـ ومن همَّ بسيئة فعملها .

١ ـ أما الهمُّ : فتقدَّم ، وأما عدمُ عمله للحسنة : فينبغي أن يكون لعائقٍ عَرَض له ، أو أن العارض قائم من قبلُ ، كأن ينويَ فعل الخيرات والمَبَرَّات ، لٰكنه لا يملك مالاً ، فهٰذا الذي له الحسنةُ كاملةً .

أما إذا همَّ بها ثم فَتَرت همته فلم يعملها : فلا شيء له .

ويدلُّ للوجه الأول ـ صاحبُ الحسنةِ الكاملةِ ـ حديث الترمذي (٢٣٢٥) ـ وقال : حسن صحيح ـ عن أبي كَبْشَةَ الأَنْماري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « . . . إنما الدنيا لأربعةِ نَفَرٍ : عبدٍ رَزَقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتَّقي فيه ربَّه ويَصِل فيه رَحِمه ، ويَعلمُ لله فيه حقاً ، فهٰذا بأفضل المنازل ، وعبد رَزَقَه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملتُ بعمل فلان ، فهو بنيَّته ، فأَجْرُهما سواء ، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يَخْبط في ماله بغير علم ، لا يتَّقي فيه ربَّه ، ولا

يَصِلُ فيه رحمه ، ولا يعلَم لله فيه حقاً ، فهٰذا بأخبثِ المنازل ، وعبدٍ لم يرزقْه الله مالاً ولا علماً فهو يقولُ : لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلان ، فهو بنيَّته ، فوزْرُهما سواء » .

وللإمام النووي رحمه الله تعالىٰ تنبيهٌ دقيقٌ لقوله : « كتبها الله عنده » ، و« حسنة كاملة » ، فقال عَقِب ذكرِه الحديثَ في « أربعينه » ـ وهو الحديث السابع والثلاثون فيها ـ : « فانظر ـ يا أخي وفَّقنا الله وإياك ـ إلىٰ عظيم لطف الله تعالىٰ ، وتأمَّلْ هٰذه الألفاظ ، وقولَه : « عنده » إشارة إلى الاعتناء بها ، وقوله : « كاملة » للتأكيد وشدَّة الاعتناء بها ، وقال في السيئة التي همَّ بها ثم تركها : « كتبها الله عنده حسنةً كاملة » فأكَّدها بـ « كاملة » ، وإنْ عملها كتبها سيئةً واحدة ، فأكَّد تقليلَها بواحدة ولم يؤكِّدها بكاملة » .

وقولُه : « كتبها الله عنده » أي : أمر الملائكة بكتابة ذٰلك ، كما جاء في رواية أبي هريرة عند البخاري في كتاب التوحيد ـ وتقدمت الإشارة إليها ـ : « يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئةً فلا تكتبوها عليه حتىٰ يعمَلَها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها . . . » .

فهٰذه الرواية تبيِّن من يُباشِر الكتابة ، وتُسْنِد الكتابةَ إلى الله تعالىٰ باعتبار أنه الآمر بها ، وهٰذا له نظائر كثيرة في الكتاب والسنة .

٢ ـ « فإنْ هو همَّ بحسنةٍ فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات ، إلىٰ سبع مئة ضعف ، إلىٰ أضعاف كثيرة » .

وهٰذه الزيادة : « إلىٰ سبع مئة ضعف ، إلىٰ أضعاف كثيرة » مفسِّرة لرواية مسلم ٤ : ٢٠٦٨ (٢٢) ، وابن ماجه (٣٨٢١) عن أبي ذر : « يقول الله : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأَزِيدُ » ، فهٰذه زيادة مطلقة ، أما حديث الباب فزيادته مقيَّدة محددة .

وللحافظ احتمال آخر قاله في « الفتح » ١١ : ٣٢٦ ، فإنه ذكر حديث أبي ذر وقال : « هٰذا يدلُّ علىٰ أن تضعيفَ حسنةِ العمل إلىٰ عشرٍ : مجزومٌ به ، وما زاد عليها جائزٌ وقوعُه بحسب الزيادة في الإخلاصِ وصدقِ العزم ، وحضورِ القلب ، وتَعَدِّي النفع : كالصدقة الجارية ، والعلم النافع ، والسُّنةِ الحسنةِ ، وشَرَف العمل ونحو ذٰلك » .

وعلىٰ كل حالٍ فإنه مَزيدُ فضلٍ إلٰهيّ يَحملُ المسلمَ العاقلَ على الازدياد من فعل الخيرات ، وتمحيص النيات لله عز وجل .

٣ ـ « ومن همَّ بسيئة فلم يعملْها كَتَبها الله له عنده حسنةً كاملة » .

فهٰذا فضلٌ من الله جسيم ، إذ يُثيب علىٰ تركِ السيئةِ والإعـراضِ عن الأذىٰ والكفِّ عن الشر .

ففي الصحيحين : البخاري ١٠ : ٤٤٧ (٦٠٢٢) ، ومسلم ١ : ٦٩٩ (٥٥) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « علىٰ كلِّ مسلمٍ صدقةٌ » ، قيل : أرأيتَ إنْ لم يجدْ . . قال : « يُمسِكُ عن الشر فإنه له صدقةٌ » .

ذٰلك لأن تركَ الشيءِ ناشئٌ عن ميلٍ قلبيّ إلىٰ تَرْكه والإعراض عنه ، وهٰذا الميلُ القلبي عملٌ ، فلذٰلك قرَّر الشرعُ له جزاءً : مثوبةً أو عقاباً .

وتقدَّم في كلام الإمام النووي رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم أكَّد الحسنة بقولهِ : « كاملة » لئلا يَظُنَّ ظانٌّ أن أجر تركِ السيئة دون أجرِ من لم يتمكَّن من فعل الحسنة بعد أنْ همَّ بها .

وقد جاء في رواية البخاري المشار إليها قبلُ ، في كتاب التوحيد ١٣ : ٤٦٥ : « . . . وإنْ تَرَكها ـ أي : السيئة ـ من أجلي فاكتبوها له حسنة » .

وجاء مثل هٰذا القيد في رواية مسلم ١ : ١١٧ (٢٠٥) : « وإن تركها

فاكتبوها له حسنة ، إنما تَرَكها من جَرَّايَ » أي : من أجلي .

فدلَّ علىٰ أن عدم عمل السيئة قد يكون خوفاً من الله ومن أجله ، وقد يكون لغير ذٰلك ، لعائقٍ دنيوي ، أو لسُمعة ، أو لفقر . . .

فبيَّنت هٰذه الرواية حكمَ من تركَ السيئةَ خوفاً من الله عز وجل ، وسكتتْ عن الاحتمال الثاني فما حكمه ؟ .

حاصل ما في « شرح مسلم » للقاضي عياض ١ : ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ، وللنووي ٢ : ١٥١ : أن من عزم على المعصية بقلبه ووطَّن نفسه عليها أَثِم في اعتقاده وعزمه ، ويُكتبُ عليه سيئةً ، لٰكنْ دون سيئةِ مَن فعل ونفَّذ ، وهٰذا قولُ عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين ، وعلَّق علىٰ هٰذا الإمام النووي بقوله : « قد تَظَاهرتْ نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزْم القلب المستقرّ ، ومن ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور : ١٩ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الحجرات : ١٢ ، والآياتُ في هٰذا كثيرة ، وقد تظاهرتْ نصوصُ الشرع وإجماعُ العلماء علىٰ تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم ، وغير ذٰلك من أعمال القلوب وعزمها . والله أعلم » .

وقال النووي ١٨ : ١٢ في شرح حديث : « إذا التقى المسلمان بسيفَيْهما . . . » : « قولُه صلى الله عليه وسلم : إنه أراد قَتْلَ صاحبِه : فيه دلالةٌ للمذهب الصحيح الذي عليه الجمهور : أن من نَوَى المعصية وأصرَّ على النية يكون آثِماً وإنْ لم يفْعلها ولا تكلَّمَ » .

ونحو هٰذا في « الفتح » ١١ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧ وذكر هٰذا الحديث وقال : « والذي يظهر أنه يُعاقب علىٰ عَزْمه بمقدار ما يستحقُّه ، ولا يُعاقَبُ عقابَ مَنْ باشر القتل حسّاً » .

٤ ـ « فإنْ هو همَّ بها فَعَمِلَها كتبها الله له سيئة واحدة » .

فأكَّد السيئةَ بقوله : « واحدة » ولم يؤكِّدها بقوله : كاملة ، تقليلاً لها كما تقدَّم في كلام الإمام النووي .

وهي تُكتبُ عليه سيئةَ العملِ السَّيِّئِ الذي عمله ، تمييزاً لها عن سيئة الهمِّ دون العمل ، كما تقدم قبل أسطر ، ومع ذٰلك فإنها سيئةٌ تحت مشيئة المغفرة .

فقد ساق مسلم عقبَ روايته الحديث الذي نشرحه روايةً أخرىٰ له فيها زيادة في آخر الحديث ، ولفظه : « وزاد : أو مَحَاها الله ، ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالك » .

فهٰذه السيئةُ الواحدة التي تُكتب عليه بعد كلِّ هٰذه الإفضالات : قد يَمْحوها الله تعالىٰ عنه ، قال في « الفتح » : « والمعنىٰ : أن الله يمحوها بالفضل ، أو بالتوبة ، أو بالاستغفار ، أو بعمل الحسنة التي تُكفِّر السيئة » .

وأما قولُه : « ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ » : فمعناه : لا يَهْلِك مع فضل الله إلا هالك ، فـ « علىٰ » بمعنىٰ : « مع » ، وفيه مضافٌ محذوفٌ تقديره : فضل ، كما أفاده المَدَابِغيُّ في حاشيته على « الفتح المبين » لابن حجر المكي ص ٢٦٧ .

وفي « شرح النووي علىٰ مسلم » ٢ : ١٥٢ : « قال القاضي عياض رحمه الله[1] : معناه : من حُتِّم هلاكُه وسُدَّت عليه أبوابُ الهدىٰ مع سعة رحمة الله تعالىٰ وكرمه وجَعْلِه السيئةَ حسنةً إذا لم يَعملْها ، وإذا عَمِلها : واحدةً ، والحسنةَ إذا لم يعملْها واحدةً ، وإذا عملها عشراً إلىٰ سبع مئة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة ، فمن حُرِم هٰذه السعةَ وفاتَه هٰذا الفضلُ وكَثُرت

---

(١) في « شرح مسلم » ١ : ٤٢٧ ، وآثرت لفظ النووي لوضوحه وسلامته من تحريف بعض كلماته .

سيئاتُه حتىٰ غَلَبت ـ مع أنها أفرادٌ ـ حَسَناتِه مع أنها متضاعِفةٌ : فهو الهالك المحروم . والله أعلم » .

فمع كل هـٰذا التجاوز الإلـٰهي من هـٰذا الجانب ، ومع كلِ هـٰذا الإفضال الرباني من هـٰذا الجانب ، ويبقىٰ واحد من العباد هالكاً ! إنه لعبدٌ شرود جدّاً ، لم يدَّخر لنفسه عند ربِّه خبيئةً خير . عافانا الله .

* * *

٨٣ ـ عن جُنْدُبِ بنِ عبد الله البَجَليِّ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدَّث أن رجلاً قال : « والله لا يَغْفِرُ الله لفلان ، وإن الله تعالىٰ قال : مَنْ ذا الذي يَتَأَلَّىٰ عليَّ أنْ لا أَغفِر لفلان ؟! فإني قد غَفَرْتُ لفلان ، وأَحْبَطتُ عملك » . أو كما قال .

٨٣ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب البر والصلة ـ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالىٰ ٤ : ٢٠٢٣ (١٠٣٧) .

ورواه أبو داود بلفظ أطولَ في كتاب الأدب ـ باب في النهي عن البغي (٤٨٦٥) ، وسيأتي لفظه في الشرح .

غريبه : يتألَّىٰ : يَحلِف ويُقْسِم . تَأَلَّىٰ ، يَتَأَلَّىٰ ، تَأَلِّياً : حَلَف يحلِف حَلِفاً .

أحبط عمله : أَفْسَده وأبطله ، فلا يُقْبل .

معناه : من صفات الله عز وجل أنه يَعفُو ويغفِر ، ومن أسمائه الحسنى : العفوُّ الغفُور ، وهو يحبُّ أن يعفو عن عباده ، ولا يحبُّ من عبد من عباده أن يحجِّر ويضيِّق دائرة العفو والمغفرة الإلـٰهية ، فيُدخِلَ فلاناً فيها ، ويخرج فلاناً منها ، فإنه سبحانه غفور ، وفعَّال لما يريد ، يغفِر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء ، بمقتضىٰ علمه وحكمته .

ولا يحبُّ الله سبحانه أن يُقَنِّط إنسانٌ إنساناً من سَعَة مغفرته ، بل على الناصح والمذكِّر والداعية إلى الله أن يوسِّع الآمال بالله : بمغفرته ورحمته وعفوه ، كي يُقْبِل الناس على الله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن

جبل وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن : « بشِّرا ولا تُنفِّرا ، ويسِّرا ولا تعسِّرا » ، رواه البخاري ١٠ : ٥٢٤ (٦١٢٤) .

وروىٰ عقبه من حديث أنس : « يسِّروا ولا تعسِّروا ، وسكِّنوا ولا تنفّروا » .

بل إن الله تعالىٰ يكره القنوطَ من رحمته ويحرّمه ، وخصَّ القنوط بالكافرين فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ يوسف : ٨٧ .

ويكون تحجير مغفرة الله أشدَّ قبحاً عند الله إذا صَدَر من مُتَعالٍ مُعْجَب بعمله الصالح ـ في ظاهره ـ كما جاءت رواية أبي داود المشار إليها في التخريج موضِّحة لهٰذا المعنىٰ ومفسِّرة متممة لحديث الباب الذي نشرحه ، ولفظها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان رجلان في بني إسرائيل مُتَوَاخِيَيْن ، فكان أحدُهما يُذْنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهدُ يَرَى الآخَرَ على الذنب ، فيقول : أَقْصِرْ ، فوجده يوماً علىٰ ذنب ، فقال له : أَقْصِر ، فقال : خلِّني وربِّي ، أبُعِثْتَ عليَّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أو لا يُدخِلك الله الجنة .

فَقَبَضَ أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهٰذا المجتهد : أكنتَ بي عالماً ؟ أو : كنتَ علىٰ ما في يديَّ قادراً ؟ ، وقال للمذنب : اذهبْ فادخُل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده لَتَكلَّم بكلمة أَوْبَقَتْ دنياه وآخرته .

فقول المذنب : « خلِّني وربي » كلمةُ طامعٍ برحمة ربه .

وقول الآخر : « والله لا يغفر الله لك » : كلمةُ افتيات[١] على الله في ربوبيته وتصرُّفه في خلقه ، ورجمٌ بالغيب ، إذْ إن هٰذا المقصِّر مذنبٌ لٰكنه مسلم ، فأعمالُه كلُّها داخلة تحت مشيئة المغفرة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء : ٤٨ .

لٰكنْ قد يَفْهَم بعض البسطاء أو الغافلين عن الله عز وجل من حديث أبي داود وقولِ الرجل المجتهد في العبادة : « أَقْصِر » ، ومن جواب المقصِّر : « خلِّني وربي ، أَبُعثتَ عليَّ رقيباً » ، قد يفهم بعض الناس تعطيلَ مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن هٰذا المجتهد في العبادة لما أمَر ونهىٰ : كانت عاقبتُه إلىٰ إحباطِ عملِه ودخوله النار ! .

والجواب : أن إحباطَ عمله ليس ناشئاً عن أمره ونهيه ، إنما حَبط عملُه لتدخُّلِه في شؤون الربوبية ، وإن من شؤونها المغفرةَ لفلانٍ وعدمَها في حق آخر . . . وهٰذا التدخُّل لا يكون إلا من معجَب بنفسه ، غرَّه ما يظنُّه عملاً صالحاً يعمله ، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يجوز تعطيلُهما بحال ، فإنهما من أسهم الإسلام وأركانه ، ولهٰذا أخرج مسلم عَقِبه حديث : « رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه » ، وحديثَ : « إذا قال الرجل : هلك الناسُ ، فهو أهلكُهم »[٢] . عافانا الله .

❋ ❋ ❋

---

(١) في « النهاية » ٣ : ٤٧٧ : « يقال لكل من أحدث شيئاً في أمرك دونَك : قد افتات عليك فيه » .

(٢) وتأمَّلْ دائماً دقة الإمام مسلم لسرد أحاديث الباب وترتيبه لها .

من مشاهد يوم القيامة

٨٤ ـ عن صفوانَ بن مُحْرِزٍ المازني أحدِ التابعين قال : بَيْنا ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يَطوفُ إذْ عَرَض له رجل فقال : يا أبا عبد الرحمٰن هل سمعتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّجوىٰ ؟ فقال : سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « يُدْنَى المؤمنُ يوم القيامة من ربِّه عز وجل حتىٰ يَضَعَ عليه كَنَفَه ، فَيُقَرِّرُه بذنوبِه فيقول : هل تَعْرِفُ ؟ فيقول : أيْ ربِّ أَعرِف ، قال : فإني سَتَرتُها عليك في الدنيا ، وإني أَغْفِرها لك اليومَ ، فيُعطَىٰ صحيفةَ حسناتِه .

وأما الكفار والمنافقون : فَيُنادَىٰ بهم علىٰ رؤوس الخلائق : هٰؤلاء الذين كذبوا على الله » .

٨٤ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التفسير ـ تفسير سورة هود : باب ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . . ﴾ هود : ١٨ ، ٨ : ٣٥٣ (٤٦٨٥) ، ورواه مسلم : كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإنْ كثر قَتْلُه ٤ : ٢١٢٠ (٥٢) وهٰذا لفظه .

غريبه : النَّجوى : المحادثة سرّاً .

كَنَفه : قال في « الفتح » ١٠ : ٤٨٨ : « الكنف : السَّتر ، وهو المراد هنا » .

الأشهاد : جمع شاهد ، مثل صاحب وأصحاب ، كما قال الإمام البخاريُّ نفسُه ، فالمعنىٰ : يقول الأشهاد الحاضرون وقد فَضَح الله أمامَهم الكافرين : هـٰؤلاء الذين كَذَبوا علىٰ ربهم . . .

معناه : يُعاملُ الله تعالى الحكيمُ في أفعاله الناسَ يوم القيامة كلاًّ علىٰ حَسَبه ، وعلىٰ مقتضَىٰ حكمته . ومن حيثُ الجملةُ تكون معاملتُه للكافرين ـ عموماً ـ بالفضيحة لهم والمحاسبة العَلَنية ، ومعاملتُه للمؤمنين ـ من حيثُ الجملةُ أيضاً ـ بالسَّتر علىٰ مسيئهم ، وبالإكرام العَلَني لمحسنهم ، كمن يُظِلُّهم تحت ظِلّه ، أو يُقيمُهم علىٰ منابرَ من نور .

ويكفي للتفاوت الكبير بينهم : أن هـٰؤلاء يُعْطَون كُتُبهم بأيمانهم ، وهـٰؤلاء بشمائلهم أو من وراء ظهورهم ، وهـٰذا يكون علناً للطائفتين .

ومن مواقف سَتْر الله تعالىٰ على العبد المؤمنِ العاصي : ما جاء في حديث النجوىٰ ، وهو الحديث الذي نحن فيه ، وأما ذِكرُ الكافرين فيه وأن خطابهم يكون نداءً لا مُسارَّة : فهو من باب : وبضدِّها تتميَّزُ الأشياء ، فَلِيُظْهِرَ الله تعالىٰ تمامَ فضله على الصنف الأول ذَكَر أن الكفرةَ يَفْضَحهم الله علىٰ رؤوس الخلائق ويُنادَوْن : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هود : ١٨ ، فهو نداءُ لعنة ، لا نجوىٰ سَتْر ! .

يُدني الله تعالىٰ عبدَه المؤمنَ منه ، ويُقرِّبُه إليه ، لماذا ؟ مع أن عالَم المسافاتِ لا وجودَ له بين الله ومخلوقاته ! قال النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ١٧ : ٨٦ : « المرادُ بالدُنُوِّ هنا : دُنُوُّ كرامةٍ وإحسان ، لا دُنُوُّ مسافة ، والله تعالىٰ منزَّه عن المسافة وقُرْبها » ، ونحوه عند ابن حجر في « الفتح » ١٠ : ٤٨٨ .

وهـٰذا الإدناءُ علامةُ اطمئنان للعبد ، أنه من أهل الكرامة والإحسان ، فلا

خوفَ عليه ، وما أعظمَ وَقْعَ هٰذه المقدِّمات المُطَمْئِنة للعبد في ذٰلك اليوم العسير ! .

وَيَضع الله كنفَه على العبد ، وكَنَفُ الشيء لغةً : ناحيته وجانبه وطَرَفُه ، والله تعالىٰ منزَّه عن هٰذا المعنى اللغويِّ ، لذٰلك قال العلماء بالمعنى اللغويِّ الآخرَ ، وهو السَّتر ، قال الحافظ في « الفتح » ١٠ : ٤٨٨ : كَنَفُه : « أي : جانبُه ، والكنف أيضاً : السَّتر ، وهو المراد هنا ، والأولُ ـ الجانب ـ مجازٌ في حق الله تعالىٰ ، كما يقال : فلان في كنف فلان ، أي : في حِمايته وكِلاءته » .

ويؤيد هٰذا المعنىٰ روايةُ البخاري أيضاً ٥ : ٩٦ : « إن الله يُدْني المؤمنَ فيضعُ عليه كَنَفَه ويستره » ، وكذا روايةُ الطبراني التي ذكرها ابن حجر في « الفتح » ١٠ : ٤٨٨ أيضاً ـ وهي علىٰ شرطه من الصحة أو الحسن ـ : « فيلتفتُ ـ أي : العبد ـ يَمنةً ويَسْرةً فيقول : لا بأس عليك ، إنك في سَتري ، لا يطَّلع علىٰ ذنوبك غيري » .

ولعل أقدم من فسَّر الكنف بالسَّتر الإمام عبد الله بن المبارك ، ونقله عنه الإمام البخاريُّ في « خَلْق أفعال العباد » (٢٤٨) ، ولذٰلك قال النووي : « كَنَفُه : هو سَتره وعفوه » ولم يقل : المراد : ستره وعفوه ، بل قال : هو . . . ، وانظر لِزاماً « لسان العرب » .

وبعد هٰذا التفضُّل بالسَّتْر عليه يُقَرِّره الله تعالىٰ بذنوبه : أَتَعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ ، ولسانُ حالِ العبدِ يقول :

وما قابلتُ عَتْبَك باعتذار ولٰكني أقولُ كما تقولُ
وأَطْرُقُ بابَ عَفوِكَ بانكسار ويحكُم بيننا الخُلُق الجميلُ

وحينئذ يُتِمُّ الله عز وجل تفضُّلَه على العبد بقوله : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ! .

ثم تُطوىٰ صحيفةُ حسناتِه ، ويُعْطَاها .

ومن الواضح أن هٰذا السَّتر الأُخروي إنما هو لمن سَتَر نَفْسَه فَستَرَه الله في الدنيا ، أما مَن جاهر بالمعاصي والآثام في الدنيا : فليس له من هٰذا التفضُّل نصيب ، إلا إذا تاب بعد ذٰلك وأناب ، وليس لنا أن نحجِّر فضلَ الله الواسع .

وقد روى البخاري رحمه الله حديث النجوىٰ هٰذا في كتاب الأدب ـ باب سَتر المؤمن علىٰ نفسه ١٠ : ٤٨٦ (٦٠٧٠) ، ويجدرُ التنبيه إلىٰ أن روايتَه له جاءت بعد روايته حديثاً آخر ، وهو حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّ أمتي مُعَافىٰ[1] إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يَعملَ الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَره الله فيقول : يا فلانُ عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يَستُره ربُّه ، ويُصبحُ يَكشِفُ ستر الله عنه » .

وهٰذا الترتيبُ منه رحمه الله بين الحديثين يفيدُ صراحةً ما قدَّمته : السَّتْر الأخروي لمن سَتر نفسه دون المجاهر ، ونسأل الله السلامة من كل ما يُسخط الله تعالىٰ .

وقوله : « وأما الكفار والمنافقون » : فهٰذا تفصيل للكناية التي جاءت في رواية البخاري : « وأما الآخَرون ـ أو الكفار ـ : فينادَىٰ » ، وقد ضبط الإمام العيني رحمه الله في « عمدة القاري » ١٥ : ٢٧ كلمة « الآخرون » بوجهين فقال : « بالمدِّ وفتح الخاء وكسرها ، ويُروَىٰ بالقصر والكسر : (الأَخِرون) ، فهم المُدْبِرون والمتأخِّرون عن الخير » ، وفي « المصباح المنير » : « الأَخِر

(١) قال في « فتح الباري » : « اسم مفعول من العافية ، وهو إما بمعنىٰ : عفا الله عنه ، وإما سلَّمه الله وسلَّم منه » .

ـ وِزانُ فَرِح ـ بمعنى : المطرود المُبْعَد ، يقال : أبعد الله تعالى الأَخِر : أي : مَنْ غابَ عنا وبَعُد حكماً ، وفي حديثِ ماعزٍ : إن الأَخِر زنىٰ ، يعني نفسه ، كأنه مطرود ، ومدُّ همزته خطأ » .

* * *

٨٥ ـ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعين سجلّاً ، كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البصرِ ثم يقولُ : أَتُنْكِرُ من هٰذا شيئاً ؟ أَظَلَمك كَتَبَتِي الحافظون ؟ فيقول : لا يا ربِّ ، فيقول : أَفَلَكَ عذرٌ ؟ فيقول : لا يا ربِّ .

فيقول : بلىٰ ، إن لك عندنا حسنةً ، فإنه لا ظُلْمَ عليك اليومَ ، فتُخْرَج بطاقةٌ فيها : أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : أُحضُر وَزْنَك ، فيقول : يا ربِّ ما هٰذه البطاقةُ مع هٰذه السِّجِلَّاتِ ؟! .

فقال : إنك لا تُظْلَم .

قال : فتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ في كِفَّةٍ ، والبطاقةُ في كِفَّة ، فطاشت السِّجِلَّاتُ ، وثَقُلَت البِطاقة ، فلا يَثْقُلُ مع اسم الله شيء » .

٨٥ ـ تخريجه : رواه أحمد ٢ : ٢١٣ ، والترمذي : كتاب الإيمان ـ باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إلٰه إلا الله (٢٦٣٩) وقال : حسن غريب ، وابن ماجه (٤٣٠٠) ، والحاكم ١ : ٦ ، ٥٢٩ وصححه ووافقه الذهبي .

ورواه حمزة الكِناني في « جزء البطاقة » ، وهو الحديث الثاني فيه ، وراوي جزء البطاقة عن حمزة : هو أبو الحسن علي بن عمر بن حِمِّصة ، وقد علّق أبو الحسن هٰذا علىٰ هٰذا الحديث عقب روايته بقوله : « قال الشيخ

أبو الحسن : أنا حضرت رجلاً في المجلس وقد زَعَق ـ صاح بشدَّة ـ عند هٰذا الحديث ومات ، وشهدت جنازته وصليت عليه » .

غريبه : السِّجِلّ : الكتاب الكبير .

البطاقة : الورقة الصغيرة .

طاشت السجلات : خفَّتِ السجلات مع كِبَرها وثقلها .

معناه : هٰذا حديثٌ عظيمُ الفضلِ ، جليلُ الوَقْع ، يسمَّىٰ عند المحدثين « حديث البطاقة » .

يحدِّثُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مشهدٍ من مشاهد القيامة ، وموقفٍ من مواقف الفضل الإلٰهي العظيم ، وفيه بيانُ فضيلةِ كلمة التوحيد .

في هٰذا المشهد : يأتي الله عز وجل برجلٍ من هٰذه الأمة المحمدية ، ويُظهِره للناس جميعاً ، ليَظْهَر لهم فضلُ الله وكرمُه ، وليَقوىٰ أملُ الآملين به .

فَتُقَدَّم له صُحُفُه ودواوينه : تسعةٌ وتسعون سجلاً : كتاباً كبيراً ، وَصَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كِبَره بأن طولَه حيثُ ينتهي بصره في أرضٍ مستويةٍ : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ طٰه : ١٠٧ ، فكم يُمَدُّ البصرُ وأين ينتهي ؟! .

تُقدَّم له صُحُفه ويُقَرَّر علىٰ ما فيها : « أَتُنكِر من هٰذا شيئاً ؟ أَظَلَمك كَتَبَتي الحافظون ؟ » فيُقِرُّ ويعترفُ .

ثم يُسْتَعْذَر فيُسأَل : « أَفَلَكَ عذرٌ » فيقرُّ ويعترفُ علىٰ نفسه بالخطايا والذنوب العِظام الجِسام ، كمّاً وكيفاً ، عمداً واختياراً ، وأنه لا عذر له .

وإن تقديمَ الله عز وجل الصحفَ إلى العبد يطَّلعُ عليها ، إنما هو لإقامة

الحجة الإلـٰهية عليه ، إذْ لا يجبُ على الله تعالىٰ شيءٌ ، ومِن أولِ ذاك اليوم يُوقِن مَن فرَّط بأنه قد فرَّط ، ويعلم نتيجتَه ، فلا حاجة عنده للصُّحُف ، لـٰكنه بمحضِ عدلٍ إلـٰهيّ تُعرَض عليه أعمالُه كلها : صغيرُها وكبيرها .

وموقفُ هـٰذا العبدِ هو الموقفُ الراجح عند أهل العلم : أن العبد إذا قُرِّر بذنوبه فالأفضلُ في حقِّه الاعترافُ وعدمُ الاعتذار ، وأنشدوا عليه ما تقدم قريباً في شرح حديث النجوىٰ :

وما قابلتُ عَتْبَك باعتذارٍ ولـٰكني أقولُ كما تقولُ
وأَطْرُقُ بابَ عفوك بانكسار ويَحكُمُ بيننا الخُلُق الجميلُ

وتُدرِكُ العنايةُ الإلـٰهية هـٰذا العبد المفرِّطَ في دنياه ، وهو بين يدي ربه ، فيقول الله تعالىٰ له : « **إن لك عندنا حسنةً** » .

فتُخْرَج له بطاقة : ورقة صغيرة لا تتِّسِعُ لأكثَرَ ما يُوضَع فيها أو يُكتَب عليها ، فهي صغيرة لا تتسع لأكثر من كتابة كلمة الشهادتين : « **أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله** » .

ويناديه ربه : « **أُحضُر وَزْنَك** » .

ومهما بَلَغ عقلُ الإنسان الذي خُلِق ضعيفاً ، فإنه لن يَتَمَالكَ نفسَه من السؤال : « **يا رب ما هـٰذه البطاقةُ مع هـٰذه السِّجِلَّات ؟!** » .

ولـٰكن الله تعالى العليم الرحيم ، الحكَمَ العدلَ يقولُ له : « **إنك لا تُظْلَمُ** » ، يريد جلَّ شأنه إدخالَ الطمأنينة علىٰ قلوب عباده أنه : لا ظُلْمَ اليومَ ، بل ولا قبله ولا بعدَه ، لا ظُلْمَ أبداً ، بل : عدلٌ وفضلٌ ، ورحمة وإحسان .

وكانت النتيجة أن : « **طاشَت السجلَّات وثقلت البطاقة** » ذلك لأنه « **لا يثقُل مع اسم الله شيء** » ، وكيف لا تطيش ، ولو أن « **لا إلـٰه إلا الله** » وُضِعتْ في كِفَّة ، ووُضِعَت السماواتُ والأرضُ في كِفَّة : كانت أرجح ، كما جاء في

وصيَّة نوحٍ عليه الصلاة والسلام لولدَيْه ، التي رواها الإمام أحمد ٢ : ١٧٠ ، ٢٢٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، بإسناد صحيح .

ولقد كان طيشُها وخِفَّتُها شديداً وسريعاً ، لأنهما لا يلتقيان في الميزان .

نَقَل المناوي رحمه الله في « فيض القدير » ٢ : ٣٣ عن بعضهم وهو يتحدَّث عن التوحيد وكلمته ، فقال : « إن الشرك الذي يُقابلُ التوحيد لا يصحُّ وجوده من العبد مع وجود التوحيد ، فإن الإنسان إما مشركٌ وإما موحِّد ، فلا يزنُ التوحيدَ إلا الشرك ، ولا يَجتمعانِ في ميزان أبداً » .

ومعنىٰ « لا يَثْقُل مع اسم الله شيء » حينئذٍ : لا يثبُتُ أمام اسم الله شيء من الذنوبِ : أعظمِها وهو الشرك ، وأصغرِها مثل اللَّمَم ، لثِقَل اسم الله ، وحقارة ما سواه .

وعلىٰ هٰذا التأويل فإن هٰذا الرجل كان كافراً طَوَال حياته ، وفي الساعات الأخيرة منها خُتِم له بخاتمة الخير ، فأسلَمَ وتشهَّد ، ومات ، فكان آخِرَ قوله : « أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، و« من كان آخرُ كلامه لا إلٰه إلا الله : دخل الجنة » كما رواه أبو داود (٣١٠٧) وغيره عن معاذ بن جبل مرفوعاً[١] .

وإذا كان قد نَطَقَ بالشهادتين آخِر حياته ـ وكان إسلامُه بهما ـ فقد هَدَمَ ما عَمِله من قبلُ مهما عَظُم ، كما قال صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص رضي الله عنه لما جاء مسلماً مبايعاً : « أما علمتَ أن الإسلام يَهْدِم ما قبله . . . » رواه مسلم ١ : ١١٢ (١٩٢) .

وهٰذا قول بعض العلماء ، وقال آخرون : إنه كان مسلماً ، لٰكنه مُسرِف

---

(١) ورواه الحاكم ١ : ٣٥١ وصححه ، ووافقه الذهبي ، وفي « شرح الأذكار » لابن عَلان ٤ : ١٠٨ عن الحافظ ابن حجر أنه قال : حديث حسن غريب .

علىٰ نفسه بكثرة ذنوبه ، وقد نطق بهاتين الشهادتين منيباً إلىٰ ربه ، تائباً من ذنوبه ، خائفاً من ذنبه ، راجياً رحمة ربه[١] ، فيكون نظيرَ الرجل الآخر الذي قتل تسعة وتسعين نفساً .

روى البخاري في « صحيحه » (٣٤٧٠) ، ومسلم ٤ : ٢١١٨ (٤٦) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تسعةً وتسعين نَفْساً ، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرض ، فَدُلَّ علىٰ راهب » أي : عابدٍ غيرِ عالمٍ « فأتاه ، فقال : إنه قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمَّل به المئة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ علىٰ رجل عالم ، فقال : إنه قتل مئة نفسٍ ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومَن يَحولُ بينه وبين التوبة ؟! انطلقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا ، فإن بها أُناساً يعبُدون الله فاعبُدِ اللهَ معهم ، ولا تَرجِع إلىٰ أرضِك ، فإنها أرضُ سَوْء .

فانطَلَقَ حتىٰ إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت ، فاختصمتْ فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقبِلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطُّ ، فأتاهم ملَكٌ في صورة آدميّ ، فجعلوه بينهم فقال : قِيسُوا ما بين الأرضين ، فإلىٰ أيَّتهما كان أدنىٰ فهو له ، فقاسُوه ، فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد ، فقبضتْه ملائكة الرحمة » .

فصاحبُ البطاقة ـ من جهة حُسْن العاقبة ـ نظيرُ هـٰذا الرجل الذي قَتل مئة نفس ، والذي قالت فيه ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطُّ ، ولـٰكن قالت فيه ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبِلاً بقلبه إلى الله .

---

(١) فيكون تشهُّداً ملاحَظاً فيه التوبة ، لا تشهداً قاصراً على التوحيد المستقرِّ في قلبه من قبلُ .

وقال بعض العلماء : إن صاحب البطاقة أراد الله الغفورُ الرحيمُ أن يُكرمه إكراماً خاصاً ، ويُعلنَ ذٰلك علىٰ رؤوس الخلائق ، فغفر له جميعَ ذنوبه ومَحَاها عنه ، بسبب تلك الشهادة التي تقرَّب بها إلى الله سبحانه .

فهٰذا من باب الإكرام الإلٰهيّ الخاصّ به ، كما يُشير إلىٰ ذٰلك قوله صلى الله عليه وسلم في صدر الحديث : « إن الله سيخلِّص رجُلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق » .

ذكر هٰذه الأقوال الثلاثة ـ ولخَّصتُها من كلامه ـ شيخُنا العلامةُ الحجة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالىٰ ، في كتابه « الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها » ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

نعم ، في الحديث نفسه ما يُستأنس به للقول الأول ، وأنه كان كافراً ، وهو أن في البطاقة : « أشهد . . . وأشهد » ، فهٰذا اللفظ يُستأنس به لذٰلك . والله أعلم .

ثم رأيت الشيخ الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ أشار في « مجموع فتاويه » ١٠ : ٧٣٣ إلىٰ حديث أبي كبشة الأنْماري رضي الله عنه الذي رواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال : حسن صحيح : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رَزَقَه الله مالاً وعلماً فهو يتَّقي فيه ربَّه ويَصِل فيه رَحِمَه . . . ، وعبد رَزَقه الله علماً ولم يرزقْه مالاً فهو صادقُ النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعملِ فلان فهو بنيَّته ، فأَجْرهما سواء . . . » ، ثم قال : « وحديث أبي كبشة في النيات مثلُ حديث البطاقة في الكلمات » فذكر الحديث وعلَّق عليه بقوله : « فهٰذا » أي : هٰذا الأجر وهٰذا التجاوز عن عظيم وزره « لِمَا اقترن بهٰذه الكلمة من الصدق والإخلاص ، والصفاء وحسن النية ؛ إذِ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة ، فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً ، ومثلُ

هٰذا الحديث الذي في حديث المرأة البَغِيِّ التي سَقَتْ كلباً ، فغفر الله لها ، فهٰذا لما حَصَل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك » ، وهٰذا أعلىٰ من القول الثاني ، مع اشتراكهما في أن كلاً منهما يشير إلىٰ ملاحظة قلبية اقترنت بتشهُّده . والله أعلم .

* * *

٨٦ - عن حذيفةَ بن اليَمَان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَلَقَّت الملائكةُ روحَ رجلٍ ممن كان قبلكم ، فقالوا : أَعَمِلْتَ من الخير شيئاً ؟ قال : لا ، قالوا : تَذَكَّرْ ، قال : كنت أُداينُ الناسَ فآمُرُ فِتْياني أن يُنْظِروا المُعْسِرَ ، ويَتَجاوزوا عن المُوسِر ، قالَ : قال الله عز وجل : تَجَوَّزوا عنه » .

٨٦ - تخريجه : رواه مسلم : كتاب المساقاة والمزارعة - باب فضل إنظار المُعْسِر ٣ : ١١٩٤ (٢٦) ، وله روايات أخرىٰ أكثرها صريحٌ في أن الحديث قدسي ، ومدارها علىٰ حذيفة بن اليمان وأبي مسعود الأنصاري وعقبة بن عامر الجهني - إنْ صحَّ أنه هو - رضي الله عنهم .

وليس في روايات البخاري ما يفيد بأنه قدسي ، انظر منه : كتاب البيوع - باب من أنظر موسراً ٤ : ٣٠٧ - ٣٠٨ (٢٠٧٧ ، ٢٠٧٨) ، وكتاب الاستقراض - باب حسن التقاضي ٥ : ٥٨ (٢٣٩١) ، وأحاديث الأنبياء - في الحديث عن بني إسرائيل ٦ : ٤٩٤ (٣٤٥١) .

غريبه : يَتَجاوزوا : يَتَسامحوا .

يُنْظِروا : يُمهلوا ويُؤخِّروا .

معناه : هٰذا الحديث الشريف من جملة الأدلة علىٰ صحة القاعدة المشهورة عند العلماء : الجزاء من جنس العمل .

فالله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصة رجلٍ من بني إسرائيل كان يعامل الناس بيعاً وشراءً ، وكان من خُلُقه التجاريِّ

أن يتسامح ، ولا شيءَ سواه من الخير عنده ، فحياتُه حياةٌ مادية تجارية ، لٰكن الله تعالىٰ أكرمه فحلَّاه بهٰذا الخُلُق الحسن الذي أدّىٰ به إلىٰ عاقبة حسنة .

تلقَّتْه الملائكة للحساب ، فسُئل : هل عندك عملٌ صالح خيّر ؟ فقال : لا ، فذكَّروه ، فتذكَّر ، قال : نعم ، كنتُ أعاملُ الناسَ باليسر والسماح ، كنت آمرُ غِلماني الذين يعملون عندي أن يُحسِنوا إلىٰ من يَتَعاملون معه ، فمن استدان منهم وتأخَّر لكونه مُعْسِراً ليس عنده من المال ما يَقضي دَينَه ، أوصيتُهم أن يُمْهِلوه : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ البقرة : ٢٨٠ .

ومن تعامل معهم فاشترىٰ منهم شيئاً وكان موسِراً كنت أوصيهم بالتسامح معه في استيفاء الثمن ، كما جاء في رواية أخرىٰ : « كنت أُنْظِر المعسِر ، وأتجوَّز في السِّكَّة » ، والسِّكَّة : هي النقدُ : الدنانير والدراهم .

فكان جزاؤه من الله عز وجل من جنس عمله ، لٰكنْ شتَّان بين عِظَم العمل وجزائه ، فهٰذا التاجر يحصُل علىٰ نتيجةِ حسنِ خُلُقه في الدنيا ، وذٰلك بإقبال الناس على التعامل معه ، هٰذا جزاؤه العاجل ، أما جزاؤه الآجل : فقول الله تعالىٰ لملائكته : « تجوَّزوا عنه » ، أو : « أنا أحقُّ بذا منك ، تجاوزوا عن عبدي » ، ومتىٰ هٰذا ؟ هٰذا ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ عبس : ٣٤ ـ ٣٧ ، في ذاك اليوم يُلقّيه الله تعالىٰ بهٰذا التجاوز عنه ، فحيَّهلا به من جزاء ! ، ولا عَجَبَ ، فهٰذا من العبد ، وذاك من رب العباد .

ولماذا ؟ لأن « الخَلْقُ كلُّهم عيالُ الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله »[1] ، فالإحسانُ إلىٰ عيال الله جزاؤه الحسن عند الله عظيم .

---

(١) حديث ضعيف ، حسَّنه بعضهم لطرقه المتعددة ، كما تقدم ص ١٦٠ ، ٣١٠ .

بل ، أَلَا تَرىٰ إلى المرأة ـ وهي ما هي ـ حين أحسنتْ إلىٰ كلب يَلْهَثُ الثَّرىٰ ، غفر الله لها ! وإلى الذي أزاح غصنَ شوكٍ عن طريق المسلمين لا يُؤذيهم ، غفر الله له ! وإلى المرأة الأخرىٰ عذَّبها الله بناره حين حبستْ هرةً عن الطعام من قِبَلها أو من خَشَاش الأرض وهَوَامِّها وحشراتها ! .

فلا يحقرنَّ أحدٌ من المعروف شيئاً ، ولو مع حيوان ، ولا يَسْتسهلنَّ إساءةً إلىٰ أحد ولو إلىٰ حيوان ، فإن أحدنا لا يدري من أين تأتيه السعادةُ ، أو غيرُها . نسأل الله التوفيق .

* * *

٨٧ ـ عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لَيَسْأَل العبدَ يوم القيامة حتىٰ يقول : ما مَنَعَكَ إذا رأيتَ المنكرَ أن تُنْكِرَه ؟ فإذا لقَّنَ الله عبداً حُجتَه قال : يا ربِّ رَجَوْتُك وَفَرِقْتُ من الناس » .

٨٧ ـ تخريجه : رواه ابن ماجه : كتاب الفتن ـ باب قول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ المائدة : ١٠٥ ، (٤٠١٧) ، وأحمد ٣ : ٢٧ ، وابن حبان (٧٣٦٨) ، وقال الشهاب البوصيري في « مصباح الزجاجة » (١٤١٣) : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

غريبه : لقَّن : علَّم وعرَّف .

فَرِقْتُ : خِفت .

معناه : من مواقف يوم القيامة : عالَم السؤال ، ويكون السؤال فيه عن أشياء كثيرة ، منها : ما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي (٢٤١٧) ـ وقال : حسن صحيح ـ عن أبي بَرْزَة الأسلمي مرفوعاً : « لا تَزُولُ قَدَما عبدٍ يومَ القيامة حتىٰ يُسألَ عن عُمُره فيما أفناه ، وعن علمه فيمَ فَعَل ، وعن ماله من أين اكتسَبَه وفيمَ أنفقه ، وعن جسمه فيمَ أبلاه » .

ومنها : ما جاء في هٰذا الحديث : سكوتُه عن المنكر ، إذْ يَعْتِبُ الله تعالىٰ علىٰ عبده : « ما مَنَعك إذا رأيتَ المنكر أن تنكره ؟ » .

وحقُّ الله عليه : أن يتحرَّك في قلبه خوفُ الله إذْ رَأىٰ ما يُغضبه ، وتَثُور في فؤاده الغَيْرة لله ، فينكرَ المنكر علىٰ ترتيب مراحله الثلاث المأثورة فيما :

رواه مسلم ١ : ٦٩ (٧٨ ، ٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : « من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذاك أضعفُ الإيمان » .

إلا أن شيئاً من ذٰلك لم يكنْ ، إلا رجاءَه من الله العفوَ والستر ، والتجاوز والمغفرة ، فيلقِّنه الله كلمةً تَشفَع له عنده ، وتجبرُ زلَّته ، فيقول : « يا ربِّ رجوتك » ولا يَخيبُ راجيك ، وأما الناس فلا يُؤمَن لهم جانبٌ ، فإني قد فَرِقتُ منهم .

فهٰذه الملاحظة القلبية (الرجاء) هي التي كانت سببَ نجاته ، وبها لقَّنه الله الحجة ، فنجَّاه بها .

ومع هٰذا ، فإن الأمر والنهي لا بدَّ منهما ، لصلاح أمر الإسلام والمسلمين ، روى الترمذي (٢١٦٩) وقال : حديث حسن ، عن حذيفة مرفوعاً : « والذي نفسي بيده لَتَأمُرنَّ بالمعروف وَلَتنهوُنَّ عن المنكر ، أو لَيُوشِكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تَدْعونَه فلا يُستجابُ لكم » .

❋ ❋ ❋

٨٨ ـ عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جُرحٌ فَجَزِع ، فأخذ سِكّيناً فَحَزَّ بها يدَه ، فما رَقأ الدمُ حتىٰ مات ، قال الله تعالىٰ : بادَرَني عَبدي بنفسِه ، حرَّمتُ عليه الجنة » .

٨٨ ـ تخريجه : ذكره البخاري : كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في قاتل النفس ٣ : ٢٢٦ (١٣٦٤) معلَّقاً ، ثم رواه موصولاً : كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ما ذُكر عن بني إسرائيل ٦ : ٤٩٦ (٣٤٦٣) ، وهٰذا لفظه ، ورواه مسلم : كتاب الإيمان ـ باب بيان غِلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١ : ١٠٧ (١٨٠) .

معناه : قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ النساء : ٢٩ ، فمِن رحمته سبحانه أنْ حرَّم على الإنسان أن يَقتلَ نفسَه ، أو أن يَقتلَ نفسَ غيره ، وهٰذا من باب قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الحجرات : ١١ ، والإنسانُ لا يَلْمِزُ نفسَه ، لٰكنه سبحانه نَزَّل المؤمن من المؤمن الآخَر منزلةَ نفسِه ، فأخوك نفسُك ، لذٰلك قال : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، والمعنىٰ : لا تلمزوا غيركم ، فإنهم بمنزلة أنفسكم ، وكذٰلك هنا : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ النساء : ٢٩ ، تُحمَل علىٰ هٰذين المعنيين : قتلِ الإنسانِ نفسَه ، وقتلِ الإنسان غيره .

والمراد هنا : الحديث عنها بالمعنى الأول ، حرَّم الله عز وجل على الإنسان أن يقتل نفسَه قاصداً لذٰلك ، أما لو كان يُعالجُ نفسَه من مرضٍ فمات : فإنه لا يَدخُلُ هنا تحت هٰذه الآية أو الحديث .

وعلَّل الله تعالىٰ نهيَه لنا عن هـٰذه الجريمة بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ النساء : ٢٩ .

وجاء هـٰذا الحديثُ علىٰ وَفق هـٰذه الآية ، وكان تكون في بني إسرائيل العِبَرُ والعِظَاتُ ، وكان صلى الله عليه وسلم يتخوَّلُ أصحابه بالحديث عنهم من أجلها ، فقصَّ عليهم هـٰذه القصةَ من جملة ما قصَّ عليهم :

أصاب رجلاً قَرْحةٌ ـ وهي حبَّة تكون في البدن ـ في يده ، فاشتدَّ عليه أَلَمها ، وقلَّ صبره عليها ، وهـٰذا معنىٰ قوله : « فَجَزِعَ » ، فأخذ أولاً طرفَ سهمِه فَنَخَسَ به القَرْحة ، فلم ينفعْه ذٰلك ، كما يستفاد من أول رواية مسلم للحديث ، فحزَّه بالسكين ، يريد : أنه عَمَّقَ الجرحَ بالسكين ، لأن الحزَّ لا يكون معه فصلٌ وإبانةٌ للعضو عن موضعه .

فكان من جرَّاء ذٰلك نَزْفٌ شديدٌ للدم ، أعقبه وفاتُه .

وواضح من التفرقة التي تقدمتْ بين مَنْ مات مِن معالجة جرحه غيرَ قاصدِ الموتَ ، فمات : فلا شيء عليه ولا مؤاخذة ، وبين من مات من معالجةِ جُرحه قاصداً الموتَ والخلاصَ من الألم ، فعليه المؤاخذة .

أقول : واضحٌ منها أن هـٰذا الرجل من الصنف الثاني ؛ لذٰلك عاقبه الله عز وجل بقوله : « بادرني عبدي بنفسه ، حرَّمت عليه الجنة » .

أما قوله : « بادرني عبدي بنفسه » : أي : استعجل الموتَ لنفسه ، وهـٰذا الإنسان لا يعلم متى انتهاءُ أجله ، فصورةُ عمله هـٰذا صورةُ المبَادر المتعجل بالموت ، لا أنه أمات نفسَه قبلَ حلولِ أجله ، فإن الأجلَ لا يتقدَّم نَفَساً ولا يتأخَّر نَفَساً .

وأما قولُه : « حرَّمت عليه الجنة » فإن النصوصَ الأخرى القطعية من آياتٍ وأحاديثَ تدلُّ علىٰ أن الجنة غيرُ محرَّمةٍ علىٰ أحدٍ إلا على الكافرين .

قال الله تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف : ٥٠ ، فماءُ الجنةِ ورزقُها محرَّمٌ على الكافرين ، وهما بعضُ الجنة ، فدخولُها محرَّمٌ من بابٍ أولىٰ .

ومن الأحاديث : ما أخرجه مسلمٌ بعد هٰذا الحديث بحديثين ١ : ١٠٨ (١٨٤) عن جابر رضي الله عنه : أن الطُّفَيلَ بنَ عمرو الدَّوسيَّ أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هل لك في حِصنٍ حَصِينٍ ومَنَعَة ـ قال : حِصنٌ كان لدَوْسٍ في الجاهلية ـ فأبَىٰ ذٰلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، للذي ذخَرَ الله للأنصار ، فلما هاجر النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، هاجر إليه الطفيلُ بن عمرو ، وهاجر معه رجلٌ من قومه ، فاجْتَوَوا المدينةَ ، فمرِض ، فجزِع ، فأخذ مَشَاقِصَ له فقطعَ بها بَرَاجِمَه ، فَشَخَبَتْ يداه حتىٰ مات .

فرآه الطفيلُ بنُ عمرو في منامه ، فرآه وهيئتُه حسنةٌ ، ورآه مُغَطِّياً يَدَيْه ، فقال له : ما صنع بك ربُّك ؟ فقال : غَفَر لي بهجرتي إلىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما لي أراك مُغَطِّياً يديك ؟ قال : قيل لي : لن نُصْلِحَ منك ما أَفْسَدتَ ! .

فقصَّها الطفيلُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ولِيَدَيْه فاغفر ! »[1] ، فظهر بهٰذا أن من تسبَّب

---

(١) ومعنىٰ هٰذا الحديث إجمالاً : أن الطفيل كان يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجرَ إلىٰ بلاده حيثُ قبيلتُه دَوْسٌ ، لٰكن الله تعالىٰ خَبَأَ هٰذه المَكْرُمة للأنصار ، ثم جاء الطفيل وصديقٌ له إلى المدينة ، فأصابهم بعضُ مرض فيها ، فكرهوا المُقَام بها ، إلا أن صديقَه لم يحتملْ المرضَ والكراهية ، فأخذ نَصْلاً عريضاً وطويلاً ، فقطع به مفاصل أصابعه (العُقَد) فنزف دمُه بقوة ، فمات ، فرآه في المنام كما وصف بهيئة حسنة مغفوراً له إلا يديه ، فدعا له صلى الله عليه وسلم بتمام المغفرة والمجاوزة عن سيئةِ يديه .

بقتلِ نفسه لا تحرُمُ عليه الجنة حرمةً مؤبَّدةً ، فلا بدَّ من تأويل الحديث المذكور أعلاه ليتلاءَمَ مع الأدلة الأخرىٰ .

قال القاضي عياض رحمه الله في « شرح مسلم » ١ : ٣٩٦ تعليقاً علىٰ قوله : « حَرَّمتُ عليه الجنة » : « يَحتمِلُ أنه كان مستَحِلاً ، أو : يُمنعها حين يدخُلُها السابقون والأبرار والناجون وأصحاب اليمين ، حتىٰ تنفذ فيه مشيئة ربه ، ويعاقبه بذنبه في نار جهنم ، أو يُطيلُ حسابَه ، أو يُحبسُ في الأعراف » ، ونقله النووي ٢ : ١٢٧ وزاد قوله : « قلت : ويَحتمِل أن شرعَ أهلِ ذٰلك العصر تكفيرُ أصحاب الكبائر » .

وزاد علىٰ هٰذه الاحتمالات الحافظُ في « الفتح » ٦ : ٥٠٠ (٣٤٦٣) : احتمالَ أن يكون الرجل كافراً من الأصل ، واحتمالَ تحريمِ جنةٍ معينةٍ عليه كالفردوس ، واحتمالَ أن هٰذا تخويف وتهديد لا يُراد ظاهره ، واحتمالَ أن هٰذا جزاؤُه إن شاء الله تعالى استمرارَه ، وإلا فلا .

ولعل أولاها القولُ بأنه يُحرَمُ دخولَ الجنة مع السابقين الأولين ، فجريمتُه هٰذه تُعَرْقِلُ دخولَه العاجلَ ، وهو ما اختاره شيخنا العلامة الشيخ عبد الله الصديق الغُماري رحمه الله تعالىٰ ، في رسالته « قمع الأشرار عن جريمة الانتحار » . والله أعلم .

وإن الله تبارك اسمه خَلَق عباده للحياة ، لا لتعجُّل الموت ، فلذٰلك حرَّم عليهم تمنِّيَ الموت ، وأن يدعوَ أحدُهم علىٰ ولده بالموت ربما وافق ساعة إجابة ، وأن يتمنَّوا لقاء العدو ؛ لما فيه من شدائد وسبب للموت ، والوَأْدَ الجليَّ ، والوَأْدَ الخفيَّ (العزل)[1] . وهٰكذا .

---

(١) إلا إذا كان هناك مسوّغ شرعي للعزل .

فالله تعالىٰ خلق الناس للحياة ، وشَرَع تعاطي ما يدفعُ عنهم الموتَ وأسبابَه ، كالتداوي ، ولم يخلقهم لِتعجُّل الموتِ ، إلا في سبيله ، وحرَّم عليهم أن يُلْقُوا بأيديهم إلى التهلُكة ، وما إلىٰ ذٰلك .

* * *

٨٩ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحكَ ، فقال : « هل تَدْرُون مِمَّ أَضحكُ ؟ » قال : قلنا : الله ورسولُه أعلم ، قال : « مِنْ مُخاطبةِ العبدِ ربَّه يقول : يا ربِّ أَلَمْ تُجِرْني من الظُّلم ؟ قال : يقول : بلىٰ ، قال : فيقول : فإني لا أُجِيزُ علىٰ نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقولُ : كَفَىٰ بنفسِك اليومَ عليك شهيداً ، وبالكرامِ الكاتبين شهوداً ، قال : فَيُخْتَم علىٰ فِيه فيقالُ لأركانه : اِنْطِقي ، قال : فتنطِقُ بأعماله ، قال : ثم يُخَلَّىٰ بينه وبين الكلام ، قال : فيقولُ : بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً ، فَعَنْكُنَّ كنتُ أُناضِلُ » .

٨٩ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الزهد ٤ : ٢٢٨٠ (١٧) .

غريبه : هل تدرون : هل يُمكنكم التوصُّل إلىٰ معرفةِ سببِ ضَحِكي بأيِّ وسيلة ؟ .

أركانُه : جوارحه ، قاله النووي ، وهو المعروف ، ومثله ابن الأثير في « النهاية » ، وزاد : « وأركانُ كلِّ شيء : جوانبُه التي يَستند إليها ويقوم بها » ، وعلىٰ هٰذا المعنىٰ جاء آخر الحديث التالي : « فَيُخْتَم علىٰ فِيهِ ، ويُقالُ لفَخِذه ولحمه وعظامه : انطِقي » .

أُناضل : أدافعُ وأجادل .

معناه : لما كان في هٰذا الموقف سببُ ضحِك النبي صلى الله عليه وسلم غيرَ ظاهر ، تعيَّن أن يكون سبباً خفياً ، لخاطرِ خَطَر بباله صلى الله

عليه وسلم ، وإدراكُ هٰذا صعبٌ على الآخرين ، لذٰلك قال لهم عليه الصلاة والسلام : « **هل تدرون ممَّ أضحك ؟** » ، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالىٰ في « مفرداته » : « **الدراية** : المعرفة المدرَكَةُ بضَرْبٍ من الخَتْل » ، أي : المعرفةُ التي يُوصَل إلىٰ إدراكها وبلوغها بنوعٍ من الحيلة ، وبناءً علىٰ هٰذا فلا يَصحُّ أن يقالَ : الله تعالىٰ أدرىٰ بما يُصلح عبادَه ، ونحو هٰذا من العبارات الشائعة علىٰ أقلام بعض الكتّاب ، وألسنة بعض المتحدِّثين .

ثم أبان لهم صلى الله عليه وسلم عن سبب ذٰلك : وهو جُرأةُ العبد علىٰ ربه ، ظناً منه أنه يستطيع مغالطة الله العليم الخبير !! يقولُ العبد لربه سبحانه : إنك وعدتَني أن لا تَظلمني ، ومِن ظلمي أن تَقْبلَ شهادة مَن لا أرضاه شاهداً عليَّ ، فَيُعطيه الله ذٰلك ، بأنْ تَشهدَ نفسُه عليه ، فيستنطقُ الله جوارحَه عليه ويختمُ علىٰ فمه .

فتنطق يداه بما بطشتْ ظلماً ، وسَرَقت ، وكَتَبتْ زوراً ، وامتدتْ إلىٰ حرام ، . . . ، وتَنْطِقُ رجلاه بما مَشَتْ إلىٰ حرام ، وسَعَتْ في باطل ، وذهبتْ إلىٰ منكر . . . وهٰكذا . . . وهٰكذا . . . ، حتىٰ تأتيَ جوارحُه علىٰ ما أَثِمَتْ فيه ، نعوذ بالله من الفضيحة ! .

ثم يأذن الله تعالىٰ للسانه بالكلام ، فيوبِّخ نفسَه بنفسه ، ويدعو علىٰ نفسه بنفسه : هلاكاً بعيداً مديداً لكُنَّ أيتُها الأعضاء (الصادقة الصريحة) ، فإنني ما تجرَّأتُ علىٰ ربي وقلتُ ما قلتُ إلا لأُنْقِذَكُنَّ من عذابه ، وظننت أني بذٰلك أنجو !! اللهم فاحفظنا ! .

والسعيد من أدرك نفسه وأنقذها قبل ورودها المهالك ، وحاسبها قبل أن تُوقفَ للحساب بين يدي العليم الخبير .

❋ ❋ ❋

٩٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله هل نَرَىٰ ربَّنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تُضَارُّون في رُؤْية الشمسِ في الظَّهيرة ليست في سَحَابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « فهل تُضَارُّونَ في رؤية القمر ليلةَ البَدْر ليس في سَحَابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « والذي نفسي بيده لا تُضَارُّون في رؤيةِ ربِّكم إلا كما تُضَارُّون في رؤية أحدهما .

قال : فَيَلْقَى العبدَ فيقول : أيْ فُل ألَمْ أُكْرِمْكَ ، وأُسَوِّدْك ، وأزوِّجْك ، وأُسَخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ ، وأَذَرْك ترْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلىٰ ، قال : فيقول : أَفَظَنَنْتَ أنك مُلَاقِيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نَسِيتَني .

ثم يَلْقَى الثانيَ فيقول : أيْ فُلْ ألَمْ أُكْرِمْكَ ، وأُسَوِّدْك ، وأزوِّجْك ، وأُسَخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ ، وأَذَرْك ترْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فيقول : بلىٰ أيْ ربِّ ، فيقول : أَفَظَنَنْتَ أنك مُلَاقِيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نَسِيتَني .

ثم يَلْقَى الثالثَ ، فيقول له مثلَ ذٰلك ، فيقول : يا ربِّ آمنتُ بك ، وبكتابك ، وبرسُلك ، وصلَّيتُ ، وصُمْتُ ، وتصدَّقتُ ، ويُثْني بخيرٍ ما استطاع ، فيقول : ها هنا إذاً .

قال : ثم يُقَالُ له : الآن نبعثُ شاهدَنا عليك ، ويَتَفكَّرُ في

نفسه : مَن ذا الذي يَشهدُ عليه ؟! فَيُخْتَم علىٰ فيه ، ويُقال لِفَخِذه ولحمه وعظامه : اِنطِقي ، فتنطِقُ فَخِذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذٰلك لِيُعذِرَ من نفسه .

وذٰلك المنافقُ ، وذٰلك الذي يَسْخَطُ الله عليه » .

٩٠ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الزهد ٤ : ٢٢٧٩ (١٦) .

غريبه : تُضَارُّون : قال النووي رحمه الله في « شرح مسلم » ٣ : ١٨ : « رُوي تضارون ـ بتشديد الراء وبتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ، ومعنى المشدَّد : هل تُضارُّون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه ، كما تفعلون أول ليلة من الشهر ؟ ، ومعنى المخفَّف : هل يَلحقُكم في رؤيته ضَيْر ؟ وهو الضرر » فالمعنىٰ واحد ، ونحو هٰذا في « النهاية » ، و« فتح الباري » ١١ : ٤٤٦ (٦٥٧٣) .

أسوِّدك : أجعلْك سيداً علىٰ غيرك .

أيْ فُلْ : أيْ : أداة النداء ، مثل : يا ، وفُل : فلان ، فالمعنىٰ : يا فلان ، قال النووي : فل : « هو ترخيم علىٰ خلاف القياس ، وقيل : هي لغة بمعنىٰ : يا فلان » ، وعلىٰ أنه ترخيم فيجوز في اللام الفتح والضم ، وأما ابن الأثير فقال ٣ : ٤٧٣ : فُلْ « معناه : يا فلان ، وليس ترخيماً له ؛ لأنه لا يقال إلا بسكون اللام ، ولو كان ترخيماً لفتحوها أو ضمُّوها » ، وانظر « المجموع المغيث » لأبي موسى المديني ٢ : ٦٣٨ ـ ٦٤٠ ، وما علَّقته علىٰ : « مصنف » ابن أبي شيبة (١٩٨٢٨) .

أَذَرْك : أَدَعْك ، والمراد : ألم أُمَكِّنْك ، ألم أَجْعَلْك .

تَرْأَسُ : تكون رئيساً لقومك .

تَرْبَعُ : تأخذُ رُبُع الغنيمة ، كما كانتْ ملوك الجاهلية تفعل ، وفي رواية : تَرْتَع ، ومعناها : تتَنعَّم وتتوسَّع في عيشك .

أَفَظَنَنْتَ : الظنُّ هنا : الاعتقاد الجازم .

أنساك : أَحْرِمُك من رحمتي ، كما تركتَ طاعتي .

ها هنا إذاً : قفْ ها هنا لتشهدَ عليك جوارحك .

لِيُعْذِرَ من نفسه : قال في « النهاية » : « أَعْذَرَ فلان من نفسه : إذا أمكن منها » ، أي : جَعَل لغيره المُكْنَةَ والقدرةَ علىٰ نفسه ، والمراد : أنه فَضَح نفسَه بنفسه ، فحقَّ عليه العذاب ، وفي « سنن » أبي داود (٤٣٤٧) : « لن يَهْلِكَ الناسُ حتىٰ يَعْذِروا ـ أو : يُعْذِروا ـ من أنفسهم » .

معناه : في الحديث الشريف إثباتُ رؤية المؤمنين ربَّهم عز وجل يومَ القيامة رؤيةً واضحةً لا لَبْس فيها ولا خَفَاء ولا حجابَ ، ويُقْسِمُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ ذٰلك بقوله : « والذي نفسي بيده لا تُضارُّون في رؤية ربكم ، كما أنكم لا تُضارُّون في رؤية الشمس حين الظهيرة ، أو القمر ليلة البدر في سماء مُصْحِية ، فلا تتزاحمون لِيستَوضِحَ كلٌّ منكم الرؤية ، ولا تَتَنازعون ، ولا تَتَضايقون ، ولا يحجُبُ بعضكم بعضاً عن الرؤية ، بل هي رؤية واضحة تمام الوضوح .

وهٰذه الرؤية تكون في أرض المحشر يوم القيامة ، وهي غير الرؤية التي تكون للمؤمنين خاصة في الجنة (١) .

---

(١) انظر « أعلام الحديث » للإمام الخطابي رحمه الله تعالىٰ ١ : ٥٢٣ وسيأتي بعضه في شرح الحديث التالي ص ٤٧٩ .

ثم يحكي صلى الله عليه وسلم مشهداً وموقفاً من مواقف القيامة لبعض الناس من الكافرين والمنافقين .

فالرجلُ الأولُ والثاني من صنف الكافرين ؛ لأنهما أنكَرا لقاء الله عز وجل لما سألهما الله تعالىٰ : « أفظننتَ أنك مُلاقيَّ ؟ قال : لا » ، فهٰذا قد أَعْذر نفسه فوراً دون مُكابرة وتَصنُّع ونفاق .

قرَّره الله تعالىٰ بِنِعَمه : أَلَمْ أُكْرِمْكَ فجعلتك سيداً علىٰ قومك ، وأنعمتُ عليك فزوَّجتك وأعطيتك من أصناف المال ما أعطيتك ، وعاملتَ قومك بما يعاملهم به أهلُ الجاهلية ـ لا أهل الهداية ـ فأخذتَ منهم المِرباع : رُبُع الغنائم ، وعِشْتَ في بُلَهْنِيَةٍ وسَعَةٍ ورَغَد ، وهو في كل هٰذا يُقرُّ ويقول : بلىٰ ، ولٰكنه ختم ذٰلك بأنَّه ما كان يعتقد بلقاء الله أنه حاصل كائن .

فهو علىٰ غير شاكلةِ ذاك : يُقرِّره ربُّه بذنوبه فيقول : أَعرفُ ربِّ ، أعرف ، ذاك مؤمنٌ مُوقِنٌ بيوم اللقاء والحساب والجزاء ، وتقدم حديثه برقم (٨٤) .

أما الرجل الثالث : فهو من الصنف الثاني ، صنف المنافقين ، يَظُن أنه يَقدِر علىٰ مغالطة ربِّه علامِ الغيوب ، العليم بذات الصدور .

إنه يقول لله بعد أنْ قرَّره بنعمه : يا رب آمنتُ بك ، وبكتابك ، وبرسُلك ، وفعلت كذا وكذا وكذا !! مع أنه إيمانُ المنافقين وفعلُهم ! .

فيقول الله تعالىٰ له : إذاً أنت تحتاجُ إلىٰ كشفٍ وفضيحة وخِزْي ! إنك تَكذِب وتُنافِق ، وهٰذا إنْ صَلَح في الدنيا مؤقَّتاً ، فإنه لا يَصلُح في الآخرة مِقدارَ لحظة واحدة ، فإن من أسماء يوم القيامة : الحاقَّة ، يُحقُّ الله تعالىٰ فيه الحقائق ، ويكشف الزَّيف .

وأفظعُ طرق الفضيحة : أن تكونَ عن طريق الإنسانِ المفضوحِ نفسِه ، وأقواها : أن تكونَ عن طريق من لا يُتَصَوَّر منه كذبٌ وخداع ، إذِ اللسان

يَلْتوي ويَتَلاعب بالحقائق ، أما سائرُ الجوارح فلا يُعْهَد منها نُطق وكلام ، حتىٰ يُتَصوَّر منها كذب ! ولٰكن الله تعالىٰ بقدرته علىٰ كل شيء يُنْطِقُها فتنطقُ بالحقائق الثابتة ، وحينئذ يُعْذِر هٰذا الإنسانُ من نفسه ، أي : إنه أمكن من نفسه ، ومكَّن غيره من إقامة الحجة عليه .

« الآن نبعثُ شاهدَنا عليك » ، فَيُدْهَشُ : « من ذا الذي يَشهدُ عليَّ ؟! » ، ولا يدري المسكين من أين يُؤتَىٰ ! فهٰذا هو المنافق ، وهٰذا هو الذي يَسْخَط الله عليه .

ويختم الله علىٰ فمه ، ويُنطِقُ جوارحَه ، ويُحِقُّ الله الحقَّ ، ويَمحقُ الباطل والنفاق ، ونعوذ بالله تعالىٰ من خزي الدنيا والآخرة ، إنه أرحم الراحمين .

❋ ❋ ❋

٩١ ـ عن عطاءِ بنِ يزيدَ الليثيِّ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن ناساً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل نَرَىٰ ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلةَ البدر ؟ » ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « هل تُضَارُّون في الشمس ليس دونها سَحَاب ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فإنكم تَرَوْنَه كذٰلك ، يجمع الله الناسَ يوم القيامة فيقول : من كان يعبُدُ شيئاً فَلْيَتْبَعْهُ ، فيتْبعُ من كان يعبد الشمسَ : الشمسَ ، ويتْبعُ من كان يعبد الطواغيتَ : الطواغيتَ ، وتبقىٰ هٰذه الأمةُ فيها منافِقوها .

فيأتيهم الله تبارك وتعالىٰ في صورةٍ غيرِ صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربُّكم ، فيقولون : نعوذُ بالله منك ، هٰذا مكانُنا حتىٰ يأتيَنا ربُّنا ، فإذا جاء ربُّنا عَرَفناه ، فيأتيهم الله تعالىٰ في صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربُّكم ، فيقولون : أنت ربُّنا ، فيتْبعونه .

ويُضْرَب الصراطُ بين ظَهْرَي جهنمَ ، فأكونُ أنا وأمتي أولَ مَنْ نُجيزُ ، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلا الرسُلُ ، ودعوى الرسُلِ يومئذٍ : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ .

وفي جهنم كَلَاليبُ مِثْلُ شَوكِ السَّعْدان ، هل رأيتم شوكَ

السَّعْدان ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : « فإنها مِثْلُ شوك السَّعْدان ، غيرَ أنه لا يعلمُ ما قَدْرُ عِظَمِها إلا الله ، تَخطَفُ الناسَ بأعمالهم ، فمنهم المؤمنُ بقيَ بعَمَلِه ، ومنهم المُجَازَىٰ حتىٰ يُنَجَّىٰ .

حتىٰ إذا فَرَغَ الله من القضاءِ بين العباد ، وأراد أن يُخرِجَ برحمته من أراد من أهل النار : أمرَ الملائكةَ أن يُخْرِجوا مِن النار مَن كان لا يُشْرِكُ بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يَرحمَه ممن يقول : لا إلـه إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود ، تأكُلُ النارُ من ابن آدم إلا أثَرَ السجودِ ، حرَّم الله على النار أن تَأْكُلَ أَثَرَ السجود ، فيُخْرَجون من النار قد امتُحِشُوا ، فيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ ، فينبتُون منه كما تَنْبُتُ الحِبَّة في حَمِيل السَّيْل .

ثم يَفْرُغُ الله من القضاء بين العباد ، ويبقىٰ رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار ، وهو آخر أهل الجنةِ دخولاً الجنةَ فيقول : أيْ ربِّ اصرِفْ وجهي عن النار ، فإنه قد قَشَبَني ريحُها ، وأَحْرَقني ذَكاؤها ، فيدعُو اللهَ ما شاء الله أن يَدْعُوَه .

ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ : هل عَسَيتَ إن فعلتُ ذٰلك بك أن تسأَلَ غيرَه ؟ فيقول : لا أسألك غيره ، ويُعطي ربَّه من عهودٍ ومواثيقَ ما شاء الله ، فيصرِفُ الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها ، سكتَ ما شاء الله أن يَسكُتَ ، ثم يقولُ : أيْ ربِّ ، قَدِّمْني إلىٰ باب الجنة ، فيقول الله له : أَلَيس قد أعطيتَ عُهودَك ومواثيقَكَ : لا تَسألُني غيرَ الذي أَعطيتُك ؟ ويلك يا بنَ آدمَ ما أَغْدَرَك ! .

فيقولُ : أيْ ربِّ ، ويَدعُو الله ، حتىٰ يقولَ له : فهل عَسَيتَ إنْ أعطيتك ذٰلك أن تسألَ غيره ؟ فيقول : لا ، وعزَّتِك ، فيُعْطي ربَّه ما شاء الله من عهودٍ ومواثيقَ ، فيقدِّمه إلىٰ باب الجنة .

فإذا قام علىٰ باب الجنة انْفَهَقَتْ له الجنةُ ، فرأىٰ ما فيها من الخير والسرور ، فيسكُتُ ما شاء الله أن يسكتَ ، ثم يقول : أيْ ربِّ ، أَدْخِلْني الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ له : أليس قد أعطيتَ عهودكَ ومواثيقكَ أن لا تَسألَ غير ما أُعطيتَ ؟ ويلك يا بن آدمَ ما أَغْدَرَك ! فيقول : أيْ ربِّ ، لا أكونُ أَشْقَىٰ خَلْقِك ، فلا يزالُ يدعو اللهَ حتىٰ يضحك الله عز وجل منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادْخُل الجنة .

فإذا دخلها قال الله له : تَمَنَّهْ ، فيسأل ربَّه ويتمنىٰ ، حتىٰ إن الله لَيُذَكِّرُه من كذا وكذا ، حتىٰ إذا انقطَعَتْ به الأمانيُّ قال الله تعالىٰ : ذٰلك لك ومثلُه معه » .

قال عطاءُ بن يزيدَ : وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ مع أبي هريرةَ ،

رضي الله عنهما ، لا يَرُدُّ عليه من حديثه شيئاً ، حتىٰ إذا حدَّث أبو هريرة أن الله عزَّ وجلَّ قال لذٰلك الرجل : « ومثلُه معه » قال أبو سعيد : وعَشَرَةُ أمثالِه معه ، يا أبا هريرة ، قال أبو هريرة : ما حفظتُ إلا قولَه : « ذٰلك لك ومثلُه معه » .

قال أبو سعيد : أشهدُ أَني حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولَه : « ذٰلك لك وعَشَرَةُ أمثالِه » .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : وذٰلك الرجلُ آخِرُ أهلِ الجنةِ دخولاً الجنةَ .

٩١ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الأذان ـ باب فضل السجود ٢ : ٢٩٢ (٨٠٦) ، وكتاب الرقاق ـ باب الصراط جسر جهنم ١١ : ٤٤٤ (٦٥٧٣) ، وكتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة : ٢٢ ـ ٢٣ ، ١٣ : ٤١٩ (٧٤٣٧) ، ورواه مسلم : كتاب الإيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية ١ : ١٦٣ (٢٩٩) واللفظ له .

غريبه : تضارون : تقدم في الحديث السابق ضبطُ الراء بالتشديد والتخفيف ، وأنه من الضرر أو الضَّيْر ، والمعنىٰ واحد .

الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو : كل ما عُبِد من دون الله عز وجل .

أول من يُجيز : أول من يمشي عليه ويقطعه .

منهم المؤمن بقي بعمله : في رواية البخاري الأخيرة : « فمنهم المُوبَق بقي بعمله » ، أي : المُهْلَك بعمله ، وهي أوضح ، ونحوها الروايتان الأخريان .

ومنهم **المُجازَىٰ** : أي المُعاقَب الذي يُلْقىٰ في النار .

فَرَغَ الله : تقدم ص ٣٦٢ قول القرطبي في « التذكرة » ص ٤١١ : « معناه : تمم عليهم حسابهم وفَصَل بينهم ؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، سبحانه وتعالىٰ » .

امتُحِشوا : احترقوا بالنار حتى انكشف العظم ! ويجوز في ضبطه : امتُحِشوا ، وامتَحَشُوا ، واختار الثانيَ النووي ٣ : ٢٦ .

الحِبَّة : بُزُور البقل البَرِّي .

حَميل السيل : قال في « النهاية » : « حَمِيل السيل : هو ما يجيء به السيل من طين أو غُثاء وغيره ، فإذا اتفقت ـ أي : صادف ـ فيه حبة واستقرت علىٰ شط مجرى السيل فإنها تنبت في يوم وليلة ، فشُبِّه بها سرعة عَوْد أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها » ، وانظر « شرح النووي » ٣ : ٢٣ .

قَشَبَني : قال الخطابي في « أعلام الحديث » ١ : ٥٣٣ : « يقال : قَشَبه الدخان : إذا امتلأتْ خياشيمه من الدخان ، ويقال : أصل القَشَب : السُّمُّ ، كأنه يقول : صار ريحها كالسُّمِّ في أنفي » .

العهود والمواثيق : **العهد** : التقدُّم إلى المرء في الشيء ، **واليمين** : يَحلِفُ بها الرجل ، **والوثيقة** : إحكام الأمر ، كما في « لسان العرب » ، **فالميثاق في الأصل** : الإحكام للأمر ، والحَلِف من جملة ألوان التوثيق ، وقد حصل ذٰلك من هٰذا الإنسان المذكور في الحديث .

انْفَهَقَتْ : انفتحت له .

تَمَنَّهْ : هو : تَمَنَّ ، فعل أمر من التمني أُلْحِقَتْ بآخره هاء السَّكْت .

ذَكاؤها : الذَّكاء هنا شدَّة وَهَج النار .

معناه : هٰذا الحديث الشريف فيه حكاية عددٍ لمواقف من مواقف الآخرة ، ففيه الحديث عن موقف من أوائل المواقف ، كما أنه خُتِم بالحديث عن رجلٍ هو آخر من يُخْرَج من النار ويدخل الجنة .

وفي أوله سؤال بعض الصحابة رضي الله عنهم عن رؤية الله تعالىٰ ، فأثبتها لهم صلى الله عليه وسلم وأكَّدها بأنها واضحة لهم دون حجاب ولا واسطة .

وهٰذه الرؤية التي تكون في أرض المحشر غيرُ الرؤية الثانية التي تكون في الجنة ، وفيها يكون أعظمُ سرور لأهلها .

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالىٰ في « أعلام الحديث » ١ : ٥٢٣ : « ويجبُ أن يُعْلَم أن الرؤيةَ التي هي ثوابُ الأولياء وكرامةٌ لهم في الجنة غيرُ هٰذه الرؤيةِ المذكورة في مقامهم ـ أي : موقفهم ـ يوم القيامة » ، وذكر حديثَ مسلمٍ الآتي (٩٩) عن صُهَيب رضي الله عنه مرفوعاً ، وأن هٰذه الرؤيةَ التي تكونُ في الموقف هي رؤيةُ امتحانٍ لأهل الموقف عامةً .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فإنكم ترونه كذٰلك » : التشبيه في وضوح الرؤية ، وأنها دون ضرر ولا حجاب ، كما هو واضح ، وليس في اتحاد المَرْئي ـ وهو الشمس ـ معاذ الله !! فوجه الشبه : وضوح الرؤية .

ثم ابتدأ صلى الله عليه وسلم يحكي الموقفَ من أوله ، وذٰلك : أن الله تعالىٰ يجمعُ الناس عامةً ، ثم يأمرُهم : أن تتَّبعَ كلُّ طائفةٍ معبودَها الذي كانت تعبده في الحياة الدنيا ، فتلحق كلُّ طائفة معبودَها .

ويبقىٰ أهل الإيمان ومَن تَظَاهر بمظهرهم ، وهم المنافقون ، فيتجلَّى الله عز وجل للمؤمنين بغير ما يَعرفون عنه من صفاتِ الجلال والكمال والرحمة ، فَيَستعيذون بالله منه ! .

ثم يتجلَّىٰ لهم بالصفات التي يَعلمونها عن الله ، فيقولون : نعم أنت ربُّنا .

وموقفٌ آخَر من مواقف الآخرة ، هو عالم الصراط .

والصراطُ مما يجبُ الإيمان به ، ووردتْ في السنة بعضُ تفاصيله ، فمنها : أنه علىٰ ظهر جهنم ، أي : إنه ممدودٌ فوقها ، فأوَّلُه في أرض المحشر ، وآخره علىٰ باب الجنة ، يجوزُ عليه الناسُ جميعاً ، وعلىٰ حافَتَيْه كلاليبُ من نار تَخْطَفُ الناسَ بأعمالهم .

ولكلِّ عملٍ من الأعمال موقفٌ عليه ، يسمىٰ قَنْطَرة ، فيما قيل .

قال القرطبي في « تَذْكِرته » ص ٣٨١ تحت « باب كيف الجواز على الصراط . . . » : « رُوي عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوزَ أحدٌ الصراطَ حتىٰ يُسأل في سبع قناطر ، فأما القنطرةُ الأولىٰ : فيسألُ عن الإيمان بالله ، وهي شهادة أن لا إلـه إلا الله ، فإنْ جاء بها مخلِصاً ـ والإخلاص قول وعمل ـ جاز ، ثم يُسألُ على القنطرة الثانية عن الصلاة ، فإن جاء بها تامةً جاز ، ثم يُسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان ، فإن جاء به تاماً جاز ، ثم يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة ، فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة ، فإن جاء بهما تامتين جاز ، ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغُسل والوضوء ، فإن جاء بهما تامَّيْن جاز ، ثم يسأل في السابعة ـ وليس في القناطر أصعبُ منها ـ فيُسألُ عن ظُلامات الناس » .

وللصراط هولٌ وفَزَعٌ ، فكلٌّ من الناس غارقٌ في همِّه ، وهمُّه معرفةُ مآله : سقوطٌ وجَنْدَلةٌ في جهنم ، وكَلَاليبُها تنتظره ، أو نجاةٌ وسلامة إلىٰ آخره عند باب الجنة ؟؟ .

ومن شدَّة الكربِ الآخذِ بحناجر الناس أن أحداً منهم لا يتَكلَّم ، وكلٌّ

واحدٍ منا يُدرك هٰذه الحال ، إذا أَخَذَ منه الكرب مأخذاً شديداً كرةَ الكلامَ منه أو معه ! عافانا الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : « **ولا يَتَكلّم يومئذٍ إلا الرسُل ، ودَعوى الرسلِ يومئذٍ : اللهم سلِّمْ سلِّمْ** » ، فهم علىٰ عظيم مقامهم لا يتكلمون بشيءٍ إلا بالدعاء بالسلامة والنجاة .

لٰكنْ لصاحب المقام المحمود والشفاعة العظمىٰ صلى الله عليه وسلم أَوّلِيّاتٌ وخصائصُ ، منها : أنه أولُ من يَجوزُ على الصراط ، ومعه أمته ؛ يجوز بها الصراط ، وهي أمةُ الإجابة ، أي : كلُّ من استجاب لدعوة الإسلام ، سواءٌ أكان صالحاً أم غير ذٰلك ، فإذا مشىٰ صلى الله عليه وسلم على الصراط ومشتْ أمتُه وراءَه ، وقع منهم من قُدِّر عليه الوقوع ، ونجا من نجا ، ويكون هو صلى الله عليه وسلم أولَ واقفٍ علىٰ باب الجنة يَسْتَفتح لأمته وللناس من بعدهم ليدخلوها .

رَوَىٰ مسلم في « صحيحه » ١ : ١٨٨ (٣٣١) عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أكثرُ الأنبياءِ تَبَعاً يوم القيامة ، وأنا أولُ من يَقْرَعُ باب الجنة » .

ثم رَوَىٰ بعده عن أنس أيضاً : « آتي بابَ الجنةِ فأَسْتَفْتِحُ ، فيقولُ الخازنُ : مَنْ أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقولُ : بك أُمِرتُ لا أَفتحُ لأحدٍ قبلك » صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

وقـرَّب النبي صلى الله عليه وسلم لأفهام الصحابة كلاليبَ النار ، فشبَّهها لهم بشوكٍ معروفٍ عندهم فقال : « وفي جهنم كلاليبُ ، مِثلُ شوكِ السعدان . . . ، غير أنه لا يَعلَم ما قَدْرُ عِظَمِها إلا الله » ، ووظيفتُها أنها « **تخطَف الناسَ بأعمالهم** » السيئةِ فَتُوقِعُهم في نار جهنم ، فإذا طهَّرتْهم

النارُ من معاصيهم ، وطابوا من خَبَثِها ، أُخْرِجوا منها ، لِيُتموا مسيرتَهم على الصراط .

وهٰذه الكلاليب هي الشهوات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « حُفَّتِ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات » رواه البخاري (٦٤٨٧) عن أبي هريرة ، ورواه مسلم ٤ : ٢١٧٤ (١) عن أنس وأبي هريرة ، نقل هٰذا التفسير الحافظ في « الفتح » ١١ : ٤٥٣ (٦٥٧٣) عن ابن العربي المالكي ، فليحذرِ المسلم من الانزلاق وراءَ الشهوات ، فإن كلاليب النار له بالمرصاد !! نسأل الله العافية .

ثم يأذنُ الرحمٰنُ الرحيمُ لملائكته أن يُخْرِجوا من النار مَن كان لا يُشرِكُ بالله شيئاً ، فيخرجونهم منها ، وذَكَر في الحديث أن الملائكة تعرف هٰؤلاء ـ من بين أهل النار ـ بآثار السجود ، وأن الله تعالىٰ حرَّم على النار أن تأكل أَثَرَ السجود ، أي : أن تُحرِقه .

وقد يُسْتَشكَل : كيف أن الملائكة تَعرِف هٰؤلاء بآثار السجود مع أنهم الطائفة التي ليس عندها شيءٌ من الخير إلا قَدْرُ الإيمان المنجي من الخلود في النار ، دون أيِّ عملٍ آخر ، لا صلاة ، ولا زكاة ، ولا صيام . . . ؟[(١)] .

والجواب : أن الله حرم على النار أن تأكل مواضع السجود ، وهي الأعضاء

---

(١) هٰذا ما ظهر لي ، وظاهر كلام ابن حجر في « الفتح » ١١ : ٤٥٦ (٦٥٧٣) أن عندهم شيئاً من عمل الخير ، لذٰلك تأوَّلتُ في الجواب المذكورِ قولَه : « أَثَرَ السجود » بـ : موضع السجود ، لأنهم لم يسجدوا فعلاً . وبنحوه قال الكرماني في « شرحه » ٢٥ : ١٤٣ . أما الحافظ رحمه الله فقال هناك : « هل المرادُ بأثر السجود نفسُ العضو الذي يَسجد ، أو المراد : مَنْ سَجَد ؟ فيه نظر ، والثاني أظهر » . أي : إن الله حرَّم على النار أن تأكلَ منهم الأعضاء التي سَجَدَت له ، فهي باقية علىٰ حالها ، لذٰلك عُرِفوا بها . **وأقول** : إن الذين يُلقَون في نهر الحياة قومٌ « لم يَعملوا خيراً قطُّ » كما في حديث أبي سعيد عند مسلم .

السبعة التي بها يحصل السجود ، وقيل : الجبهة منها فقط ، فالله تعالىٰ يحفظُ موضعَ السجود من أكل النار إياه ، لكرامةِ السجود وعظيمِ فضله ، لذلك بوَّب البخاري : باب فضل السجود ، وأورد الحديث تحته .

وهٰذه الطائفة هي المذكورة في الحديث الآتي برقم ٩٥ أنهم ليس في قلبهم إلا مثقالُ حَبة من خردل من إيمان ، ثم يُكْرمهم الله بالإلقاء في نَهَر الحياة ، فينبتُون منه كما تنبت الحِبَّة في حَميل السيل ، وجاء في حديث أبي سعيد عند مسلم أنهم « لم يعملوا خيراً قط » .

ثم يقصُّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة رجلٍ ـ لعله أحد المذكورين قبلُ ـ وهو آخر أهلِ الجنةِ دخولاً الجنةَ ، وحالُه تمثِّل حالَ النفس البشرية التي تطمح دائماً إلىٰ حالٍ أحسنَ من الحال التي هي عليها ، فإذا بلغتْ ما تَصْبُو إليه ، طَمَحَتْ إلىٰ أعلىٰ ، ثم ، وثم ، وهٰكذا .

وهي حالٌ محمودة ما دام هٰذا الطموحُ في الخير ، أما في أمور الدنيا ونحوها ـ بَلْهَ الشرَّ والمعاصي ـ فلا ينبغي الاسترسالُ معه .

قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظُروا إلىٰ من هو أسفلَ منكم ، ولا تنظُروا إلىٰ من هو فوقَكم ، فهو أجدرُ أن لا تَزْدروا نعمة الله عليكم » رواه مسلم ٤ : ٢٢٧٥ (٩) ، وبنحوه رواه البخاري ١١ : ٣٢٢ (٦٤٩٠) ، كلاهما عن أبي هريرة .

وروى الترمذيُّ (٢٥١٢) وحسَّنه : « خَصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً ، ومن لم تكونا فيه لم يَكتُبه الله شاكراً ولا صابراً : من نَظَر في دينه إلىٰ مَن هو فوقَه فاقتدىٰ به ، ونَظَر في دنياه إلىٰ مَن هو دونه فحمِد الله علىٰ ما فضَّله به عليه : كتبه الله شاكراً صابراً ، ومَن نَظَر في دينه إلىٰ من هو دونَه ، ونَظَر في دنياه إلىٰ مَن هو فوقَه فأَسِفَ علىٰ ما فاته منه : لم يكتبه الله شاكراً

ولا صابراً » ، وكأن الترمذي حسَّنه لشاهده الذي ذكرته من الصحيحين ، فإنه ساق لفظ مسلم عَقِبَه .

تكرَّر من هٰذا الإنسان هٰذا التطلُّع والطُّموح ثلاثَ مرات ، وهو في كلِّ مرة يدعوه ويَرجُوه ، ويشكُو إليه ضُرَّه ، ويسألُه خيره ، ويَعِدُ ويُوثِّق عهده بالأَيمان ، ثم ينقضُ ذٰلك كلَّه ، والله يذكِّره بعهوده ومواثيقه ، وهو يعلَم سبحانه وتعالىٰ أن هٰذا العبد المسكينَ سوف يتدرَّج في مطالبه ، لأنه تعالىٰ هو يدرِّجُه في مِنَحه ، كما جاء ذٰلك في رواية أنس ، عن ابن مسعود رضي الله عنهما في « المسند » ١ : ٣٩٢ : أنه تُرفع له شجرة فينظر إليها ، ثم ترفع له أخرىٰ أحسن منها ، ثم ترفع له ثالثة عند باب الجنة ، وهٰكذا .

ومن هٰذه المواقفِ الثلاثةِ نستفيد : أن الإنسانَ إذا فُتح له بابُ الدعاء فليعلَمْ أنه قد فتح له باب الإجابة في عالم الغيب ، فليدعُ العبدُ ، ولْيكثِرْ من الدعاء ، ولْيَستكثِرْ من الطَّلِبات ، ولا يَستعظمْ على الله عز وجل شيئاً ، فإن كلَّ شيءٍ موجودٌ في خزائن الله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ الحجر : ٢١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سأل أحدُكم فَلْيُكْثِرْ ، فإنه يسأل ربَّه » ، رواه ابن حبان (٨٨٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وهٰذا العبدُ لم ييأسْ من السؤال مع أن حالَه لا تُسعفُه على السؤال ، لما يعلَمه من سوءِ ماضيه مع الله في الحياة الدنيا ، ولم يَستحِ أن ينقضَ مواثيقَه ، طمعاً منه في مسامحة الله له وعفوه .

ونستفيد أيضاً أدباً من آداب الدعاء والمسألة : هو إظهار التضرُّر أمام الله عز وجل ، فإنه وسيلةٌ من وسائل إجابة الدعاء : « أي ربِّ اصرفْ وجهي

عن النار ، فإنه قد قَشَبني ريحها ، وأحرقني ذَكاؤها » ، فإن هٰذا يستنزلُ رحمةَ الله عليك وشفقته بك ، جل جلاله .

ومنه أيضاً : إظهارُ الذُّلِّ بين يدي الله والافتقارِ إليه : « أيْ ربِّ لا أكونُ أَشْقَىٰ خلقِك » .

ونستفيد أيضاً : أن لا ييأسَ الداعي من الدعاء فينصرفَ عنه إذا لم يُجَبْ في المرة الأولىٰ ، أو الثانية ، أو الثالثة ! انظر إليه : « فيدعُو اللهَ ما شاء الله أن يدعوَه . . . ، فلا يزالُ يدعو الله » .

وبعد هٰذا جاءته النعمة العظمىٰ ، والمِنَّة الكبرى : « ادخُلِ الجنة » ، وزاده فضلاً علىٰ فضل : « تَمَنَّهْ » ! .

فيسأل المسكينُ الضعيفُ ربَّه العظيمَ علىٰ مقدار عقله وما وَقَع تحتَ سمعه وبصرِه ، وكأنه لم يعلم شيئاً عن عِظَم الجنة ! « حتىٰ إن الله لَيذكِّره من كذا وكذا » ، أي : سَلْ من كذا وكذا ، ولا تستكثر عليَّ شيئاً ، ثم ، وثم ، ويُمهِلُه الله عز وجل في أمانيه قدر ثلاثة أيام من أيام الدنيا ، كما جاء ذٰلك في رواية الإمام أحمد ٣ : ٧٠ ، ٧٤ : « حتىٰ إذا انقطعتْ به الأمانيُّ » ولم يَبْقَ له عند الله سؤالٌ ورغبة يُسمِّيها « قال الله تعالىٰ : ذٰلك لك ومثلُه معه » ، هٰذه رواية أبي هريرة رضي الله عنه .

واستدرك عليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن الذي حَفِظَه هو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ذٰلك له وعَشَرة أمثاله معه » .

فإذا سمع هٰذا العبد المرحومُ ذٰلك العطاءَ المدهشَ ، لم يتحمَّلْ قلبُه وعقلُه ، فراح يخاطب مولاه الكريم بما لا يليق ـ والله يَعذُره ويَحتمل منه ذٰلك ـ فيقول : يا ربِّ « أَتَسْخَرُ بي وأنت الملِكُ » العظيم الجبَّار ! فقال الله عز وجل له : « إني لا أَستهزئُ منك ، ولٰكني علىٰ ما أشاء قادر » . سبحانك اللهم وبحمدك .

ثم إن من تمام دَهْشَة هـٰذا العبد أنه حينما دخل الجنة جاءتْه زوجتاه من الحور العين ، وقالتا له : « الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك » فقال : « ما أُعْطِيَ أحدٌ مثلَ ما أُعْطِيتُ » ! وهو صادقٌ في دعواه ، لأنه ما رأىٰ ما رآه غيره ، وهـٰذا لسانُ أهل الجنة جميعِهم وجوابُهم ، وسيأتي الحديث ـ برقم (١٠٠) ـ الذي يقول كلٌّ واحد منهم لله سبحانه : « ما لنا لا نَرضىٰ وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك ؟ » فكلٌّ واحد يقولُ هـٰذا عن نفسه معتقِداً إياه .

نسأل الله المنعِم المتفضِّل أن يجعلَنا من عباده المكرَمين في الدنيا والآخرة بمحضِ جودِه وفضله وإحسانه .

هـٰذا ، وإن النظر في أحاديث الباب ورواياتها المتعددة يحتِّم القول بتعدُّد القصة ، وأن بعضَها في حقِّ آخرِ داخلِ الجنةَ ، قادمٍ من أرض المحشر ، إلى الصراط ، إلى الجنة ، وبعضَها في حقِّ آخرِ خارجٍ من النار داخلِ الجنة ، كما ذهب إليه جماعة من أهل العلم . والله أعلم .

❋ ❋ ❋

من أحاديث الشّفاعة

٩٢ ـ عن الشَّعْبِيِّ : أنه سمعَ المغيرةَ بنَ شُعْبةَ على المِنبرِ ، يَرْفَعُ الحديثَ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سألَ موسىٰ ربَّه : ما أَدْنَىٰ أهلِ الجنةِ مَنزلةً ؟ قال : هو رجلٌ يَجيءُ بعدَ ما أُدْخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، فيُقَالُ له : أُدْخُلِ الجنَّةَ ، فيقولُ : أيْ ربِّ كيف وقد نَزَلَ الناسُ منازلَهم وأَخَذوا أَخَذاتِهمْ ؟ فيقالُ له : أَتَرضَىٰ أن يكونَ لكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ من مُلوكِ الدنيا ؟ فيقولُ : رَضيتُ ربِّ ، فيقول : لكَ ذٰلكَ ، ومثلُه ، ومثلُه ، ومثلُه ، ومثلُه ، فقال في الخامسة : رَضيتُ ربِّ ، فيقول : هـٰذا لك وعَشَرةُ أمثالِه ، ولكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُك وَلَذَّتْ عينُك ، فيقول : رضيتُ ربِّ .

قال ـ موسىٰ ـ : ربِّ فأَعلاهُمْ منزلةً ؟ قال : أُولـٰئك الذين أَرَدتُ ، غَرَسْتُ كَرامتَهمْ بيدي ، وخَتَمْتُ عليها ، فلم تَرَ عينٌ ، ولم تَسْمَعْ أُذُنٌ ، ولم يَخْطُر علىٰ قلبِ بشرٍ » .

قال : ومِصْداقُه في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة : ١٧ .

٩٢ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الإيمان ـ باب أدنىٰ أهل الجنة منزلةً فيها ١ : ١٧٦ (٣١٢) .

غريبه : أَخَذاتهم : منازلَهم التي أعدَّها الله لهم وأكرمهم بها .

الذين أردت : الذين اصطفيت .

معناه : هٰذا الكَرَمُ الإلٰهيُّ العظيمُ جاءنا العلمُ به بسبب سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، إذْ سأل ربَّه عن أدنىٰ أهل الجنةِ منزلةً فيها ، وعن أعلاهم منزلةً فيها .

فأما أدناهم منزلةً فيها : فرجلٌ أُمِرَ بدخول الجنة ، فلم يَرَ مكاناً له فيها ، حسبما رأىٰ وخُيِّل إليه ، كما جاء في رواية ابن مسعود : « . . . يقول الله تبارك وتعالىٰ له : اذهبْ فادخُل الجنة ، فيأتيها فيخيَّل إليه أنها مَلأَىٰ ، فيرجع . . . » ، ويتكرر منه ذٰلك مرتين ، ثم يقول الله تعالىٰ له : « اذهبْ فادخلِ الجنةَ ، فإن لكَ مثلَ الدنيا وعَشَرَةَ أمثالها ، أو : إن لك عشرةَ أمثال الدنيا » .

والفرق بين هٰذين اللفظين يسير : مثلُ الدنيا ، وعشرة أمثالها ، فيكون مجموعُ حظِّه من الجنة أحَدَ عَشَر مثلاً للدنيا ، أو : لك عشرة أمثال الدنيا ، فهي عشرة أمثال فقط ، لا أحَدَ عَشَر .

لٰكن الفرق بينهما وبين الحديث المشروح كبير ، فلفظُه بعد أنْ وَعَدَه ربُّه خمس مرات من أمثال الدنيا ، قال : « هٰذا لك » أي : الأمثال الخمسة « وعشرة أمثاله » ، فإذا أعدنا الضمير على الأمثال الخمسة كان حاصِلُ ذٰلك الخمسةَ الأمثالِ معطوفاً عليها عشرةُ أمثالها ، فالجميع : خمسة وخمسون مِثلاً ! .

ولا يُسْتكثَرَ علىٰ فضلِ الله وجُودِه شيءٌ ، لٰكن المرادُ تحقيقُ فهم الرواية .

وهل يَقْرُب من جود الله جودٌ ! وهل يليقُ بعاقلٍ أن يَتَقَاعس عن طلب الجنة ، وعن الجِدِّ في طلبها ؟ اللهم وفِّقنا لذٰلك يا أكرم الأكرمين .

وقد جاءتْ رواية ابن مسعود هـٰذه صريحةً في أن هـٰذا فضل الله علىٰ آخر أهل النار خروجاً منها ، وهو آخر أهل الجنة دخولاً إياها .

ويزيده الله من فضله ، فيقولُ له : « **لك ما اشتهت نفسُك ، ولَذَّت عينك** » : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ الزخرف : ٧١ ، ولذٰلك يقولُ هـٰذا الإنسان : « ما أُعطِيَ أحدٌ مثلَ ما أُعطيتُ !! » ، كما في « صحيح » مسلم (٣١١) .

والمرادُ : الأنفسُ والأعينُ الطيِّبةُ التي قالتْ لها ملائكةُ الرحمـٰن حين دخولها الجنةَ : ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ الزمر : ٧٣ ، طابُوا فلا يَشْتَهون إلا طيباً يَتَلاءَم مع طِيب الجنةِ دارِ الكرامةِ ، فصارتْ أنفساً وأعيناً جِنانية لا أرضيَّة دنيويَّة .

أما أعلىٰ أهلِ الجنةِ منزلةً : فكان جوابُ الله تعالىٰ لكليمه موسىٰ عليه الصلاة والسلام مجملاً لا تفصيل فيه ، سوىٰ أنه دلَّه علىٰ رِفعة مكانتهم لديه : « **أولـٰئك الذين أردتُ ، غَرَستُ كرامتهم بيدي** » .

ففرقٌ كبير بين من يُوصَف إكرامهم ، وبين مَن لا يوصف ، لِعظَمه .

وفرق كبير بين من يقول الله له : « **لك ما اشتهت نفسك ، ولذَّت عينك** » ، وبين من يقول في وصف كرامتهم : « **لم تَرَ عينٌ ، ولم تسمعْ أُذُن ، ولم يخطُر علىٰ قلبِ بشر** » .

وليس المرادُ : أن كرامتهم تخطُر علىٰ قلبِ غيرِ البشر ، كالملائكة ، لا ، بل المرادُ عموم النفي ، من بشر ، أو مَلَك ، أو نبي مرسَل ، كما جاء التصريح بهـٰذا في رواية ابن مسعود عند ابن أبي حاتم ، ولفظُ الشاهد منها : « ولا يَعلَمه ملكٌ مقرَّب ، ولا نبيٌّ مرسَل » ، كما ذكره الحافظ في « الفتح » ٨ : ٥١٦ ، وهو علىٰ شرطه في الصحة أو الحسن .

هٰذا ، وقد جَعَل الحافظ ابن حجر رحمه الله ـ في الموضع المذكور ـ هٰذا الحديثَ سبباً للحديث الذي قبله . والله أعلم .

والله سبحانه وتعالىٰ هو المسؤولُ والمرجوُّ أن يُكرمَنا بما هو أهلُه دون سابقةِ حسابٍ أو عذابٍ أو عتاب ، إنه هو أهلُ التقوىٰ وأهل المغفرة .

❋ ❋ ❋

٩٣ ـ عن مَعْبَد بن هلال العَنَزِيّ قال : انطلقْنا إلىٰ أنس بن مالك وتَشَفَّعْنا بثابتٍ فانتهيْنا إليه وهو يُصلِّي الضُّحىٰ ، فاستأذنَ لنا ثابتٌ فدخَلْنا عليه ، وأجلسَ ثابتاً معه علىٰ سريره ، فقال له : يا أبا حمزة إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدِّثهم حديثَ الشفاعة ، قال :

حدَّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يومُ القيامةِ مَاجَ الناسُ بعضُهم إلىٰ بعض ، فيأتونَ آدمَ فيقولون له : اشفعْ لذُرِّيتك ، فيقول : لستُ لها ، ولٰكنْ عليكم بإبراهيمَ عليه السلام ، فإنه خليلُ الله .

فيأتون إبراهيمَ ، فيقولُ : لستُ لها ، ولٰكنْ عليكم بموسىٰ عليه السلام ، فإنه كليمُ الله .

فيؤْتَىٰ موسىٰ فيقولُ : لستُ لها ، ولٰكنْ عليكم بعيسىٰ عليه السلام ، فإنه روحُ الله وكلمتُه .

فيؤتَىٰ عيسىٰ فيقولُ : لستُ لها ، ولٰكنْ عليكم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم .

فأُوتَىٰ ، فأقولُ : أنا لها ، فأَنطلِقُ فأَستأذِن علىٰ ربي ، فيؤْذَنُ لي ، فأَقومُ بين يديه فأَحْمَدُه بمحامدَ لا أَقدِر عليه الآن ، يُلْهِمُنِيه الله ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال لي :

يا محمدُ ارفَعْ رأسَك ، وقلْ يُسمعْ لك ، وسَلْ تُعْطَهْ ، واشفعْ تُشَفَّعْ .

فأقول : ربِّ أمتي أمتي .

فيقالُ : انْطَلِقْ ، فمن كان في قلبه مثقالُ حبَّةٍ من بُرَّةٍ ـ أو شعيرةٍ ـ من إيمانٍ فأَخْرِجْه منها ، فأَنْطَلِقُ فأفْعَلُ .

ثم أَرْجِعُ إلىٰ ربي فأَحْمَدُه بمحامدَ ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال لي :

يا محمدُ ارفعْ رأسَك ، وقلْ يُسمعْ لك ، وسَلْ تُعْطَهْ ، واشفعْ تُشفَّعْ .

فأقول : يا ربِّ أمتي أمتي .

فيقالُ لي : انطلقْ ، فمن كان في قلبه مِثقالُ حبَّةٍ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمان فأَخْرِجْه منها .

فأَنْطَلِقُ فأفعلُ ، ثم أرجِعُ إلىٰ ربي فأحمَدُه بتلك المحامِد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال لي :

يا محمدُ ارفعْ رأسَك ، وقلْ يُسمعْ لك ، وسَلْ تُعْطَهْ ، واشفعْ تُشفَّعْ .

فأقول : يا ربِّ أمتي أمتي .

فيقالُ لي : انطلقْ ، فمن كان في قلبه أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِن مثقالِ حبةٍ مِن خردلٍ مِن إيمانٍ فأَخْرِجْه من النار .

فأنطلِقُ فأَفعلُ » . هـٰذا حديثُ أنسٍ الذي أنبأَنا به .

فخرجنا من عنده ، فلما كنَّا بظَهْر الجَبَّان قلنا : لو مِلنا إلى الحسن فسلَّمنا عليه وهو مُسْتَخْفٍ في دار أبي خليفة ، قال : فدخلْنا عليه فسلَّمْنا عليه فقلنا : يا أبا سعيدٍ جئنا من عند أخيك أبي حمزة ، فلم نسمعْ مثلَ حديثٍ حدَثَناه في الشفاعة ! .

قال : هِيهِ ، فَحدَّثْناه الحديث .

فقال : هيه ، قلنا : ما زادَنا .

قال : قد حدَّثَنا به منذُ عشرينَ سنة وهو يومئذٍ جميعٌ ، ولقد تَرَكَ شيئاً ، ما أَدري أَنَسِيَ الشيخُ أو كَرِه أن يُحَدِّثَكم فَتَتَّكلوا .

قلنا له : حدِّثْنا ، فضحك وقال : خُلِقَ الإنسان من عَجَل ، ما ذكرتُ لكم هـٰذا إلا وأنا أُريدُ أن أُحدِّثكُموه :

« ثم أرجعُ إلىٰ ربي في الرابعة فأَحْمدُه بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيُقال لي : يا محمدُ ارفعْ رأسَك ، وقلْ يُسمعْ لك ، وسَلْ تُعْطَهْ ، واشفعْ تُشفَّعْ .

فأقول : يا ربِّ ائذنْ لي فيمن قال : لا إلـٰه إلا الله ! .

قال : ليس ذاكَ لكَ ـ أو قال : ليس ذاكَ إليك ـ ، ولـٰكنْ

وعزَّتي وكبْريائي وعَظَمتي وجِبْرِيائي لأُخْرِجنَّ من قال : لا إلـٰه إلا الله » .

قال : فأشهدُ على الحسن أنه حدَّثنا به أنه سمع أنس بن مالك ، أراه قال : قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميعٌ .

٩٣ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب التوحيد ـ باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء ١٣ : ٤٧٣ (٧٥١٠) ، ومسلم : كتاب الإيمان ـ باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة ١ : ١٨٢ (٣٢٦) ، واللفظ له .

غريبه : ماج الناس : اختلطوا واضطربت أمورهم .

بُرَّة : واحدة البُرِّ ، وهي الحبة الواحدة من القمح .

الجَبَّان : الصحراء ، أو المقبرة ، وظهرها : أعلاها .

هِيهِ : أي قولوا ، اذكروا الحديث ، وهاتوا ما تريدون قولَه .

وقوله : هِيهِ في المرة الثانية يريد بها : زيدوا مِن حديثكم ، وأَتِموه ، وكان الحسن البصري مختفياً من الحجاج الثقفي .

وهو يومئذ جميع : أي : « مجتمعُ العقل ، وهو إشارة إلىٰ أنه كان حينئذ لم يدخُل في الكبَر الذي هو مظِنَّةُ تفرُّقِ الذهن ، وحدوثِ اختلاط الحفظ » ، كما في « فتح الباري » ، وأصلُه للنووي ٣ : ٦٥ .

معناه : تَوَاتَرَ حديث الشفاعة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فرواه عدد جَمٌّ كبير ، وبألفاظ متعدِّدة ، ما بين اختصار وتطويل ، وهـٰذا واحد منها ، وهـٰذا لفظٌ من ألفاظه عن أنس رضي الله عنه ، وجديرٌ به أن تجمعَ رواياتُه

وألفاظه ويُشْرَحَ باستيفاء[١] ، فإنه من أعظم الأحاديث الشريفة التي تُظْهِر جليّاً عظيمَ مقامِ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على سائر الأنبياء والمرسلين ، بَلْهَ غيرَهم من الناس والملائكة والمقرَّبين ! .

وأتكلَّم عليه بإيجاز حسبَ تسلسُل ألفاظِه ومواقفِه هنا .

١ ـ أولُ ما في هٰذا الحديث : أدبٌ من الآداب مع ذوي الفضل والمقام الكريم ، هو الدخولُ عليهم صحبةَ رجلٍ مقرَّبٍ لديهم .

يقول راوي الحديث معبدُ بن هلال : انطلقنا . . . وتَشَفَّعْنا بثابت ، ولفظُه عند البخاري : « اجتمعْنا ناسٌ من أهل البصرة . . . وذَهَبْنا معنا بثابتٍ البُناني » ، وثابتٌ معروفٌ بالصحبةِ لأنسٍ ، صحبَه أمداً طويلاً ، قال ابن حبان في « الثقات » ٤ : ٨٩ : « صحب أنساً أربعين سنةً ! » ، فَحُقَّ لمثله أن يُتَشفَّع به عند أنس ، وحُقَّ لأنس أن يُكرِمَه ويُجلِسَه بجانبه على سريره .

٢ ـ وفيه : إظهارُ مزيَّة الشفيعِ عند المتشفَّع به ، وربما لو دخل ثابتٌ وحده لَمَا كان من أنس رضي الله عنهما ما كان منه أمامهم ، لِمَا بينهما من الأُنس وعدم الكُلْفة ، لٰكنه أراد إظهارَ كرامته عنده أمامهم ، فهٰذا أدبٌ ثانٍ .

٣ ـ وقولُ ثابت لأنس : « يسألونك أن تحدِّثهم حديث الشفاعة » : جاءت رواية البخاري مصرِّحة بطلبهم ذٰلك من ثابت ، ففيها : « وذهبْنا معنا بثابت البُنَاني إليه يَسأله لنا عن حديث الشفاعة » ، وفيه : مزيدُ أدبٍ من الصغير مع الكبير : أن لا يُبَاشِر بنفسه الطلبَ منه ، بل يدخُلُ على طلبه بمن له عنده اختصاصٌ وقربٌ ومكانة ، وهٰذا أدبٌ ثالث .

---

(١) انظر « فتح الباري » ١١ : ٤٣٢ ـ ٤٤١ (٦٥٦٥) ، و« شرح المواهب » للزرقاني ٨ : ٣٧٠ ـ ٣٨٢ . وما لم أُخرِّجه فهو من « فتح الباري » ، وهو على مقتضى شرطه : صحيح أو حسن ، حتى إنه عمدة الزرقاني في شرحه .

٤ ـ معلومٌ من الروايات الأخرىٰ لحديث الشفاعة : أن الذي يُحرِّك الناسَ لطلبهم الشفاعةَ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو شدةُ الموقف عليهم ، وطولُه ، وأهوالُه ، فكان من الطبيعي أن يفكروا فيما يُنْقِذهم ، ففكَّروا ، فرأوا أن التوسُّل إلى الله عز وجل بصفوته من خلقه خيرُ طريقٍ يسلُكُونها .

ثم رأوا أن الأَولىٰ بذٰلك هو أبوهم ، فلذٰلك قالوا : له : « اشفعْ لذريتك » ، ورأوا فيه من المزايا الأخرىٰ ما ذَكَروه في روايةٍ أخرىٰ : « أنت آدمُ أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونَفَخ فيك من روحه ، وأَمَر الملائكةَ فسجدوا لك ، اشفعْ لنا عند ربك ، حتىٰ يُريحنا من مكاننا هٰذا » .

وفي هٰذا أدب آخر ، هو تقديم الثناء على المرجوِّ منه المتشفَّع به ، ثم ذِكْرُ الأمر المرجوِّ .

٥ ـ وفي بعض روايات البخاري : « يجتمع المؤمنون فيقولون » ، وفي غيرها : « يجتمع الناس » ، وفي هٰذه الرواية : « ماج الناس » ، ولا تعارض ، فالذي يجتمع : هم جميع الناس ، والذي يطلب الشفاعة : هم المؤمنون ، كما في « الفتح » ١١ : ٤٣٢ ، واستظهر عليٌّ القاري في « المرقاة » ١٠ : ٢٧٧ أن الذين يأتون آدم فمن بعده : « هم رؤساء أهل المحشر لا جميع أهل الموقف » . والله أعلم .

٦ ـ وفي جوابِ آدمَ عليه الصلاة والسلام لهم : « لستُ لها » : نُصْحٌ لهم ، وبيانٌ للحقيقة ، والأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم هم دائماً وأبداً نَصَحَةٌ للأمم جميعهم ، في الدنيا والآخرة ، والآخرةُ هي الحاقَّة ، يكون فيها بيان للحقيقة .

ونقل القاري في « المرقاة » ١٠ : ٢٨٢ عن الطيبي ١٠ : ١٩٥ رحمهما الله تعالىٰ ما مفاده أن اللام في قوله : « لها » لام الاختصاص ، فيكون المعنىٰ :

لستُ مختصاً بها ، ولا هي لي ، أي : بل هي لغيري ، وفيه إيذانٌ بأنه هو وغيره من الأنبياء المذكورين يَعرفون أنها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وانظر « شرح المرقاة » .

ثم دَلَّهم وأرشدهم أن يذهبوا إلىٰ إبراهيم خليلِ الرحمـٰن وشيخِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعلَّل لِمَ أرشدهم إليه ، وذٰلك بقوله : « **فإنه خليل الله** » .

٧ ـ فيأتون إبراهيم ، فيقول لهم كما قال آدم ، ويُرشدهم إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ويُبيِّن لهم لِمَ أرشدهم إليه ، لأنه « **كليم الله** » .

٨ ـ فيأتون موسىٰ ، فيقول لهم كما قال آدم وإبراهيم من قبله ، ويرشدهم إلىٰ عيسىٰ ، لأنه « **روح الله وكلمتُه** » .

وكلُّ واحد من هـٰؤلاء الثلاثة يَعتذِر ويبيِّن لهم سبب اعتذاره ، وهو أمر أو أمور فَرَطَتْ منه لا تَليق بمقامه العظيم ، واختُصِر ذكرها هنا في هـٰذه الرواية ، وكذٰلك أَختصرُ الحديثَ عنها ، لـٰكني أقول : إنها لا تؤثِّر علىٰ عصمتهم ، ولا علىٰ مقامهم الكريم .

كما اختَصَرت الروايةُ هـٰذه ذِكْرَ نوح عليه الصلاة والسلام ، وهو مذكور في كثير من الروايات الأخرى الصحيحة .

٩ ـ فيأتون عيسىٰ عليه الصلاة والسلام فيعتذرُ ويقول : « **لستُ لها** » ، ولا يذكر هنا سبباً وعذراً يؤخِّره عن الشفاعة ، ولـٰكنه يقول لهم : « **عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم** » ، وبيَّن في روايات أخرىٰ لِمَ أمرهم بالذهاب إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « فقد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر » ، وذكر الحافظ في « الفتح » ١١ : ٤٣٥ روايةَ ثابت البناني عند سعيد بن منصور : « خاتم النبيين قد حَضَرَ اليوم ، أرأيتم لو كان متاعٌ في

وعاء قد خُتِم عليه ، أكان يُقْدَر علىٰ ما في الوعاء حتىٰ يُفَضَّ الخاتم ؟ » .

١٠ ـ والظاهر : أن كلَّ نبي يأتيه الناس ، يمشي معهم إلى النبي الذي يُرشدهم إليه ، فآدمُ يمشي معهم إلىٰ نوح ، ونوحٌ وآدمُ والناسُ يمشون إلىٰ إبراهيم ، وهٰكذا .

يدلُّ علىٰ ذٰلك حديثُ أنسٍ في الشفاعة ، الذي رواه أحمد ٣ : ١٧٨ : « إني لقائم أنتظر أمتي تعبُر على الصراط إذ جاءني عيسىٰ فقال : هٰذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يَشتكون ـ أو قال : يجتمعون ـ إليك ، ويَدْعون الله عز وجل أن يفرِّق جمعَ الأمم إلىٰ حيثُ يشاء الله ؛ لغَمِّ ما ، هم فيه » ، ذكره الهيثمي في المجمع ١٠ : ٣٧٣ ـ ٣٧٤ وقال : رجاله رجال الصحيح .

ويدلُّ علىٰ ذٰلك حديث آخر ، رواه مسلم في « صحيحه »[(١)] ١ : ٥٦١ (٢٧٣) عن أُبَي بن كعب في حديثه في الأحرف السبعة ، وضَرْبِ النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ صدره ، وفي آخره قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفِرْ لأمتي ، اللهم اغفِر لأمتي ، وأخَّرت الثالثة ليوم يَرغَب إليَّ الخلقُ كلُّهم حتىٰ إبراهيم صلى الله عليه وسلم » ، وهو في « المسند » أيضاً ٥ : ١٢٧ ، ١٢٩ .

فالناسُ ومعهم الأنبياء يرجِعون إلىٰ رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، يَرجُونه الشفاعة لهم عند الله عز وجل ، وأن يفرِّق هٰذا الجمع الحاشدَ العظيمَ إلىٰ جنة أو نار ، فأَعظِمْ به من مَكْرُمة ! .

١١ ـ قال صلى الله عليه وسلم : « فأُوتَىٰ ، فأقولُ : أنا لها ، فأَنطَلق . . . » ،

---

(١) وعزاه الحافظ ابن حجر في « الفتح » ١١ : ٤٣٦ (٦٥٦٥) إلى الترمذي ، وهو غريب منه ، فما كان في « صحيح » مسلم لا يُقتصر علىٰ عزوه إلى الترمذي ، علىٰ أني لم أره في الترمذي أيضاً .

وهٰذا الموقف وحده يكفي في إظهارِ عِظَم الفارق بين مقامه صلى الله عليه وسلم ، وبين مقامِ أيِّ نبيٍّ آخر ، نبيٌّ يقول : لستُ لها ، وأنا وراء ، ونفسي نفسي ، ونبيٌّ يقول : أنا لها أنا لها ، ويقول : فأَنطلِق ، **والانطلاقُ** : الذهابُ بسرعة ، ومنه : « **الطَّلَق** : جَرْيُ الفَرَسِ لا تَحْتَبِسُ إلى الغاية ، **وتَطَلَّق الظَّبْي** : مرَّ لا يَلْوِي علىٰ شيء »[١] ومنه قولهم : **طَلْق اللسان** : أي سريع النُّطْق .

وانطلاقُه صلى الله عليه وسلم هنا واضحٌ معناه ومَغْزَاه ، وهو ناشئٌ عن علمه برفعة مكانته عند ربه ، وأنه هو الموعود بهٰذا المقام العظيم .

وللعلماء كلام طويل في بيان : لِمَ تقدم صلى الله عليه وسلم وأحجم غيره ؟ ، ومما قيل : ما حكاه الإمام ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ في « بدائع الفوائد » ٤ : ٢١٦ قال : « قال أبو بكر عبد العزيز غلام الخلال : سمعت بعض شيوخنا يقول : إنما امتنع سائر الأنبياء من الشفاعة لأنهم عوتبوا قبل الغفران ، فأحجمهم عن الهجوم عليه ، ونبينا عليه الصلاة والسلام غُفِرَ له قبل العتاب » .

وفي حديث الشفاعة قول سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للذين جاؤوه ليشفع للناس : « لست هناكم ، ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

١٢ ـ ولا ريب أننا إذا كنا نحن نعلم هٰذا في حقِّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فَلأَنْ يَعْلمه إخوانُه من الأنبياء والمرسلين من بابِ أولىٰ ، فلمَ لمْ يُرشِدوا الخلائقَ إليه من أول الأمر ؟ .

وسؤال آخر : إذا كنا نعلم أن هٰذا المقامَ خاصٌّ بنبينا عليه أفضل الصلاة

---

(١) من « المصباح المنير » .

والسلام ، فلمَ لمْ ننطلقْ إليه من أول أهوال القيامة ، أو : لمَ لمْ ننطلق أولَ نبيّ ؟ .

والجواب عن السؤال الأول : أن الله عز وجل يريدُ إظهارَ فَضْل محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ سائر مخلوقاته ، وإظهارُ الفضيلة يتمُّ ويزدادُ ظهوراً كلَّما اشتدَّت الحاجة ، واستَعْصَت الأمور ، وزادت الكُرُبات ، وأَحْكَمَت الخطوبُ أبوابها ، أما مَن جاءتْه المواهبُ والمِنَح عاجلاً ودون تَعَب : فلن يجدَ لها لذة :

ومن أَخَذَ البلادَ بغير حرب يَهونُ عليه تسليم البلادِ

ومن اشتدَّ عليه الخوف وَجَدَ لذةَ الأمن ، ومن أَخَذَت الهمومُ بخِناقه ـ نسأل الله العافية ـ شَعَرَ بلذةٍ عظيمة عند الفَرَج والخَلَاص منها .

ثم رأيت الإمام النووي قال في « شرح مسلم » ٣ : ٥٦ : « والحكمة في أن الله تعالىٰ ألهمهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله وسلامه عليهم في الابتداء ، ولم يُلهَموا سؤال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : هي ـ والله أعلم ـ إظهار فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم لو سألوه ابتداء لكان يحتمل أن غيره يقدر علىٰ هٰذا ويحصِّله ، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالىٰ وأصفيائه فامتنعوا ، ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم الإدلال والأنس .

وفيه : تفضيله صلى الله عليه وسلم علىٰ جميع المخلوقين من الرسل والآدميين ، فإن هٰذا الأمر العظيم ـ وهي الشفاعة العظمىٰ ـ لا يقدر على الإقدام عليها غيره صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين » .

وقد لخصه الإمام التقي السبكي في « شفاء السَّقام » ص ١٩٥ ، وانظره لزاماً .

وعلىٰ يدِ مَنْ يُظْهر الله تعالىٰ فضيلةَ محمد صلى الله عليه وسلم في خِضَمّ تلك الشدائد ؟ علىٰ يد خاصةِ أنبيائه ورسله ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم : آدمَ أبي البشر والأنبياء ، ونوحٍ الأب الثاني ، وإبراهيمَ الخليلِ ، وموسى الكليم ، وعيسىٰ روح الله وكلمته !! .

أما الجواب عن السؤال الثاني : فقد قال ابن حجر رحمه الله في « الفتح » ١١ : ٤٤١ في فوائد الحديث : إن الناس « يُغَطَّىٰ عنهم بعضُ ما علموه في الدنيا ، لأن في السائلين مَن سَمع هٰذا الحديث ، ومع ذٰلك فلا يَسْتَحضِرُ أحدٌ منهم أن ذٰلك المقام يختصُّ به نبينا صلى الله عليه وسلم ، إذْ لو استَحْضَروا ذٰلك لسألوه من أول وَهْلة ، ولَمَا احتاجوا إلى التردُّد من نبي إلىٰ نبي ، ولعل الله تعالىٰ أنساهم ذٰلك للحكمة التي تترتَّب عليه ، من إظهار فَضْل نبينا صلى الله عليه وسلم » .

وتأمَّلْ هٰذا : إن الله تعالىٰ رؤوفٌ رحيم بعباده ، وقد ادَّخر من رحمته تسعةً وتسعين جزءاً ليوم القيامة ، وَوَضَع بين مخلوقاته ـ في عالم الدنيا علىٰ سَعَته ـ جزءاً واحداً ، ومع ذٰلك فإنه تَرَك الناسَ يتنقلون بين الأنبياء ـ وسط زحام المحشر ـ ، ولم يُلْهِمْهم أن يذهبوا إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما أنه لم يَأْذَن لأنبيائه أن يَدُلُّوهم عليه أولاً .

كل ذٰلك لماذا ؟ لِيُظْهرَ مزيةَ محمد صلى الله عليه وسلم وفضيلتَه علىٰ سائر الأنبياء ، وليبلُغَ العبادُ كلَّ مبلغٍ من اللذة والسرور بشفاعته بعد عَنَاء طويل . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلىٰ سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

١٣ ـ وبعد ذٰلك يقوم صلى الله عليه وسلم في مقام الحمد لله ، والثناء عليه بمحامدَ يفتحها الله عليه ، ويتجلَّىٰ بها عليه ، لم يكن يَعرِفُها صلى الله عليه وسلم من قبلُ ، إنما هي من إلهامات الوقت وفُيوضاته ، ثم يخرُّ

ساجداً لله ، لوقتٍ طويل ، جاء في بعض الروايات : « فيخرُّ ساجداً قَدْر جُمُعة » .

وهـٰذا أدبٌ من قَبيل ما تقدَّم بيانه تحت الفِقرة الثالثة : تقديم الثناء والحمد والمدح بين يدي المرغوب فيه ، وها هنا حمدٌ وثناءٌ ، وسجود وتذلُّل .

١٤ - وتأتي الكرامة الإلـٰهية من الله عز وجل : « فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وقلْ يُسمعْ لك ، وسَلْ تُعْطَه ، واشفع تشفع » ، وهـٰذا هو الإذْن له بالشفاعة العامة للإراحة من طول الموقف ، وهـٰذا هو (المقامُ المحمودُ) .

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يا رب عجِّل على الخَلْق الحساب » كما في رواية البزار[1] .

ثم تكون له صلى الله عليه وسلم الشفاعة لأمته المحمدية ، وهي المذكورة في قوله :

« فأقولُ : ربِّ أمتي أمتي ، فيقال : انطلقْ فمن كان في قلبه مثقالُ حبَّةٍ من بُرَّة ـ أو شعيرة ـ من إيمانٍ فأخرِجْه منها » أي : من النار ، قال : « فأَنطلِقُ فأَفْعلُ » .

وكن علىٰ ذُكْر من معنى الانطلاق الذي تقدم تحت الفقرة الحادية عشرة .

ثم يتكرَّر منه الرجوعُ والمحامدُ والسجودُ ، فيؤمَرُ بإخراج مَن في قلبه مثقالُ حبَّة من خَرْدل من إيمان ، ثم بإخراج مَن في قلبه أدنىٰ ، أدنىٰ ، أدنىٰ من مثقالِ حبَّةٍ من خردل من إيمان .

فهـٰذه ثلاثُ مراتٍ بعد المرة الأولى التي تكونُ عامةً للناس جميعهم .

---

(١) « شرح الزرقاني على المواهب » ٨ : ٣٧٣ ، ٣٨٢ .

ويأتي صلى الله عليه وسلم للمرة الرابعة فيقومُ بواجب الحمد لله ، والسجود له ، ويَستأذِنُه بإخراج من قال : لا إلـه إلا الله ، لـكنْ قد سَبَقَ قَدَرُ الله تعالىٰ وفضلُه أنْ يَسْتَأْثِرَ هو سبحانه وتعالىٰ بذٰلك فقال : « ليس ذاك إليك ، ولـٰكنْ وعزَّتي وكبريائي ، وعَظَمتي وجِبْريائي لأُخْرِجَنَّ من قال : لا إلـه إلا الله » أي : ولم يعملْ خيراً قطُّ ، حتىٰ إنه لم يُكَرِرها مرةً ثانية في حياتِه ، لأن تكرارَه لها خير وعملٌ زائدٌ على المرة الأولى التي دَخَل بها قنطرة الإيمان .

قال النووي رحمه الله تعالىٰ : « معناه : لأَتَفَضَّلَنَّ عليهم بإخراجهم من غير شفاعة ، كما تقدم في الحديث السابق ـ عنده ٣ : ٣٢ ـ : « شَفَعَت الملائكة ، وشَفَع النبيون ، وشَفَع المؤمنون ، ولم يَبْقَ إلا أرحم الراحمين » سبحانه وتعالىٰ !! .

وهٰذا مظهر عظيم من مظاهر الجود الإلـٰهي حتىٰ علىٰ من فرَّط في جنب الله وقصَّر وأعرض ! .

وهٰذا أيضاً موقفٌ عظيم بل هو أعظمُ موقفٍ دالٍّ علىٰ عِظَم أثر « لا إلـه إلا الله » ! فإن الله سبحانه أحبَّ أن يكون هو الذي يَظْهرُ بمظهر الجود والتفضُّل علىٰ أهل : لا إلـه إلا الله .

روى ابن ماجه (٤٠٤٩) ، والحاكم ٤ : ٤٧٣ ، ٥٤٥ وصححه علىٰ شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً فيه : « . . . وتبقىٰ طوائف من الناس : الشيخُ الكبير والعجوز يقولون : أدركْنا آباءنا علىٰ هٰذه الكلمة : لا إلـه إلا الله ، فنحن نقولها » ، فقال صِلَة بن أَشْيَم ـ أحد أصحاب حذيفة ـ : ما تُغْني عنهم : لا إلـه إلا الله ، وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيام ولا نُسُك ولا صدقة !! فأعرض عنه حذيفة ،

فكرَّر عليه صلةُ بن أشيم ثلاثاً ، وحذيفة يُعرض عنه ، ثم قال له : يا صلةُ تُنجيهم من النار ، كررها ثلاثاً .

وأُقدِّرُ أن عددَ المشفوع فيهم في المرات الثلاثة الأولىٰ أكثرُ من عدد هٰؤلاء ، لٰكنْ لما كان هٰؤلاء من التقصير بِدَرَكَةٍ نازلة جدّاً ، لم يكنْ هناك من يتداركُهم ويشملُهم عفوه سوى الله ربِّ العالمين ، وأكرم الأكرمين ، ذي الجلال والإكرام ، والطَّوْل والإنعام .

وإني أسأل الله العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يُدخلَنا الجنة بغير حساب ، ووالدينا ومشايخنا ، وأهلينا وذوي الحقوق علينا ، إنه سميع مجيب ، كريم وهَّاب .

❋ ❋ ❋

٩٤ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله : أَخْرِجوا مِن النار مَن ذَكَرني يوماً ، أو خافني في مقام » .

٩٤ ـ تخريجه : رواه الترمذي في أبواب صفة جهنم ، باب ما جاء أن للنار نَفَسَين (٢٥٩٤) وقال : حسن غريب .

معناه : ما يزالُ سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخْبرنا عن كرم الله عز وجل علىٰ عباده ورحمتِه بهم ، وتتجلّىٰ هٰذه الرحمة في ذٰلك اليوم العَصيب الرهيب : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ عبس : ٣٤ ـ ٣٧ ، و﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ المعارج : ١١ ـ ١٤ .

ففي ذٰلك اليوم يُعامِلُ المولى الكريم عبادَه برحمته التي ادَّخرها عنده إلىٰ يوم القيامة ، وهي الرحمة العظيمة التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظمتها يوم القيامة بقوله : « إن لله مئةَ رحمة ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس ، والبهائم والهوامّ ، فَبِها يَتَعاطفون ، وبها يَتَراحمون ، وبها تَعطِف الوحش علىٰ ولدها ، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » ، رواه البخاري (٦٠٠٠) ، ومسلم ٤ : ٢١٠٨ (١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهٰذا لفظ مسلم .

فمن مظاهر هٰذه الرحمة العُظمى المدَّخَرة إلىٰ يوم القيامة : أن الله تعالىٰ يُشَفِّع بعضَ مخلوقاته الكرام ببعضِ مَنْ حقَّ عليه العذاب ـ سوى

المخلَّدين في النار ـ ثم يَشْفَع هو سبحانه وتعالىٰ ، فيُخْرِج أقواماً من النار .

فمنهم : هٰذان الصنفان المذكوران في هٰذا الحديث : « مَن ذَكَرَني يوماً ، أو خافني في مقام » .

أما الصنف الأول : فهو مَن ذكر الله في وقت من الأوقات ، وليس المرادُ يوماً بكامله ، ومعنىٰ ذكر الله يوماً ، أي : خَطَر بباله الله ربُّ العالمين ، فتذكَّره بعد أنْ كان غافلاً عنه ، فسبَّحه وحَمِده ووحَّده .

فالله سبحانه وتعالىٰ يَحْمَد له هٰذا الموقف ، فيذكُره له أشدَّ ما يكونُ حاجةً إليه ، فيكون سبباً لنجاته عند ربه .

وأما الصنف الثاني : فهو مَن خاف الله عزَّ وجلَّ في ساعةٍ من الساعات ، وموقفٍ من مواقف حياته ، إما أن يُذكِّره مذكِّر بالله ، فيرتدع ، أو يخوِّفه مظلومٌ فيخاف ، أو يكون هٰذا المسكين غارقاً في معاصيه ، فتهبُّ علىٰ قلبه نفحةٌ إيمانية . . .

ألا تَرَىٰ إلى الرجل من بني إسرائيل ، لما تمكَّن من ابنةِ عمه ، فذكَّرتْه بالله وقالت : اتقِ الله ، فتركها لله وخوفاً منه له ، فلما ألجأه المبيتُ إلىٰ غار ـ ومعه اثنان ـ وسُدَّ فمُ الغار بصخرةٍ عظيمةٍ ، وأَيِسوا من النجاة ، قام كلُّ واحد منهم يذكُر عملاً صالحاً له ، فقام هٰذا الرجل فذكَر هٰذه الحسنة : أنه ترك ابنة عمه لله ، فانزاح عنهم جزءٌ من الصخرة ، والحديث معروف .

فهٰذا قد خاف اللهَ في مقامٍ ، في ساعة من ساعات حياته ، ففرَّج الله عنه ، ولم يُضيِّعْ له هٰذا الموقفَ ، كما أن الله تعالىٰ أكرمُ من أن يَجعل ثوابَه عليه في الدنيا فقط ، ويفوِّتَ عليه ثوابه في الآخرة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمٰن : ٤٦ أي : خاف

مقامَه وموقفَه بين يديْ ربِّه للحساب ، فترك المعصية ، وقال مجاهد وإبراهيم النخعي : هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكرُ الله ـ أي : فيتذكَّر الله ـ فيدعُها من خوفه .

والجنتان : جنةٌ لخوفه من ربه ، وجنة لتركه شهوته[١] .

* * *

(١) انظر « تفسير » القرطبي ١٧ : ١٧٦ .

٩٥ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، يقولُ الله : من كان في قلبه مِثقالُ حبَّة من خَرْدَلٍ من إيمانٍ فأَخْرِجوه ، فَيُخْرَجون قد امتُحِشُوا وعادوا حُمَماً ، فَيُلْقَوْن في نَهَر الحياة ، فَيَنْبُتون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيْل ـ أو قال : حَمِيَّةِ السَّيل ـ » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلَمْ تَرَوْا أنها تنبُت صفراءَ مُلتويةً ؟ » .

٩٥ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الإيمان ـ باب تفاضُل أهل الإيمان في الأعمال ١ : ٧٢ (٢٢) ، وكتاب الرِّقاق ـ باب صفة الجنة والنار ١١ : ٤١٦ (٦٥٦٠) ، وهٰذا لفظُه ، ومسلم : كتاب الإيمان ـ باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحِّدين من النار ١ : ١٧٢ (٣٠٤) .

غريبه : امتُحِشوا ، الحِبة ، السيل : تقدم معناها برقم (٩١) .

حُمَماً : جمع حُمَمَة ، والمعنىٰ : صاروا فحماً ! وفي رواية البخاري الأولىٰ : « قد اسْوَدُّوا » .

حميَّة السَّيل : قال العيني في « عمدة القاري » ١٩ : ٨٨ : « أي : معظم جَرْيه واشتداده » ، وفي روايةٍ لمسلم : « حَمِئة » ، قال النووي : « هي الطين الأسود » ، زاد العيني : « الطين الأسود المنتن » .

معناه : هٰذا موقفُ ترغيب وترهيب ، وإن شئتَ فقل : موقف خوف ورجاء .

صورةٌ تَقشَعرُّ منها جلود الموقنين بيوم القيامة أنه يوم جزاء وحساب ،

وجنة ونار ، فلا بدَّ من طائفة من العُصاة يُدخِلها الله تعالىٰ ناره ، وهم أصنافٌ وألوان ، ويكونون فيها علىٰ دَرَكات ، ومنهم من يكونُ عذابُه شديداً مديداً ، مع أنه من أهل : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الثابت في الأحاديث الكثيرة ـ وبعضُه في القرآن الكريم ـ أنه تكون في يوم القيامة شفاعات لعدَّة أصناف من كِرامِ خَلْقِ الله عز وجل ، ذُكِرَ بعضُهم في روايةٍ لمسلم ١ : ١٧٠ (٣٠٢) : « فيقول الله عز وجل : شَفَعَت الملائكة ، وشَفَع النبيون ، وشَفَعَ المؤمنون ، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين » ، وذَكَر نحو الحديثِ المشروحِ .

أما مَن يُشْفَع فيه : فأناسٌ ذَوُو مراتبَ في الإيمان والخير ، وقد ذُكِر منهم في الحديث المشار إليه أصنافٌ : منهم مَن أخذتِ النار إلىٰ نصف ساقَيْه ، وإلىٰ رُكْبتيه ، ومَن في قلبه مثقالُ دينارٍ من خير ، ومثقالُ نصفِ دينار ، ومثقالُ ذرَّة من خير ، ثم مَن لم يعمل خيراً قطُّ .

وَوُصفوا في روايتنا هـٰذه بأنهم في قلوبهم مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من إيمان ، فهـٰذا هو يوم النَّصَفَةِ : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ غافر : ١٧ .

يُخْرَجون من النار وقد انكشفَ اللحم عن العَظْم من عِظَم الاحتراق ، واسودُّوا فصاروا كالفحم ، فَيُلْقَوْن في نَهْر الحياة ، فينبُتون كما تنبُت الحِبَّة في حَميل السيل .

أما موضع نهر الحياة : فعلىٰ باب الجنة ، جاء ذٰلك في رواية مسلم المذكورة قبل قليل : « فَيُلقيهم في نَهَرٍ في أفواه الجنة يقال له : نهر الحياة » ، وأفواه : جمع فُوَّهة ، قال الإمام النووي ، رحمه الله تعالىٰ : « أفواه الأزقَّة والأنهار : أوائلُها . قال صاحب « المطالع » : كأن المراد في الحديث مُفْتَتَحٌ من مسالك قُصور الجنة ومنازلها » .

أما خَصِيصَتُه : فهو الماء الذي أصاب رُشَاشُه حوتَ موسىٰ وفَتَاه وهو في المِكْتَل ميتٌ ، فَحَيِي ، واتَّخَذ سبيله في البحر سَرَباً[(١)] ، أما الماء الذي نَشربُه فهو أحدُ العناصر الأربعة التي عليها قِوام الحياة : الماء والهواء ، والحرارة والبرودة ، وليس هو المرادَ بالآية والأحاديث ، فليُتَنَبَّهْ لهٰذا ، فإنه خطأ شائع ذائع ، وتقدم شيء من هٰذا في آخر الكلام على الحديث العاشر .

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام صِفتين لما ينبُت في حَمِيل السيل : صفراء ملتوية ، والمراد بذٰلك ما تقدَّم في كلام النووي رحمه الله : أنها سريعةُ النبات ، علىٰ ضَعْفها .

وزاد صلى الله عليه وسلم في وصفه ـ في رواية مسلم ـ وصفين آخرين : وَجْهُ هٰذه النَّبْتة الذي يكون إلىٰ جهة الشمس يكون لونُه أُصَيْفرَ وأُخَيْضِرَ ـ أي : قليل الصُّفْرة والخُضْرة ـ والذي يكون إلىٰ جهة الظل يكون لونه أبيض .

وهٰذا وصف دقيق لا يَعرِفُه إلا من عاش في البادية فترةً طويلة من الزمن ! لذٰلك تنبَّه بعضُ الصحابة السامعين لهٰذا الوصف الدقيق فقال : كأنك كنتَ تَرعَىٰ بالبادية ، وفي لفظ آخر لمسلمٍ أيضاً : كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية ! .

وهٰذا الموقفُ يَسْتَوقِفنا ويَسْتَأْنينا في القول الشائع : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد فأخطأ يوم تأبير النخل ، حين قال لأهل المدينة لما رآهم يَأْبِرُون نخلهم : « لو لم تَفْعَلوا لَصَلُح »[(٢)] ، فهل مثلُ ضرورةِ تأبير

---

(١) انظر « صحيح » البخاري ٨ : ٤٢٢ (٤٧٢٧) قوله : « قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها : الحياة ، لا يُصيب من مائها شيء إلا حَيِيَ » . وانظر كلام ابن حجر عليه قبلُ ٨ : ٤١٥ .

(٢) رواه مسلم ٤ : ١٨٣٦ (١٤١) .

النخل لصلاحه يجهلُهَا إنسانٌ عرف شيئاً من حياته وبيئته ، فضلاً عن رجل جاوز الخمسين من العمر ، فضلاً عن رجل ذي مواهبَ فوق العادة ، بَلْهَ رجلاً فاق المستوياتِ الطبيعيةَ ، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لو وُزن عقلُه وفهمُه ومعارفُه بسائر ما عند البشرية لرجَح عليهم ! صلوات الله وسلامه عليه من رسول قال الله تعالىٰ له مُمْتناً عليه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء : ١١٣ ، فلا بدَّ من جَمْعٍ وفهمٍ للأحاديث في المسألة ليُنَزَّل كلُّ حديث منزلتَه ، ومعاذ الله أن يَرُدَّ مسلم حديثاً ثابتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٩٦ ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَلَقَ اللهُ جنةَ عَدْنٍ بيده ، ودلَّىٰ فيها ثمارَها ، وشقَّ فيها أنهارَها ، ثم نَظَرَ فيها فقال لها : تَكَلَّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزَّتي لا يُجَاوِرُني فيكِ بخيلٌ » .

٩٦ ـ تخريجه : رواه الطبراني في « المعجم الكبير » ١٢ (١٢٧٢٣) ـ وسقط منه جملة ، تُستدرك من هنا ـ وهو في « المعجم الأوسط » (٥٥١٤) أيضاً ، وقال المنذري في « الترغيب » ٣ : ٣٨١ ، ٤ : ٥١٣ ، والهيثمي في « المجمع » ١٠ : ٣٩٧ عن أحد إسناديه : « جيد » ، واقتصارُ السيوطي والمُنَاوي ـ « فيض القدير » ٣ : ٤٤٤ ـ علىٰ عزوه إلى « المستدرك » ٢ : ٣٩٢ من حديث أنس بإسناد ضعيف : فيه قصور .

غريبه : عَدْن : عَدَنَ بالمكان : ثَبَت واستقرَّ فيه ، ومنه يقال للمعادن : معادِن ، لاستقرارها في مكانها ، وتُسمى الجنة جنةَ عدْن لخلودِ أهلها فيها ، ومنه : سَمَّوا عدنان ، كما سَمَّوا : خالد ، ومن هنا اختار جمعٌ من العلماء أن « عَدْن » اسمٌ للجنة كلِّها ، لا اسمٌ لمرتبة فيها[1] .

معناه : يبيِّن النبي صلى الله عليه وسلم في هٰذا الحديث الشريف كرامةَ الجنة عند الله عز وجل بأنه تولَّىٰ خلقها بيده ، وأنها مخلوقة موجودة الآن ، كما هو الحال والمعتقد عند أهل السنة والجماعة ، خلافاً للمعتزلة في زعمهم أن الله تعالىٰ سيخلُقها .

---

(١) انظر « حادي الأرواح » الباب الحادي والعشرين منه .

ويبيِّن بعض ما فيها من نعيم ، ومن ابتهاج الجنة وفرحِها بما فيها وبمن سيدخُلُها أنها قالت : فلاحاً ونجاحاً ، وفوزاً وظَفَراً للمؤمنين الذين سيدخلونني ويحلُّون فيَّ : « قد أفلح المؤمنون » المؤمنون : ١ ، قالت هٰذا « بلسان المقال ، فإن الذي خلق النُّطْق في لسان الإنسان ، قادر علىٰ أن يخلقَه في أي شيء أراد » ، قاله المناوي في « فيض القدير » ٣ : ٤٤٥ .

وما هو **الفَلَاح** ؟ قال في « شرح القاموس » ٧ : ٢٦ : « ليس في كلام العرب كلِّه أجمعُ من لفظة : الفلاح ، لخيري الدنيا والآخرة ، قاله أئمة اللسان » ، فهي تدل على الخير ، والرحمة ، والسلامة ، والظَّفَر بالمطلوب ، والنعمة ، والعزَّة . . .

وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في « مفرداته » : **الفَلَاح** « ضَرْبان : دُنيوي ، وأُخروي ، فالدنيوي : الظَّفَر بالسعادات التي تَطيب بها حياة الدنيا ، وهو البقاء ، والغنىٰ ، والعز . . . وفلاح أُخروي ، وذٰلك أربعة أشياء : بقاءٌ بلا فناء ، وغِنىً بلا فقر ، وعزٌّ بلا ذُلّ ، وعلم بلا جهل ، ولذٰلك قيل(١) : لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة » .

والجنةُ مظهر عظيم من مظاهر الكرم الإلٰهي علىٰ عباده المؤمنين ، فلذٰلك لا يدخلها إلا كريمٌ تطهَّر من دَنَس صفة البخل ، ليكونَ التناسبُ بينه وبين دار مقامه وخلوده .

لهٰذا قال الله تعالىٰ للجنة : « **وعزتي لا يُجَاوِرُني فيكِ بخيل** » .

وروى الترمذي في « سننه » (١٩٦٣) وقال : حسن غريب ، عن سيدنا الصديق رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) كذا عبَّر الراغب رحمه الله ، مع أنها جملة من حديث شريف مروي في الصحيحين وغيرهما .

« لا يدخُل الجنةَ خَبٌّ ، ولا مَنَّان ، ولا بخيل » ، وأحاديث أخرىٰ وردت في عدم دخولِ البخيلِ الجنة ، منها الثابت ، وغيره ، وأحاديث أخرىٰ أيضاً وردت في ذم البخل والبخيل ، وفي بعضها ذمُّ الشُّحِ ، وكلاهما من وادٍ واحد ، ولهٰذا جاء في بعض روايات الحديث قراءةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد : « لا يُجَاوِرُني فيك بخيل » قولَ الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر : ٩ ، ومن فرَّق بينهما جعل الشحَّ أسوأ من البخل ، وأخصَّ منه .

فليحذر المسلمُ هٰذه الصفة الذميمة ، فإن الجنة طيِّبة ، ولا يدخُلُها إلا طيِّب ، والبخيل لا يدخل الجنة حتىٰ يطهِّره الله منها ، فيطيبَ ويتأهَّلَ لأن يكون من أهلها .

❋ ❋ ❋

٩٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يوماً يحدِّث ـ وعنده رجلٌ من أهل البادية ـ : « أن رجلاً من أهل البادية استأذَنَ ربَّه في الزَّرْع ، فقال له : أَلَسْتَ فيما شِئتَ ؟ قال : بلىٰ ، ولٰكنْ أُحِبُّ أن أزرعَ ، قال : فَبَذَر ، فبادر الطَّرْفَ نَباتُه واستواؤُه واسْتِحصادُه ، فكان أمثالَ الجبال ، فيقول الله : دُونَكَ يا بنَ آدمَ ، فإنه لا يُشْبِعُك شيء » ، فقال الأعرابي : والله لا تَجِدُه إلا قُرَشيّاً أو أنصاريّاً ، فإنهم أصحابُ زَرع ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم .

٩٧ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الحرث والمزارعة ـ باب ٥ : ٢٧ (٢٣٤٨) ، وكتاب التوحيد ـ باب كلام الربِّ مع أهل الجنة ١٣ : ٤٨٧ (٧٥١٩) ، والإمام أحمد في « مسنده » ٢ : ٥١١ .

غريبه : استواؤه : أي تمامُ نباتِه واستقامتُه علىٰ ساقه ، والمعنىٰ : أن تمام نباته واستقامته علىٰ ساقه كان قبل طرفة عين هٰذا الرجل .

معناه : في هٰذا الحديث الشريف بيانٌ لأمور :

أولها : أن بعضَ الطبائع البشرية يُصاحِبُ الإنسان وهو في الجنة ، ولا ينفكُّ عنها ، مما لا يَتَعارضُ مع عالَم الجنة وكرامته ، ونَزَاهته وصفائه .

فحبُّ العمل فطرةٌ إنسانيةٌ وطبيعة بشريةٌ ، ولا تتعارض مع هٰذه الصفات لعالَم الجنة ، فلا يُستَغرب من إنسان واحد ـ أو أكثر ـ أن يشتهيَه وهو في ذٰلك العالم ، ومع ذٰلك فليس هٰذا الميلُ صفةً لعامة أهل الجنة ، بل لفرد أو أفراد .

أما اللغو واللهو ـ مثلاً ـ ومساوئُ الأخلاق كالكذب ونحوه ، وبواطلُ

الأعمال كالسعي في الفساد والإفساد ونحوه : فهٰذا لا يكون فيها أبداً ولا من فرد واحد ، ولن يحصل تمنّيه من أحدٍ من أهل الجنة ، ذٰلك أن الله تعالىٰ : أخبر أن ملائكته يقولون للمؤمنين عند دخولهم الجنة : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا ﴾ الزمر : ٧٣ ، فلا يدخلُ الجنةَ إلا طيِّب مطهَّر ، طهَّره الله من هٰذه الخبائث القولية والفعلية والقلبية ، إما مع العفو عنه ، وإما بنار جهنم ، ثم يُؤْذَن له بدخول الجنة .

وهٰذا يدلُ علىٰ أن حبَّ العمل ليس من الأمور المذمومة التي سيطهِّر الله منها الإنسانَ قبل إدخاله الجنة .

ثانيها : أن حال الإنسان في الجنة كما أخبر الله تعالىٰ في كتابه الكريم ، وفي هٰذا الحديث القدسي ، قال تعالىٰ في هٰذا الحديث : « ألستَ فيما شِئتَ ؟ » وقال في كتابه الكريم : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ﴾ قٓ : ٣٥ ، فلا يتخلَّف عما يشاؤه العبدُ شيء بإذن الله تعالىٰ وإكرامه .

ومما جُبِل عليه الإنسان في الدنيا ، ولا يعارِضُ عالَم الجنة : حبُّه الولد ، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيكونُ له ما يشتهيه .

ففي « سنن » الترمذي من كتاب صفة الجنة (٢٥٦٣) وقال : حسن غريب ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ إذا اشتهى الولدَ في الجنة كان حملُه ووَضْعُه وسِنُّه في ساعةٍ كما يَشْتَهي » ، وقوله « وسِنُّه » : أي : إن اشتهى الذكور أُوتيهم ، وإن اشتهى الإناث أُوتيهنَّ ، فوراً ، وعلىٰ عُمُرٍ يتناسب مع أعمار أهل الجنة ، وهو ثلاثون سنة ، أو ثلاث وثلاثون ، كما جاء في حديث عند الترمذي (٢٥٤٨) وقال عنه : حسن غريب[1] ، وجاء في غيره الجزمُ بسنِّ الثلاثة والثلاثين .

---

(١) ثم حَكَىٰ عن بعض أهل العلم أنه ليس في الجنة ولد ، لحديث ذُكِر هناك .

قال : فَبَذَر ، فكانت مراحلُ النِّتاجِ الثلاثةُ كلُّها في أقلَّ من طرفة عين ، وذٰلك أن المراد من قوله : « فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه . . . » : أن النباتَ وتمامَه واستحصادَه قد تمتْ هٰذه المراحل الثلاثة في ظرفٍ زمنيٍ أسرَع من وصول « لَحْظ الإنسان إلىٰ أقصىٰ ما يراهُ » ويقعُ عليه بصرُه ، أو هو حركةُ جَفْن العين ، قال الحافظ في « الفتح » ٥ : ٢٧ : « وكأنه المراد هنا » .

ولم يكن المحصولُ الزراعي قليلاً ، بل قال : « كان أمثالَ الجبال »[١] ، وكأنه كان كذٰلك ليتمَّ المراد من قول الله له : « دونَك يا بن آدم فإنه لا يُشْبعك » ، وهٰذا كقوله : « لا يملأ عينَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ » ، وليس المقصودُ شبعَ البطن[٢] . والله أعلم .

علىٰ أن المؤمن مطلوبٌ ومدعوٌّ إلىٰ غِراس في الجنة أعلىٰ من هٰذا وأجلَّ .

روى الترمذي (٣٤٦٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي ، فقال : يا محمد أَقْرِئ أمتك مني السلام ، وأخبِرهم أن الجنة طيِّبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قِيعَان[٣] ، وأن غِراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر » ، قال الترمذي : حسن غريب .

وروى الإمام أحمد ٥ : ٤١٨ عن أبي أيوبَ الأنصاري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به مرَّ علىٰ إبراهيم فقال : « من

(١) وقال الكِرْماني ١٠ : ١٦٦ ، والعيني في « العمدة » ١٠ : ١٩٠ : « فكان كلُّ حبة مثلَ الجبل » ، والظاهر أنه أولىٰ وأقرب ، بالنظر إلىٰ عالم الجنة .

(٢) أفاده الكرماني ٢٥ : ٢١٠ ، والعيني ٢٠ : ٣٧١ .

(٣) أي : أرض مستوية .

معك يا جبريل ؟ قال : هٰذا محمد ، فقال له إبراهيم : مُرْ أمتك فليكثِروا من غِراس الجنة ، فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، قال : وما غِراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله »(١) .

❋ ❋ ❋

(١) قال في « مجمع الزوائد » ١٠ : ٩٧ : « رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة ، لم يتكلم فيه أحد ، ووثقه ابن حبان » . « الثقات » لابن حبان ٧ : ١ .

٩٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : أعددتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذُن سمعتْ ، ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بَشَرٍ ، فاقرؤوا إنْ شِئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة : ١٧ » .

٩٨ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب بدء الخلق ـ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٦ : ٣١٨ (٣٢٤٤) ، ومواضع أخرىٰ ، ومسلم أول : كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤ : ٢١٧٤ (٢ ـ ٥) .

غريبه : أعددتُ : هَيَّأْتُ .

قرَّة أعين : أي : ما تَقَرُّ العينُ عنده وتسكُن ولا تتطلَّع إلىٰ شيءٍ أعلىٰ منه ، فتكون قد بلغتْ غايتَها ومُنَاها ، وهٰذا غاية السرور ، أو : تَقَرُّ به العين وتَبْرُد ، وذٰلك ببكائها بكاءَ فرح وسرور ، ذٰلك أن الإنسان إذا اشتدَّ فرحه بكىٰ ، ودمعةُ بكاءِ الفرح باردة ، بخلاف دمعة بكاء الحزن ، فإنها حارَّة ، كذا يقولون ، والأول أولىٰ .

معناه : يخبر الله عزَّ وجلَّ بما أعدَّه لصفوة المؤمنين الصالحين من خَلْقه في دار الخلد والنعيم المقيم ، فيقول :

أعددتُ لعباديَ الصالحين ، والإعداد : التهيئة ، فهو مهيَّأٌ مُعَدٌّ ، وهٰذا يقتضي أن الجنة ـ وكذٰلك النار ـ مخلوقتان موجودتان الآن ومن قبلُ ، وهو كذٰلك ، وهٰذه عقيدةُ أهل السنَّة والجماعة ، خلافاً للمعتزلة . كما تقدمت الإشارة إليه ص ٥٠٥ ، والدليلُ عليه : قولُ الله تعالىٰ في كتابه العظيم

عن الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٣ ، وقوله عن النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران ، : ١٣١ ، وفعل « أُعِدَّ » فعل ماضٍ ، يدل علىٰ حصوله في الزمن الماضي ، وإخبار الله هٰذا أزليّ ، كصفة الكلام : أزلية قديمة ، وهو تعالىٰ من الأزل يخبرنا عن أن الجنة والنار قد أُعِدَّتا وهُيِّئتا لأهلهما .

وفائدة هٰذا الإخبار : ترغيبُ الله عز وجل وتشويقُه العبادَ إلى الجنة ، كما أن فائدة الإخبار عن النار وعذابها ترهيبُه العباد وتخويفُهم منها ، ومع ذٰلك يغفُل العباد عن ذٰلك ! .

وقد رَوَىٰ أبو هريرة وأنسٌ رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما رأيتُ مثلَ النار نام هاربها ، ولا مثلَ الجنة نام طالبها »(١) .

وقوله في الحديث : « ولا خَطَر علىٰ قلب بَشَر » : المراد منه أنه لا يدخل تحت تصوُّر المخلوقين ، يدلُّ علىٰ ذٰلك حديث ابن مسعود عند ابن أبي حاتم الذي ذكره ابن حجر في « الفتح » ٨ : ٥١٦ : « . . . ولا يعلمه ملَك مقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَلٌ » ، وليس المرادُ نفيَ ورودِ ذٰلك علىٰ قلب البشر ، لِيَطرأ احتمالُ معرفة الملائكة له .

* * *

(١) رواه عن أبي هريرة الترمذي (٢٦٠١) وضعَّفه ، لٰكن رواه عن أنس الطبراني في « الأوسط » (١٦٦٠) بإسناد حسن ، كما قال الهيثمي ١٠ : ٢٣٠ ، ثم ضعَّفه ١٠ : ٤١٣ ، فالحديث حسن لغيره بهٰذين الإسنادين .

٩٩ ـ عن صُهَيب بن سِنانٍ الروميّ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قال : يقولُ الله تبارك وتعالىٰ : تُريدون شيئاً أَزيدُكم ؟ فيقولون : أَلَمْ تُبَيِّضْ وجوهَنا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجنةَ ، وتُنَجِّنا من النار ؟ قال : فيَكْشِفُ الحجابَ ، فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلىٰ ربِّهم عزَّ وجلَّ » .

٩٩ ـ تخريجه : رواه مسلم : كتاب الإيمان ـ باب ما جاء في رؤية المؤمنين ربَّهم وخطاب الله لأهل الجنة ١ : ١٦٣ (٢٩٧) .

معناه : جاء في بعض روايات الحديث عند الإمام أحمد ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ : « إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ . . . » ، وهٰذا يُستأنس به علىٰ أن هٰذا الإكرامَ الإلٰهيَّ العظيمَ لأهل الجنة بالنظر إلىٰ وجهه الكريم يكونُ بعد فترة قريبة من دخولهم واستقرارهم فيها بعد ذبح الموت .

في حين أنه لم يَرِدْ في روايات الحديث الآتي ـ « أُحِلُّ عليكم رضواني » ـ شيءٌ يفيد هٰذا القُرْبَ الزمنيَّ ، فكأن الرؤيةَ حاصلةٌ قبل الرضوان ، لذٰلك قدَّمت هٰذا الحديث . والله أعلم .

وهٰذه الرؤية ثابتة بالتواتر ، وهي عامةٌ للمؤمنين جميعاً في الجنة ، وهي غيرُ الرؤيةِ التي تكون في أرض المحشر ، المذكورةِ في الحديث السابق برقم (٩١) ، وتقدم التنبيه هناك من كلام الإمام الخطابي إلىٰ هٰذه المغايرة بينهما .

ولا ريبَ أن الرؤية متفاوتةٌ ، كلٌّ علىٰ حَسَب مقامه في الجنة ، فرؤية عامةِ

المؤمنين غيرُ رؤية خاصَّتِهم ، والخاصةُ منهم يَرَوْنَ ربَّهم سبحانه وتقدَّس غيرَ رؤية الصدِّيقين منهم ، وجميعُ هٰؤلاء رؤيتُهم غير رؤيةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ورؤيةُ سيدِهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم غيرُ رؤيتهم .

وهٰذه الرؤية هي الزيادةُ التي جاء ذكرها في قول الله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ يونس : ٢٦ ، كما جاء في رواية الإمام أحمد ٤ : ٣٣٢ : ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

واختار ابنُ جرير رحمه الله في « تفسيره » العموم : عمومَ أفضال الله علىٰ أهل الجنة فقال ١١ : ١٠٨ : « ومن الزيادة علىٰ إدخالهم الجنةَ : أن يُكْرِمَهم بالنظر إليه ، وأن يُعْطِيَهم غُرفاً من لآلىء ، وأن يزيدَهم غفراناً ورضواناً ، كلُّ ذٰلك من زيادات عطاءِ الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته ، وعمَّ ربُّنا جلَّ ثناؤه بقوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ الزياداتِ على الحسنىٰ ، فلم يخصِّص منها شيئاً دون شيء ، وغيرُ مستنكَر من فضل الله أن يجمعَ ذٰلك لهم ، بل ذٰلك كلُّه مجموعٌ لهم إن شاء الله ، فأَولى الأقوالِ في ذٰلك بالصواب أن يُعَمَّ ، كما عمَّه عزَّ ذكره » .

وتتكرر الرؤيةُ لأهل الجنة ، وذٰلك في يومٍ يسميه أهل الدنيا يومَ الجمعة ، ويُسمِّيه أهل الآخرة يومَ المزيد ، وهم ينتظرون قدومَه بفارغ الصبر [1] .

وهٰذا التكرار : من الرضوان أيضاً ، وبهٰذا الاعتبار يكون الرضوانُ أجلَّ وأعلىٰ من الرؤية ، لاشتمالِه عليها ، وعلىٰ تكرارِها ، وعلىٰ غيرِها من الفضل الإلٰهي .

وأما « الحجاب » في قوله : « **فَيَكْشِفُ الحجاب** » : فهو الحجاب المذكور

---

(١) جاء ذٰلك في حديث طويل رواه أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً . انظره في آخر « مجمع الزوائد » .

في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً ، الذي رواه مسلم قبل حديث واحد من الحديث المشروح ١ : ١٦١ (٢٩٣) : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إن الله عز وجل لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويرفعُه ، يُرفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور ـ وفي رواية : النار ـ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خَلْقه » .

فهٰذا الحجابُ هو ذاك ، قال عليٌّ القاري في « المرقاة » ١٠ : ٣٤٦ : « فيُرفَع الحجابُ عن أعين الناظرين » وإلا فالله عز وجل ليس بمحجوب .

قال الإمام النووي في معنى السُّبُحات : « هي جمعُ سُبْحة ، قال صاحب « العين » والهَرَويُّ وجميعُ الشارحين للحديث من اللغويين والمحدِّثين : معنىٰ « سُبُحات وجهه » : نورُه وجلالُه وبهاؤُه ، وأما الحجابُ فأصلُه في اللغة : المنع والسَّتر ، وحقيقة الحجاب : إنما يكون للأجسام المحدودة ، والله تعالىٰ منزَّه عن الجسم والحدِّ ، والمراد هنا : المانعُ من رؤيته ، وسُمِّي ذٰلك المانع نوراً ـ أو ناراً ـ لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة ، لشُعاعهما ، . . . والتقدير : لو أزال المانعَ من رؤيته ـ وهو الحجاب المسمىٰ نوراً أو ناراً ـ وتجلَّىٰ لخلقه لأحرقَ جلالُ ذاتِه جميعَ مخلوقاته . والله أعلم » .

❋ ❋ ❋

١٠٠ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ يقولُ لأهلِ الجنةِ : يا أهلَ الجنةِ ، فيقولون : لبَّيْك ربَّنا وسَعْدَيك ، والخيرُ في يديك ، فيقولُ : هل رَضِيتُم ؟ فيقولون : وما لنا لا نَرْضَىٰ يا ربِّ وقد أَعْطيتَنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك ؟! فيقول : أَلَا أُعْطيكم أفضلَ من ذٰلك ؟ فيقولون : يا ربِّ وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذٰلك ؟ فيقولُ : أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً » .

١٠٠ ـ تخريجه : رواه البخاري : كتاب الرِّقاق ـ باب صفة الجنة والنار ١١ : ٤١٥ (٦٥٤٩) ، وكتاب التوحيد ـ باب كلام الرب مع أهل الجنة ١٣ : ٤٨٧ (٧٥١٨) ، ورواه مسلم : كتاب الجنة ونعيمها وأهلها ـ بابُ إحلالِ الرضوان علىٰ أهل الجنة ٤ : ٢١٧٦ (٩) .

غريبه : لبَّيك : الفعل من هٰذه الكلمة : لَبَّ ـ أو أَلَبَّ ـ بالمكان ، إذا أقام به ، وأَلَبَّ علىٰ كذا : إذا لم يُفَارِقْه ، والعربُ تستعمل هٰذه الكلمة في حال إجابة النداء ، فتكون التثنية في قولك : « لبيك » بمعنىٰ أُجِيبك إجابةً بعد إجابة ، وأُلبِّي طلبك تلبيةً بعد تلبية ، والتثنية ليستْ علىٰ معنى الانقطاع بعد المرة الثانية ، لا ، بل هي علىٰ معنى التكرار والاستمرار .

سَعْديك : الفعل من هٰذه الكلمة أيضاً : ساعد ، فالمعنىٰ هنا : مساعدةً منك بعد مساعدة ، والتثنية أيضاً : للتكرار والاستمرار .

معناه : إن الله تعالىٰ عليمٌ بذات الصدور ، لا تخفىٰ عليه خافية ، ومما هو

من علمِه جل جلاله : علمُه برضا أهل الجنة بالذي تفضَّل به عليهم ، فحصلَ عندهم الرضا ، وامتلأتْ قلوبُهم قناعةً بما أكرمهم به ، ولٰكنه تعالىٰ يريد أن يُعْلِمَهم بأنه يملك أشياءَ وأشياء لا يعرفونها ، بها يَدخُل عليهم سرورٌ أكبر مما هم فيه ، يُريدُ أن يُعلمهم به ، ويُريدُ أن يتفضَّل به عليهم أيضاً ، فيناديهم ويسألُهم : يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ أي : هل رضيتم بما وجدتم في الجنة ، هل رضيتم بما أعطيتكم ، هل رضي كلٌّ منكم بمنزله فيها ؟ وهو سبحانه يعلمُ رضاهم ، ولٰكن يسألهم ليكرمهم .

فيقولون : وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك ؟! ولا شيءَ أفضلُ مما أعطيتَنا ! وهٰذا نفي علىٰ قدر معرفتهم .

فيقول الله الكريم لهم : أنا أُعطيكم أفضلَ من ذٰلك ، ألا أُعطيكموه ؟! .

إنه رضاء الله عز وجل : « أُحِلُّ عليكم رِضواني ، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً » .

قال القاري رحمه الله في « المرقاة » ١٠ : ٣٢٨ : « أي : دوامَ رضواني ، فإنه لا يلزم من كثرة العطاء دوامُ الرضا ، ولذا قال : (فلا أسخَطُ) أي : لا أغضب (عليكم بعده أبداً) . . . قال ابن المَلَك : في الحديث دلالة علىٰ أن رضوان الله تعالىٰ على العبد فوق إدخاله إياه الجنة » .

ثم نقل عن الطِّيبيِّ رحمه الله قوله : « وأكبرُ أصنافِ الكرامة رؤيةُ الله تعالىٰ » وعلَّق عليه القاري بقوله : « قلتُ : ولعلَّ الرضوانَ أكبرُ ، لاشتماله علىٰ تحصيل اللقاء ، وسائر أنواع النعماء » ، وهو الظاهر . والله أعلم .

والحديث عن الرضا قد يطول ، ولٰكن لا بدَّ من كلمات .

الرضا عن العبد من الله عز وجل يَسبِقه رضاءُ الله تعالىٰ فعلَ العبد ، فالله تعالىٰ يرضىٰ من العبد فعلَه لكونه موافقاً لشريعته ، وأولُ الموافقة يكون بفعلِ الواجبات وترك المحرمات ، ثم بفعلِ المسنونات وترك المكروهات ،

ثم بفعلِ الآداب والكمالات وترك خلاف الأولىٰ ، وكلَّما تقدَّم العبد في هـٰذا المِضْمار رضيَ الله فعلَه أكثر ، وحينئذ يحبُّه الله .

فإذا حاز العبدُ شرفَ هـٰذه المنزلة أتاه رضوانُ الله ، بمعنىٰ : رضي الله عنه ، بعد أن رضي منه فعلَه ، فرضا الله عن العبد يَسْبقُه رضاه منه ما يفعلُ وحبُّه له .

وأما قولُه في الحديث المذكور : « هل رضيتم ؟ » وقولُهم : « وما لنا لا نرضىٰ » فمعناه : هل رضيتم بما أكرمتكم به ؟ قالوا : وما لنا لا نرضىٰ به : فهو فعل متعدٍّ هنا بالباء ، كما أنه يتعدَّىٰ بنفسه ، وقد يتعدَّىٰ بـ « من » : رضي الله من العبد عمل كذا ، وقد يتعدَّىٰ بـ « عن » : رضيَ الله عنه ، أما إذا تعدَّىٰ بـ « علىٰ » فيكون قد ضُمِّن معنىٰ : نَزَل أو أَنزل ، ومنه قوله هنا في الحديث : « أُحِلُّ عليكم رضواني » أي : أُنْزِلُ عليكم رضواني .

والرضوان : مبالغةٌ من الرضا ، فقولُه : « أُحِلُّ عليكم رضواني » أي : أُنزِل عليكم أعظمَ الرضا وأبلغَه .

فمحبةُ الله عز وجل لعبده ـ لامتثاله شرْعَه ـ سابقةٌ لرضاه عنه ، والرضا عنه يكون بعدها ، وهو رضا محبةٍ منه باستقامة العبد .

قال الله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ آل عمران : ١٥ ، فدلَّنا تعالىٰ علىٰ أن هـٰذا الجزاء : للمتقين .

ودلَّنا سبحانه في سورة التوبة علىٰ بعض أوصافهم التفصيلية والإجمالية ، فقال أولاً : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ التوبة : ٢٠ ـ ٢٢ .

ثم قال في السورة نفسها : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة : ٧٢ ، هـٰذا للمؤمنين والمؤمنات الموصوفين في الآية التي قبلها : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة : ٧١ .

وقد فسَّر الإمامُ ابن القيِّم رحمه الله تعالىٰ في « مدارج السالكين » ٢ : ٢١٧ قولَه « ورضوانٌ من الله أكبر » : « بأن رضا الله عن العبد أكبرُ من الجنة وما فيها ، لأن الرضا صفةُ الله ، والجنةَ خَلْقُه » .

وقال تعالىٰ في آخر سورة البيّنة ٧ ـ ٨ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ ، والخشية تكون مع العلم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر : ٢٨ ، فهي مرتبةٌ أشرفُ من مرتبة الخوف : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران : ١٧٥ .

وإذا رضي الله عنهم ، كان منهم الرضا ثانياً ، فهو سبحانه المبتدئُ بالتفضُّل ، ولا يكون منهم الرضا ، حتىٰ يكونَ منه ، جلَّ وعلا ، نظيرَ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة : ٥٤ ، فقدَّم تعالىٰ ذكرَ محبَّته لهم علىٰ محبتهم له .

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالىٰ في تفسير آية آل عمران ٧ : ٢١٦ : « قال المتكلِّمون : الثواب له ركنان ، أحدُهما : المنفعة ، وهي التي ذكرناها ـ في تفسير الجنات والأزواج ـ والثاني : التعظيم ، وهو المرادُ بالرضوان ، وذلك لأن معرفةَ أهلِ الجنة مع هـٰذا النعيم المقيم بأنه تعالىٰ راضٍ عنهم ، حامدٌ لهم ، مُثْنٍ عليهم : أَزْيَدُ في إيجاب السرور من تلك المنافع .

« وأما الحكماء فإنهم قالوا : الجناتُ بما فيها إشارةٌ إلى الجنة الجسمانية (أي : التي يتلذَّذ بها الجسم) ، والرضوان : فهو إشارةٌ إلى الجنة الروحانية ، وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية ، وهو عبارةٌ عن تجلِّي نورِ جلال الله تعالىٰ في روح العبد ، واستغراقِ العبد في معرفته ، ثم يصير في أول هٰذه المقامات راضياً عن الله تعالىٰ ، وفي آخرها مَرضياً عند الله تعالىٰ ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ الفجر : ٢٨ » .

هٰذا ، وقد ختم الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالىٰ « مختصره » للبخاري بهٰذا الحديث ، وقال في « شرحه » ٢ : ٢٩٠ : « فيه دليل علىٰ أن الخير كلَّه إنما هو في رضا المولىٰ سبحانه وتعالىٰ ، وأن ما دونه من النعيم ـ على اختلاف أنواعه في كلا الدارين ـ إنما هو من أثر ذٰلك الخير ، وهو النعيم الحقيقي » .

وقال الحافظ في « الفتح » ١١ : ٤٢٢ : « إن رضاه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ سببُ كلِّ فوزٍ وسعادة ، وكلُّ من علم أن سيدَه راضٍ عنه كان أقرَّ لعينه وأطيبَ لقلبه من كل نعيم ، لما في ذٰلك من التعظيم والتكريم » .

ومما ينبغي التنبُّه له : أن هٰذا الرضوان إنما هو رضوانٌ خاصٌّ ، أما الرضوانُ العامُّ فهو حاصلٌ لهم من قبلُ ، ولولاه لما أَدخلهم الجنة .

اللهم اجعلْنا من أهل المغفرة والغفران ، والرضا والرضوان ، بفضلك يا عظيم الجود والإحسان .

وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، عددَ خلقِه ، ورضاءَ نفسِه ، وزِنَةَ عرشِه ، ومدادَ كلماتِه ، كلما ذَكَرَه الذاكرون ، وغَفَل عن ذِكره الغافلون .

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين مثل ذٰلك .

اللهم إنا نسألك أن تمنَّ علينا برضوانك فلا تسخطَ علينا بعده أبداً ، وبالنظر إلىٰ وجهك الكريم ، فلا يكونُ شيءٌ أحبَّ إلينا منه ، مع العافية من كلِّ سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا أكرم الأكرمين ، ويا أرحم الراحمين .

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين .

ثم ، إنه تمَّ بعون الله وتوفيقه إعادة النظر في هذ الشرح ، وتقديمه للطبعة الرابعة ، في يوم الأربعاء العاشر من شوال من شهور عام ١٤٢٧هـ ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

وكتبه
محمد عوامة

الفهارس

١ ـ فهرس أطراف الأحاديث القدسية والنبوية
٢ ـ فهرس الآثار
٣ ـ فهرس المصادر
٤ ـ فهرس الموضوعات

فهرس أطراف الأحاديث القدسيّة والنبويّة

حرف الهمزة

آتي باب الجنة فأستفتح ٤٧٤
أبشروا فإنَّ من يأجوج ومأجوج ألفاً ٤١٨
أبشروا هٰذا ربُّكم ٢٣٩
ابن آدم اركع لي (ق) ٢٤١
ابن آدم إن صبرت واحتسبت (ق) ٣٩٣
ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ٣٩٥
اتَّخذ الناس رؤساء جهالاً ٦٥
أتدرون ما المفلس ؟ ٣٨
أترون هٰذه المرأة طارحةً ولدها ٤١٤
أتعرف ذنب كذا (ق) ٤٤٠
اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة ١٩٢
أتنكر من هٰذا شيئاً ٤٤٣
أُتيت بالبراق ١٦٨
أحبُّ عبادي إليَّ (ق) ٢٦١
أُحِلُّ عليكم رضواني (ق) ٥١٧
أخبر بذٰلك أبا بكر وعمر ٢٨٨
أخبر بذٰلك ابن الخطاب ٢٨٨
أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ١٠٤
أَخرج بعث جهنَّم من ذريتك ٤١٩ ، ٤٢١
أَخرج بعث النار (ق) ٤١٨
أخرجوا بعث النار ٤١٩
أخرجوا من النار مَنْ ذكرني يوماً (ق) ٤٩٨
ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم ٢٩
إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر (ق) ٣٩٩
إذا أحب الله عبداً نادىٰ جبريل ٣٦٨
إذا أحب عبدي لقائي (ق) .. ٢٨ ، ٤٠٣
إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة (ق) ٤٣٠
إذا التقى المسلمان بسيفيهما ٤٣٢
إذا دخل أهل الجنة الجنة ٥٠١
إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ٥٠١
إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول ٥١٤
إذا سأل أحدكم فليكثر ٤٧٧
إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب ٢٣٤
إذا قال الرجل : هلك الناس .. ٨٤ ، ٤٣٧
إذا كان صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار .... ٢٢١ ـ ٢٢٢
إذا كان يوم القيامة ماج الناس ٤٨٤
إذا كان يوم القيامة ينزل الله تبارك وتعالىٰ ٥٩

إذا مات ولد العبد ٣٩٥
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ٣٣٥
إذا مرض العبد بعث الله تعالىٰ إليه ملكين ٣٩٠
إذاً تُكفىٰ همَّك ٣٥٨
اذهب فادخل الجنة برحمتي (ق) ٤٣٦
اذهب فادخل الجنة فإنَّ لك (ق) .. ٤٣٦
اذهب فسلِّم علىٰ أولئك من الملائكة (ق) ١١٤
أرأيتم ما أنفق منذ خلق ٨٦
أربعُ مَنْ كُنَّ فيه ٢٣٥
ارجع إلىٰ عبدي فقل (ق) ١٣٠
ارجع إليها فانظر (ق) ٤٠٧
أرواحهم في جوف طير ٢٨٤
إسباغ الوضوء على المكاره ٢٣١
اسْتَخْرِجْهم كما استخرجوك ١٥١
أسلم عبدي واستسلم (ق) ٣٥١
أشد الناس عذاباً ٣١٢
أشهدكم أني قد غفرت (ق) ٣٢٨
أصبح من عبادي مؤمن بي (ق) ٧٢
أصبح من الناس شاكر ٧٥
اعْبُدوا الرحمـٰن وأطعموا الطعام ٢٣٢
أعددتُ لعبادي الصالحين (ق) ... ٥١٢
أعَلِمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفر (ق) ... ٤٢٣
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (ق) .... ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥
اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة (ق) ٢٧١
اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ ١٠٥
أفضل الذكر لا إلـٰه إلا الله ٣٤٨
أفضل الصلاة بعد الفريضة ٩٣
أفضل الصيام بعد رمضان .... ٩٣ ، ٢٣٦
أقرب ما يكون الربُّ من العبد ٩٣
أقرب ما يكون العبد من ربِّه .. ٩٣ ، ٢٢٩
اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ... ﴾ ٥١٢
اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ... ﴾ ٣٦٢
اكتب مقادير كلِّ شيء (ق) ٩٦
أكنتَ بي عالماً (ق) ٤٣٦
ألا أُبشركَ بما لقي الله به أباك ٢٨٦
ألا أدلُّكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ٢٣١
ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أعلمكم ١٥١
ألا رجلٌ يُضيفه الليلة ٣٠٨
ألستُ بربِّكم ؟ (ق) ١٠٣
ألستَ فيما شئتَ ؟ (ق) ٥٠٨
الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح الشام ١٧٩
اللهم ارزقني علماً ينفعني ٦٤
اللهم اغفر لأمَّتي ٤٩١
اللهم اغفر لي ١٩٠

اللهم أمَّتي أمَّتي ١٧٣
اللهم إني أسألك علماً نافعاً ٦٤
اللهم إني أسألك فعل الخيرات ٢٢٦
اللهم اهدني فيمن هديت ٤٠
اللهم بعلمك الغيب ٣٩٦
اللهم لك سجد سوادي ٦٤
اللهم وليَدَيْه فاغفر ٤٥٧
ألم أبعثْ إليك رسولاً ؟ (ق) ١٩١
ألم أعطك مالاً ؟ (ق) ١٩١
ألم أعلِّمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ (ق) ٥٩
ألم تروا إلىٰ ما قال ربُّكم ؟ ٧٥
ألم تروا أنها تنبتُ صفراء ٥٠١
أليس قد أعطيتَ عهودك ؟ (ق) ... ٤٦٩
أليس من أهل بدر ؟ ٢٧١
أمَا إنه قد صدقكم ٢٧٢
أما إني سأحدِّثكم ما حبسني ٢٢٥
أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم (ق) ٣٨٧
أما يرضيكَ (ق) ٢٩
أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد ٣٥٤
أما علمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما قبله .. ٤٤٦
أمَّا الكفار والمنافقون فيُنادَىٰ ٤٣٨
أمَّا وقوفك بعرفة ٢٦٤
أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي الضحىٰ ٢٤٣
أنْ تصدَّق وأنت صحيح ٢٤٥
أنْ قد فعلتُ (ق) ٢٦٧
أنْ قرصتْكَ نملةٌ أحرقت (ق) ١٤٢
إنْ تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة (ق) ٤٢٧
إنْ طالت بك حياةٌ لتزينَّ الظعينة ... ١٩١
إنْ تقرَّب إليَّ شبراً (ق) ٣٤١
أنَّ الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يوم القيامة ينزل ٥٩
إنَّ أحسن الناس إسلاماً ١٦٧
إن أصحاب هـٰذه الصور يعذَّبون ... ٣١٦
إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً ٣٦٧
إن الله إذا خلق العبد للجنة ١٠٢
إنَّ الله اطَّلع علىٰ أهل بدر ٢٧٥
إنَّ الله أمرني أنْ أحرِّق ١٥١
إنَّ الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا ١٠
إنَّ الله تبارك وتعالىٰ خلق آدم (ق) ١٠٢
إنَّ الله تجاوز لأمَّتي ١٨٥
إنَّ الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة ... ١١٦
إنَّ الله تعالىٰ قبض خلقه قبضتين .. ١٠٩
إنَّ الله تعالىٰ لا ينام ٢٢٣
إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال ٨٣
إنَّ الله خلق الخلق حتىٰ إذا فرغ ... ٣٦٢

إنَّ الله زوىٰ لي الأرض ١٧٧
إنَّ الله سيخلِّص رجلاً ٤٤٣
إنَّ الله عز وجلَّ لا ينام ٥١٦
إنَّ الله عز وجل لَيُملي للظالم ٣٩
إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضت ٣٨٧
إنَّ الله قد أحبَّك ٣٧٧
إنَّ الله كان ولم يكن شيءٌ قبله ٩٨
إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات (ق) ٤٢٧
إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ٢٨١
إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة ٣١٥
إنّ الله ليسأل العبد يوم القيامة ٤٥٣
إنّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم (ق) ١٥١
إنَّ الله يُحبُّ الرِّفق ٢٣٤
إنَّ الله يحب العبد المؤمن (حا) .. ٤٢٤
إنَّ الله يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه ٤٤٠
إنَّ أوّل شيءٍ خلقه الله القلم ٩٨
إنَّ أوّل ما خلق الله القلم ٩٦
إنَّ أوّل ما يُحاسب به العبد ٢٠٥
إنَّ أيوب نبيَّ الله لبث في بلائه ١٤١
إنَّ شرَّ الناس عند الله منزلة ١٦٦
إنَّ الصدق يهدي إلى البر ١٦٣
إنَّ الصدقة لتطفىء من حرِّ القبور (حا) ١٩٧
إنَّ البيت الذي فيه الصور ٣١٦
إنَّ جبريل عليه السلام أتاني ٣٥٥
إنَّ رحمتي غلبت غضبي ٤١٢
إنَّ فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني (ق) ٣٦٩
إنَّ عبداً أصاب ذنباً ٤٢٣
إنَّ العبد ليلتمس مرضاة الله ٣٦٩
إنَّ عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني (ق) ٣٤٦
إنَّ الفحش والتفحش ليسا من الإسلام ١٦٧
إنَّ في الجنة غرفاً ٢٣٢
إنَّ في الليل لساعةً ٩٤
إنَّ لله عز وجل عباداً ٣٨٥
إنَّ لله ملائكة يطوفون ٣٢٨
إنَّ المؤمن خُلق مفتناً تواباً (حا) .. ٤٢٤
إنَّ المؤمن عندي بمنزلة (ق) ٣٩٢
إنَّ المتحابين بجلال الله ٣٨١
إنَّ المتحابّين لَتُرىٰ غرفهم ٣٨٦
إنَّ مثلكم في الأمم ٤١٨
إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً ٣١٦
إنَّ من عباد الله لأناساً ٣٨٥
إنَّ النار لا يُعذِّب بها إلا الله ١٤٣
إنَّ النَّذر لا يقرِّب من ابن آدم ٣٠١
أنا أحقُّ بذا منكَ (ق) ٤٥١
أنا أغنى الشركاء عن الشرك (ق) ٥٦ ، ٦٧

أنا أكثر الأنبياء تبعاً ٤٧٤
أنا الدهر (ق) ٧٦
أنا سيِّد ولد آدم ١٢٩
أنا عند ظنِّ عبدي بي (ق) ٣٣٧
أنا عند ظنِّ عبدي بي فليظن (ق) ٣٣٨
أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه (ق) ٣٣٧
أنا قيَّدتُ عبدي (ق) ٣٩٢
أنا مع عبدي إذا هو ذكرني (ق) .. ٣٢٥
أنا الملِك (ق) ٩٢
أنا لها ٤٨٤
أنَّى تُعجزني ابن آدم (ق) ٢٤٤
إنَّا سنرضيكَ في أمتك (ق) ١٧٣
أنتِ رحمتي (ق) ٤١٥
انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ ٢٧٠
انظر إليها وإلىٰ ما أعددتُ لأهلها (ق) ٤٠٧
انظرا ماذا يقول لعُوَّاده (ق) ٣٩٠
انظروا إلىٰ جراحهم (ق) ٢٩٣
انظروا إلىٰ عبادي قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون (ق) .... ٢٣٠ ، ٢٣٩
انظروا إلىٰ عبدي رجع رغبة (ق) .. ٢٩٠
انظروا إلىٰ عبدي هـٰذا (ق) ٢٠٠
انظروا إلىٰ عبدي هـٰذا كيف صبر (ق) ٢٣٦
انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم ٤٧٦
انظروا هل لعبدي من تطوع ، فيكمل بها (ق) .... ٢٠٥ ، ٢٠٨
أنفِق أُنفِق عليك (ق) .... ١٤ ، ٨٦
أنفق عليهم فسننفق عليك (ق) ... ١٥٨
إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ١١ ، ٣١
إنكم محشورون حفاة .... ١١ ، ٣١
إنما الأعمال بالنيات ٣٦
إنما أنت عذابي (ق) ٤١٥
إنما بعثتُك لأبتليكَ (ق) ١٥١
إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم ١٨٢
إنما الدنيا لأربعة نفر .... ٤٢٩ ، ٤٤٨
إنه أتاني الليلة آتيان ١٦٣
إنه أتاني المَلَك ٣٥٤
إنَّه سبَّح الله في الظلمات ١٢٨
إنه قد سبق مني أنهم (ق) ٢٨٦
إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار ١٤٤
إنها حقٌّ فادرسوها ٢٢٦
إني أُبغض فلاناً (ق) ٣٦٧
إني أحبُّ فلاناً (ق) ٣٦٧
إني إذا ابتليتُ عبداً (ق) ٣٩٢
إني حرَّمتُ الجنة على الكافرين ، ثم يقال (ق) ١٢٤
إني فرط لكم ١٧٩
إني قد أحببتُ فلاناً (ق) ٣٦٨
إني قد رأيت منذ الليلة عجباً ١٦٤
إني قضيتُ الحكم أنهم (ق) ٢٨٦
إني لقائم أنتظر أُمَّتي ٤٩١

أهل الجنة ثلاثة (ق) ١٥١
أهل الجنة عشرون ومئة ٤٢٢
أهل النار خمسة ١٥٢
أوحي إليَّ أنكم تفتنون ١٠
أوَّل ما يُقضىٰ بين الناس ٢٠٧
أوَّل من يُدعىٰ يوم القيامة ٤١٩
أولئك الذين أردتُ (ق) ٤٨٠
أوَلم تسمعي ما قلتُ ...... ١٦٦ ، ٢٣٤
أيْ عائشة إنَّ شرَّ الناس ١٦٦
أيْ عبدي ما حملَك (ق) ١٤٦
أي فُلْ ألم أُكرِمْك (ق) ٤٦٢
أيُّما عبدٍ من عبادي (ق) ٢٧٩
أين المتحابُّون بجلالي (ق) ... ٨ ، ٣٧٩
أين المتحابُّون لجلالي (ق) ٣٧٩
أيها الناس أفشوا السلام ٢٣٢

حرف الباء

بادرني عبدي بنفسه (ق) ٤٥٥
بئس أخو العشيرة ١٦٦
بزق النبي ﷺ في كفِّه ثم وضع ٢٤٤
بشِّرا ولا تُنفِّرا ٤٣٦
بسم الله (وضرب الحجر ، يوم الخندق) ١٧٩
بُعثت بجوامع الكلم ١٧٩
بل أردتَ أن يُقال (ق) ٥٩
بلىٰ إنَّ لك عندنا حسنةً (ق) ٤٤٣
بينا أيوب يغتسل ١٣٩
بينما أيوب يغتسل ١٣

حرف التاء

تأكل النار من ابن آدم ٤٦٨
تبسَّمتُ من عدوِّ الله ٢٦٧
تجوَّزوا عنه (ق) ٤٥٠
تحاجَّتْ الجنة والنار .... ٢٧ ، ٢٨ ، ٤١٥
تداوَوْا عبادَ الله ١٠٦
تريدون شيئاً أزيدكم (ق) ٥١٤
تضمَّن الله لمن خرج في سبيله ٢٧٩
تُطعم الطعام وتقرأ السلام ٢٣٢
تلا رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ٥١٥
تلقَّت الملائكة روح رجل ٤٥٠

حرف الثاء

ثلاثة أنا خصمهم (ق) ٣٠٢
ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم ٢٥٩
ثلاثة لا يكلمهم الله ٣٠٤
ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم ... ١٦٥
ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ... ٢٣٦

حرف الجيم

جاء مَلَكُ الموت إلىٰ موسىٰ ١٣٠
جعل الله الرحمة مئة جزء ٤١٣

جعل الله الرحمة في مئة جزء ١٠

حرف الحاء

حُجبت الجنة بالمكاره ٤١٠
حديث البطاقة ٤٤٣
حديث الرجل الذي أمر أولاده أن يذروه إذا مات ١٤٦
حديث سُلاميات الإنسان ستون وثلاث مئة ٢٤٢
حديث الشفاعة ٤٨٤
حديث النَّجْوىٰ ٤٣٨
حُفَّت الجنة بالمكاره ...... ٤١٠، ٤٧٥
حقَّت محبَّتي للذين يتصافَوْن (ق) ٣٧٨
حَقَّت محبتي للذين يتناصرون (ق) ٣٧٨
حَقَّت محبتي للمتحابّين فيَّ (ق) ٣٧٢ - ٣٧٣
حقت محبتي للمتزاورين فيَّ (ق) ٣٧٣

حرف الخاء

خرجت لأخبركم بليلة القدر ٢٥٦
خصلتان من كانتا فيه ٤٧٦
خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ... ١١٤
خلق الله جنة عدن بيده .... ١٦٥، ٥٠٥
خياركم كلُّ مُفتَنٍ توّاب ٢٢٤
الخلق كلهم عيال الله ١٦٠، ٣١٠، ٤٥١

حرف الدّال

دعا النبيُّ ﷺ عشيَّة عرفة ٢٦٧
دونك يا بن آدم فإنه لا يشبعك شيء (ق) ٥٠٨
الدعاء مخُّ العبادة ٤٢٥
الدعاء هو العبادة ٤٢٥

حرف الذّال

ذٰلكَ لك ومثلهُ معه (ق) ٤٦٩

حرف الرّاء

رَبِّ اغفر لي وتب عليَّ ٥٤
رَبِّ أمَّتي أمَّتي.................. ٤٨٥
رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب ٤٣٧
رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله ٢٨٠
رحم الله امرأً صلَّىٰ قبل العصر أربعاً ٢٠٨
رحمك الله يا آدم (ق) ١١٧
رغسه الله مالاً وولداً ١٤٧
ركعتا سنة الفجر خير ٢١٧
ركعتا الفجر خير من الدنيا......... ٢٠٨

حرف السّين

سأل موسىٰ ربَّه ٤٨٠
سبعة يظلِّهم الله في ظلِّه ... ٢٤٩، ٣٨١

سبقت رحمتي غضبي (ق)........ ٤١٢
سبقك بها عُكَّاشة ...... ٣٠ ، ١٢٣ ، ٣٨٥
سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك (ق)........................... ٤٣٨
سجد ﷺ لله عز وجل شكراً........ ٣٥٤
سقي الماء (حا) ٣٠٧

حرف الشين

شفعت الملائكة (ق) ٤٩٦
الشهداء خمسة.................... ٢٩٤

حرف الصاد

صدق ولا تقولوا له إلا خيراً........ ٢٧١
صلَّى النبي ﷺ في إزار ورداء........ ٦٤
صلاة الأوَّابين حين تَرْمَض الفصال ٢٤١
صلاة الرجل في الجماعة تضعَّف .. ٢٢٨
صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء ٢٥٠
صنِّف تمرك أصنافاً............... ٢٨٨
الصدقة تطفئ غضب الربِّ.......... ١٩٧
الصلوات الخمس والجمعة.......... ٢٢٩
الصوم جُنَّة ما لم يخرقها ٢٥٣
الصوم لي (ق) ١٣
الصيام جُنَّة ما لم يخرقه ٢٥٣
الصيام جُنَّة من النار فمن أصبح ... ٢٥٣
الصيام جُنَّة من النار كجُنَّة أحدكم ٢٥٧
الصيام جُنَّة يستجن بها العبد (ق) ٢٥٣

حرف الطاء

الطاعون شهادة لأمتي ٢٩٧

حرف العين

عجب ربُّنا من رجل غزا ٢٩٠
عجباً لأمر المؤمن ٣٩١
عذابٌ يبعثه الله علىٰ من يشاء ٢٩٧
علىٰ كل مسلم صدقة ٤٣١
علىٰ مصافِّكم كما أنتم ٢٢٥

حرف الفاء

فأخذ مواثيقهم علىٰ ذٰلك........... ١٤٦
فكتب الله عز وجل عليه كتاباً...... ١٢٠

حرف القاف

قبضتم ولد عبدي ٣٩٥
قد رجعتُ إلىٰ ربِّي ١٧١
قد غفرتُ لعبدي (ق) ٢٠٠
قد فعلتُ (ق) .... ١٨٤ ، ١٨٥
قرصتْ نملةٌ نبيّاً ١٤٢
قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي (ق) ٢٠٢
قولوا : اللهم صلِّ علىٰ محمد ٣٦٠
قولوا : سمعنا وأطعنا ١٨٤

حرف الكاف

كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم ٦٣
كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده ١٩٠
كان رجلان في بني إسرائيل ٤٣٦
كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام ٣٥٨
كان طول آدم ستين ذراعاً ١١٤
كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرح ٤٥٥
كان فيمن كان قبلكم رجل قتل ٤٤٧
كانوا لا يكتوون .... ٣٨٥ ـ ٣٨٦
كتب الله مقادير الخلائق .... ٩٧ ، ١٠٠
كذَّبني ابن آدم (ق) ٧٨
كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً (ق) ٤٦٠
كلّ أمتي معافىٰ إلا المجاهرين ٤٤١
كلُّ امرئ في ظل صدقته ١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٣٨٠
كل عمل ابن آدم له إلا الصيام (ق) ٢٥١
كل عمل ابن آدم يُضاعف ٢٥٥
كل مالٍ نحلتُه عبداً حلال (ق) ... ١٥١
كل مصوّرٍ في النار ٣١٣
كل من يدخل الجنة علىٰ صورة آدم ١١٤
كيف تركتم عبادي (ق) ٢٢١
الكبر بطر الحق ٨٣
الكبرياء ردائي (ق) ٨٢
الكفارات إطعام الطعام (حا) ٢٣٣

حرف اللام

لا إله إلا أنا (ق) ٣٤٨
لا تزال الجنة تفضل ٤١٧
لا تزول قدما عبد .... ٣٢٣ ، ٤٥٣
لا تسبُّوا الدهر ٧٧
لا تقوم الساعة حتىٰ يمرَّ الرجل (حا) ١٩٤
لا شيء له ٢٨١
لا عيش إلا عيش الآخرة ٥٠٦
لا يأتي النذر على ابن آدم بشيء (ق) ٢٩٩
لا يتكلم يومئذ إلا الرسل ٤٦٧
لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم ١٦٥
لا يدخل الجنة خبٌّ .... ١٦٤ ، ٥٠٧
لا يدخل الجنة من كان في قلبه ٨٣
لا يزال الدين ظاهراً ٢٦٢
لا يزال عبدي يتحبَّب إليَّ (ق) ... ٢١٦
لا يعذِّب بالنار إلا الله ١٤٣
لا يعلمه مَلَكٌ مقرَّب .... ٤٨٢ ، ٥١٣
لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب (ق) ٥١٠
لا ينبغي لأحد من أهل النار (ق) ... ٣٩
لا ينبغي لعبد أن يقول (ق) ١٢٧
لا ينبغي لعبد لي (ق) ١٢٧
لا ينبغي لنبيّ أن يقول ١٢٨

لئن طالت بك حياةٌ لترينَّ ١٩١
لئن طالت بك حياةٌ لتفتحنَّ ١٩١
لست هناكم ائتوا محمداً ٤٩٢
لعبدي عليَّ إنْ توفّيته (ق) ٣٩٠
لعل الله اطلع على أهل بدر ٢٧١ ، ٢٧٥
لقد خلقتُ خلقاً ألسنتهم أحلىٰ (ق) ٧٠
لقد عجب الله عز وجل ٣٠٨
لقيتُ إبراهيم ليلة أسري بي ٥١٠
لك ذٰلك ومثله (ق) ٤٨٠
لله أرحم بعباده ٤١٤
للصائم فرحتان ٢٥١
لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ١٦٦
لما خلق الله آدم ١١٧
لما خلق الله الأرض ٢٤٧
لما خلق الله الجنة ٤٠٧
لما عافى الله أيوب ١٣٩
لما قضى الله الخلق ٤١٢
لن يهلك الناس حتىٰ ٤٦٤
لو أن لك ما في الأرض (ق) ١١١
لو لم تفعلوا لصلح ٥٠٣
لو يعلم المؤمن ما عند الله ٤١٤
ليس ذٰلكَ ولٰكن المؤمن ٤٠٣
ليس في الصوم رياء ٢٥٤
ليلقّين الله أحدكم ١٩١

حرف الميم

ما أراد هٰؤلاء (ق) .... ١٣ ، ٢٦٣
ما أنعمتُ علىٰ عبادي من نعمة (ق) ٧٥
ما بالُ هٰذه النُّمرُقة ٣١٦
ما ترددتُ عن شيء أنا فاعله (ق) ٢١٢
ما تقرَّب إليَّ عبدي (ق) ٢١٢
ما حسدتْكم اليهود علىٰ شيء ١١٥
ما حملك علىٰ ما صنعت ٢٧٠
ما رأيتُ مثل النار نام هاربها ٥١٣
ما غراس الجنة ٥١١
ما كلم الله أحداً قطُّ إلا ٢٨٦
ما من أحد يدخل الجنة (حا) ٢٨٢
ما من عبد يقول في صباح كل يوم ٢٧٣
ما من يوم أكثر من أن يعتق .. ١٣ ، ٢٦٣
ما منَعك إذا رأيتَ المنكر (ق) ٤٥٣
ما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ
(ق) .... ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٣٦٨
ما يقول عبادي (ق) ٣٢٨
مثل الجليس الصالح ٣٣٢
مروا أبا بكرٍ فليصلِّ ١٦٠
مشي الأقدام إلى الجماعات ٢٢٥
مَنْ ابتُلي من هٰذه البنات ١٩٨
من أحبَّ لقاء الله ٢٨
من أظلم ممن ذهب يخلق (ق) ... ٣١١

من توضأ هـٰكذا غفر له ٢٣٠
من جاء بالحسنة فله (ق) ٤٣٠
من حافظ علىٰ أربع ركعات ٢٠٨
من ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ (ق) ٤٣٥
من ذا الذي يسترزقني (ق) ٩٣
من رأىٰ منكم منكراً ٤٥٤
من رغب عن سنتي (حا) ٢١٠
من ركع ركعة أو سجد سجدة ٢٢٩
من شغله القرآن (ق) ٣٤٣
من صلىٰ صلاة لم يقرأ فيها ٢٠٢
من صلَّىٰ عليَّ ٣٥٥
من صلَّىٰ عليكَ (ق) ٣٥٥
من صلىٰ في يوم وليلة ثنتي عشرة ٢٠٩
من صلىٰ قبل الظهر ٢٠٨
من صوَّر صورةً ٣١٤
من عاد مريضاً ٣٨٨
من عادىٰ لي ولياً (ق) ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٣٦٨
من فجع هـٰذه بولدها ١٤٤
من فعل ذٰلك عاش ٢٣١
من قاتل لتكون كلمة الله ٢٨٠
من قال : سبحان الله ٣٥١
من قال : لا إلـٰه إلا الله ٣٤٨
من قالها في مرضه ٣٤٨
من كان آخر كلامه ٤٤٦
من كان في قلبه مثقال حبة (ق) .. ٤٨٥
من كان يعبد شيئاً فليتبعه (ق) ... ٤٦٧
ما لعبدي المؤمن عندي جزاء (ق) ٤٠١
من مات علىٰ غير هـٰذا ٩٦
من هـٰذا ٣٥٥
من همَّ بحسنة (ق) .... ١٧١ ، ٤٢٧
من يحافظ عليهنَّ عاش ٢٣١
من يدعوني (ق) ١٤
من يدعوني فأستجيب له ٩٠
من يشهد لكَ (ق) ١٢١
من يُقرض غير عديم (ق) ..... ٩٢ ، ٩٤
مهلاً يا عائشة عليكِ بالرِّفق ١٦٦
مهلاً يا عائشة فإن الله ٢٣٤
المؤمن إذا اشتهى الولد ٥٠٩
المتحابُّون في الله علىٰ منابر (ق) ٣٧٣
المتحابُّون في جلالي لهم منابر من نور (ق) .... ٣٧٣ ، ٣٨٣
المرء علىٰ دين خليله ٣٣٢
المكر والخداع في النار .... ٧٠ ، ١٦٣
الملائكة تصلي علىٰ أحدكم ٢٤٠
الميت تحضره الملائكة ٤٠٤

حرف النّون

نحن الآخرون السابقون ١٤
نَعَم ، ابن آدم تصدَّق (ق) ٢٤٧

نعم ، أما ترضين أن أصل (ق) ... ٣٦٢
نعم ، الحديد (يعني : أشد من الجبال) (ق) ٢٤٧
نهى النبيُّ ﷺ عن قتل أربع ١٤٣

حرف الهاء

هٰؤلاء عبادي جاؤوا شعثاً (ق) ... ٢٦٤
هٰذا لك وعشرة أمثاله (ق) ٤٨٠
هٰذه تحيتك وتحية بنيك (ق) ١١٧
هل بلَّغتَ ؟ (ق) ١٢١
هل تدرون ماذا قال ربُّكم ؟ ٧٢
هل تدرون مِمَّ أضحك ؟........... ٤٦٠
هل تشتهون شيئاً ؟ (ق) ٢٨٤
هل تُضارُّون في رؤية الشمس ؟ ٤٦٢
هل تُضارُّون في رؤية القمر ؟ ٤٦٢ ، ٤٦٧
هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ ٤٦٧
هل رأىٰ أحد منكم من رؤيا ؟ ١٦٣
هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا (ق) ١٨٢
هل عسيتَ إنْ فعلتُ ذٰلك بكَ أن تسأل ؟ (ق)......................... ٤٦٨
هم الجلساء لا يشقىٰ جليسهم (ق) ٣٢٩
هو عليَّ ضامن (ق)............ ٢٧٩

حرف الواو

والله إني لأستغفر الله ٥٣
والله لا يغفر الله لفلان ٤٣٥
والله لو أني عنده لأريتُكم قبره ١٣٠
وجبت رحمتي (ق) ٣٧٥
وجبت محبتي للمتحابِّين (ق) ٣٧٢
وعِزَّتي لا يُجاورني فيكِ بخيل (ق) ٥٠٥
وعِزَّتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين (ق) ٢٥٩
وعِزَّتي وجلالي لا يُجاورني فيكِ (ق) ١٦٥
وعِزَّتي وكبريائي لأُخرِجَنَّ من قال (ق) ٤٨٧
والذي نفسُ محمد بيده لخُلوف ... ٢٥١
والذي نفسي بيده إني لأطمع ٤١٨
والذي نفسي بيده لا تُضارُّون ٤٦٤
والذي نفسي بيده لا يُكْلَم أحدٌ ٢٥٨
والذي نفسي بيده لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ٤٥٤
والذي نفسي بيده لَوَدِدْتُ أنِّي أقتل ٢٨٣
ولَيَصدَّن عنِّي طائفة منكم ٣٢
وهل تدري ما أحدثوا بعدك ٣٢
ويلٌ للمُصِرِّين ٥٣
الوسط العدل ١٢١

حرف الياء

يا آدم (ق) ٤١٨

يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله ٦٠
يا أهل الجنة (ق) ٥١٧
يا أيُّها الناس اذكروا الله ٣٥٨
يا أيُّها الناس توبوا إلى الله ٥٤
يا أيُّها الناس هلمَّ إلىٰ ربّكم ٤١٩
يا أيوب (ق) ١٤
يا أيوب ألم أكن أغنيتك (ق) ١٣٩
يا بن آدم إذا أخذتُ كريمتيك فصبرتَ (ق) ٤٠٠
يا بن آدم إذا ذكرتني خالياً (ق) ... ٣٤٠
يا بن آدم استسقيتك (ق) ٣٨٧
يا بن آدم استطعمتك (ق) ٣٨٧
يا بن آدم أَنفِق أُنفِق عليك (ق) .. ١٥٨
يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب (ق) ٥٠
يا بن آدم إنك ما دعوتني (ق) ٥٠
يا بن آدم تفرَّغ لعبادتي (ق) ٣٢٢
يا بن آدم كيف وجدت منزلكَ (ق) ٢٨٢
يا بن آدم لو بلغت ذنوبك (ق) ٥٠
يا بن آدم مرضتُ فلم تَعُدني (ق) ٣٨٧
يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك ٢٨٦
يا جابر ما لي أراك منكسراً ٢٨٦
يا جبريل اذهبْ إلىٰ محمد (ق) .. ١٧٣
يا جبريل هٰؤلاء أمتي ٣٠
يا ربُّ إنك قادر أن تغفر للظالم ... ٢٦٧
يا ربُّ رجوتك وفَرِقتُ من الناس ... ٤٥٣
يا ربُّ عجّل على الخلق الحساب .. ٤٩٥
يا ربُّ هٰؤلاء من أصحابي ٣٢
يا عائشة استتري من النار ١٩٨
يا عائشة إنَّ الله لا يحبُّ الفاحش .. ١٦٦
يا عائشة متىٰ عهدتني فاحشاً ١٦٦
يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم علىٰ نفسي (ق) ٣٥
يا عبدي تَمَنَّ عليَّ أعطك (ق) ... ٢٨٦
يا عَدِيُّ هل رأيتَ الحيرةَ ١٩١
يا محمد إذا صليتَ فقل (ق) ٢٣٨
يا محمد ارفع رأسك ٤٨٥
يا محمد إنهنَّ خمس صلوات (ق) ١٧١
يا محمد إني إذا قضيتُ قضاءً (ق) ١٧٧
يا محمد عِش ما شئت فإنك ميت ٢٣٧
يا محمد ... فيم يختصم الملأ الأعلىٰ (ق) ٢٢٥
يا محمد قلْ يسمع ٢٣٧
يا مَلَكَ الموت قبضت ولد عبدي ، قبضت قرة (ق) ٣٩٥
يؤتىٰ بالرجل من أهل الجنة ٢٨٢
يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ ٦٢
يؤذيني ابن آدم (ق) .... ١٣ ، ٧٦
يترك طعامه وشرابه وشهوته (ق) .. ٢٥٣

يتعاقبون فيكم ملائكة ٢٢١
يتنزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة ١٤
يجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه الرجل ١٢٢
يجيء نوحٌ وأمَّته ١٢١
يختصم الشهداء والمُتَوَفَّون ٢٩٣
يخرج في آخر الزمان رجال ٧٠
يد الله ملأىٰ ٨٦
يُدْنى المؤمن يوم القيامة من ربه ... ٤٣٨
يذرُ شهوته ويذكرني (ق) ٢٣٦
يسروا ولا تعسروا وسكِّنوا......... ٤٣٦
يُصبح علىٰ كل سُلامىٰ من أحدكم صدقة ٢٤٢
يُطبع المؤمن علىٰ كل شيء إلا الخيانة .... ١٦٢ ، ١٦٣
يعجب ربُّكم من راعي غنم ٢٠٠
يغبطهم بمكانهم النبيون ٣٨٥
يلقىٰ إبراهيم أباه آزر ١٢٤
يُمسك عن الشر فإنه له صدقة ٤٣١
ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة ٩٠
اليوم أمنعك فضلي (ق) ٣٠٤

❋ ❋ ❋

فهرس الآثار

أجل والله إنه لموصوف في التوراة ... ١١
أخاف أن أُسلَبَ الإيمان عند الموت ١١٠
أخاف أن أكون في أم الكتابِ شقياً ١١٠
إذا شخص البصر ٤٠٤
ألا أدلُّكم على دائكم ودوائكم ١٨٩
ألبسه الله حلَّةً من حُلَل الجنة ١٤٠
الله تعالى أسرع بالمغفرة ٣٤٢
اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب ٦٩
اللهم يسر لي جليساً صالحاً ٢٠٥
إنَّ الهلكة كلَّ الهلكة أن تعمل السيئات في أيام ١٩٠
إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لأهل الإسلام ٣٠٦
إنك ما كنت في صلاة فإنك تقرع باب الملك ٢١٦
إنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا ٤٠٥
إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم ٣٠٦
أَيُؤَمَّل غيري (ق) ٤٧
جمعهم الله تعالى فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم ١٠٣
حُدِّثت أن موسى أو عيسى قال ١١
صلاة الملائكة الدعاء ٣٥٨
الصوم هو الصبر ٢٥٥
قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ١٩٥
قصة الثلاثة الذين آثروا على أنفسهم يوم اليرموك فماتوا ٣٠٨
كان جرير إذا أقام سلعة ليبيعها بصَّر عيوبها ٣٠٦
الكذب يُجانب الإيمان ١٦٥
لا تصحب الأشرار ٣٣٣
لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله .. ٣٣٢
ليس بالذي تذهب إليه ٤٠٤
ما لك تنظر إليَّ فوالله ما كذبتُ على عثمان ٢٧٤
ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل ١٩٥
من صلى على رسول الله ﷺ صلاةً صلى الله عليه ٣٥٦
من يُكثر قرع باب الملك ٢١٦
هل أبكاك قطُّ علم الله فيك ١١٠
يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟.... ٤٠٥

يا بنيَّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتىٰ تعلم ٩٦
يا بنيَّ قضاء الله أحبُّ إليَّ من بصري ٣٩٧
يا ربِّ قد علمتَ ساكن الجنة ١١٠
يصلُّون : يُبَرِّكون ٣٥٩

* * *

فهرس المصادر

١ ـ إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام ، لابن حجر الهيتمي المكي ، تحقيق محمود النواوي ومحمد الديوي ، نشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ، الأولىٰ ، ١٣٨٠هـ .

٢ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، للزَّبيدي ، مصورة دار الفكر ، بيروت .

٣ ـ الإتحافات السنيَّة في الأحاديث القدسية ، لمحمد المدني ، صحّحه محمود أمين النواوي ، دار الجيل ، بيروت .

٤ ـ الأحاديث القدسية ، جمع لجنة من علماء الأزهر ، مصورة دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢هـ .

٥ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حِبَّان ، للأمير ابن بَلْبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤٠٨هـ .

٦ ـ إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، مصورة دار الريّان للتراث ، القاهرة .

٧ ـ الأربعون النووية ، للنووي ، مطبوع مع شرحه « الفتح المبين » ، لابن حجر المكي .

٨ ـ أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، للخطَّابي ، تحقيق محمد بن سعود بن عبد الرحمٰن آل سعود ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرىٰ ، مكة المكرمة ، الأولىٰ ، ١٤٠٩هـ .

٩ ـ الأم ، للإمام الشافعي ، تصحيح محمد زهري النجار ، دار المعرفة ، بيروت .

١٠ ـ الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها ، لعبد الله سراج الدين ، الثانية ، ١٤٠٤هـ .

* ـ البحر الزخار = مسند البزار .

١١ ـ بدائع الفوائد ، لابن القيِّم الجوزيّة ، مصورة دار الفكر بيروت عن الطبعة المنيرية .

١٢ ـ بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال ، للسيوطي ، تحقيق مشهور حسن سلمان ، نشر مكتبة المنار ، الأردن ، الأولىٰ ، ١٤٠٧هـ .

١٣ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير ، طبعة أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ .

١٤ ـ بهجة النفوس ، لابن أبي جمرة ، مصورة دار الجيل ، بيروت ، الثانية ١٩٧٢م .

١٥ ـ تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، مصورة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤٠٧هـ .

١٦ ـ التخويف من النار والتعريف بحال دار البَوار ، لابن رجب الحنبلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ .

١٧ ـ التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ، للقرطبي ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، الثانية ، ١٤٠٧هـ .

١٨ ـ الترغيب والترهيب ، للمنذري ، طبعة مصطفىٰ محمد عمارة ، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي ، قطر .

١٩ ـ تعجيل المنفعة ، لابن حجر العسقلاني ، تحقيق إكرام الله إمداد الحق ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤١٦هـ .

٢٠ ـ التعريفات ، للشريف الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ١٤٠٣هـ .

٢١ ـ تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، لابن أبي حاتم ، طبعة أسعد الطيب ، توزيع مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، الثانية ، ١٤١٩هـ .

٢٢ ـ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، الأولىٰ ١٤١٩هـ .

* ـ تفسير الخازن = لباب التأويل .

* ـ تفسير الطبري = جامع البيان .

* ـ تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن .

٢٣ ـ التفسير الكبير ، للرازي ، مصورة دار الفكر ، بيروت ، الثالثة ، ١٤٠٥هـ .

٢٤ ـ تقريب التهذيب ، لابن حجر ، مع حاشية البصري والميرغني ، تحقيق ودراسة محمد عوّامة ، دار ابن حزم بيروت ، الطبعة الأولىٰ من الإخراج الجديد ، ١٤٢٠هـ .

٢٥ ـ تلخيص المستدرك ، للذهبي ، المطبوع مع المستدرك .

٢٦ ـ تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش ، للسيوطي ، تحقيق مشهور حسن سلمان ، نشر مكتبة المنار ، الأردن ، الأولىٰ ، ١٤٠٧هـ .

٢٧ ـ تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، المصوَّرة الأولىٰ بدار صادر بيروت ، عن طبعة حيدر آباد الدكن بالهند ، ١٣٢٥هـ .

٢٨ ـ تهذيب سنن أبي داود ، للمنذري ، نشرة محمد حامد الفقي ، مكتبة السنة المحمدية ، ١٣٦٧هـ .

٢٩ ـ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ، للصنعاني ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، الأولىٰ ، ١٣٦٦هـ .

٣٠ ـ الثقات ، لابن حِبَّان ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، الأولىٰ ، ١٣٩٣هـ .

٣١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للطبري ، مصورة دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .

٣٢ ـ جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الخامسة ، ١٤١٤هـ .

٣٣ ـ الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، مصورة في بيروت عن الطبعة الثانية بدار الكتب المصرية ، ١٩٥٤م .

٣٤ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي ، تحقيق محمد عجاج الخطيب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ .

٣٥ ـ الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ، طبعة محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤١٠هـ .

٣٦ ـ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، للمعافى النهرواني ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، نشر عالم الكتب ومحمد أمين دمج ، الأولىٰ ، ١٩٨١م .

٣٧ ـ حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح ، لابن القيِّم ، مصورة دار الكتب العلمية .

٣٨ ـ حاشية ابن عابدين ، مصورة دار إحياء التراث العربي ، لطبعة بولاق الأولىٰ .

٣٩ ـ حاشية السِّندي علىٰ سنن النسائي ، للشيخ أبي الحسن نور الدين السندي ، مطبوع مع سنن النسائي .

٤٠ ـ حلية الأولياء ، لأبي نُعيم ، مصورة مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ .

٤١ ـ خلق أفعال العباد ، للإمام البخاري ، نشرة محمد السعيد بن بسيوني ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة .

٤٢ ـ الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، الأولىٰ ، ١٤٠٠هـ .

٤٣ ـ روح المعاني ، للآلوسي ، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت للطبعة المنيرية .

٤٤ ـ سُبُل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد ، للصالحي الشامي ، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ، وآخرين ، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، الأولىٰ ، ١٣٩٢هـ وما بعد .

٤٥ ـ سراج الملوك ، للطُّرطوشي ، المطبعة الوطنية بالإسكندرية ، ١٢٨٩هـ .

٤٦ ـ سنن ابن ماجه ، تحقيق بشار عواد معروف ، دار الجيل ، الأولىٰ ، ١٤١٨هـ .

٤٧ ـ سنن أبي داود ، تحقيق محمد عوامة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، الثانية ، ١٤٢٥هـ .

٤٨ ـ سنن الترمذي ، تحقيق بشار عواد معروف ، دار الغرب ، الثانية ، ١٩٩٨م .

٤٩ ـ سنن الدارمي ، تصحيح فواز زمرلي وخالد العلمي ، دار الريان ، القاهرة ، الأولىٰ ، ١٤٠٧هـ .

٥٠ ـ سنن النَّسائي ، الطبعة المفهرسة باعتناء عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ، الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ .

٥١ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لعبد الله بن عبد الحكم ، نشر المكتبة العربية ، دمشق ، ١٣٤٦هـ .

* ـ شرح إحياء علوم الدين = إتحاف السادة المتقين .

* ـ شرح الأربعين النووية = الفتح المبين .

٥٢ ـ شرح السنة ، للبغوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، نشر المكتب الإسلامي ، الثانية ، ١٤٠٣هـ .

٥٣ ـ شرح صحيح البخاري ، للكِرماني ، مصورة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الثانية ، ١٤٠١هـ .

٥٤ ـ شرح صحيح مسلم ، للنووي ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، الثالثة .

٥٥ ـ شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، الرابعة ، ١٣٩٥هـ .

٥٦ ـ شرح المواهب اللدنية ، للزرقاني ، الأزهرية ، ١٣٢٥هـ .

٥٧ ـ شرح الموطأ ، للزرقاني ، الاستقامة ، ١٣٧٩هـ .

* ـ شعب الإيمان = الجامع لشعب الإيمان .

٥٨ ـ شفاء السَّقام ، للسبكي ، طبعة بولاق ، مصر ، الأولىٰ ، ١٣١٨هـ .

٥٩ ـ صحيح ابن خزيمة ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٠هـ .

٦٠ ـ صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري .

٦١ ـ صحيح مسلم ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٦٢ ـ صعود الأقوال ورفع الأعمال ، لعبد الله سراج الدين ، توزيع مكتبة طيبة بالمدينة المنورة ، الأولىٰ .

٦٣ ـ الضوء اللامع ، للسخاوي ، مصورة دار مكتبة الحياة لطبعة القدسي ، ١٣٥٥هـ .

٦٤ ـ عمدة القاري بشرح صحيح البخاري ، للعيني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، الأولىٰ ، ١٣٩٢هـ .

٦٥ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود ، عظيم آبادي ، طبعة عبد الرحمـٰن محمد عثمان ، دار الفكر ، بيروت ، الثالثة ، ١٣٩٩هـ .

٦٦ ـ عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، مصورة دار الكتاب العربي لطبعة دار الكتب المصرية .

٦٧ ـ غريب الحديث ، لأبي عبيد القاسم بن سلَّام ، مصورة دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٦هـ ، عن طبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٨٤هـ .

٦٨ ـ فتاوى الإمام النووي ، تحقيق محمد الحجَّار ، دار السلام ، القاهرة ، الثالثة ، ١٤٠٥هـ .

٦٩ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر ، مصورة دار الفكر بيروت ، عن الطبعة السلفية .

٧٠ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث ، للسَّخاوي ، إخراج عبد الرحمـٰن محمد عثمان ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، الثانية ، ١٣٨٨هـ .

٧١ ـ الفتح المبين بشرح الأربعين النووية ، لابن حجر المكي ، طبع عيسى البابي الحلبي ، بمصر ، ١٣٥٢هـ .

٧٢ ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، للديلمي ، طبع السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ .

٧٣ ـ الفقه الإسلامي وأدلته ، لوهبة الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، الثانية ، ١٤٠٥هـ .

٧٤ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمَناوي ، دار المعرفة ، بيروت ، الثانية ، ١٣٩١هـ .

٧٥ ـ قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج ، لابن حجر العسقلاني ، تحقيق عبد الله الصديق ، طبع دار الأدب العربي ، مصر .

٧٦ ـ الكاشف عن حقائق السنن ، للطيبي ، تحقيق بديع اللحام وآخرين ، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، كراتشي ، الأولىٰ ، ١٤١٣هـ .

٧٧ ـ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، للذهبي ، تحقيق محمد عوامة ، وأحمد الخطيب ، نشر دار القبلة ، جدة ، الأولىٰ ، ١٤١٢هـ .

٧٨ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل ، للزمخشري ، مصورة دار المعرفة ، بيروت .

٧٩ ـ الكليات ، لأبي البقاء الكَفَوي ، تحقيق عدنان درويش ومحمد مصري ، نشر وزارة الثقافة بدمشق ، ١٩٨١م .

٨٠ ـ الكواكب النيِّرات في معرفة من اختلط من الثقات ، لابن الكيال ، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي ، من منشورات جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة ، الأولىٰ ، ١٤٠١هـ .

٨١ ـ لباب التأويل ، تفسير الخازن ، مصورة مكتبة المثنىٰ ، بغداد ، لطبعة دار الكتب العربية بمصر .

٨٢ ـ لسان العرب ، لابن منظور ، مصورة دار صادر ، بيروت .

٨٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيتمي ، طبعة القدسي بالقاهرة ، ١٣٥٢هـ .

٨٤ ـ مجموع الفتاوىٰ ، لابن تيمية ، جمع عبد الرحمـٰن بن قاسم وولده محمد ، الثانية ، ١٣٩٨هـ .

٨٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ، لابن عطية ، طبعة قطر ، الأولىٰ ، ١٣٩٨هـ .

٨٦ ـ مدارج السالكين شرح منازل السائرين ، لابن القيم ، طبعة محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية .

٨٧ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، للقاري ، المكتبة الإمدادية ، ملتان ، باكستان .

٨٨ ـ المسند ، للإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الخامسة ، ١٤٠٥هـ .

٨٩ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، للباغَندي ، تحقيق محمد عوَّامة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، الرابعة ، ١٤٠٤هـ .

٩٠ ـ مسند البزار ، تحقيق محفوظ الرحمـٰن ، نشر مؤسسة علوم القرآن ، ومكتبة العلوم والحكم ، الأولىٰ ، ١٤٠٩هـ .

٩١ ـ المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ، وبذيله التلخيص ، للذهبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩٢ ـ المستغيثين بالله تعالىٰ عند المهمات والحاجات ، لابن بشكوال ، إخراج غنيم بن عباس بن غنيم ، دار المشكاة ، القاهرة ، الأولىٰ ، ١٤١٤هـ .

٩٣ ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ، للبوصيري ، طبعة كمال يوسف الحوت ، الأولىٰ ، ١٤٠٦هـ .

٩٤ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للفيّومي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، السابعة ، ١٩٢٨م .

٩٥ ـ المصنف ، لأبي بكر ابن أبي شيبة ، تحقيق محمد عوامة ، دار القبلة ، جدة ، الأولىٰ ، ١٤٢٧هـ .

٩٦ ـ المعجم الكبير ، للطبراني ، طبعة حمدي عبد المجيد ، وزارة الأوقاف بالعراق ، الأولىٰ ، ١٤٠٠هـ .

٩٧ ـ المعرفة والتاريخ ، للفسوي ، تحقيق أكرم العمري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، الأولىٰ ، ١٣٩٤هـ .

* ـ مفاتيح الغيب ، للرازي = التفسير الكبير .

٩٨ ـ مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الأولىٰ ، ١٤١٢هـ .

٩٩ ـ المقاصد السنيَّة في الأحاديث الإلـٰهية ، لابن بَلْبان ، تحقيق محيي الدين مستو ، والدكتور محمد العيد الخطراوي ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، الأولىٰ ، ١٤٠٣هـ .

١٠٠ ـ مقالات الكوثري ، الأنوار ، ١٣٧٣هـ .

١٠١ ـ مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، الثالثة .

١٠٢ ـ منتخب مسند عَبْد بن حُميد ، طبعة مصطفى بن العدوي ، دار الأرقم ، الكويت ، الأولىٰ ، ١٤٠٥هـ .

١٠٣ ـ المنتقىٰ شرح الموطأ للباجي ، مصورة دار الكتاب العربي ، الثالثة ، ١٤٠٣هـ .

١٠٤ ـ الموطأ ، للإمام مالك ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

١٠٥ ـ النبأ العظيم ، لمحمد عبد الله دراز ، نشر دار القلم ، الكويت ، الثالثة ١٩٨٨م .

١٠٦ ـ النكت على ابن الصلاح ، لابن حجر ، تحقيق ربيع عمير المدخلي ، نشرة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الأولىٰ ، ١٤٠٤هـ .

١٠٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطَّنَاحي ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .

١٠٨ ـ النهضة الإصلاحية ، لمصطفىٰ أبو سيف الحمَّامي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

* * *

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة السابعة ٥

مقدمة الطبعة الرابعة والخامسة ٦

مقدمة الطبعة الأولىٰ ٧

أثر الأحاديث القدسية في روح القارئ وقلبه ٨

تعريف الحديث القدسي ، وشرح محترزاته ٩

المحترز الأول والثاني : القول ، الصريح ، فخرج به الفعل ، وما ليس صريحاً ، ومثال ذٰلك ١٠

المحترز الثالث والرابع : ما كان من روايته ﷺ ، عن الله عز وجل ، فخرج نحو الإسرائيليات ، وما كان عن غير الله تعالىٰ ، كالملائكة مع الأمثلة .. ١١

هل يشترط في الحديث القدسي أن يصدَّر بـ : قال الله تعالىٰ ، ونحوه ؟ والجواب : لا ، مع نقل كلام ابن حجر في ذٰلك ١٢

التفصيل في أن الحديث القدسي لفظُه ومعناه من الله عز وجل ، مع ذكر قَوْلين للعلماء في ذٰلك ١٣

نقل بعض أقوال الجمهور في أن لفظه من النبي ﷺ ١٣

نقل كلام من خالف الجمهور ، وأهمُّه كلام ابن حجر الهيتمي ، وفيه : خصائص القرآن الكريم دون الكتب السماوية الأخرىٰ ١٥

هل يجوز مسُّ المحدِث لما صحَّ من التوراة ـ مثلاً ـ ونحوها ؟ ١٨

قول ابن حجر الهيتمي : نسبة الأحاديث القدسية إلى الله تعالىٰ نسبة إنشاء ، وبيان معناه ١٨

نُصرة الدكتور دراز لقول الجمهور وتقريره مذهبهم بقوة ١٩
تلخيص كلامه ، والإجابة عنه ، وبيان ذهوله عن حال الكتب السماوية - سوى القرآن - وأنه لا يلزم من قولنا : الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله تعالىٰ أن نجعله كالقرآن الكريم ٢١
يستفاد من القول بأن القدسي لفظه ومعناه من الله ، وهو غير معجز ، وبأن القرآن كذٰلك لٰكنه معجز : قوة إلزام للكافرين : هٰذا لا أتحداكم به ، وهٰذا أتحداكم به ، والكل من عند الله تعالىٰ ٢٣
ذكر سبع مصنفات في الأحاديث القدسية ، واستعراضٌ لأربعة منها متداولة ٢٤
١ - الإتحافات السنية للعلامة المناوي ، التزم فيه إخراج القدسي فقط ، ولم يلتزم الصحة ٢٦
٢ - الإتحافات السنية للشيخ محمد المدني ، وكتابه أوسع من كتاب المناوي ، ولم يلتزم فيه الصحة كذٰلك ، وقَسَمَه إلىٰ ثلاثة أقسام ٢٦
٣ - الأحاديث القدسية ، اختيار اللجنة الأزهرية ، وأحاديثه من الكتب الستة والموطأ ٢٧
إبداء ستّ ملاحظات على الكتاب ٢٧
٤ - المقاصد السنية ، لابن بَلَبَان المقدسي ، خطَّته ، وما عليه من ملاحظات ٣٠
منهجي في اختياري ٣١
١ - التزمت الصحة أو الحسن فيها ٣١
٢ - كما التزمت أن تكون كلها قدسية ٣١
٣ - تخريج الحديث من أشهر كتاب رواه ٣٢

٤ ـ الإكثار من الضبط ، والتبسُّط في شرح الغريب ، وذلك ملاحظة لحال متوسطة القراء ٣٣
٥ ـ تبسيط الأسلوب والبعد عن الأسلوب العلمي ٣٣
٦ ـ توثيق النقول بعزوها إلىٰ مصادر معتمدة ٣٣
٧ ـ ترتيب الأحاديث علىٰ وفق موضوعاتها ٣٣
من أعظم الأحاديث القدسية جلالة وشمولاً ٣٥
الحديث ١ : يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي . . . ، وتخريجه ، وأهميته عند السلف ٣٥
ـ السرُّ في تكرار النداء : يا عبادي . . . يا عبادي ٣٧
ـ الظلم نوعان : ظلم للنفس ، وظلم للآخرين ٣٨
ـ فالأول بالمعاصي وأعظمها الشرك ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ٣٨
ـ والثاني بالقول أو بالفعل : « إن المفلس من أمتي . . . » ٣٨
ـ العباد كلُّهم عرضةٌ للضلال والغواية إلا من استعصم بالله ، واستمسك بحبله المتين ٤٠
ـ من مظاهر الهداية للعبد : توفيقه لصحبة الأخيار الأبرار ٤٠
ـ الإشارة إلىٰ تحقُّق فقر العباد إلىٰ خالقهم في الطعام والشراب والكساء ٤٠
ـ ذنوب العباد كثيرة مستمرة ، وعفو الله أعظم وأوسع ٤١
ـ لا تعارض بين التعميم والتأكيد في الحديث « وأنا أغفر الذنوب جميعاً » وبين التخصيص والتعليق بالمشيئة في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ . . . ﴾ ٤٢
ـ التطابق بين هـٰذا الحديث : فاستهدوني . . . فاستطعموني . . . وبين

قوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . . . ﴾ ٤٣

ـ لطيفة دقيقة في التأديب الرباني للعباد في قوله : « كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم . . » ، وقوله : « كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد » دون لفظة « منكم » ٤٤

ـ ما أحوجَنا إلى الأدب فيما بيننا ومع خالقنا سبحانه وتعالىٰ ٤٥

ـ الغنىٰ علىٰ مرتبتين : الأولىٰ بمعنى الاستغناء ، والثانية بمعنى الإغناء للغير وليسا إلا لله سبحانه وتعالىٰ ٤٥

ـ لا ينقُص ما عند الله لو أعطىٰ كل إنسان مسألته ولو كان نقصاناً خفيفاً كما تنقص الإبرة إذا أُدْخِلت البحر ، وما جاء في الحديث علىٰ سبيل المثال والتقريب للعقول البشرية ٤٦

ـ الأعمال تشمل أفعال الجوارح والقلوب ٤٨

ـ الأدب الرباني في قوله : « ومن وجد غير ذٰلك » مع اجتناب لفظه ، والتنبيه عليها من ابن حجر المكي ٤٩

أحاديث الإيمان والتوحيد ٥٠

الحديث ٢ : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني . . . ، وتخريجه ، وغريبه ٥٠

ـ اشتمل الحديث علىٰ ثلاثة نداءات ربانية ٥٠

ـ النداء الأول : يا بن آدم إنك ما دعوتَني ورجوتَني ٥٠

ـ الدعاء والرجاء سببان من أسباب المغفرة ٥١

ـ إفادة « ما » في قوله : « ما دعوتني » ضرورة المداومة والإلحاح في الدعاء ٥١

- **النداء الثاني** : يا بن آدم لو بلغتْ ذنوبك ٥٢
- تفسير ابن حجر المكي لقوله : « ثم استغفرتني » بالتوبة ٥٢
- تعريف المغفرة عند ابن رجب ٥٢
- تعريف التوبة ، وذكر شروطها الثلاثة في توبة العبد من ذنبه مع الله سبحانه وتعالىٰ ، وإضافة شرط رابع في توبته من ذنب بينه وبين إنسان آخر ٥٢
- مصير مَن يستغفر بلسانه وقلبُهُ مصرٌّ على الذنب ٥٣
- جملةٌ من الأحاديث في استغفاره وتوبته ﷺ ٥٣
- **النداء الثالث** : يا بن آدم لو أتيتَني بقُراب الأرض خطايا ٥٤
- التوحيد هو أعظمُ أسباب مغفرة الله تعالىٰ للعبد ٥٤
- الموحِّد العاصي غير التائب : أمرُه مفوَّضٌ لربه إما أن يدخله الجنة مع السابقين ، وإما بعد أن يطهِّره من معاصيه وذنوبه ٥٥

توحيد الله في العمل والعبادة ٥٦

الحديث ٣ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . . . ، وتخريجه ٥٦
- إفراده سبحانه بالعبادة والقصد والتوجُّه إليه ، والوعيد الشديد لمن عمل عملاً أشرك معه غيره ٥٦
- نقلٌ عن النووي رحمه الله : بأن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه بل يأثم به ٥٧

الحديث ٤ : أن الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم . . . ، وتخريجه وغريبه ٥٨
- ضرورة الإخلاص لله سبحانه في الأقوال والأعمال ٦١

ـ تخصيص العلماء والتجار والجنود بالذكْر هنا : لأنهم أهمُّ العاملين من الناس ٦١
ـ علىٰ طالب العلم أن يكون قصده اللهَ ومرضاتَه ، وأثر ذٰلك ٦٢
ـ تحذير طالب العلم من جملةٍ من أوبئةٍ وأمراضٍ طلبة هٰذا الزمان ٦٤
ـ العلم : حفظ وفهم ، وعمل وتطبيق ، والعالم مَن جمع ذٰلك ، واستفادة ذٰلك من سيرة السلف وتراجمهم ٦٥
ـ الحثُّ علىٰ قراءةِ مجموعةِ كتبٍ من أهم ما كُتب في ذٰلك ، وعلىٰ صحبة العلماء العاملين الذين هم الكتب الناطقة ٦٥
ـ من اتَّصف بالحفظ والفهم والتحقيق . . . وهو بعيد عن العمل لا يعدو أن يكون ناقلاً كما وصفه بذٰلك الإمام ابن أبي جمرة ٦٦
ـ من آفات المال ٦٧
ـ أهل الإخلاص حقاً يتنكَّرون ولا يَظهرون لئلا يُعرفوا ويذكروا . . . وقصة صاحب النَّقْب مع مسلمة بن عبد الملك من روائع قصص المخلصين .. ٦٨
الحديث ٥ : لقد خلقتُ خلقاً ألسنتُهم أحلىٰ من العسل وقلوبهم أَمَرُّ من الصَّبِرِ . . . ، وتخريجه ، وغريبه ٧٠
ـ لا يجتمع إيمان ونفاق في قلب مسلم صادق ٧٠
ـ علماء السوء في آخر الزمان يشترون دنياهم بالدين ، وذِكْر صفتهم ، والوعيد الشديد لهم ٧١
الحديث ٦ : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي . . . وتخريجه وغريبه ٧٢
ـ الفاعل الحقيقي لأي أمر هو الله سبحانه ، وليس للأسباب قوةُ التأثير في الأشياء إلا بإرادته سبحانه ٧٣
ـ من اعتقد بالأسباب اعتقادَه بالمسبِّب الخالق فقد كفر ٧٤

- كلام نفيس للإمام الشافعي رحمه الله فيمن قال : مُطرنا بالنوء ، وتفصيل معنىٰ كلامه لابن الأثير والنووي رحمهما الله ٧٤

- هناك كفر إيمان ، وكفر نعمة والثاني لا يخرج من الملة ٧٥

الحديث ٧ : يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهرَ . . . . ، وتخريجه ٧٦

- معنى : الإيذاء ، والدهر ٧٦

- نسبة نكبات الحياة إلى الدهر والزمن معصية لله تعالىٰ ٧٦

- من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة فقد كفر ٧٧

- كلام قيم لابن أبي جمرة في مدار الشرع علىٰ قاعدتين : الامتثال والأدب ٧٧

الحديث ٨ : كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذٰلك . . . ، وتخريجه وغريبه ... ٧٨

- اعتقادات مكفرة عند طائفتين من بني آدم حملهما علىٰ ذٰلك الجهل ومجاوزة الحدِّ ٧٩

- الطائفة الأولىٰ : منكرو البعث ، والدليل العقلي في الردِّ عليهم ٧٩

- معنىٰ : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ مع أن كلَّه هيِّن على الله تعالىٰ ٨٠

- الطائفة الثانية : من ينسب الولد لله سبحانه وتقدَّس ، وإبطال هٰذا الزعم عقلاً ٨٠

- وجه الجهل ومجاوزة الحدِّ عند تلك الطائفتين ٨١

الحديث ٩ : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري . . . ، وتخريجه ٨٢

- معنى : الكبر والعظمة ٨٢

- صفة الإنسان العبدية ، وكماله في تحقُّقه بها ، لذٰلك لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر ٨٣

ـ إذا قال الرجل : هلك الناس فهو أهلكُهم ، مع ضبط « فهو أهلكُهم » وبيان معناها ٨٤
ـ وجه تسمية الكبرياء والعظمة رداء وإزاراً ، وشواهد لذٰلك من كلام العرب ٨٤
الحديث ١٠ : أَنْفِق أُنْفِق عليك ، وتخريجه وغريبه ٨٦
ـ الإنفاق في وجوه البر والخير مكان وعد الله بالخَلَفِ على المنفق ٨٦
ـ عطيات الله تعالىٰ تليق بعظمته وكرمه ٨٧
ـ الإمدادات الإلٰهية لكل مخلوق بما يناسبه علىٰ مقتضىٰ حكمته سبحانه ٨٧
ـ « الماء » المذكور في قوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ٨٨
الحديث ١١ : ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا . . . ، وتخريجه ٩٠
ـ نقل الإمام النووي مذهبين مشهورين في معنىٰ « ينزل ربنا » ٩٠
ـ بيان أن في السلف مؤوِّلة ، ليعرف تاريخ التأويل . ت ٩٠
ـ متىٰ يكون التنزل ؟ ، وتحديد ثلث الليل الآخِر ، وأنه وقت التجليات والمنح ٩٢
ـ أفضل الصلاة والصيام بعد أداء الفريضة : صلاة الليل وصيام شهر المحرَّم ٩٣
ـ يتحقق قرب العبد من ربه ، وقرب الرب منه : حال سجوده في جوف الليل ٩٣
ـ الحكمة في إبهام ساعة الليل وغيرها من ساعات الإجابة . ت ٩٤
ـ أول صفات المحسنين : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ٩٤

- كلام الإمام النووي والعلامة علي القاري في معنىٰ : « من يُقْرِضُ غيرَ عَديم ولا ظَلوم » ٩٤

باب القَدَر ٩٦

الحديث ١٢ : إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب . . . ، وتخريجه ٩٦

- كلُّ الأمور مقدَّرة قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ٩٧

- القلم : أول المخلوقات ، ولا تُعرف ماهيته ولا صفته ٩٧

- أيهما خَلَقَ اللهُ أولاً : العرش أو القلم ؟ قولان للعلماء ، وبيان الراجح منهما ٩٨

- قول القلم : ربِّ وماذا أكتب ؟ كلام على الحقيقة لا مجاز ولا تأويل ، كما أن هناكَ أشياءَ أخرىٰ ورد في القرآن والسنة أنها تتكلم وتسبِّح ٩٨

- الكتابة هـٰذه عامة وشاملة لكل كلي وجزئي ولكل كبير وصغير ٩٩

- الفرقة المنسوبة إلى القَدَر طائفتان ، بيانهما وبيان الفرق بينهما ١٠٠

باب بدء الخلق وأحاديث الأنبياء ١٠٢

الحديث ١٣ : إن الله تبارك وتعالىٰ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه . . . ، وتخريجه ١٠٢

- معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . ﴾ ١٠٤

- اعملوا فكل ميسَّر لما خُلق ، وكلمة « ميسَّر » تجمع كلمتي : مسيَّر ومخيَّر ١٠٥

- أخطأ الجبرية بقولهم : الإنسان مسيَّر ، كما أخطأ المعتزلة بقولهم : إنه مخيَّر ١٠٥

- وأهل السنة والجماعة يقولون كما قال ﷺ : « ميسَّر » ١٠٥

- نقلان عن الخطابي في تقرير معتقد أهل السنة في القدر ١٠٦
- لا يجوز الاحتجاج بالقدر المغيَّب لتسويغ الأعمال الشريرة ١٠٧
- أدلة قرآنية كثيرة تنسب الأعمال إلى العبد ، وبذٰلك يبطل مذهب الجبر ١٠٧
- مراد علماء الكلام من قولهم : الجزء الاختياري ١٠٨
- مواقفُ خوفٍ وخشية لبعض السلف من خاتمة السوء والعياذ بالله تعالىٰ ١٠٩
الحديث ١٤ : إن الله عز وجل يقول لأَهونِ أهل النار عذاباً : . . . ، وتخريجه وغريبه ١١١
- أسباب استعمال المحدثين لفظة : « يرفعه » وعدولهم عن الصيغة الصريحة ١١١
- ذكر الميثاق الذي أُخذ علىٰ بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم ١١٢
الحديث ١٥ : خلق الله آدمَ وطولُه ستون ذراعاً ثم قال . . . ، وتخريجه ... ١١٤
- خلق آدم مبتدأً ، لا متسلسلاً متطوِّراً ١١٤
- طولُ آدم وعرضُه ، ومقدار الذراع المذكور في الحديث ١١٤
- « السلام عليكم » تحية المسلمين ولم تكن في الأمم قبلهم ١١٥
- الفاء للاستئناف في قوله : « فكل من يدخل الجنة . . . » وليست للتفريع ١١٥
- الجواب النبوي عن نقص الخلق الآن ١١٥
- ألوان الآدميين وأخلاقهم متوازنة من أبيهم آدم ١١٦
الحديث ١٦ : لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح . . . ، وتخريجه ١١٧

- نقلٌ لابن حجر عن الحَليمي في حكمة مشروعية الحمد للعاطس ١١٨
- نقل آخر لابن حجر بيان القاضي ابن العربي للحكمة من الدعاء بالرحمة للعاطس ١١٩
- سلام من آدم ، وردٌّ من الملائكة ١١٩
- هبةُ آدم ستين سنةً من عمره لداود عليهما السلام ١١٩
- معنى الجحود عموماً ، وما المراد منه في حق آدم عليه السلام ؟ ١٢٠
الحديث ١٧ : يجيء نوح وأمته ، فيقول الله تعالىٰ : هل بلَّغْتَ ؟ . . . ، وتخريجه ١٢١
- شهادة الأمة المحمدية للأنبياء علىٰ أُممهم يوم القيامة من مواقف إظهار فضيلة هـٰذه الأمة ١٢٢
- معنىٰ : « وسطاً » ١٢٢
- هل جميع أفراد الأمة تشهد للأنبياء أو العدول منهم فقط يشهدون ؟ .. ١٢٢
- تقسيم الأمة المحمدية إلىٰ : أمة دعوة وأمة إجابة ١٢٣
- تقسيم الكَلَاباذي للأمة المحمدية إلىٰ ثلاثة أقسام : أمة دعوة ، وأمة إجابة ، وأمة اتّباع ١٢٣
الحديث ١٨ : يَلْقَىٰ إبراهيمُ أباه آزر . . . ، وتخريجه وغريبه ١٢٤
- من أوصاف يوم القيامة أنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ١٢٥
الحديث ١٩ : لا ينبغي لعبد أن يقول : إنه خير من يونس بن مَتَّىٰ ، وتخريجه ١٢٧
- لا يحقُّ لعبد أن يفضِّل نفسه علىٰ بعض الأنبياء والمرسلين ١٢٧
- وجه اختصاص يونس عليه السلام بالذِّكْرِ ، وجانبٌ من قصته مع قومه ١٢٧

- التأديب الإلـٰهي في قوله : « لا ينبغي » شامل للأنبياء فمن دونهم ١٢٨
- مفهوم الحديث من أن يونس عليه السلام أفضل الأنبياء أو يتساوىٰ مع أفضلهم : غيرُ مراد ، ونقل الإمام النووي عن العلماء توجهين لمثل هـٰذه الأحاديث ١٢٨

الحديث ٢٠ : جاء ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام . . . ، وتخريجه وغريبه ١٣٠

- عُرِف موسىٰ عليه السلام بغضبه ١٣١
- موسىٰ عليه السلام يسأل ربه ما تطمح إليه نفوس الصالحين من دفنه بجوار قوم صالحين وفي أرض مباركة ١٣١
- الحكمة في عدم سؤال موسىٰ ربَّه أن يدفنه ببيت المقدس ١٣١
- رؤية نبينا ﷺ ليلة الإسراء موسىٰ عليه الصلاة والسلام قائماً في قبره يصلِّي ١٣٢
- تفسير ابن المنيّر لمراد البخاري من تبويبه « باب من أحب الدَّفْن في الأرض المقدسة أو نحوِها » ١٣٢
- كيف تجرأ موسىٰ علىٰ فَقْء عين ملك الموت ؟ وكيف انفقأتْ عينه وهو من غير البشر ؟ وكيف لم يقتصَّ الله للملك ؟ والجواب عنها ١٣٢

الحديث ٢١ : بينا أيوبُ يغتسل عُرْياناً . . . ، تخريجه وغريبه ١٣٩

- الصبر على البلاء وإن اشتدَّ يعقُبه رحمة الله وعظيم فضله ١٣٩
- مدة لُبث أيوب في بلائه . ت ١٤٠
- الامتحان الماديُّ لأيوب عليه السلام بعد الامتحان الجسدي ١٤٠

الحديث ٢٢ : قرصت نملة نبياً من الأنبياء . . . ، تخريجه وغريبه ١٤٢

- سبب الحديث ، وذِكْر اسم النبي هـٰذا ١٤٢

ـ عتْب الله عليه لإحراقه وادي النمل ١٤٢

ـ تسبيح النملِ وشبهِه على الحقيقة فلا مجاز ولا تأويل ١٤٢

ـ جاء في رواية : « فهلا نملة واحدة » أي : وهي التي قرصتك ، وليس معناه : إحراق واحدة لا على التعيين ، وفيه ضمناً الدعوة إلى الصفح والعفو ١٤٢

ـ الحديث دليل على جواز إحراق النمل في شرع من قبلنا ١٤٣

ـ نص الإمام النووي على عدم جواز تحريق النمل في شرعنا ، ومثله في عدم الجواز قتلُه بغير الإحراق عند الشافعية ١٤٣

ـ تفريق الخطابي والبغوي بين النمل الكبار في عدم جواز قتله ، وجوازه في صغار النمل ١٤٤

الحديث ٢٣ : أنه ذكر رجلاً فيمن سلف . . . (إذا متُّ فأحرقوني) وتخريجه وغريبه ١٤٦

ـ الاستفادة من الأحداث الواقعة ذات الأثر الكبير في النفس ١٤٧

ـ نبَّه النووي إلى أن قوله : « لئن قَدَر الله عليَّ » صَدَر منه وهو غير ضابط لكلامه ولا قاصدٍ ولا معتقد ١٤٨

ـ أو أنها من المجاز المستعمل في كلام العرب المسمى : مزج الشك باليقين ١٤٨

ـ أو أنها بمعنى : يضيِّق كقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ١٤٩

ـ موقفُ خشيةٍ لله : سببٌ لغفران الذنوب لتدارُك العبد برحمة الله ١٥٠

الحديث ٢٤ : ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم . . . ، وتخريجه وغريبه ١٥١

- هٰذا الحديث يمكن تقسيمه إلىٰ ثلاثة أقسام : أسبابُ البعثة المحمدية ، أحداثُها ، نتائجها ١٥٢
- فأسبابها : إنقاذ الناس من أيدي الشياطين حيثُ أضلُّوهم وأمالوهم عن الحنيفية ١٥٢
- كلام للراغب رحمه الله في معنى : الحَنَف والجَنَف ١٥٣
- خلق الله عباده على الحنيفية ، ثم تدرَّجوا في غواية الشياطين لهم ١٥٣
- وجه تسمية الحجة بالسلطان ١٥٤
- عقائد الإسلام كلُّها مبنية علىٰ (سلطان) من الأدلة ١٥٤
- اقتضت الحكمة الإلـٰهية إنقاذ البشرية من شِركها وضلالها مع مَقْته لهم وسخطه عليهم ، ذٰلك لأن رحمته سبقت غضبه ١٥٤
- القسم الثاني : أحداث البعثة المحمدية ١٥٥
- إرساله ﷺ رحمة للعالمين وإنقاذاً للبشرية من مقت الله وغضبه ١٥٥
- كلام النووي رحمه الله في معنىٰ : « إنما بعثتك لأبتليَك وأبتليَ بك » . ١٥٥
- تأييده ﷺ بالقرآن ، والمراد بقوله تعالىٰ : « أنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء » أي : محفوظاً بحفظ الله له ، لا يُنسخ ولا يُغيَّر ١٥٦
- معنىٰ قوله : « تقرأه نائماً ويقظان » اليسر والسهولة في حفظه وفهمه .. ١٥٦
- أمر الله تعالىٰ رسوله بدعوة قريش ، وسرُّ التعبير بقوله : « أن أُحرِّق قريشاً » ١٥٦
- قوله ﷺ : « إذاً يثلَغوا رأسي » هي النتيجة الحتمية عنده ﷺ لعلمه بما جُبلت عليه نفوس قريش ١٥٧
- إعلام الله تعالىٰ رسوله ﷺ بأن العاقبة الحسنىٰ له ، وبما أعدَّه له ١٥٧

ـ منهج هٰذه الدعوة : قاتل بمن أطاعك من عصاك ، ففيه صدق إسلام من اتبعك إذ لا تبذل الروح العزيزة إلا في سبيل ما هو أعزُّ منها ١٥٧

ـ وفي قوله : « أنفِقْ فسيُنْفَق عليك » أمر بالإنفاق بعد الأمر بالغزو في سبيل الله وفيه إشارة إلىٰ نوعي الجهاد : بالنفس وبالمال الذي هو من صفات المؤمنين الصادقين ١٥٨

ـ إجمال أحداث البعثة المحمدية في أربع نقاط ١٥٨

ـ القسم الثالث : نتائج البعثة المحمدية ١٥٩

ـ فأولها : أوصاف أتباعها ، ومآلهم إلى الجنة ، وثانيها : أوصاف مخالفيها ومآلهم إلى النار ١٥٩

ـ فأهل الجنة ثلاثة : الأول : ذو سلطان مقسط ، متصدِّق ، موفق ، وشرح هٰذه الأوصاف ١٥٩

ـ الثاني : رجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ ومسلم ، مع شرح هٰذه الأوصاف أيضاً ١٦٠

ـ الثالث : عفيف ، متعفِّف ، ذو عيال ، وشرحها ثم التنبيه إلىٰ أن هٰذه الصفات موصلة للجنة إن قرنت بالإيمان ١٦١

ـ وأما أهل النار فخمسة أصناف : ١٦١

ـ أولهم : ضعيف لا عقل له يبصِّره بالأمور ، وليس المراد بذٰلك نفي العقل التكليفي عنه ، بل المراد ضعف عقله في اتِّباعه لكل ناعق ١٦١

ـ الثاني : الخائن ، وشمول الخيانة لكل ما تَصدُق عليه من خيانة مالية ، ونقض عهد ، وغير ذٰلك ، وبيان أن وزر الخيانة عظيم عند الله تعالىٰ ... ١٦٢

ـ نقل الإمام النووي عن أهل اللغة معنىٰ : خَفَى الشيءَ ، وأخفاه ١٦٢

- الثالث : المخادع في كل مجال : في الأهل والعرض والنساء والمال ، والخداعُ وأهلُه في النار ١٦٢
- الرابع : المتصف بالبخل أو بالكذب ، فإحداهما كافية لأحقيَّة صاحبها بالنار ١٦٣
- بعض الأدلة علىٰ تحريم الكذب ، وعقوبة الكذاب ١٦٣
- بعض الأدلة علىٰ تحريم البخل ، وعقوبة البخيل ١٦٤
- الخامس : الشِّنظير الفحَّاش ، وهو : السيئ الخلق ١٦٥
- من الأدلة علىٰ ذم الفحش والتفحش ، وسوء الخلق ، والثناء علىٰ ذي الأخلاق الحسنة ١٦٥
من إكرام الله تعالىٰ للنبي ﷺ ولأمته ١٦٨
الحديث ٢٥ : حديث الإسراء والمعراج ، تخريجه وغريبه ١٦٨
- ذكر أن حديث الإسراء والمعراج أُفردت فيه كتب ورسائل ، وأن من أوسع من تكلم فيه الصالحي في « سيرته الشامية » والزرقاني في « شرح المواهب » ١٧١
- التوفيق بين قوله في هـٰذا الحديث : « ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً » مع ما ورد في حديث آخر من كتابتها حسنة ١٧٢
الحديث ٢٦ : اللهم أمتي أمتي ، وبكىٰ ﷺ ، وتخريجه ١٧٣
- في الحديث مكرمتين للنبي ﷺ : ١ ـ شفقته علىٰ أمته ، ٢ ـ مكانته عند ربه ١٧٣
- بيان سبب الحديث : قراءة النبي ﷺ آيتين ، الأولىٰ علىٰ لسان إبراهيم ، والثانية علىٰ لسان عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام ١٧٣
- معنى : « اللهم أمتي أمتي » أي : ارحمهم وتداركهم ١٧٤

- قَرَن ﷺ دعاءَه بالبكاء ، فكانت سرعة الإجابة ١٧٤
- السرُّ في إرسال جبريل وسؤاله عن سبب بكاء النبي ﷺ : مزيد تكريم وإظهار مزية ، وكلام النووي رحمه الله في ذٰلك ١٧٤
- لطيفة في التعبير بـ ـ إنا ـ في قوله تعالىٰ : « إنا سنرضيك . . . » ١٧٥
- لطيفة ثانية في قوله تعالىٰ : « ولا نسوءك » وكلام النووي بأن هٰذا الحديث من أرجى الأحاديث لهٰذه الأمة ١٧٥
- وجه التعبير بـ « سوف » مع التعبير هنا بقوله : « سنرضيك . . . » ١٧٥
الحديث ٢٧ : إن الله زَوىٰ ليَ الأرض . . . ، تخريجه وغريبه ١٧٧
- في هٰذا الحديث عظيم مقامه ﷺ عند ربه ، وذكر بشارات لهٰذه الأمة المحمدية ١٧٨
- فلقد جمع الله لرسوله الأرض فرأىٰ مشارقها ومغاربها . . . وجاءته البشارة بامتداد ملك أمته ١٧٨
- وأعطي ﷺ الكنزين ، فقال النووي : المراد : كنزا كسرىٰ وقيصر ملكي العراق والشام ، والأمر أعم من هٰذا والله أعلم ، فقوله : « أعطيت الكنزين » كناية عن كنوز الأرض جميعاً كما دلت الأحاديث علىٰ ذٰلك .. ١٧٨
- دعاؤه ﷺ أن لا يهلك هٰذه الأمة بقحط عام ، وأن لا يتسلَّط عليها أجنبي وينزل بها البأس والهوان ، فاستجيب له ١٨٠
الحديث ٢٨ : إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم . . . ، تخريجه وغريبه ١٨٢
- بيان فضل الله على الأمة المحمدية بزيادة الثواب ومضاعفة الأجور ... ١٨٢
- الإشارة إلىٰ قصر مدة هٰذه الأمة في الأرض بالنسبة إلى الأمم الأخرىٰ ١٨٢

- وصف اليهود والنصارىٰ بالعجز عن القيام بواجبهم تُجاه ربهم ١٨٣
- اختصاص الله تعالىٰ لنا بمضاعفة الأجر مع قصر الوقت ١٨٣
- اعتراض أهل الكتابين علىٰ ذٰلك ، وجواب رب العالمين بأنه أداهم حقَّهم غير منقوص فلم يظلمهم ، أما فضله فيؤتيه من يشاء ١٨٣
الحديث ٢٩ : لما نزلت : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ **، وتخريجه** ١٨٤
- حال الصحابة وما اعتراهم من الوجل الشديد واستصعاب الأمر لما نزلت : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ ١٨٤
- إرشاده ﷺ الصحابة إلى التسليم في أمرهم وأن يقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وأن لا يكونوا مثل المغضوب عليهم ١٨٥
- فكانت النتيجة أنْ خفَّف الله عنهم وعن من بعدهم فأنزل : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ١٨٥
- قول الله تعالىٰ : « قد فعلت » ، دليل على استجابة دعائهم لما قرؤوا بهٰذه الآيات ، وليس هٰذا قاصراً عليهم ، بل هو عام بإذن الله ومشيئته لكل من دعا بها ١٨٥
- الإيمان نور يقذف في القلوب ، ثم يكون تصديق الجنان ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ١٨٥
- من دقائق التعبير في القرآن الكريم : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ و﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ وأن هٰذا ليس من باب التفنن في التعبير كما قال بعضهم ، وكلام ابن عطية والزمخشري في بيانه ١٨٦
- من النسيان ما يؤاخَذ عليه صاحبه ، ومن الخطأ ما يؤاخذ عليه فاعله ... ١٨٧
- معنى الإصر ، والفرق بين هٰذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ... ﴾ والدعاء الذي يليه ١٨٨

- ثم علَّمنا سبحانه أن ندعوه بالنصر ، وعلَّمنا قبله أن ندعوه بممهدات النصر : ﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ ﴾ ١٨٨

- كيف يتم العفو ، والمغفرة ، والرحمة ؟ ١٨٩

- قول النعمان بن بشير : إن الهلَكة كلَّ الهلَكة أن تُعمل السيئات في أيام البلاء . والكلام عن خطر الذنوب وأنها سبب لنزول البلاء ١٩٠

- وكما أن الاستغفار مطلوب للاستنصار ، كذٰلك مطلوب بعد النصر ، علامةً على الشكر ١٩٠

الحديث ٣٠ : يا عديّ هل رأيت الحِيرة ؟ . . . تخريجه وغريبه ١٩١

- هٰذا الحديث من أعلام النبوة ودلائلها ١٩٢

- إسلام عديٍّ في أواخر حياة النبي ﷺ واستغرابه هٰذا الخبر من رسول الله ﷺ ١٩٣

- الإسلام يوفِّر لأتباعه الأمن والاطمئنان والعيش الهنيء ١٩٣

- موقع الحيرة وبُعدها عن المدينة المنورة ، وبشارة رسول الله ﷺ بوصول نور النبوة إليها ١٩٣

- البشارة الثانية : لتفتحنَّ كنوز كسرىٰ ، وسوف يفتحها أولٰئك الأعراب بعد اعتناقهم الإسلام ١٩٤

- البشارة الثالثة : فيض المال وكثرة الغنىٰ حتىٰ لا يجد المزكي من يستحق زكاته ١٩٥

- وقد تحققت البشارات الثلاث كما أخبر بها الصادق الأمين ﷺ ١٩٥

- وبعد الغنى : التخلِّي عن الدنيا بما فيها إلى القبر ، ومن ثَمَّ إلىٰ لقاء الله عز وجل والحساب والوقوف بين يدي رب العالمين دون واسطة ولا ترجمان ١٩٦

- ويأتي السؤال : ألم أَبعثْ إليك رسولاً فيبلغَك ؟ ألم أعطك مالاً وأفضلَ عليك ؟ وجواب العبد في المرتين : بلىٰ يا رب ١٩٦

- وبعد الاعتراف ينظر العبد يمنةً ويسرة فلا يرىٰ إلا النار ، فأين النجاء ؟ ١٩٦

- النجاة بالاستجابة لأمر الرؤوف الرحيم ﷺ : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والسرُّ في اتقاء النار بالصدقات ١٩٦

- أخبار في فضل الصدقة وعظيم أجرها وإن قلَّت ١٩٨

من أحاديث الصلاة ٢٠٠

الحديث ٣١ : يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شَظية بجبل . . . ، تخريجه وغريبه ٢٠٠

- الخوف من الله من أسباب النجاة من النار والفوز بالجنة ٢٠٠

- لا يجمع الله علىٰ عبده خوفين : فمن خافه في الدنيا أمَّنه في الآخرة . ٢٠١

- كل عبد لا يخلو من هفوات مهما بلغ إلا المعصومين ، والرب الرحيم يغفرها له ٢٠١

الحديث ٣٢ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي . . . ، تخريجه وغريبه ... ٢٠٢

- معنىٰ : خِداج : غير تمام ، والنقصان غير الفساد ٢٠٢

- هٰذا الحديث اشتمل علىٰ حديثين ، الأول : نبوي ، والثاني : قدسي ... ٢٠٣

- معنىٰ : قسمت الصلاة : جعلت الفاتحة نصفين . فالنصف الأول فيه الثناء والحمد والتمجيد ، والثاني فيه الدعاء له ، ومن الله : الإجابة والعطاء ٢٠٣

- كلام النووي في معنىٰ : حمِدني ، أثنىٰ عليَّ ، مجدني ٢٠٣

- جاء في الحديث : « وقال مرة : فوَّض إلَيَّ عبدي » ومطابقتها لقوله تعالىٰ : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ من كلام النووي رحمه الله أيضاً ٢٠٣

الحديث ٣٣ : إن أول ما يحاسب به العبد . . . ، وتخريجه ٢٠٥

ـ فائدتان من راوي الحديث : ٢٠٦

ـ حرصه على اختيار الجليس ، ودعاؤه أن يهيئ الله له الجليس الصالح ٢٠٦

ـ تعجيله بطلب الفائدة العلمية من هدي خير البرية وإسراعه في ذلك ٢٠٦

ـ هٰذا الحديث الشريف دليل علىٰ أهمية الصلاة في الإسلام ، وعلىٰ لطف الله بعبده ، وعلى الترغيب بفعل النوافل ٢٠٧

ـ فأهمية الصلاة : مستفادةٌ من محاسبة العبد عليها أولاً ، فإن صلحت فاز ، وإن فسدت خسر ٢٠٧

ـ الحقوق المتعلقة بالإنسان قسمان : حقوق الله ، ومنها الصلاة ، وحقوق العباد ، ومنها الدماء ، لذا كان أولَ ما يحاسب عليه ٢٠٧

ـ وأما لطف الله بعبده : فيظهر في حق المقصِّر في صلاته في عدم مؤاخذته علىٰ تقصيره إلا بعد النظر فيما له من النوافل لجبر الفرائض الناقصة ٢٠٧

ـ وهل النوافل تجبر خلل الصلاة ، أم تَقوم مقام فرضٍ تركه العبد ؟ قولان للعلماء . والظاهر أن سائر الأعمال من زكاة وصيام وحج يجري فيها الخلافُ علىٰ هٰذا النحو ٢٠٨

ـ أهمية النوافل والترغيب في القيام بها لأنها المتممة للفرائض ، وخاصة السنن الرواتب ٢٠٨

ـ النوافل المطلقة : بيانها ، وأن النوافل بنوعيها سبب لمحبة الله لعبده ، وسبب لإجابَة الدعاء ٢٠٩

ـ ما وجه الفرق بين الفرائض والنوافل ؟ وأن المداومة علىٰ ترك السنن نقص في الدين ٢٠٩

ـ وصية بعض العلماء لأصحابه : « اجعلوا النوافل كالفرائض ، والمعاصيَ كالكفر » وبيان معناها ٢١١

من فضيلة النوافل ٢١٢

الحديث ٣٤ : مَن عادىٰ لي ولياً فقد آذنْتُه بالحرب . . . ، وتخريجه ٢١٢

ـ تعريف الولي ، وتقسيم الوَلاية إلىٰ عامة وخاصة ، ومَن المقصود بهـٰذا الحديث ٢١٣

ـ معاني الموالاة ٢١٣

ـ المعاداة علىٰ قسمين : مذمومة ، وهي المرادة في الحديث ، ومعاداة لله وفي الله ، وهي مطلوبة ممدوحة ٢١٣

ـ والمعاداة تكون من طرف المبغِض ، ومن طرف الولي ، فالأولىٰ بدافع شيطاني ، والثانية بدافع الإيمان ٢١٤

ـ إفادة الاختصاص من تقديم الجار والمجرور في قوله : « من عادىٰ لي ولياً » ٢١٥

ـ معنىٰ « آذنته » : الإعلام والإنذار ، فإن استدرك أمره وإلا هلك ٢١٥

ـ كلام ابن حجر الهيتمي وهو يقارن التهديد والوعيد بجانب المعادي ، بالقرب والتأييد بجانب الموالي ٢١٥

ـ للولاية طريقان : الفرائض والنوافل ، هي أسباب لحبِّ الله لفاعلها ٢١٥

ـ التعبير بقوله : « وما يزال » يفيد الدوام والاستمرار على النوافل ، وبيان ما هي النوافل ٢١٦

ـ يتعين الفرض الكفائي إذا لم يقم به من يكفي ويسدُّ الحاجة ٢١٧

ـ الموازنة بين القرب بالنوافل والقرب بالفرائض وأيُّهما أعلىٰ ٢١٧

- نقل الحافظ ابن حجر عن الطوفي اتفاق العلماء على أن قوله تعالىٰ : « كنت سمعه . . . » من باب المجاز والكناية ٢١٨
- خلاصة المراد من هٰذه الكلمات ٢١٩
- من أسباب استجابة الدعاء الحتمية : المواظبة على النوافل ٢١٩
- معنى التردُّد ، وقول ابن الصلاح في المراد به هنا ، والقول الثاني للخطابي في كلامٍ له في تأويل التردد ٢٢٠
الحديث ٣٥ : يتعاقبون فيكم ملائكة . . . ، وتخريجه ٢٢١
- في الحديث إخبار عن فوجين من الملائكة يتناوبون في الأرض ، يحفُّون المؤمنين ، ويجتمع الفوجان جميعاً في صلاتي الفجر والعصر ٢٢١
- فيصعد الملائكة الذين باتوا الليلة مع المؤمنين عقب صلاة الفجر ، ويبقىٰ ملائكة النهار معهم إلى العصر ويصعدون عقب صلاتها ٢٢١
- في جواب الملائكة زيادة على السؤال لاسترحام الله عز وجل لهم ٢٢٢
- على المسلم أن يحرص علىٰ أوقاته كلها ، خاصة منها ما يشهده الملائكة ٢٢٢
- ومَن هم هٰؤلاء الملائكة ؟ فالأكثر علىٰ أنهم الحفظة ، وقيل : ملائكة موكَّلون برفع الأعمال ٢٢٣
- مما يستفاد من الحديث : فضيلة وقتي الفجر والعصر ، وقد فسَّر ابن أبي جمرة الصلاة الوسطى التي أُمرنا بالمحافظة عليها بهٰذين الوقتين ٢٢٣
- قول الملائكة : أتيناهم وهم يصلُّون وتركناهم . . . أي : وهم في صلاة فعلاً أو استعداداً أو انتظاراً ٢٢٤

- الوعيد لمن حلف بيمين كاذبة بعد العصر وذلك حرمة للوقت ، وهل وقت الفجر مثله ٢٢٤
الحديث ٣٦ : فيمَ يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ وتخريجه وغريبه ٢٢٥
- هٰذا الحديث جامع لأعمال تكفِّر السيئات ، وأعمال ترفع الدرجات ، ودعوات نبوية جامعة ٢٢٧
- رؤيا الأنبياء حقٌّ ووحيٌ من الله عز وجل ٢٢٧
- معنى اختصام الملأ الأعلىٰ ، وقوله ﷺ : « لا أدري » ، ثم لما تجلَّىٰ له كل شيء وعرفه ، أجاب ٢٢٧
- فالأمر الأول الذي يختلفون فيه : الأعمال التي تكفِّر السيئات وهي ثلاثة : ٢٢٨
- المشي إلىٰ صلاة الجماعة ، وانتظار الفريضة بعد الفريضة ، وإسباغ الوضوء على المكاره ٢٢٨
- والأمر الثاني : الأعمال التي ترفع الدرجات ، وفي هٰذا الحديث ثلاثة أيضاً : ٢٢٨
- إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام ٢٢٨
- فالعمل الأول من الأمر الأول : الخُطا إلى المساجد لصلاة الجماعة ، وثوابه ٢٢٨
- والعمل الثاني منه : الجلوس في المساجد بعد الصلوات بنية انتظار الصلاة اللاحقة ٢٣٠
- والعمل الثالث هو : إتمام الوضوء واستيعاب أعضائه مع حصول مشقة في ذلك ٢٣٠
- فإسباغ الوضوء وحده كفارة للذنوب فكيف به على المكاره ، ودليله ... ٢٣٠

- وفي حديثٍ آخر تظهر فائدة المحافظة علىٰ هٰذه الأعمال المكفرة للذنوب « عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه » .. ٢٣١
- وأما الأمر الثاني فأول أعماله : إطعام الطعام ، وكونه للفقير أحب وأولىٰ ، فهو سبب لرفع الدرجات ٢٣٢
- كما أن إطعام الطعام من خير أعمال الإسلام ، ومن أسباب دخول الجنة بسلام من غير حساب ولا عتاب ، وما أعدَّ الله لمن أطعم الطعام من إكرامٍ في الجنة ، والأدلة علىٰ ذٰلك كله ٢٣٢
- وإطعام الطعام لمستحقِّيه مع نفسٍ رضية وإخلاص من صفات الأبرار : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ . . . ﴾ ٢٣٣
- العمل الثاني من أعمال الدرجات : لين الكلام ، وبيان جانب من سلوكه ﷺ في ذٰلك حتىٰ مع أعدائه ٢٣٣
- لم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، ومن صفات المنافقين : الفجور في المخاصمة ٢٣٤
- الأمر الثالث من أعمال الدرجات : صلاة الليل ٢٣٥
- والكلام عنها طويل ، ولقد أُلفت فيها مؤلفات ، منها « قيام الليل » للمروزي ، وفي « الترغيب والترهيب » للمنذري ، شيء كثير عن قيام الليل وفضله ٢٣٥
- وحديثنا يشير إلىٰ أفضلية صلاة الليل بقوله : « والناس نيام » إشارة إلىٰ أنها ساعة غفلة ونوم ، ومع ذٰلك فهناك من انتصب بين يدي ربه مصلياً وداعياً ٢٣٦
- المصلِّي بالليل ممن يحبُّهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم ، كما ورد الحديث بذٰلك ٢٣٦

ـ في ختام هٰذا المقام العظيم قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ : سَلْ ٢٣٧
ـ اختلاف الروايات بالذي سأله ﷺ ، وعدد الدعوات التي دعا بها ٢٣٧
ـ على المسلم أن يعتني بهٰذه الدعوات ، وأن لا يتخلف عنها ، وقد حددتها بعض الروايات بأنها بعد الصلوات ٢٣٨
الحديث ٣٧ : أَبْشِروا ، هٰذا ربكم قد فتح باباً من السماء . . . ، وتخريجه وغريبه ٢٣٩
ـ في هٰذا الحديث مباهاة إلٰهية ومفاخرة أمام الملائكة بالعباد المؤمنين ٢٣٩
ـ والملائكة تدعو وتستغفر لمن مكث بعد صلاته ولم يغادر مصلاه ، وثوابُه ثوابُ من يصلي ، كما ورد بذٰلك الحديث ٢٤٠
الحديث ٣٨ : ابنَ آدم اركعْ لي من أول النهار أربع ركعات . . . ، وتخريجه ٢٤١
ـ الترغيب في صلاة الضحىٰ وكونها أربعَ ركعات ٢٤١
ـ السرُّ في كفاية هموم باقي اليوم لمن أدىٰ هٰذه الصلاة : أو وقت الضحىٰ وقت عمل وانهماك في المعايش ، فيدعها المؤمن ليقف بين يدي ربه مصلياً ٢٤١
ـ وتسمىٰ صلاةُ الضحى : الأوابين ، والأواب : الراجع إلىٰ ربه بالطاعة والتوبة والإنابة ٢٤١
ـ وقتها : حين ترمَض الفِصال ، وهو وقت اشتداد حرارة الشمس ٢٤٢
ـ وكما أن صلاة الضحىٰ سبب كفاية هموم باقي اليوم ، كذٰلك هي تكفي عن ستين وثلاث مئة صدقة يومية عن سُلاميات الإنسان ٢٤٢

من أحاديث الصدقة ٢٤٤

الحديث ٣٩ : أنَّىٰ تُعْجِزني - ابن آدمَ - وقد خلقتك من مثل هٰذا ؟! وتخريجه ٢٤٤

- في الحديث حثُّ العباد على المبادرة في الصدقات قبل فوات الأوان ... ٢٤٤

- بيان أصل الإنسان ، وبيان أن الدنيا فانية فلماذا التكالب عليها ؟ ٢٤٤

- وصف حال الغافل الذي لا يصحو منها إلا بمفارقتها ومغادرتها إلىٰ عالم القبر ٢٤٤

- بيان أعظم الصدقة وهي التي تكون حال الصحة والحرص ٢٤٥

- وجوب الانتباه من هٰذه الغفلة قبل الوقوع في عواقب وخيمة ٢٤٥

الحديث ٤٠ : لما خلق الله الأرض جعلت تميد . . . ، وتخريجه وغريبه ٢٤٧

- الحديث في فضل صدقة السر ٢٤٧

- المتصدِّق بصدقة يخفيها هو في ظلِّ الله يوم لا ظل إلا ظلُّه ٢٤٩

- وصدقة السر تُطفئُ غَضَبَ الرب ، فإن كانت تطفئ غضب الرب الذي هو أعظم من كل عظيم وأشد من كل شديد ، فلا غرابة في أن تكون أقوىٰ من الأرض والجبال . . وما وراء ذٰلك ٢٥٠

من أحاديث الصيام ٢٥١

الحديث ٤١ : كلُّ عملِ ابن آدم له إلا الصيام . . . ، وتخريجه وغريبه ... ٢٥١

- الحديث دال علىٰ عظم فضل الصوم وأجر الصائم ٢٥١

- الإشكال في قوله تعالىٰ : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي » ... ٢٥٢

- وأقدم من تعرَّض للإشكال والجواب عنه أبو عبيد القاسم بن سلام في « غريب الحديث » ، واعتناء العلماء بذٰلك ، حتىٰ إن بعضهم أفرد لذٰلك تأليفاً ٢٥٢

ـ والصوم الذي له هٰذا الفضلُ والجزاءُ : ما كان خالصاً لله عز وجل ، وسالماً من شوائب المعاصي ، والدليل علىٰ ذٰلك من الحديث نفسه ٢٥٢
ـ اختيار جواب ابن حجر عن الإشكال في قوله تعالىٰ : « إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » ، حيث ذكر عشرة أقوال ، وأن أقربها الأول والثاني ٢٥٣
ـ فالأول : أن الصيام لا يدخله الرياء كغيره من العبادات ، فلذٰلك اختصه الله بإثابة لا يعلم قدرها إلا هو سبحانه ٢٥٤
ـ ذكر من اعتمد هٰذا الجواب ، ودليلهم له بحديث ٢٥٤
ـ وأما الثاني : فمعنىٰ « وأنا أجزي به » أي : أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته ، وبه قال ابن عيينة ٢٥٥
ـ ترجيح كل قول من القولين السابقين برواية من روايات الحديث ، فكل قول يتناسب مع رواية ٢٥٥
ـ في قوله : « إني امرؤ صائم » إرشاد نبوي ينسبه الصائم إلى التزام الأدب وعدم مجاوزة الحد ٢٥٦
ـ شهر الصيام (دورة) تدريبية عملية على الترقي في كل فضيلة ٢٥٦
ـ المُلاحاة كانت سبباً في حجب ليلة القدر عن الصحابة ٢٥٦
ـ الفائدة من تكرار : إني امرؤ صائم تعود على الصائم وعلىٰ مخاصمه ٢٥٦
ـ الصيام حاجز بين الصائم وبين آفات اللسان وبينه وبين المعاصي الأخرىٰ ٢٥٧
ـ ولا يفهم من قوله : إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث . . . ، أن هٰذا مباح في غير الصوم ، بل هو لتأكيد المنع حال الصوم ، نبه إليه القرطبي رحمه الله ٢٥٧

- نقل العيني عن القاضي عياض أقوالاً في معاني : خُلوف فم الصائم أطيب عند الله ٢٥٧

- رائحة خُلوف الصائم أطيب عند الله (في الدنيا) كما قال ابن الصلاح ، و(في الآخرة) كما قال ابن عبد السلام ، وقوله : « عند الله يوم القيامة » يؤيد القول الثاني ٢٥٨

- المقارنة بين ما ورد في خُلوف فم الصائم وبين دم الشهيد ، وأن ذٰلك لا يقتضي كون الصيام أفضل من الشهادة ٢٥٨

- قوله : « للصائم فرحتان » الأولىٰ : بتمام العبادة ، والثانية : بما يراه من جزائه ٢٥٩

- من دواعي الفرح عند الإفطار : إجابة الله دعاءه ٢٥٩

- للحديث روايتان : إحداهما : حين يفطر ، والثانية : حتىٰ يفطر ، وبيان معناهما ٢٥٩

الحديث ٤٢ : أحبُّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً . . . ، وتخريجه ٢٦١

- إلا أن تضعيف المناوي للحديث هٰذا في غير محلِّه ، وسببه . ت ٢٦١

- تحقيق أسمىٰ معاني العبودية والطاعة لله رب العالمين في الإمساك وفي الإفطار ٢٦١

- جميع الطائعين الصائمين أحباب الله ، وأحبُّهم إليه من أسرع بامتثال الأمر بعد تحقُّق انتهاء يومه ٢٦٢

- في تعجيل الفطر مخالفةٌ لأهل الكتاب ، فلنحرص عليه ٢٦٢

من أحاديث الحج ٢٦٣

الحديث ٤٣ : ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وتخريجه ، وغريبه ٢٦٣

- في الحديث حثٌّ وترغيب للتعرض لهـٰذا الفضل العميم في يوم عرفة ٢٦٣
- يوم عرفة يوم التجلي بالمغفرة العامة لكل أهل الموقف ٢٦٣
- وصف العباد في ذٰلك اليوم باستجابتهم لنداء ربهم ، وتجلِّي الله لهم بالمغفرة العامة الشاملة واستجابة دعائهم ، وعتقهم من النار ٢٦٤
- من استحق مباهاة الملائكة هو من صار شبيهاً لهم في غسل الذنوب عنه وعتقه من النار مع ما تركَّب في جسده من الصفات البشرية الأرضية ٢٦٤
- سؤاله تعالىٰ : ما أراد هـٰؤلاء ؟ سؤال للعطاء لا للمعرفة ، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفىٰ ٢٦٥
- وهل عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة يتناول المظالم ؟ والجواب أنه قد ورد التصريح بذٰلك في حديث العباس بن مرداس الآتي ٢٦٥
الحديث ٤٤ : دعا ﷺ عشية عرفة بالمغفرة . . . ، وتخريجه وغريبه ٢٦٧
- بيان رأفة النبي ﷺ ورحمته بمن يكرمه الله تعالىٰ بالحج والوقوف بعرفة ٢٦٨
- دعا ﷺ مساء عرفة فاستجاب الله دعاءه بمغفرة ذنوب الحجاج إلا المظالم ٢٦٨
- إلحاحه في الدعاء حتى استجاب الله له دعاءه بالمغفرة لأهل ذٰلك المشهد عموماً حتىٰ للظالم منهم ٢٦٨
- تعجُّب الصحابة لضحك النبي ﷺ في موقف الخشوع والدموع لما بُشِّر بعموم المغفرة لأهل الموقف ، ولما رأىٰ إبليسَ اللعين يدعو علىٰ نفسه بالويل والثبور ٢٦٩
من فضائل الجهاد والمجاهدين ٢٧٠
الحديث ٤٥ : لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال . . . ، وتخريجه وغريبه ٢٧٠

- من دلائل نبوته ﷺ : إخباره عن المرأة التي تحمل كتاباً للمشركين ... ٢٧١
- وفيه بشارة لأهل بدر بالمغفرة ٢٧١
- قبول عذر حاطب بن أبي بلتعة مع تلقين المسلمين درساً في الولاء والبراء ٢٧٢
- الآية الأولىٰ من سورة الممتحنة فيها الولاء والبراء الذي أمرنا الله به ... ٢٧٢
- وفي الحديث فائدة عظيمة تتجلىٰ بقول النفر من الصحابة : ما كذب رسول الله ﷺ ، مع إنكار المرأة وشهود الواقع ـ أولاً ـ بصدق إنكارها حيث إنهم فتشوها فلم يجدوا الكتاب ، لٰكنهم واثقون بصدق خبر رسول الله ﷺ أشد من وثوقهم بما يرونه بأعينهم ، وهٰذا ما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم تجاه أمر ربه ونبيه ٢٧٢
- دفع ما يتوهم من طلب عمر بضرب عنق حاطب ، وقد أعلمه ﷺ بصدقه ، بأن طلب عمر رضي الله عنه محمول علىٰ أن ضرب عنقه عقوبة دنيوية في مقابل خيانته ، أما صدقه فيغفر الله له ذنبه من أجله ٢٧٣
- شواهد ومواقف علىٰ ثقة الصحابة ومن بعدهم بخبر رسول الله ﷺ ... ٢٧٣
- اعتذار عمر وبكاؤه لما قال ﷺ له : « لعل الله اطَّلع علىٰ أهل بدر » ... ٢٧٤
- الترجِّي في « لعل الله اطلع . . . » يفيد تحقق الوقوع والجزم بذٰلك ، ويؤيده حديث : « لن يدخل النار أحدٌ شهد بدراً » ٢٧٥
- ولا بدَّ من فهم الحديث علىٰ أن المغفرة والمجاوزة عن حقوق الله تبارك وتعالىٰ دون حقوق العباد ٢٧٦
- جواب ابن حجر عن الإشكال في إقامة الحدِّ علىٰ مِسْطَح بقذف عائشة رضي الله عنها مع أنه من أهل بدر ، بأن المسامحة فيما لا يتعلَّق به حدٌّ شرعي ٢٧٦

ـ ومما يستفاد من الحديث : التأنِّي والتثبُّت من كل مسؤول حاكم أو قائد . . . وأن لا يتأثر بكلام مَن حوله وخاصة فيما لا يمكن تداركه كالقتل ٢٧٧

ـ موقفه ﷺ من تخلُّف كعب بن مالك يوم تبوك وقوله : لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّىٰ بغيرها ٢٧٧

الحديث ٤٦ : أيُّما عبد من عبادي خرج مجاهداً . . . ، وتخريجه ٢٧٩

ـ الحديث في أجر المجاهد : الدنيوي والأخروي ٢٧٩

ـ فإن سَلِم ورجع إلىٰ أهله رجع بأجر عظيم له يوم القيامة مع ما يغنم من أرض المعركة ٢٧٩

ـ وإن استشهد قدم على الله مغفور الذنب ، بلا فتنة قبر ولا سؤال ولا عذاب ٢٨٠

ـ هٰذا الجزاء لمن كان جهاده في سبيل الله ولإعلاء كلمته سبحانه ٢٨٠

ـ على المجاهد أن ينوي بجهاده وجه الله وابتغاء مرضاته ٢٨٠

الحديث ٤٧ : يُؤتَىٰ بالرجل من أهل الجنة . . . ، وتخريجه ٢٨٢

ـ الحديث في عظيم أجر الشهادة في الجنة ٢٨٢

ـ وهل الحوارُ مع رجل قتل في سبيل الله أو لا ؟ احتمالان ، ولكل احتمال ما يرجحه ٢٨٢

ـ طلبه للشهادة عشر مرات ، هل العدد مرادٌ أو هو لمجرد الكثرة ؟ ٢٨٢

ـ نقل ابن حجر لكلام ابن بطال في أن هٰذا الحديث أجلُّ ما في فضل الشهادة ٢٨٣

الحديث ٤٨ : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا . . . ﴾ ، وتخريجه ٢٨٤

- ليس للشهيد من أمنيَّة إلا أن يعود للدنيا ليجاهد فيستشهد لما رأىٰ من تفضُّل الله وإنعامه عليه وعلىٰ إخوانه الشهداء ٢٨٤
- وفي الحديث : تفسير للحياة المذكورة في الآية الكريمة ٢٨٥
الحديث ٤٩ : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلَّمه كفاحاً . . . ، وتخريجه وغريبه ٢٨٦
- تلطُّف وتنبيه إلىٰ أدب من آداب المخاطبة ٢٨٧
- في قوله ﷺ : « ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب » فيه إشكالان : ٢٨٧
- الأول : ظاهر الكلام لا يلاقي قول جابر : ترك أبي عيالاً ودَيناً ولذٰلك تراني منكسر الخاطر ، وجوابه ٢٨٧
- قصة جابر مع الغرماء ، وعدم رضاهم بتقسيط الدين ولا بحطِّه عنه ولا باستشفاعه بالنبي ﷺ ٢٨٨
- جابر يوفي دين أبيه ببركة دعاء النبي ﷺ وجلوسِه علىٰ أحد البيادر ، ويقول جابر : وبقي تمري كأنه لم ينقص منه شيء ٢٨٨
- الأمر الثاني في قوله ﷺ : « ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب » : وهو أنه لا تعارض بينه وبين قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ . . . ﴾ فالآية خاصة بالدنيا ، أما عبد الله فتكليم الله له في عالم البرزخ ، ولا تعارض ٢٨٩
الحديث ٥٠ : عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله . . . ، وتخريجه ... ٢٩٠
- في الحديث : حضٌّ على الثبات في المعارك ، وإعظامُ الله لمن انهزم هو وإخوانه ثم ذكَّر نفسه بربه فرجع حتى استشهد فباهى الله به ملائكته ٢٩٠

- موقف هٰذا الرجل الإيماني أنساه نفسَه ، ولو لم يكن قلبه مُلِئ إيماناً لما رجع إلى الموت بعد أن نجا منه ٢٩١
- استشكال في إطلاق التعجُّب على الله سبحانه ، والتعجب لا يكون إلا من أمر خفي سببه ، والأمر وسببه معلومان ، والجواب عنه ٢٩١
- يستفاد من الحديث : أن نية المقاتل هنا كانت خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب ، وهٰذا لم يؤثر علىٰ كون الجهاد في سبيل الله تعالىٰ ٢٩١
- وأن المقاتل إذا انهزم أصحابه يُستحب له الثبات أمام العدو ولا يجب عليه ، ومن كان ثباته موجباً للهلاك من غير نكاية فيجب الفرار قطعاً ٢٩٢
الحديث ٥١ : يختصم الشهداء والمتوفَّون علىٰ فرشهم إلىٰ ربنا في الذين يتوفون من الطاعون ، وتخريجه وغريبه ٢٩٣
- الحديث في لون من ألوان الشهادة وصنف من أصناف الشهداء ٢٩٣
- وقد أفرد المنذري في « الترغيب » فصلاً في ذٰلك ، والشيخ عبد الله الصديق الغماري جزءاً سماه « إتحاف النبلاء » ٢٩٣
- تقسيم الشهداء إلىٰ ثلاثة أصناف : ٢٩٤
- الصنف الأول : شهيد الدنيا والآخرة ، وبيان شروطه ٢٩٤
- والصنف الثاني : شهيد الدنيا ، وبيان من هو ٢٩٤
- والصنف الثالث : شهيد الآخرة ، وهم أصحاب الأنواع الأخرىٰ من أنواع الشهادات فهٰؤلاء ليس لهم شيء من أحكام الشهيد في الدنيا ، بل أجرهم وثوابهم في الآخرة ٢٩٤
- تعداد ابن حجر لخمسٍ وعشرين نوعاً من أنواع هٰذه الشهادة ٢٩٥
- وأوصلتُها إلىٰ ثلاث وأربعين نوعاً استخلصتها مما ذكره المناوي عن ابن العماد ٢٩٦

- لا ينبغي التوسُّع في إعطاء لقب (الشهيد) لأي كان ٢٩٧

- الطاعون من وخز الجن ، فكما أن الشهادة في سبيل الله من ضرب أعداء المسلمين من الإنس ، فكذٰلك الطاعون من وخز أعدائهم من الجن ٢٩٧

- والطاعون شهادة لهٰذه الأمة المحمدية ، وهو لغيرهم عذاب ورجس ... ٢٩٧

- كلام لطيف ونفيس للعلامة السندي في جواب استشكال ضمني : كيف يتمنىٰ من مات علىٰ فراشه أن يلحق المطعون به ويحرمه من فضل الله ؟ ، وهٰذا إنما ينتج عن حسد ٢٩٨

- الحديث من الأدلة علىٰ صحة القول بالقياس والعمل به ٢٩٨

من أحاديث الأيمان والنذور ٢٩٩

الحديث ٥٢ : لا يأتي النذر على ابن آدم بشيء لم أقدِّره عليه . . . ، وتخريجه ٢٩٩

- الحديث في ذم نذر البخيل ، وأما النذر من حيث هو فغير مذموم ، ولٰكن الذم للبخل ولكل ما يتصل به وينشأ عنه ٢٩٩

- نقل الحافظ عن القرطبي كلاماً في النذر وذكر أنواعه ، وأعلىٰ تلك الأنواع وأن بعض أنواعه مكروهة وقد تكون حراماً ٢٩٩

- ما ينبغي أن يكون عليه العبد مع الله عز وجل من الرجاء والذل ، أما البخيل فهو يلتمس ما عند الله بطريق المعاوضة : إن أعطيتني كذا فعلتُ لك كذا ! ٣٠٠

- قد يترتب على النذر ما يريده العبد ـ إن شاء الله ذٰلك ـ وقد لا يترتب ٣٠٠

- فإذا أراد الله أن يستخرج من البخيل ما تشحُّ به نفسه أوقعه في مكروه ما ، فينذر ، فيصرف الله عنه ذٰلك المكروه ، ويستخرج الله منه المال ... ٣٠٠

الحديث ٥٣ : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة . . . ، وتخريجه ٣٠٢
ـ الحديث في جوانب من أخلاق الإسلام في المعاملة ، وهو ثلاث جمل : ٣٠٢
ـ الجملة الأولىٰ : حَض الإنسان على الوفاء ، وتحذيره من الغدر بعدما أعطىٰ أيماناً علىٰ عهده ٣٠٢
ـ الجملة الثانية : باع حراً فأكل ثمنه ، فالحرُّ ـ كما قال ابن الجوزي ـ عبدٌ لله ، فمن جَنَىٰ عليه فخصمه سيده ٣٠٣
ـ الجملة الثالثة : من استأجر أجيراً فاستوفىٰ منه العمل ولم يوفِّه أجره . . ٣٠٣
ـ يجب على المسلم أن يَحْذَر هٰذه الأصناف لئلا يتعرض للوعيد الشديد من الرب ٣٠٣
الحديث ٥٤ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٠٤
ـ الحديث في خصال أخلاقية ، تحثنا من خلالها على الاستقامة والصدق في المعاملة ، وسلوك طريق الخير والرشاد ٣٠٤
ـ هناك أحاديث أخرىٰ ذكرت خصالاً أخرىٰ ، فالعدد في هٰذا الحديث لا يراد منه الحصر وعدم الزيادة ٣٠٤
ـ التوفيق بين قوله : « لا يكلمهم » مع أنه هو الذي سيحاسبهم ؟ وبين : « لا ينظر إليهم » وهو سبحانه مطَّلع عليهم وهم في ملكوته لا يغيبون عنه طرفة عين ؟ ، وقد نقله النووي عن جمهور المفسِّرين ٣٠٥
ـ أول هٰؤلاء الثلاثة : الخائن الغاشُّ الحالف علىٰ كذبه أيماناً كاذبة ٣٠٥
ـ المقارنة بين هٰذا الخلق الدنيء ، وخُلُق الإسلام الرفيع من خلال حادثةٍ وقعت لجرير بن عبد الله لما اشترىٰ له مولاه فرساً ، وقول ذٰلك

الصحابي الجليل : بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم ٣٠٥
ـ حادثة أخرىٰ لجرير أنه كان يبصِّر المشتريَ بعيوب السلعة ويُخيِّره بشرائها ٣٠٦
ـ وثانيهم : من حلف يميناً كاذبة ليقتطع بها مال مسلم ، ووجه تخصيص الوقت بـ (بعد العصر) ٣٠٦
ـ وثالثهم : رجل بخيل شحيح ، زاد معه ماء عن حاجته في فلاة يغلب فيها الهلاك فمنعه عن رجل يحتاجه ٣٠٧
ـ مقارنة هـٰذا الرجل المانع الشحيح بروائع من صور البذل والإيثار في الإسلام ٣٠٧
ـ تقبيح الله لهـٰذا الشحيح ولصُنعه المَقيت بأنْ منعه سبحانه فضل رحمته يوم لقائه ، في وقت هو في أمسِّ الحاجة إليها ٣٠٩
الحديث ٥٥ : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي . . . ، وتخريجه وغريبه ٣١١
ـ افتتاح الحديث بالاستفهام الإنكاري ، وتقدير الكلام ٣١١
ـ التشبيه في قوله : « كخلقي » لا عموم له . . . كما أوضحه المناوي ٣١١
ـ والحديث بظاهره يدل علىٰ أن الحرمة تثبت بالقصد والإرادة وإن لم يكن ماهراً في مهنة التصوير ، وهو مستفاد من قوله : « ذهب يخلق » ... ٣١٢
ـ معنىٰ « يخلق » : يصوِّر والاستدلالُ من القرآن الكريم ٣١٢
ـ معنىٰ : « كخلقي » أي : يُشْبِه مخلوقاً من مخلوقاتي ، وإلا فخلْق الله لا يُعلم ٣١٢
ـ قد يعترض بأن مقتضىٰ هـٰذا الحديث أن تصوير كل مخلوق لله تعالىٰ كائناً ما كان حرام ولو كان منظراً للطبيعة ، والجواب : بأن مقتضىٰ عموم

ما تقدم يفيد ذٰلك ، لٰكن الجماهير على العمل بفتوى ابن عباس القاضية بجواز تصوير ما لا روح فيه ، وتخصيص التحريم بما لَهُ روح ٣١٣

ـ حكاية خلاف مجاهد لأستاذه ابن عباس ، حيث أدخل الشجر المثمر في المنهي عنه ، ولم يوافَق عليه ، كما نقله النووي عن القاضي عياض ، وحكاية دليله ٣١٤

ـ استظهار علي القاري حرمة تصوير الشمس والقمر وكلِّ ما عُبد من دون الله ، وهٰذا استظهار منه لم ينقله عن غيره ٣١٥

ـ اعتراض آخر : بأن مقتضىٰ ما تقدَّم حرمةُ تصوير المجسَّمات ، أما الصور الفوتوغرافية فلا إذْ كيف يمكن نفخ الروح فيها ٣١٥

ـ وجوابه : بذكر حديث عائشة في نهيه ﷺ عن البساط الذي فيه صورة لطائر أو خيلٍ ذات أجنحة ، والوعيد الشديد في هٰذا المقام ، مع أنه ليس تمثالاً ولا مجسَّماً ٣١٥

ـ نقل كلام الحافظ في عموم حرمة الصورة مطلقاً وعدم التفريق ٣١٦

ـ ومما يستفاد من حديث عائشة : أن الصورة لو امتُهِنت جاز ، أما إن كانت علىٰ هيئة محترمة : فلا يجوز ٣١٧

ـ نصَّ فقهاء الحنفية علىٰ كراهة السجود علىٰ صورة في بساط أو سجادة ، وفرقوا بين جعلها محلَّ السجود أو الاتكاء عليها ٣١٧

ـ أمور يجب التنبيه عليها : فالأول : ما يزعمه البعض من أن حرمة التصوير كانت في أول الإسلام ، لقربهم من عهد الأوثان ، وذٰلك سداً للذريعة . والجواب عن هٰذا الزعم ٣١٧

ـ والثاني : لا عبرة للمصطلحات والأسماء في تسمية عامل التصوير باسم غير (المصوّر) إذِ العبرة بالمعاني ٣١٧

- والثالث : اختلاف الوسائل لا تغيّر الحكم الشرعي ، فاستخدام آلات التصوير لا تغيّر حرمة التصوير إلىٰ حلّه ٣١٨
- اشتهار فتوى الشيخ محمد بخيت المطيعي بإباحة هٰذا النوع من التصوير ، واتكاء من جاء بعده علىٰ فتياه ٣١٨
- لم يُوافَق الشيخ علىٰ فتياه ، فقد ردَّ عليه عدد كبير من معاصريه من ذوي الجلالة والمقام العلمي الرفيع ، مع ذكر أبرزهم وأسماء رسائلهم ٣١٨
- نكتتان علميتان في قوله تعالىٰ : « فليخلقوا ذرَّة ، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة » ٣٢٠

من أحاديث الرقاق والذكر والدعاء ٣٢٢

الحديث ٥٦ : يا بن آدم تفرغ لعبادتي . . . ، وتخريجه ٣٢٢
- الحثُّ علىٰ تحصيل الغاية التي من أجلها خُلِق الإنسان وهي : عبادة الله ، ووعدُه سبحانه بأن من قام بها حق القيام رزقه مالاً سدَّ به فقره ، ورضاً وقناعة يشعر من خلالها بالغنى الحقيقي ٣٢٢
- لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أمور ، من جملتها : عن ماله من أين جمعه وفيما صرفه ؟ ٣٢٣
- معاقبة الله تبارك وتعالىٰ لمن لا يتفرغ لعبادته بأمرين : بإشغاله بدنياه ، وفتحها له ، والثاني : بشعوره بالحاجة إلى المزيد منها ٣٢٣
- موقف العاقل من المال : يجعله بين يديه لقضاء حوائج نفسه وغيره ، ولا يدخله قلبه فيشغله به ، فَيَدُه للمال وقلبه لله تبارك وتعالىٰ ٣٢٣

الحديث ٥٧ : أنا مع عبدي إذا هو ذكرني . . . ، وتخريجه ٣٢٥
- الحديث في فضل ذكر الله تبارك وتعالىٰ ٣٢٥

ـ « أنا مع عبدي إذا ذكرني » معيَّة الله تعالىٰ للعبد الذاكر بالرحمة والكرم والهداية ٣٢٥
ـ وفي رواية : « مع عبدي ما ذكرني » أي : دائمة ما دام ذاكراً لي . وفي رواية : « حيثما ذكرني » أي : في أي مكان ، سواء ذكره في بيته أو سوقه أو مسجده ٣٢٥
ـ أنواع الذكر ثلاثة : باللسان ، وبالفعل ، وبالقلب ٣٢٦
ـ فاللسان ذكره : بالتسبيح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وغيرها ٣٢٦
ـ « وتحركت بي شفتاه » الواو للحال أو للعطف ، وبيان المعنىٰ علىٰ كلا الإعرابين ، وترجيح القول الثاني من كلام الإمام الغزالي وعلي القاري ... ٣٢٦
ـ وذكر الله يكون بالفعل : كالصلاة ، وبالقلب ، وانظر كلاماً نفيساً للغزالي في فائدة حضور القلب في الذكر ٣٢٧
الحديث ٥٨ : إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٢٨
ـ الحديث في بيان فضل الله تعالىٰ علىٰ عباده ، وفي بيان فضل الذكر والذاكرين ٣٢٩
ـ من فضل الله علىٰ عباده إرساله ملائكته للبحث عن أهل الذكر ٣٢٩
ـ كلام الحافظ في الحكمة من سؤال الرب سبحانه ملائكته عن أهل الذكر ٣٣٠
ـ ومن فضله سبحانه علىٰ أهل الذكر : تفضُّله عليهم بالعطاء والنوال ، وإكرام العبد الخطَّاء المذنب من أجلهم وبسببهم ، لأنه جلس معهم ولو كان عابراً غير قاصد ٣٣٠

- الألف واللام في قوله : « هم القوم » فيها إشعار بالكمال أي : هم القوم كل القوم ٣٣٠
- كلام النووي في استحباب الجلوس في حِلَق الذِّكْر ٣٣١
- ضرورة اختيار الجليس الصالح والصاحب الخيِّر ٣٣١
- كلامٌ نفيس للراغب الأصفهاني في الصحبة ، نقلته بطوله لنفاسته ٣٣١
- صحبة الأخيار والصالحين وسيلة لا غاية ، كما نبَّه إلىٰ ذٰلك المشتغلون بتهذيب النفوس ٣٣٣
- كلام السَّرِيِّ السَّقَطي في هٰذا المعنىٰ وهو يُوصي ابنَ أخته الجنيد ٣٣٣
- لفتة حسنة تبيِّن حرص السلف واهتمامهم بالاستفادة حتىٰ ممن هو في حالة النزع ٣٣٤
- ما جاء في الحديث من فضل الذكر ومجالسه وأهله ٣٣٤
- مشتملات مجالس ذكر الله المشروعة التي تكون بغية الملائكة وطَلِبتهم ٣٣٤
- هل تدخل مجالس العلم في مجالس الذكر هٰذه ؟ ٣٣٥
- مغفرة الله تعالىٰ للذاكرين ولمن جالسهم مجلساً ولو كان قصيراً غير مقصود ٣٣٦
الحديث ٥٩ : أنا عند ظن عبدي بي . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٣٧
- الحديث في بيان مزيد فضل الله للذاكرين وذكر لون آخر من ألوان إكرام الله لهم ، وبيان نوعي الذكر : السري ، والجهري ٣٣٧
- غاية الإكرام والفضل في افتتاحية الحديث : « أنا عند ظن عبدي بي » ٣٣٧
- حسن الظن بالله أعلى الأعمال والخصال ٣٣٨
- معيَّة الله للذاكر معيَّة خاصة فوق معية العلم ٣٣٩

ـ النوع الأول من الذكر : « إنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » : الذكر السري ٣٣٩
ـ معنىٰ : « ذكرته في نفسي » من كلام الحافظ وابن أبي جمرة ، وبيان أن لا منافاة بين قوليهما ٣٣٩
ـ ومن دواعي الذكر السري : الإخلاص وتجنب الرياء ٣٤٠
ـ النوع الثاني : الذكر الجهري « وإنْ ذكرني في ملأ . . . » ٣٤٠
ـ وجه كون الملأ الثاني خيراً من الملأ الأول : أن الله تعالىٰ مع أهل الملأ الثاني وبذٰلك صار خيراً من الأول ٣٤٠
ـ عظيم فضل الله ولطفه وكرمه علىٰ عباده المقبلين عليه بالتوبة والإنابة ٣٤١
ـ معنىٰ : « تقربت إليه ذراعاً . . . باعاً . . . أتيته هرولة » عند الأعمش وقتادة ٣٤١
ـ قول الإمام النووي رحمه الله : « هٰذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره ، ومعناه . . . » ٣٤٢
ـ تعبير ابن الأثير عن الهرولة في الحديث بقوله : « كناية عن سرعة إجابة الله تعالىٰ . . . » ٣٤٢
الحديث ٦٠ : من شغله القرآن وذكري عن مسألتي . . . ، وتخريجه ٣٤٣
ـ الحديث في بيان : فضل طائفة تسأل الله وتدعوه ، وطائفة : تشتغل بكتاب الله وبذكره عن كل سؤال ، فهٰذه أفضل من الأولىٰ ٣٤٣
ـ « من شغله القرآن وذكري » من عطف العام على الخاص لبيان شرف الخاص وإلا فالقرآن من ضمن ذكر الله تعالىٰ ، لٰكنه أعظم الذكر ٣٤٣
ـ وقد يعترض بأن سؤال الله ودعاءه من ألوان الذكر كما في الأحاديث المتقدمة وجوابه من وجهين : ٣٤٤

ـ السائل يسأل لنفسه من الله ، والأول مشغول بذكر الله عن ذكر نفسه ، فلذا كان أفضل ٣٤٤

ـ الشطر الثاني من الحديث في تفضيل كلام على كلام : « وفضل كلام الله على سائر الكلام . . . » فمن سبح الله وحمده . . فهو ذاكر له بكلام من عند نفسه ، وقارئ القرآن ذاكر لله بكلام الله سبحانه وتعالى ٣٤٥

الحديث ٦١ : « إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قِرْنه » وتخريجه وغريبه ٣٤٦

ـ هٰذا الحديث في امتداح الله تبارك وتعالى لمن تحقَّق من عباده بصفة العبودية ٣٤٦

ـ وعلامة هٰذا التحقق : ذكره لله تبارك وتعالى في شدائد الأمور ومعضلاتها ومنها : عند ملاقاة نظيره في ساحة القتال ٣٤٦

ـ فائدة التعبير بقوله : « قِرْنه » ولم يقل : عدوّه ٣٤٧

ـ قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ حيث رتب سبحانه الفلاح على أمرين : على الثبات وعلى ذكر الله ، وليس مجرد الذكر بل الذكر الكثير ٣٤٧

الحديث ٦٢ : من قال : لا إلـه إلا الله والله أكبر صدَّقه ربه فقال . . . ، وتخريجه ٣٤٨

ـ الحديث في ذكر صِيَغ من الأذكار تكون لقائلها حرزاً من النار ٣٤٨

ـ جميع الصيغ اشتملت على « لا إلـه إلا الله » وهي أفضل الذكر ٣٤٨

ـ ذكر ما امتازت به كلُّ صيغة من الصيغ الواردة في الحديث ٣٤٩

ـ مما يستفاد من الحديث : ضرورة انتظار العبد الذاكر عقب ذكره مستشعراً تصديقَ الله له وجوابَه ٣٤٩

الحديث ٦٣ : من قال : سبحان الله والحمد لله . . . ، وتخريجه ٣٥١
- في هٰذا الحديث أشهر صيغ ذكر الله تعالىٰ ٣٥١
- معنىٰ : سبحان الله ، والحمد لله ، وأن التسبيح والتحميد كلمتان جامعتان لصفات الله علىٰ وجه العموم والإجمال : تنزيه عن النقائص وإثبات للمحامد ٣٥١
- معنىٰ : لا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ٣٥٢
- معنىٰ : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنها من كنوز الجنة ٣٥٢
- جواب الله تعالىٰ لمن ذكره بهٰذه الصيغة : « أسلَم عبدي واستسلم » ومعناه ٣٥٢
- الذاكر يحصل له الإسلام بقوله : سبحان الله والحمد لله ولا إلـٰه إلا الله والله أكبر ، ويحصل له الاستسلام بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله ٣٥٢
- تنبيه هام لبعض العوام من تلفظهم بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله » بلفظ يكون معناه كفراً ٣٥٣
الحديث ٦٤ : « أما يُرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً . . . » وتخريجه ٣٥٤
- الحديث في فضيلة الصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ﷺ ، وهو داخل في وعد الله نبيه ﷺ بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ٣٥٤
- ذكر روايات هٰذا الحديث وفيها أن النبي ﷺ سجد لله شكراً ٣٥٤
- ما جاء من الأحاديث في مقابلة صلاة الله تعالىٰ بعشر صلوات لصلاة العبد الواحدة وكذٰلك السلام ٣٥٥
- معنى : « اللهم صلِّ علىٰ محمد » يا ألله ارحم محمداً ﷺ ، لأن الصلاة من الله رحمة ٣٥٦

- ويشكل على هذا قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ حيث عطف الرحمة على (الصلوات) والعطف يقتضي المغايرة . وجواب ذلك ٣٥٧

- من آثار رحمة الله لعباده المصلّين على نبيه ﷺ : ﴿ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ٣٥٧

- من أشغل وقته كله بالصلاة على النبي ﷺ كُفي همّه وغُفر ذنبه ٣٥٨

- معنى صلاة الملائكة ، وأنها صلاة تشريف لهم لا تكليف ٣٥٨

- وأما صلاتهم على المؤمنين المصلين على النبي ﷺ فبالدعاء لهم والاستغفار ٣٥٩

- قد يشكل : كيف يأمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيه ﷺ ثم يأتي الأمر بأن نقول : اللهم صلِّ على محمد ، فلا ننشئ الصلاة من عند أنفسنا ؟ وجوابه ٣٦٠

- تلخيص كلام الآلوسي على قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ والإشارة إلى قول غريب لبعضهم ٣٦٠

- المشهور عند المحدثين كراهة إفراد الصلاة على النبي ﷺ دون ذكر السلام ، وعن بعضهم جوازه ٣٦١

من أحاديث الأدب ٣٦٢

الحديث ٦٥ : إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٦٢

- الحديث في مكانة الرَّحِم في الإسلام ، وفي الترغيب في وصلها ، والترهيب من قطعها ٣٦٣

- قيام الرحم وكلامها على سبيل الحقيقة أم المجاز ؟ وترجيح الأول ... ٣٦٣

- معنىٰ : « أنْ أَصِلَ من وصلك وأقطع من قطعك » كما قاله ابن أبي جمرة ، وأن حقيقة الوصل والقطع مستحيلة بحق مولانا تبارك وتعالىٰ ٣٦٤
- « هٰذا مقام العائذ من القطيعة » : تستجير الرحم علىٰ نفسها من القطيعة ، ويفيد كلام علي القاري أنها تستجير علىٰ قاطعها أن يقطعها فيقع في غضب ربه سبحانه ٣٦٤
- ما هي الرحم التي توصل ؟ وما حكم صلة الرحم وذكر درجاتها ٣٦٥
- صلة الرحم أعم من أن تكون بالزيارة فقط ، وكلام نفيس لابن أبي جمرة في هٰذا ، وفي شروط صلة الرحم ٣٦٦

الحديث ٦٦ : إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل . . . ، وتخريجه ٣٦٧

- هٰذا الحديث في الترغيب والترهيب ، ليزداد الصالح صلاحاً ، ويرتدع غيره ٣٦٧
- بيان الذين يحبهم الله وهم : من أدىٰ فرائض الله ونوافله ٣٦٨
- وفي بعض روايات حديثنا أن الذين يحبهم الله هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ٣٦٨
- من أحبه الله أحبه جبريل والملائكة الكرام ، ثم أهل الأرض ٣٦٩
- ومن أبغضه الله ـ وهو من فسد عمله ـ أبغضه جبريل وأهل السماء ثم أهل الأرض ٣٧٠
- من المقصود بأهل الأرض ؟ فالصالح لا يحبُّه إلا الصالحون ، والعاصي الفاسد لا يبغضه إلا الصالحون ، فهم المقصودون ٣٧٠
- تفسير معنىٰ محبة الله ومحبة جبريل والملائكة للعبد بنقلين عن النووي وابن حجر رحمهما الله ٣٧٠

الحديث ٦٧ : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٧٢

- سرعة ائتلاف قلب أبي إدريس مع قلب معاذ بن جبل ، مقارنة بما حكاه الأصمعي عن بعض الحكماء يوصي ابنه ٣٧٤
- معنىٰ : « وجبت محبتي » وفي رواية : « رحمتي » وبيان أن الرحمة أعم من المحبة ، وترجيح ما بين الروايتين ٣٧٥
- الحب لله أعلىٰ رتبةً من الحب في الله ، وكلام الغزالي في علامات هٰذا الحب ٣٧٦
- معنى : « المتجالسين فيَّ » ، وكلام الجنيد رحمه الله في فضل مجالسة الصالحين ٣٧٦
- معنى : « المتزاورين فيَّ » ، وحديث في فضل التزاور في الله ٣٧٧
- تصحيح خطأ عامي في معنى الزيارة والعيادة ٣٧٧
- مناشدة لتصحيح وضع فاسد قد عمَّ مما يحدث في زيارات الناس لبعضهم واجتماعاتهم ٣٧٧
- معنى : « المتباذلين فيَّ » وتشمل كلَّ بذل في سبيل الله : نفسَه فما دونها ٣٧٧
- في رواية أحمد زيادة : « وحقَّتْ محبتي للذين يتصافَوْن من أجلي ، وحقَّت محبتي للذين يتناصرون من أجلي » وشرحها ٣٧٨
الحديث ٦٨ : أين المتحابون لجلالي ؟ وتخريجه ٣٧٩
- الحديث في إظهار فضل الله سبحانه علىٰ طائفة خاصة من عباده ، وهم المتحابون في جلال الله ، وذكر علامة هٰذا الحب ٣٧٩
- « أين المتحابون لجلالي » هٰذا نداء لا سؤال ، وهو نداء تشريف وتكريم ٣٧٩
- ذكر جانب من أهوال يوم القيامة ، وحال المتحابين لجلال الله في ظله سبحانه ٣٧٩

ـ الظلال الواردة في الأحاديث علىٰ مراتب ثلاثة : ظل الله ، وظل العرش ، وظل العمل الصالح ٣٨٠
ـ ومنهم من قال : إنها ظل واحد ، وهل هو ظل العرش ، أم المراد بظل الله كرامته ورعايته . . . بكل ذٰلك قال العلماء ٣٨٠
ـ وممن هو في ظل الله غير من تقدَّم من جاء ذكره بحديث : « سبعة يظلهم الله في ظله . . . » وغيرهم ٣٨٢
الحديث ٦٩ : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور . . . ، وتخريجه ... ٣٨٣
ـ الحديث في ذكر لون آخر من الإكرام الإلٰهي للمتحابين فيه ٣٨٣
ـ وصف حال المتحابين في الله تعالىٰ يوم القيامة بأنهم في محلِّ غِبطة خواص عباد الله من الأنبياء والشهداء ٣٨٣
ـ كلام المناوي والبيضاوي في أنه كيف يتمنَّى النبيون والشهداء هٰذا التمني مع جلالة قدرهم ووفرة حظهم في الآخرة ؟ ٣٨٤
ـ جواب العلامة القاري عن الإشكال من حيث اللغة ، وبه يزول ذٰلك الإشكال ٣٨٥
ـ دخول أقوامٍ آخرين الجنة بغير حساب ، غيرِ مَن ذُكر بحديث الباب ... ٣٨٥
ـ كرامة أخرىٰ من الله عز وجل للمتحابين في الله سبحانه في وصف غرفهم في الجنة ٣٨٦
الحديث ٧٠ : يا بن آدم مرضتُ فلم تعدني . . . ، وتخريجه ٣٨٧
ـ الحديث في الحث علىٰ عيادة المريض ، وبذل الطعام للجائع ، والشراب للظمآن ٣٨٧
ـ معنىٰ إضافة المرض إليه سبحانه والمراد : العبد : التشريف ، وأن من

عاد المريض كان كمن زار الله . ذكره النووي عن العلماء ، ومثله العلامة القاري ٣٨٨
- معنىٰ : « لوجدتني عنده » وجدتَ ثوابي وكرامتي ، نقله النووي أيضاً عن العلماء ٣٨٨
- فضل عيادة المريض ، والتنبيه إلىٰ أن المطلوب تكرار الزيارة لذا سميت عيادة ، ولولا ذٰلك لسميت زيارة ٣٨٩
- تحرير النية في عيادتك للمريض بأن تكون لله ، مواساةً للمريض ، وشكراً لله علىٰ معافاتك ٣٨٩
الحديث ٧١ : إذا مرض العبد بعث الله تعالىٰ إليه ملكين . . . ، وتخريجه وغريبه ٣٩٠
- هٰذا الحديث لتنبيه العبد المسلم إلىٰ أن جميع ما نزل به من بلاء وشدائد يستحق حمد الله والثناء عليه ، وبذٰلك يُحفظ له أجره دنيا وآخرة ٣٩٠
- جزاء العبد المبتلَىٰ إذا حمد الله وأثنىٰ عليه ٣٩١
- أحاديث في بيان فضل ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم في البلاء من الصبر والحمد والثناء على الله سبحانه ، وبيان فضل ذٰلك ٣٩١
الحديث ٧٢ : ابن آدم إن صبرتَ واحتسبت عند الصدمة الأولىٰ . . . ، وتخريجه ٣٩٣
- الحديث في الصبر والاحتساب عند الصدمة الأولىٰ ، ومتىٰ تكون الصدمة الأولىٰ ؟ ٣٩٣
- بيان أن المصيبة قد تنزل بالكافر كنزولها بالمسلم ، لٰكن الأجر والثواب بصبر المسلم واحتسابه ٣٩٤

الحديث ٧٣ : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ وتخريجه ٣٩٥

ـ الحديث في الصبر والاحتساب والحمد عند موت الولد ٣٩٥

ـ السؤال من الله سبحانه لإبراز عظم المصيبة ، ولذلك جاء التدرج فيه .. ٣٩٥

ـ تعريف الحمد ، ومعنى الاسترجاع ٣٩٥

ـ بيان عظمة إيمان من فقد ولده فوقف لمولاه حامداً ٣٩٦

ـ معنىٰ : « وأسألك الرضا بعد القضاء » من كلام ابن تيمية نقله عنه تلميذه ابن القيم رحمهما الله ٣٩٧

ـ جواب نفيس لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرضا بقضاء الله ومناسبة كلامه ٣٩٧

ـ بشارتان للحامدين المسترجِعين الصابرين عند فقد الولد : بيت في الجنة ، وسموه بيت الحمد ٣٩٧

ـ بيان أن التنوين في « بيتاً » للتعظيم والتفخيم ٣٩٨

الحديث ٧٤ : إذا ابتليت عبدي بحبِيبتيه . . . ، تخريجه ، وغريبه ٣٩٩

ـ الحديث في الحث على الصبر لفقد البصر ، وبيان عاقبة من ابتُلي بذلك ٣٩٩

ـ شروط من يستحق هٰذا الأجر العظيم : أربعة ٣٩٩

ـ هل الحديث فيمن ولد أعمىٰ ، أو من ولد بصيراً فعمي ، الظاهر الاحتمال الثاني ٤٠٠

الحديث ٧٥ : ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيَّه . . . ، وتخريجه وغريبه ٤٠١

- في ثواب من صبر علىٰ فقد الحبيب محتسباً بصبره ٤٠١
- شروط من يستحق هـٰذا الأجر العظيم لفقد الحبيب : ثلاثة من هـٰذا الحديث ، وشرط واحد من حديث آخر ٤٠١
الحديث ٧٦ : إذا أحب عبدي لقائي . . . ، وتخريجه ٤٠٣
- الموت مقدِّمة للقاء الله ، وليس هو اللقاء ، وبناء عليه فكراهية الموت ليس كراهية للقاء الله ٤٠٣
- حوار السيدة عائشة مع سيدنا رسول الله ﷺ لما سمعت هـٰذا الحديث ، وحوار شريح بن هانئ معها ٤٠٣
- ما نُقل عن البراء بن عازب في قوله تعالىٰ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ ... ٤٠٤
- وصف خروج روح المؤمن ونزع روح الكافر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٤٠٤
- الكشف للمحتضَر عن مستقره في آخر لحظة من حياته ، فالمؤمن يتلهَّف ، والكافر يتألَّم ٤٠٥
- شذرات من وصية أبي حازم لسليمان بن عبد الملك ٤٠٥
من أحاديث صفة الجنة والنار وأهلهما ٤٠٧
الحديث ٧٧ : لما خلق الله الجنة والنار . . . ، وتخريجه ٤٠٧
- هـٰذا الحديث في التنبيه إلى النظر إلىٰ عواقب الأمور ، وعدم الاغترار بالظواهر الفاتنة ٤٠٨
- خلق الله الجنة وأعدَّ فيها كل نعيم ، ثم حفَّها بالمكاره من التكاليف الشرعية وخلق النار وما فيها من الأهوال ، ثم حفَّها بالشهوات الدنيوية ... ٤٠٨
- موقف العاقل والأحمق من الجنة والنار ٤٠٨

ـ مَثَلٌ للجنة وما حُفَّت به ، وللنار وما حُفَّت به ٤٠٩
ـ كلام الإمام النووي والمناوي في حديث : « حفَّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » ٤١٠
الحديث ٧٨ : سبقت رحمتي غضبي ، وتخريجه ٤١٢
ـ رحمة الله سبحانه تسبِق غضبه ، في الماضي والحاضر كما جاء في بعض الألفاظ : تغلب ٤١٢
ـ مِنْ سَبْقِ الرحمة للغضب في الماضي : خلق آدم وتكريمه . . . ثم توبته عليه بعد عصيانه ، وكلام للطِّيبي حول سبق الرحمة للغضب ٤١٢
ـ معنى الرحمة والغضب ٤١٣
ـ الرحمة والغضب في حق الله تعالىٰ صفتان لا توصفان بسبق ولا غلبة ، وإنما الوصف لآثارهما ، وكلام ابن الأثير والنووي في هـٰذا المعنىٰ ٤١٣
ـ ومن مظاهر سعة رحمة الله ما جاء في حديث : « جعل الله الرحمة مئة جزء . . . » ٤١٣
ـ حرصه ﷺ علىٰ أن يُرِيَ الصحابةَ أثر هـٰذا الجزء من الرحمة الإلـٰهية... ٤١٣
الحديث ٧٩ : تحاجَّت الجنة والنار . . . ، تخريجه ، وغريبه ٤١٥
ـ معنىٰ : « تحاجت » ، وكلام الجنة والنار كلُّه على الحقيقة ٤١٦
ـ سبب شكاية النار والجنة ، وقوله سبحانه لكلٍّ منهما ٤١٦
ـ قوله : « حتىٰ يضع رجله » ، وفي الرِّجل مذهبان للعلماء كما قال النووي رحمه الله ٤١٧
ـ تزيد الجنة علىٰ أهلها فينشئ الله تعالىٰ لها خلقاً جديداً ٤١٧
ـ ذكر النووي أن هـٰذا الحديث يدل علىٰ أن الثواب ليس متوقفاً على الأعمال ، وهو مذهب أهل السنة ٤١٧

الحديث ٨٠ : يقول الله عز وجل : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك . . . ، وتخريجه ، وغريبه ٤١٨

ـ هـٰذا الحديث حكاية لمشهد من أوائل مشاهد يوم القيامة ٤١٩

ـ موقف آدم من الأمر الإلـٰهي : « أَخْرِجْ بَعْثَ النار » ٤١٩

ـ ليس في الآخرة حمل ولا رضاع ، وما جاء من ذٰلك فهو من المجاز وتقريب الأمور الغيبية إلى الواقع الحسي ، أو أنها تحصل للناس في آخر لحظات الدنيا ، ورجح الحافظ وقوع هـٰذه الأشياء بين النفختين ، وذكر قبله احتمالاً آخر ٤٢٠

ـ الحديث صريح في أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم ٤٢١

ـ وفي هـٰذا الحديث بشارات نبوية متتالية : ٤٢١

ـ الأولىٰ : « إن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل » ، فخفت الوطأة وهدأت القلوب ٤٢١

ـ والثانية : « إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة » ٤٢١

ـ والثالثة : « إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة » وهاتان بشارتان مقرونتان بالقسم ٤٢١

ـ والبشارة الرابعة وهي الأعظم : « إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة » والله سبحانه أجلُّ وأكرم من أن يخيِّب مطمع حبيبه ومصطفاه ﷺ ٤٢١

ـ هناك روايات ضعيفة توصل أهل الجنة من هـٰذه الأمة المحمدية إلى الثلثين ٤٢٢

ـ الرضا بما قسمه الله تعالىٰ ينتج عنه حمده وشكره ، وهـٰذان سببان لنزول الخير والبركة ٤٢٢

الحديث ٨١ : إن عبداً أصاب ذنباً . . . ، وتخريجه ٤٢٣

- عظيم فضل الله علىٰ من تاب من عباده وإن تكررت منه التوبة لتكرار الذنب ٤٢٣
- وعظيم فائدة الاستغفار الناتج عن توبة القلب بالندم على التفريط ، والإقلاع عن الذنب ، والعزم علىٰ عدم العود ٤٢٤
- وإن استُشكل بأن نقض التوبة بالعود إلى الذنب أقبح من ابتدائه فكيف يغفر له ؟ فالجواب أن التوبة وتكرر العودة إلى الرب أحسن من ابتداء التوبة ٤٢٥
- قوله : « فليعمل ما شاء » ليس من باب إباحة المحرمات ، إنما هو مشروط باستمراره علىٰ حاله من التوبة بعد كل ذنب ٤٢٥
- شروط التوبة الصحيحة ، وفائدة الاستغفار اللساني مع الإصرار على الذنب ٤٢٦
الحديث ٨٢ : إن الله كتب الحسنات والسيئات . . . ، وتخريجه ٤٢٧
- الحديث في بيان لون من ألوان الفضل الإلـٰهي في مجازاة المحسن والمسيء ٤٢٧
- قوله : « من همَّ » وفي رواية أخرىٰ : « من أراد » واختلاف العلماء في الهمِّ والإرادة هل هما شيء واحد ؟ أو هما مرحلتان ؟ ٤٢٧
- استخلاص خمسة احتمالات في الهم بالحسنة أو السيئة وعملها أوْ لا ٤٢٨
- فالأول : الهم بالحسنة مع عدم العمل ، فإن كان لعائقٍ عارضٍ كتبت له حسنة كاملة ، وإن كان عدم العمل ناشئاً عن فتور الهمة فلا شيء له ٤٢٩
- تنبيه دقيق للإمام النووي في التعبير بجانب الحسنة بقوله : « كتبها الله عنده » و« حسنة كاملة » مما يدل على الاعتناء والاهتمام بها ، وفي جانب

السيئة لم يذكر « عنده » وقال : « سيئة واحدة » أكَّدها بأنها واحدة لا تُضاعف ولا تَزيد ٤٣٠
ـ الثاني : من هم بحسنة فعملها ، فثوابه عشر حسنات إلىٰ سبع مئة حسنة إلىٰ أضعاف كثيرة ٤٣٠
ـ وجاء في رواية : « فله عشر أمثالها وأزيد » جاءت الزيادة مجملة فسرها حديثنا ، ولابن حجر احتمال آخر فانظره ٤٣٠
ـ الثالث : من هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة ٤٣١
ـ وفي حديث آخر : « يمسكُ عن الشر فإن له صدقة » ٤٣١
ـ وتقدم أن الثواب في ترك السيئة لمن تركها لله سبحانه ومن أجله ، مع ذكر الأدلة علىٰ ذٰلك ٤٣٢
ـ ومن ترك السيئة لا لخوف من الله ، بل لعدم توافر أسبابها ، وانظر كلام النووي وابن حجر في حكمه ٤٣٢
ـ ومن هم بالسيئة فعملها كتبها الله له سيئة واحدة ، وتقدم كلام النووي في تأكيد السيئة هنا بواحدة لتقليلها ٤٣٣
ـ وهٰذه السيئة الواحدة قد يمحوها الله بالفضل ، أو بالاستغفار ، أو بعمل حسنة بعدها ٤٣٣
ـ والحديث عند مسلم بزيادة : « ولا يهلك على الله إلا هالك » ونقل كلام الإمام النووي في شرح هٰذه الجملة ٤٣٣
الحديث ٨٣ : من ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟! وتخريجه وغريبه ٤٣٥
ـ هٰذا الحديث في سعة عفوه وغفرانه ورحمته سبحانه وتعالىٰ ٤٣٥

- فهو سبحانه لا يحب أن يقنط إنسان من عفوه ورحمته ، وخصَّ القنوط بالكافرين ٤٣٦

- التقنيط والتحجير يكونان أقبح إنْ صدرا عن معجَب بعمله مغرور باجتهاده في الطاعة ، كما في رواية أبي داود المفسِّرة لروايتنا ٤٣٦

- إنما كانت عاقبة مِن أمر ونهىٰ إحباطَ عمله ، لأنه تألَّىٰ على الله بأنه لن يغفر لفلان ٤٣٧

من مشاهد يوم القيامة ٤٣٨

الحديث ٨٤ : يُدْنَى المؤمن من ربه حتىٰ يضع عليه كَنَفه . . ، وتخريجه وغريبه ٤٣٨

- هٰذا الحديث في معاملة الناس يوم القيامة : فالكافر بالفضيحة والتشهير ، والمؤمن بستر معصيته وإكرامه العلني ٤٣٩

- بيان المراد بالدنو في قوله : « يُدْنَى المؤمنُ . . . » من كلام النووي رحمه الله ٤٣٩

- الكنف لغة علىٰ معنيين ، وكلام الحافظ فيما يليق بالله سبحانه وتعالىٰ من هٰذين المعنيين ، وتأييد ذٰلك برواية أخرىٰ ٤٤٠

- أقدم من فَسَّر الكَنَف بالستر ٤٤٠

- يستحق الستر في الآخرة من ستر نفسه دون المجاهر ٤٤١

- حرمة المجاهرة بالمعاصي ٤٤١

- ضبط « الآخرون » وبيان معناها ٤٤١

الحديث ٨٥ : حديث البطاقة ، تخريجه وغريبه ٤٤٣

- الحديث عن مشهد من مشاهد القيامة وفيه يظهر الفضل الإلٰهي ، وفضيلة كلمة التوحيد ٤٤٤

- إظهار الرجل صاحب السجلات ليظهر كرم الله وفضلُه عليه وليس من باب التشهير والفضيحة ٤٤٤
- عرض الصحف على العباد إنما هو لإقامة الحجة الإلـٰهية عليهم ٤٤٤
- تدارك العناية الإلـٰهية لهـٰذا العبد المفرط في الدنيا ٤٤٥
- السجلات تطيش أمام البطاقة التي ثقلت بـ : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ٤٤٥
- معنىٰ : « لا يثقل مع اسم الله شيء » ٤٤٦
- قيل : كان الرجل كافراً طول حياته وأسلم قبل موته بلحظات ، فهدم الإسلامُ ما قبله ٤٤٦
- وقيل : كان مسلماً لـٰكنه مسرف علىٰ نفسه بكثرة الذنوب ، وقد نطق بالشهادتين منيباً تائباً ، فيكون حاله كحال من قتل تسعة وتسعين نفْساً من بني إسرائيل ٤٤٦
- وقيل : إن إكرام صاحب البطاقة من الإكرام الإلـٰهي الخاص به ٤٤٨
- تعليق الشيخ ابن تيمية رحمه الله علىٰ حديث البطاقة ٤٤٨
الحديث ٨٦ : تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم . . . ، وتخريجه وغريبه ٤٥٠
- الحديث دليل علىٰ أن الجزاء من جنس العمل ٤٥٠
- شرح الحديث ٤٥٠
- « الخلق كلُّهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ٤٥١
- مغفرة الله تعالىٰ لامرأة بغيّ أحسنت إلىٰ كلب ، ولمن أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين لا يؤذيهم ، وعذاب الله لامرأة حَبَست هرة ٤٥٢

الحديث ٨٧ : إن الله ليسأل العبد يوم القيامة . . . ، وتخريجه وغريبه ... ٤٥٣

ـ من مواقف يوم القيامة : السؤال ... ٤٥٣

ـ « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسأل . . . » ... ٤٥٣

ـ ومن جملة السؤال : ما جاء في هـٰذا الحديث : « ما منعك إذا رأيتَ المنكر أن تنكره ؟ » ... ٤٥٣

ـ حق الله على العبد إذا رأىٰ منكراً ، ومراتب تغيير المنكر ... ٤٥٣

ـ الرجاء كان سبب النجاة ... ٤٥٤

ـ لا بدَّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعقوبةُ من أهمل ذٰلك الواجب ... ٤٥٤

الحديث ٨٨ : بادرني عبدي بنفسه ، حرمتُ عليه الجنة ، وتخريجه ... ٤٥٥

ـ الحديث في عقوبة قاتل نفسه ... ٤٥٥

ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ يُحمل علىٰ قتل الإنسان نفسه حقيقة كما في هـٰذا الحديث ، ويُحمل علىٰ قتل غيره من المسلمين والمعنىٰ : أن من قتل مسلماً فكأنما قتل نفسه ، علىٰ حد قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ والإنسان لا يلمز نفسه ... ٤٥٥

ـ الفرق بين من مات من معالجة جرحه غيرَ قاصد الموت ، وبين من مات من معالجة جرحه وهو يقصد الموت . فالأول لا مؤاخذة عليه ، والثاني عليه المؤاخذة ... ٤٥٦

ـ لا يفهم من قوله تعالىٰ : « بادرني عبدي بنفسه » أنه أمات نفسه قبل حلول أجله ... ٤٥٦

ـ التوفيق بين قوله تعالىٰ : « حرمتُ عليه الجنة » وقوله سبحانه في القرآن : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ... ٤٥٦

- كلام القاضي عياض في التوفيق بين الآية والحديث ٤٥٨
- كلام الحافظ في التوفيق بينهما أيضاً ٤٥٨
- تحريم تمني الموت ، ولقاءِ العدو الذي هو سببه ، وإلقاءِ النفس في التهلكة ، والوأد الجليّ ، والخفيّ (وهو : العزل) مع عدم المسوِّغ الشرعي ٤٥٨
الحديث ٨٩ : في شهادة الأعضاء علىٰ صاحبها يوم القيامة ، وتخريجه وغريبه ٤٦٠
- تعريف الدراية ، وتنبيه علىٰ خطأ شائع عند بعض الكُتَّاب وبعض المتحدثين ٤٦١
- شرح الحديث ٤٦١
الحديث ٩٠ : في رؤية الرب تبارك وتعالىٰ يوم القيامة ، وفي ذكر بعض مواقفها ، وتخريجه وغريبه ٤٦٢
- بيان أن تلك الرؤية واضحة وأنها في المحشر ، وهي غير الرؤية الخاصة بالمؤمنين في الجنة ٤٦٤
- من مشاهد يوم القيامة وكلام رب العالمين سبحانه مع ثلاثة من عبيده ٤٦٥
- فالأول والثاني من صنف الكافرين ، وكانا مكابِرين من غير تصنُّع ، فاعترفا ٤٦٥
- والثالث من صنف المنافقين ، والمنافق مخادع مغالط ٤٦٥
- فتكون عقوبته الفضيحة وكشف حاله علىٰ رؤوس الأشهاد ٤٦٥
- شهادة أعضائه عليه ، والختم علىٰ فيه ٤٦٦
الحديث ٩١ : يا رسول الله هل نرىٰ ربَّنا يوم القيامة ؟ وتخريجه وغريبه ٤٦٧

- كلام الخطابي في أن رؤية الرب في المحشر غيرُ الرؤية الخاصة بالمؤمنين في الجنة ٤٧٢
- قوله : « فإنكم ترونه كذلك » التشبيه في وضوح الرؤية وليس في اتحاد المرئيِّ معاذ الله ! ٤٧٢
- هـٰذا الحديث في وصف موقف طويل في المحشر : ٤٧٢
- فأوله : الأمر الإلـٰهي لكل طائفة بأن تتبع معبودها في الدنيا ، وبقاء أهل الإيمان ومن تظاهر بمظهرهم من المنافقين ٤٧٢
- تجلِّيه سبحانه بصورتين : فيفتتن المنافقون ، ويثبِّتُ اللهُ المؤمنين ٤٧٢
- ومما يجب الإيمان به : الصراط ، صفته ، ومرور الناس عليه ٤٧٣
- كلام القرطبي عن قناطر الصراط وأنها سبعة ٤٧٣
- الهول والفزع على الصراط ولا يتكلم أحد عليه إلا الرسل ، وكلامهم : اللهم سلِّم سلِّم ٤٧٤
- خصائصه ﷺ وأوَّليّاته في هـٰذا الموقف العصيب ٤٧٤
- وصف كلاليب النار ووظيفتها ٤٧٤
- أمره سبحانه وتعالىٰ لملائكته أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً فيخرجونهم منها ٤٧٥
- النار لا تأكل مواضع السجود ولا تمحو أثره ٤٧٥
- كيف تعرف الملائكة هـٰؤلاء بآثار السجود مع أنهم ليسوا من أهل الأعمال وما عندهم إلا قدرُ الإيمان المنجي من الخلود في النار ٤٧٥
- تعليقاً : وجوابه من وجهين : الأول : قد يكون لهـٰؤلاء بعض الأعمال التي من جملتها السجود فلا تأكل النار أثره ٤٧٥

ـ والثاني : أن المراد : الموضع الذي يسجد عليه ، وهي أعضاؤه السبعة وإن لم يسجد لله أبداً ٤٧٥

ـ ثم يؤمر بهـٰؤلاء فيلقون في نهر الحياة ، فينبتون منه كما تنبت الحِبَّة في حَميل السيل ٤٧٦

ـ ثم تأتي قصة رجل ـ ولعله من هـٰؤلاء ـ وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ٤٧٦

ـ الطموح في الخير وأعمال الآخرة والطموح في الدنيا وموقف المسلم منهما ٤٧٦

ـ من فتح له باب الدعاء فليعلم أنه قد فتح له باب الإجابة فليلحَّ وليكثرْ ٤٧٧

ـ ومما يستفاد من هـٰذا الحديث في آداب الدعاء : إظهار التضرُّر والذلِّ والانكسار لله ، وعدم اليأس والقنوط ٤٧٧

ـ عاقبة ذٰلك الرجل : دخول الجنة ، وزيادة فضل علىٰ فضل بقوله تعالىٰ : « تمنَّهْ » ٤٧٨

ـ إمهال الرجل ثلاثة أيام من أيام الدنيا ليفكِّر ويسأل ، فيسأل علىٰ مقدار عقله واستيعابه ، وتذكير الرب سبحانه العبد : اسأل من كذا وكذا ٤٧٨

ـ قول الله تعالىٰ له : « ذٰلك لك ومثله معه » ، وفي حديث أبي سعيد : « وعشرة أمثاله معه » ٤٧٨

ـ القول بتعدُّد قصةِ آخرِ من يدخل الجنة ، جمعاً بين أحاديث الباب والروايات المتعددة ، وتوجيه ذٰلك القول ٤٧٩

من أحاديث الشفاعة ٤٨٠

الحديث ٩٢ : في أدنىٰ أهل الجنة وأعلاهم منزلة ، وتخريجه وغريبه ٤٨٠

- السائل هو سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ٤٨١

- حال أدنىٰ أهل الجنة منزلة ، وإكرام الله له ، والكلام عن اختلاف ألفاظ الروايات في قدر ما يعطيه الله سبحانه لذٰلك الرجل ٤٨١

- زيادة فضل الله علىٰ ذٰلك العبد ٤٨٢

- ثم جاء الكلام عن أعلىٰ أهل الجنة منزلة ٤٨٢

- الفرق بين من يوصف إكرامه وبين من لا يوصف لعظمه ، والفرق بين خطابه تعالىٰ لكل من الرجلين : أدناهم منزلة وأعلاهم منزلة ٤٨٢

- ولا يفهم من قوله : « ولا خطر علىٰ قلب بشر » أن إكرامهم يخطر علىٰ قلب غير البشر كالملائكة مثلاً ، بل المراد عموم النفي ٤٨٢

الحديث ٩٣ : حديث الشفاعة ، تخريجه وغريبه ٤٨٤

- الكلام عن الحديث حسب تسلسل ألفاظه ومواقفه : ٤٨٧

١ - من التأدب مع ذوي الفضل والمقام الكريم الدخول عليهم بصحبة رجل مقرَّب لديهم ٤٨٨

٢ - إظهار مزية الشفيع عند المتشفَّع به ٤٨٨

٣ - من أدب الصغير مع الكبير أن لا يباشر طلبه بنفسه ، بل يوكل بطلبه من يليق بخطاب ذٰلك الكريم الكبير ٤٨٨

٤ - السبب الملجئ لطلب الناس الشفاعة هو شدة الموقف في المحشر ٤٨٩

٥ - يجتمع جميع الناس علىٰ طلب الشفاعة من صفوة خلق الله ، والذي يباشر الطلب هم المؤمنون ، وبهٰذا يجمع بين الأدلة ٤٨٩

٦ - جواب آدم وما فيه من الحقيقة والنصح حينما قال : « لست لها » ، وإرشادهم إلىٰ إبراهيم لأنه خليل الله ٤٨٩

٧ ـ مجيء الخلائق إلىٰ إبراهيم ، وقول إبراهيم لهم كما قال آدم ، وإرشادهم إلىٰ موسىٰ لأنه كليم الله ٤٩٠

٨ ـ مجيئهم إلىٰ موسىٰ ، فيقول لهم كما قال من قبله ويرشدهم إلىٰ عيسىٰ لأنه روح الله وكلمته........................ ٤٩٠

اختصار الرواية التي نشرحها لأسباب اعتذارهم ، وعدم ذكر مجيئهم إلىٰ نوح عليه الصلاة والسلام........................ ٤٩٠

٩ ـ مجيئهم إلىٰ عيسىٰ ، واعتذاره دون ذكر سبب وعذر ، بل يكتفي بقوله : « لست لها ، ولٰكن عليكم بمحمدٍ ﷺ » ٤٩٠

١٠ ـ كلُّ نبي يأتيه الناس ، يمشي معهم إلى النبي الذي يرشدهم إليه ، ودليل ذٰلك من حديث أنس في الشفاعة ، وحديث أُبي بن كعب في الأحرف السبعة ٤٩١

١١ ـ جوابه ﷺ للأنبياء والخلائق بقوله : « أنا لها ، فأنطلق » ٤٩١

المقارنة بين قول الأنبياء : لست لها ، نفسي نفسي ، وأنا وراء وراء ، وقوله صلوات الله وسلاماته عليه : أنا لها ، وانطلاقه بسرعة............ ٤٩٢

١٢ ـ سؤالان وجوابهما : فالسؤال الأول : إذا كنا نعلم هٰذا في حق نبينا ﷺ فلأَن يعلمه إخوانه الأنبياء والمرسلون من باب أولىٰ ، فلمَ لم يرشدوا الخلائق إليه من أول الأمر ؟ والسؤال الثاني : إذا كنا نحن نعلم ذٰلك فلمَ لم ننطلق إليه من أول الأمر ؟ ٤٩٢

١٣ ـ قيامه ﷺ مقام الحمد لله والثناء عليه بمحامد يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل ، وسجوده ﷺ سجوداً طويلاً ، جاء في بعض الروايات : « قدر جمعة » ، وهٰذا هو المقام المحمود.................. ٤٩٤

١٤ ـ الكرامة الإلٰهية من الله عز وجل لحبيبه ومصطفاه ﷺ.......... ٤٩٥

- ثم تأتي الشفاعة المحمدية الخاصة بأمته ٤٩٥

- أعظم مظاهر الجود الإلـٰهي في حق المفرطين ، وعظم أثر « لا إلـٰه إلا الله » ٤٩٦

الحديث ٩٤ : أَخرِجوا من النار من ذكرني يوماً . . . ، وتخريجه ٤٩٨

- هـٰذا الحديث من مظاهر رحمة الله الواسعة المدَّخرة لذٰلك اليوم العصيب ٤٩٨

- الأمر الإلـٰهي بأن يُخرج من النار من ذكر الله تعالىٰ مرة ، أو خافه في موقف ٤٩٩

- أثر الخوف من الله وذِكْر جانب من حديث الغار : قصةِ الرجل مع ابنة عمه ، وكيف فرج الله عنهم بسبب ذٰلك الموقف ٤٩٩

- تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ٤٩٩

الحديث ٩٥ : إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ . . . ، تخريجه وغريبه.......... ٥٠١

- هـٰذا الحديث في وصف موقف من مواقف يوم القيامة وهو الشفاعة ... ٥٠١

- الشفاعة يوم القيامة ليست واحدة ، بل هي شفاعات لعدة أصناف من كرام خلق الله : الملائكة ، النبيين ، المؤمنين ٥٠٢

- ومن يُشْفَع فيه علىٰ مراتب ، فالتقصير ليس مرتبة واحدة ٥٠٢

- وفي هـٰذا الحديث جاء وصف جماعة استحقوا الشفاعة وهم : من كان في قلبهم مثقال حبة خردل من إيمان ٥٠٢

- صفتهم بعد خروجهم من النار ، وإلقاؤهم في نهر الحياة.......... ٥٠٢

- موضع نهر الحياة ، وخصيصته ، وصفة ما ينبت في حميل السيل ٥٠٢

- التوقُّف والتأنِّي في القول الشائع : اجتهد ﷺ يوم تأبير النخل فأخطأ ٥٠٣

الحديث ٩٦ : خلق الله جنة عدن بيده . . . ، تخريجه وغريبه ٥٠٥
ـ كرامة الجنة ومنزلتها عند الله تعالىٰ حيث تولّىٰ خلقها بيده سبحانه ... ٥٠٥
ـ الجنة مخلوقة عند أهل السنة خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه : سيخلقها ٥٠٥
ـ تعبير الجنة بلسان المقال عن فرحها وبهجتها بمن سيدخلها ٥٠٦
ـ معنى الفلاح ، وأقسامه عند الراغب الأصفهاني ٥٠٦
ـ والجنة من مظاهر كرمه سبحانه علىٰ عباده المؤمنين ، ولذٰلك لا يستحقُّ الجوار فيها بخيل ٥٠٦
ـ بعض الأحاديث الواردة في عدم دخول الجنة البخيل ، وفي ذم البخل وأهله ٥٠٦
الحديث ٩٧ : أن رجلاً من أهل البادية استأذن ربه في الزرع . . . ، تخريجه وغريبه ٥٠٨
ـ الحديث يبين لنا أمرين : ٥٠٨
ـ الأول : أن بعض الطبائع لا تفارق الإنسان وهو في الجنة ، ما دامت لا تتعارض مع عالم الجنة ٥٠٨
ـ وأن حبَّ العمل ليس من الأمور المذمومة التي سيطهِّر الله منها الإنسان قبل إدخاله الجنة ٥٠٩
ـ والثاني : في قوله : « ألستَ فيما شئت » فالعبد لا يتخلَّف عن مشيئته شيء وهو في الجنة ، وكل ذٰلك بإذن الله تعالىٰ وإكرامه ٥٠٩
ـ ومما يشتهيه أهل الجنة : أن يرزقهم الله ولداً ، والدليل علىٰ ذٰلك ٥٠٩
ـ وصف بذر الرجل ، ونباته ، وحصاده وكون المحصول أمثال الجبال ... ٥١٠
ـ المؤمن وهو في الدنيا مدعوٌّ إلىٰ غِراس الجنة ، وهو أعلىٰ من ذٰلك الغراس ، وذكر حديثين في ذٰلك ٥١٠

الحديث ٩٨ : أعددت لعبادي الصالحين . . . ، تخريجه وغريبه ٥١٢
- معنى الإعداد : التهيئة ، ويستفاد من ذلك أن الجنة - والنار - مخلوقتان ، وفائدة هذا الإخبار : الترغيب والتشويق ٥١٢
- المراد من قوله : « ولا خطر على قلب بشر » ٥١٣
الحديث ٩٩ : إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ . . . ، وتخريجه ٥١٤
- يستأنس من روايات الحديث أن النظر لوجه الله الكريم بعد دخول الجنة بفترة يسيرة ٥١٤
- الرؤية لأهل الجنة ثابتة ، ولكنها متفاوتة بحسب مراتب أهل الجنة ومقاماتهم ٥١٤
- والرؤية هي الزيادة في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ ٥١٥
- وانظر تفسير ابن جرير وتعميمه في تفسير « الزيادة » ٥١٥
- تكرار الرؤية لأهل الجنة ٥١٥
- الحجاب في قوله : « فيكشف الحجاب » ، وهذا الحجاب يكشف عن أعين الناظرين ، وإلا فالله سبحانه ليس بمحجوب ٥١٥
- معنى « السُّبُحات » و« الحجاب » عند الإمام النووي رحمه الله ٥١٦
الحديث ١٠٠ : إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة . . ، تخريجه وغريبه ٥١٧
- الحديث في الإكرام الإلهي الذي لا يتناهى لعباده من أهل الجنة ٥١٧
- سؤاله سبحانه بقوله : « هل رضيتم » والحال أنه يعلم رضاهم ، لكنه يسألهم ليكرمهم بلذة المناجاة معه سبحانه ٥١٨
- كلام العلامة علي القاري ، ثم نقله عن الطيبي ، في شرح : « أُحِلُّ عليكم رضواني . . . » ٥١٨

- رضا الله عن العبد ، وما يسبقه من رضاه عن فعله وحبّه له ٥١٨
- فعل « رضي » يتعدىٰ بنفسه وبالباء ، ويتعدىٰ بـ « علىٰ » ٥١٩
- محبة الله عز وجل لعبده ، سابقة لرضاه عنه ٥١٩
- ذكر أوصاف من أحبهم الله فرضي عنهم ، وما أعد لهم ٥١٩
- الفرق بين الخشية والخوف ، ومرتبة الخشية أشرف ٥٢٠
- رضا العبد عن ربه ، يتقدم رضا الرب تبارك وتعالىٰ عنه ٥٢٠
- كلام الإمام الفخر الرازي في أن الثواب له ركنان : الجنات والأزواج ، والرضوان ، ونقله كلام الحكماء بأن الجنات إشارة إلى الجنة الجسمانية ، والرضوان إشارة إلى الجنة الروحانية ٥٢٠
- كلام الإمام ابن أبي جمرة والحافظ ابن حجر في الرضوان ٥٢١
- قوله : « أحل عليكم رضواني » هو تجلٍّ خاص بالرضا ، وقد تقدمه تجلٍّ عام دخلوا بسببه الجنة ٥٢١
الفهارس ٥٢٣
فهرس أطراف الأحاديث القدسية والنبوية ٥٢٥
فهرس الآثار ٥٣٩
فهرس المصادر ٥٤١
فهرس الموضوعات ٥٥٣

❋ ❋ ❋

صدر للعلامة محمد عوامة

١ - أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الثامنة .

٢ - أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة السادسة .

٣ - الأنساب ، للسمعاني ، من أول حرف الشين إلىٰ آخر حرف العين . (تحقيق) .

٤ - التحذيرُ من التَّوَارِدِ علىٰ قولٍ دون الرُّجوعِ إلىٰ مصادِرِه ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٥ - تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ، لجلال الدين السيوطي ، بحاشية العلامة ابن العجمي ، مع شرحه ومقابلته بعشر نسخ خطية ، الطبعة الأولىٰ .

٦ - تقريب التهذيب ، للحافظ ابن حجر ، بحاشيتي العلامة عبد الله بن سالم البصري وتلميذه الميرغني ، مقابلة بأصول مؤلفيها الثلاثة ، مع زيادات على الإخراج السابق في التصحيح والتعليق ، الطبعة الثامنة والثانية من الإخراج الجديد .

٧ - تقريب التهذيب ، للحافظ ابن حجر ، مع مقابلته بأصل مؤلفه ودراسة وافية عنه ، الطبعة السادسة .

٨ - ثبت العلامة أحمد بن أحمد ابن العجمي رحمه الله ، مع ضبطه ومقابلته بأصله ، الطبعة الأولىٰ .

٩ ـ حجية أفعال رسول الله ﷺ أصولياً وحديثياً ، وفيه : عصمته من الخطإ والخطيئة ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الثانية .

١٠ ـ الحديث المرسل وتحرير أشهرِ المذاهبِ فيه قبولاً وَرَدّاً ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١١ ـ حذف طرف من الحديثِ الواحدِ اختصاراً له أو إعلالاً ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٢ ـ حكمُ العملِ بالحديث الضعيف بينَ النظرية والتطبيق والدعوىٰ ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٣ ـ خُطُواتٌ منهجيةٌ في إثباتِ عدالةِ الصحابةِ ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٤ ـ دراسة حديثيةٌ فقهيةٌ لحديث ابن عباس في الجمع بين الصلاتين من غير عذر ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٥ ـ دراسة حديثية مقارنة لنصب الراية ، وفتح القدير ، ومنية الألمعي ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٦ ـ روايةُ الحديثِ الشريفِ بالمعنىٰ بينَ الحكمِ النظريِّ والواقع العمليِّ ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

١٧ ـ السنن ، للإمام أبي داود السجستاني ، حققه وضبطه وعلَّق عليه وقابله بأصل الحافظ ابن حجر وسبعة أصول أخرى ، الطبعة الثالثة .

١٨ ـ الشمائل المحمدية ، للإمام الترمذي ، بشرح الباجوري ، الطبعة الخامسة .

١٩ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ ، للسخاوي ،

مقابلاً بأصل مؤلفه وأربعة أصول أخرىٰ ، فجاء أكمل نصٍّ للكتاب ، الطبعة الثالثة .

٢٠ ـ الكاشف ، للذهبي ، مع حاشية سبط ابن العجمي ، مع مقدمات وافية ، ودراسة نقدية لكثير من تراجمه ، وساعده في مقابلتهما بأصل مؤلفيهما وبتخريج نصوصهما الدكتور أحمد محمد نمر الخطيب ، الطبعة الثانية .

٢١ ـ كلمةٌ في التَّوقي من التَّحريف ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٢٢ ـ اللِّقاء بين الراويَيْنِ قرينةٌ على الاتصالِ أو شرطٌ له ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٢٣ ـ لَمَحاتٌ في بيانِ مذهبِ ابنِ حِبَّانَ في معرفةِ الثقاتِ ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٢٤ ـ مجالس في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي ، مقابلة بأصل مؤلفها ، مع تخريج نصوصها والتعليق عليها ، الطبعة الثانية .

٢٥ ـ المختار من فرائد النقول والأخبار ، ثلاثة أقسام في مجلد واحد ، اختيار وجمع محمد عوامة ، الطبعة الثالثة .

٢٦ ـ المدخل إلىٰ علم السنن ، للبيهقي ، (النص الكامل) ، اعتنىٰ به وخرَّج نقوله محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٢٧ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، للباغَنْدي ، تخريج وشرح لأحاديثه ، وتكملة لمروياته ، الطبعة الرابعة .

٢٨ ـ المصنف ، للإمام الحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة ، مع تخريج أحاديثه وتقويم نصوصه ومقابلته بعدَّة نسخ خطية ، الطبعة الأولىٰ .

٢٩ ـ معالم إرشادية في صناعة طالب العلم ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الثانية .

٣٠ ـ من صحاح الأحاديث القدسية ، مئة حديث قدسي مع شرحها ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة السابعة .

٣١ ـ من مُصطلح ابن خُزَيمة في إعلاله الحديثَ في « صحيحه » ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٣٢ ـ من منهج الإمام مسلم في عرض الحديث المعلَّل في « صحيحه » ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٣٣ ـ نصب الراية ، للإمام الزيلعي ، مع مقابلته بمخطوطتين ، وتصحيح لأكثر من ألف خطأ مطبعي فيه .

٣٤ ـ هل في حديثِ « خَلَقَ الله التربةَ يوم السبت » إشكال ؟! ، دراسةُ الأقوالِ فيه وتصحيحه سنداً ومتناً ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

٣٥ ـ وجهةُ نظرٍ في فهمِ حديثِ عَرْضِ أبي سفيانَ الزواجَ بأمِّ حبيبةَ على النَّبيِّ ﷺ ، بقلم محمد عوامة ، الطبعة الأولىٰ .

❋ ❋ ❋